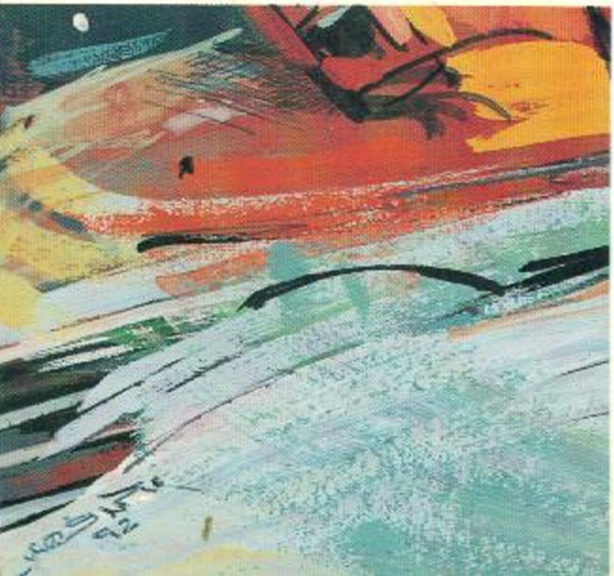
مدارات الشرق

الأشرعة

1



نبيل سليمان

HAMDAN.B
31/10/08

ـ مدارات الشرق ـ الأشرعة

ـ تأليف : نبيل سليمان

ـ الطبعة الثانية 1994

ـ الناشر: دار الحوار للنشر والتوزيع

اللاذقية ـ ص.ب : 1018 ـ هاتف : 222339

تلكس : 451086 Booth - Sy ـ سوريا .

مدارات الشرق :

1 ـ الأشرعة .

2 ـ بنات نعش .

3 ـ التيجان .

4 ـ الشقائق .

نبيل سليمان

مدارات الشرق

الأشرعة

لسميعة دومًا ...

وَالأشرعة قلبيْنا :

مائسة ، إيناس ، كِندة .

1

قريباً من السماء بدا قاسيون قلقاً عليها . كانت تحاول أن تتمطّى ، لهفى إلى الشمس التي أشرقت لتوها ، فأضاءت الجبل وحده ، فيما لا زالت غلالة العتمة الشفيفة تتراقص فوق سفوح الأدغال والعمران ، وتوشك أن تتناهى في الأمداء القصية .

بين يدي قاسيون انفلش الحقل الذي قيل إن قابيل قد قتل فيه هابيل . وبين ألوان الخريف والحرب والمقام التركي ـ أو ما كان سوى ذلك أيضاً قبل هذا الصباح ـ تلامحت السراي والقصور ، المحطات والكنائس ، ولمعت صفحة فروع النهر ، كما تكوكأت الأكواخ والبيوت والأسواق والزواريب ، وتناثرت ـ أعلى بقليل أو كثير ـ المآذن التي لازال يترجع صداها الراجف في سمع قاسيون : . . . واتل عليهما نبأ آدم بالحق ، إذ قرّبا قرباناً ، فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر . قال لأقتلنك ، قال : إنما يتقبل الله من المتقين . صدق الله العظيم .

في واحدة من وكنات الجبل المصابر العاري تململ الحجر الذي هشم به الشقيق رأس شقيقه . ودّ الدم لو يقدر أن يسيح ، وأنّت الشام من أقصاها الى أقصاها ، تلاقي شمسها على وهن .

من البحر الى النهر هي ، من هذا الشروق إلى أيّ مغيب ، شامة للدنيا التي ما فتئت تنزع إليها ، يملؤها الصوت المؤمن أو الكافر ، الزارع أو المتاجر ، العابر أو المترحل أو المقيم ، المخرب أو المعمر ، المستبد أو المحاور ، العاشق أو النائح ، والزمن يحفر بصمة ويمضي ، يعلن اليوم ، أو أمس ، رحيل من خلفوها خرابة ، تفوح بروائح الجثث التي قضت جائعة أو حبيسة ، أو روائح الذين ملأوا الآفاق بمزق أعضائهم ووسخهم وعنائهم وبوحهم .

مثل من سبق رحل الأتراك إذن ، تلاحقهم أصداء مبهمة ، فيها ما كانت تتوارثه الحنايا ، وفيها ما يرطن ، فمنذ عهد سحيق لم تعرف الشام نصراً على نفسها أو على

غيرها ، كما لم يكن فيها يوماً للانكليزية أو الفرنسية أو الالمانية أو الروسية أو الايطالية مثل هذا الحضور .

ومثل الآلاف المؤلفة سواهم ، جعلت الشمس عساكر القشلة الحميدية ينهضون مبكرين ، على الرغم من أنه ليس لهم ما يأتونه سوى أن يفطروا ، ثم يفترشوا العشب الجاف صامتين ، ينتظرون - شأنهم منذ أمس أو أول امس - من يناديهم .

خلفهم تناثرت مراكز الحراسة ، وقبالتهم جثمت بعتوّ الاستراحة . إنهم يحرسون بانتظام حقاً ، ولكن بكسل ، بعد أن تيقن الجميع - هكذا - أن كل شيء في المدينة هادىء وآمن ، وليس ثمة ما يستدعي الحذر ولا الخوف . وعلى الرغم من أنهم وسواهم قد اغتاظوا في البداية من هذه الحراسة الهيّنة ، وهم الذين ألفوا الحرب ، الا أنهم سرعان ما استمرأوا الغفلة والراحة والأمان ، واسترخوا ، يجترّون ما اكتنزوه من ماض قريب أو بعيد ، يرسمون ما يحلو لأيامهم التالية . وسرعان ما غدت الإجازة الموعودة مفتاح الأحلام والكلام ، فراحوا يلحّون في طلبها ، وقد زادت جرأتهم على مخاطبة الضباط ، منذ استقر المقام بهم في هذه القشلة .

لم يفتأ الضباط يعدون ويجزمون ويلونون الوعد . ولم ينس بعضهم ما يفترض أن يتوفروا عليه من غلظة ، مثلما كان قبل دخول الشام . ولعل أولاء العساكر الخمسة الذين لا يكادون يفترقون ، قبل القشلة وفيها ، كانوا الأكثر هياجاً وإلحافاً في طلب الاجازة ، ثم صار الصمت يحاصرهم ، والفراغ ينثرهم ، فوق العشب أو فوق الأسرّة ، أو في المرجة وأطرافها من القشلة حتى دكان سليم افندي ، في اقصى الميدان .

كانوا ما تبقى من مجموعة من الشبان والكهول الذين انتزعتهم الحرب من بيوتهم المتناثرة في أرجاء البلاد ، وقذفتهم ، بعيداً ، إلى آخر ما عمّر الله ، كما رددوا دوماً .

في ذلك الجيش الميمّم شمالاً التقوا ، حيث كانت أفواج الفارين والأسرى من جيوش السلطان تتقاطر ، كذلك المتطوعين . لم يكن أحدهم أوفر سعادة ولا أكثر اعتزازاً ، فما همّ الجميع أنهم قد نجوا من الجحيم التركي ، وربما من جحيم الحرب ، سواء على الجبهة أم في عقر الدار .

بعضهم كان قادراً على أن يفرّ إلى بيته مثلما فعل كثيرون . بعضهم كان قادراً على أن يتدبر لقمته وينجو بجلده كما فعل كثيرون أيضاً ، رغم شبح الموت المقيم . لكن أقدامهم جميعا سارت مع الجيش الميمّم شمالا . وفي ليالي الصحراء ونهاراتها عرف

واحدهم الآخر . كما جعل القتال كلاً منهم بالغ الضرورة للآخر ، خاصةً أنهم باتوا يتناقصون ، شوطاً بعد شوط .

كانت الانتصارات المتتالية تسكرهم ، تقرّب الدار وتؤكد الشماته بالأتراك . إلا أن مصرع احدهم كان ينغّص الفرحة ، يذكر بالموت المنسيّ للتوّ ، يحيل ما أمسكوه بأصابعهم الى رمل يملص منها، ويرتد سافعاً رموش العين . كذلك كان فرار أحدهم ، خاصة حين راح الجميع ، ضباطاً وجنوداً ، يتحدثون عن خيانة الانكليز واقتسامهم البلاد مع الفرنسيين واليهود . وسرعان ما كانوا أيضاً ينسون .

حين دخلوا الشام كانوا قد غدوا خمسة فقط . ولم يكن بينهم من يعرفها سوى راغب الناصح الذي اقتيد من العال الى القشلة ، وقضى فيها شهوراً ، قبل أن يرسل الى الجنوب ، ويقع في الأسر .

كان راغب يتفاخر على الآخرين بأن الانكليز لم يأسروه ، بل البدو الذين لا بد أنهم يمتّون بنسب الى بدو الجولان ، فالأمر كله بالأحرى لم يكن أسراً .

أكبرهم سناً كان ياسين الحلو الذي سيق من الزنبقلي إلى جسر الشغور ، ومن الجسر الى ادلب ، حيث طاف به القطار أياماً قبل أن يرميه في الشمال البعيد ، ليقضي شهوراً ، ثم عاد القطار فرماه ـ إثر إجازته الوحيدة ـ في الجنوب البعيد ، ليقع في الأسر بعد أيام .

أما أبو عاطف ـ كما يحب اسماعيل معلاّ أن ينادى ـ فقد سيق من كفر لالا الى مصياف ، ومن مصياف الى حماة ، ومن حماة الى حلب ، ومن حلب الى فلسطين ، وهو لا يدري إنْ كان القطار الذي قذفه في فلسطين قد عبر بالشام أم لا ، فقد كان نائماً أو مضطجعاً طوال الوقت ، لا ينهض الا الى الطعام ، وهو يؤكد أنه قد قضى ليلتين ـ وربما ثلاثاً ـ دون أن يتبول ، حتى اذا نزل من القطار في مكان ما من فلسطين ، لوّح مودعاً ، وضاع شهوراً قبل أن يلتقطه الجيش الميمّم الى الشمال .

فياض العقدة وحده من بينهم ما كان أسيراً ولا فرارياً . هو يؤكد أنه المتطوع الوحيد بينهم ، ولعل ذلك ما جعلهم يؤثرونه، فضلاً عن أنه كان أصغرهم سناً وقامة ، ولكن هل كان فياض متطوعاً حقاً ، أم فرارياً من نوع آخر ؟

كان يبدو كأنما عاش في هذه المجموعة منذ أيامها الأولى على الرغم من حداثة عهده بها . وكان أقرب من فيها إليه عزيز اللباد الذي سيق من قبية الى صافيتا ، ومن

صافيتا الى طرابلس ، ففرّ أول مرة ، غير أنهم قبضوا عليه قبل أن يغادرها ، وسيق في اليوم نفسه الى بيروت ، حيث رتب له العم حاتم أبو راسين فراره الثاني ، فلم يهنأ به ، اذ سرعان ما قبضوا عليه وهو على حافة المدينة ، وسيق في اليوم نفسه الى قناة السويس كما يدّعي ، حيث فرّ للمرة الثالثة ، وقطع الصحراء ماشياً حتى وجد نفسه في أحد مخيمات الجيش الميمّم في الشمال . وعزيز اللباد يروي من تفاصيل رحلته هذه ما كان يجعل الآخرين يحارون في تصديقه ، سوى فياض ، الذي وجد في ذلك سنداً ضرورياً لما يرويه هو أيضاً .

★ ★ ★

من العشب الذي افترشوه كانت برودة تشرين الناعشة تنبعث ، يضاعفها الهواء الذي يعبث بالأوراق المتساقطة من الأشجار العالية التي تظلّل الاستراحة والمهاجع . كانت السماء ملأى بالغيوم التي جعلت ياسين الحلو يؤكد ان الأمطار قد هطلت الليلة في الزنبقلي .

كانت سجائر اسماعيل معلا قد انتهت في الليل ، فراح ياسين يناوله سيجارة بعد أخرى ، منذ الصباح ، كلما أشعل لنفسه واحدة ، حتى انتهت سجائره هو أيضاً ، ولم يكن بين الآخرين من يدخّن . لم يكن أبو عاطف ليجرؤ على أن يغادر القشلة وحده ، خشية أن ينادىٰ بالاجازة في أية لحظة . بيد أن الانتظار الطويل ، والصمت ، وانتهاء سجائر ياسين ، كل ذلك جعله يشب ساخطاً ، مندفعاً نحو الباب المشرع الكبير ، موصياً الآخرين بألّا يبرحوا مكانهم ، حتى إنْ تسلّموا اجازاتهم ، ريثما يعود . وما إنْ قطع خطوات حتى التفت وراءه مخاطباً راغب الناصح :

ـ ما قولك بمشوار ؟

قهقه راغب وأشاح عنه نحو الآخرين :

ـ خائف ؟

ولكز عزيزاً برأس حذائه :

ـ قم أنت . الولد يضيع وحده .

نهض عزيز وأبو عاطف يصيح :

ـ بربر على كيفك يا راغب .

ونهض فياض يتمطى مديراً عينيه يمنة ويسرة ، من قرميد البناء الضخم الذي كان السلطان ينوي أن يجعله جامعة فصار قشلة، الى المرج الذي حال لونه على ضفةالنهر ، ولحق باسماعيل وعزيز قرب الباب .

اقترح عزيز أن يسلكوا طريق مستشفى الغرباء ، فرفض أبو عاطف ، مؤثراً الطريق النازل الى الجسر ، مدلاً بمعرفته من الشام في أيام ما لم يعرفه راغب الناصح في شهور ، فضحك فياض مناكداً :

ـ خذنا الى دكان سليم افندي . الوقت مبكر .

ـ والاجازة ؟

قال ابو عاطف .

ـ خائف عليها ؟

تساءل عزيز معابثاً ، وقال فياض :

ـ قد لا تراها اليوم كله .

ـ الله يقطع لسانك . امش اذن .

كان راغب قد قادهم جميعاً في اليوم التالي لنزولهم في القشلة الى الميدان ، حيث ذلك الدكان الذي يحفظ الطريق اليه عزيز اللباد خاصة ، ويحفظه الآخرون من عزيز ومن حمادي الحسون . ولعل فرار حمادي وهم في أواسط فلسطين ، هو ما جعلهم يتذكرون مراراً ، قبل ان يدخلوا الشام ، دكان سليم افندي . كان عددهم قد تناقص كثيراً ، على الرغم من أن الشام كانت تقترب منهم ، وكان يدور بهم ما يسمعون عن سايكس وبيكو وبلفور وتروتسكي الذي فضح خيانة الانكليز والفرنسيين لهم . كانوا لسببٍ ما يزدادون التحاماً ، ينسون من فارقهم منذ شهر أو ثلاثة ، ينتظرون ملهوفين أن يأتي اليهم واحد أو اثنان مثل فياض العقدة ، فاذا بحمادي الحسون يفرّ ، وكان حمادي ، مثل عزيز ، قد ذكر مراراً العم حاتم أبو راسين ، والقطار ، ودكان سليم افندي ، فقد أوصى العم حاتم كلّا منهما ، وهويرتب له فراره ، باللجوء الى ذلك الدكان إنْ ضاقت به الدنيا في الشام . ولعل حمادي إنْ نجا ، كما باتوا متفقين بعد أنْ نزلوا في القشلة ، أن يكون قد قصد ذلك الدكان ، والتقى بسليم افندي ، ولا ريب أن سليم افندي قد أعانه على التخفّي ، وعلى الوصول الى اهله ، على الرغم من انهم في آخر الدنيا ، على البحر ، أو في الجبال المطلة على البحر ، كما كان يحدث في هدأة الليالي الصحراوية ، وعيناه تلمعان بالدمع .

كانت الشام لا تزال سكرى حين قادهم راغب الناصح الى الدكان ، ولعل كلاً منهم كان يود أن يؤكد لنفسه أن المدينة تخصّة ، فهو يعرف منها هذا الدكان . ويذكر هذه الإشارات التي يعددها عزيز اللباد ، أو تلك التي كان يعددها حمادي الحسون . كان راغب يتقدمهم متباهياً ، وكان ياسين واسماعيل وفياض يماحكونه فيما يحفظون من العم حاتم ، وعزيز حائر ، صامت ، فكل شيء يبدو حقيقياً : العم حاتم ، حمادي الحسون ، وسليم افندي الذي يرحب بهم ، وذلك الشاب الذي أفسح لهم معلناً باعتزاز أنه عمر التكلي ، وأن له شقيقاً اسمه هولو التكلي ، كان يعمل مع العم حاتم على القطار ، فيخرج عزيز من صمته ، ينفلش ويفوش كما يفعل الآن وهو يتقدم اسماعيل وفياض ، واسماعيل وفياض يشاركانه لغطه وثقته ، حتى يتسمّر أمام الدكان ، وعمر التكلي يصيح :

ـ اذكر الذيب وحضر القضيب . .

ويلكز خاصرة شاب شاب ملتح يجلس بجواره في صدر الدكان .

نهض الشاب مرحباً وعمر يردف بصوت أعلى :

ـ هذا هولو ، أخي . .

أقبل عزيز يدقق في المحيّا الملتحي ، يتقرّى فيه ملامح ضائعة للعم حاتم ، فتزدحم عيناه بوجه عمر التكلي ، ووجه سليم افندي ، وتدور العينان في انحاء الدكان، ولسانه يسأل ، فيرتبك هولو وتتعثر شفتاه :

ـ اختفى من فترة .

أرخت كلماته بالصمت على الجميع . وراحت وقفة اسماعيل وفياض تتقلقل ، فيما فطن عزيز الى غياب سليم افندي ، فأقبل يتملى من وجهي الشقيقين اللذين يدعوان الى الشاي ، لكن صوت سليم افندي جاء من جهة الجامع :

ـ أما تزال هنا يا عمر ؟ ماذا يا هولو ؟ متى ستذهبان ؟ ظننت أنكما صرتما في الحرزة .

التفت عزيز مجفلاً فاذا بكهل يصلح طربوشة في الدكان المقابل وينادي :

ـ عينك يا عمر على الدكان حتى أرى بنت الكلب ماذا تريد . .

تراجع اسماعيل وفياض ، وتحركت قدما عزيز تسبقهما ، ولسانه يودع ، وشفتاه تبتسمان وتشكران هولو على إلحاحه بزيارة أخرى ، فيما كان اسماعيل وفياض يتنحيان ويبادران سليم افندي بالتحية ، ثم يهرعان ليلحقا بعزيز .

في عودتهم تباطأت خطاهم ، وراحت أعناقهم تتلفت صامتة بين الوجوه والدكاكين ، تؤخذ بغمر الألوان والأشكال والأصوات والأشياء ، حتى ظهر ذاك المقهى قبالة المسجد المزين بالكتابة الكوفية ، فتسمّرت عليه عيونهم وآذانهم . كان النهر ينسلّ قريباً ، يخترق المقهى فيما يبدو ، أو أن المقهى قد جثم فوق النهر ، ثمة ، بين شجيرات اللبلاب والصفصاف والحور الباسق .

من بعيد كان فياض يمطّ عنقه كي يدقق في الشرفة البلورية داخل المقهى الفارغ الا من نادلين تزنّرا بالمناشف ، وأركز أصغرهما خلف اذنه باقة من البراعم الصفراء . كانت النافورة تدفع الماء عالياً ، وسط الحوض الرخامي ، والكراسي تتحلق حوله ، وفي ركن أعلى وأبعد تصطف الأراكيل والنرابيش الحمراء ، والأقداح الخزفية .

خلف فياض وقف عزيز وأبو عاطف يدققان في الجمع الذي احتشد بين المقهى والمسجد ، يتوسطه شاب يرتدي مثل المعطف العسكري الذي يرتديه الضباط ، سوى أن لونه بدا تحت أشعة الشمس حائلاً . كان الشاب يجلس مصالباً ساقيه على منصّة صغيرة ، يرفع صوته أعلى فأعلى مبالغاً في التنغيم . وخيل لعزيز أن شاربي الشاب مثبتان بالشمع . وتراءى لاسماعيل أنه سمع بعض ما يقول الشاب منذ يوم أو يومين ، فأسرّ لعزيز وفياض بذلك . والتهبت فجأة أكف الناس ، وعلت أصوات مدوية تحيي الاستقلال والحرية ، واندفع فياض يهتف ويصفق ، ولحق به عزيز وأبو عاطف ، ثم اطبق الصمت فجأة ، وعاد الشاب يحكي على مهل ، بصوت خفيض ، وكانت ثمة بعض الرؤوس تتمايل مأخوذة ، وسأل عزيز كهلاً الى جواره عمن يكون هذا الشاب ، فقال الكهل :

ـ الا تعرفه ؟ أبو مدحت الحكواتي ، لكنه اليوم بكّر ونقل المقهى الى هنا .

وكتم ضحكته وهو يتفحص عزيزاً ورفيقيه ، ثم اقترب هامساً :

ـ قل لي يا ابن أخي : غرباء ؟ لم يعد بيننا غريب والحمد لله . هو يحكي لنا عنكم . الفضل لله ولكم . ليس أغلى من الحرية ، ولا أحلى .

والتهبت الأكف ثانية فيما أخذ الشاب ينزل عن المنصة مدارياً ذيل معطفه وطرفي سرواله المنفوخين ، وأخذ الجمع يتخلخل ، ومن المئذنة انطلق أذان الغداء ، فدفع ابو عاطف فياضاً أمامه :

ـ ضاعت الاجازة يا عكاريت . . .

واندفعوا الى المرجة القريبة ، ثم بارحوها صعداً حذاء النهر ، وكانت رائحة الشواء تعبق في الفسحة القريبة من المستشفى ، فتأخر فياض ملوياً عنقه ، مغالباً لعابه ، فيما كان اسماعيل وعزيز يبتعدان . ولما تنبه ، صاح لاعناً اللحم وآكليه ، واندفع يجري ، مقسماً أنّ الاجازة قد وصلت ، فأخذ اسماعيل وعزيز يجريان .

كان راغب وياسين واقفين قريباً من الباب ، وما إنْ ظهر الآخرون يعدون حتى لوّحا لهم . وكانت ثمة ورقة صغيرة تتلاعب في أصابع ياسين فقط ، وقد أجفل ذلك فياضاً ، فأقبل على راغب :

ـ ورقتك ؟

اندفع عزيز واسماعيل في أحضان راغب وياسين ، وفياض يدقق فيما تراءى له خلف ضحكة راغب وأصابعه الفارغة ، حتى اذا تيقن أن ثمة ما يسوء صاح :

ـ ما بك ياراغب ؟ ماذا يا ياسين ؟

ألفتهم صيحته الى راغب الذي لم يعد قادراً على المكابرة ، فتقلصت وجنتاه ، وارتجفت ذقنه ، وجاء صوت ياسين خافتاً وحزيناً :

ـ ليس لراغب اجازة !

اختلطت أصواتهم منكرة ، وتدافعت أيمانهم :

ـ راغب أولاً .

فيما صوت راغب يجهد ليطغي على أصواتهم ، يؤكد أن ليس في الأمر أي سوء ، مستحثاً اياهم على السفر ، لكن اسماعيل تربع على العشب معلناً :

ـ ها أنا مزروع هنا حتى تأتي اجازتك . اذهبوا وقولوا لهم ذلك .

ومد ذراعه نحو استراحة الضباط .

اندفع عزيز نحو الاستراحة ، فاعترضه راغب مخاطباً الجميع :

ـ أنا طلبت تأجيلها . استرحتم ؟ مجانين . . والله العظيم مجانين . .

فغر أبو عاطف فاه ، وتقدم عزيز وفياض من راغب الذي راح يعابث شاربيه :

ـ والله العظيم انا طلبت . .

ـ كيف يا راغب ؟ كنت أكثرنا لهفة !

سأل عزيز ، وأردف فياض :

ـ هل تخبىء عنا ؟

أسرع راغب :

ـ حاشا لله . . نحن اخوة ولا سرّ بيننا . ولكن اسمعوا . أستحلفكم بالغالي عليكم أن يبقى الأمر سراً . أنا موعود بمكافأة . هل نسيتم ؟ منذ متى قلت لكم ذلك ؟ سوف يرسلونني الى القرية قريباً . يوم ، يومان ، شهر بكامله ، ليس مهماً . المهم أني سأذهب الى العال ومعي مخفر . هل تسمعون ؟ سوف يكون في العال مخفر وسأكون رئيسه . ومنذ أكدوا لي أقسمت أن لا أدخلها الا ومعي المخفر ؟ هل استرحتم الآن ؟ هل يرغب أحدكم أن يكون معي ؟ هيا الآن فالاجازة تنقص . وعندما تعودون ستتكلم في الأمر . ولكن . . ولكن قد لا تجدونني هنا . المهم ، إنْ لم أكن هنا فسأكون رئيس مخفر في العال ، وأنا بانتظاركم .

★ ★ ★

2

في حمص بدأوا يفترقون .

فياض العقدة كان أول من غادرهم ينشد الدرب المشرّقة إلى المشرقة . مراراً خشي أن تكون معالم الدرب قد ضاعت منه ، وهو ينتقل من مكان الى مكان ، منذ اندفع الى الحرب . الدرب والقرية وحمص نفسها ، كانت جميعاً تنأى عنه يوماً بعد يوم ، فيجهد في استذكار أي معلم ، مهما دقّ ، لكن المعالم كانت تملص مرةبعد مرة ، وهو يرسم على الأرض ، في الليالي أو النهارات ، تعرجات هذه الدرب ، المدقات ، النهر المحاذي للقرية ، الجامع ، البيت الذي خلف فيه أمه وأشقاءه ، ولم يعلم ماذا حل بهم منذ غادرهم في تلك العشية الحارة .

هو ذاك العالم الجميل المليىء ينجلي أمامه ، لكأنه لم يغادره يوماً ، على الرغم من أن ذقنه التي امتلأت بالشعرات السود تؤكد أنه غاب طويلاً . لعل أمه وأشقاءه ينكرونه لأول وهلة : تلك الذقن ، وهذا اللباس ، وذلك الصوت الذي غلظ ، والحكايا التي يحملها ، الشارب الذي نما بغتة ، هي شهور حقاً ، الا أنها جعلت فياضاً ينكر نفسه ، فكيف بأولاء الذين سيهبط عليه عما قليل ؟

كان والد فياض قد قدم منذ سنين الى المشرقة في واحدة من اندفاعات فلاحي جبل الحلو ، كلما ضاق بهم أو ضاقوا بحواكيره الوعرة المحدودة وفقره الأسود . كانت المشرقة حين هاجر والد فياض اليها قد عادت تدفع الخوّة الى البدو الذين يسورونها ، شأنها شأن جاراتها ، من صغيرها الى كبيرها ، بعد أن ولت الأيام التي كفّ البدو فيها عن غزو القرى ، حين بسط ابراهيم باشا قبل عقود رايته فوق البلاد .

أفئدة وأخيلة المهاجرين من جبل الحلو ومن غيره الى المشرقة ، كانت تملؤها رهبة أخبار بدو الحسنة والنعيم الذين يرعون شرقي حمص ، ويداهمون بغتة القرى المتناثرة .

كانت حكايات الحراثة ، فيما البندقية تتأرجح على كتف الفلاح تجنح بالشبان حماسة وخوفاً ، تدفعهم كما تحجم بهم ، فالصراع مع البدو ليس مثل الصراعات التي يعرفها الجبل أو تعرفها القرى ، بين عائلة وعائلة ، حارة وحارة .

لوحة المشرقة كانت تغدو أبهى كلما عزّ العيش في الجبل : أمداء السهول الخصيبة ، التراب مثل خد البنت ، أمطار أغزر من أمطار الجبل نفسه ، هدير العاصي ، الغلال بلا حصر ، وما الضير في أن يكون ثمة هذا الافندي أو ذلك البيك ؟ الأفندي أو البيك يبني لك البيت ، يأتيك بالكديش أو البغل ، وقد يأتي بزوج من الثيران أيضاً ويقول لك : ازرع واحصد واعطني من الجمل اذنه فقط !

كان بعض الأفندية والبيكوات من حمص قد بدأوا يظهرون في المشرقة حين أدار والد فياض للجبل ظهره ، تتبعه أم فياض وصغيراتها .

لم يكن الرجل ليحلم بأكثر من بيت وبندقية وبغل ، ومساحات من الأرض لا تفتأ تتحداه . ولم يكن ابن الأكاشي ليمنع عنه شيئاً . كان يطلق يده موسماً بعد موسم ، فيما غلّة الحنطة تتضاعف، الشعير أيضاً ، وعرانيس الذرة تتلامع على ضفة النهر ، وسط الألوان البديعة للبندورة والفاصولياء والباذنجان ، والأولاد يتكاثرون ويكبرون ، والبدو لا يظهرون . بل انهم سرعان ما باتوا ذكرى ساذجة ، بعيدة ، تلون ليل الرجل الذي صار أباً لأربعة أطفال ، وتجعله يضحك سعيداً وقريراً .

بيد أن البدو عادوا . وربما كانت عودتهم هذه المرة أقسى منها في كل مرة . لقد ألفى أبو فياض نفسه مأخوذاً على حين غرّة ، مثل سائر الفلاحين . تسمر الجميع ، بلهاء أذلاء ، أمام الدمار المروع . وحين أفاق أبو فياض مما به ، وراح يعالج بندقيته ، كان كل شيء قد انتهى .

ليس الأمر اذن ذكرى باهتة أو عزيزة . ليس حكاية قديمة من عهد الجبل . ومنذ ذلك اليوم لم تضحك الدنيا لبيت العقدة .

في الموسم التالي هجم البدو أيضاً . كان الرجل يتنسم أخبارهم ليل نهار ، ويحار في الصراع المرير الذي نشب منذ سنة بين الحسنة والموالي ، وفي الأذى المروع الذي نال القرى جراء ذلك . ولم يظهر أحد من بيت الأكاشي ولا من سائر أفندية وبيكوات حمص خلال الموسم كله .

لا أحد يدري كيف انطلقت البندقية وأردت بدوياً . لقد تجنب البدو ذلك البيت ، مصادفة أو عمداً ، لا أحد يدري أيضاً ، الا أن البندقية انطلقت ، ولم يعد لوالد فياض من بعد مقام في المشرقة .

ما كان بوسع أم فياض أن تنهض بعبء الأرض الفسيحة ، وما كان بوسع ابن الأكاشي أن ينتظر أجيره الموتور الى ما لا نهاية . والبدو يجدّون في اثر غريمهم حتى الجبل ، لا يعرف من فيهم أكثر حماسة من الآخر ، هذه العشيرة أم تلك ، فكأنما قتل أبو فياض من كل قتيلاً ، أو كأنما لم يعد للعشيرتين من همٍّ في الدنيا سوى رأس الغريم . وعلى الرغم من ذلك استطاع أبو فياض أن يحضر أكثر من مرة الى المشرقة وفي كل مرة كان يخلّف حملاً جديداً وراءه ويمضي ، مشدداً على فياض في أن يكون رجلاً ، ناهراً امرأته كلما تساءلت عما اذا كان عليها أن تعود بالأولاد الى الجبل . كان فياض يسمع والده في كل مرة مخاطباً أمه بجفاء :

- مافكرت بالناس ؟ اذا كان البيك نفسه ما يطردنا ، نطرد أنفسنا ؟

كان البيك قد ترك بين يدي أم فياض من الأرض ما تقوى على زراعته بنفسها ، وسلّم الباقي للجيران ، متوخياً بذلك أن يلوح للبدو بسخطه على فلاحه ، وأن يرضي فلاحه في آن . ولعل البيك كان سعيداً بفلاحه ، يدخره ليوم ما ، بعد أن غدا اسمه على كل لسان .

في غياب الوالد الدائم وحضوره الدائم نشأ فياض . ويوماً بعد يوم كان الوالد يبعد عن أن يكون حقيقياً ، ويغدو لمحة في حكاية ، خاصة بعد أن غدا مقام الموتور في كنّة الجبل خطراً ، ليس فقط لأن البدو يتسللون مثل الحية الى حيث لا فكاك لغريمهم منهم ، بل لأن الجبل نفسه أخذ يتفجّر . وكان الأفندية والبيكوات قد أخذوا يبيعون ما لهم من أرض في المشرقة الى خواجة بيروتي ، تؤكد الألسن أنه يريح من في الأرض التي يشتريها من بلوى البدو ، وأنه ليس مثل الأفندية والبيكوات الذين آثروا السلامة .

لم يعد فياض يلقى والده ، ولم يعد على يقين من أي خبر عنه . شهوراً تترى اختفى طوالها الوالد . وجلّ ما استطاع فياض أن يصل اليه ، وقد بات يتردد على الجبل وعلى بيت البيك في حمص ، أن والده قد التحق بالفلاحين الثائرين ، بل إنه هو الذي يقودهم ، ضد الدنادرة وضد الاتراك .

كان الدنادرة قد أكدوا للأتراك أن شبان الجبل خربوا طاحونة العريضة ، وحمل الأتراك على احدى القرى التي تقاطر اليها الفلاحون العصاة . كانت القرية فيما قيل

لفياض في قعر ذلك الوادي السحيق الذي دار حوله مراراً ، ينقل عينيه بين أجنابه الثلاثة حول البيوت ، والنتوء الجبلي الحاد الشاهق ، والسهول الفسيحة التي يهجم عليها دفعة واحدة ، وكان ذلك يلف رأس فياض بالدوار كل مرة ، فيطبق جفنيه هنيهة ، ثم يركز عينيه بين قدميه ويمشي ، كأنه موشك على السقوط . عمّ فياض الوحيد كان قد قال له مراراً ، قبل أن يختفي هو الآخر :

ـ الدنادرة ياابن أخي أساس البلاء . دائماً كانوا أساس البلاء . كنت في مثل سنك وأنا أسمع الكبار يتحدثون عن اغتصاب الدنادرة لأراضي الجبل . والأتراك كانوا دائماً معهم . مرة بالقوة ومرة بالمروّة . وكلما هان فلاح وسلّم أرضه لهم هبّ عشرة في وجهه وفي وجههم .

لم يعد سعي فياض في أثر أبيه منفصلاً عن سعيه في أثر العصاة . صار يفكر خاصة بأولاء الذين يفرضون سطوتهم على الجبل وسهله ، وقد كانوا بالأمس القريب لا حول لهم ولا طول ، سوى إغاراتهم على القرى ، شأنهم شأن البدو الذين يغيرون على المشرقة . لكن الدنادرة لم يكتفوا بما كان البدو يفعلون . لقد أخذوا يوسعون فيما يملكون ، شأنهم منذ أخذت استنبول تكرمهم لقاء أن يصونوا لها طريق حمص طرابلس ، ويحجزوا بين المسيحيين والعلويين . ولم يعجزهم في تملكهم الجديد سوى تلك الحفنة من العصاة ، في ذلك الوادي ، حيث يرتدّون والدرك مرة بعد مرة ، وحيث يتقاطر الشبان سراً أو جهاراً ، بسلاح أو بدون سلاح ، يضربون القوافل العسكرية التركية التي تعبر بالمنطقة ، يخترقون الحصار ويطاردون الذين حاصروهم ، يساعدون القرى التي تمردت مثلهم ، وإنْ تك بعيدة .

جعل انتقال فياض بين المشرقة وحمص والجبل وتلكلخ عينيه تنفتحان على عالم أكبر من خطوط الفلاحة وأكوام السنابل والتبن وحقول العدس واليانسون والكمون . صار الانتقال يفتح أذنيه أيضاً على قول تجهله المشرقة ـ ربما ـ بكبارها وصغارها . وبدا في كل أوبة الى أمه كأنما يغادر يفاعته أبعد ، ويغدو ذلك الرجل الصغير الصلب في إهابه الغض ، الرجل الذي يعرف بخاصة الكثير عن الحرب . وكان البيك نفسه قد بات يجلس الى فياض ، ويذكر الجبهات والانكليز والثورة التي انطلقت في مكة المكرمة .

كان فياض يدرك أن سوقه إلى الحرب آتٍ لا ريب فيه . ما إن تتكاثر الشعرات السود في ذقنه حتى يحين دوره ، ويلحق بالعديد من الذين غادروا المشرقة ولم يعودوا .

ولم يكن ذلك ليبعث الجزع فيه ، شأن أقرانه أو أمه . بل انه كان يتعجل تلك الشعرات . ولعله ما كان لينتظرها لولا يقينه من مصرع أبيه ، على يد البدو أو على يد الدنادرة أو على يد الأتراك . لعله لولا ذلك كان قد التحق بالعصاة ، أو استسلم ذات يوم ليد المختار والدرك تدفعه مستحثّة القطار الذي ينتظر في حمص ، لينقله كما نقل من قبل فتيان ورجال المشرقة الى الحرب .

كانت عينا أمه الجافتان تؤرجحانه ، تدفعانه بعيداً أو تشدانه اليها . كان يسمع رفيف أجفانها يلهج بالرحمة على الرجل الذي لم يعد يظهر في الليالي . كان الأنين يضج في صمتها ، يصمّ أذنيه وفؤاده ، يلوي بعينيه عن اخوته وعن المشرقة وحمص والجبل ، الى حيث الثورة الكبرى كما يقول ابن الأكاشي . هكذا طرق فياض باب عمارة البيك آخر مرة ، يسأله العون ، والبيك يثني على الفتى ، يدسّ في جيبه بالمجيديات ، يكرر عليه أسماء ودروباً ومدناً ، ويقذفه الى الجنوب القصي ، دون أن يعبر بالشام . وهناك ، في موقع ما من تلك الأرض التي لم ير فياض مثلها من قبل ، التحق باحدى فصائل الجيش الميمّم الى الشمال ، وشرع يحلق ذقنه كل حين ، على الرغم من ندرة الشفرات والصابون ، وكان ذلك يجعله أقل قذارة من الآخرين . وصار فياض يطلق النار ، يودّ لو أن رصاصته لا تخيب ، يقسم مؤكداً ذلك ، مدارياً خوفه من أن يكون قد قتل أحداً ، وكان خوفه الأكبر من هدأة الليل الصحراوي ، وهو يندسّ بين ياسين الحلو وعزيز اللباد وراغب الناصح واسماعيل معلاّ ، وكان حمادي الحسون قد فرّ .

كان فياض حين دخل الشام ، مثله الآن وهو يدخل المشرقة ، نهب مشاعر غامضة ، لا يدري إنْ كانْ فرحاً أو شامتاً ، حزيناً على أبيه أم فخوراً به ، ساخطاً أم راضياً ، قلقاً على أمه وأخوته أم مطمئناً . وبقدر ما كان معتزاً أيضاً بما أتى ، كان غير آبه . ولقد حاول أن يفضي بما به لعزيز ، لكن لسانه حرن ، فربت عزيز على كتفه وراح يغني ويحث فياض على أن يجاريه ، فيضيع صوتهما في لغط المدينة وأصداء الانفجارات . وعلى الرغم من الإنهاك والجوع والقذارة ـ وقد استفاق كل ذلك فيهم فجأة ـ فقد قضى فياض وعزيز أغلب ليلة الدخول الى الشام ساهرين ، ينصتان الى اللغط المتناقص حولهما ، يتأملان من الشرفة المواجهة النجوم الساطعة فوق قاسيون الذي شبهه فياض بالملك أو بالسلطان ، وراح يزين لعزيز أن يخرجا ذات ليلة وحدهما . إنْ لم يوافق الآخرون الى رأس الجبل ، فيقطف كلٌ نجمة ، شريطة ألاّ يتسبب ذلك بامتلاء أيديهما

بالثآليل ، فصمت عزيز وهو يتحسس ظاهر كفه الأيسر ، حيث تتوسط ثؤلولة عقاباً على ولعه وهو صغير بعدّ النجوم ، كما شرحت أمه مراراً .

كانت العتمة قد أطبقت على القرية ، وسماء تشرين تطفح بالغيوم ، وبدا كأنما قد أمطرت هذا الضحى ، مثلما توقع ياسين الحلو وهم يفترشون عشب القشلة . كانت رائحة المطر تعبق في صدر فياض حين اقترب منه رجل ينادي بصوت رخيم :

ـ ما قولك يا بنيّ ؟ هذه مطرة من كانون لا من تشرين والله أعلم !

تمهل فياض محاولاً أن يتذكر صاحب الصوت الذي اندفع :

ـ من ؟ فياض العقدة ؟ حمداً لله على سلامتك . رحمة الله على والدك . رحمة الله على عمك . كيف عدت ؟ أسرع إليها يا بني أسرع . وجهك خير ان شاء الله . دائماً ابن العقدة يكون الأول . أنت أول الراجعين بالسلامة . .

همَّ فياض بدفع الرجل ليعدو إلى أمه . ألوى الخوف عليها بفؤاده ، لكن ثناء الرجل على كل من هو ابن العقدة جعله يبلع ريقه ويشمخ . فمن كان مثل فياض لا يليق به الخوف ، والخوف عاد يناوش الفؤاد ، فالرجل لا يترحم على الوالد وحده ، بل على العم أيضاً ، فهل قضى هو الآخر ؟

قال الصوت الرخيم :

ـ أول رأس علّقه الأتراك على باب استنبول كان رأس عمك رحمةُ الله عليه . رؤوس كثيرة يا حسرتي علّقوها . بعض الناس يروون أن والدك أيضاً كان بينهم . والدنادرة يطلقون النار ابتهاجاً . لولا الحيلة ماكان ذلك . أقسم قائد الحملة أن يقضي على العصاة ووفى بقسمه . لعب عليهم وجرّهم إلى السهل لينفرد بهم ، ولكنهم خدعوه أيضاً مثلما خدعهم . الحرب خدعة كما يقال يا ابني وأنت كنت في الحرب . تركوا له طعماً في السهل وجرّوه الى مواقعهم وقتلوه ، ولكنها كانت النهاية . لا تحزن يا ابني . رحمة الله عليهم . ها هو الله أعادك بالسلامة ، وها هم الأتراك رحلوا . هل ستظل واقفاً ؟ تعال يا ابني تعال . يا أم فياض هاتي البشارة .

واختلط صوت الرجل بصوت الرعد في ركن غير بعيد من أركان السماء .

★ ★ ★

في حمص بدأوا يفترقون . لوّح أبو عاطف وياسين وعزيز لفياض أولاً . ثم لوّح أبو عاطف وياسين لعزيز ، قبل أن يتجها معاً الى حماه . وفي حماه افترق الرجلان ، اذ تابع ياسين سفره الى الجسر ، فيما توجه أبو عاطف إلى أحد خانات المدينة .

كان أبو عاطف آخر من تبقى من المتزوجين في المجموعة ، بعد أن فرّ الآخرون أو قتلوا . وكان لا يفتأ يباهي ياسين الحلو الذي يكبره ، ولا يزال عازباً . كما كان لا يفتأ يناكد فياض العقدة فيناديه فجأة :

ـ برضاي عليك يا ابني يا فياض ناولني مطرة الماء .

فيضحك الآخرون ويثور فياض ويحرد حتى يراضيه أحدهم .

حين غادر أبو عاطف كفر لالا كان ابنه رضيعاً ، ولعله الآن صار يعدو في الحارة ، أو يقرط الحصرم ، فأبو عاطف لم يعد الى كفر لالا منذ أن غادرها .

قامته الفارعة الممتلئة كانت قد غدت عوداً طويلاً يسبح في بذلته الفضفاضة المرقّعة . ولم يكن قد حلق ذقنه منذ دخل الشام غير مرة . بل انه كان نادراً ما يحلقها طوال سنوات الحرب ، فيما كان يحرص على ذلك كل اسبوع منذ سمح له أبوه بحلاقتها ، حتى انتزعوه من كفر لالا .

قريباً من محطة القطار صادف خاناً يعج بالرجال والبغال والحمير وروائح الروث والأحاديث الضائعة بين اتجاه الانكليز إلى حلب ، وسبق الجيش العربي لهم إليها ، ونزول الفرنسيين في بيروت وطرابلس واللاذقية وانطاكية ، على طول الساحل . وكان ثمة من يفيض في المطر الذي ملأ الوديان الليلة الفائتة ، ويؤكد أنه سوف يكون الليلة أغزر ، ويسأل الله الستر .

بصعوبة اهتدى إلى المكاري الذي سينقله إلى كفر لالا . إلا أنّ المكاري رفض أن يغادر الخان حتى أوشكت الشمس على المغيب ، وعجت السماء بالغيوم ، وأبو عاطف يكبت سخطه ، يزداد حيرة فيما جعله يبحث عن الخان والمكاري ، فلعله لو تابع من المحطة مشياً إلى كفر لالا لكان قد وصل . وكان الجوع قد أنهكه ، اذ لم يتناول لقمة منذ الصباح ، مؤجلاً كل أمر إلى نزوله الوشيك في بيته ، ولقائه بأم عاطف وعاطف .

منذ غادر الخان الرجلان والبغال الأربعة، انطلق لسان المكاري العجوز الذي بدا حانقاً لأن الله لم يرسل غير مسافر واحد بعد انتظار نهار بطوله .

تقدم المكاري القافلة ، في أثره أبو عاطف ، يتبعهما البغلان الآخران اللذان لا بد أن يعودا في الصباح محملين ، كي لا تتضاعف خسارة صاحبهما ويكف عن الوعيد بألاّ يعود ثانية إلى هذه الطريق التي لا تطعم كلباً .

سأل المكاري أبا عاطف عن أبيه وعن جده وعن عشيرته ، والجهة التي قدموا منها قبل أن يكونوا في كفر لالا . سأله عمن يعرف من الناس ، الأحياء والأموات ، ولم يكن ينتظر جواباً ، وأبو عاطف يلوذ بالصمت أو يفرّ الى اجابة قصيرة ، لا يسعفه تعبه أو جوعه وشوقه على أن يفصّل فيها ، والمكاري يلاحقه ، يريد أن يعرف إنْ كان متزوجاً أم لا ؟ إنْ كان له أولاد أم لا ؟ متى سيق الى الجبهة ؟ وهل فر من قبل ؟ كم اجازة منح ؟ من كان برفقته من أبناء المنطقة ؟ من مات من رفاقه ؟ من فرّ ؟ من أسر ؟ وهو نفسه ؟ اسماعيل معلا ، إنْ لم يكن قد فرّ فهل أسر ؟ وماذا رأى من بلاد الله ؟

كان الرجل عجوزاً تجاوز الستين ، لا تسعفه أسنانه المهترئة والساقطة على أداء مخارج الحروف . وإذْ أرعدت السماء راح يستحث بغله وأبا عاطف على مسابقة المطر ، إلا أن المطر انصّب دفعة واحدة ، ولم يكن أمام القافلة إلا أن تلجأ فوراً إلى شرفة قصيرة وخفيضة مما صنعت الصخور المتراكمة على حافة الطريق .

أشعل أبو عاطف سيجارته وأصغى إلى وقع المطر ، يردد في سرّه :

ـ هي ليلة يا مكاري . .

ويكبت رغبته في أن يحدث المكاري عن الحمير البيض التي رأى في سوق الخيل ، وهو يطوف حول المرجة ، مع راغب وياسين وعزيز وفياض ، في أوبتهم الأولى من دكان سليم أفندي . كان يود أن يمازح المكاري ، ويقترح عليه أن يلوّن ذيل كل من بغاله الأربعة بالأحمر ، شأن الحمير البيض في ذلك السوق ، دلالة على أنها بغال للتأجير ، لكنه خشي أن يغضب المكاري ، أو أن ييسّر له درباً جديدة للحديث . بيد أن المكاري لم يكن في حاجة إلى من ييسّر له الدرب ، اذ ما عتم أن قطع الصمت القصير ، وأقبل على أبي عاطف يؤكد :

ـ كفر لالا هربت من الدب ووقعت في الجب . .

تراجع أبو عاطف متظاهراً باللا مبالاة ، فسأله المكاري :

ـ فهمتها أم أشرح لك ؟ يعني هربت من دبّ ابن البزّار ووقعت في جبّ الشيخ

منصور . لا عتب عليك . أنت كنت بعيداً كل هذه السنين .

تنحنح أبو عاطف وهو يداري سيجارته من قطرات الماء :

ـ المعنى ؟ ما دخل الشيخ منصور بنا ؟

قال المكاري وقد أسعده أن يحرك أخيراً اللسان الذي عجز عنه طوال ما انقضى من الطريق :

ـ بكره يبيع الشيخ منصور أراضيكم إلى آغا جديد . بهائم . أي والله بهائم . على من تتشاطر كفر لالا ؟ غير الشيخ منصور جرّب ، جرّب وهرب . زعامتكم لا تقدر على آغوات حماه ، شيوخكم مساكين . واحد باعكم بمخدة ذهب ، وواحد يبيعكم بمخدتين ، ولكن ماذا جنيتم أنتم وأمثالكم ، وماذا ستجنون ؟

كان أبو عاطف قد أخذ يتابع المكاري كلمة كلمة ، لكنه ضاق بتشتته وسلاطته ، فقاطعه محتداً :

ـ بالله عليك هات كلمة مفهومة واحدة .

تابع المكاري غير آبه .

ـ الشيخ منصور أذكى . غيره نطح هذه الصخرة التي تحتمي تحتها الآن وهو بلا قرون . يا حسرة ! غيره أراد أن يقاوم السلطان ، فنفاه السلطان دهراً ، وصارت الساحة خالية لبيت البزّار وسواهم وسواهم ، وراح ابن الهواش فرق عملة . المسكين خدعته نعومة المتصرف . هولو باشا كان المتصرف هنا يوم كنت أحبو . وبعد هولو باشا جاءنا باشا ثان كبير ، نسيت اسمه ، يمكن مدحت باشا . قرد باشا . كان هو الآخر ناعماً مع الجميع . وغرت نعومة الباشوات ابن الهواش فتنمرد . صحيح أنه استطاع أن يهزم الدنادرة قبل ابراهيم باشا بذاته ، ولكن يا حسرة . . ! الشيخ منصور أذكى . صحيح أنه أفقر من ابن الهواش لكنه شيخ . وها هو قد بدأ يصير غنياً . انتظروا سنة ، سنتين ، حتى يتلتل . شيخ وملاك معاً أكبر من أي منهما وحده ، شرط ما يغش في اللعب مع الأغوات كما غش غيره .

قال أبو عاطف متضرعاً :

ـ بالله عليك خلنّا في المفيد . .

ـ خلّنا في المفيد . أنت تعرف كيف اشترى ابن البزّار أول قطعة أرض في كفر لالا ؟

قال المكاري .

ـ نعم أعرف . هل تريد أن أقول لك كيف ؟

قال أبو عاطف مستسلماً ، فبوغت بالمكاري :

ـ قل لي كيف ؟

حاول أن يلملم أشتاتاً بعيدة مما بقي من سنيّ الطفولة ، وقال :

ـ ابن البزّار كان استولى على كل هذه القرى حولنا . أنت أدرى مني .

همهم المكاري مؤيداً ، فأردف أبو عاطف :

ـ والأرض من أيام آبائنا وجدودنا ملكنا وليس بيننا غريب . .

قاطع المكاري :

ـ هذا صحيح ، ولكن كان فيكم من لا يشبع ، وفيكم من يذبح الذبائح .

قال أبو عاطف وهو يسعى ليفرغ مما ألقى نفسه متورطاً فيه :

ـ وأول من باع أرضه منا لابن البزّار كان من أصحاب الذبائح ، لا من واحد لا يشبع الأكل .

قاطع المكاري مستمتعاً في المماحكة :

ـ وأول من سجل أرضه وأرض غيره باسمه كان من هؤلاء أيضاً . أظنك حزرت من أعني . .

أسرع أبو عاطف :

ـ المختار كان أول من باع ، وكفر لالا كلها تصيح : يا مختار ، أول الرقص حنجلة . . يا مختار ، طوال عمرنا لا غريب بيننا ، والله سبحانه وتعالى منعم عليك ، كيف ؟

قال المكاري :

ـ لو ما باع هو لباع غيره . واذا كان ما باع اليوم ، يبيع بعده . ابن البزّار من يقدر عليه ؟ ابن البزّار لا يرحم . من يوم ما كان شاويشاً في الجيش التركي وهو يبلع الأخضر واليابس .

ناس صوت أبي عاطف :

ـ في غفلة من المرحوم كان المختار سجل أرضنا باسمه ، وباعها لابن البزّار ، وكنا أول من صارفي كفر لالا من المرابعين .

قال المكاري غير آبه :

ـ صارت كلها مثل بعضها . من مرابع عند ابن البزّار الى مرابع عند الشيخ منصور .

سارع أبو عاطف :

ـ لماذا تفتق الجروح وتترك الواحد تائهاً ؟ أرجوك قل لي ما حصل بيننا وبين الشيخ منصور ؟

قال المكاري وهو يزجر البغل الذي أخذ يحوص :

ـ لم يحصل الا كل خير . قل إنْ شاء الله . الناس أرادوا أن يلجأوا الى من يحميهم من ابن البزّار الذي لم يعد أحد يستطيع أن يملأ عينيه منه منذ بدأت الحرب . الناس هم الذين جروا خلف الشيخ منصور ، وليس هو من جرى وراءهم . قالوا له نعطيك يا شيخ منصور خمس المحصول لخمس سنين مقابل ردعك لابن البزّار وغير ابن البزّار عنّا . أنت شيخنا ومسؤول عنا أمام الله وعبد الله . قال الشيخ منصور على العين والراس . قالوا لا نريد الا وصلاً صغيراً بما سندفع ، والدنيا فيها موت وحياة . قال على العين والراس . كان موسم كفر لالا من الحرير وحده يزيد على عشرة آلاف ذهبية . هل تعرف ذلك ؟ صحيح أن هذه الأيام قفراء غبراء ، لكن رحمة ربك واسعة وخيره بحر ، وسنة الخير هل تعرف ما تكون حصة الشيخ منصور ؟ اللهم ليس حسداً . على كل حال هي حصة لا تذكر بالنسبة لما يحصله ابن البزّار . احمدوا الله على أنه لم يقتل قتيلاً ويتهمكم به ويرميكم في السجون ، حتى تتنازلوا له عن الأرض ، كما فعل بسواكم . لكن ما يحرك الوسواس الخناس في صدور الناس هو أن الشيخ منصور رفض هذا الموسم أن يعطي إيصالاً لأحد . قال : المبلغ تافه والموسم رديء وما خسره من أجل كفر لالا على الدرك والأغوات وهنا وهناك أضعاف ما استلم . قال : المطالبة بالايصالات تخوين ، واستغفر الناس الله وقبلوا يد الشيخ منصور . طيب وماذا في الأمر ؟ ابن البزّار كان يأخذ ربع المحصول . ابن الهواش نفسه كان يأخذ الربع . .

قاطع أبو عاطف وقد انتقلت اليه وساوس المكاري :

ـ لكن هؤلاء طوّبوا الأرض باسمائهم ، أما الشيخ منصور . .

لم يفسح المكاري له أن يكمل ، وبدا ساخطاً :

ـ قلت المختار سجل أرضكم باسمه في غفلة من المرحوم هه ؟ بهائم ! اي والله بهائم ! غداً يطوّب الشيخ منصور ، وهذه ذقني . .

ومد يده إلى ذقنه ناهضاً ، فاصطدم رأسه بذؤابة الصخرة ، واندفع يبربر متلمساً رأسه :

ـ سامحني يا شيخ منصور . أخطأت بحقك . كذبني يا شيخ منصور ولا تطوّب الأرض اذن . إن بعض الظن اثم . خفّ المطر . تعال يا رجل تعال . ولماذ أنت مهموم هكذا ؟ قل لا يصيبكم الا ما كتب الله لكم . ألم يأخذ ابن البزّار أرضك كما تقول ؟ على ماذا أنت خائف اذن ؟ ماذا يعنيك لو أخذ الشيخ منصور كفر لالا كلها ؟

بدل الرجلان البغلين اللذين كانا يمتطيان ، بدّلا الجلالين ، وكان المكاري قد أمر أبا عاطف بجمع الجلالات الأربعة فوق بعضها حتى لا يبتل إلا أعلاها .

صار المطر يهطل زخّات قصيرة ، ولكنها ترجّ رجّاً . وعاد أبو عاطف لا يصغي إلى المكاري . لقد تحقق ما كان ، أو بعض ما كان يخشاه . كان يتوجّس شراً كلما عنّت على البال كفر لالا أو أم عاطف ، وها هو يتحقق منْ بعض هواجسه ، فهل يكون ما ينتظره أكبر وأدهى ؟

ما كادت القرية تظهر حتى تجاوز المكاري وهو يستحثّه ، والمكاري يلعن البغال . وما كاد البيت يظهر حتى نادى أبو عاطف :

ـ يا أم عاطف ، يا عاطف . .

خرج شبح يلملم غطاء رأسه ، وكان أبو عاطف يقفز من على البغل ناهراً بالمكاري :

ـ انزل . انزل . وصلنا والحمد لله . .

عرفت أم عاطف صوته ، ولكنها لم تعد تعرف كيف تقترب منه ؟ كيف تسلم عليه ، على المكاري ، كيف تبكي وهي تشير الى حيث ينبغي أن تربط البغال .

ـ تبكين يا أم عاطف بدلاً من أن تضحكي ؟

سأل المكاري، فأخذت المرأة تشرق بدموعها ، فنهرها أبو عاطف ، ونادى على ابنه ، فحشرج صوت المرأة :

ـ أين عاطف يا حسرتي ؟

ـ أين عاطف ؟

صاح أبو عاطف من فرجة الباب .

ـ حسرتي عليك يا ابني . أكلك الدود قبل رجعة الغيّاب .

ناحت أم عاطف واستدارت الى الحاكورة الملاصقة ، والرجلان يتبعانها ، وفي سواد الظلام أشارت الى بقعة سوداء صغيرة تجثم فوق التربة السوداء ، وعلا صوت المكاري :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . امشي يا امرأة من هنا . امش يا رجل .

وتأبط ذراع أبي عاطف يجرّه حتى باب البيت ، ثم تهادى نحو بغاله ، تلاحقه أيمان أبي عاطف ، ونهنهة أم عاطف ، وهو يرفض أن يتناول أجراً ولا طعاماً ، وينهر بالبغال كي تستدير نحو الدرب .

لقد مات عاطف اذن في غياب أبيه ، وأم عاطف تعودت أن تبقى وحيدة ، منذ أن ماتت حماتها في غياب ابنها أيضاً . ولعل أم عاطف كانت متيقنة أن الغائب لن يعود ، حتى جاءها صوته أشبه مايكون في كابوس أو منام . ولعل ظهور الغائب كان حقاً كابوساً أو مناماً ، فهذا هو أبو عاطف لا يفتح شفتيه بعد أن ابتعد المكاري والبغال . هاهو يتربع قرب الباب ، لا يخلع حذاءه ، ينفث السيجارة تلو السيجارة ، لا يشرب الماء ، ولا الزوفا ، لا يتناول لقمة ، لا يأتي حركة سوى أن يزجر دموع أم عاطف كلما انسابت صامتة أو لا غطة . كانت عيناه ترسلان كل حين نحوها نظرة أقرب الى القسوة ، أو أقرب الى الحنو ، فتطرق مقهورة مستسلمة . بيد أن صدر الرجل انفجر بعد لأي عاجزاً عن قهر تلك السنين التي جاب فيها أطراف الدنيا ، من البحر الى الصحراء الى الجبال ، ملازما الموت في كل مكان وهو يجوع ، تبلى ثيابه ، ويبلى حذاءه ، ينشد ابنه الرضيع ، ينشد أمه التي لابد أن تكون قد أسلمت الروح وهي تدعو على المختار وابن البزّار ، كما تقول أم عاطف من بين دموعها وأنينها . أبو عاطف ينشد أمه التي كانت لها كل يوم عشرون مشكلة مع أم عاطف ، ولعلهما ظلتا كذلك في غيابه ، على الرغم من وصاياه . لقد أعيته الأحمال أخيراً . ناء كتفاه بالدنيا وهو يود لو يبكي أو يئن . انه خائف كما لم يكن طوال سنوات الحرب ، يحسّ أن الانهيار بدأ يصيبه هو أيضاً ، وليس فقط هذا العالم الذي كان يحيط به ، ليس فقط هذا العالم الذي كان له ، إنه يغدو الآن كائناً آخر ، فأبو عاطف ينخلع منه ، يتركه نقمة حبيسة ، كانت تعرف ذات يوم هدفاً وحيداً يجمع ابن البزّار الى المختار ، ثم صار يجمع الأتراك ، أما الآن فماذا بوسعه غير أن يطلق صوته داوياً ملتاعاً :

ـ يارب !

وينهض ، فتنهض أم عاطف وترسل الصوت الذي أرسلته يوم مات عاطف في حضنها :

- ياويلي . .

★ ★ ★

حين تركه أبو عاطف وحده ، حار ياسين الحلو في الوجهة التي يتجه . انه يسعى الى الجسر ، وسوف يسعى من هناك الى الزنبقلي ، لكن الشتات يعصف بالرأس : لماذا لا يذهب الى حلب فيبيت الليلة فيها ، ثم يبكر الى تلدفّ ؟ ماذا يفعل إنْ وصل الى الزنبقلي هذه الليلة ، فوجد أسرته كلها قد شدت الرحال الى هناك ؟ لماذا لا يبيت الليلة في حلب ، وفي الصباح الباكر يقصد سفيرة ، يباغت هنداً وأهل هند وقريتها وعشيرتها كلها ؟ ماذا سيفعل إنْ وصل الليلة أو غداً الى الزنبقلي فوجد هنداً قد شدت الرحال الى هناك ؟

كلما كانت الطريق الى الجسر تطول ، كان الشتات يزايله ، ليخلف وجعاً في تلك الناحية من الصدر ، حيث يقال ان القلب يقيم . ولم يكن ياسين الحلو قد أفضى بسره الأكبر الى أي من أفراد المجموعة ، على الرغم من استفزازهم لعزوبيته وسنّيه الأربعين . لا أحد منهم يعرف أنه كان على وشك الزواج من هند حين غدا في غمضة عين خارج سور الزنبقلي ، ربما بلا رجعة ، لولا أن رأف به الله واستجاب لدعائه ودعاء هند .

هل كان في البداية يخاف أو يغار من أن يذكر اسم هند في مسامراتهم ، وليس بينهم من قد ذكر اسم زوجة ولا حبيبة ؟ حتى أبو عاطف لم يتلفظ يوماً باسم أم عاطف ، فاذا ما ذكر ابنه وتنهد ، تغامز الأخرون ، وأغفى ، وذكر ياسين هنداً في سره ، وتنهّد وأغفى . مهما يكن ، لا الخوف ، ولا الغيرة ، ظلاّ دافعه الوحيد الى كتمان سرّ هند عن المجموعة . ربما بات دافعاً آخر إشفاقه على نفسه من أولاء الذين لن يرحموه إنْ بدا أمامهم عاشقاً بعدما لوّن الشيب صدغيه ، وتراجع الشعر عن مقدمة رأسه ، فلو فعل ، فماذا عساه يكون قد ترك لفياض العقدةّ ؟ حتى راغب الناصح يمكن أن يغفر له أن يكون عاشقاً ، اذ لم يكد يبلغ الثلاثين ، أو هو لم يتجاوزها بكثير ، أما ياسين ، فمن المؤكد أنه قد بلغ الأربعين ، أو خلفها وراءه منذ سنة أو ثلاث ، ولا يحق له أن يلبس جبة حمرا بعدها لكبرة .

كل شيء كان يسير وفق ما يشتهي قبل أن يلبسوه البذلة العسكرية ، على الرغم من الحرب وعصا رستم آغا . لقد ظل يرقب هنداً سنيناً وهي تكبر . ولعله كان ينتظرها وهو عازف عن الزواج ، يتعلل بألف علّة كلما ألمحت الى ذلك أمه ، أو عنفه أبوه وعيّره بشيبه وعزوبيته . وحين أسرّ لأمه باسم هند أنكرت ما تسمع ، لكن الفرحة دارت بها . ولم يكن أبوه أقل إنكاراً وفرحاً ، حين زفت اليه أم ياسين البشرى وهو يتمتم بعقابيل الصلاة . أما حين وافق أبو هند فقد أصاب ياسين المسّ ، الا أن البذلة العسكرية باغتته بعد أيام .

كان ياسين واثقاً من أن رستم آغا سوف يبارك زواجه ، وسوف يعفيه مما يقدم الفلاحون عادة من هدية للآغا . ليس لأن أحداً في الزنبقلي لم يعد يطمر ليرة ذهبية واحدة ، بل لأن ياسين الحلو كان مضرب المثل بين كل الذين يعملون في بناء القصر ، سواء أكانوا من أبناء الزنبقلي أم من الغرباء الذين جاء بهم الآغا من الجسر ، أو من حلب نفسها .

في الاجازة الوحيدة التي كانت لياسين طوال سنواته في الحرب ، لم يكد يهنأ برؤية هند من بعيد ، حتى كان عليه أن يغادر عجلاً . لقد ضاع نصف الاجازة في الاياب ونصفها في الذهاب . ضاعت الآمال التي غزلها ، ليس بنظرة فقط-من هند بل بالزواج .

في خلواته قبل الإجازة كان يرسم دقائق الزواج واحدة واحدة ، لا يفوته منها شيء ، منذ أن يطل على الزنبقلي في الإجازة الموعودة ، حتى يخلو بهند في فراش واحد . كان يحتال على ما يعرف من جوع الزنبقلي وعريها وكمدها ، فنصف الرغيف يمكن أن ينقسم نصفين ، بل ربعها يمكن ان ينقسم الى أربعة أرباع ، كما فعل في الزنبقلي وكما يفعل في العسكرية . وهند سوف تجد دوماً ما يسترها . كل امرأة في الزنبقلي كانت تجد دوماً ما يسترها ، شأنه هو ومن معه في العسكرية ، أما ضواحك هند فلا بد أن تعلنها دوماً ابتسامة ما . كان يعزم وهو يرسم خلوتهما الأولى في الإجازة أن يطيل وحدتهما حتى تنتهي الإجازة ، فهو سيغني لهند ، يدور حولها ، يهدهدها ويداعبها ، يحملها بين يديه ، ولا بد أن يعرف كيف يجعلها تخلع ثيابها ، أو ينزع عنها الثياب بنفسه .

كومضة عين مرقت الإجازة . لمح هنداً خلالها ، لمح القصر الذي لم ينته بعد ، ولم يكد يفاتح أباه بما ينويه حتى بات عليه أن يغادر .

لم يجرؤ من بعد على أن يغزل أملاً . لقد قذفوه فوراً من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب . ولم يلبث أن وجد نفسه أسيراً ، ثم وجد نفسه يزحف مع جيش آخر نحو

الشام ، وهند تركن في سويدائه ، تنأى عنه وهي تسكن القلب ، مثل كل ما عرف في حياته قبل الحرب .

ذات يوم ينفذ برده الى نقا العظام ألفى ياسين نفسه مع أبيه وأمه وأخوته مرمياً خارج البيت. كانت الشمس محتجبة خلف الغيوم السوداء ، وشعاع متكسّر يومض فيها كل حين ، أبيض أو أصفر ، لم يعد ياسين يذكر ، وكان نهر الذهب يهدر غير بعيد ، والسماء المندفعة نحو الأرض تهدر أيضاً .

كانت ثمة أسر أخرى مرمية أمام بيوتها ، وأطفال يبكون ، وشفاه مزرقة ترتجف ، جمال وبغال ، كومات صغيرة من الثياب والأشياء المعدودة . لقد فرض على أولاء ـ مثل بيت الحلو ـ أن يرحلوا الى مكان ما ، إذ لم يعد لهم في تلدفّ مقام ، لا للعيش ولا للموت .

في موجة الجفاف كان والد ياسين قد باع آخر شبر له من الأرض ، وغدا مرابعاً عند الآغا الذي ضاعف تلك السنة عدد عبيده . كل شيء كان ذابلاً تلك السنة في تلدف ، من النهر الذي لم تعد الغرافات تجد ماترفع من مياهه ، الى شجيرات الدردار على ضفتيه ، الى شجيرات الرمان التي لا زالت تسوّر آخر ما باع أبو ياسين من الأرض ، كذلك كانت أشجار التين والتوت التي تزنر البيت ، وفي تلك السنة ألحّ الملتزم على ضريبة العشر ، كما لم يفعل هو أو سواه من قبل .

لم يكن لدى أهل تلدفّ ما يدفعونه . ولم يفعل الآغا من أجلهم شيئاً ، فما كان منهم الا أن قيدوا الملتزم الذي لا يفتأ يهدد ويشتم ، ووضعوه في تابوت الضيعة ، حملوه على أكتافهم ، وساروا به نحو المقبرة مكبرين . ياسين نفسه سار في تلك الجنازة . وفي المقبرة كشف والده التابوت ، وفك وثاق الملتزم وصاح :

ـ إياك أن تعود . لا تجعلنا ندفنك وأنت حيّ .

ملأ الضحك تلدفّ رغم الجفاف . الآغا نفسه ارتمى على قفاه من الضحك . الا أنه ما لبث أن خاطب ابن الحلو :

ـ راح الهزل وجاء الجد . أنت وأصحابك لم يعد لكم مقام في تلدفّ . أنتم لا تعرفون ماذا يفعل الوالي حين يعلم . السلطان نفسه سوف يسمع ، وقد يضحك مثلما ضحكنا ، لكنه سوف يرسل الحملة لتمحو تلدفّ عن وجه الأرض .

لم يصدق أحد في البداية ما قال الآغا ، على الرغم من أن الآغا لا يهزل . وحين اقترح أبو ياسين أن يرسله الآغا الى الأمير دشاش ، لعله يتلافى الأمر مع الوالي ، أو مع السلطان نفسه ، رفض الآغا غاضباً :

ـ طوال عمري لم أطأطىء رأسي للأمير ولا للوالي نفسه . أنت خير من يعرف ذلك ، والآن تريدني أن أتوسل اليه كرمى لجنونك وجنون أصحابك . أمس كنت أرفض أن أدفع للأمير دشاش الخوّة ، حتى لا أجعله يطمع فيكم ، والآن تريدني أن أرسلك اليه ؟ غداً مع طلوع الشمس ترحلون .

لا الندم ينفع ، ولا الرجاء . لا الهياج ولا البكاء . الآغا يأمر بالرحيل الآن ، والوالي سوف يأمر غداً ، والسلطان بعد غد . وشر الآغا أهون من شرّ الوالي ومن شر السلطان .

سارت حكاية التابوت على كل شفة ولسان ، يضحك لها الفلاحون مثل الأغوات والملتزمين ، في كل قرية يعبر بها المشردون ، ثم يقلبون أيديهم إشفاقاً أو عجزاً أو شماتة ، فمن هو الذي يجرؤ على أن يمد عوناً الى من أتى تلك الكبيرة ؟

انقضى الشتاء كله فيما شمل المشردين يتبدد ، ومسالكهم تتباعد ، وأخبارهم تنقطع ، وفي آذار ماتت شقيقة ياسين الرضيعة ، وكانت الدروب قد أفضت ببقية باقية من الأسر المهجّرة الى هذه الجبال ، يقودها والد ياسين بعيداً عن تلدف وحلب كلها .

في دير عفان كانت المحطة الأولى . رحب بهم الآغا وضحك أيضاً لحكاية التابوت ، ورثى لشتائهم ، ثم أعطاهم فؤوساً كي يقلعوا الأحراش آمراً :

ـ أكسروا الأرض وازرعوها . سأدفع عنكم العشر وأقدم لكم البذار وكل ما تحتاجون ، ويكون لكم الثُمن فوق ذلك كله .

آوى الآغا كل أسرتين في بيت واحد ثلاث سنين ، قبل أن يخصّ كل أسرة ببيت ، بعد أن خسر الدعوى التي أقامها على رستم آغا . ولم يكن ثمة من يعلم علام أقيمت الدعوى وكيف صدر الحكم فيها ؟ بيد أنه أثر ذلك بشهور بدأ الفلاحون القدامى والفلاحون القادمون من تلدف يرحلون عن دير عفان الى الزنبقلي .

في تلك الأيام رأى ياسين المجيدية أول مرة . كان يرعى الجدايا في تخوم الحرش . في الغداء أرسله الرعاة ـ وكان أصغرهم ـ ليحضر الطعام من القرية ، فألفى جمعاً كبيراً حول عسكري قادم لتوه من انطاكية القريبة . كان العسكري يتباهى بالمجيدية . يقلبها

أمام الوجوه الضاحكة المشدوهة ، لا يدع أحداً يلمسها ، حتى الكبار ، ويروي الأعاجيب التي يمكن لهذه الساحرة أن تفعلها .

في الزنبقلي سمع ياسين أن آغا دير عفّان اختلف مع آغا الزنبقلي بسبب النساء ، إذْ اتهّمه بالسطو على نساء فلاحيه ، فيما اتّهم رستم آغا جاره بأنه يستضيف كل عروس في دير عفان ساعة أو ليلة ، بحسب حلاوتها ، ويفض بكارتها ، وعريسها أمام الباب يرقب الكرابيج المعلقة في مسامير الجدار الصدئة الطويلة .

رحل بيت الحلو في السنة الرابعة الى الزنبقلي ، وابتهج ياسين بالجيرة الجديدة للعاصي الذي يكبر نهر الذهب أضعافاً . كما أُخذ ياسين بهذا الآغا الذي يسير في معيته أربعون شاباً يحملون السلاح ، حين ينتقل من قرية الى أخرى أو من مكان الى آخر ، يطلقون الرصاص ، ويحشرون الآغوات الآخرين في جحورهم . لكن ياسين وأباه وكل من لجأ من تلدفّ الى دير عفّان ، ومن دير عفّان الى الزنبقلي ، ما لبث أن أدرك أيّ سوء طالع قد رماهم داخل السور !

كانت الزنبقلي كبيرة ، تقارب تلدفّ . ولم يكن من السهل على ياسين أن يأتلف مع البيت الجديد الذي يشبه المغارة ، ولا مع الوجوه الكثيرة الجديدة ، ولا مع السور الهائل الذي يسوّر القرية كلها .

كانت للسور بوابتان ، الصغرى تطل على العاصي ، وقد رأى ياسين نفسه يؤثرها لأنها لا تحجب النهر عنه . أما البوابة الكبرى العالية ، فتفضي الى الحقول والكروم التي تبذّ ما كان في تلدفّ قبل سنة الجفاف والتهجير .

بعيد الغروب كانت البوابتان تنغلقان ، فلا يعود ياسين يبصر غير السور والبيوت ، لكنه تعلم كيف يحتال على السور وطوله ورؤوس أصابعه قريباً من البوابة الصغرى ، ليرقب من وراء السور العاصي وهو يدفق حراً وقوياً . ولم يفعل ياسين ذلك الا في الليالي المظلمة ، فالقمر يفضح أية نأمة داخل السور .

يوماً بعد يوم تعود ياسين أيضاً الخروج من البوابة الكبيرة في الصباح ، والدخول منها في المساء ، مع أفواج الكبار والصغار ، تحت عين الحارس الذي يسكن في غرفة واسعة ملاصقة لتلك البوابة . ومساء بعد مساء تعود ياسين أن يتلمس جلده وهو يصغي لحكايا الجلد في الاسطبل المجاور لغرفة الحارس ، وبات يشغله أكثر فأكثر أن يعرف ما في الاسطبل : السياط أم الدواب ؟ المعالف أم الروث ؟ الجن أم الإنس ؟

كان اذا قادته قدماه الى المتبن المجاور للاسطبل يرهف أذنيه ، علّه يسمع آهة أو صرخة أو لسعة أو شتيمة ، مما يرسم خياله . كان اذا دار حول معصرة الزيتون أو عنبر الزيت لا يرفع عينيه عن الاسطبل ، ولعله تمنى في يقظته ، أورأى نفسه في الحلم قد أغضب رستم آغا مرة واحدة ، فأمر الآغا بجلده ، بل لعله سعى الى ذلك وهو غافل ، اذ أن دوره لم يتأخر كثيراً . لا بد لكل من في داخل السور أن يخطىء ذات يوم ، كبيراً كان الخطأ أم صغيراً ، ورجلاً كان الخاطىء أم امرأة ، عجوزاً أم طفلاً . واذا كان للنساء والأطفال عقاب آخر . فالجلد ينتظر الرجال في الاسطبل . ورستم آغا هو الذي يقرر متى يغدو الطفل رجلاً ، سواء أكان قد احتلم أم كانت ذقنه قد أخذت تتلون بالوبر الطويل ، أم لا . على أية حال ، لم يتأخر رستم آغا في إعلان رجولة ابن الحلو أو سواه . فالأرض ، كما الاسطبل ، تستدعي أن يعجل الطفل نحو الرجولة . ولا ينفع الطفل أو أهله أن يقصّر الخطو . لكن ياسين منذ جرب الاسطبل تلك المرة لم تعدله عين تطرف الى تلك الناحية . لم يعد يقع في خطأ . ولذلك صار مضرب المثل بين شباب الزنبقلي ، خاصة بعد أن شرعت الأيدي ترفع القصر .

كان ياسين وهو يشتغل في القصر ، لا يفتأ يتملى من الغرف العديدة الفسيحة العالية التي ترتسم واحدة تلو الأخرى . هذه للنوم ، تلك الجلوس ، هذه للطعام ، تلك للنوم أيضاً ، وتلك التي تعادل عشرة بيوت من بيوت الزنبقلي للاستقبال . وتحت ذلك كله شيدت أقبية كثيرة لتكون مستودعات اضافية ، لا تنال القنابل من جدرانها وأقواسها وسقوفها الحجرية . وأمام ذلك كله حفر الرجال بئراً هائلاً ، ليس في تلدفّ مثله ، وغير بعيد من البئر ثمة توتة تضرب في السماء ، كأنما قد غرست هنا منذ عشرات السنين ، استعداداً للقصر الذي كان لا بد أن يقوم ذات يوم .

كانت إطلالة ياسين من الغرف على الزنبقلي تصيبه بالدوار ، فيغمض عينيه متراجعاً هنيهة ، ليتأمل المداميك التي تعلو ، ويعود الى ما كان مطلوباً منه ، محاذراً أن تقع عليه عين .

من عل كانت البيوت تبدو متراصة لصق السور من أغلب الأنحاء . ليس لها الا الأبواب المفضية الى داخل الزنبقلي . لم يسمح رستم آغا ـ وربما أبوه أو جده قبله ـ بثقب السور من أجل نافذة . والجدران التي تعزل الأسر لا تسمح أيضاً . وكانت الساحة تبدو من عل أرحب ، تشي بالمهابة ، فيما كان البئر الذي يتوسطها يبدو صغيراً وجديراً حقاً بأن

يكون منهلاً للفلاحين في الليل ، بعد أن تغلق البوابة الكبرى ، وينأى العاصي ، أبعد من نهر الذهب .

في الطرف الشرقي من الساحة كانت غرفة النجار سفلو الكردي تعلن عن نفسها بغير علامة . كان سفلو يقيم في الغرفة مع أسرته ، ويصنع فيها المحاريث أو يصلح ما يعطب منها . وكانت عين ياسين لا تخطىء تلك الغرفة ، قبل أن أخذ يلمح هنداً ، ويغادره الدوار وهو يطل على الزنبقلي من فوق . صارت حدقتاه تتسعان كلما صادفتا هنداً . صار قادراً على أن يدقق في كل ما يطل عليه ، مهما صغر أو نأى ، داخل السور وخارجه . صارت الزنبقلي تبدو أجمل وأكبر . وسواء أسترق نظرة من هند أم من بيتها ، فقد أخذ يعود كل مرة الى عمله بهمة أكبر وغبطة عارمة ، فيبعث الغيظ والحسد في عيون الذين يعملون معه ، وينتزع الثناء من الحارس نفسه .

لعل دهراً بطوله وهوله قد مضى على ذلك الآن . لا بد أن القصر قد انتهى ، فها هو ذا يتلامح لياسين شامخاً ومشعشعاً ، يجلو الظلمة التي أرهقته أغلب الطريق . لقد أعانت عينيه أنوار القصر على لقاء الزنبقلي وهو ينعطف في الطريق الممهد النازل الى بوابة السور الكبرى . لم يكن ثمة في السماء نجمة واحدة ، بيد أن الأنوار ذهبت بعيداً ، في كل ناحية ، حتى الى السماء .

تسمّر يتأمل النهر الذي راح يتماوج بحدّة وكلح . تلمّس ثيابه التي تقطر ماء . أحسّ لأول مرة منذ غادر حماه أن مطراً غزيراً قد انصب فوق رأسه طوال الساعات الفائتة . وضحك لأنه لم يفكر في أي ملجأ من المطر ، وتقدم نحو البوابة يكبت الضحكة من أوهامه ، ينادي الحارس غير آبه ، لكن نباح الكلاب أجفله ، فراح يخبط على البوابة مطلقاً صوته على مداه ، وكان المطر قد عاد ينهمر ، ونباح الكلاب يعلو ويختلط في سمع ياسين بصراخ الحارس :

ـ يا كلب يا ابن الكلب ما عجبك دق الباب الا في هذا الوقت ؟

ولما تبيّنه الحارس همهم مردفاً :

ـ ابن الحلو ؟ لعنة الله عليك . والله لو كان غيرك كنت حبسته في الاصطبل .

★ ★ ★

وحده عزيز اللباد من بينهم لم يكن في عجلة من أمره ، أو هكذا غدا على الأقل منذ افترق عنهم في حمص .

لم يكن قد عرف الطريق الى صافيتا من حمص . كان اقصى ما وصل اليه قبل ان يساق الى الحرب مشارف تلكلخ ، وبعض قرى جبل الحلو ، حيث كان يقود مع فتيان قبية الحمير المحملة بدود القز .

من صافيتا قادوه الى طرابلس عن طريق آخر في ذلك الفجر الذي اجفله جنون عزيز ، وصوته يملأ وديان قبية ، شاتماً بيت بشارة ، متوعداً إياهم ما دام حياً ، ومهما طال الزمن .

ولقد طال الزمن بعزيز اللباد ، ولكن الى متى ؟ كان يتساءل وهو يقترب من قبية ، يشنّف سمعه بوقع الينابيع المتفجرة في الوادي ، أقوى وأغزر من عهده بها في مثل هذا الوقت .

كانت القطرات التي تلألأت مع المساء على أوراق التوت ، بعد أنْ هدأ المطر ، تتصادى مع وقع الينابيع في أذنيه ، بل في صدره . كانت دقات قلبه ترسل جرساً آخر ، يبحث عن الجهارة تارة ، عن الهمسة تارة ، يهدهد مشيته على درب البيت ، يؤكد له ان ما دام الموت قد فوّت عزيز اللباد ، فما همّ كل ما مضى من السنين والعذاب . ولعله كان قد أصغى إلى مثل هذا الوقع في كيانه وهو يقترب من الشام ، ويرى أنّ لقاء قبية وهذا البيت لم يعد مستحيلاً .

في فراره الأول ، وفي فراره الثاني ، كان يخشى أن يموت قبل أن يبرّد غلتّه من بيت بشارة . وقد يكون ذلك سبب هياجه الدائم في بداية عهده بالعسكرية ، كما كان سبب عزوفه عن الطعام ، وسهده أغلب الليل ، وما كان يملأ نهاره من المتاعب مع الأتراك أو مع العرب في ثكنات طرابلس وبيروت .

في فراره الثالث تيقن من أن جناحيه قد قصّا ، وأن بيت بشارة والزمن معا قد كادا له جيداً . وقد يكون ذلك ما جعله يخبط في الصحراء طويلاً قبل أن يجدّ يائساً في اثر الجيش الميمم إلى الشمال ، وكان العم حاتم أبو راسين أول من حدثه عنه .

ثانية أخذ الريش ينبت في الجناحين المقصوصين . كلما غدت الشام أقرب ، ووقعت هزيمة جديدة للأتراك والألمان ، كانت ريشة جديدة تنبت . وها هو ذا على باب البيت ، يحس أنه قد صار قادراً على الطيران ، بل إن جناحيه الآن أقوى ، والريش الذي ينبت بعد القص يكون أقسى .

من العتبة ألقى التحية على أهله المتكومين حول طبق القشّ، بوغتوا به جميعاً ، ليس فقط لأنه كان ميتاً فإذا به يبعث الآن . بل لأنه بدا للجميع قد كبر عشر مرات عمن كان حين ودعته دموعهم ودعاءاتهم . صوته جاءهم أغلظ ، قامته ملأت العتبة ، وقد زادتها مهابة ظلال السراج الشاحبة المتراقصة . والنسمة الخفيفة التي انسربت أمامه وخلفه من الباب المفتوح جعلت فضاء البيت يعبق برائحته . ولم يجد والده وهو يلاقيه ما يقوله سوى أن يتساءل عن ادعاء الناس أن العائدين من الحرب أحياء لا يعدون أن يكونوا أشباحاً !

على العشاء ، ومن بعده ، كان لدى أهله والجيران الذين سعوا اليه مسلّمين ، الكثير ليسامروه به . كان لديهم الكثير من الأسئلة أيضاً . الا أنّ عزيزاً كان قد وطن نفسه على قول واحد يكرره كل حين ثم يخلد الى الصمت . حتى اذا خلا البيت من الجيران ، قطب الوالد جبينه ، مغالباً قلقه وغيظه المتناميين ، وسأل ابنه :

ـ ما بك يا عزيز ؟ ليس على لسانك الا كلمة البدل وبيت بشارة ؟ أحمد الله على أنه لم يكن بين زوّارنا من يمكن أن ينقل كلامك . عفا الله عما مضى . وها أنت والحمد لله قد رجعت بالسلامة .

كان الوالد في واد وعزيز في واد . كان عزيز واحداً من ثمانية شبان قام بيت بشارة بتخليصهم من العسكرية ، مقابل سندات الأرض التي بحوزة آبائهم . وعلى الرغم مما فعل ذلك بعزيز الا أنه كان يعده أهون الشرور . لقد ضحى أبوه بما يملك ، وكان ذلك قيداً غليظاً قد أسر يدي الشاب الذي يكفي أن تهوي ذراعه مرة واحدة على قرمة الحطب ، لتشقها نصفين ، مهما كانت ضخمة أو رطبة .

كان يرقب شقيقه الذي تفصله عنه ثلاث شقيقات ، يتساءل عما سيأخذ بيت بشارة حين يأتي دور هذا الفتى الذي لا بد له أن يغدو شاباً . هل يكون عزيز قد جنى على شقيقه كي ينجو بجلده ؟ كيف له أن يرضى بتضحية البيت كله من أجله ؟

لم يطل القلق والأسى بعزيز ، ولم تطل الفرحة بالبيت ، اذ أن العسكرية عادت فأخذته . وحين كان صوته يملأ وديان قبية شتماً ، لم يكن ما بوالده وسائر من في قبية بأقّل . حتى الذين نجوا مما وقع فيه عزيز تلمسّوا جلودهم يخشون أن يساقوا أثره ، فتكون الأرض قد ضاعت هباء .

طويلاً ظلّ ذلك يشغل قبية ، حتى بعد أن استسلم أبو عزيز لقضاء الله وقدره ، وأضاع الولد والأرض ، وأيقن أنه منحوس ابن منحوس ، أو مذنب أو وارث ذنب

عظيم . فلو لم يكن كذلك ، لما حصل الخطأ العجيب الذي يؤكده بيت بشارة ، دون أن يعرف أحد كيف حصل ، فلم يشطب اسم عزيز اللباد من قائمة المطلوبين .

طويلاً أيضاً عاش أبو عزيز وقبية كلها على الأمل الذي يؤكده بيت بشارة جميعاً ، بتصحيح الخطأ ، وعودة عزيز ، غداً أو بعد غد .

لم يفكر أبو عزيز خلال السنة الأولى بمفاتحة بيت بشارة في أمر الأرض التي تنازل لهم عنها . ومما زاده يقيناً ، أنهم هم الذين أتوا بخبر فرار عزيز كل مرة ، حتى نفضوا أيديهم ، متذرعين بما جناه الولد الطائش على نفسه .

كان ينحي باللائمة في سره على ابنه الذي لا بد أن يكون قد ابتلي بالجنون ، كي يحاول الفرار مرة بعد مرة ، ويجعل بيت بشارة عاجزين عن إنقاذه . ولكن ما دام هذا هو حكم الله ، فالتنازل عن الأرض إذن يعدّ لاغياً . كذلك قال أخيراً وهو مطرق على غير عادته حين يخاطب بشارة الكبير أمام فلاحي قبية . لكن بشارة رد ملاطفاً :

ـ الحق معك ان تفكر هكذا ، فمثلك لا يعرف كم كلفنا عزيز . من منكم يعرف كيف نرضي فلان وعلان حتى نخلص ابنه من العسكرية ؟ خصوصاً اذا كان المطلوب مثل عزيز ، من فرار الى فرار ، وكل فرار يكلفنا أكثر من الأول ؟

كان أبو عزيز قد رفع رأسه وهو يؤشر به مؤمّناً على ما يسمع ، وبشارة يتابع منقّلاً عينيه بين الفلاحين والوادي :

ـ من منكم يعرف كم تكلف اليوم اعادة الأرض ؟ لا أحد منا يقول لا . تريد الأرض ؟ حقك محفوظ ، ولكن من يدفع ؟ من يدفع أيضاً ما تكلفناه بسبب عزيز ؟ نحن نعرف أن الدنيا عسيرة ، لكن أليس من حقنا نصف ما تكلفناه على الأقل ؟ كرمى لكم نسامح بالنصف ، والباقي ؟ من يحسب جيداً هنا ؟ هل تستحق الأرض نصف ما تكلفه اليوم اعادتها وربع ما صرفنا بسبب عزيز ؟ احسبها يا أبو عزيز ورد لي الجواب . .

هكذا نسيت الأرض ، ثم نسي عزيز ، ولم يبق سوى وعد بيت بشارة بالعون حين يطلب الابن الثاني الى العسكرية .

كان لعزيز ما يكفيه من أسباب الحنق والنقمة على بيت بشارة قبل أن تأتي العسكرية . كان شأنه شأن الآخرين من شباب قبية ، ينشأون بين الولاء لأسياد القرية المباشرين من بيت بشارة ، ولأسياد العشيرة التي ينتمون اليها من بيت الدباس . كذلك نشأ آباؤهم من قبل . لكن الزمن حسم أمر الكبار ، وجعلهم يعيشون ذلك التناقض

علىٰ نحو ما ، يبدو بالغ الانسجام . وكان بيت الدباس أنفسهم يرعون ذلك غالباً ، فلا يغفرون جراءة على بيت بشارة ، مما كان الشبان يأتونه أحياناً ، وهم يحسبون أن خلفهم سنداً من زعماء العشيرة العتيدة .

أما عزيز فقد حزم أمره ، سواء أرضي بيت الدباس أم غضبوا . لقد تيقن من أن الأرض كبيرة جداً ، وفي كل شبرٍ منها ثمة لقمة للانسان . وهو على يقين أيضاً من أنه لن يرى أفظع مما رأى . فليقل الوالد ما يروق له . ليحلف كما يشاء على أنه سينسى عزيز اللباد إنْ أتى بما يسوء لبيت بشارة . لتبك الأم أيضاً . ليقع شقيقه الذي غدا شاباً الى جانبه ، كالجرو يتمسح به ويرجوه هو الآخر أن يخزي الشيطان . انهم جميعاً لا يعرفون عزيز اللباد الذي صار ، ولعلهم لا يعرفون ماذا فعل بيت بشارة ؟!

كل ما عرفه مما وقع في غيابه كان يزيده تصميماً . فلماذا هو وحده من دون الناس أجمعين ؟ أي خطأ يخصّه وحده ، هذا الذي يحكون عنه ؟ ولئن كان كل ما يقال صحيحاً ، فماذا يعني بعد أن ذهب الأتراك ؟ وما دام شقيقه لن يساق الى العسكرية ، فبماذا سيعوض بيت بشارة عن الأرض الآن؟

كان الوالد أكثر إصراراً في رفضه أن يفاتح بيت بشارة من جديد ، كما اقترح عزيز . ما انقضى بالنسبة للوالد قد انقضى ، والمؤمن لا يحقد . إنْ هو الا قدر مكتوب ـ كان يكرر ويضيف :

ـ لا بد أنهم يفكرون مثلك بالوضع الجديد . .

لكن ما انقضى بالنسبة لعزيز كان سيودي بحياته ، كما أودى بمستقبله ومستقبل اخوته . وفي الصباح البارد الماطر كان يفكر ـ وقد أفاق قبلهم جميعاً ، على الرغم من أنه نام بعدهم جميعاً أن بيت بشارة قد يكونون فعلوا ما فعلوا انتقاماً منه على ما كان يردده مع أقرانه ضدهم أحياناً ، مازحين أو جادين . لعل أحداً قد نقل اليهم ذلك ، فاكتفوا بالتلويح لوالده ، واكتفى والده بالتلويح له ، ثم جاءت الضربة حين جاءت العسكرية ، وحجر بيت بشارة لا تصيب عصفوراً واحداً ، بل عشرين معاً . لقد أبعدوا ابن اللباد عن قبية اذن ، وهو أقوى شبابها . لقد أخذوا الأرض أيضاً ، وكسروا شوكة أبيه الذي كانت القرية كلها تصغي لما يقول ، ولا ترد له كلمة ، فباتت كما يؤكد الوالد بنفسه ، لا تقيم له شأناً ، متذرعاً بالحرب ولاعناً زمنها الأغبر .

ما كان عزيز راغباً قطّ في أن يغضب والده أو يخالفه . بيد أن الوالد هو الذي عاد يقسم فيما عزيز يضع قدمه خارج عتبة البيت :

ـ إذا خالفتني لا تضع قدمك داخل هذه العتبة حتى أموت .

ما كان عزيز راغباً أن يجعل أمه وإخوته يبكون ، ولكن ما عساه يفعل إنْ كان أبوه لا يزال مثلما كان منذ عرفه ؟ ماذا يفعل إنْ كان أبوه لا يرى من الدنيا سوى بيت بشارة وبيت الدباس ؟

كان عزيز وهو يصغي في الليل الى أبيه يزداد تمسكاً بهذا الذي يحسّ أنه قد طرأ عليه أو تبدل فيه خلال غيابه عن هذا البيت ، دون أن يكون قادراً على تحديده . كان يفكر أنه إنْ انصاع الى أبيه فسوف يضيع كل ذلك ، سوف يضيع سنواته التي غاب فيها عن قبية ، ليعود مثلما كان ، بل أسوأ مما كان .

لفح الهواء المندفع من الشرق وجهه ، فاستدار يتملّى السهل الذي ينفرش تحت قدميه ، نحو البحر أو نحو طرابلس ، تحرسه من الطرف المقابل تلك الجبال التي راهن مراراً في طرابلس على أنها أخفض من هذا الجبل الذي تجثم في رأسه قبية وصافيتا نفسها . خيل اليه أنه يرى جيداً التواءات نهر الكبير وسط ذلك السهل ، بل إنه يرى ينابيع النهر في تلك الجبال ، ولكن لماذا لا تستطيع الينابيع ها هنا أن تصنع نهراً ؟ أدار رأسه باحثا عن قطعة الأرض التي ضاعت ، وهمّ بملاقاتها ، لكن الريح الشرقية صفعته ، فلملم أطراف سترته واندفع في وجهها ، متجاوزاً قطعة الأرض ، كأنه يعدو ، خشية أن تفرّ صافيتا قبل أن يمسك بها .

كان الهواء في صافيتا أقوى ، يباغته في أيّ زقاق ، خلف أيّ جدار ، كأنما يردعه عن عمارة بيت بشارة ، قريباً من البرج .

لم يكن بشارة ، وهو أكبر من في تلك العمارة وتلك العائلة ، قد أفطر بعد . وكان على عزيز أن يلبث بانتظاره زمناً كافياً ليتفاقم ما به ، ويقلب الحديث الذي سيدور عما قليل فيزيد حدة وحسماً ، حتى اذا أطلّ بشارة ، نهض عزيز مثل الآخرين الذين كانوا قد سبقوه أو وصلوا بعده الى الصالة الدافئة الكبيرة .

لم يصافح بشارة أحداً من زواره المبكرين ، لكنه خصّ عزيز بنظرة ملأى بالعجب والمباغتة ، أردفها وهو يجلس :

ـ بالسلامة يا ابني .

والتفت الى أقرب الرجال اليه بادئاً الكلام . ثم راح ينتقل من رجل إلى آخر ، مستثنياً عزيز الذي يتوسطهم ، وعزيز يهم بقطع كلام بشارة أو محدثه ، ثم يتريث مؤملاً فرصة أفضل ، ويفرك كفيه ويتقلقل في قعدته ، مسترقـاً النظر من هذا الرجل الذي بدا

كأنه قد نسيه تماماً . ولما رأى عزيز الرجل يمعن في تجاهله أو تأخيره نفذ صبره وخرج صوته الحبيس :

ـ عن اذنك أنا مستعجل .

التفت بشارة بأناة وحَيْدة آمراً :

ـ انتظر يا ابني . لي معك حديث على انفراد ، ومازلنا في الضحى .

وعاد إلى محدثه ، فيما رمقت العيون هذا العسكري الشاب الذي سوف يكون له حديث منفرد مع ذلك الرجل ، واختلج عزيز نفسه وهو يردف :

ـ مازلنا في الضحى لكنني مستعجل . .

ربما جاء صوته مجافياً ، اذ بحلقت به العيون منكرة . ولم يخف غيظ الرجل الذي قال :

ـ قلت لك انتظر .

زفر عزيز متطلعاً فيمن حوله ، ولعل صوته جاء أكثر جفاء :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله !

قال بشارة زاجراً :

ـ عزيز . . .

وأدار وجهه الى محدثه ، لكنه بوغت بعزيز يمط صوته :

ـ نعم . .

كل كلمة أوكل حركة كانت كافية لأن تدفعه أبعد . ولم يكن لبشارة أن يسمح بزيادة ، كما لم تعد عيون الحاضرين قادرة على أن تحتمل . كان كل من في الصالة الا عزيز يبحث عن الكلمة التالية المناسبة ، فقد كانت عيناه تطوفان فوق رأس بشارة ، في فضاء الصالة ، تفطنان الى أنهما قد جاءتا الى هذه المكان لأول مرة ، وكان بشارة قد قطع الصمت :

ـ وصلت الآن ؟ عجّل الى أهلك ليفرحوا بك ، وعد إليّ مع والدك . أو اسمع : أنا ذاهب الى قبية خلال هذا الاسبوع .

انفرجت أسارير عزيز وقد أحس أنه أمسك الزمام ، وقال :

ـ أنا قادم من هناك . والدي حكى لي ما عنده ، والمسألة الآن بيني وبينك . والدي لا علاقة له .

لا حيلة لبشارة من بعد . لقد صدق حدسه ، فبالأمس انكسرت المرآة وجرحت كفه ، واليوم ، منذ استيقظ ، لم يفتأ جفنه الأيسر يرفّ ، وها هو ما توجسّ منه حين باغته حضور عزيز اللباد في الصالة يتأكد . ليس أمامه الآن الاأن يخوض فيما يصرّ عليه هذا الولد الوقح ، وبشارة أدرى به . بيد أنه رغم ذلك يلقي بورقة أخيرة عثر عليها فجأة :

- طيب طيب . قلت لك انتظر . نتكلم على انفراد .

لذّ لعزيز أن يجد بشارة كذلك ، وأضاء الظفر عينيه ، فسأل غير آبه :

- وهل بيننا أسرار ؟

همهم الحاضرون تتناوشهم الخشية على هذا الشاب الأهوج ، والرغبة في أن لا ينقطع هذا الحوار الساخن ، والتمعت في عيونهم الدهشة والانكار والشماتة والشفقة .

نهض بشارة على مهل قائلاً :

- أسرار ؟ ما بقي الا أن يكون بيني وبين الأولاد أسرار ! هذا ما تعلمته من العسكرية والغربة ؟

وقف عزيز والآخرون .

- قصدك ؟

- قلة الأدب . .

- الأدب تعلمته قبل العسكرية والغربة وبعدها ، ولا داعي لهذا الكلام .

قاطعة بشارة وهو يخطو نحوه ملوحاً بكفه :

- قليل الأدب .

تقدم عزيز وصوته يعلو على هرج الآخرين :

- احفظ كلامك وشيبتك .

- أنا يا واطي ؟

أوقف الرجال خطوات عزيز وبشارة ، فحملق فيهم عزيز متسائلاً :

- أنا واطي ؟ طيب اذا كنت أنا الواطي ، من يكون من يجعل والدي يتنازل له عن أرضه حتى يعفيني من العسكرية ، وفي اليوم الثاني يرسلني اليها ؟

والتفت الى بشارة :

ـ الأتراك غشوك ؟ كذبوا عليك مثلما كذبت علينا ؟ وما فعلوها معك إلا على دوري ؟ أم أنك كنت فعلاً ستعوض علينا بإعفاء شقيقي من العسكرية بعد عمر طويل ؟ ها قد رحل الأتراك فبماذا ستعوض علينا الآن ؟

صاح بشارة :

ـ لا كلام لي معك أنت . كلامي مع والدك . واذا لم يعرف يربيك فأنا سأعلمه . اخرج من بيتي .

واندفع نحو عزيز فتمسّك بذراعيه من كان حوله ، واندفع عزيز نحوه فحال دونه آخرون ، وصدع صوته الصالة والعمارة والزقاق :

ـ أليس عندك غير هذا الكلام ؟ قل إنك سترجع الأرض لنا . أين السند ؟ هذه الرقبة أو السند . .

وحزّ بكفه على رقبته فرد بشارة أكثر هياجاً :

ـ اشهدوا يا أوادم : عزيز اللباد لا قعود له في ملك بيت بشارة . أبوه رجل عاقل وطيب ، لن أطرده بسبب هذا الكلب . وردة وخلّفت شوكة . وحياة العذراء إذا سمعت أن ابن امرأة رآه يمشي في شبر من أرض بيت بشارة ، ولم يطرده ، فلن يكون له هو الآخر عندي قعود .

وتطلع بعزيز ساخراً .

ـ تتركنا أم أطلب الدرك ؟

قال عزيز :

ـ اطلبهم . أين زلمك اذن ؟

ولوح بسيدارته عالياً :

ـ ترى هذه ؟

قهقه بشارة :

ـ صدقت أنك صرت ابن حكومة ؟ أنت وسيدارتك مسمار في حذائي هذا ، غداً أراك بعد أن يأخذوها منك .

وصرخ في الحاضرين :

ـ تخرجونه أم أطلب الدرك ؟

وضع عزيز سيدارته على رأسه ، واتجه الى الباب ، مبعداً من كان حوله ، وشتم بيت بشارة ، من الكبير الى المقمط في السرير ، وخرج يلاحقه الهرج ، ملاقياً سفع الهواء ، وراح يخبط على الأحجار المرصوفة كيفما اتفق في الزقاق ، سعيداً بما أتى .

كانت الغيوم قد أخذت تتبدد إلا في الأفق ، على تخوم البحر . وكانت الشوارع خالية ، والهواء يدويّ ، مثلما كانت أشتات عزيز تدوي في رأسه ، فما فعل ليس هيناً ، وبشارة ليس سهلاً . ليس ثمة من لا يحسب لبيت بشارة أي حساب ، كائناً من كان . والآن بات على عزيز اللباد أن يفكر ، على الرغم من أنه لم يبتعد عن تلك العمارة مئات الخطوات .

تراه كان يستمد دون أن يدري من بذلته الحكومية شجاعة وحماية ؟ هل يكون بشارة قد صبر عليه أو ضعف أمامه بسبب تلك البذلة ؟

لم يفكر عزيز يوماً في أنه سوف يلبس البذلة بعد أن تنتهي عسكريته . وها هي قد انتهت ، فلماذا لا يرمي بهذه السيدارة في الوادي ؟ قد يطلبون منه أن يخلع البذلة فور عودته من هذه الاجازة ، وقد يخلعها هو إنْ طلبوا منه في الشام أن يذهب الى مكان آخر . فعزيز يعرف أن الحرب لم تنته ، وأنه لن يبقى في الشام حتى يلقى وجه ربه . لقد تابع كثيرون من أمثاله خلف الانكليز أو أمامهم الى بيروت أو حمص أو حلب . وكان أحياناً يرغب أن يكون في عداد أولاء ، على الرغم من سخرية ياسين وفياض واسماعيل . وحده راغب الناصح كان لا يسخر منه ، ولكن اللعين كان يطوي اذنيه ويسكت . هل يكون هو الذي دبّر أمر بقاء المجموعة بكاملها في القشلة ؟ أيكون قد طلب ذلك من صاحبه الضابط الحلبي ، دون أن يحدث أحداً ، كما لم يحدث بسرّ المخفر أحداً ؟

حسناً ـ فكر عزيز ـ سواء أكان راغب الناصح أم سواه ، فلا بد من أن ترمى هذه البذلة . عاجلاً أم آجلاً سوف يرميها عزيز ، ويعود الى قبية ، سواء أرضي والده وبيت بشارة أم لم يرضوا .

كان يسير في الاتجاه المعاكس لقبية ، يود لو يضحك من ذلك الذي بدا قبل قليل مثل القملة المفروكة . ولكن أية قملة هذه ؟ عن أية قملة أو برغوث تتحدث يا عزيز ـ خاطب نفسه ـ ؟ من أنت حتى تتصدى لبيت بشارة ؟ في غيبتك ملكوا قبية من طرفها الى طرفها ، لم يعد في قبية كما قال لك والدك أمس فلاح يملك وفلاح لا يملك . كل من فيها

صاروا مرابعين . ولعلهم لذلك لم يعودوا يأبهون بوالدك . كانت الخطوة الأولى ثمانية سندات وثمانية بدلات من العسكرية ، ثم انفرطت السبّحة ، من العشر الى الجوع الى العسكرية أيضاً ، كان والدك بالأمس يسمّي أهل قبية بيتاً بيتاً ، يعزّيك عما مضى مثلما عزّى نفسه طويلاً . ومن جديد أعاد عليك حكاية الشيخ خليل النميلة وبيت بشارة ، كأنك لم تسمع بها من قبل . فمن دعاء الشيخ خليل منّ الله على بيت بشارة بهذا الرزق ، وسيمنّ ، وعلى عزيز أن يسلم . من حداد تحدّروا يتوارثون دعاء الشيخ لجدهم الذي صنع مربطاً للخيل بجوار المزار الحامي للمنطقة كلها ، ولم يقبل الحداد أن يقبض أجرا . لم يطلب غير الدعاء . والشيخ أرسل ذلك الدعاء ، متشفعاً بالعذراء نفسها ، بحق النور والبخور ، وأبواب السماء كانت مفتوحة ، وصاحب العرش ماردّ يوماً للشيخ خليل رجاء ولا دعاء ، فاعقل يا عزيز .

اعقل يا عزيز . والده كان يخاطبه بالأمس ، حنوناً تارة معنفاً تارة ، مثلما كان يفعل قبل العسكرية ، حتى اذا أعيته الحيلة ، أطرق يردد ما كان يقرع به أيّاً من أبنائه اذا أخطأ خطأ هيناً أو جسيماً :

نصحتك ما انتصحت وطبعك ع الردى غالب
ودنب الكلب أعوج ولو حطوه بألف قالب

لم تكن لصوت الأب الآن رنته القديمة ، بيد أن الأمر يغدو في سمع عزيز أوضح وأقوى : اعقل . إنه صوت أمه أيضاً ، ونفسه تهفو الى هدهدتها التي كانت تلون هجعته في الليل الصحراوي :

بغنّيلك وبغنّيلك ودنب الجحشة قنديلك
والبرغوث بيصفقلك والقملة بتهاهيك

لكن الأمر أمر والهدهدة هدهدة ، وعزيز يفتقد البحّة الحنونة ، فيلوي حرداً عن أبيه وأمه ، ويخاطب نفسه رفيقاً : اعقل يا عزيز ، فتفلت نفسه إلى الشيخ خليل معاتبة على ما أورث لبيت بشارة والفلاحين . وفكر في أن ذلك قد كان منذ عشرات السنين ، ولا ينبغي له أن يستمر حتى يوم القيامة . بل إن ذلك كله ربما كان حكاية من الحكايات ، ربما كان صحيحاً وربما كان حكاية من الحكايات ، لكن كل الذين يقدسون الشيخ خليل ، يسلمون لبيت بشارة ، على الرغم من أنهم ليسوا من دينهم ، فكيف استقام ذلك كل هذا الزمن ؟ لقبية دين آخر وعشيرة أخرى ، لكل هؤلاء الذين كانوا

يتكومون في الصالة دين آخر وعشيرة أخرى ، فهل يدعون عزيزاً بمفرده في وجه بيت بشارة ؟

استراح عزيز الى ظل من الطمأنينة ، ولأنه لم يكن لديه ما يفعله سوى أن يهجس ويغالب الريح الشرقية ، ألفى نفسه يتجه الى بيت الدباس ، في طرف البلدة ، فهم زعماء العشيرة على كل حال ، ولئن كانوا لا يغفرون تطاولاً على بيت بشارة ، فليس يعقل أن يتركوه فريسة لهم أو لسواهم . انهم ملزمون بأمره ، ولا بد لهم أن يتفهموا أسبابه ، بل وأن يفخروا به . أما إنْ قالوا له كما يقولون الى من يفرّ اليهم من بيت بشارة :

- روح بوس حذاء سيدك حتى يسمح لك . .

فسيدير ظهره ويمضي . هذا بالضبط ما لن يفعله ولو حزّوا عنقه . لن يكون هيناً عليه بالتأكيد أن يحرم من هذه الدنيا التي رعى فيها صغيراً الماعز والغنم والبقر . لن يكون سهلاً أن لا يشرب من تلك العيون التي تتفجر في أجناب الوديان ، ولا أن يحرم من اللعب في المسيلات . ولكن ما عساه يفعل إنْ خيب بيت الدباس رجاءه ؟

أخذت أصداء الصبا القريب والطفولة الأقرب تفر اليه من قبية ، تزاحمه في طريقه الى بيت الدباس ، تتركه يسرق الجوز الأخضر ، يذرو قشره في هذه الريح ، يفرك يده بالقشر ويملأ صدره بأغصان الغار كي تضعها أمه في الدست ، ليطيب الماء الذي ستفرك به رأس عزيز أولاً . يعاهد امه على أن لا يناكد مع أقرانه وكيل بيت بشارة ، يقبّل يد أبيه ليرضى ، ولكنه لن يقبّل يداً لبيت بشارة . لا ريب لديه في أنهم سيغفرون إنْ فعل . قد يتدلل بشارة قليلاً ، لكنه سوف يرضى . لقد كان دائماً يرضى ،سواء أفرض على المذنب عقاباً ، أم عفا عنه . بشارة يعرف أنّ هذا الذي يقبّل يديه قادم لتوه من بيت الدباس ، سواء أكان عزيز اللباد أم جد عزيز اللباد . لكنه لن يفعل . كل ما قد يطلبه منه بيت الدباس لقاء أن يجدوا لمشكلته حلاً ، سوف ينفذه ، الا ان تكون قبلة على أعتاب بيت بشارة .

تلك هي عمارة بيت الدباس التي زارها مرة مع والده ، وقبّل فيها أيادي عديدة لرجال لا يعرف الا أنهم شيوخ وزعماء . بدت العمارة شبحاً هائلاً وهي تطلّ على أمداء الحواكير المنحدرة وكروم الزيتون . أطلق عزيز عينيه في الحواكير والكروم ، وكانت اندفاعة الريح قد أخذت تهدأ ، بينما شرع رذاذ ناعش يعابثه .

تلك هي أملاك بيت الدباس ، فكر عزيز ، وأوشك أن يصلي على النبي ، لكنه تذكر أن لهم أملاكاً أخرى أكبر ، في سائر الجهات . بل ان بعض من كان معه في ثكنة

طرابلس أكدوا أن لبيت الدباس أملاكاً في طرطوس وفي سهل عكار ، وربما كان البحر المواجه للجبل الذي تجثم عليه صافيتا ملكاً لهم أيضاً .

دار عزيز حول العمارة ضاحكاً من نفسه وممن كان معه في طرابلس ومن البحر الذي لا يعقل أن يكون ملكاً لأحد . ودخل أهدأ الى مجلس ابن الدباس الذي هشّ له ، وناوله كفه أن يقبلها ، وأغرقه بالسؤال عن أبيه وعن عسكريته وعن قبية . لم يستطع عزيز أن يحدث ابن الدباس عن بيت بشارة ، حتى انتهت الغداء ، وسأله الرجل عما إنْ كان يروم أمراً ، وكان يتأهب للقيلولة والحاضرون واقفين .

تجهم ابن الدباس وعاد الى مجلسه . وحار عزيز في الصمت الذي طال ، خاف بالأحرى أن يواجه هنا مثلما واجه في الضحى ، إذ لن يكون بوسعه أن يتمادى هنا مثلما تمادى هناك . ولئن فعل فماذا سيبقى له في صافيتا كلها ؟ تراه أخطأ في كل هذا الذي هيأ نفسه له منذ سنين ؟

كان السؤال يفاقم ارتباكه حين نطق ابن الدباس أخيراً :

ـ عد الآن الى الشام ، وفيما بعد ننظر في المسألة .

ارتجفت ذقن عزيز فرحاً وامتناناً ، وألفى نفسه يتساءل وهو يهجم على يد ابن الدباس ليقبلها :

ـ أمرك ، وان شاء الله لا أتأخر في العودة نهائياً الى هنا . .

توقف لسانه في سقف حلقه كأنما فطن الى ما هو أهم ، وتلجلج بعد لأي :

ـ أرحني أراحك الله . ماذا أفعل إذا عدت ؟ لا تؤاخذني ، يجب أن أعرف إذا كنت أعود أم لا ؟

بقدر ما كانت كلماته راجية ، مرتبكة ، كانت أيضاً تشي بالحزم . ولم يكد ينتهي حتى اقترب أحدهم من اذن ابن الدباس هامساً ، وابن الدباس لا يرفع عينيه عن عزيز ، ثم يقول ، وكفه تشير شرقاً :

ـ اذا لم تعد عسكرياً تكون مثل العواطلية على التلّة .

هجم عزيز ثانية على يد ابن الدباس ثم عدا نحو الباب يلهج بالشكر والدعاء . ولعله في الطريق من العمارة الى البلدة كان يعدو . ولعل الريح الشرقية كانت قد عادت أقوى ، كما أن المطر عاد ينصب . ولكن ما همّ عزيز بعد أن نجا من الخيار بين استغفار بيت بشارة والرحيل عن صافيتا كلها ، وليس عن قبية ؟ لقد خصّه ابن الدباس وحده بذلك . فليكن عاطولياً في التلة أو في سواها . لن يظل كذلك حتى يموت . هي سنة ،

سنتان ، خمس ، ثم يخصه ابن الدباس بقطعة من هذه الأراضي التي تملأ العين ، ويغدو مرابعاً مثله مثل أبيه ، مثل الآخرين جميعاً في قبية ، ولتعرف الدنيا كلها بما وقع بينه وبين بيت بشارة ، يجب ان يسمع ابوه وقبية وصافيتا كلها بما كان هذا الضحى . قد لا يجرؤ الذين شهدوا على أن يرووا . قد لا يجرؤون على أن ينصفوه ، ولذلك سيفعل بنفسه . ينبغي عليه أن يفعل قبل ان يعود الى الشام . ما زالت له في الاجازة فسحة كبيرة ، ولذلك راح ينتقل في الدكاكين التي يقصدها عادة الناس من قبية . وبين اصحاب الدكاكين التي وجدها مفتوحة كثيرون يعرفونه ، ولا بأس أن لا يصادف في أي منها في مثل هذا النهار العاصف الماطر أحداً من قبية ، فلا بد أن تصحو السماء غداً أو بعد غد ، وتسمع قبية من أصحاب الدكاكين بما فعل عزيز اللباد بالآغا المسيحي .

★ ★ ★

3

في ركن من بهو الأوتيل كان يضطجع ابن الأكاشي مسوّراً بعدد ممّن تؤكد ثيابهم أنهم من علية القوم . والى جانبه جلس الملازم تحسين شداد ، مشدود الجذع ، تنطق عيناه بالحرج ممن حوله ، سواء من عرف منهم صديقاً لأبيه ، أم من يراه لأول مرة ، فقد كانوا جميعاً يكبرونه كثيراً .

كان يستمد من بذّته عوناً ، وينشد عوناً في أن يظهر ضابط آخر ، وإنْ يكن أعلى رتبة ، من باب الأوتيل ، أومن احدى زواياه ، وبخاصة أن يكون من سيظهر واحداً ممن عرف ، سواء في استنبول أم في الطريق الى الشام ، أم لتوه في القشلة الحميدية ومجالس الشام . فلا بد أن ذلك سوف يجعله أجرأ على أن يتابع ماانقطع من حديثه مع ابن الأكاشي اذ هجم عليهما الآخرون . ولم يلبث أن نسي ذلك حين أثنى أحدهم على المرحوم الذي بذل الغالي في سبيل مثل هذه الأيام ، فأطرق تحسين إجلالا لذكرى أبيه ، ثم رفع عينه على مهل نحو ابن الأكاشي الذي جاء صوته أقرب الى الهمس :

ـ لا غريب بيننا .

وتلفت حوله ثم أردف بصوت أعلى :

ـ من خلّف ما مات ، وتحسين خير خلف لخير سلف . ظني والعلم علم الله أنه سيكون ذا شأن ، والشام بحاجة اليوم وبعده لمن كانوا مثله . صحيح أنه لا يزال في أول الطريق ، لا يزال فتياً ، ولكن أنا من يعرف ماذا فعل منذ كان في استنبول . اسألوني أنا .

وعاد الى تحسين :

ـ يجب ان نستفيد منك اليوم هنا . قد لا يعرف الأمير ولا الحاكم العسكري من تكون ولكن اصبر عليّ .

قال أحدهم ساخرا :

ـ ولا الجنرال .

ارتبك تحسين وعاتبت عينا ابن الأكاشي فعاد الرجل يخاطبه :

ـ لا تزعل مني . أنا لا أقصدك . أنت ترى مثلنا اذن مايجري .

قال ابن الأكاشي :

ـ علينا أن نحسن الظن ، ومالنا في القصر إلا من امبارح العصر . .

عاد الرجل :

ـ أوله شرط آخره نور . . . هذه الفوضى يجب ان تنتهي . ماذا يفعل تحسين مثلا وغير تحسين في القشلات ؟ اذا كان الآخرون يلحقون بالأتراك ، فعلى ماذا نتفرج هنا ؟ أم أن الجنرال لم يأمر بعد بتوزيع العساكر على المخافر وعودة النظام ؟

قال ابن الأكاشي :

ـ هكذا أنت دائما . لا هم لك إلا النظام .

همس تحسين :

ـ النظام أولا .

قال ابن الأكاشي ضاحكاً :

ـ ما قلنا لا ، ولكن عمرها العجلة ما ساقت الجمل . أنت معذور يا ابني ، أنت شاب ، أما رضا بك . .

همهم آخرون ضاحكين :

ـ ورضا بك شاب . .

قال رضا بك حازماً :

ـ اليوم سأقول لهم هذا الكلام . ليس فقط أن يملأوا المخافر الشاغرة ، بل أن يحدثوا مخافر جديدة .

قال أحدهم :

ـ في الشام مخافر تكفيها .

قال رضا بك :

ـ ليس هنا في المدينة ، النظام في كل مكان .

قال تحسين منغماً صوته :

ـ البك على حق ، نحن معك يا بك . العساكر أكل ومرعى وقلّة صنعة هذه الأيام .

قال ابن الأكاشي :

ـ أتركوهم يلتقطوا أنفاسهم .

قال رضا بك :

ـ الدنيا لا تنتظر .

قال أحدهم ، الى يمينه ، وكان يبدو أكبرهم سناً :

ـ بدلاً من أن تفكروا في هذا ، فكروا فيما يجري على الساحل . فرنسا بدأت اللعب ولن تترك علمنا يرفرف هناك ، والانكليز لاهون ، ونحن نريد أن نوزع العساكر على المخافر ، وأن نزيد المخافر ، كأن الحرب انتهت .

قال تحسين :

ـ ما تقوله حق أيضاً . نحن خائفون أيضاً ولا حديث بين الضباط الا هذا الحديث . .

قال أحدهم :

ـ الجنرال مستعجل على تقسيم البلاد الى مناطق عسكرية ، أو تنظيمها كما صحّح الأمير لي ، لا تضحكوا ، وأنتم مستعجلون على النظام هنا والمخافر وما لا أدري ، وفرنسا مستعجلة على الساحل والانكليز مستعجلون على استنبول . . ما شاء الله . .

قال ابن الأكاشي يحذر :

ـ يا أخي : لا الانكليز ولا الفرنسيون . . ما حكّ جلدك مثل ظفرك .

أيد تحسين بحماسة :

ـ هذا هو القول الحق . .

قال رضا بك :

ـ ارفعوا صوتكم اذن منذ الآن .

قال ابن الأكاشي بحذر أكبر :

ـ ليس هذا بالوقت المناسب . كل شيء في وقته حلو .

ونهض مباغتاً يرحب :

ـ أهلاً بالأمير . .

فانشدت الأعناق الى حيث يتطلع ، ثم نهض الجميع يرحبون بأمير الحج ويفسحون له ، فيما ابن الأكاشي يهمس في اذن تحسين :

ـ ما الذي يجيىء به الى هنا ؟ مكانه في استنبول إذا بقي له مكان . ألا تعرفه ؟

همس تحسين :
ـ أعرف صهره شكيم باشا . كان صديقاً للمرحوم .
ـ صهره منا وفينا . صهره من خيرة الرجال . والأمير أيضاً رجل مؤمن وذو شأن ، ولكنهُ اختار درباً غير دربنا .
ـ لعله بدّل .
ـ بعد ماذا ؟ الآن بعدما انتصر الحق وزهق الباطل ؟ وظني يا ابني أن الرجل لا يبدل هواه ، وهواه ليس معنا .
ـ أنا ذاهب اذن .
ـ الى أين ؟ لا ، ليس الآن ، حتى لا يفسّر ذهابك كما يحلو له .
وبوغتا بحشرجة أمير الحج :
ـ بماذا تتهامسان ؟ شاركونا . .
أسرع ابن الأكاشي :
ـ كنت أحدث تحسين أفندي عن الباشا شكيم . اشتقنا له . أين هو ؟
تساءل رضا بك :
ـ لم يلمحه أحد هذين اليومين . علمي أنه في الشام .
قال أمير الحج بصوت أنقى :
ـ جسمه متعب . متعب قليلاً .
تراخى ابن الأكاشي الى الخلف يزفر :
ـ من منا لم يهده التعب !
أرسل الأمير عينيه الكليلتين عبر باب الأوتيل وتنهد :
ـ التعب لم يأت بعد . .
قال أحدهم :
ـ راح الكثير وما بقي الا القليل ، والمهم أن الله سبحانه وتعالى لا يضيع تعبنا . .
جاهد الأمير كي يأتي صوته طبيعياً :
ـ الله سبحانه وتعالى لا يضيع أجراً ، ومن يعمر يتعب أكثر ممن يهدم ، ها قد خلصتم من الهدم فهاتوا الآن .
قال ابن الأكاشي :
ـ كنا نحكي قبل قليل عن توزيع العساكر على المخافر واعادة النظام . .

قال الأمير مقاطعاً :

ـ لا تتلهوا بالقضايا الصغيرة .

تساءل تحسين بأدب :

ـ ما القضايا الكبيرة اذن ؟

قال الأمير متعالياً :

ـ أنت صغير على ذلك . ما عرفتموني على هذا الشاب ؟ القضايا الكبيرة تحتاج الى رجال كبار . هؤلاء الأبالسة مثلاً : الانكليز ، راية الاسلام مثلاً ، هل أعدّ عليكم ؟

تطامن تحسين وترك الآخرين يردون على الأمير وهو يفكر في ردّ مفحم ، ولكن ذلك طال به ، وصوت الأمير عاد أعلى ، فلم يجد خيراً من أن يقاطعه بنهوضه وتعلله بما ينتظره في القشلة مما هو أهم . وأسعده أن يتوقف الأمير ممتعضاً ، فراح ينقل كفه مودعاً ومبالغاً في الاحترام ، حتى اذا وصل الى الأمير ، وقد تعمد أن يكون آخر من يودع ، صافح على عجل وانطلق مبتسماً وواثقاً ، تلاحقه أصواتهم :

ـ بحفظ الله .

ولم يكن سهلاً على الأمير من بعد أن يعود الى ما كان منطلقاً به .

★ ★ ★

خلت القشلة من الجنود ، بل خلت الشام من الناس ، حين غاب ياسين وفياض وأبو عاطف وعزيز عن عيني راغب الناصح ، وخلفوه وحيداً ينتظر المخفر والضابط الحلبي .

لم يتناول الغداء في اليوم الأول ، ولم يستطع ان يبادل الكلام أحداً . لم يكن ثمة ما يقوم به سوى أن يكابد الشوق الذي ضاعفته الوحدة الى العال ، ويغالب الندم لأنه آلى ألّا يعود اليها بلا المخفر . وكان الندم الذي هجم عليه فجأة وفاقم ضيقه مشوباً بالخوف والشك ، فراح يبحث عن الضابط الحلبي الذي لعب بعقله ذات يوم قرب الناصرة ، وكانت حكاية المخفر .

قبل الناصرة بكثير أحب راغب الملازم تحسين شداد وأعجب به . وأحبه الملازم وآثره من بين الآخرين . ربما كان أي منهما لا يذكر بالضبط كيف بدأ ذلك . ومن المؤكد أن أياً منهما لم يشغل نفسه بذلك . فقد كانت تلك الأيام أضيق من أن تدع لأحد أن يفكر

الا بالخطوة التالية التي تقربه من الشام وتمد له في الحياة . كان الضابط قد تخرج مؤخراً من الكلية العسكرية في الآستانة ، ووقع في الأسر قرب بئر السبع ، فتطوع في الجيش الميمم الى الشمال . ومنذ أيامه الأولى عمل راغب الناصح وحمادي الحسون تحت امرته . وحين فَرّ حمادي بعد انكشاف الخديعة الانكليزية ازداد راغب والملازم تحسين التحاماً . كما أن الآخرين من المجموعة كانوا قد باتوا يؤثرون الملازم تحسين على أقرانه من الضباط ، مثلما كان يؤثرهم على غيرهم من العساكر الذين يعملون تحت امرته ، أو حوله تحت امرة الضباط الآخرين .

لم يعثر راغب على الملازم تحسين طيلة النهار ، وكانت لقاءاتهما قد أخذت تتباعد وتقصر منذ أن دخلا الشام .

في المساء أيضاً لم يكن الملازم تحسين حيث تعود راغب ان يعثر عليه في القشلة ، فتناول عشاءه بلا شهية ، وأغفى مبكراً على وقع المطر .

في الصباح كان قد استعاد بعض نشاطه ، فتناول إفطاره ، وعزم على التجوال في المدينة مع عدد من العساكر كانوا يتداولون حوله في ذلك .

كانت السماء صافية ، والشمس ساطعة ودافئة ، لكن رائحة المطر الغزير كانت تملأ الصدور ، وبرك الماء الصغيرة في مرج القشلة وحفر الشوارع تؤكد أن المطر لم ينقطع طوال الليل .

خارج القشلة كانت العربات تغوص في الماء فتضرب أجناب الدكاكين والناس . وفي المرجة كانت السيارات تفعل أيضاً ، والحناجر تنطلق ساخرة أو ضاحكة أو شاتمة ، فضلاً عما تجمع في كل فراغ من المطر .

من المرجة انطلقوا في الأسواق والجادات التي تفضي الى بعضها ، وكانوا يبتعدون وهم يتبادلون التحذير بألا يوغلوا . كانت المياه قد تسللت الى بعض الدكاكين ، وغمرت ما يتناثر أو يتكوم في أرضها ، وكان راغب يحثهم على أن يعينوا في أمر ما ، فيتضاعف لغطهم وضحكهم . كانوا يندفعون الى مساعدة أحدهم دون دعوة ، ويدعونه فجأة ليعدوا بعيداً الى جادة أخرى أو سوق آخر . ولعل راغب كان يقودهم عامداً الى الميدان ، حيث سليم أفندي وعمر يرشفان الشاي ، سعيدين بالشبرين اللذين تعلو بهما أرض الدكان عن الشارع .

رحب سليم أفندي براغب ورفاقه ، ودار عليهم عمر بالشاي ضاحكاً من ثيابهم المبلّلة . وزها راغب أمام العساكر ، خاصة حين سأله سليم أفندي وعمر عن زملائه

الآخرين ، وكان الأذان قد أخذ يعلو ، فتوجه سليم أفندي وخلفه عمر الى الجامع ، وتوجه راغب بالعساكر الى أحد المقاهي ، وجلسوا يتماحكون فيما قد يكون وصل اليه سعر كأس الشاي أو فنجان القهوة ، يتذكرون ما سمعوه من قبل عن ظهور المواد المفقودة خلال الحرب والمجاعة بأسعار مضاعفة .

بعد صلاة الظهر أخذ عدد الرواد يتزايد ، واللغط يعلو ، فلجأ راغب والعساكر الى زاوية المقهى الشمالية الداخلية ، حيث انتصبت طاولة واحدة يتقابل على طرفيها رجلان مسنان ، يلعبان الشطرنج ، دون أن ينبسا بحرف ، وعلى رأسيهما استقر طربوشان جديدان ونظيفان . صمت راغب والعساكر ، كأنما أصابهم لاعبا الشطرنج بالعدوى ، لكنهم لم يستطيعوا الصبر طويلاً على ذلك ، فما إنْ ألح أحدهم الى الغداء والغيبة التي طالت عن القشلة حتى هرعوا خارج المقهى .

أمام الكشك المقابل لمدخل المحطة ، حيث اشترى أبو عاطف وياسين الدخان منذ يومين بصحبة راغب ، كان يقف عدد من الضباط . لمح راغب في وسطهم الملازم تحسين شداد ، فأسرع اليه . ووقعت عين الملازم على راغب من بعيد فخرج من بين زملائه ملاقياً ، وقبل أن يقف محيياً بادره :

ـ ابشر . الحاكم العسكري أصدر الأمر ، ولكن المخفر في عين فيت لا في العال .

هل العال بعيدة ؟ ظني أنك تكون رئيس المخفر. غداً أو بعد غد نرى .

قفز راغب محيياً ، ولكن ذلك لم يكفه ، فاحتضن الملازم تحسين، وحملقت عيون الضباط والعساكر ، كل من صوب ، مشدوهة ، فرحة أو مستنكرة .

من الكشك في رأس الشارع الى القشلة ظل راغب يعدو والعساكر لاحقون به ، صياحهم وضحكهم يرسم البله على الوجوه ، يطلق سخطها أو هياجها أيضاً . وفي مدخل القشلة ، أفضى راغب لمن معه بسرّه . وسرعان ما سرى الخبر في القشلة كلها ، وامتلأ نهار راغب ومساؤه بالغبطة والانفلاش ، حتى اذا أخلدوا الى النوم ، وسادت السكينة ، ظلت عيناه مفتوحتين ، وهو يشبك ذراعيه تحت رأسه تائهاً .

من المؤكد أنه لم يكن غافياً حين تراءى له الملازم تحسين يجعله يتحدث عن العال ، عن فيق ، عن طبريا واليرموك ، يهفو كطفل أمام جدته ، ينعس أو يضحك ، وراغب يستطرد لقاء بعد لقاء ، في هذا الهزيع الأخير من الليل ، أو في هزيع آخر انقضى من ليل أشد حلكة ، يذكر الجولان الذي ذرعه خطوة خطوة ، من جنوبه الى شماله ، من غربه الى شرقه ، والملازم تحسين يستزيد ، يسأل عن المخافر النادرة في تلك الأنحاء ، ينكر

على الأتراك أن ينسوا ذلك ، وراغب ينكر على الملازم تحسين أن يبلو الناس بمخافر للأتراك ، يحاول أن يتعزّى بما يرسله الملازم تحسين جزافاً :

ـ لن تنسى حكومتنا هذا ، ويومها لا تكون المخافر بلوى . تعمل فيها أنت وأمثالك .

كان يقيناً جديداً لراغب في أن الأتراك سوف يرحلون . عاجلاً أم آجلاً سوف يرحلون . والجيش الميمم الى الشمال سوف يصل ، والمخافر العربية سوف تقوم . في العال وفي غير العال سوف تقوم . وراغب الناصح ينبغي أن يكون في واحد منها . لا ، لا ينبغي له أن يكون الا في واحد منها يعينه ، هو مخفر العال . راغب الناصح أدرى بقريته والجولان كلها . والمخفر الموعود سوف يعينه على أن يجعل الفلاحين يلجمون شطط البدو ، والملازم تحسين شداد يبارك له ، يؤكد أنه سوف يسعى من أجل ذلك حين يجيىء أوانه ، وها هو ذا الأوان قد جاء . رحل الأتراك وقامت الحكومة العربية . وصل الجيش الميمم الى الشمال ، والملازم تحسين له عشرون سبيل وسبيل من القشلة الحميدية الى القصر نفسه . ألم يكن له من قبل عشرون سبيل وسبيل من سرج الحصان أو فرجة الخيمة الى القيادة ؟ هل كانت الحكومة ستفطن الى عين فيت أو غير عين فيت لولا الملازم تحسين ؟ بل هل كانت الحكومة ستفطن لولا راغب الناصح ؟ غداً سوف تعرف عين فيت من يكون راغب الناصح . الجولان كلها ستعرف غداً من يكون ابن العال ؟. لقد نسي راغب أن يسأل الملازم تحسين عما بدل موقع المخفر ، ولكن لا بأس . قد يجيىء مخفر العال فيما بعد . وعندئذٍ لا بد أن ينقل اليه راغب الناصح الذي عرف ذات يوم عين فيت ونهر بانياس والحولة ، ودار ماشياً وراكباً هناك حتى وصل الى عرنة ، وتسلق الجبل على وجهيه ، فما الضير في أن يكون اليوم في مخفر عين فيت وغداً في مخفر العال ؟ ما الضير في أنه جاب تلك الأنحاء جميعاً وهو غضّ ، وفي أن يجوبها الآن أو غداً وهو في زهوة الشباب ؟ ربما كان منذ خمس سنين أو عشر غرّاً جاهلاً ، يسكره ركوب الحصان والصيد ، لا يرتوي من الدوران حول العال ، أبعد فأبعد ، منها حتى الشام ، منها حتى الناصرة ، وها هو قد دار خلال السنين الفائتة حتى العياء ، ها هو قد ارتوى من الخيل كما من القطار ، ولم يعد ينشد غير أن يقرّ قراره في العال ، ولا بأس أن يكون لشهر أو لسنة في عين فيت ، لا في العال ، لا بأس أن يذبل الجفنان ويغمضان على ما تحقق أخيراً ، فقد يكون ما تبقى أهون مما انقضى ، وراغب الناصح قادر على كل حال ، فمن حقه إذن أن يغفو في مثل الهناءة التي تغمره الآن .

4

كان النهار الفائت واحداً من النهارات النادرة في خريف الغوطة . لم تحرك نسمة ذؤابات الحور حتى حل المساء . الأوراق الصفراء تهوي متثاقلة ، متباعدة ، كأنما تموت مستسلمة ، ذليلة ، تلوي الأسى في النفوس التي اعتادت ان ترى أكوام الورق تهوي متدافعة ، وربما نشطة ، كأنها تعارك الهواء الخريفي بعزيمة لا تشي بها الصفرة الحائلة أو الفاقعة .

طوال النهار ظل أبو عمر منقبض الصدر ، يتعوذ من الشيطان ، يلجم هواجس السوء التي تخاتله ، ينتقل من مكان ، الى مكان ، كأنه يبحث عن شيء أضاعه ، أو يسعى الى من يفصل له في أمر الهواء والشجر وهذا الذي تدور به الألسن منذ أيام ، فلا يتركه يستقرّ على أيّ من جنبيه .

كان ما في الحاج قد فاض ، دونما الحاجة الى نهار مثل ذلك النهار . على أنه إذْ أفاق هذا الفجر ، شأنه كل فجر ، ملأ صدره من نسيم الغوطة البارد ، ورفع عينيه الكليلتين الى القبة التي تعقدها ذؤابات الأشجار ، فتيقّن من أنها تتمايل . الظلال المعتمة نفسها كانت تتمايل ، وصوت الديكة يتصادى ملء جوانحه . حمد الله ، وأسرع الى الوضوء ، متخففاً مما كان يبهظه وينغص نومه ، وهو الذي تعود منذ عشرات السنين أن يتوسد أحد ذراعيه ، ويغرق في غفوة واحدة ، حتى طلوع الفجر ، أياً كانت الأحوال .

وفيما هو يكرر الصلاة على النبي ، ويجر قدميه الى المسجد القريب ، كانت أم عمر ترقبه من فرجة الباب مطمئنة ، تحمد الله على زوال الغمة ، وتهرع إلى إيقاظ أولادها الآخرين ، وزوجة ابنها هولو الذي طالت غيبته هذه المرة . واذْ اطمأنت الى أنهم قد نهضوا جميعاً ، أقبلت على شؤونها الصغيرة التي تلازم مطلع كل نهار ، منذ غادرت بيت أبيها في المريجانة الى بيت التكلي في الحرزة ، حين كانت الأعراس تملأ الدنيا ابتهاجاً بجلوس السلطان على العرش في الآستانة .

من المرجح أن أم عمر لم تتجاوز الخمسين ، على الرغم من زواجها المديد ، وولاداتها العشر . بيد أن ظهرها كان قد أخذ بالانحناء ، وصدرها أوشك ان ينمسح تماماً . أما الغضون فقد ملأت جبهتها وظاهر كفها . وقد ألفت منذ سنين الاسم الجديد الذي صارت تنادى به : العجوز . أما (حُسْن) زوجة هولو ، فهي الوحيدة التي تناديها : يا عمة . ولعلها لذلك كانت تبتهج لنداء حُسْن ، وليس فقط لأن كنتها من المريجانة أيضاً ، أو لأنها ترى في حُسْن عوضاً عن ابنتها خديجة التي تقيم في بيت الباشا شكيم منذ سنوات . وربما كانت أم عمر أيضاً ترى حُسْن عوضاً آخر عن الصبية التي كانت ستكون ابنتها الأخرى ، لولا أن الداء قد ذهب بها منذ سنوات ، ولما يمض على بلوغها شهر واحد ، مثلما أودت أدواء أخرى ، عاماً تلو العام بالآخرين من صغار بيت التكلي ، فلم ينج للعجوز سوى هولو وعمر وخديجة ، والثلاثة الذين أنجبتهم تباعاً قبل أن ينقطع عنها الحيض .

كانت العجوز قد ملأت عينيها من القبور الأربعة الصغيرة المجاورة ، للبيت ، قبل المسجد ، حين رأت الحاج قادماً ، منكس الرأس ، فأدركت أن الغم قد عاوده ، ودعت الله أن يرأف به وبالعباد أجمعين ، ورددت في سرها :

ـ سنة القطا بتبيع الغطا . .

ربما أحسّت برجفة من الزهو تعتريها . هو ذا نهار جديد يؤكد صدق ما ادعته ، ولم يصدقه الحاج ولا حُسْن ولا أي من جاراتها . لقد رأت العجوز في ركن ما من سماء الأمس سرباً من القطا ، بل أسراباً . لقد رأت طائراً واحداً على الأقلّ بعينيها الكليلتين ، ولا يود أحد أن يصدقها . ليس ما رأت بالحجل وإنْ كان له مثل لونه ، إنه قطا جوني ، فهي لا زالت قادرة على التمييز . وخلف الجوني سرب لم تستطيع أن ترى العجوز غير سواد بطنه . ربما لم يكن سرباً ، ربما كان طائراً وحيداً ، خلفه أو أمامه ، أعلى منه أو أخفض ، طائر آخر أو سرب آخر صدع أذنيها : قطا قطا . هو أيضاً مثل الحجل سوى أن لون بطنه بني . ولقد حدثها الحاج يوماً عن بيضه الذي جمعه مع الأولاد من هناك ، من بعيد ، حيث كان لأجنحة الأسراب مثل هدير الطائرات التي يحكي عنها هولو . ولولا الحاج لم تكن العجوز لتدري أن ظهور القطا ها هنا ، في سماء الحرزة ، نذير شؤم . فلو كانت مواطنه البعيدة التي عرفها الحاج صغيراً خصيبة ، لما كان يهجرها . ولكن الحاج عنفها بالأمس وهي تحدثه بما خيل اليها انه يعكر السماء ، وردع ذكرياتها عن سنين المحل ، وردد مثل حُسْن وجاراتها من بعد :

ـ فأل الله ولا فألك يا أم عمر .

حتى جعلها الجميع تلوم نفسها ، تود أن تكون واهمة ، مثلما تود أن يصدقها أحد . لقد عاودتها في نومها الأسراب . وكان بوسعها ان تتبين على مهل عيون الماء الرقراقة الصغيرة التي تتدافع اليها الأسراب . كان الريش يتموج بخطوط هلالية ، سوداء أو رمادية ، رقشاء أو شهباء أو مرقطة ، وكان الحاج بنفسه يؤشر للعجوز محدداً المطوق من الحر ، والقطقاط من الكدري ، وكانت عازمة هذا الصباح أن تحدثه بما رأت في المنام ، لولا أن عدوى الغم قد سرت من الحاج اليها ، والزهو جعل جلدها ينمل ، فانسحبت متخفية قبل أن يفطن الحاج الى أنها قرب القبور .

كانت القبور الأربعة تتكوم فوق بعضها علامات مبهمة على سطح الأرض . بيد أن الحرزة كلها تعرفها قبراً قبراً . وكانت العجوز قد ألفت منذ دفنت ابنتها الكبرى في هذا المكان أن تبكر اليه كل صباح ، حتى نصحها الحاج بألّا تفعل ذلك دائماً ، فصارت تتحاشى أن يراها هناك . ومع كل مرة كان يصادفها وهو عائد من المسجد ، جاثية باكية ، وقد نسيت نصيحته ، كانت ترجوه أن يصفح ، وتعزم على ألّا تجعله يصادفها ثانية ، دون أن تفكر قط بالانقياد لنصيحته . وكان الحاج يدرك ذلك على نحو ما ، فيتحاشاها أحياناً رأفة بها ، ويباغتها أحياناً ، رأفة بها أيضاً ، حتى ألفا ذلك التواطؤ الطريف ، رغم الغصّة الملازمة .

قرب البئر تنبه الحاج الى وجود العجوز وحُسْن ، فبادرتاه معاً محييّتين ، واقتربت العجوز لهفى :

ـ خير يا حاج ؟

قال الحاج مغالباً ما يجيش في صدره :

ـ خير إن شاء الله .

ولم يفلح في أن يجعل نبرة صوته عادية . لقد أسعده في البداية أن يكون أول من يدخل المسجد بعد الامام . وسارع الى نقل السلّم الخشبي بين السراجين ، فأشعلهما فيما كان الامام يرفع الأذان . ثم لبث والامام ينتظران أن يظهر من تعودا ظهورهم كل يوم في صلاة الفجر . لكن ثلاثة فقط ممن كانوا يملأوون الحصيرتين قد ظهروا ، بعد لأي . أقام الامام الصلاة بلا حماسة . بل إن الحاج نفسه قد أدى الصلاة بلا حماسة . وما إن فرغ الامام حتى أسرع الى العصاة الطويلة ينفخ بها على السراجين ، كما فعل في صلاة العشاء ، ويسبق الآخرين الى خارج المسجد .

تبادلت العجوز مع الصبية نظرة خاطفة قلقة ، جعلت العجوز تضاعف من شجاعتها ، فتخطو نحو الحاج ملحفة :

ـ خير يا حاج ؟

كانت الحيرة ترمي بخطوته نحو الدايرة وتدحرج نظراته نحو الساقية ، ويداه تختلجان ، كأنما تفكران في أمر آخر . كان بحاجة مسيسة الى أن تلحف العجوز عليه . ولو أن حُسْن قد فعلت أيضاً لشكر لها ذلك . لقد أعانه سؤال العجوز على الوقوف ، ولوى عينيه اليها ، لكن فؤاده غصّ ، اذ رآها للتو تذوي ، كأنها لم تكن كذلك موتاً بعد موت ، ولداً بعد ولد ، قبراً بعد قبر ، حتى اذا غادرت البيت خديجة ولحق بها هولو وعمر ، بدا أن العجوز قد غدت ميتة تماماً ، كما تبدو الآن ، على الرغم من انها سوف تؤدي ـ كما أدت دوماً ـ كل ما ألفه منها ، هو والبيت ، منذ وطئت أرض الحرزة .

نقل الحاج عينيه بعسر بين العجوز وحُسْن ، وقال بصوت متهالك :

ـ نزلوا الى الشام ، قبل الصلاة نزلوا . وقد لا يبقى بعد قليل في الحرزة غيري .

تحرك لسان العجوز سائلا :

ـ والإمام ؟

قال وهو يناوش ابتسامة أسيانة :

ـ تركته في المسجد .

تحرك لسانها ثانية :

ـ ماذا تظن ؟

يقولون ان العرب سوف يصلون اليوم من الحجاز ، والناس أسرعوا الى استقبالهم .

سألت حُسْن :

ـ والذين ذهبوا أمس . .

قاطعها الحاج :

ـ أمس ياابنتي استقبلوا الانكليز . أمس تفرجوا على الأمير الجزائري الذي ما فرح بالكرسي ، واليوم يتفرجون على الأمير الحجازي الذي يهنأ بها والله أعلم .

ومثلما في كل مرة ترى الحاج يأتي بمالا يأتي به سواه من الأخبار ، وهو لايكاد يغادر الحرزة ، بل البستان ، قالت العجوز معجبة :

ـ كيف عرفت ياحاج !

وتساءلت حُسْن :

ـ هل رجع أحد من غياب أمس ؟

أطلق الحاج زفرة طويلة ، لعلها كانت أنينا ، وهمهم بمالم تسمعه المرأتان ، ثم استدار الى جهة الدايرة ، تلاحقه كلمات العجوز راجية :

ـ الحليب ياحاج .

وهمت نحوه ، كأنما تخشى عليه أن يقع ، وأدركه صوتها وانيا :

ـ ذهب الأتراك اذن بحق ياحاج ، لماذا لم تنزل مع الناس الى الشام ؟

تابع الحاج سيره الوئيد نحو الدايرة القريبة ، شبه الخاوية ، لم تكن أبواب ونوافذ الطابق العلوي فيها قد فتحت هذا الصيف . كان الباشا شكيم يأتي اليها كل صيف ، يوما أو يومين وربما عشرة أيام . وحده أو مع الست زهرة والأولاد . الست لميعة نفسها كانت تأتي أحيانا . كانوا يملأوون الدايرة حبورا ، ويكون الحاج أسعد من في الحرزة . إلا أن هذا الصيف ليس مثل سواه . بل لعله ليس مثل أي صيف عرفه الحاج منذ فتح عينيه على الحرزة . لقد رحل الأتراك حقا . كانوا يرحلون شبرا شبرا ، رجلا رجلا ، كلما غابت شمس وأشرقت شمس ، طوال هذا الصيف ، بل طوال هذه السنة ، وكان الحاج يحسّ ذلك ، يتلمّسه مثل ظلّه على جذع الحورة في الليلة المقمرة .

توقف عند الطابق السفلي الموصد . لقد امتلأ المستودع كما في كل موسم ، على الرغم من أن كلا من هؤلاء جميعا قد مد يديه الى المحاصيل كلها ، أكثر مما جرؤ أن يفعل في أي موسم .

تناهت اليه في موقعه أصوات النساء والأطفال من داخل الاصطبلات القريبة حيث تقيم بعض أسر الأجراء ، والأبقار والثيران مربوطة قرب الابواب ، هزّ رأسه مستنكرا أن يفعل الأجراء المسنون والمتزوجون مثلما يفعل الشبان العازبون منهم ، انها أيام الفلاحة ، فكيف يتركون الأرض جميعا ويتسابقون أمس واليوم الى الشام ؟ ماذا سيفعل لهم الأمير أو الانكليز إنْ تأخروا في الفلاحة ؟

تفاقم استياء الحاج من جيرانه ، أضعاف ماكان في صباح الأمس ، تمتم جازما بأنهم قد بطروا هذه الأيام ، لكأن واحدهم كان ينتظر طوال عمره أن توافيه مثل هذه الفرصة ، فينقض عليها غير آبه بشيء . من الحق أن سليم أفندي قد غضّ الطرف خلال الشهور الفائتة ، وهو الذي كان يدقق في الحساب على بذرة المشمش وملء الكفين من

الحنطة ، ولكن ليس معنى ذلك ان يغتنم الناس غفلته أو انشغاله . ليس معنى ذلك أن يفرط الانسان في الأمانة ، وسليم أفندي لن يغمض عينيه طويلا على أية حال .

هكذا تعود الحاج أن يعمل وأن يفكر دوما . المحاصيل والشجر والبقر والأرض والدايره والساقية كلها أمانة في عنقه ، لايهم إنْ كان الباشا نفسه صاحب الأمانة أو من استأجر منه . سواء كان المستأجر سليم أفندي أم سواه ، كان إيمان الحاج الحار ، وزهده البالغ ، يرسمان علاقته بالباشا وبمن يستأجر أرض الباشا ، فضلا عن الحذر الشديد الذي خلفته في سريرته مرارة الأيام وتقلباتها . كان واثقا دوما من أن عين الملاك أو المستأجر لاتغفلان ، والعصا لاترحم ، مهما بدا خلاف ذلك لعام أو لأ عوام فتلك حكمته التي مافتىء يحرص على أن يزود بها الآخرين، بدءا من أطفاله الى أقرانه، لكن أولاء الأجراء ليس فيهم هذه الأيام الا القليل ممن يصغي اليه .

أدار ظهره للدايره والاصطبلات ، مختصرا جولته الصباحية التي اعتادها منذ استأجر سليم أفندي البستان من الباشا شكيم ، ثم أوكل للحاج أن ينوب عنه ، دون أن يسميه وكيلا ، فبات مسئولا عن كل شيء وغير مسئول عن أي شيء في آن .

لقد ضاعفت ثقة سليم أفندي من أعباء الحاج ، وثقة سليم أفندي من ثقة الباشا ، وسمعة الحاج في الحرزة وفي سائر القرى ، من هنا حتى المريجانة ، بل في الغوطة كلها ، على لسان كل ملاك أو وكيل ، مثلما على ألسنة الفلاحين .

مرة واحدة جاء من يبحث لهذه الثقة عن اسم آخر . وليت من فعل ذلك كان أي انسان ، سوى أن يكون هولو . لقد استأذن الحاج من الباشا ، منذ حملت العجوز ، أن يمنح الوليد القادم هذا الاسم . كانوا جميعا يجزمون برفض الباشا شكيم ، بل يتخوفون من أن تثور ثائرته ، على الرغم من أن أحدا لم يسمع أنه قد ثار منُ قبل . ولكن هل يعقل ان يسمي الحاج ابنه باسم جدّ الباشا الذي كان وكان ؟

لم ينفع النصح في ثني الحاج ، فخطا خطوة أولى ، واستشار الست زهرة في ذلك الصيف الذي بلغت فيه حبة العنب حجم البيضة ، وعلى الرغم من أن الست لم تفده في رأي ، فلم يترك لوساوس من حوله أن تلعب به . ولم يخيب الباشا رجاءه . فقد ضحك من يقين الحاج بأن العجوز ستضع ذكرا ، مثلما ضحك كثيرون . ولكن الله لم يخيب رجاءه أيضا، فجاء هولو الذي سعى الحاج ماوسع لكي يكون أفضل أخوته جميعا . وهاهو هولو وحده من بين شباب الحرزة يبذّ من قرأوا في المدينة كما قال مرة سليم أفندي أو الباشا نفسه ، على الرغم من أنه لم يتعلم الا على يدي الامام ، مثله مثل شقيقه عمر

لكن رأس هولو غير رأس عمر . عمر مطيع أما هولو فعنيد . عمر غضّ أما هولو فصلب مثل الحجر . ولعل الله قد وفق كلا منهما الى مايناسبه . فسليم أفندي كافأ الحاج بتشغيل عمر منذ سنتين في دكانه والباشا كافأ الحاج بتدبير وظيفة لهولو . أجل ، انها وظيفة ، مهما سماها هولو نفسه أو الناس جميعا . هولو بحسبان الحاج والعجوز يسوق الآن قطارا بأكمله من الشام الى رياق ، من رياق الى حلب . من الشام الى يافا . من حلب الى استنبول . بل انه يسوق كل القطارات من الشام الى المدينة المنورّة . الحاج والعجوز موقنان أن هولو هو الذي يسوق كل القطارات التي تدب بين المدن . ولا يؤثر في يقينها أن ينفي هولو نفسه ذلك أو يضحك منه . فهولو رغم صلابته وعناده خجول ، وقد ورث وحده من الحاج التواضع البالغ على العكس من عمر الذي عجز الحاج عن أن يجعله أقل فخرا أو ادعاء .

تعود الحاج ان يؤوب عمر كل اسبوع أو كل شهر ، فيملأ البيت والدايره والحرزة كلها بحكايا وأخبار عجيبة . أما هولو فلا يؤوب غير كل شهرين أو ثلاثة ، ولاينطق في أويته القصيرة دوما الا بالكاد ، وهو مطرق أمام الحاج . لكن هولو الذي كان في ذلك المساء يسير خلف أبيه ، من الدايره الى البيت ، قال بصوت أعلى مما ألف الحاج :

ـ هذه ليست ثقة .

ربما كان الحاج يتباهى أمام ابنه بما بينه وبين الباشا وسليم أفندي ، فباغته هولو .

ـ ما تكون ؟

تساءل الحاج بلا مبالاة .

ـ لا أدري . بكرة ينهدّ ظهرك ، وهم يزيدون الحمل ، وأنت سعيد . اذا كان نصيبك لايعادل من الرطل حبة ، فكيف تكون الثقة وغيرها ؟ أنا ما فكرت بذلك ولكن أنت ؟

توقف الحاج ، واستدار الى ابنه . كان بوسعه أن يرى رغم عتمة المساء عيني هولو مركوزتين في عينيه، ربما لأول مرة .

ـ كلامك غريب ياهولو !

ـ والله لا أدري ياأبي . .

ـ طيب وشغلك وشغل عمر ؟ وخديجة التى تحسدها كل بنات الغوطة على حياتها في بيت الباشا ؟ اعفاؤك من العسكرية . واعفاء عمر أيضاً ؟ أتركني من اللقمة الهنيّة التي نأكلها من خير الباشا وخير سليم أفندي . كيف يكون الانسان ناكرا للجميل ؟

كلما فكر الحاج بذلك ، صعب عليه أن يفترض أن ابنه كان يعني أن الباشا شكيم وسليم أفندي ظالمان ، أو أن في هولو أثراً من جحود ، أو أن هولو يحسب أن أباه ساذج ، لا يعرف كيف يميز بين الثقة والأمانة وأجره على مايقوم به . ولعل هولو في أوبة أخرى قد قال بعض ذلك ، والحاج يكظم غيظه ويتألم ، ويتعلل لابنه بفورة الشباب ، وبالكلام الذي يسمعه في أسفاره ، وقد بات يتحدث عن الأتراك والسلطان والعرب والعساكر الذين ينقلهم في القطار وعن الباشوات والألمان والانكليز . وكان الحاج يؤخذ بما يقول هولو تارة ، يسعد به ويهمس ببعضه في ساحة المسجد ، لكنه كان أيضا يقلق على هولو ، فيوصيه بالحذر من غوائل الأيام ، ويدعو له ، ويأمر العجوز أن تدعو له ويسألها :

ـ ألا ترين كيف يتغير ابنك علينا ؟

كانت ساقا الحاج قد غاصتا في الساقية التي نحلت . رفع رأسه الى السماء التي ظهرت من فرجة ضيقة في أعالي الصفصاف الذي يزنّر الساقية . ذكره صفاء السماء بالمطر الذي تأخر ، هدأت بلابله مخلفة ظلا من الحزن والرجاء . أرسل دعاء حارا لولديه ، خصّ هولو بدعاء آخر في غربته ، تذكر خديجة وتضرع الى الله أن يمكنه من تزويجها عاجلا ، تذكر الصغار الثلاثة وحمد الله على أن ليس بينهم بنت أخرى ، فمادامو ذكورا ، فسيكون أمرهم أهون على هولو وعمر من بعده . غصّ بالحزن على ابنته التي ماكادت أن تتفتح مثل الجورية حتى أودى بها المرض . عزّى نفسه مثلما فعل مرارا بنجاة من نجا من الأولاد ، وقد جثم قبالته على صفحة الماء الرقيقة شبح البنت بالغة النحول ، مثلما كانت دوما، ورأى الشبح لايهدأ على صفحة الماء . مثلما كانت منذ جاءت بها العجوز الى أن وسدها بيديه التراب ، كان الشبح يقرب أن يكون فراشة ، كذلك كانت البنت ، صفراء وجميلة ، تطير من مكان الى مكان ، لايكاد يسمع لها صوت ، وكان يناكد بها خديجة مثلما كان يناكد عمر أحيانا بهولو ، ولكن الداء خطفها ، مثلما خطف الكثيرين من أولاد وبنات الحرزة ، منذ اندلعت نار الحرب .

اكتشف الحاج أن ليس له مايفعله في الساقية ، ليس هذا بموسم السقاية ، ضحك وشمّر عن ساقيه ، كما تعود حين يلامس الماء . تطلع حوله يبحث عن مجرفة . أحنى ظهره فارتجفت ساقاه اللتان جعلهما كالقصبة الغوص في الماء والوحل عشرات السنين .

مبكراً حمل الحاج الدنيا على كتفيه ، كما يردد كلما حلا له أن يذكر شبابه . أو يفكر فيما آل اليه من عجز لايعترف به أحد ممن حوله ، كان والده قد توفيّ مخلفا له رهطا من الاشقاء والشقيقات . وقبل والده كانت أمه قد توفيت بأيام ، كأنهما كانا على موعد .

كانوا جميعا أجراء في هذه الأرض . كان ينام في ذلك الاصطبل الأقدم ، من بين الاصطبلات التي خلفها وراءه قبل قليل ، لكن زنده وعطف الباشا الذي يصغره بأعوام ، جعلاه بين سنة وأخرى يغادر الاصطبل الى ذلك البيت ، يغدو مرابعا . وكان اشقاؤه قد كبروا وطاروا من المريجانة ، قرية أخواله ، الى اليمن التي بلعت ثلاثة منهم . كانت شقيقاته قد كبرن أيضا ، فزوجهّن جميعا في المريجانة ، وصار على كل لسان أنّ بيت التكلي لايتزوجون الا من المريجانة ، ولايزوجون بناتهم الا الى المريجانة . لايرضي رجالهم الا بنات المريجانة ، ولايرضي نساءهم الا رجال المريجانة . وهاهو الحاج قد حرص على أن يزوج هولو من ابنة خاله ، وهو لن يترك عمر قبل أن يزوجه واحدة من المريجانة ، سواء كانت من بنات أخواله أم لا .

أقعى الحاج على حافة الساقية ، مركزاً إليتيه في ترابها الجاف ، وانهمك في ملاحقة حبات التراب بين ساقيه اللتين ظلت أصابعهما مغموسة في وحل الساقية . غاص بصره في الوحل فالماء فالوحل ، فالحافة المقابلة للساقية ، وأوجعه الحنين الى عمر وخديجة . التبس عليه الحنين بالخوف من الموت ، فجلد ساقيه أكثر جفافاً من تراب الحافتين ، وعمر وخديجة لازالا عازبين ، زاد من خوفه أن تزويج عمر بداله أصعب من تزويج خديجة . كان عمر مقابلا له على تلك الحافة ، يتحاشى الوحل أن يلوث كندرته، وكان حاسِما في رفض الزواج . وحار الحاج . لعبت به الوساوس ، وفكر في أن الولد قد يكون ذاق طعم الحرام . هو حقاً تحت عين سليم أفندي ، ولكن من يدري ماذا تكون الشام قد فعلت بشبابه الغضّ ؟ عمر الذي كان مطواعا بدا في ذلك الصباح كما في كل مرة عاود فيها الحاج الى أمر الزواج ، حاسما . ولم تجد في ثنيه نصائح العجوز ، وممازحات حُسْن ، ولا تدخل سليم أفندي نفسه ، حتى اضطر الحاج الى أن يستسلم مؤقتا ، ويتابع خطوته التالية ، فيزوج هولو من حُسْن التي حق لها أن تحمل ذلك الاسم . ولعل هولو ، كما يفكر الحاج ، قد انصاع لرغبة أبيه في تزويجه طمعا بتلك الشابة التي تعودت العجائز أن تصلي على النبي كلما ذكرنها . هكذا ارتاح الحاج قليلا ، ولكن مابقي أصعب ، ولم يعد في العمر فسحة ولا في الجسم مقدرة ، فما تراه يفعل ؟ .

تحامل على نفسه ونهض مغادراً الساقية ، تاركا لقدميه أن تقوداه عبر بستان الدايره . لم يعبأ بالدوس على الغمر الذي يكسو الأرض من الأوراق المتساقطة . كان ينتقل بين الظلال التي توزعت مجموعات متلاصقة ، ومتمايزة أيضاً . ولم يفطن الى أنه قد غادر البستان إلا حينما فتح عينيه فجأة على الأرض الممتدة التي خيل اليه أنها تناديه

معنفة . دار حول نفسه ساخطا على الذين لم يعودوا من الشام . حدق في الأرض ولامها على صبرها القليل ، فهذه الأيام لاتأتي غير مرة واحدة . الأتراك لايرحلون كل يوم من الشام . والانكليز لايأتون كل يوم الى الشام . والأمير العربي ابن الأمير العربي أيضاً ، ولعله كانُ على الحاج نفسه أن يذهب الى الشام . سنتان انقضتا وهو لم يطأها بقدم . هو غير مغرم بها حقا مثل الآخرين ، وقد لاتخطر له ببال سنة بطولها ، إلا أن الأمر هذه المرة ليس مثل سواه . لقد حرم الشام على نفسه مادام الأتراك فيها . ولم يجرؤ على البوح بحلفانه لأحد إلا للعجوز. كانت رغبته تعذبه في الشتاء ، إذ لايعود عمر يؤوب الى الحرزة كل اسبوع أو اسبوعين . وكانت العجوز تزيد في عذابه وهي تنسى قسمه وتسأله أن يزور بيت الباشا ويطمئن على خديجة . كم تمنى ألا يكون تحريمه للشام على نفسه قد توافق مع غياب عمر وهولو وخديجة ، واحدا تلو الآخر ، قبيل أو بعيد ذلك اليوم الذي امتلأت فيه المرجة بالمشانق ، وصادف أن كان الحاج يزور بيت الباشا ، يحمل للست زهرة مايعرف أنها تؤثره من الورود . كانت الأخبار التي تتناهى الى الحرزة تتضاعف سوءاً ، وقد بدت الشام نفسها ذلك اليوم مُقبرة كبيرة ، والرجال يتأرجحون على المشانق ، فكيف للحاج أنْ يعود ثانية الى الشام مادام فيها تركي واحد ؟.

الآن فقط يستطيع أن يرفع عينيه الى السماء ، يحمد الله ، يحسّ أنه أوفر عافية ، ويمشي نحو الأثلام المفلوحة ، ينعشه أن تغوص قدماه فيها ، يتمتم واعداً المساحات الفسيحة التي لم تصل اليها الفلاحة بعد ، يرجو أن تواتيه فرصة قريبة كيما يزور الشام . ينبغي له أن يزور الشام مرة واحدة قبل أن يودع الدنيا ، بعد أن صار في حلّ من قسمه ، قادراً على أن يجمع أطراف جلبابه ، ليتربع في موقعه ، يملأ كفيه بالتراب الناعم الجاف ، يذروه في حرجه ، وينشد المطر موزعاً بين الغبطة التي ناوشها . وأشتاته الجمة الغامضة ، القديمة جدا ، والطارئة أيضاً .

★ ★ ★

على حين غرّة ولى النهار . من المؤكد أنه قد غافل الحاج وولّى . كان يخشى في بعض اللحظات أن يكون هذا النهار بلا مغيب ، فالحرزة ظلت خالية وساكنة حتى المساء . وهاهو الحاج يقعي الى جانب حورته التي غرسها بنفسه منذ كان فتى ، وظل يسقيها بنفسه كل مساء ، كما فعل منذ قليل .

كان الحاج اذ يقضي ليلة خارج الحرزة ـ على ندرة ذلك ـ يوصي العجوز بالحورة مثلما يوصيها بالأولاد . ولقد سمقت الحورة معه سنة بعد سنة ، حتى أربت على كل حورة في الحرزة ، بل في الغوطة كلها ، كما يؤكد الحاج ، فلا يجرؤ أحد على أن يماريه في ذلك ، إلا أن يكون من أقرانه الأولين ، ممن لم ينسوا ماجنته على الفتى الذي كان ، سرقته لغرسة الحورة من بستان الباشا .

كان مستأجر البستان عجوزا سفيه اللسان ، قاسي القلب ، وربما كان خرفاً أيضاً ، لايكاد يختفي ذيله من الحرزة حتى ينبق رأسه . ومن سوء حظّ الفتى أن الجندرمة قد حلت ذلك المساء في الدايره ، وكان المستأجر قد سبقهم منذ العصر ، وجعل الفلاحات يهيئن العشاء .

لاأحد يدري كيف اكتشف المستأجر ، الذي يصرّ الحاج على أن لايذكر ولاينطق باسمه ، نقصاً في أغراس الحور . غرسة واحدة من بين المئات ، فمن يصدق ، لقد ذهبت مثلا من بعد في الغوطة كلها ، وربما في الشام .

كان الفتى قد أخفى الغرسة في حافة الساقية ، ليزرعها في الليل . كيف فكر بذلك وكيف نفذه ؟ لا ، ليست وسوسة الشيطان ، فهو لم يرتكب إثماً . بل إن هذه الحورة علامة الخير والبركة ، ومن أجلها ظل الفتى يحوم حول المكان الذي انتزعها منه ، وكانت يداه وجلبابه ملطخين بالوحل . ولسبب ما كان أول من تقع عليه عين المستأجر العجوز ، بعد أن اكتشف النقص في الأغراس ، فاندفع نحوه هائجاً . لم يجرؤ لسان الفتى على أن يتحرك ، فكان صمته الاعتراف الذي يلوب عليه المستأجر . رأى الفتى أباه يطرق ذليلا ، ورأى نفسه مستسلما للضرب والشتم ، مسمراً أمام باب الدايره ، خائفا قليلا ، ولكن ربما كان سعيدا . ثم جاء الجندرمة ، وقبل أن ينتهي المستأجر من الترحيب بهم كان الفتى قد صار مرميا على الأرض ، قدماه مقيدتان بين ماسورة البندقية الطويلة وزنارها الخشن ، وكان أحدهم يهوي بالخيزرانة على القدمين اللتين لم يحمهما الجلد القاسي السميك .

ماإن غادر المستأجر والجندرمة الدايره حتى هرع الفتى الى حافة الساقية ، غير مبال بآلام قدميه . وفي غبش الفجر زرع الغرسة حيث يقعي الآن . وبجوارها اختار فيما بعد ان يحفر البئر ويعمر البيت ، وكان المستأجر العجوز قد توفي . لم يبح الحاج بسرّ الغرسة لأحد إلا بعد أن صار الفلاح الأثير لدى الباشا شكيم ، وبات بالتالي الرجل الثاني في الحرزة ، بعد من يكون الباشا قد أجر له البستان . لقد زعم الفتى أنه رمى الغرسة في

الساقية ، حين انفتحت شفتاه مرة واحدة بعد أن قيدت قدماه ، فتضاعف عقابه فيما كان يرجو أن تخفف كذبته عنه . كان يسعد الفتى أن يتسلل كلما سنح له الى موقع الحورة ، يسقيها ويهدهد التراب حولها ويقيس بعينيه طولها ، يستحثها على أن تعلو فوق ماحولها ، ولقد ضبطه والده مرارا وهو يفعل ذلك ، ولعله أدرك سر ابنه ، فعاد يكلمه بعد أن قاطعه منذ نقص الحور تلك الغرسة .

كانت العجوز وحُسْن في الداخل تهيئان العشاء ، فيما كان الحاج ينهض على مهل ، تاركا ظهره ينساب صعدا على جذع الحورة الذي ثخن ، لكنه ظل أنعم من جلده . وكثيرا ماكان الحاج في السنوات الأخيرة يفعل ذلك ، فيغبط الحورة ، ويطلب من الله حسن الختام ، كما فعل الآن وهو يتجه الى البيت .

أمام الباب سمع نداء العجوز ، واستطاع أن يرى ماتضع حُسْن من بقية المجدرة ، التي تناولوها على الغداء ، وقرصا كبيرا من البندورة . افتقد الشهية التي كان يقبل بها على العشاء ، وأوشك أن يعود الى الحورة ، لكنه سمع وقع أقدام تقترب ، وهمساً مبهماً ، فلبث يحدق في الظلمة ، واذا بعمر وهولو خلفه ، فصاح بالعجوز :

- تعالي انظري !

وأقبل على ولديه يحث ساقيه على أن تعدوا ، مغالبا رجفة ذقنه وغشاوة الدمع .

كان قد قضى العصر أمام المسجد يأمل أن يظهر عائد ما من الشام ، لكن الامام أقام صلاة المغرب قبل أن يظهر أحد ، ولا ريب أن ذلك قد ضاعف انقباض الحاج وألجم لسانه الذي لايعرف كيف يلغو الآن ، وهو يدفع بولديه أمامه منادياً العجوز وحُسْن والصغار ، ينفلش مثلما انفلشوا جميعا ، ويأمر بإعداد عشاء جديد ، وقد داهمه الجوع .

سارعت حُسْنٌ الى أقراص أخرى من البندورة ، وصحن كبير من الكشكة ، وأرغفة أخرى من الخبز ، وحموها يستحثها ، والعجوز تروح وتجيء في عجلة من أمرها ، مثل الحاج الذي ينقل عينيه بين هولو وذقنه الطويلة ، وعمر وشاربيه النحيلين ، يبحث عن القطارات والمدن والدكان وسليم أفندي والشام والأتراك الراحلين وخديجة والباشا ، فيدور برأسه أن يرى ذلك كله في طلعة ولديه ، ويحنو على العجوز التي لم تعد تعرف كيف تأكل ، وعلى حُسْن التي ضبطها تتلصص ناحية هولو ، فنهضت خائفة تهيء ابريق البابونج .

حول البابونج غدا مجلسهم أقرب وأهدأ ، وراحت حُسْن تتشرّب كل صوت ينطق به هولو ، ترجو ألا يتحدث أحد سواه ، تمتنّ عيناها لعمر الذي غلب عليه الصمت . وإذ يفيض الحاج في أمر تعصر طرف منديلها أو تدعك أصابعها . وعلى الرغم من أنها لم تكن تدرك جلّ مايتحدثون به ، فقد كانت ترجو أن يظل صوت هولو وحده يملأ البيت . ولا ريب أن كلاماً كثيراً كان قد فاتها حين خيل اليها أن ذلك الصوت قد بات أعلى قليلا ، وأقل ألفة أو ودا ، فخافت ألا يكون مشوقا اليها ، وتلفتت صوب الحاج الذي كان يتساءل اذ ذاك على مهل عما سوف يحل بأقرباء الباشا وبسواهم ممن غادروا الشام الى استنبول أو سواها ، واختاروا أن يقيموا بعيدا بمنجاة من أذى الأتراك . قال هولو :

- هل تقيم الست لميعة في لندن أيضاً هرباً من الأتراك ؟ لا ياحاج .

أثنى الحاج والعجوز على الست لميعة وعلى أسرة الباشا ، فبرم هولو رأسه وتساءل ، كأنه لم يسمع الثناء :

- ما السبب حتى يرجعوا ؟

قال الحاج بحنان:

- لأن الانسان يعود الى بلده مهما شرّق وغرّب . هذا أنت وهذا أخوك .

لكز عمر أخاه مستفزاً :

- وفرحتك بوصول الانكليز والحجازيين ؟ هل الشام أرضهم ؟

ارتبك هولو ، ونأى عن شقيقه قائلا :

- هل تقارن الحجاز باستنبول ؟

تململ عمر وتوجه الى الحاج :

- كل من كان من بيت الباشا في استنبول أو لندن يرجعون خلال أيام قليلة . سليم أفندي كان يقول ذلك أمس ، وهولو يسمع .

- لو أن الأمر بيدي منعت من فضل على الشام سواها أن يدخلها ثانية ، بل لطردت منها هؤلاء الذين يسرحون فيها اليوم ، وبالأمس كانوا عصا الأتراك . لا يهمّ ، باشوات كانوا أم أفقر عباد الله .

تبسم الحاج ساخراً :

- نحمد الله ، على أن الأمر ليس بيدك .

قال عمر ممعناً في السخرية والاستفزاز :

ـ على الطريق قلت لك وأمام الحاج أقول لك . والله ياأخي تتحدث كأنك صاحب البلاد والقيوم على العباد !

ومدّ يده الى عب هولو :

ـ أين ذهبت بتلك الورقة ؟ اقرأها على الحاج ؟

قال الحاج مخاطبا بفضول هولو ، وعيون حُسْن والعجوز تلاحق يد عمر :

ـ أسمعني ياولدي . . .

تراجع هولو محدقا في عمر ، معنفاً ومعاتباً ، والحاج يلّح ، وكان عمر قد ظفر بالورقة المطوية بعناية ، وراح صوته يقلد هولو :

ـ خذ ياعمر . هذه فتوى الشيخ الذي يقدسه الحاج .

تساءل الحاج :

ـ كبير العلماء ؟ ماهذه الفتوى ؟

انتزع هولو الورقة وأخذ يقرأ عجلا :

ـ لقد جعل الله عز وجل لمن يعمل لإيجادُ الشقاق والفوضى في صفوف المؤمنين ، والسعي والفساد في الأرض ثلاث عقوبات : القتل والصلب ، وتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف ، والنفي من الأرض . فقال جلّ ثناؤه في كتابه العزيز : إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض .

وطوى الورقة في عبّه ، فأسرع عمر :

ـ على مهلك . لم تقل أنك احتفظت بالورقة كل هذه الغيبة لتقرأها للحاج . السبب ؟

ـ لأنها الفتوى التي حللّت للأتراك تعليق المشانق في المرجة وفي غيرها ؟

وقف الحاج غاضبا :

ـ هذا جزاء من يحارب الله ورسوله ، نعم ، أما من يحارب الأتراك ؟ استغفر الله العظيم .

قال عمر متشفياً :

ـ تابع يا هولو . ماقلت إن المفتي صديق الباشا شكيم ؟

ـ بل قلت صديق أمير الحج .

ـ وأمير الحج حمو الباشا شكيم . ماالفرق ؟

خطا الحاج الى حيث ينام وهو ينهر ولديه :
- كفى . دعونا من الناس . مالنا ولهذا الكلام . هيا الى النوم . خذ زوجتك ياهولو ، وتعال أنتِ ياعمر الى هنا .
شبّت حُسْن الى القسم الذي فصله الحاج من البيت بحائط حجري، يلامس السقف، حين قرر تزويج هولو ، ونهضت العجوز حيرى فيما إن كان عليها أن تحزن أم تفرح ، وظل عمر متربعاً . أما هولو فنهض متباطئاً ، وقد أخذ يغادره غيظه وهو ينظر الى ظهر حُسْن .

★ ★ ★

غمامة من الضيق كانت تحوم فوق كل منهما ، وهما يتوجهان الى مخدعهما ، ولكن حين لفهما الغطاء الواحد ، طار الفرح بهما .
هي لهفى الى هذا الرجل الذي لم تمضي معه منذ تزويجها سوى ليال معدوات . لقد جاء بها الحاج من بيت أبيها ، وعريسها غائب . وحين آب بعد أيام تركت الأسرة للعريسين البيت ، الى بيت الإمام . لكن أنى للعريسين أن يختليا من بعد . أَوْباتُ هولو قصيرة ، متباعدة ، وفي الليل الذي يجمعهما ، لم يكن الحائط الحجري الفاصل بين قسمي البيت يؤكد أنهما وحيدان . شخير الحاج مسموع ، بل هو أعلى في سمع أي منهما مما عهداه ، فليس ثمة على الفجوة التي تركت في الحائط كباب ، سوى ستارة من الخيش . والجسدان الشابان المشوقان يندغمان في صمت ، الليلة مثل أخواتها الماضيات . وقد تعلمت حُسْن منذ الليلة الأولى أن تهيء خلسة قدراً من الماء في الزاوية المقابلة للفراش ، واناء ماء فارغاً ، وتعلم الجسدان الشابان أن يغتسلا بصمت ، وأن لايخطئا بأية نأمة ، رغم العتمة ، وأن يهجعا من بعد قريرين .
جافى النوم هولو ، وعاودته غمامة الضيق التي بددتها حُسْن لدقائق . راحت الغمامة تدور أمامه بالوجهين اللذين أخلدا غير بعيد : عمر ، الحاج . لم يكن يود أن يجاري في المماحكة قبل قليل . ربما كان يود أن يقصّ على أبيه ماشاهد هذا الصيف ، ماشاهد في الشام أمس وهذا النهار . ولعله كان سيسوق بعض مايخطر له في الباشا وغير الباشا ، في المفتي وفي غير المفتي ، ولكن عمر خرب عليه ذلك ، كما يخرب عليه الآن خلوته مع حُسْن .

عاودته الأمنية التي شغلته منذ أوبته الأولى بعد الزواج ، في أن يكون له ولحُسْن ركن ما ، يستطيعان أن يمارسا فيه مايرغبان ، بلا صمت ولا حذر ، بلا خوف ولا عتمة . لقد أخذ يحنّ الى حُسْن أثناء سفره ، وهي التي لم تكن تعنيه في شيء حين قرر أبوه تزويجه . كان يسعده أن يتحدثوا عن جمالها ، وكان يرغب في أن يتحقق من ذلك وحده . ولاريب في أنه كان راغباً أيضاً في أن يأتي مايسعد والده ، ويبرهن على طاعته له . وهو لو عازم منذ زمن بعيد على أن يظهر للجميع أنه ابن بارّ أكثر من عمر ، ولكن على طريقته هو ، لا على طريقة عمر .

على العكس من أمر الزواج وحُسْن ، كان العمل والسفر . لقد أقبل على مهنته برغبة عارمة . وراح يتقدم فيها بسرعة . سوى أن الإنهاك والأتراك والحنين الى حُسْن ، وربما العم حاتم أيضاً ، وسوى ذلك مما لايدركه ، بات ينغص عليه سعادته ، وإن يكن اخلاصه واندفاعه ظلّا يتضاعفان يوما بعد يوم .

كانت حُسْن قد غرقت في نوم هنيء . وكان شخير الحاج قد أخذ يتردد في أجناب البيت . استدار هولو مواجها الحائط الحجري ، محدقا في الظلام ، يختلط عليه الشخير بأصداء مبهمة ، لم تلبث أن غدت أقوى ، اكثر رتابة ، تعلن عن العجلات الحديدية ، تتداخل بأصوات العمال الذين لاينامون ، فيما يغط المسافرون متكومين فوق بعضهم . حتى أولاء الذين لم يكونوا من العسكر ، كانوا يبدون في غرفهم متكومين ، ضباطا وأعيانا ، كل في سرير راكب فوق سرير ، ولابد أن النساء أيضاً في غرفهن الخاصة كن متكومات فوق بعضهن ، ولكن من يجرؤ على أن يقترب منهنّ ؟

لم يفتقد هولو في لياليه الأولى طراوة ودفء الفراش الرقيق في الحرزة . إلا أن الأمر لم يعد سواء بعد أن صارت حُسْن تشاركه الفراش . ربما كان يعينه على احتمال الليل في القطار أنه يقضيه ساهرا في مناوباته التي لاتنتهي ، منذ بدأت أمام الموقد والوقود . من النادر جداً أن كان السهر والاعياء يلويان بجفنيه لحظة ، مثلما يفعلان الآن ، وحُسْن في حضنه ، والحائط الحجري ينشق رويداً رويداً عن رأس غريب ، لم ترسم مثله العجوز ولا جدته في الطفولة التي لابد أنها قد غدت بعيدة جداً . إن الغول يباعد فجأة شقّي الحائط ، وعينا هولو شاخصتان ، وجفناه ملويان ، لا ذابلان ، ولا منطبقان ، والغول يعبر فوقه فتلتحم حُسْن به ، الغول يعبر فوق الآخرين المتناثرين في بساط البيت ، ويخرج الى القرية فيملؤها ، يملأ الغوطة كلها ، يقتلع الأشجار جميعا ، يعريها من أغصانها ، يقطع سوقها ويرميها بعيدا ، فإذا بعربات الشحن تنتظم مكشوفة ، تحمل الجذوع

وصناديق البارود وتتدثر بأغطية كبيرة ممزقة ، وهولو قد رقيّ من وقاد الى حارس للشاحنات ، أو لعله عوقب بالعمل الجديد ، إذ حظر عليه التدخين ، وابتلي بثلاثة من الزملاء المجانين ، وربطت عيناه الى اشارة السائق كي يدير الملاجم وحده ، والآخرون يتفرجون عليه ساخرين وشامتين ، والقطار لايقف ، فلا يكتفي السائق بنهره ، بل يضربه ، ويرقيه من حارس للشاحنات الى لجاّم ، لاتفارقه علبة الكبريت ، ولا الصفارة ، ولا الفانوس ، ولكن هولو يخطىء دوما في ألوان الفانوس ، يختلط عليه الأبيض بالأحمر بالأخضر ، وهو يخطىء دوما في مراقبة روابط الشاحنات ، بل انه يخطىء في حبل التنبيه ، فيجن جنون السائق ، والآخرون يتفرجون ، يثنون معجبين ، فهولو خير من ينظف الشاحنات التي تنقل المواشي أو الجذوع ، وهو خير من ينظف عربات الركاب ايضاً ، والسائق لايكتفي بنهره ، بل يضربه ، ويفرض عليه أن يعود الى أيامه الأولى ، يمسح القاطرة ، يمسح الدواليب ، فيتأسى على عهده بالموقد والوقود ، ويداه تومضان ومضاً وهما تقذفان بقطع الحطب ، بل تجرفان الكوك ، والموقد يجأر ، والنار تضرم مثل الكابوس ، مثل هذا الغول الذي اختفى ، وترك القطار يندفع قدما ، والعم حاتم أبو راسين يتقدم مشجعا ، يحتضن هولو الذي يرتعد خوفا من عذاب النار التي كان الإمام يتفنن في وصفها ، بل إن هولو يبكي على صدر العم حاتم ، فقد هدّه الإعياء وكوته النار والسائق لايرحم ، القطار نفسه لايرحم ، والعم حاتم يهدهده ، فيحنّ الى الحاج ، ويغدو العم حاتم والد هولو ، أو يغدو والد هولو العم حاتم ، لكن القطار يرمي كلا منهما في شطر من العالم ، وهولو يلوب عليهما معا ، يوشك أن يبلغ بغيته لولا أن القطار أخذ يتباطأ ، كأنه يجتاز بعض مقاطع الطريق المعلقة بين السماء والأرض من رياق الى حمص أو الى الشام ، بل إن القطار يتوقف فجأة ، على الرغم من أن هولو لم يلجم اللجام ، والخشية تأكله من أن يأخذ القطار بالتراجع حتى يهوي في أحد الوديان .

أحسّ أن قلبه يهوي بين جبينه ، وان الرفس يأتيه من كل صوب ، فاندغم في الأجساد التي كانت تتزاحم أمام الموقد وصرخ بالتركية ، بالعربية ، بألسنة الأنس والجن جميعا :

ـ نقص البخار ياقرود . الماء لايغلي كفاية والنار لاتكفي لشيّ جلودكم .

وعاد الغول يملأ الأرجاء ، لكنه لم يكن يقتلع الأشجار هذه المرة ، بل يبلعها بلعاً ، وهاهو قد أخذ يبلع كل مايصادفه بين الأشجار، البيوت والبشر والسواقي والبقر ، حتى وصل الى الحائط الحجري ، وهم في أن يبلع هولو نفسه .

انتفض متعوذا من الشيطان الرجيم ، يدعو الله أن يجعل العاقبة خيرا ، واستدار الى حُسْن التي تململت في غفوتها ، وراحت تملأ صدره بأنفاسها الدافئة ، فتمنى ان يكورها في حضنه ، لايغيب عنها سوى سحابة النهار . وطفق يفكر فيما قاده الى هذا العمل دون سواه ! هذا العمل الذي لم يخطر له يوما ببال ! لقد كان يحلم حقاً بالخروج من الحرزة الى الشام أو الى مكان آخر ، لايموت فيه أخوته ، لايسمع فيه حكايات أبيه عن أيام أشد سواداً . كان يحلم حقا بالخروج الى مكان من هاته الأمكنة التي يروي عنها بعض من يغادرون الحرزة ويعودون ، قبل الحرب وأثناءها : أماكن فيها القطارات والعمارات والطرقات المعبدة والدكاكين العامرة والأنهار الكبيرة ، والبحار ايضاً . وكلما كان يزور الشام كانت أحلامه تكبر ، ومخيلته تلعب امام أقرانه ، فلا يعود يفوقهم في الكتّاب وحسب ، ولايعود الإمام لايظهر في الكتّاب إلا ليعهد لهولو بضبط وتعليم الأطفال ، ثم ينصرف الى واحد من شؤونه الكثيرة دوماً .

لقد ظل راغباً في الاستزادة من القراءة والحساب ، على الرغم من بعد عهده بالكتّاب . وكان الحاج والإمام يحثانه على ذلك "ويعيّران به الآخرين ، عمراً وغير عمر ، وفجأة انفتحت له الأبواب" . أبواب الجنة نفسها انفتحت . هكذا كان الحاج يردد وهو يعلن نبأ موافقة الباشا شكيم على تدبير عمل لهولو في الشام . كان الحاج يسأل العجوز :

- دعوت لهولو وحده في ليلة القدر ؟ إذا صادفتها ثانية فلا تنسي أولادك كلهم . حتى الأموات أطلبي لهم الرحمة .

ولكن لماذا اختار الباشا له هذه المصلحة ؟ لماذا رسم الباشا خطاه خارج الحرزة مثلما رسم خطا أبيه داخلها ؟ لقد أخذ السؤال يلح عليه منذ ليلته الأولى في القطار . بل ربما كان ذلك منذ ألجمت لسانه الدهشة والفرحة وهو يرى أباه يحضنه ، يقبله ، يهنئوه ويدعو له ، وينادي على الإمام متباهياً بما يسّر الباشا شكيم لهولو ، والعجوز تزغرد ، تنهر بالصغار وتسرع في انحاء البيت وحوله ، ترمق ابنها وتلهج بالحمد .

في يوم آخر فكر هولو في أن الدنيا كلها تتحدث دوماً عن باشا ما . في الشام ، في حلب ، في تركيا ، في فلسطين ، في القطار ، في المنام ، في اليقظة . دائماً الباشا . لقد أسعده أن العم حاتم يثني على الباشا شكيم ، أسعده ان يكون العم حاتم قد زار الباشا لسبب ما مرة أو مرتين أو عشرا ، بل إن معرفة العم حاتم بسليم أفندي قد أسعدت هولو ايضاً ، ولكن ذلك لم يرو غليل السؤال الذي أخذ يصدعه . لاريب في أن باشا قد يكون أفضل من باشا ، وهولو لاينكر ، فالباشا شكيم قد يكون خير الباشوات ، ولكن هولو

يود لو أن أحداً لايرسم له خطاه . يود لو يكون هو بنفسه قد اختار سبيله خارج الحرزة . لعله لم يكن يعرف ذلك من نفسه في البداية ، ولعله كان يكره أن ترسم له خطاه ، وليس يود فقط أن لايرسمها ، داخل الحرزة ، لا الحاج ولا الباشا ولا سواهما ، لاأحد ينبغي أن يكون له الحق على هولو ، فهو أمر مقيت ، مبهظ ، معجز ، مثل القدر ، هو أمر نازل من السماء كما كان الإمام يقول عما نسيه هولو ، ولكنه لم ينس أن يستغفر الله كلما دارت به تلك الهواجس ، ومثلما كان الإمام يفعل ايضاً .

كان العم حاتم يخفف عن هولو حين صار يجرؤ على أن يبوح أمامه بما يهجس به . كان يؤكد له أن جهات المعمورة الأربع مبتلاة بما يشكو منه . وحين سمعه هولو أول مرة يقول شيئا من ذلك لم يفكر إلا في أن العم حاتم قد عرف جهات المعمورة الأربع . ولأنه كان واثقاً من ذلك ، اندفع يسأل كأنه ليس ذلك الشاب الملتحي .

- هل يدور بنا القطار في الدنيا كلها؟

كان هولو لايزال يعود كل حين ذلك الفتى أو الطفل الذي يدور في الحرزة ويلغو ويرسم الدنيا كما يروق له . وقد أشفق العم حاتم على الشاب الذي لجأ اليه ، وحزّ في نفسه أن الشاب الذي يتوقد ذكاء ونقاء . ويجيد القراءة والكتابة ، لايزال غريراً ، فأحنى عليه قائلاً :

- لا يابني . لا هذا القطار ولا غيره ، بل الكتاب .

ويوما بعد يوم عرف هولو أن الكتاب أقدر من غيره على أن يفتح العينين على مجاهل الأرض والسماء . أما المدى الذي يصل اليه القطار فيظل محدوداً . ومثله البواخر ، ومثل البواخر والقطارات مارأى هولو نفسه في المدن من السيارات ، وفي الأجواء من الطيارات . ويوما بعد يوم غدا هولو الطالب المبرّز في مدرسة العم حاتم ، كما سمّى تلك الجلسات التي كان يتحلق فيها مع الآخرين ، فيما يتحدث العم عن القطار والماء والكوك والسماء والغيوم والصواعق ، عن المدارس التي تعلم كل شيء ، وتجعل المرء استاذاً أو محاميا ، حتى الضباط الذين تعج بهم العربات الخاصة ، لهم مدارس يتعلمون فيها الحرب !

كانت الأسئلة تفضي الى الأسئلة . وكان يبدو أن العم حاتم أبو راسين لديه الكثير ليقوله في كل شيء ، على الرغم من أنه لايفتأ يعلن جهله في أمور مما يسألون ، واعداً أن يحاول معرفة الجواب .

كان وقت العمل طويلا ، مرهقاً ، فضلاً عن التبديل الكثير والمباغت في المجموعات التي تتوزعهم ، والعقوبات التي تنقل واحدهم من الوقود الى اللجام الى الشحن الى المفاتيح الى سواها . ولكن ذلك لم يكن يعطل مجالس العم حاتم بين يوم وآخر ، على القطار غالبا ، وفي محطة ما أحياناً ، وكانت المجالس تطول ، حميمة ، طريفة ، وحذرة ايضاً ، خاصة في الشهور الأخيرة . كان هولو يخرج منها أوفر عزماً ، أوسع آمالا ، يستعيد أشتاتها مما سمع للتو ، أو بالأمس ، وسرعان ماغدا له مع العم حاتم أسرارهما الصغيرة ، فلدى ذلك الكهل مايدفنه في أركان القطار ، ينقله من محطة الى محطة ، وتكون لهولو دروس أخَر ، لا شرح فيها ولا هذر ، مشحونة بالخوف أو الخطر ، على الرغم من أنها أسهل من كل مايقوله العم حاتم في الذي اخترع البارود أو رسم الخرائط .

لقد اختفى العم حاتم . غافل هولو ، غافل الجميع واختفى . كان الأتراك ينهزمون ويرحلون والعم حاتم فرح جدا ، وقلق جدا أيضاً ، وكان الانكليز قد قطعوا السكة جنوبا ، ونزل العم حاتم في محطة ما بعد الشام ، أو قبل درعا ، لاريب .

كم لابت عينا هولو هذا النهار بحثاً عن وجه العم حاتم في وجوه الناس . كانوا آلافاً مؤلفة أمام أوتيل فيكتوريا يهتفون . وكان هولو واثقا أن العم حاتم بينهم . لابد له أن يظهر . لابد أن يصادفه هولو بين هذه الجموع المتدافعة . لكن النهار مضى مخيباً ، بل إن هولو لم يصادف أحداً ممن عاشر قليلاً أو كثيراً في القطار ، منذ غادروه جميعاً في إجازتهم الطويلة هذه المرة .

من جسر فكتوريا اندفع وسط الجموع صعداً . الطرابيش والكوفيات تتطاير سكرى . الأكف تلتهب والحناجر تنشق . إنه واحد من تلك الأيام القادمة التي تحدث عنها العم حاتم ، عالماً علم اليقين أن قومة الشعب وشيكة ومنتصرة . هكذا جرى في فرنسا منذ عشرات السنين ، هكذا جرى بالأمس القريب في روسيا ، وهكذا سوف يجري في كل أرضٍ يفسدها الظالمون ، وهذا هو صوت العم حاتم يهمس ، لا ، انه يتردد في كل مكان ، وهولو يتشرب كل كلمة ، يطلقها ملء الفضاء ، وعيناه تلوبان ، والعم حاتم لايظهر . ونصف النهار ينقضي مابين العباسية والمحطة . ومن أمام المحطة اندفعوا في شارع جمال باشا . من مطلع الشارع بدت ذابلة النباتات المنسقة على هيئة هلال ونجمة . امتلأت انحاء الجزيرة ، وسط الشارع ، بالناس . امتلأت برك النوافير الفارغة بالناس ايضاً ، وفوقهم انداحت ظلال السرو والزنزلخت والعفص ، وبين

مجموعاتهم تناثر الشمشير والمرجان وشجيرات الجوري التي بدا أنها مهملة منذ أمد بعيد ، وكان الكشك الذي تعود هولو أن يتفرج عليه في مدخل الشارع مغلقا ، لكن الزينات تلفه لفاً . كان هولو في كل اجازة يدور حول الكشك ، يتأمل من فرجته مشارب السجائر وأصناف الدخان والتنباك ثم ينصرف . يتلهى عن الكشك بالعربات والحمير التي تقترب او تبتعد فوق خط التراماوي ، وقد تطول أو تقصر فرجته ، لكنه لايلبث ان يعود الى الكشك ، خاصة قبل ان يتابع سيره الى دكان سليم أفندي او الى الحرزة .

جاهد في التقدم بعد الكشك ، عبر الشارع الذي صار كتلة من البشر . كان لون القرميد يطل من اليمين ومن اليسار . أطلت المئذنة فوق المدرسة العسكرية التي سرقها جمال باشا من الجامع ، وهولو يسير مندفعا ، لا حول له ، حتى أطلت المشيرية ، حيث سار مرة مع العم حاتم ، يلاحق خطا الكهل وذكرياته عن الأيام التي كانت فيها لاتزال السراي ثمة . وكان هولو يحار في كلام العم حاتم عن جمال باشا ، فهل يعجب المرء بعدوه ؟ هل يكون في جمال باشا مايعجب إن كان لم ينس وهو يغرق في الحرب كيف يلعب بالعمران أيضاً ، فيذهب بهذا الشارع بعيداً ، بعد أن يوسعه من المحطة حتى مدخل الحميدية ، ومن هناك يذهب بالبيوت التي زنّرت القلعة مثلما زنّرت الجامع الأموي ؟ العم حاتم يؤكد ان انكشاف حيطان القلعة والجامع كان خطوة عمرانية كبيرة ، ولو أن جمال باشا لاينشد منها غير أن يكون الشارع الذي يحمل اسمه أعظم شارع في الشام . لكن هولو لايفهم ، لايوافق وإن ظل صامتا . لقد أوقفت الحرب سعي جمال باشا . والذين نكبوا بهدم بيوتهم من أجل الشارع العظيم عادوا اليها ، يبنونها من جديد ، بعد أن رحل جمال باشا ، والعم حاتم ليس أقل شماتة ، فكيف تجتمع الشماتة والإعجاب والعداء ؟

من بعد بات هولو أقدر على أن يفهم . تعلم أن عليه أن يسعى كي يرى كل انسان على حقيقته ، عدوا كان أم صديقاً . تعلم خاصة أن يرى محاسن العدو ويقرّ بمناقبه ، فليس الأمر إذن إعجاباً بجمال باشا أو شماتة . ليس عطفا على الذين هدمت بيوتهم ، فلهؤلاء ايضاً معايبهم . وإذ يفكر هولو في ذلك الآن ، يتعجب من أنه لم يتساءل من قبل قط عما اذا لم يكن في الباشا شكيم مايعجب ، وعمّا اذا كان في الحاج نفسه مايعيب ؟ لقد فكر مرارا فيما يعجب في نفسه ، وفيما يعيب في عمر ، وفيما يعجب ويعيب في سليم أفندي ، وكان يحلو له أو يغيظه أن يكتشف في كل مرة مايحسب أنه جديد في نفسه أو في عمر وسليم أفندي أو في حُسْن أيضاً . كان ذلك يجهده في كل

مرة ، فيفر منه ، ويعزم على ألا يعاوده ، وقد يكون انقطاعه أخيراً عن ذلك لسبب من هذا القبيل ، وليس فقط لما كانت تضجّ به الشهور الأخيرة . لكنه الآن ينوي أن يعود فيفكر في الناس ، في العم حاتم نفسه سوف يفكر ، بل انه يقرر ، ولا ينوي فقط ، لولا أن النوم يستعصي ، لولا دوار الأفكار والجسد الذي أضناه النهار ، فلا ريب أنه ظل واقفاً منذ الصباح حتى دخل هذا البيت ، فأنّى كان له ان يستريح بين الجموع التي لم يفارقها حتى العصر ، حين كانت قد وصلت به دفعاتها الى دكان سليم أفندي ؟!

في الدكان ظل واقفاً أيضاً . سليم أفندي نفسه لم يجلس طوال الوقت . ومن الدكان الى الحرزة جاء هولو وعمر مشياً ، ثم جاءت هذه الليلة التي لاتفتأ تمتد ، وجفناه لاينطبقان ، فيتقلّب عبثاً ، يستلقي على ظهره ، ينأى عن حُسْن وينبطح ، تختلط عليه أشتات الأيام القليلة الفائتة ، المحطة والدكان وغرفة عمر ، الانكليز والعساكر الذين يعرفون العم حاتم وجاؤا الى دكان سليم أفندي يتلمّسون له أثرا ، وهولو يهوي ثمة ، بعيداً ، في قعر سحيق ، يصمّ أذنيه وقع قطرات الماء في أنحاء البيت ، كل شتاء ، حين يبدأ الوكف ، فهل تكون السماء قد أمطرت ؟ هل يكون الشتاء قد بكر ، غير عابىء بنهار بلا نسيم ، ولا بصباح خرّيفي غير نديّ ؟ رائحة الشتاء القادم تنفذ الى مسام هولو وهو متدثر بالغطاء الواهي ، وحُسْن تنازعه أطراف الغطاء ، وهو يود أن يصغي الى صوت الهواء الذي يتردد قويا في الخارج ، يعبث فوق البيت وخلل الأشجار الملتفة حوله ، يحني ذؤابة حورة الحاج ، وحُسْن تعبث بما تبقي لها من الغطاء ، فيمتلىء صدر هولو برائحة الشتاء . إنه يميزها في منامه كما في يقظته ، داخل البيت كما في البستان . حتى في القطار كان قادرا على أن يميز ، وكان ذلك يعجب العم حاتم ، فيزدهي هولو الذي يطلق الآن الزفرة الحرى تلو الزفرة ، يكاد يصرخ لأن السعادة لاتأتي براحة البال ، أو لعلها لاتأتي نقية أبدا . إن عليه ان يعود ثانية الى المحطة بعد ثلاثة ايام . وقد يردفون هذه الاجازة بإجازة أخرى ، طويلة أو قصيرة ، لكن الإجازة سوف تنتهي ، ولسوف يعاود الرحيل والغم ، على الرغم من أنه لاينشد البقاء في الحرزة . إنهم الآن لايعرفون ماذا ينبغي عليهم أن يفعلوه بعد أن رحل الأتراك . لكن القطارات لن تظل واقفة . بل من يدري إن كانت واقفة الآن ؟ إن عليها ان تسير أسرع وأكثر . كل شيء ينبغي أن يسير أسرع وأكثر وأفضل مما كان قبل أن يرحل الأتراك . ولذلك سوف ينأى هولو من جديد ، ولذلك سوف يلتقي العم حاتم ، ويرددان معا :

ـ القطارات تجمع وتفرق ، المحطات أيضاً .

هذه المرة سوف يسعى هولو من أجل اللقاء . كل مرة كان العم حاتم هو الذي يسعى ، لكن الأتراك عادوا يلوحون في غبش الفجر المنسرب من شقوق الباب ، وخيل لهولو أن العم حاتم محاصر في مكان ما ، رأى هولو نفسه يتيما من دون العم حاتم ، ودهمته الخشية على الحاج ، فماذا لو أنهما يقضيان معاً ؟ هل يسع هولو أن يرسم منهما رجلا واحدا ، حياً أو ميتاً ؟ كان يحلو له في سره أن ينادي العم حاتم بالحاج ، يضحك وهو يجعل العم حاتم يرمي بذلة المصلحة ويتهادى بالقنباز ، يضحك وهو يجعل الحاج عاري الرأس أغلب الوقت ، مسودا أمام الموقد أو مسرعا بين العربات . كان يجهد كي يجعل لسان الحاج ينطلق بما ينطلق به لسان العم حاتم ، لكن خيال الحاج كان يملص منه ، كذلك كان لسان العم حاتم وخياله ، وهاهما الآن قبالته ، شبحان متنائيان وسع هذا المدى الأغبش ، على الرغم من أنهما مستكّنان في قرارته ، يصدعان رأسه بأحاديث بدأاها ذات يوم ، ولا تلوح لها نهاية ، وهولو يخشى أن تتصل الأحاديث بعد أن يغيب عنه الشبحان ويقضي الرجلان ، حينئذ ، ليس له إلا أن يتدخل ، سوف يفتح جراحه بنفسه على مداها ويتدخل ، وقد يفقد جراء ذلك رضا العجوز ، وعمر ، وثناء سليم أفندي ، لكن هولو كان يتلمس السبيل . وهاهي الدنيا كلها قد قامت ، وليست الشام وحدها ، أمس وأول أمس ، تؤكد له سواء السبيل . هاهو صياح الديك ، والليل المولّي ، والجفنان اللذان لاينطبقان ، ووجه حُسْن المدفون في صدره ، هاهو السبيل الذي يروم ، فتهدأ روحه ، وتنتظم أنفاسه ، فيما الحاج يفتح الباب ، والعجوز تشهد أن لاإله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

★ ★ ★

نهض عمر اثر أبيه . حيا العجوز وأسرع في التبول والوضوء ، ثم لحق بأبيه في المسجد . كان الإمام قد شرع بالصلاة ، فوقف عمر في الصف الثاني والأخير ، وقد رأى أن عدد المصلّين أكبر مما ألف قبل أن يقيم في الشام .

لم يكن عمر مواظباً على الصلاة يوماً ، لا في الحرزة ولا في الشام . لكنه أحسّ أمس ، منذ أن انتهت السهرة على ذلك النحو ، أن عليه أن يبكر الى الصلاة مع الحاج . وحين فكر في أنه قد يكون يفعل ذلك نكاية بهولو ، خاف قليلا ثم أشاح منكراً .

في صلوات الجمع ألف فترة أن يتردد على الجامع الأموي بانتظام . كان الأمر لايخلو في البداية من اللهفة الى دخول الجامع الذي سمع عنه الكثير ، ودار حوله مراراً في

زياراته النزرة الى الشام برفقة الحاج وهولو. ربما كان مشوقا في البداية الى الجامع حقاً . كانت صلواته الاولى فيه خشوعاً عميقاً ، تجعله أقرب الى الطقس تلك المآذن العالية ، مقام النبي يحيى ، الأبهاء الفسيحة ، المصلون الكثر ، الضريح الهائل ، القباب العديدة . . . ولم يفطن إلا بعد لأي الى أنّ أداء صلاة الجمعة في هذا الجامع يرضي سليم أفندي .

لم تفسح الشام طويلاً لصلاة عمر ولهفته الى ذلك الجامع أو سواه من الجوامع والمساجد القريبة من الدكان ، ملء الميدان ، حيث كان يؤدي ايضاً واحدة من صلوات النهار ، بين يوم وآخر . على أن سليم أفندي يجب أن يظل راضيا . بل يجب أن يكبر رضاه كل يوم . هكذا صارت صلاة عمر مقرونة بحضور سليم أفندي ، في الجمعة أو في غير الجمعة . وقد أقلقه ذلك حين صحا عليه أول مرة ، ثم استمرأه مثلما استمرأ الشام ، فهي ايضاً قد أقلقته في أول عهده بها .

افتقد عمر صوت الإمام الذي تعوده صغيرا . لقد تضاعف نشاز الصوت الذي كان وحده يجيد تقليده ، حين كان يقرأ القرآن على يد الامام في الكتّاب . لم يكن بين الاطفال من يجرؤ على أن يفشي بسرّ تقليد عمر للامام ، خوفا من بطشه . ومثلما كان في زمن الكتّاب ، وفيما تلاه حتى غادر الحرزة ، هاهو يؤدي الصلاة دون أن يقدر على أن يغرق نفسه فيها . وعمر على يقين من أن هذا لايتعلق بإيمانه العميق . ولأن ذلك حق ، تشرد الأفكار به ، الآن كما بالأمس ، حين كان الامام يطيل الصلاة ، أو الخطبة فإنْ أعجزت الحيلة عمرا ، ولم يستطع أن ينسحب بعد اداء الفرض ، أفلتت منه رأسه الى حيث تشاء . ولقد شرعت بذلك ، مادام الامام قد أخذ يسترسل في التراويح ، لكن عمر ليس راغبا الآن في أن ينصرف دون أن يراه الحاج والامام وهؤلاء المصلون النائمون .

كان عمر منذ حرن ورفض الزواج قد أخذ يتزلف للحاج ، على الرغم من أن الحاج لم يكن أقل رضى عليه من هولو ، بعد ان استسلم واقتنع بتزويج هولو . ولاريب في أنه كان راغبا في أن تكون له امرأة حين فاتحه الحاج بالزواج ، لكنه لم يكن راغبا فيمن يتزوج وتنجب أولادا في تلك الايام التي لم يكن يجد المرء فيها لقمة أو لباسا . كانت الشام مفزعة حين طلع عليه الحاج بحكاية الزواج . الناس تنكر أولادها والحاج يريد أن يزوج ابناءه ، ليعوض من مات منهم بأحفاده ، مردداً أن رزقكم على الله وماتوعدون ، مدققاً الأمر ماأمكن . فعمر لن يصطحب امرأته الى الشام ، حيث لا مأوى ولا طعام . سوف

تقيم العروس ومن بعدها عروس هولو في الحرزة ، تعينان العجوز والحاج على مالم يعودا قادرين عليه من شئون البيت والأرض ، بعد أن ذهب عمر وهولو . لكن عمر كان جازماً . إنه يريد امرأة ليضاجعها كل يوم ، صبحاً وعشية ، لاليتزوجها وتفرخ له كل سنة ولداً . انه يريد امرأة من اللائي تملأ حكاياهن خلواته مع أقرانه الجدد في الشام . واحدة من بيتٍ منكو ، امرأة ممن يملأن حارة اليهود ، تغني وترقص ، ويصحبها الرجل في آخر الليل الى بيته . وكان رفاقه يهونون عليه الأمر ، وكانت الخشية من الاثم تردعه ، حتى اذا تغلب عليها ، وشرب الخمرة مرة بعد مرة ، طلعت له خشية أخرى وثالثة ، صارت الخشية بالأحرى مبهمة بعد أن كانت واضحة ومحددة . صارت أكبر على الرغم من أنها كانت كبيرة .

حين طلع الحاج بحكاية الزواج بدا لعمر أنه مقبل على معركة مع نفسه ، قبل ان تكون مع أبيه . بدا له أن انتصاره على الزواج انتصار على مايحول بينه وبين الدنيا التي يتحدث عنها أقرانه ، فيما يقدم هو نحوها رجلا ، ويؤخر أخرى .

بيد أن الانتصار لم يكن كذلك ، فماذا يعني أن يغدو عمر أكبر جرأة ، بعد أن يغلق الدكان كل مساء ، على شرب القرفة في مقهى علي باشا ، أو على فرجة في مقهى النوفرة ، يضحك على كراكوز وعيواظ مثل الأطفال أو العجائز ، فيما أقرانه يسرحون ويمرحون ، لايهم الواحد منهم أن يوفر بارة ، ولا أن تضبطه عين سليم أفندي أمام سينما زهرة دمشق ، ولا أن يغضب الحاج من الولد العاق الذي يدعك عضوه كل مساء حتى يذوي .

فجأة افتقد صوت الامام ، ورأى المصلين ينهضون ، فلملم هواجسه ونهض ، يرد تحية ويلقي بتحية ، حتى اقترب الحاج والامام ، وشع محيا الحاج بالرضا ، وتضاعفت غبطة عمر وهو يسمع صوت الامام من جديد .

ـ هل يظن هولو أنه سيبقى عريسا ؟ منذ متى لم أره ؟ كان عليك ياحاج أن تجره من حضنها وتدفعه أمامك . إن كيدهن لعظيم .

لحق عمر بالحاج الذي ظل صامتا حتى المفرق المفضي الى الدايرة ، فالتفت الى ابنه :

ـ أوقظهم وهيأوا لقمة . خلّونا نفطر كما لم نفعل من . . متى ياعمر ؟

وتابع سيره دون ان ينتظر جوابا ، فيما رأى عمر نفسه يجر خطاه نحو البيت ، أقلّ نشاطا ، يهرب مما يخاتله من الامتعاض والسخرية ، وهو يردد أمر الحاج :

ـ أيقظهم . . .

فهل يريده الحاج أن يدخل على هولو وحُسْن ؟ وهل سيطير هولو فرحاً من حضن حُسْن حتى يتناول الإفطار في حضن الحاج ؟ لكن هولو ظهر قرب البئر ، وظهرت تسكب الماء البارد على رأسه جذلى . هجس عمر مهنئا ، أجرأ على الامتعاض والسخرية ، وخاطبت عيناه هولو ممتنة ، ضاحكة ، تستذكر الفصل السابع حين أذعن وتزوج . كان عمر عازماً على أن يرجو شقيقه كي لايرفض هو الآخر الزواج ، لكن هولو وفر عليه ذلك . ويومئذ تضاعفت حيرة عمر في شقيقه . فهذا الذي يعود من كل سفرة ، وقد تبدل فيه أمر ما ، تراه يأوي الى الحرزة كأنه قد غادرها في الصباح الى الشام ، وقفل اليها في المغيب .

كانت شكوك عمر في شقيقه ، أو تساؤلاته ، قد شرعت كل حين تكبر وتزداد إبهاما أيضا . فهذا الذي صار يرسل القول جزافاً في أمور شتّى ، لابد أن يكون قد عرف من الدنيا مالم يعرف عمر نفسه ، لابد أنّ له أقراناً مثل أقران عمر ، وربما كانوا أفضل أو أكثر دراية ، بل لعلهم أكثر خبثا ، لكن هولو لم يذكر أمام عمر الا العم حاتم أبو راسين . ولقد خيل لعمر أنّ أولاء العساكر الذين وقفوا في باب الدكان يتلجلجون بالسلام ، أصدقاء هولو ، مادامو يسألون عن العم حاتم أبو راسين ، ولو كانوا كذلك لاصطحبهم الى غرفته واحتفى بهم ، ودعا أصدقاءه هو ، مثلما دعاهم أمس الأول ليلتقوا بهولو ، وليلتقي هولو بهم . كان عمر يعدّ لشقيقه مفاجأة سارة ، لكن هولو خيبه ، مثلما خيبه في السهرة مع أصدقائه هو . كان عمر يود لو أن هولو انطلق مثل طه اليتيم ، في حكايا النساء ، وهو الذي دار في الدنيا بعيداً . أما هولو فقد صمت عن ذلك ، ولا أحد يدري كيف راح يتحدث عن سكة الحديد بين الشام ومكة ، ويؤكد أن السلطان لم يمدها كرمى للحجيج الشامي ، ولا ليكسب المزيد من الثواب ، بل ليقبض أفضل على الحجاز ونجد واليمن ، مثلما جعلته السكك والطرقات التي مدها من قبل يقبض أفضل على فلسطين أو حوران أو بيروت أو سواها . كان عمر يصغي متخوفاً ومغتاظاً ، فهولو يرفع صوته والآخرون أقبلوا عليه مشدوهين حين بدأ يعدد الامتيازات التي أعطاها السلطان لهذا أو ذاك ، من مرفأ بيروت الى ترامواي الشام الى السكك الحديدية بين الشام ومزيريب ، الشام وبيروت ، الشام وحيفا ، وبين رياق وحلب .

لم يكن عمر قادرا على أن يلتقط كل ماينثر شقيقه . ولاريب أن هولو كان قد تحدث ببعض ذلك أمامه من قبل . لقد سمعه قبيل السهرة يعدد أمام سليم أفندي السماسرة

العرب بين السلطان والشركات الفرنسية والانكليزية والالمانية . سمعه يفيض في ضرورة الطرقات والسيارات والمرافىء والقطارات والسكك مهما كانت غاية السلطان ، وأيا كانت الشركات والامتيازات والعمولات ، ولايدري عمر كيف خطر له أن هولو يغمز من الباشا شكيم على الرغم من أن أحدا لم يسمّ الباشا باسمه ، فحاول أن يقاطعه ويستفّزه ، لكن عينيّ طه اليتيم زجرتاه ، وهولو لم يعبأ به .

كان عمر في خلواته النادرة بهولو منذ غادر الحرزة يتوه بين الاعجاب والغيرة والحسد ، يلقي بأسئلته المعجزة أو الاستفزازية ، يشمت بهولو حين يعجز ، ولكنه كان أيضا يرمي بما يعلق بذهنه من كلام هولو أمام أقرانه ، ويسعده أن يبدوا جاهلين ، أو أن يستزيده أحدهم ، خاصة طه اليتيم ، فلا يزيد ، متظاهرا باللامبالاة ، ومضمراً القلق لأنه لايستطيع أن يزيد .

مراراً هجس ، في أن يضع حداً لماتراءى له أنه تماد من هولو ، ليس على شقيقه الأكبر ، أو على السلطان ، بل على أمور كثيرة ، صغيرة وكبيرة ، لايستطيع عمر أن يحددها ، اذ سرعان ماتملص منه بعد أن تكون قد تلامحت للحظة مفهومة وواضحة . ولعل عمر قد جرب في الايام القليلة الفائتة مراراً ماجربه في سهرة الأمس ، أمام الحاج . ولكن غيظه كان يزداد كل مرة ، إذ يبدو له أن هولو يذهب أبعد ، كما ينغّصه احساس خفي بالاثم ، يطلع من ركن قصيّ مافي الحنايا المظلمة ، وكان أقسى ماكابد عمر من ذلك بالأمس ، على طريق الحرزة ، حين عبر هولو عن خشيته من أن تتعثر مصلحة السكك الحديدية ويفقد عمله . لقد تمنى عمر أن يكون ذلك ، وهاهو ذا يتمناه ثانية وهو يقترب من البئر ، وكأنه يتلصص ، فلابد لهولو من درس أقسى كي ينلجم ، بل لابد لحُسْن نفسها من لجام ، وهي التي تداعب هولو على مرأى من الصغار والعجوز والحاج ، فتدلق الماء فوق رأس هولو ، وهولو يلغط ويهرب برأسه ، حتى تصطدم بالسطل ويصرخ من الألم ، ويجفل الآخرون ، ويهدر صوت عمر داعياً على يد حُسْن بالكسر ، وناعتاً اياها بالقحة ، فتنفغر أفواه الجميع قبل أن يرد هولو :

- يدك ولايدها ياعمر ، تأدب .

★ ★ ★

5

في واحد من دكاكين الحبوب في الشاغور نشأ سليم أفندي البسمة ، وحيداً بين رهط من البنات التي لم تكن الواحدة منهنّ تكاد تعرف الدورة الشهرية حتى يدفع بها والدها الى زوج ما ، وهكذا ، ماإنْ شب سليم حتى بات له أصهار عديدون منتشرون من الشاغور الى الميدان ، يرعونه رغم فقرهم وانشغالهم بأسرهم ، ويعوضونه عن غياب أبيه الذي أقعده الشلل سنوات ، قبل أن يموت ويفرح بزواج ابنه الوحيد .

كانت الدكان تكبر بسرعة في تلك الأيام ، قبل إقعاد الوالد ، وبعده . وحين توفي أبو سليم المعروف بالأفندي أيضاً منذ شبابه ، كان في إرثه مايسيل له لعاب بعض الاصهار الأيسر والأخبث . الا ان سليم وأمه كانا واضحين وحازمين منذ تلامح الموت على محيا الأفندي المقعد ، فليس للبنات نصيب في الإرث مهما ضؤل ، ومهما فعلن أو فعل أزواجهن ، وسواء نصّ الشرع أم العرف أم لا . وقد ظل الخوض في ذلك ينغص على الوريث الذكر الوحيد زمناً ، بعد وفاة والدته ، وبعد زواجه ، ولم يخفف عليه أنه قطع صلته بشقيقاته جميعاً ، ولا انغماسه في أعماله التي أخذت تكبر ، أو مكانته التي غدت سريعاً مرموقة ، ليس في الشاغور أو الميدان وحسب ، بل في الشام وبيروت أيضاً .

لم يحصل سليم أفندي من العلم كثيراً رغم حرص الأفندي المرحوم على ذلك . كان أبو سليم ينتقل بابنه كل سنة من كتّاب الى كتّاب . كانت البداية في الشاغور نفسه ، في مكان أقرب الى الزربية . وكان الشيخ في سائر الكتاتيب التي عرفها سليم أفندي يعفي الوحيد المدلل النابه مما يقوم به الأولاد من خدمة للشيخ أو لضيوفه ، الا الخجا رقية التي كانت تأخذ الهدية ، أو الزيادة التي يجود بها أبو سليم الافندي ، وتعد برعاية الولد بجفون عينيها ، ثم لاتلبث أن تفعل به ماتفعل بالآخرين ، بنات وأولاداً ، سوى أنها لم ترسله مثل بعض التلاميذ الفقراء كي يحضروا زوادات أقرانهم من بيوتهم

القريبة الموسرة . ولم يكن الوالد ليصدق ابنه فيما ينقله عن العجوز الكسيحة وعصيها الطويلة والقصيرة التي لايفلت منها رأس قريب أو بعيد ، في الزريبة .

من الكّتاب انتقل سليم أفندي الى المدرسة التي بدت أهون شراً بما لايقاس ، خاصة أنه كان قد حفظ من القرآن سوراً عديدة ، بعضها ليس قصيراً ، كما حفظ جدول الضرب ، ولعله لذلك لم ينل طيلة سنواته المدرسية سوى فلقة واحدة أمام التلاميذ . ولعله لذلك كان ينال بين سنة وأخرى مكافأة ما . ترضي الوالد وتطلق لخياله العنان في مستقبل ابنه .

في عهد المدرسة المبكر تعرف الولد على الدكان والحبوب والاكياس وعلى أقران أبيه . وقد ألف من نفسه كما ألف أبوه منه ، ان يردد كل حين منذ أيامه الأولى في الدكان ، ماكان قد نسي من عهد الكتاب :

يا ربنا بالمائدة وبالرجال القاعدة

تجعل أموري نافذة أنا وكل المسلمين

كان الوالد يبتهج ويدعو لابنه بالتوفيق ، مردداً الدعاء نفسه . والحق أن الدكان كانت تغدو رويداً مدرسته الثانية ، خاصة في العطلة الصيفية . وكان الولد يبرز سريعاً في هذه المدرسة ، ويمتلىء حبوراً حين يسمع واحداً من زوار أو جلساء أبيه يصلّي على النبي ويقول :

ـ سليم سوف يصبح تاجراً كبيراً . . قلْ شيخ التجار .

وحين أنهى تحصيله الابتدائي كان يتحرق للانصراف الى الدكان . لكن الوالد أصرّ على إلحاقه بالإعدادية . وقد عانى جراء ذلك كثيراً ، خاصة أن ماكان بينه وبين أقرانه ظل واهياً أو عدائياً ، ولم يقدر على أن ينسج مايؤنس وحشة المدرسة الا مع هشام الساجي . ولئن كانت تلك السنون قد أضمرت فيه على الأقل الغيظ من الوالد وجفاء من حوله ، فقد جعلته أكبر امتناناً لوالده ، ووفاءً لهشام الساجي وتدقيقاً في نسج علاقاته وصداقاته ، خاصة بعد أن تقاذفته الدنيا ، أبعد من الشاغور والميدان .

في كل عطلة صيفية كان يبدو وكأنما محا من ذهنه تماما ماتلقاه من دروس . لكنه بعد أن غدا ذلك كله ذكرى عزيزة ونائية ، عاد كل مادرسه يتقد ، كما أخرج مراراً كتبه القديمة في علم الثروة أو التاريخ العمومي ، في جغرافية الولايات العثمانية أو علم أحوال السماء ، ولازم هشام الساجي ، وأقبل على الصحف خاصة ماكان يتسرب منها سرا من

مصر ، مما يؤمن له الباشا شكيم . ولم يكن أحد ممن عرفه في دنياه الأرحب التالية ليرتاب في أنه قد حصل الكثير ، وكان بعضهم يسأله عما إن كان قد درس في استنبول أو باريس .

لم يرزق سليم أفندي البسمة أيضا سوى بولد واحد ، تلته سلسلة من البنات . وعلى الرغم من أن بعض أصدقائه وأقربائه مافتئوا ينفثون في أذنيه ، تحريضاً على زواج آخر وإنجاب الذكور ، إلا أنه لم يشغل نفسه بذلك . كان بالغ الاقتناع بزوجته التي دخلت آخر كتّاب عرفه حين غادره هو ، ولقد عرف نساء كثيرات في الشام وبيروت وحلب ، نساء جميلات ومتعلمات وذوات نسب رفيع وعاهرات ، الا أنه لم يفكر يوماً بزواج آخر .

بالمقابل ، صار بعد أن تكاثرت بناته يفكر فيما إنْ كان من حق وحيده أن يستأثر بالثروة التي تتضاعف ، مثلما فعل مع شقيقاته . على أنه كان يملص من تلك الأفكار بهدوء ، متعللاً بأن كل مايقدره الله فهو خير . وكانت تلك من اللحظات القليلة التي بات يذكر الله فيها . سنة بعد أخرى ، على الرغم من حرصه على أداء الصلاة في الجامع .

النقلة الاولى في حياة سليم أفندي وازدهار تجارته كانت في الخطوة التي عارضه فيها الجميع الا زوجته ، حين قرر أن يسكن في الميدان ، ولئن كان اليوم غير قادر على أن يحدد بالضبط دوافعه الى تلك الخطوة ، الا أنه يتلمس منها نشدانه لراحة البال ، بعيداً عن الأصهار الذين ينازعونه الإرث ، والعيون الراثية لذلك الذي لم ينجب غير ذكر واحد مثل أبيه .

فيما بعد نقل الدكان أيضا الى الميدان ، وكانت خطوة أخطر ، جعلته مضطرباً لشهور ، على الرغم من أنه كان قد أعدّ العدة لها جيداً .

منذ ذلك الحين تتالت خطاه ، أقصر أو أطول ، أقلّ مغامرة أو أكثر ، في التجارة أو في الحياة العامة . صار يندفع هنا أو هناك ، يضاعف نجاحه السريع المتواتر من ثقته بنفسه ، ومن تفاؤله ، كما صار أقدر على تجاوز انتكاسة هنا أو إخفاق هناك ، وهو ماندر أن واجهه على كل حال .

هكذا ، لم تعد تجارة الحبوب تلبي طموحه ، لقد قلب عينيه في السوق جيداً . عرف مايكفي عن ألوان أخرى من التجارة ، ليس في الشام وحدها ، بل في بيروت وحلب أيضا . ولم يتأخر في أن يجرب حظه ، دون أن يتخلى عن الحبوب .

كان قد سبق جاره الملاصق الى فتح الدكان لأول مرة . وكان الجار يتاجر بالقنّب . أعد سليم أفندي الشاي بنفسه . فالصبي لم يكن قد حضر بعد ، ودعا جاره مبادراً باقتضاب على غير عادته :

ـ أبو ناظم أعرف ان لك صلات طيبة مع زراع القنب في الغوطة . أرجو أن تصلني بأحدهم ؟

التمعت عينا الجار الذي كان معجباً بنجاح سليم أفندى ، وتساءل عن سرّ الطلب ، فقال سليم أفندي بثقة وهدوء :

ـ أريد أن أجرّب .

ضحك أبو ناظم على مهل :

ـ تزاحمني ياسليم أفندي ؟

تعوذ صادقاً ، وملأ الكأسين الفارغين بالشاي ثانية ، مردداً ماسار على لسانه من الآيات التي تتحدث عن الرزق والسعي ، فقال أبو ناظم :

ـ ياأخي : تعلم ان صلاتي هي، مع الذين يضمنون حقول القنّب ، لامع الذين يزرعونه ، ومع ذلك ، فلي في حمورية أخ كريم مثلك ، سوف أصلك به ، وأرجو ألاّ يكون قد اتفق مع أحد ممن يضمنون الموسم حتى الآن . لماذا لم تفاتحني من قبل ؟ أخشى أنك تأخرت هذا الموسم .

كان الصبي الأجير قد حضر ، وحيّا جزعاً ، فرد سليم أفندي بحنّو ، وأمره ان يسكب لنفسه كأسا من الشاي ، ثم خاطب جاره :

ـ ما حسمت أمري إلا منذ أيام .

ـ تعرف أن من يلعب بالقنب يدفع نقدا ، خاصة أول مرة .

قال أبو ناظم .

ـ لايهّم .

رد سليم أفندي مبتسما ، فأرسل الجار دعاء حاراً بالتوفيق وأردف غامزاً بعينيه :

ـ عسى أن أحصل لك على أفضل سعر في السوق . أم أنك ترغب أن تبيع عن غير طريقي ؟

ـ هذا الموسم لا .

قال سليم أفندي بود ملتبس بالحزم ، فرفرف جفنا الجار وتلكأت كلماته :

ـ والموسم القادم ؟ هل تنوي أن تترك الحبوب وتتاجر بالقنب ؟ اليد الواحدة لاتحمل بطيختين ياأخي سليم أفندي ، حسبت أنك سوف تكتفي بضمان حقل هنا أو حقل هناك ، لا تأخذ قولي الا على محمل الأخوة ، انمّا . . .

قال سليم أفندي مقاطعاً ، وكفّه تربت على كتف أبي ناظم :

ـ ذهبت بعيداً ياجار الرضا . عندما تكون مستعداً للذهاب الى حمورية نادني أرجوك .

بيد أن الجار لم يكن قد ذهب بعيداً . فسليم أفندي كان قد قرر أن يضمن حقلاً أو أكثر ، حسبما يتيسر له ، وأن يبيعه بنفسه الى واحد من تجار حلب الذين تقصّى اخبارهم جيداً ، ونسج مع بعضهم صلة ما وهو يعدّ لخطوته الجديدة .

كذلك دخل سليم أفندي احدى قرى الغوطة لأول مرة . وبعد أيام من الغوطة سافر الى حلب وبعد أسابيع كان قد حقق مالم يستطع أبو ناظم تحقيقه من أرباح ، على الرغم من أنه قد قضى بين حقول وأسواق وزراع وتجار القنب زهرة شبابه ، وكهولته . بل أن أبا ناظم لم يلبث في الموسم التالي أن صار يستعين بسليم أفندي كي يرتب صفقات أفضل ، وقد رد سليم أفندي الجميل بما هو أكبر .

كان رضا الزرب الذي ضمن سليم أفندي حقله في حمورية موظفاً كبيراً في العدلية . وفي الموسم التالي كان صاحب الحقل رجلاً مسناً تقياً ، يحج كل سنتين برفقة أمير الحاج ، فانفتحت الدرب لسليم أفندي على العدلية وعلى أمير الحج . وقد ساعده ذلك فيما بعد على توثيق علاقته بالباشا شكيم . أما ترداده على حمورية في ذينك الموسمين فقد فتح عينيه على الغوطة .

إنها عالم آخر ، ليس فاتناً وحسب . هو خصيب أيضاً . نبع لايغور . مورد فيّاض للرزق . وقد وقع سليم أفندي في هوى الغوطة ، فراح يتنسم أخبارها القديمة والجديدة ، يدور في أنحائها ، شأنه عندما يكون مقبلاً على مغامرة أو يهيىء لمشروع .

وسرعان ماغدا يعرف الكثير . ولئن كان لعابه يسيل أكثر كلما زادت معرفته ، فقد كان يأسى أيضا لما يروى له ، وأحيانا لما يعاين بنفسه ، كان يعسر عليه أن يصدق حقولاً قد بيعت بلوح من الصابون أو بأوقية من التنباك ، تهرباً من الضرائب ! كان يذهله أن عسكرياً واحداً يمكن له أن يسوق قرية بأكملها ، من رجالها الى دجاجاتها . كانت عيناه تسكران بالسواقي والغدران ، بالغابات الملتفة والبساتين ، ألوان الفواكه والخضار ، أصوات البقر والأغنام والطيور ، البيوت القبيحة والبيوت الجميلة ، الأكواخ والظهور المحنية ، الملاكون والتجار القادمون الرائحون . انه عالم سليم أفندي الجديد الخصيب

الجميل ، قد ألوى عنقه ، وجعله يفكر في شراء أرض ما في الغوطة . اذ لم يعد يرويه أن يضمن حقلا أو اثنين من حقول القنب ، ويربح مايغبطه عليه أبو ناظم أو رضا الزرب أو سواهما .

بيد أن الغوطة لم تكن وحدها تلوي عنق سليم أفندي . كانت حلب وبيروت تفعلان أيضا . وفي كل منهما طلع له عالم آخر . جميل أيضا وخصيب .

كانت الليالي التي يقضيها في مرابع كل من المدينتين تنبت له أجنحة وتجعله يطير ، ينفق بلا حساب ، يسهر حتى الصباح ، يغني ويرقص ويخلو بمن تحلو له . يدفق حيوية ونشاطا ، يتصدر المجالس في النهار ، يتحدث في التجارة وفي غيرها ، يتصل برجال كبار جلهم من الموظفين أو الوكلاء أو التجار ، منهم العربي ومنهم غير العربي . وكان يعقد الصفقات الرابحة دوماً ، ويؤوب الى الميدان ، الى دكانه والى أم علاء هانئاً ومطمئناً . وفي واحدة من تلك الأسفار الى بيروت التقى بالباشا شكيم .

كان يعرف عن الباشا كثيراً . وقد سعى الى أن يلتقي به في الشام مراراً . لكن الباشا كان في تلك الآونة مسافراً أغلب الوقت . كما أن سليم أفندي كان لا يرضى بغير الفرصة التي تحفظ له في اللقاء المنشود أن يكون نداً ، أو قريباً من الند .

جاءت الفرصة على طبق من ذهب في ليلة شتوية ، كان وقع الموج يطغى فيها على أصوات الغناء والعزف والضحك والتصفيق ، جاء اللقاء المنشود حول طاولة تعج بالشراب والطعام ، تحف بها الأعناق العارية حتى منبت النهدين . وأن يأتي ذلك مصادفة ، يضاعف من غبطة سليم أفندي وثقته ، وهو الذي بات خبيراً بنسج الصلات مع علية القوم .

في مثل تلك المصادفة ، يدرك سليم أفندي أن الفوارق تمحي . فهو مثل الباشا شكيم أو الخواجه ثابت أو أي من اولاء السادة ، تغنج له الراقصة ، يحييه النادل ، يرفع له نخب من طاولة قريبة أو بعيدة ، بل إنه هاهنا أقوى سطوعاً من عديدين . والفارق بين مخاطبته بالأفندي ومخاطبة سواه بالباشا أو البيك أو الآغا ، ليس له الوقع الذي له في الشام .

لقد خصه الباشا شكيم في ذلك اللقاء الأول بالود والملاطفة ، وأسعده أن الباشا لم يبد كما يرسمه الكثيرون متكبراً ، ربما كانت سيماءه وحركاته تشي بذلك ، ولكنه مع سليم أفندي كان ودوداً ، بل متواضعاً ، وفي اللقاءات التي تكررت خلال الأيام الثلاثة التالية

كان حاراً ، وقد دعاه في اللقاء الأخير الى أن يرافقه الى برلين ، في رحلته الوشيكة ، أو في رحلة قادمة .

كان سليم أفندي يعرف أن أهل الباشا قد ظهروا في الميدان. ومنه انتقلوا الى ساروجة مثلما كان يفعل الجميع ، حين يغدو لهم لقب كهذا ، أو حين يثرون ، واذا كان سليم أفندي وسواه لايذكر كيف صار جد الباشا متصرفا لنابلس أو لحماه ، فانه كسواه يذكر كيف أن والد، الباشا وأعمامه وضعوا أيديهم على أراضي المرج التي كانت أملاكاً أميرية . كذلك يعرف كيف صار الباشا وأبناء أعمامه يتاجرون بين الشام واستنبول وبرلين وربما لندن أو باريس ، ومن لم يكن منهم تاجراً كانت له صلات غامضة ، ولكنها قوية ، مع الشركات التي تسعى من استنبول حتى الشام أو مصر .

انقضت عدة أسابيع بعد ذلك اللقاء في بيروت ، قبل أن يتكرر حول طاولة القمار في بيت الخواجة ثابت ، بعيداً عن البحر ، أقرب الى كتف الجبل ، وكان الصيف في مستهلّه .

وثانية انقضت عدة أسابيع قبل اللقاء التالي الذي كان في الشام ، وكانت الصداقة تنمو سريعاً بين الرجلين ، كان الصيف في عزّه . وقد اختار الباشا مكانا للقاء ببستانه في الحرزة ، وما إنْ نزلا من العربة حتى همس في اذن ضيفه :

- نسيت كم حدثتني عن الغوطة ؟ وكيف كنت تحدثني ؟

كان سليم أفندي يتابع العربجي الذي أرخى زمام الحصانين ، ولم يبد أنه أصغى لسؤال الباشا .

تقدم الباشا نحو الدايره وجاء صوته أعلى :

- اسمعني ياسليم أفندي . أنا لاحظت خبرتك وحماستك ، مارأيك لو أجرتك أرضي في الحرزة ؟ أنت تعرف أنني أؤجر أراضيّ كلها ، فليس لي بأمر الأرض دراية ، ولا لي عليها جلد . المستأجر الحالي في الحرزة أتعبني والفلاحون علت شكواهم وأنا لا أحب الصخب ولا أرضى عن الظلم .

توقف سليم افندي مباغتاً ، فمثل هذا لم يخطر له على بال . لاريب أن كثيرين ممن قد يكونون أعلى منه شأناً يتمنون أن يطلب اليهم الباشا شكيم ذلك ، ليس من أجل ماقد تدر عليهم الحرزة ، بل من أجل أن يتصلوا بهذا الرجل ذي اليد الطولى في كل مكان ، هو وأسرته ، من قصر السلطان الى الشركات الالمانية الى الغوطة .

كان الباشا قد سبقه بخطوات حين التفت ضاحكاً :

ـ اتفقنا ؟ على بركة الله اذن .

ضحك سليم أفندي وهو يردد :

ـ اتفقنا على بركة الله . لنقرأ الفاتحة .

فيما بعد ، فكر سليم افندي في أنه قد نسي فجأة قراره بالانتقال من ضمان حقول القنب الى شراء أرض مافي الغوطة . وخشي لأيام ان يكون قد أخطأ ، لكنه مالبث أن جعل الأمر تأجيلاً لانسياناً ، ريثما يرى ماسوف تسفر عنه هذه النقلة في علاقته مع الباشا .

في ذلك النهار الصيفي الطويل القائظ ، رغم أفياء الغوطة ، دار سليم أفندي في البستان وفي الحرزة ، يصحبه الحاج ابو عمر التكلي ، واستطاع ان يحصل من سيرة المستأجر السابق مايكفيه ليرسم طريقته في التعامل مع الفلاحين ، ومع الباشا أيضا . وكانت خطوته الأولى أن محض الحاج ثقته ، وأطلق يده ، فلم يأته من الحرزة مايشغله ، على الرغم من الضنك الذي عرفته البلاد كلها ، وربما الدنيا كلها ، منذ نشبت الحرب . ولعل سليم أفندي بسبب ذلك لم يتردد في قبول عمر التكلي أجيراً عنده إذْ حدثه الباشا ، فقد كان بحاجة الى من يُربي في الدكان ، كيما يلتفت الى شؤونه المتكاثرة ، وعلاء ، ابنه الوحيد ، لايزال صغيراً ، ولابد له ان يحصل من التعليم اكثر مما حصل أبوه .

لاريب أنه لم يكن ليرد للباشا طلباً بتشغيل عمر ، أو بما هو اكبر . لكنه رضي بعمر أيضا كرمى للحاج . واذا كان في الولد بعض ما لأبيه فهذا يكفي سليم افندي .

في الأسابيع الأولى كان يكثر من تردداه على الحرزة ، خاصةيوم الجمعة ، والباشا يلح عليه كي يكون معه في سيرانه الاسبوعي ، لكنه لم يستجب حتى اطمأن على الموسم الصيفي . فدعا هو الباشا ورهطاً من الاصدقاء في رأسهم هشام الساجي الى سيران في الزبداني ، زاد ، من سعادة الباشا به ، ومن سعادته بالباشا .

انطلق القطار كالعادة مبكراً ، وكانت برودة الصباح الأيلولي تضاعف من غبطة الجميع ونشاطهم ، كانوا فرحين كالأطفال ، وقد أعدت لهم ام علاء زوادة عامرة ، واختار سليم افندي ركناً بعيداً عن السكة ، أشبه بالدغل ، ومالبثت أصداء الضحكات النسوية أن ترجعت في المكان ، متمازجة بأصداء العود ، فتقافزوا يتحسرون على الشراب ، يتبارون في تخمين مايجري ثمة ، وسليم افندي يؤجج خيالهم ، فلابد أن تكون في ركن قريب منهم جماعة من النساء الجميلات المنعمات ، خرجن مثلما خرجوا ، يحملن العود وجرن الكبة وربما الخروف المحشي والبرجيس ، ولابد أن يكنّ جميعا قد

طرحن الملاءات وتبذّلن في لباس الصيف ، كي تومض وجوههن وسواعدهن ، ولكن من يجرؤ على الاقتراب منهن على الرغم من اليقين بأنهن لسن في صحبة رجل ؟

لم يعد سليم أفندي يتخلف بعد ذلك النهار عن السيران الاسبوعي للباشا ، خاصة في ربيع جوبر أو الصوفانية ، على الرغم من أن الأول يتعين ان يكون يوم السبت والثاني يوم الأحد . فالفرجة مع الباشا شكيم على مرح اليهود والمسيحيين صارت المتعة الأثيرة له . اما في الشتاء فقد جعلته السهرات الدافئة الطويلة مع الباشا يلتفت الى أمور أخرى كان أقل احتفالا بها من قبل .

من الحق أنه كان يتابع قبل ذلك مايدور في المجالس والصحف من امور السلطان والانقلاب وحرب البلقان وغزو ليبيا والشوام الفارين الى مصر والآخرين الذين يخطبون في دمشق أو بيروت أو استنبول نفسها ، لكن ذلك صار شاغلاً أكبر بفضل الباشا شكيم .

صار الهذر يقل في لقاءاتهما ، وبدا الباشا حين يكونان وحيدين أكبر انطلاقا فيما يعصف بالشام . لكن سليم افندي ظل عاجزا عن ان يعرف موقعا محددا للباشا فيما يدور . هل هو مع السلطان ؟ إنه لايبدي أدنى حماسة لما يدعو اليه أتباع السلطان من جامعة اسلامية أو حزب محمدي . هل هو مع الاستقلال عن الأتراك ؟ حسناً ، ولكن أين هو مما يروج من قول عن الانكليز والفرنسيين ، ومن بعد ، الثائرين في الحجاز ؟

كانت حيرة سليم افندي في صديقه تربكه ، خاصة بعد ان أخذ الاتراك يندحرون ، وأخبار الجيش القادم من الجنوب الى الشام تترى . ولعله لذلك كذب أذنيه فرحاً ، اذ حدثه الباشا عن رجل اسمه حاتم ابو راسين ، وأسرّ اليه راجياً أن يستلم من الرجل ماقد يأتي به ، إنْ لم يكن الباشا في الشام . وعلى الرغم من أن الباشا وحاتم أبو راسين لم يفصلا مرة أمام سليم افندي في شيء ، الا أنه كان قادراً على أنْ يحزر على نحو ماهذا الذي يجعل الباشا شكيم يتصل بواحد يعمل على القطار ، كما كان سعيداً بذلك .

قبل أن يظهر العم حاتم كان سليم افندي يرى أحيانا أن حما الباشا ، أمير الحج ، أوضح وأسهل . فهو لايرضى فكاكاً في العرش . لافكاك في الخلافة والتاج . الاسلام أولا ، ولكل حادث من بعد حديث . والباشا لايخالف حماه حين يكون حاضراً . أما في غيابه ، فثمة رائحة أخرى لحديث الباشا ، لاتخفى على سليم افندي ، ولكنها لاتفي . وقد كان للباشا ولسليم افندي أصدقاء عديدون واضحون مثل أمير الحج ، وإنْ كانوا على النقيض : الاستقلال أولاً ، ولكل حادث حديث من بعد . ولقد غدا سليم افندي

صريحاً في ميله لأولاء ، بعدما انغمس حتى اذنيه فيها يحلو له ان يسميه بمعركة الغوطة . أما الباشا شكيم ، فقد ظلّ كالعهد به ، ولكن المعركة الكبيرة الاولى لسليم افندي ألهته عن التفكير في ذلك ، وإنْ لزمن .

★ ★ ★

قبيل تلك المعركة تواترت لقاءات سليم افندي بهشام الساجي ، وهي التي ماكانت تكاد تتصل حتى تنقطع ، منذ غادرا عهد الدراسة ، وكان ذلك دوماً بسبب هشام نفسه ، إذْ مايكاد يظهر أمام الدكان أو في صلاة الجمعة ، اوفي أية مناسبة ، حتى يختفي ، وقد تعود منه سليم افندي ذلك مكرهاً .

كان جلياً أن لهشام مثل حيرة سليم افندي في أمور شتى مما يقلبان حين يلتقيان ، وربما كان ذلك يسعد سليم افندي في الآونة الاخيرة ، خاصة حين يكون الباشا شكيم ثالثهم . كما كان يسعده ، أن يجد لدى هشام ماليس لديه ولا لدى الباشا نفسه في كثير مما يخوضون فيه . ولعل ذلك ماجعل حاجته الى هشام مضاعفة إبان معركته الكبيرة الاولى . بيد أن هشام كان قد عاد فاختفى .

كان ثمة نوع من الحمى يجتاح الكثيرين ممن يتصل بهم في تلك الفترة ، في كل مكان ، ولم يكن هو بمنجاة ، إذْ عاد يفكر في امتلاك قطعة مافي الغوطة ، بل قطعتين او ثلاثاً ، مادام من حوله يتسابقون على البيع وعلى الشراء .

إنها قطع بلا حدود ، يسميها اولاء ، قطع كبيرة او صغيرة ، رخيصة وخصيبة ، بعيدة وقريبة ، منها ماهو مشاع ومنها ماهو وقف ، وثمة من يشتري بسعر مجز ومن يبيع بسعر أعلى . ثمة من يبيع بالبخس ومن يشتري بالبخس . فكيف يتأتى ذلك كله في آن ؟

حاول ان يتقرى الأمر من مصادر عديدة . زار الشاغور مرآراً وطويلاً بعد أن تباعدت زياراته لحيه القديم في الآونة الاخيرة . واجتمع له ان شركة كبيرة خلف حمّى البيع والشراء في الغوطة . الناس يذكرون الصيارفة اليهود الذين اشتروا منذ عهد بعيد في الغوطة ، مستفيدين من الربا ، لكنهم اضطروا الى أن يبيعوا مااشتروا بعد وقت ، طويل أو قصير ، خلاصاً ممن ألفوا أنفسهم في وسطهم ، سواء أكانوا ملاكين ام فلاحين . والناس يتهامسون بالشركة الكبيرة الغريبة ، وسليم أفندي يقرع نفسه لأنها انجرفت وإنْ لأيام ، وفكرت بالشراء والبيع في الغوطة . لقد بات يعلم علم اليقين أنها شركة يهودية بثوب فرنسي . لايهم إنْ تسمت باسم الدكتور فلان أو الدكتور علان ، لايهم إنْ رفعت

يافطة زراعية أو غير زراعية . مايهم انها دفعت في استانبول كي يسوّغوا لها عملها . مايهم أنها تدفع أضعافا مضاعفة لمن يبيع . فليهرع اذن سليم افندي الى الباشا الذي كان قد فرغ لتوه من الطعام ، وليس به رغبة للقاء أحد ، لكنه سليم افندي ، ووساوسه وهيجانه ، والباشا يصغي مرسلا ناظريه عبر النافذة المطلة على شجيرات الجوري والبركة ، حتى اذا سكت سليم افندي ، التفت اليه بحنو ، وقال بأناة :

ـ هم يحاولون أيضا ان يشتروا في فلسطين . في حيفا وجنين وغور بيسان ، ولا اخفي عليك ـ أنت مثل أخي ـ اني فكرت في ان أبيعهم كل مالي ، الا الحرزة ، ليس طمعا في مالهم . انت تعرفني . لكني احيانا أفكر في الخلاص من أمر الارض . الحرزة تكفيني من اجل المصيف . يمكن سمعت أن حماي قد باعهم الكثير ، رغم انه ليس بحاجة الى المال ، ورغم أنه يحب الارض كما تعرف . وهو لايجهل من تكون تلك الشركة .

قاطع سليم افندي بانفعال :

ـ لكنهم يهود ياباشا . . يهود وفرنسيون وشياطين من بيننا . . .

قال الباشا :

ـ قبل عشرين سنة ياسليم أفندي ، كنت لا أزال طالباً ، وكنت مع المرحوم في القدس ، لأول مرة كنت أزور القدس . وكان فيها القيصر الالماني ، غاب عني المرحوم غيبة طويلة وعاد مهموماً . هل تعرف لماذا ؟

أجاب سليم افندي بضيق :

ـ طيب الله ثراه ، ولكن نحن . .

تبسم الباشا مقاطعاً :

ـ وثرى أمواتكم . مهلك عليّ . المرحوم سمع بخطاب هرتزل امام الحاج الالماني ، هل تعرف ماذا طلب هرتزل ؟ قبل عشرين سنة خططوا لشركة يهودية تشتري اراضي الشام ، من هنا الى فلسطين . وهرتزل كان يرجو القيصر أن تكون الشركة تحت حمايته .

قال سليم افندي بحزم :

ـ الفلاحون رافضون ويقفون في وجه من يبيع وفي وجه الشركة .

قال الباشا متعالماً ومشفقاً :

ـ أعرف . ولكن ماذا يستطيع الفلاحون ان يفعلوا ؟

أطرق سليم افندي ـ حانقاً وحزيناً ، وجاء صوته كأنما يسحج :

ـ المعنى ؟ هل ستبيعهم أنت ؟

أسرع الباشا :

ـ قلت لك فكرت ولم أقل إني قررت .

تساءل سليم افندي بهمود :

ـ ماذا ستقرر ؟

قال الباشا :

ـ لن أبيع : كم يهودياً تعرف انت ؟ هنا أو في حلب كم تعرف ؟ أنا اعرف ماذا فعلوا في استنبول . أعرف ماذا تفعل الصهيونية في لندن ، في باريس ، في فلسطين . .

رفع سليم افندي رأسه وقد تراخت تجاعيد جبهته ، وأقبل على الباشا :

ـ علينا اذن أن نفعل شيئا .

طال الصمت قبل أن يجيء صوت الباشا محايدا :

ـ حاول ياسليم افندي . آخرون يحاوُلون . لابد أنك تعلم . .

تردد سليم افندي قبل ان يسأل :

ـ والباشا شكيم ؟

ـ هل سيحمل الباشا شكيم الدنيا على كتفه ؟ لايكلف الله نفساً إلا وسعها . أنت أهل لذلك .

قال الباشا وهو يتململ في جلسته ، فنهض سليم أفندي مودعاً ، يقلب في سره لأيام السؤال عما اذا كان الباشا شكيم خائفاً من خوض هذه المعركة ، أو منشغلاً بسواها ، او غير راغب ؟

بيد أن سليم افندي كان قد امتلأ تحدياً وتصميماً على أن يسعى هو الى مقاومة الشركة . لن يدعها تشتري شبراً من الغوطة . بل ان عليها أن تعيد ماشترت عاجلا ام آجلا . وهكذا صارت أيامه التالية عراكاً مع المؤيدين والمعارضين والمتفرجين . وسعى مع كثيرين الى إشاعة امر الشركة بين الفلاحين، وتحريضهم على سيدهم الذي باع او الذي يفكر في البيع ، ونظم مع كثيرين العرائض للوالي ، وأبرقوا الى استانبول ، وفي غمرة ذلك بات سليم افندي أكثر شهرة ، وكان الباشا يثني على سعيه في كل مرة ، ويوصيه بالحذر، ليس في هذا الأمر وحده ، بل في كل مايأتيه .

مشاعر جديدة ومبهمة كانت تعصف به وهو ينتقل من مكان الى مكان ، في الميدان وفي الشاغور ، في السراي وفي الغوطة ، كانت المرة الاولى التي يأتي فيها أمرا عاما من هذا القبيل ، وليس فقط مشاركة في عزاء أو مصالحة بين متخاصمين ، كان يبدو عارم السعادة ، متقداً ، وكان في الآن نفسه يضمر قلقا ما ، خاصة في الايام الاولى ، ثم غدا يخاتل الاعتزاز ، ويمارس لوناً من السيطرة. وسرعان ماإكتشف لغة اخرى تتداولها هذه الفئة من القوم التي ضاعف من احتكاكه بها . لغة كان يسمع بعض مفرداتها هنا وهناك ، على لسان الباشا وسواه ، لكنه لم يفكر بها ، ولم يحاول أن يجربها . أما الآن فقد بات يتقاذف عباراتها . ويضحك في سره عندما يشرع أحدهم بالحذلقة فيها . أو حين يروح هو يقارن بينها وبين اللغة التي أجادها صغيراً في الدكان .

لقد راق له أن يرى نفسه بات يجيد دفعة واحدة لغة التجار والموظفين والملاكين والفلاحين. وفي تلك الفترة ألزم نفسه قبل ان ينام كل ليلة ان يراجع حصيلته من الفرنسية ، فقد كان مالديه منها يكفيه في مرابع بيروت ، او للحظة مافي مجلس الباشا . أما الآن فقد غدا لزاماً عليه أن يضاعف حصيلته ، كيما يعزز موقعه في عيون الكثيرين من الخصوم او المؤيدين الذين يجيد واحدهم التركية أو الانكليزية او الفرنسية ، بل ان الباشا شكيم يجيد أيضا الالمانية .

كانت أحوال الشام تزداد سوءاً ، وكان الفوز البطيء في مقارعة الشركة عزاءً ضرورياً لسليم أفندي . وحين هدأت العاصفة ، والتقى العم حاتم ابو راسين اول مرة ، وكان الباشا شكيم قد غادر لتوه ، تجدد عزمه . وراح يلحف في أثر عزاء جديد ، لكن العم حاتم ، شأنه شأن الباشا بعد عودته السريعة ، وطوال الدهر الذي انقضى قبل رحيل الاتراك ، كانا لايرويان غليله ، فعوّد نفسه على أن يكتفي منهما ومن سواهما بالنزر . ولكنه، ربما في احلامه، كان يرسم من ذلك النزر مايؤكد ثقته بنفسه وبالناس ، بالشام كلها ، ولم يكن ذلك وقفا على ماينتظر من فرج الكرب المطبق ، بل كان يعود به الى أيام مضت ، قبل أن يعرف الباشا، وبعد أن عرفه ، مع الباشا ومع سواه ، وكان ذلك يعينه على أن يتابع شؤون نهاره وشؤون ليله بقدر اكبر من الهمة ، ومن السعادة .

★ ★ ★

ذات مساء من مساءات تلك الايام الكالحة، أرسل الباشا شكيم العربجي عبد الودود كي يحضر سليم أفندي، وكان يفعل ذلك كل حين ، شوقاً أو تكريماً .

وماكاد سليم أفندي ينهي كأس الشاي حتى فاجأه الباشا :

ـ ماقولك في أن ترافقني الى استنبول ؟ سوف أسافر يوم السبت مع الفجر ، وقد أتابع من هناك الى برلين. أنا اعرف رغبتك في سفرة بعيدة . هيا معي . الرحلة الأولى لاتنسى أبداً .

بهت سليم أفندي لثوان . فرح ووافق وفكر فيما يشوقه، وتأججت رغبة حارة قائمة على الدوام . لم يكن بحاجة لتشويق . كان بحاجة فقط الى من يفاتحه بالسفر ، وهاهو ذا الباشا ، وليس سواه ، من يفعل . وهو الذي تعود على أن تتحقق أحلامه ومشاريعه ، يرتبك رغم ذلك ، يفاجؤه الحلم الذي يتيسر ، يتوه بين الحرص على الحلم وبين الفرح بتجسيده . وربما الحزن عليه وقد بات بين يديه .

قضى الأيام الفاصلة عن فجر السبت في السوق وفي الحي، بين وداع واعجاب المتقاطرين الى الدكان والى البيت ، وقد غدا في نظرهم رجلا آخر ، كأنه يسكن أو يعمل بينهم خطأ ، فمن فعل مافعل ضد الشركة اليهودية الفرنسية ، ومن سوف يسافر ليس الى استنابول وحسب ، بل الى برلين ، لابد أن يكون غريباً عن الميدان . أو كبيراً عليه ، فكيف يصح ان يكون سليم أفندي البسمة ؟

صبيحة السفر تحلقت بناته حوله ، وخلفهن وقفت أم علاء وعلاء ، تلقف ابنه من حضن المرأة التي لم تعد قادرة على مغالبة دموعها ، فاندفعت نحو غرفة النوم، وانطرحت على السرير الناصع، ولحق بها الى باب الغرفة، فغشيت عيناه بلمعات الصدف الذي يرصع السرير ، وخرج أمره اليها بالعودة حانيا، فاندفعت نحو المطبخ ، ولما طال مكثها في المطبخ وحيرته بين علاء والبنات عاد يناديها، وقد وشى صوته برجفة ورجاء .

انطلقت ابنته الكبرى نحو أمها خائفة ، فأقبلت أم علاء تجهد في رسم ابتسامة ، قابضة على كف ابنتها . وحين ظهرت اندفعت البنات الثلاثة الأخريات نحوها ، وسعى علاء كي يملص من حضن أبيه، ويعدو نحو أمه . تقدم سليم أفندي من أم علاء عاجزاً عن النطق ، كان ضعيفاً ، حتى أوشكت عيناه أن تمتلأا بالدموع ، وهو يدفع بعلاء الى امه، ويفرد ذراعه على كتفها ، يود أن يوصيها بنفسها ، بالأولاد ، يود أن يفيض على البنات . ولكن النطق أغلق عليه ، فجثا يحضنهن ، يقبلهن ، قبل أن ينهض ليعانق أم علاء وعلاء معاً ، ويلثم خديها ، ويبتعد .

بين الشام واستنبول كانت رحلة شاقة وطويلة ، لعن خلالها القطار ومن اخترعه، والباشا شكيم يضحك منه . كانت المدن والقرى التي طالعته بعد حلب تلهيه حينا ، الا أن الملل والإنهاك اجتمعا عليه سريعاً ، فراح يسأل الباشا المرة تلو المرة عما تبقى من الطريق ، ثم راح يسأله عما إنْ كانت برلين بعيدة هي الأخرى مثل استنبول ، والباشا يضحك ويقول :

ـ كنت أرجو أن تخفف أنت عني همّ الرحلة ، يظهر عليّ أن أخفف عنك !

أنسته استنبول مشقة السفر ، فها هو وجهاً لوجه أمام مدينة الخليفة المعظم ، إمام المغربين والمشرقين ، ظل الله في العالم ، ناصر الشريعة الغراء وناشر ألوية الطريقة السمحاء ، خادم الحرمين الشريفين . . وإذْ انطلق بهذا السيل مما يحفظ من ألقاب السلطان المعزول ، غرق الباشا شكيم في الضحك ، ممسكاً بخاصرتيه ، يرجو سليم أفندي أن يكف ، وسليم يسترسل حتى أطبقت كف الباشا على فمه ، وقال وهو يلتقط أنفاسه :

ـ تدري مايفعلون بنا لو سمعك أحد ؟

الحذر البالغ الذي لايفتأ الباشا يؤكده نغّص قليلا على سليم أفندي لقاءه باستنبول . كان يحسب أن رجال الخفية وقف على الشام ، وفي أسوأ الاحوال فقد يكون بعضهم في حلب أو بيروت ، أما أن تحاصره أشباحهم في استنبول ، فهذا ماأثقل عليه ، والباشا يردد :

ـ هذا شأن كل عربي هنا ، أياً كان . لافرق بين كبير أو صغير .

وقد أصابه الباشا بعدوى الحذر ـ إنْ لم يكن الخوف ـ بخاصة بعدما التقى مصادفة بالعم حاتم وهما يعبران عشية مغادرتهما الى برلين بالمحطة .

لاسهرة مماكان يحلم في مرابع استنبول . لا لقاءات ولا جولات . لماذا اذن جاء الى هذه المدينة ؟ وأين ماكان يعد به الباشا شكيم ؟ وهل ستكون برلين كذلك ؟

الباشا شكيم يضحك ويؤكد ان برلين دنيا أخرى ، وليس أمام سليم أفندي الا أن يسلم ويأمل ثمانية أيام أرهقه طولها قبل أن ينطلق القطار الى برلين، والباشا شكيم يغدو رجلا آخر كلما نأى القطار عن استنبول ، رجل أقرب الى من عرفه سليم أفندي في بيروت ، يرمي بالطربوش ، يعتمر القبعة ، يدعو سليم أفندي الى أن يجربها ، ويرتدي كل يوم لباسا جديدا ، أنيقا ونظيفا ، فيبدو قد غادر الخمسين الى الاربعين ، أو الأربعين الى الثلاثين ، يمازح سليم أفندي ويلون له النهار والليل ، فلا سهرات ببيروت ولاغير

بيروت ، وسليم أفندي ينكر من صديقه مثلما ينكر من نفسه كل مايأتيان ، ويغرق في حضن برلين العجيب ، برلين الحلوة ، النظيفة ، الباردة والدافئة ، بل الحارة ، السكرى والعاقلة ، فهل يعقل أن يكون في المعمورة بلاد مثل هذه البلاد ؟ هل يمكن أن تغدو الشام في يوم من الايام مثل برلين ؟

كان سليم أفندي يسكر مع السؤال ويصحو عليه ، وطوال رحلة العودة أركز صمته وهمه في الجواب . وحين عاد القطار ودخل به استنبول فحلب فالشام أطبقت عليه المقارنة بين البلاد التي فارق وهذه البلاد . لقد عبر القطار بمدن كثيرة تشي بملامح برلين ، والباشا شكيم يؤكد أن باريس أجمل ، ولندن أجمل من باريس ومن برلين ، وسليم أفندي يتساءل عما إنْ كان لايحق لسكان تلك البلاد أن يملكوا العالم ، ماداموا على ماهم عليه ، ومادامت الشام على ماهي عليه ؟ كان الدوار يأخذه وهو يفكر فيما يمكن أن يفعل رجل مثله من أجل أن تصبح الشام مثل برلين ، بل مثل حارة من حاراتها ؟ كانت الحسرة تنشب في حلقه كلما صارت الشام قريبة ، وبرلين بعيدة ، والحلم بزيارة اخرى يكبر ويكبر ، حتى لتضيق به برلين ، فيطير الى باريس أو لندن ، يحوم أعلى ، يدور في الدنيا الجميلة والكالحة ، والباشا الذي عاد مثلما كان قبل ان يغادر استنبول ، يزوّق له الحلم ، يضاعف الحسرة ، وهو يدعو الى ان يقرن سليم أفندي القول بالفعل .

لقد غدا دهراً مايفصل اليوم سليم أفندي عن رحلته الى برلين ، حين لم يكن الأتراك قد انهزموا ولم يكن الانكليز قد حلوا في الشام ، ولم تكن ثمة هذه الحكومة العربية الأولى بعد مئات السنين .

في ذلك الدهر زهد سليم أفندي بغلال الحبوب والقنب ، زهد باستئجار الأرض وشرائها ، زهد فيما يسود البلاد من تجارة وزراعة، لا الحرزة ولا الدكان ولاسواها ، صار لسانه ينطلق بالفرنسية ، رمى بالطربوش والقبعة والكوفية . كان ثمة ماينقلب فيه كل يوم . وأم علاء ليست أقل دهشة أو استنكاراً وخوفاً ممن حوله في الميدان خاصة . وكما رفّة الجفن انقضى ذلك الدهر . بل إنه لم يكن ذات يوم ، لم يكن لسليم أفندي شبابه ويفاعته ، لم تكن له طفولته ، مئات من السنين كما رفة الجفن التي تلوي بالقلب ، فكل شيء يبدأ الآن من جديد ، كأنها القيامة ، والأوراق تختلط عليه ، لايكاد يقوى على أن يلتقط أنفاسه ، ولا أحد من حوله يفسح له ، لا زوجته ولا علاء ولا بناته ، لا أصهاره ولا جيرانه ، لا الدكان ولا الباشا ولا الحاكم العسكري نفسه ، وهو يسعى ليل نهار ، يخبط في الماء خبطاً ، وقد كان حقاً لايعرف السباحة ، على الرغم من أنه عرف بردى

عاريا وبلباسه الطويل مراراً ، فأين ذهب اذن ماوطن عليه نفسه لكلّ هذا الذي طلعت به الحرب؟

كان يحسب أنه قد فكر جيدا في أمر الشام ، استنبول ، الحجاز ، الحلفاء، بل إنه لم ينس أحدا، حتى الروس فكر بهم ، والتقى بكثيرين يهللون اليوم للامير وللحاكم العسكري وللانكليز . وقد كانوا لتوهم يهللون للسلطان . التقى بالرؤوس التي تأرجحت على مشانق المرجة، وقفز يهتف كأنه ابن العشرين، حين ارتفع العلم العربي في الشام . أسرع الى بيروت ، لا ليسكر ولا ليقامر هذه المرة ، بل ليرى العلم العربي يرفرف قبالة البحر وخلل الغابات . لكن الفرنسيين كانوا قد سبقوه . أبهظه القلق على هذا العلم الذي لم يكد يبرق في طرابلس أو اللاذقية أو انطاكية حتى رمي أرضا . التقى ضباطا فرنسيين وانكليزيين وعرباً . وفكر في أن عليه ان يملص كما ملص من قبل . خاتل الندم على أنه لايسعى جيدا من أجل الشام، بل إنه لم يسع من قبل كما ينبغي . أصغى الى الخواجه ثابت يزين البديل الفرنسي ، يعّرض بالبديل الانكليزي ، وإذْ يذكره سليم افندي بالحكومة العربية في الشام والثورة في الحجاز ، يمد الخواجه يده بالكأس ويهزّ رأسه :

- كن عاقلا ، أبو علاء . .

ويلتفت الى الباشا شكيم ، يذكره بعهد الدراسة ، فنصف المدارس والطلاب كانوا في الشام لفرنسا قبل الحرب ، وجل الذين قاوموا السلطان إنماتربوا على يد المبشرين الفرنسيين ، حتى من يعارض منهم فرنسا اليوم . وهي لازالت على السواحل . نصف ديون السلطنة المرحومة كانت لفرنسا قبل الحرب .

والسلطنة إياها لم تقتف حين حاولت أن تخرج من ظلامها أول مرة الا بالتنظيم الفرنسي ، ولولا ذلك لما كان لأسرة الباشا في الغوطة شبر ، ولما كان لأمير الحج من الاراضي الموقوفة وفي سواها شبر . وسليم أفندي يعرف ذلك وينكره ويقرّبه في آن . واذ يأوي تطلع له الشام ، تمنع عليه النوم ، وتتخلّق له شاماً أخرى . شاماً جديدة ، حبلى أو عاقر ، جميلة أو قبيحة ، قوية أو ضعيفة ، كسيرة أو عزيزة . إنها غير الشام التي عرف في ذلك الدهر المنصرم ، وهو لم يتعود أن يناديها بسورية . على الرغم من أنه قد يكون فعل ذلك من قبل . ولئن كان الأتراك قد رحلوا ، والعلم العربي قد ارتفع هنا ، في حلب في حمص ، في حماة ، ولم يرم به أحد بعد أرضاً ، فإنَّ هذه الشام قد صغرت كثيراً . في رفة جفن قد صغرت . هذه الشام ليست تلك التي تصل منذ كانت بين

الحجاز والأناضول ، بين العراق والبحر . هذه الشام كانت الشام وكانت سورية ، واليوم يراد لها أن تكون سورية وحسب . هذه السورية لم يترك منها الانكليز والفرنسيون غير القليل . الساحل أخذه الفرنسيون ، والانكليز أخذوا الشرق ، وفلسطين تلعب عليها عين اليهود . صارت الشام أصغر من كف سليم أفندي ، صارت تضيق به كما يضيق بها ، فهل من أجل ذلك كانت الحرب ؟ هل من أجل ذلك كان ينتظر هزيمة الأتراك ؟ هل من أجل ذلك ساورته الرغبة مراراً بالفرنسيين والانكليز ، وإن كان أيضاً يرجو النصر للألمان ؟ لقد كانت الحرب تبدو له ضرورية ومبررة . لكنها باتت تبدو متناقضة . وإذ يرسل عينيه بعيداً ، نحو مستقبل ما ، يجتمع ذلك كله عليه ، فيأخذ العشى ببصره ، ويبحث عن خلوة مع الباشا شكيم ، ليس لأنه واحد من النجوم التي تتلامع هذه الأيام ، بل لأنه صديقه الأثير ، إلا أن الباشا في شغل شاغل عن سليم أفندي وعن سواه ثمة ، في القصر ، حيث الزحام في أشده ، ليل نهار ، وقد ضاق سليم أفندي بالزحام .

★ ★ ★

6

حين ركب الوالي القطار أخيرا كان هشام الساجي واقفاً يتفرج من بعيد ، لايكاد يميز الوجوه الغفيرة المتفرجة مثله ، أو المودعة أو الراحلة مع الوالي .

كانت قدماه قد قادتاه منذ الصباح الباكر في أنحاء شتى من الشام ، ويقينه يزداد مع كل خطوة أن أمراً عظيماً سوف يكون أخيراً هذا اليوم .

الهرج والحركة اللذان شاهد في المرجة ، وقدّر أنهّما في السراي ، أنسياه التعب والجوع ، وجعلاه ينخرط في التجمعات الصغيرة والكبيرة التي كانت تقوم فجأة هنا، ثم تنتقل فجأة الى هناك، أو تضمحل وتفسح لسواها . ومنذ الظهيرة بدا منوماً، يسيّره الإحساس الغامر بأنه يتوج في هاته الساعات شهادته الكبرى . فمادام الوالي ورهطه سيرحلون ، فهذا يعني ان الساعة قد أزفت أخيراً، وأن المنعطف الذي طفق يرعاه منذ سنوات ، قبل الحرب ، وربما قبل الانقلاب الأول على السلطان قد تحدد أخيراً . هاهو الأن . هشام الساجي ، الذي نشأ يفكر في أمور كبيرة وكثيرة ، يقف على التخم الفاصل بين عصرين ، أو الصراط المستقيم بين عهدين، كما خطر له بجلال ، يرثي للذين يبكون أو يتحسرون على الإسلام والشام ، يكاد يتورط مرة بعد المرة في الشجار مع بعضهم ، فتنقذه قدماه المتجهتان الى المحطة ، حيث تلامح له طربوش الباشا شكيم ، فاحتار وأنكر ، ثم لعن سوء الظن ، واطمأن الى أن صديقه الجديد ـ كما ظل يردد منذ سيران الزبداني ـ قد جاء يتفرج مثله هو ، وتلفت يبحث عن صديقه القديم سليم افندي البسمة ، ثم شغله همس من حوله عمن كلف الوالي أن ينوب منابه ريثما تنجلي الغمّة ، ورفع عينيه الى السماء الخريفية ، فازدهى بصفائها ، ولجم شماتته بالوالي ، والوعيد الذي اجتاحه بالوصول الوشيك للجيش الميمم صوب الشمال .

ماإنْ صفر القطار واستدار هشام حتى بوغت بصمت الناس وانصرافهم مسرعين . ولم يلبث بعضهم أن أخذوا يعدون . ثم انكسر الصمت وتعالى صياح الصبية والحمالين .

وأخذت الدفعات القاسية غير الآبهة ، تتقاذفه نحو المرجة ، ولم يكن يرغب أن يعود اليها ، وما وفر عليه أن يرد دفعة بدفعة أو شتيمة ، ولم يدر كيف صار يصرخ مثل الكثيرين . ربما أصابته عدواهم بالفزع أو الفرح أو الترقب او الفرار الى أمان البيت . لم يفكر فيمن كان يعجل الى السراي الا بعد أن كان قد ابتعد كثيراً ، وهو يتلمّس مواقع الضرب في وجهه وصدره وبطنه ، مما ناله قبل ان يتمكن من انتزاع نفسه من الأيدي التي تعاركت قبالة السراي .

كان أحدهم ، ويبدو أنه يعمل جزاراً ، يعيّر الشام بما انتهت اليه . وكان آخر أسنّ منه ، ويبدو أنه يعمل جزارا أيضا ، يناشد الرسول، ويعجب أن تكون مكة متحالفة مع الانكليز وسائر الكفّار ، فعاد الأول يجأر :

ـ العجب ماينفع ، واللعنة نفسها ماتنفع . ابرمْ رقبتك حولك ، هؤلاء أيضا هم الكفار ، والساكت عن الحق شيطان أخرس .

صاح هشام بالجمع :

ـ والألمان ماكانوا كفارا ؟ من تحالف مع الألمان ؟

وانفجر الصياح والشجار ، لكأنما كان كل من حوله ينتظره حتى ينفجر. كانت الأكف تشير الى حيث علق الاتراك المشانق على خطوات ، والى السراي ، وانقذفت بعض الطرابيش في النهر ، وعلق واحد منها على سلك الترامواي ، فضاعف هياج الشّبان وأطلق بذاءة بعضهم ، وضاع صوت هشام الذي كان يناشد الرسول والاسلام والعرب ومكة والاحرار والشهداء، وينعي الجوع والحرب ، ولم يصح مما لفّه إلا بعد أن كان قد خلف المرجة وراءه . وجعله الصمت يفطن بغتة الى أنه كان لأول مرة في حياته هشاما آخر ، أو رجلا آخر غير هشام الساجي ، يضرب ملء قبضته التي ازرقّت عقد أصابعها ، ويلبط بقدمه ، وربما كان يشتم أم ذلك الرجل الذي يكبره بعشرين سنة ، أو أم السلطان والاتراك والالمان والكفاّر، أو البشر الذين تكبر عقول الحمير عقولهم . وعجلت بخطواته صحوته على ماينكر من نفسه ، وجعلت الخطى تتوه ، فتعبر بدكان سليم افندي البسمة ، غير أن الدكان كان مغلقاً . وتابعت الخطى الى الشيخ حسن ، فهاله ان الحارة مقفرة إلا من العربجي عبد الودود وابن الشيخ نظام الدين الذي بادره هلعاً :

ـ مابك ياأخي ؟

وأجلسه بجواره أمام الجامع ، وهو يترحّم ، على والد هشام الذي قضى راضياً مرضياً ، ويسائله ، فيما هو يسائل نفسه ، عن هذا اليوم الذي لايشبه ماسبقه . وكان لسان هشام عاجزا ، كما لم يكن ابن الشيخ نظام ينتظر جواباً ، بل يكتفي أن يلاقي زفرات هشام بزفرات أطول ، أما العربجي الذي كان مبتهجاً ، فقد زمّ شفتيه ، ولم ينطق الا عندما سأله هشام كأنه ينهر :

ـ أين الباشا شكيم ؟

فيما هو ينهض منصرفاً ، مصمّاً عن جواب عبد الودود ، ودعاء ابن الشيخ .

غفل هشام عن نفسه وعن سواها ، اثر ذلك ، وهو يفكر في أن من أنابه الوالي الراحل ، لن يدخل السراي ، ولن يجلس على الكرسي الشاغر ، حتى لو دعا ذلك أن يقبض الله روحه ، أو يلهم الهائجين في المرجة من أنصاره وخصومه أن يحولوا بعراكهم دون دخول أحد للسراي، ريثما يطلع لها من هو أحق بها .

من المؤكد ان هشام لم ينم تلك الليلة جيداً ، وأن ماستبد به من شأن النائب والكرسي الشاغر والحاكم المأمول هو ماأسهده ، وجعله ذلك يغادر البيت مبكرا ، ويؤوب اليه مبكراً ، ويكون آخر من يعلم بانقضاض الامير الجزائرى على الكرسيّ ، فشهق إنكاراً أو اندهاشاً أو عجباً ، ثم راح ينقب في الصندوق الذي أورثته اياه ام هشام عن المحمدية . في ذلك المساء ، كما في الصباح الباكر الذي تلا ، طفق يتفحّص المحمدية التي أعشت عينيه في العتمة وفي الضياء ، وأرسل الرحمة الحارة على الجزائري الأول الذي ضرب هذه القطعة ، وحارب عشر سنين أو خمس عشرة قبل أن ينفى الى طولون ، ثم يختار الشام المقدسة مقاماً ، ويخصها اليوم بمن يملأ كرسيها الشاغر من صلبه .

كان الضحى قد ولّ حين أودع المحمدية في جيب صدارته ، وأنصت الى رنينها الخافت وهي ترتطم في الجيب بساعته ، ثم خرج يتهادى ، غابطا الأسرة التي قدر لها أن تحكم ، جيلا بعد جيل ، هنا او في الجزائر ، وقد يكون من بعد في مكان آخر من أرض الله .

فكر هشام في أن الاول من هذه الأسرة قد حكم سنينا وهو يحارب . لم يمنعه الفرنسيون من أن يحكم طويلاً ، ويشيد معامل السلاح ، ويجعل لجنده لباساً ، ويسّك المحمدية ، فما همّ من بعد أن ينهزم ؟

وفكر ـ وكان قد غرق في المدينة ـ في ان الآخر ـ لا الأخير ـ من هذه الأسرة يجلس الآن في السراي ، على كرسي الشام التي قد لاتكون اليوم مقدسة كما كانت بالأمس . وقد يستطيع هذا الجزائري أن يفعل هنا مالم يستطع سلفه أن يفعل في عقر داره . بيد أن هشام فكر ـ وكانت السراي تقترب ـ في ذلك الأمير الحجازي القادم الى الشام على رأس جيش من البدو أو الفرارية ، في معية الانكليز أو من دونهم ، فهذا الأمير سليل أسرة قد يكون كتب لها أن تحكم ايضاً ، هنا كما في الحجاز ، وقد يكون من بعد في مكان آخر من أرض الله .

غير أن اجتماع الحجازي والجزائري على كرسي الشام أربك هشام الساجي . إذ خيل إليه أن الأميرين يعتركان ، ولم يستطع أن ينخلم هواجسه في الفرنسيين والانكليز الذين كانت لهم جميعاً يد فيما يبدو أنه كتب لكل من أسرتي الاميرين . ولعل هشام كان قادراً في وقت آخر على أن يدقق في كل ماعن له ، ويعدد أسراً أخرى ، حكمت أو ناوشت الحكم ، في الشام أو في سواها ، أو ينتهي الى رأي في العراك المحتمل الوشيك على الكرسي الشامي ، إنْ بين العرب انفسهم أو بين من ينشدونه من سواهم ، لكن هذا الوقت ليس مثل أي وقت ، ونفس هشام تبدل عهده بها .

ماكان قادراً على ان يلجم خياله ويسوسه كما تعود . جمح الخيال في البداية بصاحبه الى الكرسي . ورأى هشام الساجي قدميه تمشيان ـ مشيا ـ إلى السراي ، وتتقدمان غير آبهتين الى الكرسي ، وأعلن لسانه عهدا جديدا للشام .

ولئن أجفله ذلك بعد لأي ، فبسمل خشية ان يكون قد التاث، فقد تراءى له من بعد أن يكون صاحب العهد الشامي الجديد واحد من الأقربين حوله ، مثل سليم افندي البسمة ، أو ممن هم ابعد قليلا ، مثل الباشا شكيم . ثم أشفق على الشام مما يرسم ، وآثر أن يدع الكرسي شاغراً ولو ليوم ، عسى أن تنهض الشام من عثارها وحدها ، دون الحاجة اليه أو الى صحبه ، بل دون الحاجة الى امير جزائري أو آخر حجازي . وفي الفجر بكّر الى قاسيون أوفر عافية ، وأهدأ ، وأقدر على أن يلاقي الشروق الذي استهواه ثمة منذ يفاعته ، وأسعد بخياله الذي أفاض على الشام ـ فهي بلا حكم ـ لايكاد يفتح مصاريع القلعة ، حتى يخلي القشلات والحبوس، ويوشك أن يملأ الدكاكين الفارغة ، لولا أن النداءات ألحت عليه من كل صوب ، فطار من ركن الى ركن فيما عبر به أو أقام فيه من الشام المنداحة المقدسة ، لايكاد يحدب على جائعة او مجلود حتى تطبق عليه

أشتات ماقرأ في سنوات الحرب، خاصة من سير الحكام الذين تولوا الشام ، أو من سائر الحكام .

كان الجنرال الانكليزي قد أقام حكومة عربية جديدة ، وكان الأمير الحجازي قد ورث الأمير الجزائري ، حين نزل هشام الساجي من قاسيون الى بيته ، ليحلق لحيته التي أرخاها منذ سنين ، قبيل او بعيد نشوب الحرب ، اذْ لم يعد يذكر ، وقد ألف وكل من يعرفه تلك اللحية الناعمة السابلة النظيفة والقصيرة . وفي هيأته الجديدة الاكثر فتوة اندفع الى المدينة ، واجتاحه جنونها ، أيسر وأسرع مما كان عقب رحيل الوالي ، وصدحت حنجرته مع الحناجر :

أهل اليمن نحن الحمى   نحن الحمى أهل اليمن

وسيوفنا تلعب سوا

سلطان مكة والحرم   يحكم على كل العرب

وسيوفنا تلعب سوا

ولم تلتقط أذناه رنين المحمدية المكتوم في جيبه وهي تتنافر مع الساعة ، اذ كان لاهياً بالسلام على الأمير وعلى الحاكم العسكري ، وبالبحث عن الجنرال الذي ماإنْ وطئت قدمه الشام حتى قسمها ثلاثاً، وفي المساء عرّج على سليم أفندي، فإذا به وأجيره عمر التكلي يشربان الشاي أمام دكان أبي ناظم ، بيد أن هشام لم يأنس كعادته الى ماردد سليم افندي، شأنه كلما التقيا :

ـ من طوّل الغيبات جاب الغنايم . . هات ياهشام . .

أسرع هشام الى بيته ، وما إنْ أطبق الباب خلفه حتى ندم على أنه لم يزر ضريح والديه، كما يفعل كلما اضطربت دخيلته . ثم ندم على أنه لم يزر الباشا المعتكف كما ألمح سليم أفندي، وقبله عبد الودود السعد ، وخيل إليه أن العتمة التي تلف البيت ليست عتمة المساء ، فهرع الى النافذة المطلة على الجامع، يخشى ان يكون قد طرأ للمؤذن طارىء ، ونتر الساعة ، فلم تتبيّن عيناه الوقت ، إذ أن اصابعه أخرجت المحمدية بدلاً من الساعة ، وقذفت الأصابع المحمدية على مهل من النافذة ، فاختلط في سمعه رنينها بأصوات المؤذنين ، وهفا الى الغروب ، فإذا به يلاقي الشمس المشرقة ، تصافح الجبل والمدينة وتستحثه ، وهو يتمطى، حتى لتوشك أصابعه أن تلامس السماء ، لكن ربلتي

ساقيه أوجعتاه ، ورأسه تدلى على صدره ، وعيناه انفلتتا تنهبان سفوح الجبل الدانية والقصية ، تنهبان الفضاء القريب والبعيذ ، لايفوتهما سقف ولا ذؤابة خضراء ، من الشاغور الذي أبى أن يبارحه كما فعل سليم افندي ، الى الحرزة التي أحب مثل الباشا شكيم ، الى البادية التي لازالت تؤجّج فيه الغواية والخوف ، على الرغم مما كابد فيها ، قرب حماة ـ هذا الصيف . ولعل ذلك ماجعل طيرانه اللحظة ينكفىء كما انكفأ منذ شهور، يشق السماء فوق حمص ، فوق الطريق الطويل منها الى الشام ، ويبكي فؤاده الذي تشظى ثمة ، و فوق كل هاته الطرق التي تتقاطر الى الشام ، أو تنبلج منها . ولولا أن الأولاد زعقوا فيها بين نافذته والجامع ، لما كان قادراً على أن ينجو مما به ، ويغلق النافذة ، ويتراجع الى الغرفة التي تكدست فيها الكتب والصحف والدفاتر ، حيث حبس نفسه لأيام كانت ستطول ، لولا أن الشام في هذا الشأن الجديد .

★ ★ ★

7

منذ ترددت في سماء المدينة أصداء المدافع والانفجارات لازم الباشا شكيم بيته ، يتفرج على نفسه ، ويبحث في طمأنينة الست زهرة عن سند ، يرجو أن تصيبه العدوى منها ، شأنه في ملمّات كثيرة ، فالستّ زهرة هي هي ، قبل الحرب ، قبل أن يغادر الوالي ورهطه محطة الحجاز ، وحين فجر الاتراك مستودعات الذخيرة وهم يغادرون ، وبعد ان ملأ لغط الانكليز والعرب القادمين من الجنوب سماء المدينة ، وسكتت المدافع والانفجارات ، كانت لاتزال تصعد الى السطح ، مثل سائر الناس ، تراقب ألسنة النيران وسحائب الدخان ، تدير أذنيها مع أصوات القتال وهمهمة البشر ، وهو قابع في غرفته التي لم تعد وثيرة .

كان لايفتأ في الآونة الاخيرة يفكر في الحرب التي طالت ، في الحرب التي بات واثقاً أنها قد آتت أكلها ، وأوشكت أن تنتهي ، ويتذكّر لميعة في آخر لقاء له بها في لندن ، وهي تفيض في الحرب التي تقيم العروش وتطيح بالعروش ، الحرب التي تهوي بالدول وتؤسس الدول . الحرب على قناة السويس كما في ساحة المرجة . كان يعي ذلك جيداً ، وكان يؤمن أن ليس ثمة من لايعيه في هذه البلاد . فليست الكتب التي شبع منها وحدها تعلم ذلك . ليست لندن التي تعلّم شقيقته . بيد أن التفكير بين جدران غرفته ، كان يقلقه ، يضاعف من هول ماعاش ومايجري الآن خارج الغرفة ، على أبواب الشام أو في قلبها . فالسنون الاربعمائة تنطوي حقاً دفعة واحدة ، وهو الذي كان يعرف الكثيرين ممن صنعوا ذلك، هو الذي سعى أيضاً ماوسعت نفسه ، ذاهل الآن . كان يحلو له أن يتخيل أولاء الملايين القابعين في جحورهم ، وقد تناول كل منهم طرفاً من الراية، وراح ينقر في هلالها ونجمتها ، كانت الشام تبدو له بلا راية ، وقد أتت على الهلال والنجمة تلك الملايين من المناقير ، طويلها وقصيرها ، المكسور منها والحاد ، الهش والصلب ، مناقير من كل نوع ومن كل صوب ، تقبع منتظرة الانكليز والعرب القادمين من الجنوب ، وسط هذا السكون المطبق ، والمبهظ والمقلق .

قبل ان يتأكد من أن الحكومة الجديدة قد قامت في الشام ، كان قد صار يفكر في أنّ من طوى راية الاربعمائة سنة ليس تلك الملايين . ليس هو ولا من يعرف ، وقد تكون لميعة على حق ، قد يكون الانكليز من فعل . بل قد يكون الخواجة ثابت على حق ، قد يكون الفرنسيون هم أيضا من فعل . ربما كانت الشام بلا راية حين ساوره ذلك ، وكان يهرب من شواغله الى الحقيقة الناصعة الكبرى ، ولعلها الوحيدة . فقد كان لابد لتلك الراية ان تنطوي . ولاريب في أنها لم تنطو أمس أو اول امس دفعة واحدة . لم يكن ثمة مناص من مخرج ما مما آلت اليه الشام او العراق او الحجاز او استنبول نفسها . ولكن هل كان ذلك حقاً بحاجة الى كل هذا القتل والدماء ؟ هل كان بحاجة الى بريطانيا وفرنسا وألمانيا وروسيا ومكة والمشانق والأوبئة والجمعيات، وكل هذا الذي اندلع أخيرا . ولا يعلم الا الله إلام سيؤول، على الرغم من هزيمة المهزومين وقدوم القادمين ؟

في آناء متباعدة من النهار او الليل ، كانت تسعى الست زهرة الى أن تخفف عليه أوهامه كما تسمّي ، وهو يغضب من التسمية ، ويعيد عليها ماحفظت منه منذ عهد بعيد . فتلك هي مبادئه في الحياة ، لا أوهامه .

في غضبه النادر ، كما في هدوئه الدائم ، كان شديد التمسك بما يدعوه بمبادئه ، ولعل ذلك قد بدأ في شبابه المبكر ، وجعله لاينخرط الا بحساب فيما يعصف حوله . حتى في السنوات الاخيرة ، لم يجاوز ذلك ، وهو يداري الخشية من أن يفوته الركب ، ويأتي يوم قد أفلح فيه اصدقاؤه أو أعداؤه ، دون ان تكون له يد في الأمر .

كل مافي الباشا شكيم كان بالغ الانسجام مع مارسم لنفسه مبكراً ، حتى صوته ، نظراته ، دقات قلبه ، نعومة بشرته ، مشيته ، ولأنه كذلك ، ولأن ماكان يجري في الشام خلاف ماينشد ، فقد توخى الابتعاد في مقامه وفي اعماله ، وخرج الى الحرزة أو الى المانيا ، الى بيروت او السيران او لندن ، حتى جاءت الحرب ، ولم يعد ثمة مفر من ان يخطو خطوة ، اثنتين ، خطى ، ولكن بحساب ، والست زهرة تدرك ذلك حانية ، تدفع من بعيد كما تحمي ، وخاصة في هذه الأيام التي ينعطف فيها الدرب بالشام أي منعطف ، فترتعد أركان البيت الراسخ في ساروجة ، كما ترتعد أركان الشام الراسخة في حضن قاسيون ، كما ترتعد عزلة الباشا ، فينصاع الى همس الست زهرة ، يخرج الى باحة الدار ، يرسل عينيه المنهكتين هذا المساء في أطراف الباحة ، يود لو أن الهواء يحرك الصفصافة التي يحبها مثل الست زهرة . يفتقد الرطوبة التي كان المساء الخريفي يشيعها في النفس ، فيما الخادمة خديجة التكلي تشطف البلاط ، ترش الجدران ، تسقي

الأحواض ، تفاجأ به وهي تدندن ، فتكنز ضحكتها وخجلها، وتهرع الى مكان ما في البيت ، عبر اقرب الأبواب اليها ، مرسلة صوتها العذب :

ـ سيدي ؟ تفضل ياسيدي .

حين غادر الغرفة كانت خديجة ثمة صامتة ، لاتتقافز كعهدها من ركن الى ركن ، ولا تستطيع عيناه الآن أن تفيضا رضى وحبوراً . إنها تكاد تجر قدميها ، والكرسي الأثير للست زهرة تحت الصفصافة فارغ ، ولعل الزقاق فارغ ، والسوق فارغ . لعل المدينة فارغة ، والأولاد قد أووا إلى غرفهم مبكرين ، فإنْ لم يكن كذلك ، فلماذا لايسمع نأمة ؟ أيكون الطرش قد أصابه ؟ أيكون لسانه قد انعقد ؟ سوف تحل العتمة عما قليل ، وليس أمامه إلا أن يصعد الى السطح ، تلاحقه عينا الست زهرة وفي صدره تتصادى كلماتها وأنفاسها ، كأنّها لاتزال قبالته في غرفته ، تشكو انقطاع الكهرباء منذ سنة . تتساءل كطفل عما ان كانت شلالات التكية قد نضبت ، أو إن كان الصدأ قد اكل الحديد في محطة التوليد ، وإذ تعبق رائحة النهر في صدره ، قبل أن يتجاوز الدرجة الأخيرة الى السطح ، يردد خلف الست زهرة أن بردى لم يعد نور الشام ، ولعله لم يعد طعامها وشرابها ، ويلهج لسانه بالرحمة على البلجيك ، ويلعن القنديل والفوانيس ، ويتأمل أمداء الاسطحة الفارغة ، يفكر في الناس الذين يتكومون تحتها ، خاصة هناك ، أبعد فأبعد عن بيته ، يؤيد ماقالت الست زهرة قبل قليل بإعجاب في مكرهم . فلا بد أنهم اذ يترحمون على أحد يلعنون الآخر . إنهم في السر وفي العلن يلعنون . ولابد أنهم كل مساء يلعنون البلجيك وحديدهم ومحطاتهم وهاته الاعمدة التي زرعوها في كل مكان ، ولايهم إنّ كانوا يفيدون من الكهرباء ام لا . إنهم في السر وفي العلن يلعنون ، ولابد انهم كل مساء وصباح يلعنون الحرب التي جعلت تنكة الكاز تساوي ذهباً، مثلما يلعنون الشعير والكرسنّة والدبس والبابونج ، والباشا شكيم أدرك ذلك على نحو ما من الحاج نفسه ، من صيف الحرزة المنصرم أو من أصيافها الفائتة ، وقد انكر من نفسه أن تأنس الى ذلك ، كما ينكر منها الآن أن تأنس الى الأصوات التي تضيء عتمته ، تنسّل عبر السكون فلا يعود مطبقاً ولا مبهظاً ولا مقلقاً . انه حداء عجيب آت من فوق ، من الفسحة السماوية ، من الباب الخارجي ، من الدرج الصاعد خلف الباشا الى السطح . حداء افتقده منذ كان يخرج مع أقرانه اليافعين الى قاسيون ، يوغلون أبعد مما يسمح لهم أهلوهم ، يتلصصون على الجن ، يدققون أجرا فأجرا في قبر هابيل وفي المغارة ، يؤبون ظافرين ، يضنّون بأسرار مغامراتهم على الكبار ، ولكن الحداء كان يملأ نوم الباشا

الفتى ، فيجعله خفيفاً مثل ريشة ، يرعده خوفاً وقوة، يضيء له دنياه الصغيرة كما يطلسمها ، وكانت أمه ملجأه الوحيد ، كما هي الست زهرة اليوم .

اجتاحت الباشا الذي كان يدور في السطح الفسيح الرغبة في الخروج مما ألزم به نفسه منذ أيام . غصّ لأن العربجي عبد الودود ليس أمام البيت . تمنى أن تحمحم خيله ، أصاخ السمع باحثاً عن وقع دواليب العربة على البلاط . كان وقع الدواليب الحديدية أقوى وأمتع في نفسه من دواليب المطاط الرتيب الذي لايكاد يسمع . لام نفسه على أن أرسل العربجي إلى بيته أبكر من كل يوم . همّ في أن يقفز على الدرج ويندفع في الزقاق والسوق ، يمشي على قدميه كما لم يفعل منذ زمن ، يترك شرّابة طربوشه تتهادى ، يرد على تحية هذا وتحية ذاك ، بل إنه هو الذي سوف يحيي هذه المرة ، وقد غمره الشوق الى الناس ، كأنما قفل لساعته من سفر طويل ، ربما كان أطول من أى سفر له من قبل .

كانت الشام قد تلفعت حوله ، فأسرع الى الركن الذي يعلو باب البيت ، حيث ألف أن يلبث وحيداً ، والست زهرة تكون ثمة تحت الصفصافة .

منذ أكثر من عشر سنوات ، حين دخلتْ الكهرباء الى المدينة ، صار الباشا شكيم يأوي الى هذا الركن ، سواء بعد أن تنفض السهرة في بيته ، أو إثر سهرة عامرة في بيت أحد الأصحاب الذين انفرط عقدهم شهراً تلو الشهر ، بعد أن ضاق الخناق على الشام . كان الضوء الواني الذي ترسله القناديل الكهربائية يطمئنه على هدأة الشام في حضن الجبل ، يضاعف من جلال الظلال التي ترخيها الغوطة القريبة والبعيدة ، ولم يكن الباشا يغادر السطح حتى تعلن حركة الكرسي تحت الصفصافة نهوض الست زهرة الى النوم ، ولم يكن الوقت مرة بالطبع مبكرا كما هو الآن .

بحثت عيناه عن القمر ، ومن السماء عادتا الى الأرض ، فلم يكن ثمة أي معلم سوى شبح قاسيون. بدا الجبل أكبر هولاً وإلغازاً ، فالتفت عنه . لكن الغوطة بدت أيضا لطخات سوداء مرة ، سواراً أسود يلف المدينة مرة ، فضّج صدره بالسؤال عمن يعيد كل شيء مثلما كان ؟

كانت الست زهرة هي التي تسأل قبل قليل . ربما كانت تخاطب نفسها ، لا الباشا ، وقد اربدّ وجهها ، وراحت تعدد سكة الترامواي واسلاكها ، بردى الذي صار له نقاب في المرجة هو الآخر ، مثل أي امرأة في الشام . عددت الكثير وهو ساهم ، لكنه يود لو يناديها من هذا الركن ، معلنا أن شيئا لن يعود مثلما كان ، ويتأرجح رأسه متأسيا ، ثم يتأرجح منكرا ، فليس من الضروري أن يعود شيء مثلما كان ، والليلة ، أو أمس ،

أو في الغداة أو بعدها ، تتخلق الاشياء ، فهذه أيام حبلى ، واذْ امتلأت جوانحه بذلك ، نهض متخففاً ، يلاحق النسمة الخريفية التي عبرت ، يداعب صدارته بحبور ، يرى حدود الشوارع والساحات ، يرى القلعة القريبة وأبراجها الخاوية ، وراح يقترب من الدرج متسائلا عمن سوف تلاقي القلعة بعد أن رحل الاتراك ، فتزيده اصداؤها ثقة ، ويهز رأسه ، مؤيداً ، إذْ لن يكون أدهى مما كان . وتختلط عليه الاصداء بصوت الست زهرة التي تستحثه ، فقد وصلت الست لميعة .

★ ★ ★

كانت فرحة الباشا بشقيقته عارمة ، ليس لأن غيابها قد طال ، بل لأنه أحسّ وهو يسمع نداء الست زهرة أنه بحاجة مسيسة الى وجود لميعة معه في هذه الأيام ، وقبل ان تستقر الأريكة بلميعة اركزت عينيها في عيني الباشا جذلى ، وقالت بالانكليزية :

ـ هه ياأخي . . ربحنا !

التفت الباشا الى الست زهرة التي كانت تلم بالانكليزية . تذكر كيف ساوى بيجيت في لقائهما الأخير بين الرهان والقمار ، وكيف رأى نفسه أمام لميعة وبيجيت متهماً ، يجهد من اجل البراءة ، ويقسم أنه لم يلعب القمار مع جمال باشا غير مرة ، وأنه كان أول من نفض يديه من حاكم يقرقع بالذهب الذي يربح من سهرة ، متلذذاً ، كأنه انتصر في القناة . كانت لميعة وبيجيت مثل أمير الحج الذي تناهى إليه أن صهره يقامر ، فأوقفه أمامه كأنه متهم ، وراح الباشا يرسل القسم أكبر من القسم على أنه لايربح ولا يخسر في لعبه مع أصحابه . وإنما هم يزجون الوقت ، وترى كلًّا منهم يعيد الى صاحبه ماقد يكون ربح منه . كان الباشا يعزي نفسه عن كذبه بمداراة حميه والست زهرة ، كما كان يتعزى عن الكذب مع جمال باشا نفسه وهو ينفي ، بأيمان وبلا ايمان ، صلته بأيّ من رجال الجمعيات والمنفيّن والمشنوقين والفارين ، ولكن المثول بين يدي جمال باشا كل حين ، لم يكن أصعب على الباشا من تلك الوقفة بين يدي حميه .

صحا من هواجسه على ضحك شقيقته وزوجته ، فتساءل :

ـ متى عدت ؟

ـ منذ ساعة .

قالت لميعة، فهمست الست زهرة مستنكرة بحنّو :

ـ من يسافر في هذه الأيام ؟

أشاح الباشا مخاطباً لميعة :

ـ أين المستر بيجيت ؟

ـ في اوتيل فكتوريا .

ـ وصل ووصلت مع الانكليز من الجنوب ؟

كانت ضحكة خفيفة ترافق سؤاله ، لكن لميعة أجابت جادة :

ـ حاولنا ان يتوافق ذلك ، وقد كان . توقعت أن أراك في الاوتيل . هو يعج برجال الشام .

همست الست زهرة ثانية :

ـ لايكاد يخرج من غرفته .

قالت لميعة لائمة :

ـ هذا وقت البيت ؟

ـ تعرفين أني لست من أولاء الذين يتسابقون الى من . . .

قاطعته لميعة :

ـ هذه المرة ليست مثل كل مرة . هذا هو اليوم الذي كنا ننتظره . هذه هي الحكومة التي سعينا من أجلها .

ـ لها رجال كثيرون غيري في الشام . تعرفين أني . . .

قاطعته ثانية :

ـ ما فات الوقت . لو أنك عجلت مثل غيرك بين رحيل الاتراك ووصول الانكليز ، ونصبت نفسك ! ربما كان استطاع بيجيت وغيره أن يثبتوك .

ـ ليس الأمر بهذا اليسر ياليعة . انت تعرفين .

ـ على أية حال لم يفت الوقت .

ـ لازال وقتي بعيداً .

ونهض يحثها على أن تخرج مع الست زهرة لتغتسل وتتهيأ للعشاء ، فيما نهضت الست زهرة تسأل لميعة عن حقائبها .

لبث في منتصف الغرفة بعد خروجها غير نادم . فالشام بالنسبة اليه ليست فرصة يهتبلها ، كما أنه يعدّ نفسه لأمر معها لايزال بعيداً . امتلأ شماتة بالذين لم يصدقوا أن السراي قد خلت من الأتراك حتى اندفعوا اليها ، لقد قرأ ذلك في عينيّ كثيرين ممن كانوا

يودعون الوالي . بدا بعضهم له أكثر ضيقا من الوالي حين تأخر القطار . ولما عاد الموكب من القنوات الى السراي أطبق أولاء شفاههم . لم يتناولوا غير لقيمات من الطعام الذي كان قد تزود به بعض المغادرين مع الوالي ، ممن لم يلبثوا أن تركوه في حماة او حلب ، وعادوا يستقبلون القادمين من الجنوب . كان الباشا شكيم يقرأ سريرة اولاء جيداً ، يتابع عيونهم المركوزة على الوالي ، يتابع لعابهم الحبيس في حلوقهم ، والحزن الكاذب على محيا كل منهم ، يفكر فيما يعلم من صلاتهم بالقادمين من الجنوب ، يغيظه مايجمعه بهم في سره ، وربما في سرهم ، وفي العلن . كان ثمة قائد الجيش الذي عهد اليه الوالي بانجاز الانسحاب ، قبل ان يصل الانكليز . كان ثمة باشوات وأمراء ، انفرجت أساريرهم حين عاد الموكب الى المحطة بعد ساعات ، وجاء القطار . وقد أيدت الست زهرة هواجسه بأولاء ، وتنبأت أن أياً منهم لن يكون له نصيب في الأيام التالية ، حتى إنْ ملأوا السراي الآن، وتجمهر الناس حولهم .

حمد الباشا الله على الصبر الذي وهبه له . لقد فكر من قبل مرارا في تلك اللحظة التي ينهض فيها حاكم من على العرش ، ويجلس حاكم . فكر مرارا في اللحظة التي يخلو فيها العرش من أي حاكم ، ليس عندما يذهب الى النوم او الطعام او ليبول ، بل عندما لايكون ثمة صاحب للعرش البتّة .

طالما نشد الباشا شكيم الزعامة . والست زهرة تعرف ذلك ، تعيشه معه بالأحرى . لميعة هي الأخرى تعرف ، وتزين له ، ولعلها تبذل وسعها ، خاصة بعد أن توطدت علاقتها بالمستر بيجيت . لكن الباشا شكيم لم يسع يوماً . مثلما يفعل الآخرون . لم يتملق السلطان ولا الوالي ، لا الانكليز ولا الفرنسيين ، لا الألمان ولا من في الحجاز ولا من في سواها ، لا قادة الجمعيات ولا أحد . ولم تزلّ قدم الباشا يوماً إلى نفي او مشنقة مثلما وقع للمندفعين . بل إنه كثيراً ماكان ينسى الأمر ، خاصة أن العرش لم يشغر لحظة ، كما كان يزداد تهالكاً ، والباشا في تلك الأيام يتقدم بثقة وسرعة وأناقة أيضاً ، في كل مكان . ولكن ماأكثر الطامعين ، وماأفظع الأساليب التي يتوسلون !

في أرجاء الغرفة الرحيبة كان يدور والأفكار به تدور . وحين تسلل اليه صوت لميعة من مكان مافي البيت كان قبالة الباب ، يتهيأ للانعطاف الى الخلف . استوقفه الصوت هنيهة وهمّ بمتابعة دورانه . تذكر نداء شقيقته الرقيق ، وخيل اليه أنها نوهت بجوعها ، فأسرع الى الباب ملهوفاً ، كأنما قد دخلت بيته لتوها ، وفي طريقه إليها ، غص لأنه لم يرها منذ أكثر من سنة، فار شوقه اليها وود لو يحضنها كما فعل في لندن ، والمستر بيجيت

يضحك وينتظر دوره . كانت لميعة في ذلك اليوم اميرة حقاً ، مثلما كانت ذات يوم في استنبول . تساءل مثلما فعل حين عادت الى الشام : لماذا تبدو في الغربة أميرة ، ليس مثلها في البلاط ، لا في استنبول ولا في لندن ، بينما لاتكاد تبدو في الشام شقيقة الباشا ، او بنت الباشا ؟ لم يكن لأية من الأميرات في بلاط السلطان مثل أناقتها وإتقانها ، ولا مثل مشيتها وحنكتها . كانت تبذهن جمالاً وثقافة ، ولعلها كانت ترسم مستقبلها منذ ذلك الحين . لم تسع خلف زواج سريع ، شأن شقيقاته الأخريات، أو شأن اغلب بنات الأسر القريبة والصديقة . لم تأبه يوماً بما سترث ، على الرغم من أنها غدت على نحو ما ، منذ تركت استنبول الى الشام ، تعين الباشا في بعض شؤونه . وكان يتمنى في البداية لو أن الست زهرة هي التي تفعل . ثم تعود ان يستشير لميعة ، خاصة في علاقاته مع الشركات الالمانية . ولسبب ما ، لاتدركه لميعة نفسها ، كانت تدفعه ايضاً الى لندن او باريس ، وكانت قد بدأت معركتها كما صارحته فيما بعد ، من أجل أن تغادر الشام ، ولكن ليس الى استنبول . لقد نفضت يديها من استنبول قبل الجميع ، وهاهي ذي الأيام قد أكدت له ليس حدسها وحسب ، بل دقيق حسابها ، في السياسة كما في التجارة .

تنفّس وهو يتوجه الى الباب رضياً . لقد أحسن الصنع هو ايضاً، اذ يسر للميعة أن تغادر الى باريس فلندن . كان الأمر في البداية حقاً لايعدو في تقديره رحلة طويلة ، وإنْ لم تكن للتسرية وحسب . كانت لميعة تريد ان تستزيد من الدرس ومن الدنيا ، ولم يبق للباشا شقيقة سواها بعد أن تزوجت الأخريات . وعلى الرغم من أنه كبير أسرته، فلم يكن سهلاً عليه ان يسمح بسفر لميعة ، كما لم يكن سهلاً عليه بعد أن طال الغياب ، وعاد السفر بعد الإياب ، أن يبرر ذلك أمام أشقائه وأصهاره وحميه وبعض أصدقائه . حتى سليم أفندي لم تكن اسئلته عن الست لميعة تخلو من الإنكار . لكن لميعة صارت ضرورية للباشا في لندن ، خاصة بعد ان توطدت صلتها بالمستر بيجيت ، ذي الصوت المسموع حتى في البرلمان ، وصاحب الصلات الوثقى بكبار المحافظين . ولئن كانت الضرورة من قبل محددة بالنسبة للباشا في إطار أعماله خارج البلاد ، فهو الآن يفكر في إطار مستقبله هاهنا ، داخل البلاد ، ويهز رأسه معترفاً للميعة ببعد النظر ، فقد أشارت الى ذلك في لقائهما الأخير هناك ، ولعلها فعلت قبل ذلك وهو غافل .

لم يتعود الباشا أن يكره أحداً من إخوته على مالايرغب . كانت إشارة خفية منه تكفي ليذكر كل منهم ماينبغي له ان يفعل . وكانت لميعة تنتزع لنفسها منذ صغرها مكانة خاصة . كانت تكره الدلال ، ووحدها من بين الشقيقات تابعت دراستها . كان الباشا

يخطو خطواته الاولى نحو مستقبله بعد ماأنهى دراسته ، حين كونت لميعة في المدرسة جماعة ضد المعلمات التركيات المتغطرسات . وأثر ذلك ظلت تلحف حتى يسّر لها الباشا أن تدخل المدرسة الامريكية في أزمير ، حيث أجادت الانكليزية ، كما أجادت الفرنسية والتركية في استنبول من بعد ، وكما أجادت بعد الدراسة العزف على البيانو ، وبذّت من كنّ معها في المعهد الفرنسي . في أثناء ذلك صارت لها مجموعة نادرة من آلات التصوير، ومكتبة صغيرة خاصة بها وبصديقاتها . في أثناء ذلك أخذ صوتها يعلو ، ويزداد رقة ، وهي تلح على تعليم النساء ، كما الرجال . حتى نساء الفلاحين ينبغي أن يتعلمن . ولم تلبث ان صارت تتبرم بالحجاب ، ثم استبدلته بالمنديل الذي أثار سخط الأسرة كلها ، إلا الباشا والست زهرة التي حذت حذو لميعة، والمعركة ناشبة .

منذ دخلت الى المدرسة توسم الباشا فيها الخير ، ومحضها ثقته دون أن يفكر في ذلك ، لا في حينه ولا من بعد . لم يخالجه الشك قط في سلوكها ، حتى وهو يراها في لندن ، تخرج مع المستر بيجيت . ولم يكن غافلاً بالطبع عن الهمس الذي يدور حوله وحول الحبل المرخى على غاربه للميعة . كان الهمس يعده مسؤولا عن عنوستها ، وكان ذلك منذ سنوات يؤلمه ، لكنه مالبث ان نسيه بعدما استأثرت بها لندن . وقد يكون فكر في زواجها المتأخر وهو يرقب بصمت صلتها بالمستر بيجيت ، لكنه لم يشغل نفسه بذلك ، فليس الباشا من يستبق الأمور ، كل الأمور.

مرة أخرى جاء صوتها ، ولكن من فرجة الباب الذي انفتح والباشا غافل ، فغرغرت لميعة ، وافسحت له دون كلام، وحين انتبه اليها تبسّم وأسرع الى حيث كان صوت الست زهرة يناديها ، وقبل أن يدفع الباب التفت الى لميعة :

ـ اشتقت اليك ياأختي .

مست ذراعه برفق تستحثه :

ـ هيا الآن . أمامنا الليل بطوله .

★ ★ ★

نهض الباشا في موعده نشيطاً ، على الرغم من أنه لم ينم جيداً . كانت أصداء السهرة الطويلة لاتزال تتردد في رأسه مختلطةً بهواجسه التي أثارها حضور حميه متأخراً مع بعض أصحابه ، فاضطرت لميعة الى الانسحاب ، واضطر الى أن ينتظر انصرافهم على مضض .

لم يشارك حماه والآخرين فيما خاضوا فيه ، وكان من المألوف أن يخلد الى الصمت أمامهم أو أمام سواهم أحياناً ، مثلما كان من المألوف أن لايكاد يفسح لسواه بالكلام أحياناً أخرى .

كان حموه قلقاً مثل أصحابه ، وقد عرجوا في عودتهم الى بيوتهم من أوتيل فكتوريا على الباشا الذي لم يشاهده أحد منذ أيام، ولم يسمع صوته . حاول أمير الحج أن يعرف سرّ اعتكاف صهره ، او رأيه فيمن عجل الى السراي ، فلم يستطع أن يحتفظ بها ثلاثة أيام . حاول الآخرون أن يعرفوا رأيه في تعيين حاكم عسكري من قبل الانكليز ، وألح الحمو بعد أن غادر الغرفة قليلا ليسلّم على ابنته ، فإذا بالست لميعة معها ، غير أن الباشا لم يشأ أن يفرج شفتيه ، إلا ليرحب أو يكرر الدعوة الى كأس جديد من الشاي ، واذ انصرفوا أخيراً ، هرع الى اخته وزوجته ، فانسحبت الست زهرة الى سريرها ، وبعد لأيٍ انسحبت لميعة الى السرير الجاهز دوماً من أجل ضيف عزيز مثلها .

على الوسادة المكنوزة بالريش أرخى رأسه فوق ذراع زوجته . أسعده أنها لازالت يقظى ، وراح يجهد لينظم بين يديها مايعتمل في رأسه . كان يتلعثم متهيباً وهي صامتة ، لاتستزيده ولاتجادله ، حتى حسب أنه قد أفضى بكل مايشغله ، وهدأت أنفاسه ، فدعته الى النوم ، وأفردت ذراعها الآخر فوق جنبه ، مؤكدةً أن كل شيء سوف يكون له ، وسوف يكون أفضل مما يأمل . وسرعان ماهجعت قريرة ، ممتلئة كعادتها ثقةً وأماناً ، فأخلد يستعيد رنة صوتها ، يعدد كلماتها ، يغبطها ويتساءل مثلما فعل آلاف المرات عما يجعلها هكذا ، طامحة جداً وقانعة جداً ، رقيقة جداً وصارمة جداً ، كلمتها واضحة ومحددة ، تلقيها مرة واحدة ، فلا تبدي فيها أو تعيد ، كما يفعل أبوها خاصة ، وكما يفعل هو وسواه ايضاً . ووطّن نفسه مثلما فعل آلاف المرات على أن يتعلم منها هذه الخصلة ، وفاض بالميل اليها ، فلثم شعرها وأطبق جفنيه .

في الصباح الباكر تناولوا الإفطار على عجل ، ثم أمر العربجي بملازمة الست لميعة في جولتها على أخوتها ، والعودة بها مساء ، كي تشارك في العشاء الذي سوف يدعى اليه المستر بيجيت . وراح الباشا يزجي الوقت بتقليب بعض الصحف القديمة التي رتبتها الست زهرة بأناة في زاوية غرفته الملاصقة للباب .

كانت ثمة أعداد شتى من الصحيفة العربية الوحيدة (الشرق) ، وماتبقى كان بالتركية ، مما أخرجه في الأيام الفائتة ليستعين بها على الفراغ . عبر ببعض العناوين التي

حفظها عن ظهر قلب ، لفرط ماترددت في السنوات المنصرمة . أطلقت ضحكته أعرض من قبل ، وأوجع سخرية وشماتة : القطعات المعادية التي هاجمت قواتنا الباسلة ، لكنها ارتدت على أعقابها خائبة . أوشكت أن تجعل ضحكته قهقةً قواتنا المتراجعة الى نقاط جديدة بحسب التعليمات والخطط . غارت الضحكة وامتلأ بالأسى ، فليس ثمة من يجهل كذب تلك الصحف ، لا الغرّ ولا الخبير ، لا الصديق ولا العدو ، ولكن الصحف ظلت تكتب ، والبلاغات ظلت تترى ، والعرش ينهار . وكانت في العديد من الصحف أخبار وجيزة عن الروس الخبثاء ، فعاد يقرؤها بأناة ، كما قرأها أول مرة ، بل كما قرأها في الأيام الفائتة وهو يفكر بالعرش الآخر الذي انهار هناك ، لكأنّ زمن القيصرية والسلطنة قد ولّى كما ولى قبلهما زمن عروش لا تعد ، وقد كانت تبدو خالدة ، حتى أتى النخر عليها ، والنخر ـ فكر الباشا بقلق ـ يأتي دوما ، مبكراً او متأخراً ، كأنه الموت ، لايخلف ميعاداً .

كان يخرج كل حين ساعته المذهبة من جيبها في الصدارة ، ويتمهل الست زهرة التي تتساءل من على كرسيها تحت الصفصافة عما إنْ كان لم يتأخر . وحين عافت نفسه تقليب الصحف نهض على مهل ، وتوجه مهيباً الى الباب الخارجي الذي سارعت خديجة الى فتحه وتنحّت تدعو.

ملأ صدره من الهواء ، وأصغى هنيهة الى اللغط المتدافع من هنا وهناك ، ثم انطلق عجلاً حتى المرجة التي كانت تفور بالناس .

أسعده الزحام والصياح خلاف ماتعود . تمعن في الوجوه التي بدت له فرحة وشامتة ، عكس ماأكد حموه من قلقها وحزنها . لقد رأى الباشا مثل هذا الحشد مرارا ، رأى الناس يستقبلون جمال باشا بالزغاريد تحت المطر ، رآهم يستقبلون الامبراطور غليوم وهو يعتلي المصطبة الحجرية ، يعاين الغوطة من خاصرة الجبل وينصح بالبناء هناك . رأى الباشا هذه الوجوه تتفرج على المشانق المعلقة في المرجة ، وفي المرة الأخيرة رآها تودع الوالي ، وهاهي ذي اليوم تستقبل سواه ، وأنكر ان تكون الوجوه في كل مرة هي هي ، ولكنماالفرق ؟ ماإن تمتلىء الساحات بالعشرات او المئات حتى تتشابه الوجوه والاصوات ، فكيف إن كانت بالآلاف ، لقد رأى الباشا الناس ساخطين ، هائجين ، خائفين وفرحين ، وربما كان ذلك كله يجتمع لهم هذه المرة ، ولعل حماه لم يذهب بعيداً فيما قرأ في وجوههم أمس ، كما أن الباشا لن يذهب بعيداً إن لم يقرأ الآن سوى الابتهاج . ولكن الباشا لم يكن قد جرب منذ زمن بعيد السير وسط الحشود . حتى ندر

أن شارك فيها منذ توفي والده . صارت الأكتاف تزاحمه ، ولم يعد قادراً على أن يتحاشى . وكانت الجادات المتفرعة من المرجة لاتزال تدفق بالناس ، ولم يلح النهر للباشا . ضاع النهر وضاعت الحواجز الحديدية ، لا أثر لما كان يملأ الساحة من عربات الخيل او الاتوموبيلات . وحدها كانت أسلاك الترامواي قائمة حيث اعتادها ، والعصافير تتقافز منها الى الزنزلخت الباسق أمام السراي . كانت السراي تبدو قريبة جداً من موقعه امام بناية عمه ، ولكن أنى له ان يصل اليها ، وهذا المدّ من البشر يفصله عنها ؟ فكر في انه لو تابع الدفع والزحام فقد لايصل ابدا . قد يقع بين الأرجل ولاينفعه طربوشه ، ولكن إن حمله واحد من اولاء ، كما يحملون الهتافين ، فقد يصل في غمضة عين . وأسعده أن تقاطع مايفكر فيه تحية ثم تحية ، فرد بحرارة ، وأوشك ان يعتذر ممن يحييونه ، فهو لايريد أن يعتلي كتف أحد . بل إنه لايريد أن يقطع الساحة الى طرفها الآخر ، حيث السراي . حسبه أنه واقف هاهنا ، حيث كان يؤثر أن يركن الفورد ، حسبه أن يسير بمحاذاة أبواب المخازن المغلقة في الطابق الأرضي من بناية عمه ، يفرح لأن الأتراك قد أخلوها أخيرا ، بعد أن احتلوها منذ بداية الحرب .

على مدخل البناية خاصره الحلاق والحلونجي والصيدلاني وذاك اليوناني الذي كان أكثرهم صياحاً، بلكنته المضحكة، وهو يشير الى السراي :

- ألن يشتريها أحد ويرفع محلها مثل هذه البناية ؟ انقلوها بعيدا عنا ياباشا .

رفع الباشا عينيه يسرق لمحة من بناية عمه ، ثم أرسلهما نحو السراي ، فتهيأ له أن بناية أكبر قد قامت هناك . تراجعت عيناه بأناة فوق الرؤوس من السراي الى النصب الذي يتوسط الساحة . وحده فيها يعلو الرؤوس . ودّلو أن بوسعه أن يسأل من تحلقوا حوله عما إن كان ذلك النصب قد جاء شؤماً على اصحابه ، ألم يرفعوه ذكرى للاتصال البرقي مع المدينة المنورة ، فإذا بالضربة الأوجع تأتيهم من هناك ؟ عادت عيناه الى حديقة السراي، فلم يظهر لهما النصب الذي أركز في وسطها، علامة على خمس وعشرين سنة من جلوس السلطان على العرش . ودّلو أن هؤلاء الناس يرمون بذلك النصب في النهر ، وهمَّ في أن يحرض من حوله على ذلك ، لكن التحيات تكاثرت عليه وألهته عما به ، وكان يعبر ثمة فلاحون قادمون من الحرزة ، فأشار الى أحدهم كي يعينه في متابعة سيره نحو اوتيل فكتوريا .

قبيل الاوتيل اختفى الفلاح وصحبه ، ذابوا في الحشد ، وراح الباشا يقطع الخطى القليلة الباقية بصعوبة أكبر . تمتم بالرحمة على روح الخواجة الذي شيد الاوتيل . تبسّم

كأنما كشف سر الخواجة الخبيث الذي ماإن سمع بالزيارة الوشيكة للملكة فيكتوريا الى الشام، حتى سمى الاوتيل باسمها . ثنّى بالرحمة على روح الخواجة ، وحزن لأن الملكة لم تزر الشام ولم تنزل في الاوتيل . تراءى له أن ثمة عيون عديدة تغمز له من نوافذ الاوتيل . ترك عينيه تتوهان في النوافذ حتى استقرتا على الجمالون . جرّ عينيه الى اسفل ، واختلطت عليه صورة جمال باشا الكبير بجمال باشا الصغير، فقد نزل كل منهما في الاوتيل أول نزوله في الشام . ومثلما يقصد الباشا الاوتيل اليوم للسلام على من فيه، قصده بالأمس مسلما على الجمالين . هوذا المستر بيجيت قد حذا حذوهما ، ومن سبقه من الانكليز او العرب أيضاً . فهل يكون على الباشا شكيم أن يقضي هو الآخر ليلة واحدة على الأقل في هذا الاوتيل ، إن كان يسعى حقا الى تلك السراي ؟

خفف عنه السؤال غيظه من الزحام ، وكان قد تجاوز المدخل ، فأخرج منديله الأبيض العطر ، ومسح عينيه وجبينه ، ثم مسح وجنتيه، وراحت يمناه تسويّ الطربوش ، وعيناه تدوران في الوجوه ، فإذا بحميه قرب باب قاعة الطعام ، واذا بكف يربّت على كتفه وصوت متهدج يحييه بالانكليزية ، فالتفت فاتحاً ذراعيه يهتف :

ـ اهلا مستر بيجيت .

★ ★ ★

8

عادت المدينة تهجع باكرة ، ولكن ليس مثلما كانت عليه منذ ايام ، قبل ان يحتلها الانكليز وتكون لها حكومتها العربية في آن . لقد اخذت مقاهيها وأسواقها لاتخلو من الرواد مع المغيب او قبله ، بيد أنها كانت لاتزال بالغة العياء والاعياء .

واذا كان اغلب الناس قد عادوا يتزاورون عشية ، ويجدون مايتسامرون به ، غير ماكان ينغِّص سائر أوقاتهم من الشكوى والتحسب ، فإن إولاء لم يكونوا ليذهبوا بعيدا في السهر ولا في السمر ، خاصة بعد أن تيقنوا من رحيل الأتراكِ وقيام حكومتهم العتيدة ، فيما آثار البلوى المديدة الهائلة لاتزال قائمة في كل شأن من شؤون حياتهم . وربما كان هذا ايضاً شأن أغلب الناس ، في الشام كلها ، إن لم يكن في أرجاء الامبراطورية المنهارة جميعا .

بيد أن قلة من ابناء المدينة كان لديها مايشغلها ليل نهار ، ولذلك كان السهر يمتد بها ، سواء أكانت البلوى بالأتراك قد أطبقت عليهم ، كسواهم ، أم أنها كانت أخف وطأة . وليس بين أولاء الحراس والجنود أو اللاهون في حي اليهود او الملاهي المعدودة التي عادت الحياة اليها في وسط المدينة .

تلك القلة هي التي يسميها الباشا شكيم برجال الأمس واليوم والغد ، فيصحح له سليم أفندي :

ـ رجال الغيب ياباشا . لعلك تذكر : كنت أسمي بذلك رجال الخفية وحدهم . ولكن من تعدد أولى بالاسم . . .

كانت ليالي المدينة تتوزع تلك القلة جماعات جماعات ، خاصة في البيوت التي تتشبه بالقصور ، ولئن كان أبرز من في تلك الجماعات من أبناء المدينة ، فقد كان فيهم كثرة ايضاً من أبناء المدن والأرياف الشامية الأخرى ، وربما كان لكل من تلك المدن والأرياف قلتها المماثلة ايضاً .

في تلك القلّة ـ أو القلّات إن شئت ـ تجد الباشا والشيخ والضابط والتاجر والحاج والآغا ، الكهل والشاب ، الأب والابن ، الحمو والصهر ، من قيض له منصب ما خلال الأيام المعدودة المنقضية من عمر الحاكم الجديد ، ومن لايزال ينتظر . من فقد برحيل الأتراك منصباً أو جاهاً ، ومن لايزال ينتظر . من يدرك بجلال وعمق أن قدر الشام الجديد انما يصنع هاهنا . وأنه يسهم شخصيا فيه ، او من يدرك بخوف ووضوح ان ذلك القدر انما يصنع هناك ، بعيدا ، في مكان ما من العالم ، وليس في المدينة ، ولا في الشام كلها ، وانهم جميعا، من رمل البحر الى رمل النهر، انما يتماحكون ويتلهون وينفذون مايرسم لهم ، جاهلين او عالمين ، ابرياء او متلبسين ، راغبين او مكرهين . ومثلما كان لأولاء الكثير الذي يخوضون في دقائقه ، كان لهم الكثير الذي يلامسونه من بعيد ، ولايجرؤون على تسميته او تعيين حدوده .

ثمة من لم تطمئنه بعد الأيام المعدودة المنقضية على أن الانتقام لن يكون ممن أمعنوا في سيرهم مع السلطان ، فترى واحدهم يتحسّس عنقه وجلده وأعضاءه . يتحسّس أراضيه وبيوته وأثاثه ومخازنه ومكنوناته من الذهب والأولاد والطرابيش والذكريات ، ينقب عن صلاته التليدة أو الطريفة ، بخاصة مع أجنبي ما ، جمعته به مصادفة أو سعي في مكان ما من العالم ، سواء أكان في استنبول أم القاهرة ، باريس أم بيروت أم الشام نفسها . كان بين أولاء من ينشد عودة الأتراك ، اصلاح ذات البين وصلاح العرش ، وكان بينهم من لم يشغل نفسه يوما إلا بتصريف مصالحه . كان بينهم من يعرف اكثر من سواه ماذا صنع ايام الحرب وقبل الحرب ؟ بماذا تاجر وبمن وشى ومن رشا وأين خالف القرآن وأين لم يخالف ؟ أين كذب وأين صدق ؟ ولئن كان الايمان العميق او البقية منه في نفس هذا أو ذاك ، يهدىء الروع ، كما عصم من قبل عن الولوغ في الظلم او في سواه من الكبائر ، فإن ذلك لم يكن وحده كافيا ليمنح النفس الامان، مما تكنّ الأيام القادمة . وثمة آخرون بلغ بهم الصلف والعتّو حداً جعلهم يرون فيما كانوا يحيون الناموس الذي لايحول ولايزول ، فلهم الملك ، والجاه ، واليد الطولى ، والأمر والنهي ، ورثوه كابرا عن كابر ، صنعوه بالمغامرة او الحيلة او القوة او الصبر او الكدّ . إلا أن هذه الأيام العجيبة تطلع بما يناوش الناموس ، يهدده ، وأمر أولاء أكبر من أن يكون خوفا من الانتقام . انه الخطر على الوجود ، وزعزعة الدنيا التي لايبدو انها راسخة جدا ، كلما صارت عزيزة جدا .

بين تلك القلة من رجال الغيب ، كما يعني الباشا ، لا كما يصحح سليم أفندي ، ثمة من قاوم السلطان من حد السيف الى حد اللسان ، وليكن ، فأضعف الايمان هو من الايمان ايضاً . بين أولاء من لم يخطر في باله ان يقوض العرش . فالموظفون والملاكون الذين سبقوا يوما الى أول مظاهرة عربية في استنبول نفسها ، لم يفكروا بأكثر من تنشيط البلاد وتخفيف اعبائها . لقد طالبوا بالمعامل والشركات وتحسين الزراعة وحفز التجارة ، ولكنهم لم يطالبوا بتقويض التاج . ولم يذهب الطلاب والادباء وبعض النواب الذين آزروهم أبعد من ذلك بكثير . ربما جعلوا غاريبالدي رمزهم الأثير ، ربما تحدثوا عن العمال وكانوا أكبر حرارة ، كما كانوا أخبث إذ لطوا خلف الواجهة الثقافية ، لكن المدى الذي ذهبوا فيه الى ذلك ظل محدودا .

تلك الخطى المبكرة المتلجلجة ظلت تدور في دائرة العرش . حتى الضباط ورجال العائلات المرموقة لم يدعوا في جمعيتهم الى اكثر من مملكة بتاجين : عربي وتركي ، ورمزهم الاثير : النمسا والمجر . وكان الأتراك لايكادون يفسحون الى أي من تلك الخطى، لسبب او لآخر، حتى يقطعوها ، بل إن بعض تلك الخطى كانت تتوقف بنفسها إنْ اشتّمت أية رائحة للخطر . على أن باب العمل السري والاستقلالي كان قد بدأ ينفتح . كان لابد من بعد أن تغدو الخطى سوى ماكانت . أبعد طموحاً وأوثق ، فلم يعد عدل السلطان وحده كافيا . إنه الاستقلال هذه المرة . هكذا توالدت الجمعيات ، تلّم تحت راياتها وشعاراتها المثقفين والتجار والضباط والجنود الفارين . لقد كان المنعطف الحاسم في هذا المسار هناك ، بعيدا ، في باريس ، حيث استأثر الطلاب باللعبة في البداية ، ثم انتقل اللعب الى الشام . والحق أن أغلب البدايات وأهمها كانت تبدأ هناك ، بعيدا ، من مكان ما خارج الشام ، من أجل الشام ، سواء ظلت حبيسة مولدها ام استطاعت ان تنبت زرعها هاهنا .

كانت تلك المحاولات تجمع المال والتبرعات ، سرا وعلنا ، تصدر المجلات والنشرات ، تعقد المؤتمرات والندوات ، تدفع بالشهداء ، تمدّ يدا الى الانكليز واخرى الى الفرنسيين ، وبعضهم لم يوفر الألمان . وربما كان بعضهم قد مد يده من قبل الى تجارة او سمسرة او تعليم ، لكن الامر هذه المرة كان أكبر، فقد كانت تلك القلة تنخرط في السياسة الدولية مختارةً ومكرهة، واعية وغافلة، وكان الرجل منهم ينتقل من هذه الجمعية الى تلك ، مطلّقا أو دون طلاق ، يضعف فينكث العهد ، يكنز مثل أنصار السلطان،

وقد يبذهم إيمانا أو مخالفة للقرآن او وشاية أو رشوة أو صلفاً أو عتواً ، وأيضاً كان الرجل منهم يطلق الاراضي والمتاجر والوجاهة والمنصب والمال ، ويتقدم فادياً الشام بعنقه .

سنة تلو السنة لم تعد هذه الخطى مقصورة على من شرع بها من تلك القلّة . وقد عمّ ذلك ارجاء الشام ، فصنع زخما خاصا ، وخلق تعقيدات جمة ، وفرض على القادة قولا آخر . لقد اخذت تشارك بألف وسيلة ووسيلة أشتات بلا حصر من الناس ، جلّهم لم يتعلموا جيدا ، او لم يتعلموا البتة ، منهم من ليس له البيت الذي يظلله . منهم من يقضي دون اللقمة . . هذه الأشتات من الناس لم تترك لها الحرب ولا السلطان شيئاً . وأنّى لها ان تمعن في السهر والسمر على الرغم مما آلت اليه الشام في هذه الايام، أما تلك القلة التي تعد المئات وربما الآلاف ، سواء منها من قاد الى صنع هذه الأيام أم من عوقّه ، فهي التي تساهر الشام هذه الايام .

★ ★ ★

9

من القاعة الكبيرة ، الخاوية أطل الباشا شكيم على الشارع الصاعد من العفيف ، في الطرف المقابل من الشارع لمح الجامع والحمّام ، لمح الحجر والشجر ، فعجّل بالانصراف .

منذ قليل كانت القاعة عامرة . منذ الصباح كانت عامرة ، شأنها كل يوم ، منذ اعلنت الحكومة باسم سيدنا السلطان امير المؤمنين ، ورفرف العلم العربي فوق القصر الذي بدا كأنما أعدّه صاحبه ذات يوم فقط ليكون قصر الحكومة العربية الاولى في الشام .

كان الباشا شكيم في البداية مثل الأمير الحجازي ، غير مصدق لما يعيش ، لكن الباشا ترك السكرة وأعمل الفكرة . وعلى الرغم من أنه لايحمل صفة رسمية محددة ، فقد أخذ يسعى في القصر وفي السراي ، شأن كثيرين ممن كانت لهم مساهمة مافي هذا الذي آلت اليه الشام . كانت نصائح لميعة والمستر بيجيت وتحريض الست زهرة تدفع الباشا شكيم الى القاعة التي غادرها ، أو سواها من قاعات وردهات السراي والأوتيل ، كما كان اصغاء العديدين له ، وعلى رأسهم الأمير نفسه ، يزيد من حماسته ويوقد ذهنه ، ولابد من ذلك لمن يتدخل في شتى شؤون الحكم ، بل لمن يحسب انه يؤسس لحكم .

لقد بدأ يضيق بتلك القاعة وبالذين يحيلونها وكرا للدبابير منذ الصباح . ولعله لذلك آثر أن يكون الليلة آخر من يغادرها، كي يخلو بالأمير ويعنفه هذه المرة ـ وليس يحضه كما فعل مراراً ـ لمكوثه الدائم في القصر ، وخاصة في هذه القاعة . ينبغي أن يعتاد الجميع ، وعلى رأسهم الأمير ، على النزول الى القصر الآخر في الجسر . بل لماذا لاتُشترى هذه الارض بين العفيف والجسر ؟ أو لماذا لاتستأجر ، ويوصل القصران بين طرفيها ؟ فهكذا ، يكون امر الاتصال بين الحكومة والناس والأمير أيسر وأدق . لاينبغي ان يعارض صاحب الارض ، كائنا من كان . وسوف يكون الامر اجمل ان زرعت هذه المساحة بالورود ، وتوزعت في أنحائها النوافير . لماذا لاتكون اجمل مما صنع جمال باشا

بالشارع الذي حسب انه سيحمل اسمه الى الابد ؟ لماذا لاتكون دار الحكومة العربية الاولى أروع من أي سراي قامت في الشام ؟

ربما كان الباشا شكيم يسأل نفسه ، لا الأمير ، في خلوتهما المتأخرة . وهاهو بعد أن أطلق الأمير يده وتركه وحيدا في القاعة ، يخطط للغداة ، للقصرين والأرض والموظفين والناس ، للعفيف والجسر ، يحيّي الحرس ويمشي خطوة خطوة ، يتأمل المساحة التي سوف يجعلها تشتعل بالمصابيح الكهربائية ، يتوقف الى جانب أحد الاعمدة ويغتاظ لأن مصباح العمود منطفىء . يدير رأسه يمنة ويسرة ويرى الشام قد عادت تضيء ، ثم يتابع مشيه أسرع ، لكن تورا يستوقفه ، فيصغي الى خرير الماء ويتنّسم الشتاء الوشيك ، ويبدو له ان النهر شرع يصخب ، ويمسح من على صدره الضيق والتعب ، فينطلق منشرحاً يثني على نفسه لأنه آثر ان يمشي بلا عربة ولا سيارة ، فلولا ذلك لما كان بوسعه ان يملأ عينيه من الشام ، الشام المقدسة ، الشام المباركة ، الشام التي استفاق عشقها في قلبه ، الشام الوحيدة الباقية ، ترمي خلف ظهرها كل الذين مروا من هنا ، من النمرود حتى آخر عسكري تركي ، انها شام الباشا شكيم ، جعل الله سبحانه وتعالى لها الغوطة ، والنهر ، ونصرها على كل الذين ظلموا، وجعل منها جنته ، ولذلك لم يدخلها محمد عليه الصلاة والسلام كما يحدث المفتي ، فالمرء لايدخل الجنة مرتين ، والباشا يردد حديث المفتي كلما استفاق عشق الشام في قلبه ، ويضحك لأن مقيماً في الشام إذن لن يدخل الجنة ولكن ضحكه يعزز ايمانه ويلهب عشقه . ألم يجعل النبي عليه الصلاة والسلام الشام رابعة مدائن الجنة ، بعد مكة والمدينة وبيت المقدس ، كما جعل من ارمينية وقسطنطينية وانطاكية وصنعاء مدائن النار ؟

كان الطريق النازل يضاعف من سرعة مشيه وهو غافل ، يفكر في الاسكندر الذي خلف غلامه في الشام ، ابراهيم الخليل عليه السلام ، خلف فيها هو الآخر غلامه ، معاوية رضي الله عنه جاء اليها من الحجاز ، وهذا الامير بعد مئات السنين ، يأتي هو الآخر من هناك ، فلماذا لا يجعل لها نهرا يحمل اسمه ، كما فعل ابن معاوية ، فكان نهر يزيد ، او كما فعل السابقون السابقون ؟

توقف منذهلاً بما فكر، وهم بالعودة الى الأمير ، لكنه تراخى ، فالأمير الآن قد غطّ في النوم ، والباشا يخشى أن تطير الفكرة منه ، فما أكثر الأفكار التي تتقد في رأسه ثم تضيع !

كان قد حاذى المستشفى الايطالي الذي لازال ينتظر من ينجزه ، بعد أن أوقفت الحرب الشغل فيه . تلفت صوب الجادة، حيث المدرسة الايطالية التي افتتحت قبيل الحرب مع الدير والكنيسة ، واغتمَّ لأن الطليان يريدون ايضا أن يكون لهم في الشام مسمار جحا . أطلق زفرة حرّى لأن مسامير جحا تتكاثر في الشام هذه الأيام .

تذكر لقاءه الخاطف بالامس مع سليم افندي بعد انقطاع غير قصير ، وحسده على راحة باله . كان سليم افندي يكاد يصيح ، كما لم يره الباشا حتى في السكر :

ـ الآن بدأ تاريخ هذه البلاد . .

فغصّ الباشا الذي كان في طريقه الى القصر وقال :

ـ اخشى أنه بدأ في رؤوسهم من قبل .

تساءل سليم افندي بسذاجة :

ـ ومن يكونون ؟

ـ الانكليز والفرنسيون ، اليهود . . وربما سواهم .

عدد الباشا ، فقال سليم افندي ساخراً :

ـ ماشاء الله !

كان الباشا على عجل ، فمد كفه مودعا وهو يقول :

ـ من عشرات السنين يفكرون فينا ويهيئون لنا . أرجو أن أكون مخطئا .

لم تكن حماسة الباشا ولا دأبه يخلوان من لحظات تشويش ، خاصة حين يبلغ به الإرهاق مداه في آخر الليل . لكنه الآن ـ ربما للمرة الاولى في ايامه الاخيرة ـ يؤوب الى بيته صافي النفس، يغذ خطاه في الصالحية، وقد قطع عرنوس مثل الحصان ، يود لو أنه لم يضرب بالامس موعدا لسليم افندي في الاوتيل ، لكان وصل الى البيت قبل أن تنام الست زهرة ، لكن سليم افندي ألح ، والباشا أيضا مشوق الى صديقه ، ولذا فقد انحرف قليلا ، ليغرق في الظلال الكثيفة ، يلاحق ومضات أنوار المصابيح بينها، كأنها أشعة القمر خلل بستان الحرزة ، وسرعان ماتجاوز أطلال سينما جناق قلعة ، ضاحكا من جمال باشا الذي افتتحها حين كانت الهزائم تتتالى . ومن السينما توجه صوب الخستخانة ، فهمهم مكبراً ابراهيم باشا الذي شيد هذا المستشفى العسكري ، وذاق الامرين هو الآخر جراء مسامير جحا ، على الرغم من انها كانت لاتزال صغيرة ومحدودة . وحين أطلّ على جسر فكتوريا من علٍ ، أرعشته الانوار المترقرقة فوق صفحة

النهر ، فلبث هنيهة يصعّد بصره حتى السماء التي عبقت بنثار النجوم ، وتمنى لو أن بوسعه ان يكون ثمة ، يضيء للشام ويزينها ويحميها .

قرب مدخل الاوتيل التقى بسليم افندي الذي بادره :

ـ والله كنت يئست من حضورك . كنت راجعا .

ـ لايزال الليل في أوله .

ـ قل انتصف .

ـ حسنا . الغائب عذره معه . جئت مشياً والمشوار بعيد . هيا بنا . .

ـ دعنا من الاوتيل . طلعت روحي خلال هاتين الساعتين ، أحباب قلبك مرابطون هناك ؟

ـ من منهم ؟ أحباب قلبي كثيرون كما تعرف ، وسليم افندي أولهم .

ـ لا ياباشا . أنت تعرف من أعني . الفريق فريق ، والباشا ـ اعذرني ـ باشا مارأيك في مشوار على ضفة النهر؟

ـ المشي هدني . شخنا ياسليم افندي .

ـ دعك من ذلك . . لازلنا شبابا . . وحقّ . .

ـ لاتقسم لاتقسم . . هيا بنا . .

قاطعه الباشا وهو يستدير باتجاه التكية جاذبا ذراعه ، وأردف :

ـ أنا أيضا اريد ان نكون وحدنا ، هه . قل لي . كيف رأيتهم ؟

وأشار بعينيه صوب الاوتيل . قال سليم افندي ساخطا :

ـ واحد يلوي الكلام كيفما دار حتى ينوه بفضل أبيه على كل من قال للاتراك لا ، وأنت أدرى بهذا الفضل . كمشة ذهب لهذه الجمعية وكمشة ذهب لتلك . .

ـ الفضل لاينكر مهما كان صغيرا . .

ـ طيب ، ولكن المنّة مقيتة . نهى الله سبحانه وتعالى عنها . هذا اللعب على من ؟ كله تمهيد لغرض في نفس يعقوب . انا لا اعرف الرجل جيدا، ولكن هذه ذقني إذا لم تكن عينه تلعب على القصر .

واشارت ذراعه الى الجسر .

ـ كان الله في عون هذا القصر . ماذا يستطيع أن يحمل ؟ وغير هذا ياسليم افندي ؟

ـ والآخر سعيد بمنصبه العتيد . لسانه يلهج بالانكليز ، والثالث يلوي حنكه ويفيض بالشراكسة أولاً ، قومه ، ثم الانكليز ثم الفرنسيين .

ـ وكل يفعل لغرض في نفس يعقوب ، اليس كذلك ؟

ـ هل تسخر ؟ نعم ياباشا ، ولكن بعضهم يفعل بدهاء ، بعضهم بوقاحة ، بعضهم بغباء .

كانا قد خلفا الجسر وخازوقه المندفع فوق الحاجز الشبكي المقوس ، وقد فاض المكان بفوح الجنائن ، على يمين الطريق شبه الخالي ، وأمامهما ظهر المرج ، وقد انعكست فوق خضرته صفرة المصابيح ، فزادت من بهاء المكان وجلاله . ورأى الباشا ساقيه تنجذبان الى المرج ، فلم يقاوم . تربع فجأة فوق الحشيش ، وشد ذراع سليم افندي بحرارة ، معابثاً .

ـ تعال اجلس هنا ودعك منهم . مليح تكون لنا مثل هذه الفرصة حتى نجلس هكذا !!

تربع سليم افندي مواجها للباشا ، مطلقا عينيه من مبنى الدفتر دار حتى الجبخانة ، وقد نسي ماكان بصدده . كانت أنفاسه تضطرب عاجزة عن الوفاء بما يجتاحه ، فراح يعابث العشب والتراب بحنق وصوته يكاد يختنق :

ـ احيانا يخيل لي ياباشا أن الزمن لم يكن كافيا . عشر سنوات تفصل فقط بيننا وبين أول خطوة بدأها واحد اثنان عشرة ، والآن انظر : أين كنا وأين صرنا ؟ قلت لك من قبل ولا أشبع من القول : أخشى أن يكون الأمر خرج من يدنا، ونحن ما لحقنا نضعها عليه . أنت نفسك تقول مثل هذا الكلام . هل تفهمني ؟

ران الصمت على الرجلين ، خلل حفيف الأشجار المندغم بصوت النهر ، وزادت برودة الهواء والحشيش ، أو أن العجز عن الكلام هو الذي زادها ، وجعل الباشا ينهض ، وسليم افندي يلحق به متمتما :

ـ أهذا ماكنا ننتظره من مثل هذه الخلوة ؟

قال الباشا مواسيا والنسيم يداعب شرابة طربوشة :

ـ لابأس ياسليم افندي . لن نترك الشواغل تلهينا عن بعضنا هكذا . الا توصلني الى البيت ؟ التعب هجم عليّ دفعة واحدة ، قلت لك شخنا .

قال سليم أفندي بقنوط :

ـ خوفي نشيخ قبل الأوان .

قال الباشا منغماً صوته :
ـ ربما كنا شببنا قبل الأوان والآن علينا أن ندفع الثمن .
ثم التفت الى صاحبه :
ـ أين من كان يدعي قبل قليل الفتوّة ؟

★ ★ ★

ظلت لقاءات سليم افندي والباشا شكيم متباعدة حتى سافر الامير الى اوروبا . كان سليم افندي قد أصلح قبيل ذلك بين الباشا وحميه الساخط من انغماس صهره في القصر. كان صوت امير الحج يعلو في ذلك الوقت المتأخر من الليل ، في بيت صهره ، والست زهرة تنقل بتؤدة وهدوء عينيها بين أبيها وزوجها وسليم أفندي :

ـ يوم كنا نقول لكم احذروا هذه الأفاعي كنتم طرشانا ، اللهم لاشماتة ، بماذا يشمت الانسان اذا كان الكماليون هناك . . ماذا أقول ؟ أعوذ بالله من شرّ الشيطان الرجيم . أنتم هنا والكماليون هناك ؟ عمرت الشام ورجع للاسلام عزّه . أنا لا أرضى لمن كان مثلك أن يصير ممسحة .

واتجه الى ابنته :

ـ كيف تسكتين على هذا ؟ كيف ترضين لزوجك هذا ؟

وعاد الى الباشا :

ـ لو غفرت كل شيء فلا أستطيع أن أغفر هذا . الباشا شكيم الذي يرفع أنفه حتى رأس قاسيون ماذا يعمل ؟ ماذا يهمني إذا كان الأمير يستشيرك هنا أو . . لماذا لايكون ذلك رسميا ؟ كم مرة سألتك وأنت تتزهد ؟ تتزهد أم أن حصتك هي هذه اللقمة من مناسف الأمير؟ ياحسرة . الأمير مثلك ، كلكم مثل بعض : لعبة في يد الانكليز ، كل واحد على قدره ، الجنرال بمقدار والمستر بيجيت نفسه بمقدار . وغدا أو بعد غد يروح الانكليز ويجيء الفرنسيون، ماذا ستفعل وماذا سيفعل الأمير اذا جاءوا ؟

كان صوت امير الحج قد أخذ يملأ المجالس بمثل ذلك ، أعلى فأعلى ، لايوفر أحدا، حتى صهره . بيد أن سليم أفندي أفلح في المصالحة ، ولعل ماساعده على ذلك حضور الست زهرة، ومافعل في نفسه وفي أبيها ، صمتها وهدؤها ، كذلك ماكان قد أخذ ينغّص على الباشا دوره المجهول المعلوم في القصر ، حتى اذا سافر الامير الى

أوروبا ، وطالت غيبته ، قلّ تردد الباشا على القصر ، وصار يمضي وقتاً أطول مع الست زهرة ، أو في غرفته ، وحيداً أو بصحبة سليم أفندي .

هذا المساء أرسل عبد الودود خلف سليم أفندي اثر اجتماع صاخب امتد من الضحى حتى العصر في ردهة أوتيل الشرق ، وضمّ لفيفا من الأصدقاء القدامى والجدد الذين تآلف بعضهم في اجتماعات أخرى ، في الشام أو استنبول أو بيروت ، قبل رحيل الاتراك ، وفي حرزٍ من أعين رجال الخفية . كما تآلف بعضهم بعد رحيل الاتراك ، بفضل ردهات الاوتيلات والسراي والقصر ـ والبيوت أحيانا ـ غير أنّ هذا التآلف بات محكوما بما خلقت بين اولاء ـ وسريعا جداً ـ المناصب او الميول من نفور او تعارض او تحالف .

ولسبب ما كان الباشا شكيم مستفّزا في اجتماع اليوم منذ الصباح ، اذ جاء صوته أعلى من العهد به واقسى ، وقد كان اول المتكلمين بعد ابن الأكاشي الذي دعا الى الاجتماع :

ـ انا ضد رفع الضريبة على الأغنام والجمال . . .

فقاطعه ابن الأكاشي كأنما يتحدى :

ـ هذا فهمناه من قبل . مارأيكم اذن في رفع الضريبة، ليس على الجمال والأغنام وحدها ، بل على العقارات المؤجرة أيضا ؟

قال رضا بك :

ـ ولماذا العقارات المؤجرة وحدها ؟ لماذا ليست كافة العقارات ؟ المؤجرة او المملوكة ؟

ـ قال عارف بك :

ـ أنتم تفتحون ابوابا مغلقة . أنا ضد أية ضريبة جديدة ، ضد رفع أية ضريبة . أما اذا لم يكن من ذلك بد فلنبدأ بالأنعام ، ولكن ليس كما يقال : ثلاثة أمثال أو اربعة ، هذا كثير . لنقل خمسين بالمائة ، وهذا أيضا كثير .

قال الباشا شكيم كأنما يرد على تحدي ابن الأكاشي ، وإنْ كان يتحاشى النظر اليه :

ـ الجمال والأغنام والأنعام وحدها ، لا . العقارات المؤجرة والمملوكة مثلها مثل سواها ، نعم ، لافرق عندي . ثلاثة أرباع الشام ستتضرر لو رفعتم ضريبة الأغنام والجمال . نحن نستطيع أن نتحمل . ارفعوها على العقارات مثلين أو ثلاثة ، لافرق عندي . لماذا لانتحمل بدلا من أن نرمي الحمل على غيرنا ؟

لم يعد الباشا يذكر بدقة كيف تواطأ المجتمعون على أن ترفع ضريبة العقارات بنسبة محدودة مقابل رفعها على الأنعام بنسبة مضاعفة . وماداموا قد قرروا ، وهو منهم ، فسوف يصدر الحاكم العسكري أو سواه ماينفذ القرار ، وهو مااستقّر عليه منذ الايام الاولى للحكم شكل تهيئة أغلب القرارات الهامة . ولئن كان ذلك يسعد الباشا شكيم في البداية ، اذ يؤكد له ولسواه أن تلك القلة المجهولة من أعضاء الجمعية ، القلة المؤسسة بالاحرى ، هي التي تمسك بالزمام ، الا أن التوزع الذي أخذ يباعد أو يقرب تلك القلة ، والتداخل بين ماتفعل ومايفعل القصر والسراي ، وماكان ذلك يجرّ من فوضى ويزيد أو يحرم من مكاسب ، ويعلي أو يخفض من شأن ، كل ذلك جعل الباشا شكيم وسواه يتساءل عما ان كان هذا الاسلوب السري الذي تدار به الامور هو الاسلوب الصحيح أو الوحيد ؟

ربما أرخى الجباه المقطبة وشى بالصفاء في اجتماع اليوم ذلك التواطؤ على قرار رفع الضرائب ، الا أن ابن الأكاشي مالبث ان كرر ماأوضح في الاجتماعات الأخرى - الأضيق أو الأوسع من اجتماع اليوم - من خشيته أن يستطيع متابعة العمل في الجمعية على هذا النحو ، مادام أحد لم يعد يحترم السرية ، ومادام المغادرون للجمعية كما المتنسبون الجدد ، يتكاثرون . وألح على الدعوى المتعاظمة لتحويلها الى حزب علني .

حاول الباشا أن يستميل الآخرين ، خاصة رضا بك وعارف بك ، الى ماانتهى اليه تأمله في مصير الجمعية ، منذ أسابيع ، وماكان ذلك سوى حل وسط ، يبقي على امتياز الاقلية المؤسسة وعلى السرية ، ويعلن في الآن نفسه حزباً ، واجهة بالأحرى ، كما استنتج ساخراً ابن الأكاشي . وقد جعلت معارضة ابن الاكاشي المماحكة والساخرة الباشا شكيم أكبر استفزازاً منه في بداية الاجتماع ، حتى ألفى نفسه أخيراً ينهض مشنّعاً على الحاضرين والغائبين مايفكرون به ومايمارسون ، وأقسم أنه قرف من كل مايجري ، من مفاوضات الاستقلال في باريس الى هذا الذي يدور في ردهة أوتيل الشرق . ونهض ابن الأكاشي يسبق الى الانسحاب ، فأجلسه رضا بك ، فيما دعا أحدهم الباشا الى الجلوس ، وكان جليا أن الآخرين أقرب الى ابن الأكاشي منه ، وإنْ لم يجهروا . واقترح عارف بك ان يؤجلوا الاجتماع وينصرفوا الى لعب الورق ، لعلّ التوتر يزول ، لكن الباشا حياهم على عجل وانصرف .

في البيت تفاقمت حاجته الى من يبثه مابه ، وكانت الست زهرة في زيارة لأبيها . أما سليم أفندي فقد تأخر في الحضور . واذ وصل بادر الباشا - ربما قبل أن يجلس -

بدعوى الإعانات التي وزعتها الحكومة على المنكوبين والمعوزين ، فتجاهل الباشا ذلك ، وأخذ يتململ مؤملا أن يفسح له صديقه . بيد أن سليم افندي استغرق في تفاصيل مادفعت جمعية الصليب الاحمر الامريكية ، وعاد الى مادفعت قوات الحلفاء، وكان الباشا يعرف مثله ـ وربما اكثر منه ـ كيف تدبر الاعانات ، وكيف توزع ، ومن يحابي ومن يحرم ومن يظن أنه يختلس . وتذكر لهفة حميه على البيوت التي يعاد بناؤها ، والآلات والبذار مما جمعت الإعانات ، ولأنه كان يمقت ذلك ـ فضلا عما هو فيه ـ أصم عما استرسل فيه صديقه حتى اذا كرر سليم أفندي أقوى ماهمس به أمس أو قبله ، من معاتبة الباشا على أنه يترك كل ذلك يمضي ، دون أن ييسّر لنفسه ولا لصديقه نفعاً، لم يستطع أن يكتم غيظه ، فبدل جلسته وقطب ، وتماثل له الحاكم العسكري وابن الأكاشي ، وخرج صوته جافا :

ـ أبو علاء . .

فأسرع سليم أفندي يقول :

ـ قلت لك سابقا وأعيد الآن : الإعانات شغل ، شغل ياباشا ، شغل ، انساني ووطني واداري ، وتجاري أيضا . وأنت سيد العارفين . واذا كنت مشغولا عن ذلك ، أو عازفاً عنه ، فليس هذا شأن الجميع ، وأنا واحد من الناس .

قال الباشا غاضبا .

ـ تريد ان يقول الناس فينا مايقولونه في الآخرين ؟

تراجع سليم أفندي مخيباً وقال بعد صمت قصير :

ـ هل هذا مافهمته مني ياباشا ؟ بعد عشرة عمر لايفهم واحدنا على الأخر ؟

تراخى الباشا وخشي أن يجعله عكره يغضب صديقه ، كما لعله نفّر بعضهم في اجتماع الاوتيل، فاقترح ألا يخوضا في الإعانات . وتساءل عما يلوكه الناس من أمر الذهب الذي يهرب الى الخارج ، فراح سليم افندي يفصلّ فيما يدور عن مبادلات الذهب الحامية بالجنيهِ المصري والروبيه الهندي وسواهما ، وعادت اليه حماسته رويدا ، فاستطرد الى المبالغ التي يدفعها الانكليز كل شهر من أجل تسيير الادارة، ثم تاه لسانه كيفما اتفق ، من اللجنة الزراعية التي ربطها الحاكم العسكري به ، الى قروض المصرف الزراعي ، الى سواهما ، حتى اذا وصل الى الشركة الزراعية التي قامت في حلب ، والباشا مصغ على مضض ، بدا كأن كل ماساقه منذ وصوله تمهيد ، إذْ غرق في دقائق ماتشتري الشركة أو تستأجر من الاراضي والبساتين والقرى وماتستورد من الالات

والأسمدة ، وكرر سليم أفندي أن هذه الشركة استأثرت باهتمامه ، وأعلن أنها كانت سرّ سفره الاسبوع الماضي الى حلب . ففيها ماكان يتلمسّه منذ بدأ يزهد فيما يسود البلاد من تجارة وزراعة ، فيها ماكان يتلمسّه لنفسه وللشام ، وتساءل :

ـ ماقولك في شركة مماثلة هاهنا ؟ لقد سبقونا ياباشا .

أمعن الباشا في صديقه مشفقاً :

ـ ماذا تنتظر ؟

ـ أنتظرك ياباشا .

ـ لكنني لا أفكر بذلك .

جاءت كلمات الباشا كسلى باردة ، فتراجع سليم أفندي ، وأردف الباشا مداعباً :

ـ هل تأكدت أن ليس لأحد يد في هذه الشركة ؟ ذكرتني بأيام بيع وشراء الأراضي في الغوطة . إياك أن تقع في حبائل اليهود ياسليم أفندي .

ـ ماذا تعني ياباشا ؟

ـ لا شيء . الحذر واجب . هذه مشاريع كبيرة وليست لعبا ، ليست بستانا في الحرزة ولا دكانا في الميدان . قل لي : لماذا لم تفكر في شركة قدسي واخوانه ، وهي هنا الى جانبك ؟ لماذا رحت بعيدا ؟ هذه شركة جديدة أيضا ، ولكن لاستيراد السيارات والتراكتورات والمضخات وسواها مما يلزم للزراعة ولغير الزراعة .

فرك سليم أفندي ذقنه وقال كأنما يخاطب نفسه :

ـ هذه شركة استيراد . أنا لا أفكر في هذا فقط . ربما استهواني مثال الشركة الحلبية لهذا السبب . أنا أفكر في أن نزرع ، أن نزرع بأنفسنا مثلما يزرعون هناك .

بودّ ، ولكن بحزم أيضا ، عقب الباشا بعد قليل :

ـ فكر كما تشاء ياسليم أفندي . فكر على مهل . وأنت على هذا النحو تفكر جيدا . حبذا لو كان الآخرون يفكرون في أمر البلاد مثلك . اذا كنت تسألني عن مشروع لك . .

ـ لنا ياباشا . .

اسرع سليم أفندي مقاطعاً ، فتريث الباشا قبل أن يتابع .

ـ حسنا . حين تفكر بمشروع يخصّنا معاً عليك أن تزيح أفكارك الأخرى جانباً . بعضها على الأقل . هل فهمت ؟ دعني أسألك : أي من الشركتين اللتين أمامنا الآن ، الزراعية الحلبية أم القدسي ، يمكن أن تحقق ربحا اكبر وأسرع ؟ أيها يمكن أن تستقرّ

ويمكن أن تكبر؟ سل مجرباً ولا تسلْ خبيراً . والتجربة والخبرة بلا غرور عندي . شركة القدسي تتخصص باستيراد أنواع من الآلات تحتاجها البلاد ، أما الشركة التي تعجبك فتشتري وتستأجر وتستورد وتزرع وماذا أيضا ؟ التخصص أولا ياسليم أفندي . وفضلا عن التخصص انتبه الى المخاطر التي تحيق بمثل الشركة التي تعجبك في هذه الايام خاصة . دعهم يجربون . أرجو لهم النجاح . الشام كبيرة وتحتاج الى مشاريع لاحصر لها ، ولكل مصلحته واختياره .

★ ★ ★

لم يكن سليم أفندي بحاجة الى استطراد أكبر من الباشا . لقد فكر هو أيضا في شيء من ذلك : التخصص ، والزمن أيضا . لقد كانا الدرس الاول الذي ثقفه بعد رحلته الى برلين . وهو لايماري في فضل الباشا عليه ، في هذا الدرس وفي سواه . لكن الدروس ظلت نظراً . الباشا ، كما عرفه سليم أفندي منذ سنين ، يجّسد بعض تلك الدروس ، أما هو ، فلا يعرف كيف يمايز بين أحلامه وبين السوق ، بين مايخصّه وبين مايريد للشام . ولما غادر بيت الباشا متأخراً، طفق يفكر طوال الطريق في أنه لن يكون قادراً على أن يجاري الباشا في هذا الفصل الدقيق بين الأمور . لقد أفاض الباشا من بعد في حديثه عن البنوك التي تتأسس في شتى مدن الشام ، ومن البنوك انتقل الى حديث الأسهم في الشركات الانكليزية والفرنسية، وصارح سليم أفندي بأنه قد آثر أن يشتري في الآونة الاخيرة في شركة أمريكية ، على الرغم من انشغاله ، وعلى الرغم من معارضة لميعة والمستر بيجيت . كان سليم أفندي صامتاً ، يتفرج على الباشا وهو يحضه على ان يحذو حذوه ، كأنه يحض شخصا آخر غريبا . كان قد غدا هو المتعب ، لا الباشا ، ونهض يشفق على نفسه ـ لا على الباشا ـ من الإرهاق .

ومنذ الصباح أخذ يتابع أخبار الشركة الدمشقية التي تعجب الباشا ، دون أن ينسى الشركة الحلبية . وفي الآن نفسه ، انشغل بما يجري من أجل تشغيل معمل الزجاج بعد توقفه كل هذه السنين. وكان الانكليز قد حولوه الى كراج يصلحون فيه أعطال آلياتهم . ويوما بعد يوم ، مشروعا بعد مشروع ، أخذت حماسته تتناثر هنا ، ثم هناك ، وتتراخى هنا ، ثم هناك ، فنسي الشركة الحلبية والشركة الدمشقية ومعمل الزجاج ليغرق في سواها ، وكان في كل مرة يحسّ أن هذا مايريده ، هذا مايجعله ينزع عما تبقى من شامه

الصغيرة ثوبها العتيق ، ليجعل لها ثوبا جديدا ، لايستورده فقط كما يريد الباشا وكثيرون سواه ، فمن معمل للسجاد ، الى آخر للصابون ، الى ثالث للجوارب . . . ولكن هذا الذي يتكاثر بعد الحرب كانت الشام تعج به قبلها ، وليس تعطيل العديد منها خلال الحرب أو تشغيلها ثانية أو تجديدها مما يطمح اليه أو يهجس به . كان انقضاء الوقت وهو على هذه الحال يبث في نفسه الضجر والقلق ، فقد طال به التقلب ولما يستقّر على رأي ، والآخرون يسبقون ويسبقون ، ولعله لذلك وجد نفسه ذات صباح يدخل في مناقصة علنية لإحضار المواد التي يتطلبها تعمير بعض الجسور ، واصلاح بعض مقاطع سكة القطار ، مما دمرته الحرب .

لم يصدق سليم أفندي أنه قد ظفر بالمناقصة ، ولعله كان لايريد هذا الظفر . فهو لايكاد يعرف من أمر الجسور والسكك الحديدية شيئا . كان أول مافكر فيه أنه انزلق خارج الدكان والحرزة . كانت شفتاه لاتكادان تنفرجان وهو يرد على تهنئة منافسيه ، وكان بعضهم يهمس في اذنه :

ـ كيف عرضت هذا السعر المتدني جدا ؟ كنت تقدر ان تفوز بالمناقصة بسعر افضل . أسأل الله أن يعينك . المهم ألاّ تجد نفسك مضطرا لأن تدفع من جيبك .

كما كان آخرون يخاطبونه بصوت مدّوٍ :

ـ ضربة معلم ياسليم أفندي . نحن نعرف أنك لاتبحث عن الربح هذه المرة . ولكن هكذا يفعل حقا من يريد أن يضع قدمه جيدا على أول الطريق .

وفجأة يغدو الصوت المدوي فحيحاً في الأذن :

ـ هنيئاً ياسليم أفندي . غداً تنهال عليك العقود بلا مناقصة ولا سواها . لاعلنا ولا سرا . أفضل العقود عقود التراضي . عشرات المشاريع تنتظر الحكومة . مشاريع لايستطيع ان ينهض بها مائة . سوف تترك لنا بعض الفتات ياسليم أفندي .

بيد أن أولاء كانوا في واد وسليم في واد . كان حائرا حتى البله فيم يقولون . ولكن ماإنْ خلا بنفسه حتى أخذ يفكر في غيرة بعضهم ، زيفه ، سخفه ، خاصة من غمز منهم مشيراً الى الباشا شكيم ، وغاظه أن يتكاثر الذين يربطون بينه وبين الباشا شكيم في كل أمر . ولم تكن الاشارات الى ذلك لتفوته ، في أوتيل الشرق أو اوتيل فكتوريا أو السراي أو قصر الجسر أو على لسان أمير الحج نفسه . غير أن تلك الاشارات كانت بعيدة عن أية مصلحة بنه وبين الباشا ، حتى الحرزة لم يلمح اليها أحد ، أما الآن فقد تبدأ الألسن لوكاً جديداً ، سيكون موجعاً له وللباشا .

لم يتأخر هذا الذي فطن اليه سليم أفندي مبكرا، وخشيه . ولم يكن ليبعث فيه الحنق وحسب ، بل الألم أيضا . فقد خاض المناقصة دون ان يفاتح بها الباشا ، ولكن من يصدق ؟ سليم أفندي يحب الباشا حقا ، لكنه ليس تابعا له ولا متنفعا منه . سليم أفندي يريد في هذه الايام خاصة، ان يكون هو هو ، فكيف يسعه أن يجعل الاخرين يدركون مايميزه عن الباشا شكيم ، وغير الباشا شكيم ؟

أخذ يكثر من خلواته بنفسه في البيت ، وأم علاء سعيدة بذلك ، على الرغم من قلقها الذي لاتجرؤ ان تجهر به . كان يعود مبكرا ، يتناول العشاء ، يداعب البنات وعلاء قليلا ، يوصيها أن تنكر أنه في البيت إنْ طرق الباب طارق ، ثم يأوي الى غرفة النوم ، يقلب في صحيفة أو يطلب الشاي . وفيما تكون هي منصرفة الى الأولاد والمطبخ ، كان يقرع نفسه لأنها أفسحت للاخرين في أن يروه ظلا للباشا شكيم أو صدىً . لقد كان ينشد فيه يوماً ما سنداً ، والناس لايخفى عن عيونها شيء ، وماخفي عن نظرها تشم رائحته . كان يتلمّس قراراً يتبلور في سريرته ، فسوف يؤكد للناس وللباشا ولنفسه أنه يعرف كيف يحب ، وكيف يستقل ، وكيف يشق وحده دربه الجديد خارج الحرزة والدكان . ومن أجل ذلك انقطع عن الباشا وعن المجالس المسائية ، وراح يقضي نهاره بين ماتقتضي أشغال المناقصة والدكان ، ويدفع بعمر التكلي الى كثير من الامور التي يفترض أن ينجزها بنفسه . وكان نجاح عمر السريع في ذلك يسعده ، بل يزين له قراره وينضجه ، الا أن الباشا أرسل العربجي عبد الودود أول مرة منذ أسبوعين ، وفي الاسبوع الماضي أرسله ثانية ، وفي صبيحة هذه الجمعة كانت المرة الثالثة ، فلم يعد سليم أفندي قادرا على أن يتخفى أو يتهرب ، خاصة أن الباشا يدعوه الى الغداء .

يبدو أن الباشا تعمد ألاّ يشاركهما الغداء أحد . كان سليم أفندي قد حضر متأخرا ، بعد الصلاة في جامع الدقاق الذي لم يدخله منذ فترة طويلة ، وقد امتدّ الغداء حتى العصر .

كان عمر التكلي قد حدث سليم أفندي عن موافقة الباشا على خطوبة العربجي عبد الودود لخديجة . وكانت خديجة تسعى بين يديهما قبل الغداء وبعده ، فالست زهرة تزور أباها منذ الصباح . ولعل حضور هذه الخادمة الصغيرة التي غدت أمرأة ستتزوج عما قريب ، قد خفف من توتر سليم أفندي ، الا أنه ظل يتجاهل أمر المناقصة ، وقد طال انتظار الباشا لأن يحدثه عنها ، خاصة بعد أن فرغا من حديث الحرزة، وأسرة الحاج، والعربة التي أودعها الباشا في المستودع، والعربجي الذي لم يعد له عمل عند الباشا .

وقبل ذلك وبعده خاضا فيما يدبر بين باريس ولندن من شؤون الشام ، وفي عزوف الباشا عن القصر والسراي مؤخراً ، وفي لقائه بالعم حاتم أبو راسين ورسائل المستر بيجيت . . كان كل منهما مشوقاً بطريقته للآخر ، يعوض في هذا اللقاء ماانقطع بينهما ، رغم قصره ، لكن اللقاء طال ، ولا زال الباشا ينتظر ، حتى اذا لاح أنّ سليم أفندي سوف يغادر ، عزم على أن يكون أكثر براعة ومكراً ، فتساءل :

ـ ماقولك في أن تدبر العربجي في أشغالك الجديدة ؟ شاب ذكي ونشيط وأمين وقد تعلم قيادة السيارة واصلاحها . أظنك بحاجة الى من تعتمد عليه في تلك الاشغال .

وسكت مركزاً عينيه في عيني سليم أفندي الذي فرك يديه وهمس :

ـ تعني أشغال المناقصة ؟

ـ الا اذ كنت تخفي غيرها عني أيضا ؟

قال الباشا بلهجة معاتبة ومؤنبة ، فاختلجت وجنتا سليم أفندي ، ولعلهما رسمتا ابتسامة واعتذاراً ، ثم تقلصتا ، ولعلهما رسمتا تحدياً . وأدرك الباشا أن عليه أن يكتفي ، مشفقاً على صديقه ، ضنيناً به ، فهو الآخر يحتاج الى سليم أفندي البسمة ، ليس من أجل الحرزة ، ولا من أجل سهرة أو سيران . لقد أثبت سليم أفندي أنه وفي وصادق ، وللمرء أن يعتمد عليه ، على الرغم من أنه يسعى كي يشق دربه منفردا . والباشا الذي فكر في ذلك كله قبل ان يلبي سليم أفندي دعوة الغداة ، ألوى بالحديث ، وأفاض في الصداقة والمصلحة ، وعرّض بالذين تعج بهم الشام هذه الايام ، ممن لايرعون صداقة ولامصلحة . وقد خففت نقلة الباشا مما اعترى سليم أفندي ، لكنه لم يكن قادرا على أن يجاريه في كلامه ، ولم يكن له أن يظل صامتا ، فاختار أن يعود الى مابتدأ به الباشا :

ـ أنت تنصحني بتشغيل العربجي ؟

تبسّم الباشا ولم يرد ، فأردف سليم أفندي بعسر :

ـ سبق أن نصحتني بابن الحاج ، بعمر ، ولن أنسى لك هذا الفضل . أفضالك غامرة ياباشا . . .

كان الباشا ينهض معلنا نهاية اللقاء ، وقد عرضت ابتسامته وهو يقول :

ـ هكذا يكون لديك عمر وصهره . أنا لم أجرب ابن التكلي . أنت على كل حال قد ربيته . أماعبد الودود فتربيتي ، وسوف نرى .

غادر سليم أفندي أكبر بهجة واطمئناناً ، ليس على مابينه وبين الباشا وحسب ، بل على أشغاله أيضا . سوف يكون بوسعه الآن أن يرسل عمر التكلي الى حلب وأضنة ، ويجربه في هذه المهمة الكبيرة والخطيرة التي اقترحها بنفسه ، ولم تكن تخطر لسليم أفندي على بال . وكانت مجموعة من الاولاد في رأس الجادة المقابلة تنشد :

أيها المولى العظيم   فخر كل العرب
ملكك الملك الفخيم   ملك جدك النبي
نحو هذا الملك سيروا   قبل فوت الزمن
وعلى الخصم أغيروا   لخلاص الوطن
أيها المولى العظيم

فاستسلم للقشعريرة التي كانت تعتريه كلما رأى التلاميذ يملأون الشوارع والجادات بالنشيد ، عصر كل خميس ، وهفا الى علاء الذي يردد النشيد في البيت طوال الوقت ، وأمه تنهر به . واختلط في سمع سليم أفندي هتاف الاولاد بأصداء المظاهرات التي صارت تملأ الشام ، وتحركت شفتاه منغمة، كما رأى المتظاهرين مرارا يفعلون :

دين محمد دين السيف

لكن الأسى عاجله ، اذ لاحت له السراي ، وتذكر أن الامير والحكومة ـ ربما كلها ـ لاتزال هناك ، بين باريس ولندن ، وتخيل الأمير باللباس الأوروبي، كما أكد الباشا، يتأبط ذراع هذا أو ذاك من أصدقائه الانكليز أو العرب ، وعزّ عليه أن يلقي الأمير أرضا بأول عقال عربي حاكم تراه أوروبا . وكان قد تجاوز السراي وانحرف يختصر الطريق ، فاذا بجمهرة اكبر من الأولاد تزاحمه وتهتف ، فأفسح لهم ، يخشى ان يكون واهماً ، وأن لاتكون الحرب قد انتهت ، والتلاميذ يتظاهرون من تلقاء أنفسهم ، بينما كان الجنود يدخلون المدارس تلك السنة ، بعد أن أعلنت الحرب ، يدفعون الصغار والكبار تحت الحراب ، كي يجوبوا الشوارع ويهتفوا ، وكانوا يفعلون .

★★★

10

كم تبدو لعمر التكلي طويلة هذه السنوات التي أمضاها في دكان سليم أفندي ! ربما كان يمكن له أن يمضي العمر كله في الدكان ، دون ان يفكر في سنوات طوال أو قصار ، لولا أن الدنيا من حوله تبدل جلدها منذ رحل الاتراك وجاء الانكليز والحجازيون ، كما يؤثر أن يردد أمام هولو كي يغيظه ، على الرغم من أنه كان لايذكر غير الانكليز والعرب في الدكان أو أمام أصحابه ، تقفياً لما يقول هولو نفسه .

حين عاد من الحرزة وحده ، وخلّف هولو في حضن حُسْن ، مصّماً عن دعاء الحاج والعجوز له بالتوفيق ، ظل مضطرباً حتى التقى أولاء الذين تعود ان يقضي معهم مؤخراً الأمسيات والسهرات ، يشربون ويتصايحون ويضحكون ، ويتشاجرون أيضا .

تلك السهرة كانت حاسمة ، مثلما كان حاسماً من بعد خروجه من الدكان الى أشغال سليم أفندي الجديدة .

فوجىء أصحابه به تلك العشية . بدوا كأنهم يخفون عنه سراً . تفاقم اضطرابه وثار في وجوههم وكاد الشجار أن يقع لولا طه اليتيم الذي زجر الآخرين قائلا :

ـ عمر على حق . قبل ان يحضر وأنا أقول لكم دعونا نبحث عنه ونشركه معنا .

واقترب من عمر :

ـ احلف ان تصون السرّ .

أقسم عمر مذهولاً ، يدور رأسه بالسؤال عما يمكن أن يكون لدى اولاء من أسرار ، ويدفعه الفضول الى أن يهزّ طه اليتيم :

ـ هات خلّصني .

تكأكأوا جميعا حول عُمر وطه الذي بالغ في الهمس والحزم :

ـ نسيت ما كنت اقوله عن السلاح المنهوب عندنا ؟

قال عمر نافذ الصبر :

ـ عندكم وعند غيركم . ما نسيت .

قال طه :

ـ اتصل بي أحدهم قبل أيام ، ونحن نعمل معا . نحن جميعا نعمل معا . وأنت واحد منا . .

شبّ عمر ثائراً ؟

ـ تعملون معا ؟ وأنتم جميعا ؟ وأنا أكون آخر من تفاتحه ياطه ؟ ماكنتم ستكتمون عني لولا أن دخلت الآن ؟ انتهزتم غيبتي ورحتم .

شد طه ذراع عمر وأعاده الى الدوشك معنفاً :

ـ لاترفع صوتك ، ولا تلعب بالكلام على هواك . أنت واحد منا والمسألة ماهي سكرة ولا تعريصة . انت تعمل عند سليم افندي وسليم افندي يده في زنّار السراي . على كل حال خيرا حصل ، والوقت لم يفت . بل العكس . جئت في الوقت المناسب . الآن جاءت الضربة الكبرى فأرنا همتك ، واحذر ياعمر التكلي : أنت أقسمت ، ومن يخون ويترك لسانه يطول أو يغره الطمع فإنه يلعب برأسه . هذا هو العهد بيننا . مظبوط يارجال ؟

ليالي مسهدة ومنهكة أمضى عمر بعد تلك السهرة التي لم تنقض حتى أذان الفجر . كان الأمر يبدو له لعباً حقا . إنه لعب بالرأس كما قال طه ، دون الحاجة الى الطمع أو طول اللسان . فالذين استولوا على سلاح الأتراك يسعون الى بيعه . والذين يخبئون السلاح قبل ذلك أيضا . أصدقاؤه ليسوا وحدهم من يتولى البيع . والبيع ليس اصطيادا لزبون وقبضا للذهب وحسب . إنه مجازفة بالسّر اذا لم يعلق الزبون بالصنارة . إنه تخفّ في الأزقة وحلكة الليالي ورواح ومجيء من سرغايا حتى الغوطة . إنه حمولة على الأكتاف ومصادفات . وعيون لايعرف المرء متى تدركه ، من الاستخبارات التي صارت للحكومة ، الى استخبارات الانكليز . والذهب فضلا عن ذلك عصيّ ونادر هذه الايام . وعمر يعرف ذلك مثلما يعرف أن من أشهروا السلاح في وجه الفرنسيين بعيداً ، ومن يستعدون لإشهاره . يجعلون من يبيع يعلق بصنارتهم هم ، وهم يرصدون ويجازفون ويتخفون ويحملون .

كان يفكر أحياناً في أن بيع السلاح مثل شرائه ، لافرق هنا بين البائع والشاري ، كل منهما رابح وخاسر في آن ، ولم يكن ذلك يروق له ، على العكس من البيع والشراء في الدكان ، الربح هناك ربح والخسارة خسارة ، البائع هو البائع والشاري هو الشاري .

غير أن تكاثر الليرات الذهبية في الوكر الذي اختاره بعناية داخل غرفته، أخذ يلهيه عن سهده وهواجسه. كانت الليرات في البداية تتكاثر في غفلة منه ، ولكن سرعان ماصحا وراح يبرع في ليله مثلما يبرع في نهاره ، وكان قد أخذ يقضي بعض النهار خارج الدكان ، حيث يقتضي انجاز المناقصة أن يذهب .

كانت المرة الاولى التي يغدو له فيها وحده مثل هذا المبلغ . فسليم افندي يعطيه كل حين مايكفيه ويزيد . وسليم افندي يعطي الحاج أيضاً من أجر عمر ، ولايفتأ يومىء بين عيد وعيد أنه يسجل لعمر في دفاتره استحقاقه ، دون ان يحدد ذلك ، فيغتبط عمر وينفلش ، ويلهج بالشكر والدعاء اكثر مما يفعل الحاج أو تفعل العجوز .

كان عمر قانعاً وهانئاً بعمله وحدوده الدنيا ، حتى فتح السلاح عينيه ، وأسال الذهب لعابه، فراح يجمع خيوطه الخاصة ، وكانت قد تباعدت وصغرت عمليات البيع والشراء . صار ينأى عن أصحابه ، متعللاً بأشغال سليم افندي التي لاترحم . وربما كان طه اليتيم يتلصص عليه حتى تيقن من ذلك ، مثلما كان هو يتلصص على طه وعلى الآخرين حتى تيقن من أنه لم يعد لديهم مايبيعون أو يعينون على بيعه .

وحده من دونهم بات يعرف أن من يريد المتاجرة بالسلاح ، فليس له أن يقوم بذلك هنا ، في الشام . السلاح هناك ، في أضنة ، في كيليكيا كلها . الألمان والاتراك والعرب والفرنسيون والانكليز جميعهم هناك . الأرمن هناك والتجار هناك ، وليس هناك استخبارات ولا طه اليتيم ولا هذا الذي أنحل عوده في الشام . هناك الذهب والفرصة التي لا تأتي كل يوم . وعمر غير مقتنع بأهلية أحد من أصحابه لذلك ، فمن أين لهم المال ؟ انهم لايصلحون سوى أن يكونوا أجراء ، في هذا العمل أو في سواه ، والأجراء هناك كثيرون ، فما حاجته الى طه اليتيم أو الى أمثاله ؟

قلب عمر السؤال عن البداية جيداً ، قبل أن يقرر أن يفاتح سليم افندي ، ثم تريث بعد أن قرر طويلا ، حتى امتلأ قناعة بأن ليس له أن يكتم عن سليم افندي ماقام به مع اصحابه أو ماينوي أن يقوم به وحده . لقد أطلق سليم افندي يده في الدكان وخارج الدكان ، فغدا حقاً سيد الاجراء الآخرين ، مثله مثل سليم افندي نفسه . ليس له اذن أن تغره تلك الحفنة من الليرات الصفراء التي كان يمكن ان تودي به .

صار عمر يفكر في أن سليم افندي هو الذي جعل منه هذا الرجل الذي يبذ المتعلمين ، هو الذي يسر له ان يدخل الشام ويعرف زواريبها ومقاهيها ومغنياتها وجوامعها . لولا سليم أفندي أنّى كان لعمر التكلي ان يشبع ويتزين ويعين الحاج ويسكر

ويدعو أصحابه الى الشكار ويجمع ويطرح الأرقام التي يصفر لها طه اليتيم غير مصدق ؟ لابد أن رجلا مثل سليم افندي لاتنطلي عليه محاولات عمر التكلي في كتمان حياته الشخصية ، ولكنه يحنو عليه ، كأنه ابنه حقاً . بل إن عمر كثيراً ماكان يرى في سليم افندي أباه ، وهو ليس بالولد العاق . ولذلك أخذ يتحيّن الفرصة كي يفاتح سليم أفندي الذي كان منشغلا دوما في السعي بين الميدان وحيّه القديم وأماكن أخرى ، يعرف عمر منها بيت الباشا والأوتيلات وربما القصر . وكانت الشام مربدّة ، تغلي بالأحرى ، واللغط يملؤها حول الفرنسيين والانكليز والاستقلال الضائع والمعاهدات ومصطفى كمال . ولم يكن عمر ليأبه بذلك كثيراً ، خاصة أنه غارق في الشغل ، لولا مافكر به من التلويح لسليم أفندي ، إنْ لم يبارك مانوى ويعاضده فيه . فالناس بحاجة عاجلاً أم آجلاً للسلاح . ألم تعد الشام تشكو مثلما كانت ؟ بل لعلها ستقاتل اكثر مما قاتلت ، وهكذا لن يكون ماينويه عمر طمعا بالذهب . أو أنه لن يكون كذلك فقط . هكذا قد يضع عمر يده في يد سليم افندي بدلاً من طه اليتيم ، ولذا عليه أن يصبر ، على الرغم من أن كل يوم ينقضي ليس غير خسارة أخرى .

★ ★ ★

في هذه الآونة كان عمر لايكاد يرى في الدكان. فبعد أن يفتحه صباحاً يسارع الى واحد من مواقع أشغال المناقصة ، موصياً جاره ريثما يحضر سليم افندي ، وقد لايعود حتى قبيل المغيب ، اذ يلتقي بسليم افندي ، على عجل ، لكنه عزم اخيرا على ان يعود مبكرا ، كي يتسنىّ له أن يتحدث مع سليم افندي على مهل ، وفكر في أن يفاجأه في البيت قريبا ، إنْ لم يتيسر الحديث في الدكان .

في المحاولة الاولى كان سليم افندي متجهما وعازفا عن الكلام . وفي المحاولة الثانية كان ثمة عدد من رجال الشاغور ، بينهم صهران لسليم افندي ، ولم ينصرفوا حتى صلاة المغرب . اما في المرة الثالثة فقد كان الدكان مشرعا برعاية الجار ، وسليم افندي غائب .

جلس عمر في موقعه المألوف ، وأخذ يقلب عينيه في الرؤوس التي تمرق أمام الدكان . كانت الرؤوس تطل عليه عجلى ، ومن كل لون . واحد بطربوش قصير ، وآخر بطربوش طويل ، واحد بقبعة وآخر بالبريم المقصب الرفيع، وسواه بالبريم

المقصب العريض . واحد عاري الرأس والآخر بالبريم المبروم والثالث بلا بريم والرابع بلبادة . أرخى رأسه الى الخلف مستمتعا، وبدأ يدقق فيمن يعبرون : هذه حطة بيضاء وتلك سوداء والثالثة حمراء ، وهذا رأس عار آخر ، مثل رأس عمر التكلي ، لم يعد يثير دهشةً ولا هزءاً ولا إنكاراً ولا عجباً .

تحت تلك الرؤوس والأشياء لاحت له أشكال وألوان وحركات ضاعفت فضوله ومتعته . لام نفسه لأنه لم يتفحصها من قبل . خيل اليه أنه يفعل الآن لأنه يودعها ، فقد تأخر كثيرا عن موعده المضروب ، وآن له ان يسافر . كانت تمرق أمامه القنابيز والجلابيب السابغة ، الدراعات بأكمامها العريضة ، العباءات التي لاتخفي ماتحتها كما تفعل الفروات السود ، الصداري والأزرار التي كانت تدهشه بخيوطها الحريرية المبرومة ، الأحزمة الجلدية التي تزنر هذه الخصور والبطون ويعرف ماتخبىء تحتها . . .

وكان بوسعه أن يقهقه عاليا لولا عين أبي ناظم في الدكان المقابل . فعمر يعرف أيضا مايخبىء هؤلاء البشر تحت جلدة الرأس . لقد اتقدت الآن بصيرته ، وتصادت في أذنيه حكمتهم الغبية ، وراح يتمتم في سره ماحفظ منهم من ايامه الاولى في الدكان : كلْ بالدين ، واشربْ بالدين ، وانْ إجا صاحب الحق اقلع له عينه . همهم محتقراً ، بل ساخراً ، وتباهى بما أنجز في هذا الدكان ، اذ حصل ديونا ميتة ، وضاعف البيع نقدا ، وأثار قلق سليم افندي ثم عجبه ، وتركه يردد حكمة عمر التكلي وهو يصفق كفا بكف : الغزالة الشاطرة بتغزل على دنب كلب ، وبدلا من قال العطار لابنه ، قال عمر لعمر : شوف الزبون واعطيه على شكلو ، فعمر ليس عطاراً ولا أباً ولا ابناً ، انه التاجر الشاطر كما يسميه أبو ناظم، وهو يكظم غيظه .

والينابيع الصغيرة التي تفجرت في نفس عمر عبر السنين الصعبة غدت الآن نهره الذي لايقوى على السباحة فيه أبو ناظم وامثاله ، ولا طه اليتيم وامثاله . انه النهر الذي يندفع من الميدان الى أضنة .

طالت غيبة سليم افندي ، ونغص الانتظار الممضّ تحت عين ابي ناظم لذاذة عمر بما تبصّر في نفسه وفي الناس ، فنهض عازما على أن يظفر بسليم افندي في بيته ، وفكر وهو يغلق الدكان في انها سوف تكون المرة الثانية التي يدخل فيها الى ذلك البيت الذي وقف امامه مئات المرات ، دون ان يدخل الا صبيحة حفل ختان علاء . كانت المهمة الكبيرة منوطة بعمر ، فعشرات المدعوين من كبار وصغار الناس سوف يستضيفهم سليم افندي . وحضر جوق العازفين والمطربين ، والقهوة الساخنة وكؤوس الشراب الملونة

الحلوة ، وتعالت الأدعية ، وانهالت السلاسل المذهبة والمخمّسات التي تبرق ـ عثمانية وانكليزية ـ مثل الشمس ، وحمل عمر الطفل ، لوح بطاقيته البيضاء وقنبازه الابيض ، وازدهى الحاج بابنه الذي يأمر وينهي في بيت سليم افندي . وأغدقت ام علاء الثناء على عمر ، وتباهى به سليم افندي أمام الحاضرين ، وأدار النجاح الباهر رأسه أياماً ، زوق له الدكان وماسيأتي من ايام ، كما زوق له ماانقضى من مقامه في الشام ، وأدرك انه قد امتحن من قبل مراراً ، ونجح مراراً ، وغمره الثناء مراراً ، وهو غير غافل ، الا انه منشغل دوما بإنجاز نجاح جديد ، كما هو الآن .

كانت حقا مفاجأة لسليم افندي الذي اخذ يفكر وعمر يحدثه بجرأة وثقة ، أن ذلك الفتى الغر قد كبر جداً في غفلة منه . صار ابن الحرزة رجلا يحسب له الحساب . سليم افندي نفسه لم يأت عشر هذا الذي يأتيه ابن التكلي ، حين كان في اول شبابه . بل هاهو بعد العمر الطويل وماكتنز من خبرة لايعلم الا النذر عن نهب الاسلحة وبيعها وشرائها . أما عمر التكلي فانه يقرن كل كلمة بالبرهان . واذا كانت التفاصيل غير هامة أو كافية ، فتلك هي الليرات الذهبية ، يقدمها عمر برهبة مضاعفة ، جعلت ضحكة سليم افندي أعرض ، وهو يعيد الليرات مباركاً ومؤازراً ومحذراً ، وفي الأيام التي تلت قبل أن يسافر عمر ، سعى سليم افندي قليلا خلف اخبار أضنة وكيليكيا والاتراك والثوار .

ركب عمر القطار لأول مرة في رحلة طويلة . لم تفارقه صورة هولو في الطريق . لعله كان بحاجة الى من يرافقه في سفره ويعضده . إنه ينزل في بلاد لايعرف فيها أحداً . يجهل شوارعها وخاناتها وفنادقها . هواؤها نفسه غير الهواء الذي ألفه في الغوطة او في الشام . كما أن جيوبه ملأى بما يكفي لتجعل أيا من هؤلاء البشر يقتله ويفر بالذهب . انه لايعرف كيف ينام ، ولا ماذا يأكل ، ولا كيف يتكلم مع الذين يرطنون بلغات أخرى ، لاينفعه معها ماحاول ان يحفظه مؤخرا من كلمات تركيه أو أرمنية .

ليس الخوف وحده مااعترى عمر التكلي . حزن خفي أيضا سكن دخيلته . غافله وراح ينغل فيها صوراً مبهمة ، أخذت تغزو صحوه ومنامه ، من كل ماعاش .

ردد في سره ماحفظه من العجوز وهو يغادر ـ وهولو يغادر ـ الحرزة : الغربة كربة ، والغريب لازم يكون اديب ، والغريب اعمى ولو كان بصير . ونشد العزاء فيما كان الحاج يسكت به العجوز : الغربة بتعلّم ، ولكنه خاف من أن يعجزه التعلم ، كما كان قبل الدكان . حاول أن يتذكر ماحفظ من القرآن صغيرا ، وزاد فيه كرمى للصلوات التي كان

يؤديها الى جانب سليم أفندي ، لكن الآيات جميعا ملصت منه ، فاستبد به الندم على ذلك الماضي الذي بات بعيدا جدا ، وخاف ان يضيع منه عمر الذي يعرفه ، أو يفلت منه ويتركه وحيدا ، فراح يحاصره بصورة تلو صورة ، ذكرى بعد ذكرى . جاء بمن آوتهم القبور الاربعة ، جاء بخديجة التي ستغدو زوجاً وأماً عما قريب ، جاء بطه اليتيم والاصحاب الذين يداعبونه ويتآمرون عليه كلما دعاهم الى شكار ، فيجعلونه يقسم أن الشكار على بياض ، ويقضي ليله بجانب صليحة وهو يتلوى . حاصر ذلك العمر الذي يوشك أن يطير منه بأدعية العجوز والحنين المنسي الى الحرزة ، وعاهد الله على ان يتوب توبة نصوحا ، ويلازم الجامع الاموي ، فلا يدع حفلا للذكر يفوته ، عزم على أن يحفظ المدائح النبوية . ولئن نجا مما رمى نفسه فيه بعيدا عن الشام ، وعاد سالما ، فسوف يحج الى بيت الله الحرام مشياً على الأقدام . سوف يصوم شهر رمضان ، يقرأ الأوراد قبل السحر ويشارك في الأذكار قبل الإفطار . بل إنه سيجزل للمسحراتي كل يوم ، وليس في العيد وحسب . سوف يقطع اللقمة عن نفسه ليوزع صدقة العيد ، ولن يعود يفطر سراً كعهده . وكان مايخاتل به النفس يورثه الأمان رويدا ، يجعله أقدر على أن يزدرد لقمة أو يبلع ريقا . حلا له أن يعود الى الحرزة . حين يؤوب من سفره ، ليستغفر العجوز والحاج والامام نفسه ، بل الامام خاصة ، ويجمع من تبقى من أقرانه ، ليلعبوا بالدحل أو بالغميضة ، ولن يغشّهم من بعد في اللعب . لن يصطنع شجارا أو يقهر أحدا ، لافي الحرزة ولا في سواها ، فقد آن لعمر التكلي أن يعقل ويدع طيش الشباب . وكان وهو يأنس الى ذلك يخرج أبعد من الشرنقة التي غزلها حول نفسه بعدما انطلق القطار ، وخلف وراءه الشام . كان يغدو أجرأ على أن يرى شيئاً مما حوله ، ويترك لسانه ينطق ، أو يترك أذنيه تصغيان ، بل وتعيان . ومالبث أن سيطر على عنائه ، فلا بد للمرء من أن يسمع ويتكلم ويأكل ويلاحظ وينهض من مقعده ، خاصة أن ماتنطح له لايحتمل ضعفاً ولا إخفاقاً . واذا كان ليس له في القطار مايأتيه، فيغرق اذن في شجونه ، الا أنه لايمكن ان يظل كذلك في حلب . واذا كان قصّر في حلب ، ولم يستطع أن يتقدم نحو هدفه ، فلا يمكن له أن يظل كذلك في أضنة .

كانت رائحة الحرب تفوح في كل ركن من تلك البلدة الصغيرة العجيبة . لاصوت للرصاص ولا للمدافع، ولكن الحرب جاثمة . بل إنه لم ير من الحرب في الشام مايبدو له هنا . وقد ضاعف ذلك من اضطرابه لأول وهلة ، غير أنه ساعده من بعد على أن ينسى نفسه قليلا ، ويفتح عينيه ، ويتحرك نحو ماجاء من اجله .

أولاء الألمان الذين كان يعجب ببزاتهم ومشيتهم في شوارع الشام ، قد مروا من هنا مذعورين راكضين ، كما يؤكد له الجميع ، يبيعون أسلحتهم بأي ثمن ، يبيعون أشياءهم العسكرية ، بل يبادلون الذهب الذي يكتنزون بالليرات ، ويتابعون طيرانهم الى برلين ، وعمر يضحك ويندم ، وتتردد في أذنه ضحكة سليم أفندي الساخرة ذات يوم وهو يردد مقلدا أحدهم :

ـ الالمان لايأكلون لحم الخنزير . امبراطورهم الحاج أمرهم بذلك .

الاتراك المسرعون الى استنبول فعلوا أيضا مافعله الالمان : الماوزر بثلاث ليرات تركية ، والمتراليوز بثمانية ، فكم تأخر عمر التكلي اذن ، وكم كان طه اليتيم غبياً !

خمسة عشر يوما أمضى في أضنة ، مكتفياً باليسير الذي استطاع أن ينجزه ، عاد اثرها الى حلب وهو غير مصدق ، ليقضي ثلاثة أيام أخرى ، يكمل فيها مابدأه في أضنة ، مستعيناً بمن أشار عليه سليم أفندي بالاتصال بهم . وكان كل مساء يعد الليرات الذهبية التي عادت تتجمع ، كأنها لحقت به من حيث تركها في أضنة الى حلب ، وفي الصباح يلفها بالشملة ، يجعل الشملة زنارا ، يمتّن لسليم أفندي الذي اشار عليه بذلك أيضا ، ثم ينطلق بأناة خشية أن ترّن الليرات أو تقع .

لاعمر ، ولا سليم أفندي ، بدوا مصدقين ، حين التقيا وجها لوجه أمام باب البيت ، وكان الليل قد انتصف .

شدّه سليم أفندي الى الداخل ، احتضنه وقبله وزفر يحمد الله ، وأوشك عمر أن يبكي . وكان القلق قد استبد بسليم افندي حين أرسل الحاج يسأل عن ابنه الذى لم يزرْ الحرزة منذ أسابيع ، تضاعف القلق لما جاء هولو يسأل عن أخيه . ووبّخ سليم أفندي نفسه مراراً لأنه لم ينتبه الى ذلك . قد يكون لعمر عذر مافي جهالته إنْ لم يحسب جيداً ، أما هو فما عذره ؟ ولئن طالت غيبة عمر فبماذا يمكن أن يعللها للحاج أو لهولو ؟ سليم أفندي البسمة ، الذي تجلجل كلمته في الميدان والشاغور ، بل في الشام ، يرسل هذا الذي لم يغادرها من قبل ، دفعة واحدة الى أضنة ؟ ولماذا ؟ ليجعله يشتري السلاح من هناك ويبيعه هنا أو هنالك ؟

كان يقدر أن عمر قد لايعود قبل شهر على الأقل . الا أنه منذ نقل عبد الودود العربجي سؤال الحاج عن ابنه ولهفته اليه ، ثم عرج هولو ، ورمى هو بكذبته . صار يعدّ الأيام ، يدعو الله أن يجعل عمر يلم أطراف ثوبه ويسرع الى الشام ، حتى ان خسر كل ماتزودّ به . لكن عمر عاد قبل أن ينتهي الشهر، مزنّرا بأضعاف ماحمله به سليم

افندي الذي انفلش مثل طفل ، يتأمل عمر ويهز رأسه ، فهو أمام رجل خطير وتاجر مجرب ، ثم أمر أم علاء بالعشاء ، ونهض بنفسه كي يهيىء لعمر مكاناً ينام فيه .

كان عمر قد نسي قبل أن يصل الى الشام كل ماأخذه على نفسه حين غادرها ، في بداية رحلته . إنه الآن عمر الذي لم يخف قط . ولم يضطرب ولم يستعص عليه النوم . لم يذكر هولو ولا الطفولة الشقية ولا الجامع ولا الحج ولا الصوم ، ولا كرب الغربة أو دروسها .

في الصباح سبق سليم أفندي الى الدكان مفعماً بالحيوية ، يداعب ماامتلأت به جيب البنطال ، يتمتم بعدد الليرات الصفراء التي جعلها سليم أفندي من نصيبه ، وأودعها أم علاء : كان يلعب بخيالاته ويلونها ، أما الذين أقبلوا يسلمون عليه من الدكاكين المجاورة ، وفي الضحى من الأجراء ، فقد تراجعوا يفكرون فيما خيل اليهم أنه قد تبدل في عمر التكلي . قد تكون وقدة عينيه ، رنّة صوته ، حركة يديه ، خاصة حين يكرر جوابه الوحيد الوجيز والصارم على من يسأل عن غيابه المفاجىء الطويل :

ـ تجارة . .

ويترك حاجبيه يرسمان إشارة غامضة وغاوية .

في الحرزة فقط سمح عمر لنفسه أن يضيف مجيباً الحاج :

ـ أرسلني سليم أفندي الى حلب . سفرة طويلة . شغل ياحاج شغل . .

ولم يلنْ لإلحاح الحاج الذي مالبث ان انقلب دعاء لسليم أفندي ولابنه ، خاصة حين امتدت يد عمر تناوله ليرة ذهبية عثمانلية ، فضلا عن الجنيهات المصرية التي لم يعدْها حتى الضحى ، وكان عمر قد عاد ، فاذا بها أضعاف ماتعود أن يعينه به ، منذ ظهرت تلك الجنيهات في الشام .

اللقاء بهولو فقط هو ماأقلق عمر في أعقاب إيابه الميمون . كان مشوقاً لأخيه . وقد حزن لأنه لم يصادفه في الحرزة . ودّ لو أن اللقاء يكون أمام الحاج، بل أمام حُسْن التي برقت عيناها للذهب ، وانطلق لسانها بدعاء حار وطويل ، بذّ دعاء الحاج .

★ ★ ★

كان هولو قد عبر بالدكان في أول سانحة له . قابل سليم أفندي الذي تحدث عن صفقة مهمة في حلب ، وتعلل بأشغاله في الشام ، ونوه بعمر ، وألح على هولو أن يكتم الأمر عن الحاج ، حتى لايفوت المفاجأة الكبيرةالسعيدة التي يعدّ .

ولكن هل سينطلي ذلك على هولو كما انطلى على الحاج ؟ هل سيكون بوسع عمر أن يلجم اسئلة هولو كما لجم اسئلة الآخرين ؟

أغاظت الاسئلة عمر . فهو الشقيق الاكبر . هو الذي يحق له ان يسأل وأن لايجيب . ليس لهولو أن يتدخل في حياته ، خاصة بعد أن ركب القطار مثله ، ورأى المدن مثله . بل إنه يعرف ما لم يعرفه، ولن يتسنى لهولو أن يعرفه ، ولقد فوجىء هولو بشقيقه حقاً . أسعده أن يكون عمر قد سافر. أسعده أنه قد عرف من حلب مالم يتح له هو أن يعرف ، وأن يكون قد ذهب أبعد . بل إن هولو أنكر أن يكون عمر هو هذا الذي يتكلم عن الفدائيين الأرمن العائدين بعد الحرب الى مدينتهم ، أو عن الاتراك الذين أقاموا نادياً لهم مقابل السراي ، وسلحوا الدرك بالموزر ، ونظموا الحراسة في البلدة الصغيرة العجيبة . أليس هذا ماكان هولو يرجو أن يلغو به شقيقه ؟ هاهو لا يذكر الحرزة ولا الدكان ولاسليم أفندي ، لا الشام ولا التجارة . هاهو يفيض في سيرة الانكليز الذين وعدوا الأرمن والعرب والفرنسيين والطليان بكيليكيا كلها . لم يحرموا أحدا من الوعد ، ولذلك يلعنهم عمر ، ويلعن الأتراك والطليان والفرنسيين والروس ، ويشفق على العرب والأرمن ويلعن الأغبياء ، إنه يفتح عيني هولو على مالم يفتحهما عليه العم حاتم أبو راسين نفسه .

ولكن سعادة هولو بشقيقه ودهشته منه لم تنسياه أن يتساءل عما لسليم أفندي في أضنة . ودهاء عمر لاينطلي على هولو . واذْ يتلجلج الدهاء تكبر الشكوك ، لكن هولو لم يشأ أن يوغل ، فالخطوة التالية هي الشجار .

يوماً اثر يوم ، إنْ لم يكن ساعة اثر ساعة ، أمّحت معالم أضنة وحلب من ذاكرة عمر . ولئن غفل عن ذلك في غمرة فرحته بالعودة الظافرة ، فقد كانت الغصة والغيظ يكبران في صدره . وهو يسعى في ليله ووحدته خلف أثر مما رأى في رحلته ، فتعجزه الرسوم والأسماء، ولا يجدي أن يحك صدغه أو يتقّلب ، منطلقاً من محطة القنوات ، أو من محطة بغداد ، مرة من الشام ومره من أضنة ، ومن هنا أو هناك ، ينزل أو يلبث دقائق في حمص ، في رياق أو حماه ، في بعلبك أو حلب، ثم يقفز الى أضنة ، إلا أن قسمات الناس تضيع منه ، حتى أولاء الذين التقاهم مراراً ، كذلك المطاعم والخانات ، الحانات والأوتيلات ، الساحات والعمارات ، ويعتريه الخجل ، يجزم في أنه لم يغادر الشام ، وقد ظل ينوء تحت وطأة ذلك أسابيع ، حتى عاد يفكر برحلة جديدة ، وقد ضفر خيوطاً أوثق

وإنْ كانت أقل مما تيسّر له في الرحلة السابقة ، فإذا بالغمامة تنجلى عن عينيه ، واذا بحلب تضيء ، وأضنة تهرع اليه ، كأنما قد غادر هذه أو تلك منذ ساعة .

موافقة سليم أفندي على الرحلة الجديدة أعيت عمراً ، على الرغم من انكسار الحواجز بينهما. سليم أفندي يدقق في المعلومات ، يقلب الاحتمالات ، ولا يأذن بالسهولة والحماسة اللتين كانتا أول مرة . بل إنه قبل أن يوافق على مضض يقول مشدداً على كل كلمة :

ـ عليك أن تخبر الحاج أولاً . لا ينقصني همّ جديد . لاتنقصني المتاعب وأنت ترى . وهذه المرة ياعمر عليك ان تكون وحدك . عليك ان تتحمل نتيجة أيّ خطأ ، أية خسارة . في المرة السابقة اندفعت معك لا لأجربك ولا لأربح بسببك . فأنا أعرفك ونعمة الله تغمرني . كما وافقت ، أوافق الآن من أجلك ، أريد ان تنجح بذراعك كما أريد لعلاء . وإذا وقعت ياعمر فستقع على رأسك وحدك . أنا لا أخيفك ولا أتخلى عنك .

عكرت كلمات سليم أفندي اندفاعه وغبطته . الا أنه سرعان ماتجاوز ذلك . كان توقه للرحلة جارفاً ، كذلك ثقته بالنجاح . وهاهي معالم الطريق الطويل شاخصة أمامه . هاهي حلب وماالتقط من أصداء القلاقل بين الأتراك والفرنسيين والفلاحين في انطاكية وجوارها . هاهي أضنة وماالتقط من أصداء القلاقل بين الأرمن والعرب والاتراك . حروب أخرى ثمة ، حروب صغيرة ومعقدة ، يمكن للمرء أن يفعل فيها الكثير ، من أجل الحق ومن أجل نفسه . الفلاحون العرب يرفعون الأعلام العربية ، ينهبون الدوائر والأملاك السلطانية ، يطردون الأتراك ويستغيثون بالإمام علي بن أبي طالب . الأتراك يسارعون فيلملمون أشتاتهم ويضربون في كل ناحية عبر كيليكيا كلها . مصطفى كمال يبعث الروح فيهم ، فلا توفر أيديهم حيث يمكن أن تصل ، أرمنياً أو عربياً . والأرمن الذين عادوا بعشرات الألوف ينفثون حرّ ماذاقوا من ذبح وتهجير ، فينتقمون من كل من تسمى بمحمد أو أحمد ، تركياً كان أم عربياً ، وعمر التكلي يتعلم كيف يميز بين أصناف القوم ، وبقدر ماكان ذلك عسيراً عليه ، ويمكن أن يعقد مهمته ، بقدر مااستطاع أن يفيد منه ، فالمسلمون في تلك البلاد شيع وطوائف . الأتراك كلهم سنيون ، والعرب من انطاكية الى أضنة فيهم علويون كثيرون. العلويون مع الفرنسيين في أضنة ، كذلك الأرمن ، والأرمن والعلويون متناحرون . الفرنسيون ينقذون العلويين من انتقام الأتراك في انطاكية ، ويعجزون عن ذلك في القصير ، فلا يبقى أمامهم سوى

الهجرة. كل ذلك حسن ، فالسلاح يوزع سراً على الاتراك في أضنة وماحولها ، والعتاد الحربي مهما كان ينشده الجميع. وعمر التكلي يجوب كيليكيا ، غير آبه بالاخطار المحدقة في كل خطوة ، ثم يهرع الى أضنة . صارت أضنة مركز سعيه المحموم . وحين غادرها كانت صلاته قد توطدت مع كثيرين في سائر الاحياء . كان قد ألف البلدة الصغيرة العجيبة الفائرة . كان قد حفظ من التركية ماتيّسر ، إذْ لابد للمرء من قدر مامن هذه اللغة كي يتصل بالناس ، علويين كانوا أم أرمن أم أشوريين . وكان ذلك يجعله يزهو ، شأن كل ماحصل في هذه الرحلة . فقد خالط الجميع دون أن يصادم أحداً أو يصادمه أحد . بل إنه لم يلق إلا الإكرام حيث حلّ . كان يحلو له في سره ألاّ يعزو ذلك الى كونه تاجراً وحسب . فهو ليس مثل التجار المعهودين . انه شاب جرىء ودؤوب ، سخي وصادق ، شاب جميل أيضاً . يبرم الصفقة كأنما يلعب بالحلوى ويستحلب اللعاب . في سوق الخضار صار له أصحاب بين السرّاجين والحذائين ، في معمل الثلج وفي المطحنة ، في معمل التبغ وفي المخيم الذي أوى اليه المهجرون العائدون ، في معمل النسيج اليوناني وفي السراي . . ولعله لم يعد ثمة ذو شأن في حرفة أو تجارة ، أو شيخ أو مزارع مهم أو صاحب معمل ، لم يلقه عمر أو يعرف عنه مايفي خلال أسابيعه القليلة . عشرات بات يحييهم أو يردون تحيته ، كأنه في الميدان . إنه التاجر الشامي كما ينادونه ، لاعمر التكلي . ولقد حلاله لقبه الجديد ، وتمنى أن يعرف به من الآن فصاعداً في كل مكان .

في عودته ، أقام في حلب أربعة أيام ، لاعمل محددا له ، سوى ان يعمق صلته بالمدينة ، أو ينسج فيها مثلما نسج في أضنة . بيد أن حلب ظلت عصية عليه ، على الرغم من أنها تخلو من الأخطار التي كانت تحيق به في أضنة . كان القتال يجري بعيداً ، وكان هو أقدر على أن يجالس من أشار عليه بهم سليم أفندي سابقاً ، أو سواهم ، إلا أنه أحسّ انه محدود ، صغير ربما ، على العكس مما كان يحسّه في أضنة ، ولعله لذلك تراجع عما كان عازماً عليه من الإقامة في حلب، حتى يكون له فيها ماكان في أضنة ، وعجل الى القطار ، لينزل في الشام ، في الصباح الأول بعد تسعة وأربعين يوما من الغياب ، ويتوجه من المحطة الى غرفته ، إذْ لم يكن ملهوفاً ولا قلقاً حتى يهرع إلى دكان سليم أفندي أو إلى بيته .

★ ★ ★

11

ماعاد الحاج يرضى أن ينادى صهره إلا باسمه ، فهو عبد الودود السعد . هو ودود على الأقل أما كلمة العربجي فلم يعد الحاج يلفظها منذ أن تقدم عبد الودود الى خطوبة خديجة . ولقد لقي الحاج حجته الدامغة في ترك عبد الودود للعربة والاصطبل وانتقاله من عند الباشا الى عند سليم أفندي .

أما عمر ، فلئن كان هو الآخر فرح بزواج شقيقته ، كيفما كان هذا الزواج ، فإن لديه مايشوش فرحته .

هذا العربجي ، كماتعود عمر أن يناديه بتودد مرة ، واستعلاء مرة ، ليس زوج خديجة وحسب . إنه أجير أيضا لدى سليم أفندي . والباشا شكيم هو الذي دبر ذلك . ولذا فعبد الودود ليس مثل سائر الاجراء . هو يعمل الآن بعيدا عن الدكان ، ولكن الى متى تدوم أشغال المناقصة ؟ بل إنّ هذه الأعمال أوشكت أن تنجز . وبعد قليل سوف يجد عمر نفسه مع عبد الودود في الدكان . وقد يفلح عبد الودود في أن يجد له مكاناً قريباً من سليم أفندي . بل إن الإشارات الى ذلك قد بدأت منذ الآن . في موقع الجسر الأخير ، فماذا إنْ أغمض عمر عيناً وفتح عيناً وألفى عبد الودود منافساً له أو نداً أو بديلاً ؟

عمر هو الذي جاء في الآونة الاخيرة بمن احتاجتهم أشغال الجسور والسكة . إنه مطلق اليد . وحده عبد الودود جاء بطريقة أخرى ، لايد فيها لعمر ، وربما لسليم أفندي نفسه ، تماما كما جاء عمر ذات يوم الى الدكان .

سوى ذلك ، فإن عمراً لايمحض الأجير الجديد أياً كان ثقته سريعاً أو بيسر . ولعله لذلك كان يؤثر من يبدو طيعاً ، أو جباناً ، أو ضعيفاً ، أو صامتاً ، ولا يتردد في تقريع أو طرد من تتلامح عليه ظلال كبرياء ، أو ذكاء ، أو عناد .

لقد غربل الذين اختارهم سليم أفندي نفسه ، قبل أن يتولى وحده الإشراف على العمل ، فاصطفى منهم من راق له وجربه ، وجعل الآخرين يسعون الى الانصراف ، أما مع العربجي ، فلن يكون عمر قادراً على أن يسلك السلوك نفسه .

قبل أن تطأ قدم عمر عتبة الدكان كان قد رأى العربجي مراراً . كان يراه في الحرزة ، يحسده على أنه يكلم الباشا أو الست زهرة أو سليم أفندي ، كما لايستطيع الحاج نفسه أن يفعل . بل إن عبد الودود كان يلعب بالمنقلة مع الحاج ، على الرغم من فارق السن الكبير . كان عبد الودود يكبر عمر ببضع سنين ، ولعله لم يبلغ الثلاثين ، على الرغم من شاربيه الغليظين الكثين اللذين يضفيان ، مع حاجبيه المماثلين المقرونين، على محياه قوة وقسوة . كان أشبه بهولو ، لولا أنه يحلق ذقنه ، لسانه وعيناه تؤكدان أنه يعرف من الدنيا اكثر مما ينتظر من عربجي ، أو هكذا يقدر عمر على الأقل ، متعلّلاً بملازمة عبد الودود لبيت الباشا منذ كان فتى ، يخالط أسرته ، وأصحابه ، يروح ويغد ِ في أنحاء الشام ، وبخاصة الشام التي يرغبها عمر ويرهبها ، شام الباشوات . وكان عمر يغبط عبد الودود علناً قبيل مغادرته للحرزة على حياته ، فيطلق عبد الودود ضحكة قصيرة . ويهز رأسه مخلفاً لعمر الحيرة والحسرة .

كان عبد الودود قد ألف بيت التكلي مثلما ألف بيت الباشا . لقد رأى خديجة بخاصة تكبر هنا وهناك ، في البيتين ، في الحرّزة وفي ساروجة ، وتغدو صبية أجمل ، رأى الحاج وهو يشيخ ، وظهر العجوز وهو ينحني ، والقبور وهي تتكاثر . رأى هولو يتبدل بين غيبةٍ وغيبة بعد ماألحقه الباشا بالقطار ، رأى عمر يتبدل بين سنة واخرى بعد أن ألحقه الباشا بدكان سليم أفندي ، ولأن عبد الودود كان وحيداً ، بلا أب ولا أم ولا اخوة ولا أخوات ولا أقارب ، فقد كان يسرع ملهوفاً الى الحرزة كلما أشار عليه الباشا أو الست زهرة بذلك ، فاذا ماتباطأت الاشارة كان يهرع ، خاصة في الشتاء الى الميدان ، ليرى عمراً ، في الدكان أو في غرفته ، على الرغم من أنهما لم يكونا صديقين .

نشأ عبد الودود في كنف أسرة لم تلبث أن تبددت . كان والده أجيراً في أحد الخانات يقود الجمال بين الشام وأنحاء الجولان ، ويصل أحيانا الى فلسطين ، كان دائم الغياب عن البيت . وحين دبر لابنه عملا في اصطبل الباشا ، خرج في رحلة عاجلة وقصيرة . ولكنه لم يعد . كان الوقت شتاء ، لم تنقطع ثلوجه لأيام ، ولم يلبث اختفاء الأب ذلك الشتاء أن قضى على الأم . ثم جاءت الأمراض تقتنص الاخوة الثلاثة الصغار ، شتاء بعد آخر ، فلم يبق سوى واحد اقتنصته الحرب . وهكذا صار عبد الودود وحيداً في ذلك البيت الطيني الصغير قرب راعي الحمي ، الشيخ حسن ، والذي لم يرع أسرة عبد الودود ، ولا الأسر الكثيرة الأخرى التي تملأ تلك البقعة ، مع القبور .

قبل أن يختاره الباشا لقيادة عربته والعناية بجواديها ، كان عالمه محدوداً بين الشيخ حسن والاصطبل . كان يكبر على مهل ، غير عابىءٍ بنفسه ولا بالعالم ، يأكل ماتيّسر له ، يلبس مايستر جسده، على الرغم من توجيه السائس ثم الباشا نفسه . وكان لايعرف مايفعل بالبارات والمتاليك التي يراها أحياناً بين يديه .

ذاك الشاب الصامت الزاهد القوي الذي كان ، ألفت عين السائس العجوز ، والباشا نفسه ، بخصال عديدة ، فهو يحسن العناية بالخيل كأنه قد شاخ بينها . وهو يحسن ركوبها كأنه قد تدرب على ذلك منذ الصغر ، وعبد الودود يجيد القراءة والكتابة ، سريع البديهة ، سريع التعلم ، أمين وعفيف. وقد فاجأ الباشا والسائس العجوز بما يحسن من إصلاح أعطال كثيرة ، في العربة وفيما تقع عليه يده من أدوات . حتى اذا أقعد المرض ذلك السائس ، اعتلى عبد الودود العربة وصار له ماينادى به ، غير اسمه ،

العربة هي التي جعلت لعبد الودود وقتاً فائضاً كبيراً لايعرف كيف ينفقه . فحين لايكون الباشا مسافراً .يكون على عبد الودود أن ينتظر أمام هذاالبيت أو ذلك الحانوت أو تلك الدائرة ، صباحاً أو مساء ، ظهرا أو عشية ، ولئن كان الانتظار سهلاً في الصيف ، خاصة في الحرزة ، فإنه في الشتاء سجن مضاعف ، حيث البرد والصمت والعتم .

أما إذا كان الباشا مسافراً ، فان مايؤديه عبد الودود من خدمات للست زهرة لايشغل من نهاره الا القليل، فماذا عساه يفعل ؟

لم يعد يذكر في أية حيلة ابتدأ يلعب على الفراغ ، كان تارة يستسلم للتأمل في وجوه الناس ، أو في مصادفات عينه ، أو فيما يلتقط من أشتات القول . وتارة كان يستسلم للاحلام ، فيرسم غداً له ، يكون فيه نظيفاً مثل الذين يراهم أمام بعض البيوت ، وليس مثل الذين يملأون الأسواق والأزقة ، وصار من بعد أجرأ على أن يحلم ببيت آخر له ، فيه سرير وثياب وفراش ، كما صار أجرأ على أن يرسل صوته فيما يحفظ من أغان حزينة او آيات قرآنية .

مايذكره جيدا فقط هو أنه صار يستعين على الفراغ بالقراءة .

كان جيرانه حول الشيخ حسن يغبطونه ويكبرونه منذ عرفوا أنه بات سائق عربة الباشا شكيم .

وفي رأس أولاء كان الشيخ نظام الدين إمام الجامع شيخ الحارة . كان الشيخ نظام يطرق في العشية باب البيت الطيني الصغير ، يطمئن على عبد الودود ، يسأله عما يشاهد

أو يسمع في دنيا عمله ، وهو الذي كان قد علمه القراءة والكتابة والحساب ، وجعله يحفظ قصائد وأدعية عديدة وطويلة ، وسوراً بكاملها ، وكان يفاخر بذاكرة هذا اليتيم ويصلي على سيدنا محمد .

ذات عشية شكا عبد الودود للشيخ نظام ضيقه بنفسه وبوقته وبعمله ، وكان الشيخ يحمل كراساً صغيراً ، فناوله لعبد الودود قائلاً :

ـ جربْ أن تستعين بهذا . تسلّ بالقراءة يا ودود . متى أنهيته آتيك بغيره . وإذا استعصى عليك أمر أو كلمة ، فلا تخجل . اسألني .

قلب عبد الودود الكراس متهيباً وتمتم :

ـ ما قرأت حرفاً من سنين ياسيدي . يمكن أكون نسيت القراءة .

ربت الشيخ على كتفه بحنان :

ـ اذن اقرأ ، لا تخفْ . من كان ذلك الطفل الذي أضرب به المثل ، لاينسى .

اغرورقت عيناه ، فضم الكراس الى صدره ، يتساءل عما إنْ كان حقاً ذلك الطفل الذي يتحدث عنه الشيخ نظام . وفي تلك الليلة ، غمرته صور طفولته وأبيه وأمه والجمال وأخوته وأقرانه الذين لم يعودوا من الحرب ، وعادت في نفسه كاوية تلك السنوات التي انبترت منه . وفي النهار التالي قرأ ذلك الكراس المليء بالأحاديث النبوية ، إلا أنه لم يتمكن من لقاء الشيخ نظام قبل يومين تاليين ، ليفاجأ أنه قد توفيّ .

لعل أحدا من ذوي الشيخ نظام أو جيرانه لم يحزن عليه حزن عبد الودود ، خاصة حين سلمه ابن الشيخ رزمة من الكتب أوصى بها له . كان الصيف في أوله ، وكانت القراءة أمتع في ظلال الحرزة منها في حرّ السوق . وعلى الرغم من أنه كان في تلك الرزمة الكثير مما لم يفقه ، الا أنه قرأ الكراريس والكتب جميعاً ، حرفاً حرفاً ، وعاود قراءة بعضها ، حتى وقعت عليه عين الباشا ، وقد فتح باب البيت ، ووصل الى باب العربة ، وعبد الودود غارق فيها يقرأ ، يقتعد حجراً ويسند ظهره الى جدار البيت .

خففَ الباشا على عبد الودود وقع المفاجأة ، ووعده أن يعطيه بعض مايتسلّى به ، وهكذا لم يعد يملّ انتظاراً ولايشكو فراغاً .

لم يكن الباشا ليستعيد الكتب أو الصحف التي صارت تكثر في البيت الطيني الصغير ، حتى ملأت الرف الخشبي الوحيد فيه ، فصنع عبد الودود رفاً آخر أصغر ، وانشغل طويلاً بالاحاديث النبوية وأخبار الصحابة وقصص الفتوحات العربية وأشعار

الشعراء القدامى والصحف القديمة التي تعج بأخبار العالم . إلا أن سفرات الباشا في تلك الآونة تتالت وطالت ، فعاد عبد الودود يتنقل في الأسواق ، بعد أن يؤدي للست زهرة ماتطلب . ويوماً بعد يوم ، استأثر به دكان الحداد نعمان وجعة ، الذي كان يعنى بعجلات العربة ومايحتاج بستان الحرزة من أدوات .

كان عبد الودود يعين الحداد في الطرق ، ولما سيق ولدا الحداد معاً الى الحرب ، صار عبد الودود يواظب على الحضور ، يوقد النار ، ينفخ الكير ، يحضر الفحم ، يطرق ويطرق فيرسل طرقه الأنغام التي تضحك الحداد ، على الرغم من حزنه وقلقه على ولديه ، وصار الحداد يردد :

- اذا انقطعت لقمتك من بيت الباشا شكيم ، مأواك عندي .تعلّم. أنت تصلح فعلاً لأن تكون حداداً .

في تلك الفترة اشترى الباشا السيارة وجاء بسائق ، ولم يعد يركب العربة . كما لم يعد لعبد الودود مايؤديه ، وقد أقلقه ذلك منذ الأيام الاولى ، ثم أمضه ، حتى دفعه الى أن يتقدم من الباشا ، غير خائف ولا خجل ، ويقول :

- مابقي لي شغل هنا ياباشا . تريدني أن أدور على شغل ؟

ضحك الباشا وأثنى على فطنته ، ثم قال :

- اترك هذه الأفكار .

وأخذت الفورد تشغله عن الحدادة وعن الكتب . وعلى الرغم من الجفاء الذي أضمره للسائق في البداية ، ألا أنّ الألفة أخذت تقوم بينهما . وقد أدهش السائق ذلك العربجي الذي يبذ كثيراً ممن عرفهم منذ كان في مثل سنه ، حتى اختاره الباشا شكيم لقيادة الفورد .

كان لدى السائق أيضا من الفراغ مايتسع لفضول العربجي الذي يريد ان يعرف عن هذه الفورد ، لا أن يتعلم قيادتها وحسب . وهذا مالايعنى به السائق ، بل الميكانيكي ، والميكانيكي غير بعيد . لقد رآه عبد الودود من قبل دون ان يأبه به ، طوال تردده على عنابر اصلاح العربات ، قبالة الجنينة .

محلّ واحد من تلك العنابر حلّ الميكانيكي منذ سنين ، وهاهو ذا ميكانيكي جديد قد حلّ محل عنبر آخر . والعنبران اللذان يليان قد أغلقا . والسائق والميكانيكي يؤكدان أن العربات الى زوال . بل إن الحداد نعمان نفسه يؤكد . وكل ذلك يدفع بعبد الودود في

درب آخر ، خاصة أن السائق والميكانيكي يتوسمان فيه سائقا ماهراً أو ميكانيكيا ماهراً أيضا ، وهما ينصحانه بالتفكير في مستقبله ، قبل أن يفوت الأوان .

كلما سنحت الفرصة ـ ومااكثر ماتسنح ـ أخذ يتردد على الميكانيكي تيسير عبد البر الذي كتب بخط يده على جانبي العنبر : سيارات البرّ والتيسير . لم يطلب من المعلم ـ كما تنبغي مناداة تيسير ـ أن يعلمه ، لكن المعلم كان مدركاً لهفته ، كما كان سعيداً بأجير مجاني ، يستطيع أن يكلفه بما يصعب على الأولاد الصغار الذين يملأون العنبر . وسرعان ماصار عبد الودود يتمثل حركات أصابع المعلم ، ويرمي بأسئلته ، ويمد يديه في العنبر ، مصّماً عن نهر المعلم له ، وقبل أن يحل الصيف ، كان قد صار يلم بالكثير من أسرار السيارة ، وكان يعرف كيف يقودها .

★ ★ ★

لم تطل سعادة عبد الودود بجديده . بل إن هذا الجديد حرك هواجسه . فهاهو قد أصبح يجيد الحدادة ، وفي زعمه أنه يجيد قيادة السيارة وإصلاحها ، بعد أن كان يجيد فقط قيادة العربات وإصلاحها . هاهو إيضاً قد قرأ ماقرأ من الكتب ، وقد قارب الثلاثين ، فماذا يعني ذلك كله ؟

لم يعد الباشا يركب العربة البتة . خاصة بعد مارحل الأتراك ، وانتهت الحرب . وعبد الودود لايستطيع أن يظل بلا عمل ، كما أن خديجة التكلي قد دخلت عالمه ، فماذا يفعل ؟

كان أشبه بمن يصحو اخيراً على الدنيا من حوله ، وقد بدلت جلدها وهو قابع . فمن سيارة الباشا الى خديجة ، من عمر الى الحداد الذي عاد ولداه سالمين ، كل ماحوله قد بدلته الشهور القليلة الماضية ، وربما السنون القليلة الماضية ، وهو لايحير .

بالأمس فقط ، كان يقصد بين ظهيرة وأخرى المقاهي التي تقدم الخبز والماء الفاتر مجاناً ، يفضل أن يأكل مثل الآخرين ، على أنْ يظل واقفا أمام بيت الباشا المسافر . خاصة حين ترسل الست زهرة خديجة لتبلغه أنّ بوسعه أنْ ينصرف .

كانت الشام مثل جثة ، وهو لم يدخر بارة ، وقد أضاع البطاقة التي كتم أمرها عن الباشا ، ومن دونها لايمكنه ان يحصل على الخبز والدقيق . أما اليوم فالناس تبدو شبعى ، على الرغم من الشكوى حول الشيخ حسن ، هو نفسه بات يشبع حتى التخمة في ذلك

البيت الطيني الصغير . وبات قادراً على أن يعين ابن الشيخ نظام على أعباء أسرته الكبيرة ، لكن ماذا يصنع بشبعه وعافيته مادام لايكاد يعمل ؟

قبل الحرب كان يشبع أيضاً ويضج عافية . لم تكن تفوته عراضة ، إنْ لم يكن الباشا في حاجة إليه ، او إنْ كان على سفر . كان يسكره أن يجد نفسه على كتفي احدهم ، مشرعاً السيف ، يلعب به كما لايمكن لسواه من شبان حارة الشيخ حسن أن يلعب . لايهم إنْ كان ذلك في عرس أم في عيد جلوس السلطان أم في ختان علاء ابن سليم افندي . كان يهرع مع الشبان الى طريق بيروت ، يقفز كالقرد نحو الزعفران في الأعلى ، يطير في الفسحة المنداحة بين الجبلين اللذين يسوران الطريق ، يغني غناء موجعاً حتى ينهر به أحدهم :

ـ جئنا لنضحك فقلبتها لنا غماً . اسكت .

وينطلق الآخرون في أهزوجة ما .

كل ذلك قد انقضى الآن . لم يعد عبد الودود يلعب بالسيف ولايغني . تفرق الأصحاب الصغار اذْ كبروا ، ولم يكد يعرف الفرحة الا في الأيام التي رحل فيها الاتراك عن الشام ، وجاء الانكليز ورفرف العلم العربي ، وجن الناس .

لقد انبترت فرحته مذ أبصر المشنقة ثانية وقد أعادت نصبها في المرجة الحكومة الجديدة . خاف من أن لاتكون صفحة الماضي قد طويت كما يسمع ويقرأ ، بل ويرى . وعلى الرغم من أنه كان يعي بلاغ الحكومة بتهديد المناوءين والمخلّين بالأمن ، الا أنه أخذ يهجس بالحكومة السابقة التي كانت ترسل مثل ذلك البلاغ . أخذ يتراءى له كل حين أن للحكومة الجديدة بعض سيرة الحكومة السابقة ، ثم سها عن ذلك كله ، ليفتح عينيه اليوم على المظاهرات وثورة مصطفى كمال والفرنسيين الذين لايرضون عن الشام بديلاً ، فأين كان اذن ؟

رويداً رويداً بات شاغله الوحيد أن يرحل . لاحلّ الا بالرحيل ، صار يهجس في كل وقت . لاينبغي له أن يستمرىء القعود ، فهو الآن لاشيء . مهما كان الباشا شكيم رؤوفاً وكريماً ، فعبد الودود السعد سيظل لا شيء إنْ لم يرحل عن ساروجة . ولكن خديجة كانت قد انسلّت الى قلبه ، فأنىّ له ان يفعل ؟

للوهلة الاولى ضحك من نفسه . منذ متى يفكر عبد الودود السعد بالنساء ؟ منذ متى باتت خديجة التكلي تلوي ساعده ؟ بل منذ متى كانت تعنيه ؟ تراه يراوغ كي لايبرح جنّة الباشا شكيم ؟

لقد أراد أن يكذب على نفسه ، فهو يعرف جيداً أنّ المرأة تطلع فجأة في دربه ، فتملؤها ، مثلما يعرف أنها تغادر دربه فجأة ، وتخلفه خرقة تنّزفي درب خاوية .

بالطبع ، كانت المرة الاولى أوجع ، وقد خلفت في نفسه جرحاً لايندمل ، وهاهو يتلمّسه ، ويكزّ على أسنانه ، على الرغم من ان خديجة هي من تشغله اليوم .

كان قد غدا عربجي الباشا لتوه ، وكان عليه أن يحضر صباح السبت ، ويعيد مساء الخميس ، تلك المرأة الزنجية التي ترعى بنت الباشا الصغرى . كان بيت أم نور الدين بعيداً ، قرب آخر سكة الترام ، في المهاجرين . وقد ألف عبد الودود أن يبادل المرأة المسنة السوداء الحديث وهو يقود العربة ، دون أن يلتفت الى الوراء ، كما ألف أن يظل واقفا مساء الخميس أمام بيتها ، حتى يتأكد أنها قد أغلقت الباب ، فتلك وصية الست زهرة .

ربما رآها عن قرب لأول مرة حين وصل بالعربة الى آخر السكة في مساء متأخر ، وكانت بنت الباشا مريضة ، كانت أم نور الدين تتحدث بما لم يعد يذكر ، وقد تأخرت في النزول ، وتابعت حديثها وهي تتوجه الى بيتها ، فبوغت عبد الودود برنة صوتها ، وأمعن ، فاذا بها فارعة الطول ، أطول منه ، ممتلئة ، تضيء عتمة المساء بالتماعة عينيها وأسنانها . ولعله حاول أن يتيقن مما رأى ، ولعل محاولته ألفتت أم نور الدين ، فغمزته ، وخلفته مسمراً .

لماذا فعلت أم نور الدين ذلك ، ظل السؤال يقلقه الأسبوع بطوله ، حتى كان الخميس التالي ، وكانت ابنة الباشا قد عوفيت ، وهو يدعو الله أن يلهم الست زهرة كي تؤخر ام نور الدين ، وقد استجاب الله لدعائه .

قاد العربة هذه المرة على مهل يتعجل العتمة ، ولأنه خشي أن لاتتريث في نزولها ، وأن لايرى منها مارأى في الخميس الماضي ، فقد استدار مراراً ، دون أن يتيقن مما تبصر عيناه . بيد أن أم نور الدين كانت تضحك ، وربما كانت تمازحه ، أو تسخر منه ، أو تصل ماانقطع من حديثها منذ اسبوع ، وهو لايعرف ماذا يفعل ، إلا أن يكّز على السوط .

بغتةً أوقف العربة في آخر السكة وقفز من مقعده ، وانتصب أمام باب العربة ، فاذا بها تنزل الهويني ، وتتجاوزه خطوة وقد أمسكت بكفه آمرة :

ـ تعال .

لم يعهد من أحد من قبل مثل تلك اللهجة . لامن الباشا ولا من الست زهرة ولا من أي عسكري .

ـ الخيل لا تتحرك هاه ؟

سمعها تسأل فأومأ برأسه ، واذْ بها تدفعه ضاحكة :

ـ مابك ؟ خرست ؟

لم يستطع ان يجيب فأردفت وقد أطبقت عليه :

ـ خائف ؟ ياحيف !

لاريب أنها هصرته قبل أن ينتفض مفيقاً ، يأسرها بذراعيه وهو يتلفت حوله ، تلاحقه قبلاتها وتفح :

ـ لا أحد يأتي بعد المغرب الى هنا .

انطرح الجسدان على الارض ، وجعلت المرأة تئّن تحت الرجل الذي لم يسبق له أن ضاجع سواها . لم ينهض عنها حتى دفعته ، وأوشك أن يرتمي على الارض وهي تضحك هامسة :

ـ الطمع في الدين .

صار الخميس وقت عبد الودود كله ، وأسبوعاً بعد أسبوع ، لم يعد يهتم بالعتمة . ولم يفطن أن ذلك قد دام ثلاثة اشهر ، حتى أمرته الست زهرة أن يذهب في الغداة الى بيت مريانا التي عادت من إجازتها .

ربما كان قد أحضر مريانا من بيتها ، وأعادها اليه ، بجوار المستشفى الفرنسي ، مئات المرات ، لكنه لم يفطن إلى ذلك الا حين اختفت أم نور الدين ، وأدرك أن الباشا انما جاء بها لتحل محل مريانا في إجازتها ، فما الذي ينقع غلته إذن ؟

كانت مريانا قصيرة ، عبلة ، تطوي شعرها تحت الغطاء الأبيض الذي يزنر وجهها المورد . وقد تراءت لعبد الودود خصماً لابد أن ينال منه ، فهي التي حرمته من أم نور الدين .

لم يكن قد باد لها من قبل سوى التحية ، فما الذي بوسعه ان يقول لهذه المرأة التي جاءت من روسيا الى الشام ، لاتكاد تنطق بالعربية ؟ أما الآن فلم يعد لسانه يهدأ ، ولم تعد عيناه تشيحان عنها . إنه يدقق في شفتيها الرقيقتين ، في صدرها الريان ، في رموشها الطويلة ، ولئن كان غافلاً وهو يتحدث أو يتطلع ، فمريانا متيقظة ، وقد ألفتها أن ينقلب هذا العربجي كل هذا المنقلب في شهور معدودة .

ربما كان غافلا أيضا ، اذ يقود العربة على مهل وهو يعيدها الى البيت ، خاصة حين يوغل الطريق في بساتين الزينبية ، حيث المستشفى وذلك الحي الجديد . أما مريانا فقد زادها ذلك يقظة ، وجعلها تسترق في الصباحات النظر من عبد الودود ، ولم يكن هو ينتظر غير ذلك .

كان قد انقضى على عودتها أسبوعان ، حين فوجئت بالعربة تقف قبيل البيت ، وكان المطر ينهمر منذ العصر ، والشجر العاري الملتف يبدد ضوء العربة وأضواء المستشفى .

قفز عبد الودود من مقعده ، وربت على كفل الحصان الوحيد الذي كان يجر العربة ذلك اليوم ، وفجأة غدا داخل المقصورة.

لم يتكلم ولم تتكلم . جلس الى جوارها فأفسحت له . نزع الغطاء الأبيض فانفلش شعرها فوق كتفيها وجبينها . تغلغلت أصابعه في الشعر فتعثرت بشفتيها . تركت مريانا شفتيها تلثمان الكف ، فاذا بكف أخرى تتسلّل الى نهديها ، واذا بكف ثالثة تفري فخذيها ، واذا بكف رابعة تلقيها عجلى على مقعد العربة .

لا بد أنه كان حلماً . لايعقل أن يفعل عبد الودود السعد ذلك ، ولا أن تفعل هي أيضا . لكن الصباح جعلها تتيقن من أن ذلك كان حقيقة ، والمساء التالي جعلها تتيقن أن الحقيقة أجمل من الحلم .

أنست مريانا عبد الودود ، ولو الى حين ، ام نور الدين . والصيف الذي لم يتأخر هو الذي جعله ينساهما معا . كانت الحرب ، كانت الست لميعة قد جاءت ، ولا أحد يدري لِمَ لَمْ يعد لبنت الباشا الصغرى مربية ، وعاد عبد الودود مثلما كان ، لكأن الدنيا قد خلت من النساء ، او لكأنه لم يعرف أمرأة ذات مساء .

أم نور الدين وحدها عاودت الظهور فجأة ، واختفت فجأة . كان نهاراً صيفياً قابضاً ، استفاق فيه عبد الودود على جسده مستثاراًبعد هجعة الموت ، فاختلس أول فرصة سنحت له ، وغذ خطاه صعدا الى آخر سكة ترام المهاجرين .

لم يتردد لحظة في قرع الباب الذي يذكره جيداً ، لكنه حين سمع صوتا نسائيا آخر يسأل من الداخل :

ـ من ؟

تردد في أن يجيب ، ثم شكَّ في أن يكون قد نسي صوتها ، أو أن صوتها قد تبدل ، وخشي أن لايعرفها من بين النساء أو أن لاتذكره ، وكان الباب قد صرّ ، فخيل إليه أنّ في فرجة الباب امرأة بيضاء تسأل :

ـ ماذا تريد ياأخي ؟

ـ أم نور الدين هنا ياأختي ؟

قال متلجلجاً .

ـ بيت من تقصد ؟

سألت المرأة بجفاء ، فبلع ريقه ، ووجه المرأة يغيم في عينيه بين البياض والسواد ، وتناثرت كلماته :

ـ بيت أم نور الدين . بيت الباشا . أم نور الدين كانت تروح الى بيت الباشا . هذا بيتها .

ـ ام نور الدين السوداء . . ؟

كان لايزال يتكلم حين صرّ الباب ثانية وذلك الصوت النسائي يبتعد :

ـ الله يرحمنا جميعا ياأخي . سمعت أن زوجها مات . فرجعت الى أهلها .

ماكان قادرا على أن يصدق المرأة ، ولا أذنيه . لابدّ أن خطأ ماقد حصل ، وهذا الجسد الذي كان ينبح سوف يظل ينبح ، ولا من مجيب ، حتى تنهدّ قواه ، وينوس صوته ، كأن مابه ليس الخيبة ولا الحزن ولا الحاجة الكسيرة . لقد ظلت رائحة ام نور الدين مقيمة طوال الايام التي كان ماعتراه فيها أقرب الى الشلل ، كانت تلغو وتضحك وترميه أرضاً وتستلقي فوقه ويدحرجها على سكة الترام ، من آخر موقف حتى الجسر ، بل حتى المرجة ، وهي تبكي وتجعله يبكي ، وتجعله خفيفاً بوسعه أن يطير ، لولا أنها تروح تهدهده حتى يغفو ، وإنْ كان الوقت نهارا .

ربما ظل بلا جسد اثر ذلك حتى اخذت خديجة تدخل عالمه ، ولكن على نحو آخر ، لاعهد له به مع ام نور الدين ولا مع مريانا . كان يلاحظها من قريب ومن بعيد . بحيادية يكتشف أن ليس لأحد من بيت التكلي مثل سمرتها ، ولا مثل شعرها الفاحم المختبىء تحت غطاء ملون ، والذي ضبط مرارا ماينسلّ منه خارج الغطاء ، فوق الجبين خاصة .

كان إحساسه بالأخوة نحوها هو الأقوى منذ بدأت تكبر . وقد يكون قوّى ذلك في نفسه أن أيّاً من بيت التكلي لايتفقدها في بيت الباشا سوى مرة كل اسبوعين او ثلاثة ،

وربما مرة كل شهر . حتى عمر القريب لايفعل . ولذا كان عبد الودود يرى نفسه واحداً آخر من بيت التكلي يرعاها ولو من بعيد . لكنه عندما صار يفكر في البحث عن سبيل آخر لنفسه ، خارج بيت الباشا ، لم تعد اخوة خديجة وحدها تكفيه . كانت عيناها صارتا تومضان مثل عيني ذئب . وخيل لعبد الودود أنهما تومضان خاصة له ، إذْ يحييّها أو يختلس ممازحة معها ، وهكذا رأى نفسه يفكر فيها مثلما يفكر في مستقبله .

★ ★ ★

قبل أن يحزم أمره ظل يتردد فترة بين الحداد نعمان وجعه والميكانيكي تيسير عبد البرّ ، ملمحاً الى مايدور في رأسه ، وكل منهما يغريه ويحرضه ، قبل أن يكمل جملته الاولى . كانا معا يؤكدان أنه لابد ان يغادر بيت الباشا ، مادام الباشا لن يقتني سيارتين ، ولن يكون له سائقان ، كانا يضربان له المثل تلو المثل بالذين عملوا مثل أبيه أو مثله في قيادة القوافل أو العربات ، ويجزمان بقسوة أن لاحياة مع السيارة للجمال أو العربات أو الخيل أو البغال أو الكدش أو الخانات أو الطنابر ، فعاجلاً أم آجلاً سوف تدفع السيارة ذلك كله بعيداً عن الشام ، بل بعيدا عن الدنيا ، وما على عبد الودود السعد إلا أن يسرع قبل أن يجد نفسه مثل أي جمل أو حصان ، بل مثل أي بغل أو كديش . . .

كان يسعده ان تندغم في ليله كلمات الرجلين :

ـ احمد الله على ماحباك به . أنت لا تدور مثل الآخرين على أبواب المحسنين إذا تركت الباشا . لا في المحطة مثل العتالين ولا في المقاهي مثل الصبيان . أينما درت ستجد من يتلقفك مادمت تحسن الحدادة وقيادة السيارة وتصلح للميكانيك . هيا ياعبد الودود ، اليوم أفضل لك من الغد ، وإذا تركت من نفسك أفضل من ان يقول لك الباشا : مع السلامة .

كانت ألسنة الناس تلغو بتطويع الشبان في الجيش ، والصحف تدعو الى ذلك ، ولسبب ماماستهاله الامر ، فقلّ تردده على الحداد والميكانيكي لأيام ، قبل أن يظفر بالباشا .

كان الباشا خارجاً من البيت قبيل المغيب ، وسائق الفورد قد فتح الباب ، وانتصب بجواره ، مشيحاً عن عبد الودود . تطلع الباشا حوله بأناة ، وسأل عبد الودود ضاحكاً :

ـ أين تختفي ؟
عاجل عبد الودود نفسه وأعلن للباشا ماقد نوى ، فضحك الباشا أعلى وهو يقول :
ـ أنت واثق أنك تتحمل الجلد بالسوط إذا أخطأت ؟
أجفل عبد الودود وارتدّ منكراً :
ـ يجلدون العسكري إذا أخطأ ؟ كلما أخطأ الانسان يجلدونه ؟
قال الباشا حانياً دون أن تغادره الضحكة :
ـ أخشى ان تتقرر عقوبة الجلد هذا المساء . أنا ذاهب الى القصر ، وأنت لن تتطوع هذا المساء . أخشى أن السوط لن يفارقك ياعبد الودود . إما أنْ تسوط الحصان أو . . لاتتعجل . اسمع . أظنهم ينادون في الداخل . اذهب اليهم . أخرّتني .
حيت يده الباشا متراخية ، ولم تستطع أن تقرع باب البيت . هجم الحزن والقنوط عليه وهو ينكر أن يكون في الجيش سوط وجلد . هجم عليه خوف منسيّ منذ شهور من أن تكون حقاً صفحة الماضي لم تطو بعد . اذا كانت الحكومة السابقة تجلد العسكري وغير العسكري فلماذا تفعل هذه الحكومة ؟ هل يفعل العربي بالعربي اذن ماكان يفعله به التركي ؟ وماهذا الذي رماه الباشا من طرف ضحكته عن ملازمة السوط لعبد الودود ؟ لا ، لن يكون ذلك . لن تصدق نبوءة الباشا . إن عبد الودود السعد مؤمن بقضاء الله وقدره ، ولكنه يعرف كيف يتخلص من السوط الى الأبد . ليقرروا في القصر ماشاءوا ، فلن يفكر بهم ولابجيشهم ولابسوطهم ، وسوف تكون خديجة اول من يسمع ذلك منه .
طرق الباب بشدة وعجلة ، فإذا به ينفرج عن ضحكة خديجة وتحيتها ، كأنها كانت تنتظره خلف الباب . هدأت سريرته ، ونسي ماكان به ، وهي تمسد ثوبها سائلة :
ـ لماذا انتظرت حتى الآن ؟
ـ ماأدراك أني كنت هنا ؟
أومأت إلى إحدى نوافذ البيت وتراجعت . مدّ قدمه عبر العتبة ، وتعثر لسانه قليلاً قبل أن ينطلق :
ـ أنوي اترك الباشا ياخديجة . كيف أبقى عربجياً حتى أموت ؟ هل تريدين ؟ أنا لست الآن عربجياً ولا غير عربجي . الباشا نفسه هل يتركني هكذا حتى أموت ؟ ماحاجته لي ؟ مارأيك ياخديجة : هل أعمل في الحدادة أم في الميكانيك ؟
غرغرت خديجة :

ـ ماذا يعني الميكانيك ؟
ـ السيارة ياخديجة . أنا أعرف شغلة السيارة ، مثل شغلة الحدادة . مارأيك ؟
تساءلت غنجة :
ـ ما خصّني ؟
صمت حائراً ، فهي محقة ، ولكن إنْ لم يقل لها عبد الودود ذلك ، فلمن عساه أن يقول ؟
أردفت وهي تداعب أطراف الغطاء الزاهي ، وقد غارت ضحكتها :
ـ وما ترجع ؟
هذا مالم يفكر فيه . كيف سيطرق هذا الباب ويقف في عتبته إنْ ترك الباشا ؟ ولكن ماحاجته الى أن يفعل ذلك ؟ هل ستبقى خديجة هنا وهو بعيد ؟
ـ أنت أيضا لن تبقي هنا . الى متى سوف تبقين ؟ لن تعودي الى الحرزة أليس كذلك ؟ صرت صبية . صبية حلوة وسوف تتزوجين . يجب أن تتزوجي ، خديجة . هل أذهب الى الحاج وأطلب يدك منه ؟
كانت الكلمات تتدافع من شفتيه وكفه تأسر كفها . كانت ذقنها ترتجف وجفناه يرتعشان ، وعاد يسأل :
ـ هل يعارض الباشا ؟
سحبت كفها متراجعة :
ـ الست تنتظر أول ما راح الباشا .
تلك الليلة فاضت جوانحه بالحنان ، أو النزوع الى الأمان ، فاض ثقة وهو يتلمس حاجته الى خديجة ، ويقدر حاجتها اليه . كان يدور في البيت الطيني الصغير شبراً شبراً ، حيث ستأتي خديجة ، ينامان معا على هذا الفراش . لا . سوف يأتي لها ، بسرير . سوف يكون له من تطهو طعامه وتغسل ثيابه . لن يتكلف أحد من الجيران بأعبائه ، لابيت الشيخ نظام ولا سواه . سوف يرتوي من صوتها ، ويحسده شباب الشيخ حسن على البنت الصغيرة الحلوة التي علمتها سنواتها في بيت الباشا ماتجهله بنات الشيخ حسن ، ولعلها لن تتأخر حتى تنجب له ، لن يكون عبد الودود زوجا فقط . سوف يكون أباً . سوف يكون له اسم جديد يناديه به الناس . سوف يحيي ماانقطع من بيت السعد ، ولن يظل مقطوعاً من شجرة ، وسوف يضحك أعلى وأطول مما يسترق الآن من خلل أوهامه .

في الصباح عبر بالقبور نشيطاً حتى أطلت الدكاكين ، فأخذ يتباطأ . كان قد عزم قبل أن يغفو على أن يتقرى ماسوف يكون عليه أن يحضره الى البيت الطيني الصغير من أجل خديجة . عد الجنيهات القليلة التي لايعرف كيف اختبأت في رف الكتب الجديد . وفكر في أن الباشا سوف يجزل له ، كما أنه سوف يوفر من عمله الجديد ، أياً كان .

في البزورية طال مكثه أمام الدكاكين القليلة التي فتحت مبكرة . عبقت في صدره أصناف التوابل والعطارة . تأمل سبت العروس هنا وهناك . تأمل الشموع ورقاقات قمر الدين ، الأقواس الحديدية المزخرفة في أعلى الدكاكين ، الأقفال الموصدة على الدكاكين التي لازالت مغلقة . تريث أمام الحمام ، وخشي ألا يكون بوسعه أن يستحم ليلة العرس هاهنا . وأفضت به قدماه الى سوق مدحت باشا . كانت الدكاكين جميعاً مفتوحة ، والسوق يعج بالحمير والبشر . وقف أمام دكاكين الأقمشة الرخيصة ، أمام الدكاكين الأخرى التي ازدانت واجهاتها بالملاعق والصحون والطناجر والأدوات العديدة الأخرى التي لايعرف إنْ كانت خديجة سوف تحتاج إليها أم لا . ولئن احتاجت فهو لايعرف إنْ كان بوسعه أن يشتري أم لا . كان يتنقل الهوينى، يوغل أبعد فأبعد ، يحلم بعرس مثل أيّ من الاعراس التي نقل اليها بالعربة الباشا والست زهرة ، وناله منها حلوى وفيرة وغريبة ، ليس في أي من الاسواق مثلها . كان يحدوه رنين الليرات الذهبية المتساقطة في صحن الجلوة ، وعزف بنات مكنو وغناؤهن . كان يود لو تنشق الارض عن أحد من ذويه ، فمن عساه يرسل الى العجوز لتخطب له خديجة منها ؟ ولئن وافقت العجوز ، فمن عساه يرسل من الرجال كي يكلم الحاج ؟ هل يستجدي واحداً من جيرانه ؟ وماذا سوف يكون مهر خديجة ؟ الف ليرة ذهبية مثل بنات الذوات أم جنيهاً مما يخبىء في رف الكتب الجديد ؟ حول ماذا ستفتل النساء في حارة الشيخ حسن سبع مرات وهن يحملن الشموع ؟ حول الحفر التي تعج بها أم حول البرك المرصعة في بيت الباشا أو حميه أو في بيت سليم أفندي ؟ تحت أي سقف سيكون عرس عبد الودود السعد ؟ سقف السوق ام قبة السماء أم تحت الثريات المشعشعة في القصور ؟

ـ أين ياعبد الودود؟ قل صباح الخير ياأخي !

أفاق على صوت ابن الحداد نعمان وهو يسرع نحو الدكان ، فردّ معتذراً ، لائماً نفسه على ضلالها. كل ماتتحلّب عليه ليس من شأنها . لن يتزوج عبد الودود الا مثل أي من هؤلاء الناس ، مثل أي رجل من رجال الشيخ حسن . أما الاعراس التي تفرج عليها من قريب أو بعيد في دنيا الباشا ، فليس له أن يراودها حتى في المنام . بل كل ماكان من

دنيا الباشا ينبغي ان يظل هناك ، حين يترك الباشا . دنيا بكاملها ، وعمر بطوله ينبغي أن يخلفه وراءه ويمضي ، لا نادماً ، ولا خائفاً ، ولاهارباً ، فهو الذي يختار ، وهو الذي يقدر ، وسوف ترى خديجة قبل أيّ من الناس وأكثر من أيّ من الناس ، من يكون .

من الصباح حتى الظهيرة قضى الوقت يحوم في الاسواق ، آملاً مصادفة الباشا وقت عودته الى الغداء لكن الفورد تلكأت ، وهو يحوم امام البيت . حتى اذا ظهرت أخيرا ، وكان المؤذن يرفع اذان العصر ، أسرع عبد الودود يفتح باب السيارة ويحيي ، قبل أن يسكتها السائق ، فهش له الباشا، وبادره وهو ينزل :

ـ ما زلت عازما على التطوع ؟ لم تقرر عقوبة الجلد والحمد لله ، ولكن اسمع نصيحتي . دعك من الجيش .

كان الباشا قد وصل الى الباب وخلفه عبد الودود يهمس بحياء :

ـ بطّلت ياباشا . أرغب بالبحث عن عمل آخر .

استدار الباشا اليه ، وأمعن فيه قبل أن يقول :

ـ أعرف أنك تجيد أشغالا كثيرة . أنتْ رجل . لكنك لن تكون أفضل مما أنت فيه أينما ذهبت .

أطرق عبد الودود قائلاً :

ـ هنا مابقي لي مكان ياباشا . السائس وحده يكفي الاصطبل . أعرف أنك لاتريد أن ترميني . لا أنسى فضلك ياباشا . أرجوك . أنا أريد أن أشتغل فادع لي بالتيسير

تبسم الباشا :

ـ لاداعي للعجلة .

ـ عفوك ياباشا .

انزلق لسانه يحدث الباشا عن خديجة ، واذ فطن الى مايقول ، تعثر وتلجلج ، فضحك الباشا قائلاً :

ـ لن تتركنا وحدك اذن ! وتجعل خديجة تتركنا أيضاً ! افرض أني سمحت لك ، تظن تسمح الست لخديجة ؟

ودّ عبد الودود أن يتراجع فقال :

ـ مازال الوقت مبكراً على ذلك ياباشا . لم أكلم الحاج بعد ولم . .

تقدم الباشا الى البيت مقاطعاً :

ـ لا عليك . أنا أكلم الحاج بنفسي وأدبر لك عملاً يرضيك . لاتكن عجولاً .

انصرف عبد الودود وهو حائر ، لايعرف إنْ كان قد أخطأ ام أصاب ؟ لايعرف إنْ كان عليه أن يغفو مطمئناً أم ينتظر على جمر ؟ بيد أنه عاد يتردد على الحداد والميكانيكي . ويطوف ببيت الباشا مطمئناً على خديجة ، يتحين الفرصة كي يراها أو يبادلها كلمة .

★ ★ ★

12

كاد اليأس أن يذهب بهولو ، فقد طال مقامه في الحرزة ، وتكرر نزوله الى الشام لساعات ، يسأل في الادارة عن مصيره ، فيؤمر بالتريث ، ولا أثر للعم حاتم ، ولا لمن أجيزوا مثله إبّان رحيل الاتراك ، فيؤوب مذكراً بعنوانه في الحرزة وبعنوانه في دكان سليم أفندي . وقد يعرج على الدكان ليشدد على عمر أو على سليم أفندي نفسه أن لاينسيا ماقد يأتيه من الادارة ، وفي الحرزة يلتقط أية حركة تصدر عنها الى الشام أو تأتيها من الشام ، يصابر الليل الشتوي المديد ، والنهار الذي يعطل المطر الفلاحين فيه .

من البئر إلى حورة أبيه إلى قبور أشقائه ، كان يبدأ نهاره ، حتى إنْ كانت تمطر ، وحُسْن ترقبه من قريب أو بعيد جذلى . وفي الضحى يدور في البستان ، حول الدائرة ، يتملى الطابق الثاني المغلق ، والمستودع المغلق ، وأطفال الاجراء الذين لايلجمهم المطر والبرد ، ثم يختفي بين الأشجار العارية .

في المساء كان يسرع إلى الساحة خشية أن تكون الادارة قد أرسلت في طلبه وهو غافل في البيت أو في البستان . كان يعبر بالأولاد الكثيرين المعابثين ، يتحاشى من يصادف من النساء ، ولا يعرف كيف يطيل وقفة مع الشبان ، فقد ألفى نفسه بين يوم وآخر أشبه بالغريب الطارىء في الحرزة . واذ تتجدد خيبته يعود الى البيت ، حيث عينا حُسْن تتقدان شوقاً ، كأنه كان في واحدة من سفراته المعهودة ، قبل أن يرحل الأتراك .

من النادر أن كان البيت يخلو ، حتى في الصحو ، ولعل ذلك ماكان أيضا يجعله يخرج ، مشفقاً على الحاج والعجوز وحُسْن وعلى نفسه من صمته . ولعل المرة الوحيدة التي خلا فيها البيت كانت حين انهدم شطر من بيت الإمام ، إثر مطرة طويلة وعاصفة ، فهرع الحاج ، والعجوز ، ولحق بهما الصغار . كانت الغيوم تنسحب سريعاً من السماء ، والشمس تعاود الظهور ، فخرج إلى جوار البئر ، فيما نادته حُسْن من الداخل :

ـ ماقولك بكأس من البابونج ؟

تمنىّ عليها ذلك ، وسمعها تقول :

ـ لن أتأخر .

سار يذرع مابين البئر والحورة ، متحاشياً بقع الماء الصغيرة المغطاة بالأوراق والعيدان ، ولكن حُسْن لم تأت بالكأس . وكانت الشمس وهدأة المطر والهواء تلح عليه أن يفعل شيئا ما ، أن يتكلم أو يمشي أو يشرب أو يذهب الى بيت الإمام .

نادى يسأل حُسْن عما أخرها ، فلم ترد . توجه إلى البيت فإذا بالباب الموارب يصطدم بشيء ولا ينفتح . دفع الباب بقوة منادياً :

ـ أين أنت ؟ وماذا تفعلين ؟

جاء صوتها معابثاً :

ـ هاأنا قادمة . لاتؤاخذني . الماء يغلي . .

وشهقت ساكتة ترخي قميصها فوق الجسد المبتل .

كان هولو قد دخل الى حجرها ، ورآها تنهض عارية من الطشت النحاسي ، تمسح بقطعة من ثيابها الماء من على أطراف جسدها وهي تدير ظهرها اليه ، ثم تبحث مرتبكة عن قميصها ، وقد أحسّت برموشه تجرح ظهرها وإليتيها .

ضحك هولو وتقدم هامساً :

ـ تخجلين مني ؟

كان رأسه يدور بالعجب من أنه لم ير من جسمها سوى رأسها ويديها ، وربما ومضة ساقيها في العتمة .

أطرقت تسوّي طرف القميص متأنثة :

ـ والله العظيم ما اغتسلت من شهر . أنت هنا وترى بعينك . قلت فرصة يابنت ما ترجع طيلة الشتاء .

فتح ذراعيه لها وتعالت ضحكته :

ـ مالك سكتّ ؟

وفيما كانت تندغم في حضنه سمعها تهمس :

ـ خمنت أنني أنتهي بينما يكون الماء غلي ، ولا أتأخر عليك .

لم يعد هولو معنياً بالبابونج ولا بتأخرها . أسكرته لمسة الجسد المبتل الذي لايستر منه القميص غير بعض الصدر والظهر . غمر رأسه بشعرها فامتلأ صدره بعبق جديد ، واندفعت شفتاه تغرقان الشعر ، الجبين ، الوجنتين ، العنق ، وأحسّ بها تلثم ذقنه أو تبللها هامسة :

ـ الباب مفتوح ياهولو والدنيا نهار !

فتضاعفت رغبته بها ، وترك كفيه يطوفان من كتفيها الى فخذيها وهي تتلوى هامسة :

ـ الباب ياهولو . . ياربي !

طار الى الباب ، ثم طار اليها ، فاذا بها قد استلقت ، تشد القميص الى أسفل . انحنى ينزع القميص فتمزق بين يديه وهما يضحكان . وترامت ثيابه حولها ، يستحثه صوتها اللائب :

ـ يكفي أنك مزقت القميص . ماراح أهرب منك .

عصرا مسحورا كان ، أصاب فيه كل منهما المسّ . كانا عاجزين عن الارتواء . كان في أعماق كل منهما أصوات أخرى ، سوى مايلغوان به في أوقات أخرى ، هي من عاصفة الأمس ، من الشجر العاري ، أو وكنة مجهولة في الارض ، في السماء ، في القلب ، وحين أفاقا كان الماء قد جفّ في الابريق ، والابريق غدا فاحماً ، والنار التي تحته انطفأت ، والشمس في الخارج قد ملأت السماء .

في الليل وسدها ذراعاً ، ولفته بذراع توشوشه :

ـ نم ياحبيبي .

ويوشوشها :

ـ أنا أم أنت ؟

ويكتمان الضحكة والرغبة ، يأملان في خلوة أخرى ، فما يكاد الحاج أو العجوز يغادران الباب حتى يخفق قلباهما . ومايكاد الحاج أو العجوز يبتعدان حتى تضطرب حُسْن ، وتتحاشى أن تنظر الى هولو . لكن الصغار يكونون ثمة ، في الداخل أو الخارج ، أو أن العجوز تعود ، أو ينادي الحاج على هولو ، فيلحق به صاغراً ، يصغي اليه مرة أخرى وهو يذكره بنشأته بين أثلام الفلاحة ، بين هذه الأشجار والأبقار والزواريب والبشر . ثم يردد :

ـ أصيل أنت ياابني ياهولو . الله يوفقك . . .

حتى اذا تسنّى لهولو أن يفلت أسرع الى البيت راجياً الخلوة التي صارت تعزّ مثل دعوة الادارة . لكن دعوة الادارة وصلت أخيراً ، أما الخلوة فهيهات أن تجود بها الحرزة ثانية .

كان الوقت ضحى ، وقد قرفصت حُسْن قرب البئر تغسل أطباق الفطور ، وهولو يراقبها ، حينها باغته أحد شبان القرية الذين كبروا أثناء غيابه . كان الحاج يهش قريبا على الدجاجات ، فلما لمح الشاب وقف يصيح به :

ـ أهلاً ياابني ، خير ، إن شاء الله ؟ كيف حال والدتك ؟

وقف هولو يرد متوفزاً تحية الشاب الذي يرمقه بفضول :

ـ الحمد لله ياحاج . والدي أحضر لها أمس دواء من الشام ، أفادها الدواء كثيرا .

حمد الحاج الله ودعت العجوز للمريضة بالشفاء وتابع الشاب :

ـوالدي يقول انه رأى عمر مساء أمس وشدد عليه حتى يبلغ هولو . .

أجفل هولو الشاب وهو ينهره :

ـ يبلغني ؟

بهت الشاب لما طرأ لهولو ، فتابع بجفاء :

ـ أن تنزل الى الشام .

صاح هولو :

ـ ومابلغني والدك حتى الآن ؟

انفجر الشاب .

ـ قال لي في الصباح ولكني نسيت .

واستدار مغضباً ، وهولو يتعوذ من الشيطان ، والحاج يلومه في صمت ، والعجوز حيرى ، وحُسْن واجفة ، تدعو أذنيها لتنكرا أمر هولو بإعداد الصرة ، ثم تدلف الى الداخل وهي تكتم دموعها .

وفي مثل غمضة العين غاب هولو عنهم ، فأقعت حُسْن تئن ، وهرب الحاج الى الدايره عاجزاً ، فيما انصبتْ عينا العجوز على القبور ، لاتلويان على شيء ، ولم يكن أحد منهم قادراً طوال ذلك اليوم على الكلام ولا الطعام .

★ ★ ★

من الحرزة الى الادارة كان هولو ينوء تحت وطأة القلق مما ينتظره . كان يخشى خاصة أن يغضب الادارة التأخر الذي لاذنب له فيه ، فيجعلها تعاقبه أو تطرده ، ولم يجد

من شخص الى آخر ، ومن غرفة الى أخرى ـماينقع غلّته . كل ماقيل له أن يعود في الغد ، وفيما هو يجر قدميه خارجاً طلع له العم حاتم أبو راسين فشهق وتسمّر . ثم ارتمى في الذراعين المفتوحتين ، وانقاد اليهما نحو الغرفة التي لابد أنه قد دخل اليها قبل قليل ، وعلى الرغم من أن العم حاتم يؤكد انه لم يبرحها منذ الصباح حتى لمح هولو من نافذتها .

كانت عيناه تختلجان ، ولسانه منعقداً ، توشك رجفة لحيته أن تجعله يضحك أو يبكي . وأخجله لوم العم حاتم على صمته . وهمهم بأسى :

ـ جبل مع جبل مابيلتقي . . ابن آدم مع ابن آدم . .

فقاطعه العم حاتم :

ـ والقطارات تجمع وتفرق . . . المحطات . . نسيت ؟

ـ أقدر ؟

تساءل بلوعة وأردف يهمس :

ـ لو تعرف كم خفت عليك ؟ قلت لنفسي ضاع عمك ياهولو . . نط من القطار ، حبسوه . . .

وقهقه العم حاتم قائلاً كأنه يكمل ماصمت عنه هولو :

ـ مات . . قلها أيضا .

كان عسيراً على هولو أن يألف العم حاتم كما بدا ، خارج القطار أو المحطات . كما كان عسيراً عليه أن يألف نفسه في ثياب أخرى ، في غرفة شبه عارية ، أمام العم حاتم ، ولعله لذلك لم يجد مايقوله غير أن يلح على سبب الاختفاء ، واذ قال العم حاتم :

ـ لو قبض علي الأتراك ماكنا التقينا . .

عاد يلح كطفل ، والعم حاتم يداوره ، فيسأل عن الحاج والعجوز والحرزة وأخوته ، ثم لايجد مناصاً من أن يفرك كفيه مراراً وهو ينتزع الكلمات :

ـ لماذا تذكرني ؟ زمن راح . . . صدقني ليس عندي ماأخبئه عنك . ربما شمّوا رائحة مساعدتي للعساكر في الفرار . . . ربما شكّوا في أيّ امر . . أنت تعرف . .

اندفع هولو مقاطعاً :

ـ التقيت ببعض هؤلاء . . . جاء منهم من يسأل عنك في دكان سليم أفندي . واحد منهم اسمه عزيز اللباد . . كانوا أربعة أو خمسة . . . لو رأيت كيف صار وجه عزيز عندما قلت إنك اختفيت .

التمعت عينا العم حاتم بالود وقال :

ـ هو اذن نجا ! الحمد لله . . كان عزيز صعباً . كان متهوراً ، يريد الفرار حتى لو لاقى الموت . أين هو الآن ؟

ـ لا أدري . . سنسأل عمر أو سليم افندي . يجوز عاد ورفاقه الى الدكان . . كان ذلك يوم ذهبت الى الحرزة .

وعاد هولو الى ماكان يشغله :

ـ خطر لي أنك قد تكون اختفيت بسبب ماكنت تخبىء في القطار . .

ـ أنت لاتنسى شيئا . .

ملص العم حاتم ثانية ، فراح يحدث هولو ـ يحدث نفسه بالأحرى ، رويداً رويداً ـ عن العساكر الذين ساعد على الفرار ، ومنهم من كان يعرض عليه مايحمل من المتاليك جزاء العون ، أو يعد بجزاء أكبر إذا كان لايحمل شيئا . سوف يدفع مادامت الحرب ستنتهي ، والنجاة مؤكدة ، وابن آدم مع ابن آدم يلتقي ـ لابد ـ . وغضب هولو مع العم حاتم لأن عسكرياً كان يجبن ، وقلق لأن العم حاتم كان يشك في عسكري آخر أن يكون عينا للأتراك على رفاقه ، وعاودته الطمأنينة وامتلأ عجبا لأن العم حاتم كان يمحض عسكرياً ماثقته دون كلام ، فقد باتت يوما بعد يوم له القدرة على ان يقرأ سريرة العسكري من عينيه ، فيصارح من أول كلمة ، أو يوارب حتى إنْ صارح العسكري . وكان هولو يعرف بعض ذلك ، يتذكر أنه سمعه من قبل ، ويتلذذ باستعادته ، ولما تضاعفت حرارة كلمات العم حاتم ، فغر هولو فاه ، يصغي ويهز رأسه ، والآخر يتدفق :

ـ الفرار ليس لعبة ، ليس حماقة ولا مجازفة اذا ماأحسن المرء التدبير . عمك حاتم ابو راسين كان يعرف وهو غاف أين يقف القطار ، وكم تدوم كل وقفة ، وماسيكون فيها ، وأين هي المحطة الآمنة وأين هي الخطرة ، أين تقود تلك المحطة وأين لاتقود التي بعدها ، وهذا وحده ماكان يضمن النجاح كل مرة .

وفي غفلة منه ، أردف وهو غائم العينين :

ـ ذات يوم باغتني مسافر بثنائه على ماأقدم للعساكر . قلت راحت عليك يارجل . اختفى الرجل وأضمرت التوبة . بعد شهر أو شهرين باغتني مسافر آخر. والله لا اعرف إنْ كان هو نفسه الاول . ولليوم لم أر وجه الأول ولا الثاني الذي حدثني عن كثيرين يقاومون الاتراك في كل مكان ، من استنبول الى الشام . بل في باريس نفسها . وقال اني واحد منهم ولو كنت لا أعلم ، وذكر تهريب العساكر .

خفت قليلا ولكن فرحت ، لا أنكر ، وفكرت في التوبة ، وقلت إن الله غفور رحيم . وبعد شهر أو شهرين جاءني من ينشد العون في نقل رزمة صغيرة من الأوراق ، ولا أدري كيف صارت الرزمة رزماً ، وكيف صار في القطار مخبأ وثلاثة وعشرة لاتدركها غير عين عمك حاتم . صارت المخابىء في المحطات ، صارت الرزم تصل على يد عمك الى المكان المطلوب ، صارت رزمة الورق بندقية ، طلقات ، خاصة مما كان يتركه وراءه احد من العساكر ليفّر ، ونسيت نفسي ، نسيت الأتراك ، حتى اذا فتحت عيني قرب درعا قلت انج برأسك يامجنون . لن تخرب الدنيا اذا اختفيت . غيرك كثيرون يقاومون ، طلاب وأفندية وباشوات وجمعيات ، وكتب لي ربك عمراً جديداً .

قطع هولو الصمت الذي أعقب ، ورأس العم حاتم مطرقةبين كفيه :

ـ والباشا شكيم واحد منكم .

ناس صوت العم حاتم :

ـ الباشا شكيم وغيره .

تساءل هولو :

ـ وسليم أفندي ؟

ـ والله لا أعرف . يجوز أنه كان يساعد الباشا شكيم . يجوز أنه كان يساعدنا من بعيد . أنا نفسي اكتشفت بعد كل شيء أني ماكنت غير واحد يساعد . وماكنت في أية جمعية .

ـ كيف ؟

ـ اسألهم . اسأل الباشا شكيم ، هذا تعرفه . هكذا فهمت بعدما عدت الى المحطة. لم يقل لي أحد شيئا ولكن بماذا يختلف الإنسان عن الحيوان ؟ بهذا .

وأشارت سبابته الى صدغه وحكّت ، فيما تابع كأنما يفيق من غيبوبة :

ـ مثلي ومثلك لامكان لهم في الجمعيات . لانحن اساتذة ولا نحن طلابا ، لا نحن افندية ولانحن باشوات . .

قال هولو محتجاً :

ـ أنت اشتغلت مثل أي واحد منهم . .

ـ وربما اكثر ، بالتأكيد اكثر من كثيرين . .

قال مغالباً اعتزازه ، ومبعداً الحسرة ، وتساءل عما إذا كان قد روى غلّةَ هولو بما جره اليه من كلام ، فاحتار هولو ، وهمس متردداً :

ـ وكيف فعلت في هربك ؟

تقلصت قسماته ثانية وزفر وهو يقول :

ـ كان الانكليز والعرب صاروا قريبين ، وأملت الخير ، ولكن من أين ؟ ليالي نمت في العراء . تنكرت واهترأ حذائي ومشيت حافيا . راقبت القطار والسكة والبدو، وأيست. في كل خطوة كان الموت . تهت ولم أستطيع الالتحاق بالقادمين الى الشام . كنت أحلم أن أدخلها معهم ، فاذا بي اتوجه الى الشرق . وحين صحوت قلت هذا أفضل . عمرك مضى ياحاتم بعيداً عن تلك الارض . شفها مرة قبل أن تموت . كنت أصغر منك يوم تركتها ورائي ومشيت . كنت مثلك يوم طلعت على القطار . صحيح أنني وجدت نفسي غريباً هناك ، ولكن . . قل : خفّت الغصة . . صرت أستطيع أن اموت وعيني قريرة .

ـ بعد عمر طويل . . مابك تتكلم هكذا ؟

تأتأ هولو مقاطعاً ، وبلع ريقه وهو يفكر في أن عليهما ان يغادرا الغرفة ، أو يتوقفا عن هذا الكلام ، ولعل العم حاتم أدرك مايشغله ، فنهض متثاقلاً ، ونظر من النافذة :

ـ امش بنا . . ماتريد ان تعرف أين اسكن ؟

فسبقه هولو الى الباب .

★ ★ ★

عاد حاتم أبو راسين الى الشام مشوشا . لقد تحقق الحلم ، وولى الاتراك ، لكن وطأة التخفي والمشي مابين درعا في الجنوب وأقصى الجزيرة في الشرق ، وغربته في موطن

نشأته وآثار الحرب طوال الطريق من أقصى الجزيرة الى الشام ، كل ذلك ناوش فرحته وأربك انتصاره .

وفي الشام بوغت بفصله من العمل . كان يمكن له أن يتخيل أي أمر ، الا ان يفصلوه بسبب انقطاعه ، ثم أن يصمّوا آذانهم عن أسبابه ، وهو عاجز عن أن يؤكد لهم ، لولا أن ذهب الى الباشا شكيم .

لم يجرؤ على أن يصرح لأحد سوى الباشا ـ ومن بعد هولو ـ في أنه وجد نفسه يشرّق كي يودع الارض التي أنبتته . واذا كان الباشا قد أعاده الى العمل ، فالعودة لم تكن الى القطار . لقد ألح الباشا على ذلك ، ووافق هو في لحظة عمى كما وصف فيما بعد . أراده الباشا أن يبقى في الشام ، كي يعين على بنائها ، من موقعه في الادارة ، فكل شيء مخرب ، كل شيء ينبغي أن يعاد بناؤه ، وحاتم أبو راسين أكبر نفعاً هنا منه على القطار . ولكن حاتم مالبث أن أدرك أنه قد أخطأ ، خاصة بعد أن صار الباشا نفسه يتبرم بالقصر والامير والحاكم العسكري ، وكانت الادارة قد أعدت قوائم بصرف عشرات العمال ، بينهم هولو التكلي .

لم يصغ أحد الى صراخه ملء العمارة :

ـ هذه هديتكم الى الشبان بمناسبة تحرير بلادهم ؟

وقصد الباشا من جديد وصراخه أعلى وأوجع :

ـ قل لمن يعدون القوائم أن يمزقوها . هم منحوا الاجازات ، والآن يريدون أن يصرفوا العمال . هذا هو التنظيم الجديد للمصلحة ؟ اذا بدأوا كذلك يجعلون الناس تترحّم على أيام السلطان .

وعلى الرغم من أن الهوة كانت تكبر بين الباشا والقصر ، فقد أفلح في جمع الاصوات ضد قرار فصل العمال ، وأفلحت الاصوات في تشذيب القرار ، وأفلح حاتم أبو راسين في تثبيت هولو ، وترك الادارة تستدعيه من الحرزة .

في الليلة الاولى التي جمعتهما في تلك الغرفة الترابية ، أخرس هولو ، ماسمع عن الفصل من العمل ، وامتلأ ليله بالسؤال عما كان ينتظره لولا العم حاتم . وأقلقه أن تعود الادارة يوما الى تفريقهما ، كما طامنه أن يكون الباشا شكيم هو الذي أعاد العم حاتم نفسه الى العمل . واستنتج بيسر وخزي أن الباشا شكيم هو اذن من أعاد هولو نفسه ، فيما كان يتوهم أن لن تكون له حاجة من بعد الى أحد .

على مضض أمضى الايام التالية ، لايعرف بالضبط العمل المنوط به . قد يسافر الى الزبداني ، قد يلبث في درعا ، قد يقضي الساعات امام الادارة . العم حاتم يقذف به الى مكان ، وآخرون يتقاذفونه . العم حاتم نفسه لايبدو أن له عملاً محدداً ، تراه يتدخل في أمور شتى ، يقدر على كل شيء ، ولايقدر على شيء . وقد بات من النادر ألا يكون ساخطا ، يناكد هذا ، يختلف مع ذاك ، لايكاد يصمت ، أو لايكاد يتكلم ، وهولو يزداد حيرة وخوفا .

لم يتأخر التفريق بين الرجلين ، اذ ألحق هولو بالمعمل في القدم ، وكان العم حاتم نفسه يحثه على ذلك ، وهو مرتبك ، يخشى ألا يكون قادراً على أن يعود تلميذاً ، ويكتم تساؤله عما سيتعلم بعدما صارت له هذه الذقن وتلك المرأة في الحرزة ؟

ربما حلم ذات يوم أن يقود قطاراً ، لم يفكر في أن ذلك يعني أن يدخل المدرسة . لم يفكر في أن للقطار مدرسة ، ستفتحها الادارة في القدم ، وليست قيادة القطار غير واحد من فروعها ، وقد لاتكون من نصيب هولو ، مثلما لم تكن من نصيب العم حاتم ، فهل يرفض ؟

العم حاتم يؤكد أنهم إنما ينتظرون أن يرفض حتى يصرفوه ، فثمة عشرات سواه يرغبون . والعم حاتم يزين له كما في عهد خلا أن يتعلم المرء هذه الصنعة ، مهما تقدم به العمر ، ومهما برع فيها . والعم حاتم يدبر له مبيته في القدم ، إذْ لم يكن سهلاً أنْ يقطع كل يوم مابينها وبين تلك الغرفة الترابية في الشيخ حسن ، في الصباح الباكر وفي المساء المتأخر . وفي نهاية الاسبوع ، صار يحتار في أية وجهة يتجه : الى الحرزة أم الى الشيخ حسن ؟

أول ماحرمته القدم منه كان خروجه في بعض العصارى مع العم حاتم الى أيّ من الأسواق القريبة ، وبخاصة أن يتقدمه العم حاتم الى النادي العربي ، يتريثان قليلا ، يتفرجان على المتكومين في المقهى ، تحت النادي ، ثم يدخلان ، وقد يطول مكوثهما أو يقصر ، يملآن بعد الخروج صدريهما برائحة المأكولات التي تفوح من مطعم نعيم وأسدية ، وقد يدخلان الى المكتبة العمومية حين لايكونان قد تأخرا ، أولا تكون أغلقت ، ويشتري العم حاتم صحيفة ، فتمضي العشية أحلى .

في القدم كان ثمة عديدون يتفوقون عليه أو يتغامزون حول صلته بالعم حاتم . وكان ذلك يقوده إلى الشجار أحياناً ، ويزيد من ضيقه ، فلعلهم محقون ، إذْ لمْ يعد التلميذ المبرز الذي كان صغيراً ، كما أنّ العم حاتم ولي نعمته ، فلولاه لطرد من

العمل ، ولما جيء به الى القدم ، ولكن من منهم بلا وليّ نعمة ؟ وبين من منهم وولي نعمته كما الذي بينه والعم حاتم ؟ كان يجهد كما يريد له العم حاتم كي يؤالف القدم ويصبر عليها ، وكان الربيع الذي هلّ يعينه ، فلم يعد يشكو في ذهابه وإيابه البرد والوحل والبلل . ومثل أزهار المشمش واللوز كانت حُسْن تتفتح ، ونفسه بعبقها تتفتح وبها تتلون ، فيلوبان معاً على خلوة غير مايسمح به آخر الليل والحائط الحجري الذي يفصلهما عن النائمين قريباً منهما .

بيد أن الدنيا لاتكاد تفسح له ، فقد تفاقم الخلاف بين العم حاتم ومن حوله في الادارة . والباشا الذي جعله يترك القطار لم يعد قادراً على نفعه ، أو أنه قد تخلى عنه . والعم حاتم لايؤاخذه ، فمن حق الباشا كما يشرح لهولو ـ وربما لنفسه ـ أن يملّ . ولاريب أن لديه من المتاعب والأشغال ماهو أهم . وقد يكون اليوم عاجزاً حقاً عن مساندة العم حاتم . فالذين ييسّرون تهريب القمح في القطارات ليسوا قليلين ولاهينين . وصوت الباشا لم يعد يرن في القصر شأنه قبل شهور . بل إن العم حاتم لايبرىء نفسه من المسؤولية والخطأ ، إذْ حسب أنهم ثمة فقط ، على القطارات نفسها ، فإذا بهم حوله في الادارة ، وفي كل مكان ، يظهرون أكثر إخلاصاً منه ومن الباشا للحكومة ، وبالتالي فهم أكثر حرصاً على البلاد وقدرة على بنائها . ذراعهم أطول وأقوى ، والذين يساندونه في الادارة لاحول لهم ولاطول ، فإلى متى يطيل مقامه في ذلك المكان الذي يلفه الزعيق والخلط ، الكذب والخسة ؟ أليس أفضل له ألا يبارح ذلك المكان مهزوماً ، ويتركهم يظفرون به ، فينقلونه الى موقع آخر أو يطردونه ؟

هكذا اختار العم حاتم أن ينسحب بسلام ، فطلب أن ينقل خارج الادارة ، وماكاد يعلن عن ذلك ، بعد أن أرّقه طويلاً ، حتى انطلقت أساريرهم ، وأقبلوا يدللونه :

ـ اختر المكان الذي يناسبك .

لكنه تركهم يختارون له ، وهو يطأطىء في سريرته أمام ماتراءى له أنها النهاية التي ابتدأت منذ غادر بنفسه القطار واختفى .

عندما أنهى هولو تدريباته ، كان العم حاتم قد غادر الى محطة حمص . وقد فعل دون أن يودع أحداً . فخلف ذلك في نفس هولو اضطراباً أكبر ، وهو يخشى أن يكون العم حاتم قد عاد يختفي من حياته ثانية .

كان يؤوب الى غرفة حاتم ـ التي صارت مأواه ـ كل مساء ، يقلب في الصحف القديمة ، يعدّ القروش ، يشفق على الزيادة التي قررتها الحكومة على الرواتب ، وكان نصيبه منها كبيراً ، بلغ الربع ، شأن من تقل رواتبهم عن الالف قرش . كان يعدّ الاشياء التي خلفها العم حاتم ، يتساءل عما إنْ كان بوسعه أن يشتري بدلا منها في حمص ، حتى إنْ كان راتبه ينوف على الالف قرش ، والزيادة التي حصلها تنوف على الثلاثمائة ؟ لقد بات هولو يدرك أن مافي جيبه لن يقيم الأود ، لا الآن ، ولا في مطلع الشهر التالي ، ومادام الغلاء يكوي ، فلن يكون بوسعه أن يفي بوعده لحُسْن . سوف يكون عليها أن تظل في الحرزة ، بل قد لايكون بوسعه أن يظل في هذه الغرفة . قد يجد نفسه في الزقاق ، أو أمام الجامع ، أو حيث لاينبغي أن يقف ، أمام غرفة عمر الذي ذهب بعيداً في دروب لايعلم عنها هولو شيئاً ، وإنْ كان تشككه فيها يكبر .

بعد انتهائه من التدريب ، ظل فترة بلا عمل ، يتسكع نهاراً في الادارة وأمامها ، يتحاشى أن يعبر بالغرفة التي كان العم حاتم فيها أغلب الوقت . كما لم يعد يسعه أن يدخل الغرف الاخرى شأنه عندما كان العم حاتم هنا .

كل من في الادارة غدا يعامله كتابع . الذين يحبون العم حاتم والذين يمقتونه ، سواء . لم يكن بحاجة الى الفطنة كيما يقدر ذلك . وما كان بوسعه إلا أن ينتظر ، حتى جاء اسمه في عداد الدفعة الاخيرة من المتدربين الذين حددت لهم الادارة أعمالهم ، وكان نصيب هولو على خط حلب .

كان مستعداً أن يذهب إلى حيث يراد له ، أو يعمل أي عمل يطلب منه . لم يأبه بالذين وشوشوا له أنه قد اختير للعمل على هذا الخط نكاية بالعم حاتم . كما لم يأبه بالذين حسدوه على نصيبه الطيب . كان يعرف أن آخرين قد عينوا في منشآت القدم ، وسواهم أرسل الى محطات قريبة ، ولكن آخرين أيضا أرسلوا أبعد ، ولابد لأحد على كل حال أن يعمل على الخطوط ، بعيداً عن حضن زوجته أو أمه . وفي هذه الآونة كان عبد الودو يهيء لزواجه من خديجة التكلي .

★ ★ ★

بعد جفاء خيل لهولو أنه طويل وقاس ، منّى نفسه بالفرج ، فها هي خديجة تتزوج ، وممّن ؟ من عبد الودود السعد ، وهاهو يتعود على عمله .

ربما أغاظه في سرّه أن الباشا يأخذ على عاتقه زواج خديجة ـ بينما أسعد ذلك والديه وشقيقه وحُسْن نفسها والعروسين ـ لكنه ماكان قادراً على أن يذهب أبعد فيما ينغّص عليه الابتسامة الصغيرة المتأخرة لأيامه .

هكذا أودع الاشياء التي تركها له العم حاتم في البيت الطيني الصغير لعبد الودود ، وعاد يركب القطار . يغيب يوما أو يوما وبعض اليوم ، ثم يقصد البيت ، في حضور عبد الودود أو في غيابه ، يغتسل أو يعدّ مايأكله أو يبعثر رفّي الكتب ، متعجباً من أنه لم يصادف عبد الودود في الحارة طوال الشهور الماضية . وكان يتحاشى أن يعبر في الجهة الشمالية ، حيث غرفة العم حاتم .

في كل أوبة كان يتحسّر لأنه لم يتح له أن يلتقي بالعم حاتم ، ولاأن يطمئن عليه ، على الرغم من وقوف القطار في حمص . وفي كل أوبة لايتابع فيها الى الحرزة ، ويصادف عبد الودود في البيت ، كان السهر يمتد بهما ، يملؤه جديد عبد الودود ومابنكشف من خباياه لهولو .

كان هولو يأنس ويدهش لما سمّاه كنوز عبد الودود وأسرار الصهر الذي يعرف من الشام ما لا يعرف هو ، والذي لم تستطع الشام أن تلوي بعنقه ، على العكس من عمر الذي صار يبدو غريباً يوماً بعد يوم ، ليس على هولو ، بل على عبد الودود أيضاً .

من العمل عند الباشا شكيم انتقل عبد الودود الى العمل عند سليم أفندي ، دون أن يربط نفسه بهذا ولابذاك ، ودون أن ينكر الجميل السابق للباشا عليه منذ يفاعته حتى قرر أن يشق سبيله بنفسه . وإذْ يناكده هولو فيسخر من هذا السبيل المستقل الذي قاده الى سليم أفندي ، وجعله يتبع الباشا حتى بيت الحاج ليطلب يد خديجة ، يثور عبد الودود ويعد :

ـ الأيام بيننا .

كان هولو يلحظ ماتخلفه المناكدة في عبد الودود ، ويشك في أن الرجل يبطن في قرارته مالايظهر على وجهه . لكن هولو كان يزداد إعجاباً بالعربجي الذي يذكر ، يغبطه على ماتعلم من الحدادة والسيارة ، يحسده على قوته ويكبر نقاءه وطيبته ، ويقرع نفسه حين يقارنها بالعربجي ، إذْ لم يستطع بالامس القريب أن يكون غير واحد من التلاميذ الذين كان لا يرضى أن يقارنه بهم الامام في الحرزة . ولعل هولو أخذ يهتم بعمله أكثر بعد الليالي التي قضاها مع عبد الودود .

في كل سهرة كانا يتبارزان فيها قرأ كل منهما ذات يوم ، ومهما تطل المبارزة كان هولو يسلّم أخيراً ، وهو يقلد عبد الودود في ثورته ووعيده :

ـ الأيام بيننا .

كان هولو يتلقف ماإجتمع لدى عبد الودود بين أوبة وأخرى من أخبار الشام ، وينثر هو بين يدي عبد الودود ماتلقفه من القطار والمحطات . كان يحلو لهما أن تنتهي السهرة دوماً الى الأيام القريبة القادمة التي سيتزوج فيها عبد الودود ، ويكون بوسع هولو أن يأتي بحُسْن الى الشام ، ثم يطفىء أحدهما القنديل ، وتروح العيون الاربعة تناوش الشعاع المتسلل من مكان ما في الحارة ، خلل شقوق النافذة الخشبية .

كان بوسع عبد الودود أن يتابع الشام أفضل من هولو . وقد ألف ذلك منذ عهده عند الباشا . أما الآن فالأمر أسهل عند سليم أفندي . كان قد غدا خلال فترة وجيزة لولباً آخر للعمل عند سليم أفندي ، يضاهي عمر . ولعل حاجته إلى ذلك كانت مثل حاجة سليم أفندي الذي لايتكتم مثل الباشا ، وأصدقاؤه أيضاً ، الصاخبون أكثر من أصدقاء الباشا ، الأسرع غضباً والأكثر وضوحاً . وكان قد صار يلتقي بسليم أفندي وحده ، أو بين لداته ، كل مساء ، بعد أن يكون قد أنجز مما يقتضيه الشغل أكثر مما ينتظر منه .

في الايام الاولى كان سليم أفندي يقطع الحديث الدائر ويتجه إليه :

ـ هه ياودود . . ماعندك ؟

فيوجز فيما كان في نهاره ، ويتلقى التعليمات الجديدة ، وينصرف . إلا أن سليم أفندي صار لايقطع الحديث الدائر حين يصل عبد الودود ، ولم يعد يتركه واقفاً ، ينتظر أو يتكلم أو يسمع .

ربما كان هولو يسمع كلمة من هنا عن الانكليز ، وأخرى من هناك عن الفرنسيين : أولاء المخادعين ، وأولاء الطامعين . ربما كان يقرأ خبراً هنا عما يدور في باريس أو لندن حول الشام ، أو خبراً هناك عن الثورة المندلعة في مصر ، لكن عبد الودود كان يأتيه بكلام آخر ، يحس أنه أقرب الى الحقيقة مما يسمع أو يقرأ ، أو أنه معنيّ به أكثر .

كانت المظاهرات تجوب قلب الشام كل يوم تقريباً . وما كان هولو بأقلّ من عبد الودود شوقاً ليشارك في واحدة منها . كانا يدركان على نحو ما أن رحيل الاتراك لم يجل غمّة الشام ، بعد أن قطّعتْ تقطيعاً . الانكليز يجثمون على صدرها ، والفرنسيون في

الساحل ، والأميركيون عاجزون عن أن يفعلوا شيئاً ، والقصر أكبر عجزاً ، إنْ لم يكن خائناً كما بات يتردد على الألسن ، والروس لاهون بأنفسهم عن الدنيا كلها . كان عبد الودود يؤكد أن الاستقلال الذي يعد به القصر لن يكون غير انسحاب للانكليز من الشباك ودخول للفرنسيين من الباب . كان هولو يثور لذلك ، يود لو يخرج وحده في مظاهرة من ذلك البيت الطيني الصغير ، من الليل الدامس للشيخ حسن ، إذْ يندر أن يلتقي بعبد الودود نهاراً . وكان عبد الودود يضحك منه :

ـ ماذا ستفعل ياولدي ؟ من هم أكبر منك ومني لايفعلون غير الكلام مثلنا . كلما رأيتهم يصرخون أعلى في مجلس سليم أفندي خفت أكثر . تسمع الواحد منهم لايخجل من تفضيل الانكليز ، والآخر لايخجل من تفضيل الفرنسيين ، والثالث لايخجل من تفضيل الاميركيين على الجميع : واحد يغمز من القصر ويصيح : هل خرجت سورية من الاحتلال التركي الى الاحتلال الحجازي ؟ والآخر يستعيذ بالله ، فمن يساوي العرب بالترك ؟ واحد ينصح بالصبر ، فكل مايأتي من عند الله خير ، والآخر يسلم بأمر الله ، ثم يؤكد أن لانجاة لنا إلا بالقتال ، فتثور حمية بعضهم ، وينكر بعضهم الهذر في مثل هذه الأمور . .

ولايسكت عبد الودود حتى يقاطعه هولو :

ـ ليتك ياعم حاتم هنا . حرام أن تكون بعيداً عن الشام في هذه الأيام .

فترسم شفتا عبد الودود ابتسامة أسيانة ساخرة ويقول :

ـ وما كان يفعل ؟ يزيد فوق الكلام كلاماً ؟

كان هولو يصمت متحسراً قبل أن يندفع :

ـ هذا رجل فعل ، لارجل قول ياعبد الودود . لاأعلم ما كان يفعل ، غير أنه لا يقضي الليل مثلي ومثلك هكذا . هذا ليس مثل الذين تراهم عند سليم أفندي . هل تظن أن جميع الناس مثلهم ؟ أنت نفسك تتحدث كلما سهرنا معا عن الذين يملأوون الساحات . تتحدث عن آخرين ، عن نفسك على الأقل .

ويحلو له أن يتحذلق فيؤشر على أصابعه :

ـ عندك ناس تقول وتفعل ، وناس تقول ولاتفعل ، وناس تفعل ولاتقول . .

ويصمت وعيناه تشرقان قبل أن يتابع بثقة وتعالٍ :

ـ غداً أنا في الشام حتى العصر . لن أذهب الى الحرزة . القطار ينطلق عصراً ، وإذا اشتقت لي فابحث عني في أية مظاهرة طوال النهار .

حينئذ بسط عبد الودود كفيه داعياً :

ـ ارأف بعقل عبدك يارب . والعمل يامسكين إذا لم تقم مظاهرة ؟

أقسم هولو أنه سيخرج وحده إذن بمظاهرة ، فضحك عبد الودود :

ـ وينادي بك الناس مجنوناً ، وتقودك الشرطة الى الحبس . لا لا . الشرطة لن تعبأ بك . الشرطة لاتعترض من يتظاهر هذه الايام ولو كان مجنوناً مثلك . وبدلا من الحبس ينادي بك الناس ملكاً على المجانين ، ويقودونك الى المارستان إن شاء الله .

كانت اللجنة الاميركية التي جاءت تستفتي الناس في الشام عما يرغبون لبلادهم تشغل عبد الودود وهولو . كانت تختلط لديهما مثل الاخرين الحقيقة فيما يعرفون بالشائعات والخيال . كانت النداءات تستحث الجميع على أن يصرخوا بما يريدون للشام أمام اللجنة . وماكانت لهفة هولو للخروج والصراخ بأقل من لهفة عبد الودود ، ولكن لابد له أن يعمل في النهار ، منذ طلوع الشمس حتى مغيبها . كان يحسد هولو على أن عمله يتوقف مرة في الصباح ومرة في العشية ، وليس من أول النهار حتى آخره كل يوم ، كما هو عند سليم أفندي . وبعد أن هجعا راح يفكر في حيلة على سليم أفندي حتى يخرج غداً مع هذا المجنون . فلما أعجزته الحيلة عزم على أن يغيب فجأة ، بلا عذر ، أو يدعي المرض ، وقد صارح في الصباح هولو بذلك ، فعقب مناكداً :

ـ ماكنت أحسب أنك تخاف سليم أفندي إلى هذا الحد !

فثار عبد الودود :

ـ هذه أول مرة يابطل . لاتنسَ أن سليم أفندي وعمر نفسه لم يعودا يعرفان من الشغل في الجسر ولا في السكة شيئاً . هل تعرف مايسبب غيابي من خسارة ؟

ـ لاأعرف ولا أريد أن أعرف . اذهب الآن ورتب الشغل ، ثم لاقني الى الدكان ، ونقول بصراحة لسليم أفندي أننا ذاهبان الى المرجة . وإذا كان حريصاً على البلاد حقاً فسيسعد بنا .

انفرجت أسارير عبد الودود ، فغبّ ماكان لايزال في الكأس من الشاي وخرج يهزج :

ـ معقول . هذا كلام معقول . لا ، لست مجنوناً . قل ذلك من الصباح قبل أن تجعل دمي يفور .

قبيل الظهر كانا قد وصلا الى المرجة مخلفين ثناء سليم أفندي ونظرات عمر الهازئة . كان الحشد في الساحة ضئيلاً ولم تكن ثمة هتافات . اندفعا نحو أوتيل فيكتوريا

حيث كان الحشد أكبر ولغطه أعلى . وخيل لهولو أنه قد لمح شرابة طربوش الباشا شكيم من إحدى نوافذ الاوتيل . ضاعف اندغامهما في الحشد من حماستهما ، وكان من العسير أن يفهم المرء مايقال . كان ثمة من يؤكد أن الاميركيين لن يقبلوا باللعبة الفرنسية الانكليزية في الشام ، كما لن يقبلوا باللعبة اليهودية في فلسطين . وكان ثمة صوت مجاور يؤكد أن الناس في القدس قد قالوا قولة واحدة :

ـ إذا لم تتوقف هجرة اليهود ، فإما أن نلقيهم في البحر أو يردونا الى البادية .

وانطلق صوت أبحّ وأبعد ، لايكاد يسمع :

ـ تسقط فرنسا . .

فتعالت الاصوات لتردد هتافه ، وانطلق الصوت الذي كان يتحدث عن القدس :

ـ يسقط بلفور . .

فتعالت الاصوات تردد هتافه ، وتدافع الناس نحو رجل مسنّ برز على الأكتاف يوقّع هتافه :

ـ لاوصاية ولاحماية . .

فتعالت الاصوات تردد هتافه ، حتى انطلق صوت آخر من الخلف :

ـ أنت سورية بلادي . . أنت عنوان الفخامة .

فأصغى الناس إليه ، لكن الرجل المسنّ قاطعه :

ـ الاستقلال أو الموت . .

فتعالت الاصوات تردد هتافه ، وكان عبد الودود وهولو يصرخان ماوسعا ، مرسلين أيديهما في الهواء ، ممتلئين عزماً وحبوراً . كانت الهتافات تبعث في رأسيهما الدوار ، بإيقاعها الجماعي . كان للإيقاع حنقه الدفين في صدريهما ، خيبته الملتاعة ، شوقه العارم وقلقه الغامض . كان إيقاعاً بدائياً حاراً يجعل من هذه الاجساد نفوساً مشبوبة ، ومن تلك النفوس أجساداً تتفجر رغبة وعنفاً ، موتاً وحياةً ، وكانت الشام كلها تردد الصدى .

بعيد الظهر أخذ الحشد يتراخى ، وبات عبد الودود وهولو قادرين على أن يسمع كل منهما الصوت المبحوح للآخر ، ويسخر منه . وكان على عبد الودود أن يعود الى العمل ، وعلى هولو أن يتلهى كي يمضي ماتبقى من الوقت قبل أن يحل موعد رحلته ، وهو يقسم أنه لم يشعر بمثل هذا الجوع منذ كان صغيراً .

★ ★ ★

لم يكن لدى هولو في رحلة اليوم مايفعله ، شأنه في أغلب الرحلات منذ عاد للعمل على القطار . ولذلك أخذ ينتقل بين المركبات ، مثلما تعوّد أن يفعل : يصافح العيون المفتوحة والمغمضة ، يلتقط أشتات الصراخ والهمس .

كان الحزن يرين عليه في بداية عودته الى القطار ، وهو يروح ويجيء بين مركبة وأخرى ، غير قادر على أن يبادل أحداً تحية ، فهو لايعرف أياً من تلك الوجوه ، والوحشة تحاصره ، فيهرع الى مركبة القيادة ، أو حيث يكون واحداً أو أكثر من زملائه الجدد . بيد أنه رحلة بعد أخرى ، عاد يحسب كما كان قبل رحيل الاتراك ، أن ثمة وجوه قد ألفها ، وبات بوسعه أن يلقي تحية ، ولايصدق أن مسافراً قد بادره بتحية ، أو ألقى عليه بسؤال .

كان قد قضى الوقت بعد ذهاب عبد الودود بين المطعم والمرجة . وعلى العشب الكثيف الطري استلقى منهكاً ، يصغي الى النهر الدافق ، يدندن بالهتافات القديمة والجديدة ، حتى قدر أن موعد العمل قد حلّ .

في القطار ألحت عليه الحاجة إلى من يحدثه عن نهاره في الشام . كان قد خرج لأول مرة في حياته مع الناس ، إبّان رحيل الأتراك وارتفاع العلم العربي فوق الشام . وفي هذا النهار كانت المرة الثانية . كانت هذه النكهة الجديدة ، الغامضة ، التي يعذبه أنه لايستطيع أن يشرحها لأحد الآن ، فزملاؤه الذين سعى اليهم لم يكترثوا به ، وهؤلاء المسافرون لاهون عنه ، على الرغم من أن بعضهم كان لابد في المرجة مثله ومثل عبد الودود ، كما يظن .

في نهاية المركبة الاخيرة وقعت عيناه على ذينك العسكريين اللذين خيل إليه أنه قد رآهما من قبل مراراً ، فتقدم منهما حذراً ومشوقاً ، حتى إذا حاذاهما التفت إليه الصغير بجفاء قائلاً :

ـ خير ياأخي ؟

تسمّر هولو فيما كان العسكري الآخر المجاور للنافذة ينهض صائحاً :

ـ أنت هولو . . لا تقل لا ؟ جاء بك معنا ؟

ترك هولو كفّه تتأرجح في كف العسكري ، وهو ينقل عينيه بين الوجهين الأليفين ، وتمتم :

ـ عزيز اللباد ؟

ـ نعم عزيز اللباد . وهذا فياض . فياض العقدة . نسيت ؟ صحيح أننا ماالتقينا غير مرة واحدة ، ولكن عزيز اللباد لاينسى . .

تمتم هولو وهو يصافح فياض :

ـ القطارات تجمع وتفرق . . المحطات .

فقاطعه عزيز :

ـ الله يذكرك بالخير ياعم حاتم . . قل لي : ما من خبر؟

أسرع هولو :

ـ هو في حمص . في المحطة .

التفت فياض الى عزيز غامزاً :

ـ عظيم . بعد قليل أراه . قبلك أراه . .

أشاح عزيز :

ـ بلغه سلامي .

ـ وسلامي ، أرجوك يافياض . .

قال هولو وهو يدعوهما الى الجلوس ، ثم أردف مخاطباً عزيز :

ـ بعدما نقلوه من الشام وأنا كلما توقف القطار أسأل عنه من مكان الى آخر بلا نفع . أظنه يعمل في أطراف المحطة .

واتجه الى فياض :

ـ تعرف أن المحطة كبيرة .

قال فياض :

ـ فياض يلقاه .

قال هولو :

ـ من يسأل يصل .

قال عزيز :

ـ تعال ياأخي اجلس بيننا . سبحان الله كم الدنيا كبيرة وكم هي صغيرة !

قال هولو مشيراً نحو مقدمة القطار :

ـ عليّ أن أعود . يامرحبا بالشباب . يامرحبا بالعم حاتم . مازالت حمص بعيدة . أرجع بعد قليل .

ثلاث أو أربع مرات رجع هولو ، يستزيده عزيز عن العم حاتم ، وعن نفسه ، ويفيض هو بما يصطخب في صدره ، يستزيد بدوره عزيز وفياض عن نفسيهما . وإثر انصرافه آخر مرة ، تكور فياض وأغمض جفنيه ، فيما أرسل عزيز نظره عبر الزجاج والظلام ، يفكر فيما ساق إليه الليلة هولو التكلي ، يخاتل الرغبة بالنزول في حمص ، مادامت هذه الاجازة لن تكون إلا كسابقاتها ، يدور حتى تنقضي في صافيتا ، يتعجل النهار والنهارين ، يلتقط أخبار أهله من الدكاكين ، وقد يصادف واحداً منهم أو من قبية أو من التلة ، فلا يزيده ذلك كله إلا قهراً ، فماذا لو وفر على نفسه هذه المرة ونزل عما قليل يبحث عن ذلك الرجل الذي اسمه حاتم أبو راسين ؟

حلا لعزيز أن يقارن نفسه بهولو ، فهما في سن واحد ، ولم يدخلا المدرسة ، وليس شأن هولو في الحرزة بأفضل من شأن عزيز في قبية . كان يستعيد كلمات هولو ويفكر في أن الدنيا قد عجنته وخبزته جيداً ، وأن تلك اللحية ليست لوجه الله . ألم يجعل فياض يبحلق وهو يحكي عن المظاهرة هذه الظهيرة ، ويفصل في طمع فرنسا بالشام ، وطمع اليهود بفلسطين ، ودهاء الانكليز الذين لاذمة لهم ولادين ؟ ألم يكن عزيز نفسه ، رغم اصطناعه اللامبالاة ، أكبّر دهشة وافتتاناً بحديث هولو من فياض ؟

كانت حمص تقترب ، وهو يتردد في أن يوقظ فياض ويستشيره بالنزول في حمص . كان يهرب من التساؤل عما إذا كان يفضل لقاء العم حاتم على صافيتا . هو لن يستطيع حقاً أن ييمم صوب قبية ، ولايرغب في أن يذهب الى التلة حيث قضى الشتاء بطوله . هو يعرف أنه سوف يتعجل العودة الى الشام قبل أن ينقضي نهار الغد ، ولكن مهما كان ذلك معذباً أو غير ذي بال ، فهل يمكن أن يستعيض عنه ولو لمرة بحمص وبالعم حاتم ؟

في كل إجازة ، كان لايكاد يصل الى الشام ، حتى تشرع الرغبة بالعودة الى صافيتا تستولي عليه ، تجعله يخشى أن يكون قد أخطأ في تركه للعمل في التلة ، والتطوع في الجيش . لقد أورثته الاجازات عادة جديدة ، إذ لم يعد يطمئن الى مايفعل . وهاهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى نحو صافيتا أو نحو حمص . منذ تطوع في الجيش صارت كلمة تطير به هنا وكلمة تحطه هناك . ارتجت ثقته بنفسه وبسواها . لم يعد عزيز اللباد الذي كان قبل أن يغضب والده ، ولكن ماذا كان قبل ذلك ؟ كان يستمرىء السؤال كلما خلا بنفسه ، في القشلة أو ثمة أمام زجاج القطار ، يعاين ذلك المجند الذي يسوقه الاتراك أنّى شاؤوا ، أو ذلك الفراري الهائم على وجهه ، أو ذلك العاجز أمام أبيه وأمام بيت بشارة ، فهل كان على خطأ ؟ هل يكون والده على صواب ؟ وإنْ لم يكن فهل يحق للابن أن

يغضب أباه ؟ أيكون هذا الغمّ الذي لايفارقه بسبب غضب أبيه ؟ لم تعد الضحكة تتصادى في أعماقه . حتى الاتراك لم يستطيعوا أن يزرعوا فيه هذا الكمد . الآخرون ينظرون إليه مكبرين ، ربما يحسدونه ويتهيبونه . صيته لايملأ قبية وحدها ، ولقد نجا من شر بيت بشارة ، ولكن من ينجيه من شر أبيه ومن شر نفسه ؟

كان القطار قد دخل المحطة وهو لايزال يركز جبينه على الزجاج ، وكان فياض قد استيقظ وراح يتمطى سائلاً :

ـ كيف نودع هولو ؟

التفت عزيز هامساً ، كأنما يخاطب نفسه :

ـ أنا نازل .

حدق فياض فيه هنيهة ، ثم خبط جنبيه وقهقه :

ـ أهلا أهلا . أخيراً هداك الرحمن وقبلت دعوتي ؟

وقف عزيز قائلا :

ـ بودي أقعد مع العم حاتم .

وكان هولو قد ظهر في بداية المركبة يلوح ، فاندفعا نحوه ، وقبل أن يصلا اليه نادى عزيز :

ـ امش معنا .

صاح هولو :

ـ بعد قليل ، ولكن علمي نزلتك بعيدة . .

قاطعه عزيز :

ـ غيرت رأيي .

قال فياض وهو يدفع عزيز أمامه ، وعيناه على هولو :

ـ بودّي أن أرى عمكم حاتم هذا !

قال هولو منتقلاً من عيني عزيز الى عيني فياض :

ـ إذا حظيت به قبل انطلاق القطار فطرْ به إليّ ، أرجوك .

★ ★ ★

13

أضواء شحيحة تتلامح بالكاد في المحطة وفي جوارها . الأصوات ناعسة وقليلة وأغلب العاملين في المحطة نائمون أو غير راغبين في الكلام ، وعزيز يلحف في السؤال ، يسعى من شخص الى آخر ، بين جهة وأخرى ، في أرجاء المحطة الواسعة ، يلوم فياض لأنه تركه وحيداً ، كأن المشرقة أو جبل الحلو سيطيران إذا ما تأخر قليلا .

صفر القطار معلناً المغادرة حين نهض أحدهم متثاقلاً ، يفرك جفنيه ويتقدم عزيزاً ليرشده الى بيت العم حاتم ، وهو يتلفت في سائر الجهات بين خطوة وخطوة ، يخمن أن هذا العسكري ابن للعم حاتم . يسأل العسكري عن اسمه . يتعجب لماذا لاينادى العم حاتم بأبي عزيز ، ولايبدل رأيه بعد أن أكد عزيز أن العم حاتم ليس أباه .

كان عزيز يطوح بالصرة الصغيرة ، يستدير الى المحطة كل حين ، لكأنه يخشى أن يبتعد عنها كثيراً . ولما اقتربا من البيت كان الرجل يلهج بالثناء على العم حاتم ، ويدعو لابنه بالتوفيق ، ثم ألوى قافلاً قبل أن ينفتح الباب على من خيل لعزيز أنه رجل آخر ، غير الذي يقصده .

- خير ياابني ؟

قال الرجل ، فبهت عزيز ، ولم يجد مايجيب به .

- تفضل ياابني . .

دعاه الرجل وتنحّى له . أنقذته الدعوة ، فسار صامتاً . والعم حاتم يسأل :

- وحدك ياابني ؟

همس عزيز متعجباً :

- من سيكون معي ؟

- لاتؤاخذني ياابني تفضل .

على ضوء القنديل الخافت استرق عزيز النظر من هذا الرجل الخمسيني . لعله أصغر من والده أو أكبر قليلاً . لعله أطول مما كان عزيز يحسبه ، وعيناه أيضا أقسى مما يذكر ، أكثر حدة ، كأنهما عينا صقر . وحده بياض الشعر كان كما يذكر عزيز ، وهذا الصوت أيضاً الذي يكرر الدعوة .

ـ هنا ياابني .

لم يكن ثمة سوى الفراش في الزاوية ، وأشياء قليلة متناثرة وسط الغرفة الحجرية السوداء العارية .

الزوفا أفضل من الشاي . عمك لم يذق الشاي منذ جاء الى حمص . ما لك صامت ؟

كان العم حاتم يلهو بين الاشياء ، وعزيز ينتزع الكلمات انتزاعاً ، حتى إذا ذكر هولو التكلي ، توقف العم حاتم يدقق بعزيز ، ثم يفرش ذراعيه متردداً :

ـ جبل مع جبل مابيلتقي . .

وعزيز يكمل :

ـ ابن آدم وابن آدم لابد يلتقي .

هدأت نفس عزيز ، وأنعشته الزوفا ، بل جعلت من فراش العم حاتم فراشه في قبية ، وهو يجالس أباه في صباح باكر بعيد ، يتناولان معاً الزوفا التي أعدتها أم عزيز .

ماعاد ينتزع الكلام . بل لعله لم يرغب به منذ شهور كما هو الآن ، لولا أنّ الوقت قد تأخر ، وعلى العم حاتم أن يبكر الى المحطة ، وعلى عزيز ـ كما يصر العم حاتم ـ أن ينام ، ولاينهض حتى الظهر ، بعد أن يرجع العم حاتم ، ويهيء الغداء .

أغفى عزيز سريعاً وكان السكون مطبقاً ، كأنْ لاأنفاس في البيت ولانأمة في الكون . ولعل ذلك استمر طويلاً قبل أن تبدأ عجلات القطار ترسل إيقاعها الرتيب في مكان ما ، ليس المحطة القريبة . كان الايقاع ينقل عزيز من فراش العم حاتم ، يرميه على مهل وسط العشرات ، وقد تكومت فوقه الثياب العسكرية . ورف جفناه للقدمين اللتين لاحتا ، فرفع رأسه محاذراً ، وإذا بالعم حاتم يشير إليه :

ـ استعد ياعزيز . .

انقلب إيقاع العجلات إلى صوت حميم يحثه : آن الاوان . لاتتركهم يقبضوا عليك من جديد . وإذا استطاعوا فستنسى اسم هذا الرجل الذي دبر أمرك ، حتى لو أطاحوا برأسك . حين تضع قدمك على الارض انس العم حاتم . انسه حتى تجمعكما

الدنيا من جديد . وهاقد فعلت . أليست اذن عجيبة وجميلة رغم هذه الغصة في حناياك ؟

لقد خالف عزيز الوصية ، ولكن أمام راغب وفياض وياسين واسماعيل ، أمام دكان سليم أفندي . وحمادي الحسون هو الذي بدأ . هو الذي شجعه ، فلولا أنه حدث عن العم حاتم لنسي عزيز حقاً أنه عرف يوماً من يحمل هذا الاسم . لو قبضوا عليه ثالثة ورابعة وعاشرة وسألوه عمن ساعده على الفرار لكان عاجزاً حقاً عن أن يتذكر العم حاتم أو أياً من العساكر الذين كانوا يتكورون حوله ، أشبه بالأموات ، ولولا العم حاتم لكان عزيز واحداً منهم . بل إنه كان ميتاً حقاً ، حتى بعث في الجيش الميمم صوب الشمال ، وصارت له أسرته الجديدة بين حمادي وراغب ، ياسين واسماعيل ، وذلك القرد فياض ، وآخرين تعجزه اسماؤهم الآن بعد أن بددتهم الطريق الى الشام .

عج بيت العم حاتم بأسرة عزيز القديمة وأسرته الجديدة ، ولكنه ماكان يوشك أن يحضن أياً منهم حتى يفرّ . خلا البيت إلا من اثنين أو ثلاثة ، أقدامهم مثل قدميه : متورمة من السير ، بطونهم ضامرة مثل بطنه ، وليس لديه سوى كسرة الخبز ، يتقاسمونها . بيد أن الذين بقوا كانوا أشداء ، لاتنقصهم البهجة ، يتمازحون ، يتسابقون ، يتشاجرون ، يطلقون الرصاص ، وكلما قتل واحد منهم أو اختفى كان ثمة من يحل محله . كانوا جيشاً وحدهم ، لايطأطأون أمام الضباط كالكلاب . خليطاً من البشر هم ، تقاطروا من أنحاء الشام ، بل من العراق والحجاز أيضاً . شيوخاً وفتياناً كانوا ، خيالة وراجلين ، وحولهم رجال يقال إنهم جاؤوا من أقصى الارض ، من بريطانيا .

أطل حمادي الحسون بعد طول غياب . ملأ دخان سيجارته التي لاتنطفىء سماء البيت الحجري الأسود ، فزاده سواداً . لوح لعزيز بمرتبه الذي قبضه للتو : ليرتان بالتمام والكمال ، وكان أكبر سعادة بهما من الجنيهات الثلاثة التي يقبضها عزيز منذ تطوع في الجيش . أتى حمادي على السجائر وعلى الليرتين ، واستعصى عليه أن يدبر سيجارة كعادته ، فاستوقف أول ضابط صادفه وصاح به :

ـ أنت تدخن على هواك وأنا خرمان ؟ لو كانوا يعطونني عشر مايعطونك ماانقطعت من السجائر .

كان الضابط فتياً وطيباً ، فقدم لحمادي مافي جيبه وهو يعتذر :

ـ صدقني : هذا الدخان يذهب بربع راتبي . ماذا تظنني أقبض ؟

ضحك حمادي وانصرف دون أن يحيّي . اختفى من البيت الحجري وجاء رجل آخر . لا . لم يكن حمادي الحسون في البيت . أبو عاطف هو الذي كان . أبو عاطف هو الذي أراد أن يقلد حمادي ، لكن الضابط كان عابساً ، ومغروراً ، وبخيلاً ، فوقعت الواقعة . علق المسكين بلسان اسماعيل معلا . حيّا اسماعيل معلا ، ونقل نظره شزراً من رتبة الضابط الى حزامه ، يعدد له مرتبته وامتيازاته ، يتباهى عليه بما يقدمه هو وعزيز وياسين وحمادي وراغب وفياض القرد ، ويعيره بنومه الطويل وأكله الكثير وسمنته ، وعلى الرغم من ذلك ، لم يعاقب أبو عاطف كما لم يعاقب حمادي الحسون . بل إن أغلب الضباط باتوا يمدون أيديهم لأي منهما بالدخان ، ويهرع أحدهما الى كل من كان في هذا البيت الحجري ، ليوزع عليهم بالتساوي ماامتلأت به جيبه ، لايفرق بين مدخن وغير مدخن .

عاد السكون يطبق على عزيز ، فقد خلت الدنيا ممن يحب . لم يعد يلتقي أحداً سوى فياض . أقلق نومه السؤال عما حلّ بهم . هل صار راغب الناصح رئيس مخفر في عين فيت ؟ لماذا لايتجه عزيز الى هناك ، أو الى العال نفسها في إجازته التالية ؟ سوف يكون لقاء آخر لايقل روعة عن هذا اللقاء بالعم حاتم . هل ترك أبو عاطف وياسين الحلو الجيش كما كانا يحلمان ؟ لماذا لايجرب أن يبحث في كل إجازة عن واحد منهم ؟ ألن يساعده ذلك على أن ينسى قبية وبشارة والتلة وابن الدباس وغضب أبيه وحزن أمه وشوقه إلى أخيه ؟ .

صخبت عجلات القطار فجأة ، قريبة جداً ، ليس في المحطة ، بل هاهنا ، في البيت الحجري ، حيث يتمدد عزيز فوق فراش العم حاتم . لا ، ليس هذا بإيقاع أنيس . إنه هدير عاصف ، مجنون ، إنها الحرب من جديد . وحمادي الحسون وحده على حق إذْ يفرّ . أعلن الضباط العصيان . اندلعت النار في صفوف الجيش الميمم الى الشمال . أغرقته المناشير التركية التي تفضح خديعة الانكليز والفرنسيين ، وهتف حمادي وكثيرون خلف الكثيرين من الضباط :

- نقاتل الانكليز أولاً .

بيد أن النار انطفأت بغتة ، وانتهى العصيان ، وحمادي الحسون وحده على خطأ إذْ صدقهم واختفى . لم يعد يملأ الليل بغنائه اللائب على صبية لايسميها . وعادت الحرب تجأر . انتصر الجيش الميمم الى الشمال والحرب تجأر . انهزم الاتراك والحرب تجأر . وقد يكون هولو التكلي وحده على حق ، مثل حمادي الحسون ، فلا أمان للانكليز ،

والفرنسيون يزحفون على الشام ، والقصر يلعب بالنار ، فلماذا انقضت كل تلك السنين اذن ؟ لماذا ضاعت الارض ؟ لماذا غضب الأب على ابنه ؟ تعال ياعم حاتم وانظر إلى هذه العجلات . تعال اسمعها . إنها تقود الى الجحيم ، وعزيز اللباد عاجز عن الفكاك ، وجهه يتقلص ويشحب ، أسنانه تكزّ ، وكان الوقت قد تجاوز الظهيرة ، والعم حاتم قد عاد الى البيت منذ قليل ، يمشي على رؤوس أصابعه ، يتحاشى أن يصدر صوتاً وهو يعدّ الغداء ، لكن عزيز قربه يتعذب . هذا ليس نوماً ، بل عذاب . فإلى متى سيظل يتفرج عليه ؟

- مابك ياابني ؟

سأل وهو ينحني متلمساً جبين عزيز الذي تململ قبل أن يباعد جفنيه بمشقة .

- تشكو من شيء ؟

عاد العم حاتم يسأل ، لكن الجفنين استرخيا وأطبقا ، فنهض حائراً ، وعزيز يفتقد العجلات المجنونة ، يهنأ بالأمان ويخلد الى سكون الكون . يتلفت حوله فإذا به أصغر من أن يكون علامة في هذا المدى ، حتى حبة رمل لايعدل ، والآفاق من حوله لاحد لها ، الا تلك التلة التي كان يحسب أنه قد نجا منها ، مادام قد تطوع في الجيش .

أخذت التلة تقترب منه . لم يعد ثمة بيت حجري ولامحطة مجاورة ولاحمص ولاالعم حاتم . كان عزيز وحده حافياً ، فقد ثيابه العسكرية ، وجاء ابن الدباس ينهر به صباح مساء . حتى الأتراك لم ينهروا به هكذا ، فكيف يمكن له أن يعيش في التلة حياته كلها ؟ هل سارع الى الشام وسلم بندقيته من أجل ذلك ؟ بماذا يفضل ابن الدباس بشارة ؟ ماالفرق بين هذا الآغا وذاك الآغا ؟ ماعذر ابن الدباس وهو حامي العشيرة والدين ؟ ألم يجد لعزيز اللباد عملاً غير أن يكون كلباً لحراسة الحقول ؟ لاهو بالوكيل ولا هو بالحارس ، بل كلب يسمونه الخضري ، وكلاب ابن الدباس جميعاً تتنافس على نهش الفلاحين ، كما على رضا الآغا . لكي ينجح عزيز اللباد عليه أن ينهش ، ينبح ويعض ويلحس ويشمشم ويبول رافعاً ساقه وينهش . أظافره ينبغي أن تكون طويلة . أنيابه ينبغي أن تكون حادة ، فهل هذا ماكان يحلم به بعد أن تصدى لبيت بشارة ، وعفّط للقشلة ؟ على ماذا يحسده العواطلية الآخرون في التلة ؟ كل منهم قد آواه ابن الدباس ببيت ، ولو كان على ساموك واحد ، أما عزيز فلا مأوى له . على ماذا يحسده الأغبياء ؟ واحدهم يحمد الله حين يأتي دوره في السخرة على أن بيته بساموك ، فسخرته ليوم ، أما عزيز ، فليله سخرة ونهاره سخرة . هم يحرثون ويقطعون ويزرعون وينامون ، وهو ليس

له إلا أن يدور ويدور ، يتلصص على الأيدي والبطون ، يتنصت على الهمس . ماذا يجدي مديح الناس ؟ مديحهم هو الذي يجرّ عليه المصائب . لو فعل كالآخرين لما كان الآن في حمص . لو داهم الناس حتى وهم يركبون زوجاتهم ليتيقّن إن كانوا يخفون شيئاً أو أمراً ، لما لجأ الى الجيش . كان على عزيز كي ينجح أن يقدم لابن الدباس كل يوم سبباً كي يضاعف من تسخير الناس وإطباق أصابعه على أعناقهم ، لكن عصا الخضري عزيز اللباد تراخت عن الظهور ، فلم يعد خبز الفلاحات يروق للآغا . حتى الوكيل لم تعد ترضيه الجلّة التي تنقب خيرزانته فيها بحثاً عن حبة شعير . لم يعد يعجبه الحطب الذي يحمله الفلاحون والعواطلية اليه . والوكيل يفح في أذن ابن الدباس . الكلاب أيضاً تفعل على طريقتها ، ومن الفلاحين من فعل على طريقته ، وعزيز يبصر ويسمع وينتظر الآغا الذي لم يكن بحاجة إلى من يثيره على أحد .

هل يعقل أن عجلات القطار تصدر فحيحاً ؟ كيف يكون ذلك الإيقاع فحيحاً ؟ إلى متى كان يسع عزيز أن يتحمل ؟ شتاءً طويلاً طوى ، عاجزاً عن الوصول إلى صافيتا على مرمى حجر . لم يعد قادراً على أن يلتقط خبراً من قبية . صارت التلة سجناً تلعب فيه الأفاعي ، لكن عزيز اللباد أدمن الفرار . عليه وحده أن يدبر فراره هذه المرة ، مادام العم حاتم بعيداً .

صار السجن يهتف به : دع التلة لابن الدباس ، للعواطلية ، للوكيل ، للكلاب ، للفلاحين ، دع قبية لبيت بشارة ولأبيك . دع صافيتا كلها . احسبها لم تكن . دع الشام كلها . احسبها لم تكن . ثمة من سبقك وهو أصغر منك وأضعف . ليس عليك إلا أن تدبر أجرة الباخرة ، وتغمض عينيك شهراً أو شهرين ، حتى ترى نفسك في الأرجنتين أو فنزويلا أو البرازيل . لست أول ولا آخر من يهاجر . من قبية نفسها ثمة من سبقك . من التلة ، من كل هذه القرى المترامية ، من حيث تقف فوق برج صافيتا حتى البحر . سوف تظل تعمل في التلة حتى تموت ، دون أن تستطيع توفير الناولون . هيا اذن الى الجيش . ثلاثة جنيهات كل ثلاثين يوماً ليست قليلة . ولعل الحكومة قد رفعت أجر العسكري من جنيهين الى ثلاثة إكراماً لك . لعلها قد فتحت باب التطوع من أجلك وحدك .

لبى عزيز النداء الذي غلب الفحيح . لم تعد العجلات أفاع . بيد أن الشهر يجري في أثر الشهر ، وهو لايستطيع أن يدخر قرشاً . سوف يظل يعدّ الشهور والجنيهات في الجيش حتى يموت دون أن يوفر الناولون . والباخرة تقلع وتخلفه على الرمل ، القطار

ينطلق ويخلفه على الرصيف ، والسجن يعود اليه وهو ذاهب آيب بين صافيتا والشام ، فهل ينصاع ؟ أم يجرب من جديد وينزل في حمص ، ويلتقي بالعم حاتم ، ويضع يديه في يدي فياض ، هولو ، الآخرين الذين تاه عنهم ، ويجعلون معاً هذه الدنيا أرق وأبهى ؟ .

كان السؤال يرسم على شفتيه الغافيتين ظل ابتسامة ، وصدره يخفق بقوة ، حين ملّ العم حاتم انتظاره ومراقبته ، ومد كفه يمسح على الجبين المندى . كان عزيز راغباً في أن ينهض لولا مايغلّه الى الفراش ، يرفرف جفناه ، ثم ينطبقان ، تنفرج شفتاه ثم تنطبقان . وخشي العم حاتم أن يكون مابعزيز المرض . عاد يمسح على الجبين فارتدت كفه ملسوعة . أسرع يبلّ خرقة بالماء ويفرشها على الجبين الحار . مد عزيز لسانه لائباً على قطرة ماء . انسابت القطرات من الخرقة فوق وجنتيه ، فامتدت كفه الى جبينه ، وهو يستوي في الفراش ، يحدق في العم حاتم مشدوهاً .

تنفّس العم حاتم الصعداء ، وتبسّم قائلاً :

ـ أفزعتني يابني . تشكو من شيء ؟ الوقت قارب العصر وأنت نائم . كان نوماً أم كوابيس ؟

وقف عزيز يتمطى ويمسح وجهه بالخرقة المبللة ، فتنسرب قطراتها الى صدره ، ويسري فيه النسغ ، لكأنه لم يكن قبل ثوان مهدوداً ومكموداً ، وملأ صوته الغرفة :

ـ أنا جائع ياعم حاتم .

★ ★ ★

14

أيقظ فياض العقدة أمه وأخواته قبيل الفجر ، شأنه كلما قدم في إجازة . لقد غدا كبير الأسرة وأنساها ماكانه ذلك الفتى الأمرد الصغير . امتلأ قوامه وكبر حذاؤه وصار يخبط به الأرض خبطاً ، يقطع المسافة بين المحطة والمشرقة كأنه يتمشى بين المرجة وكيوان ، لايهمه إن كان الوقت ، صحواً أم ممطراً ، حراً أم برداً .

ربما كبر فياض بعد رحيل الاتراك أضعاف ماكان ، منذ ذهب الى الحرب حتى آب سالماً . كان يحلو له أن يتخيل لقاءً قريباً مع راغب الناصح ، أو ياسين الحلو أو أبو عاطف ، ينكرون فيه أن يكون هذا العسكري هو فياض العقدة . كان يرجو أن يجمعهم الزمن ثانية ليرى إنْ كان سيبقى صغير أسرتهم ؟ هو الآن يتشهى طعم العرق وطعم النبيذ ، منذ أن صار يسرق من إجازته يوماً ، ويقصد الجبل . هو الآن يدخن أيضاً . لم يعد يرمق ببله الذين يتباهون بما يصنعون من العرق أو النبيذ ، أو يتباهون بجودة مايدخنون ، مثلما كان وهو صغير يتقفى أثر أبيه في الجبل .

أذكر فياض الشيوخ في المشرقة والجبل بأبيه وبماضيهم . حرك ظهوره هنا وهناك ثناءهم وإعجابهم وزوق خيالاته أن يسأله واحد منهم :

- متى تتزوج يافياض ؟

إنه ينسج الآن جوابه بسرية وغموض ، وهو عجول دوماً . ولذلك صار لايكاد يصل الى المشرقة ، ويطمئن على أسرته ، حتى يتوجه الى الجبل ، كأنه فرغ من أمر مهم الى أمر أهم . وماكان ذلك ليخفى على أم فياض منذ أول مرة ، لكنها صبرت حتى هذا الصباح ، فلمّا فرغ من الحليب وتوجه نحو الباب ، قالت :

- أنا أمك .

- ماذا تخبىء عني يافياض ؟

- ماقصدك ياأمي ؟

ـ أنت تعرف . الجبل يشغلك أكثر مما كان يشغل المرحوم . .
ـ لاشيء ياأمي . لاشيء والله العظيم . خاطرك .

كانت أمه تحثه في البداية على أن يصل ماانقطع مع الأخوال والجبل كله ، لكنها باتت قلقة من منازعة الجبل لها عليه . صار لايكاد يدخل البيت ، فيغتسل ، ويأكل ويداعب أخوته قليلاً ، حتى يبدأ يحوص ، وقد ينام ، كأنما يوفر الشطر الأكبر من الإجازة ليقضيه هناك . بات يتحاشى أن يطيل الحديث مع أحد ممن قد يأتي للسلام عليه ، أو يطيل الوقفة مع أحد قد يصادفه في الأزقة أو على الشريط المحاذي للنهر . لم يعد يشغل نفسه بأخبار البدو الذين لم يداهموا المشرقة منذ زمن . لم يعد يعرج على البيك في حمص ولايهتّم للخواجة ثابت .

من المشرقة الى الجبل ، كان في البداية لايتوقف ، ثم صارت دربه تتلوى حول مرجمين ، منذ صادف بنت الصوان في اجازته الأولى ، بعد أن تطوع في الجيش . كان سعيداً اثر أيام من الاضطراب ، تكاثر فيها القول حول حل الحكومة للجيش . وأعجزه أن يفهم مايعنيه الملازم تحسين شداد حينْ شرح له :
ـ هذا ضروري حتى يشكّلوا الجيش من جديد .

كانوا قد تركوه جميعاً . وحده من بينهم بقي في القشلة ، لاعزيز اللباد ، ولاأبو عاطف ، لاراغب الناصح ولاياسين الحلو . كان بعدهم أشبه باليتيم ، لايأنس الا لهذا الذي فيه من رائحة زمنهم . لكن الملازم تحسين لايكاد يبادله كلمتين حتى ينصرف عنه . ولعلّ فياض كان سيترك القشلة هو الآخر ، لولا أن البيك قد قال :
ـ الغربة تعودت عليها وتعودت عليك . الجيش أفضل لك من أن تعود الى المشرقة . ألا ترى الناس كيف تعيش ؟

ربما كان ابن الأكاشي هو الذي جعله يكتشف أنه لايريد أن يكون فلاحاً في المشرقة أو سواها ، مثل الآخرين . وكان فياض يقدر ذلك ويمتنّ له ، وهو يستعيد كيف جعله ابن الأكاشي من قبل يكتشف الطريق الى ذلك الجيش الذي كان ييمّم شمالاً نحو الشام . على أنه ماكاد يوطن نفسه على أن تكون حياته هاهنا : في القشلة ، حتى صار من حوله يتحدث عن التنظيم الجديد للجيش والتسريح والتطويع والتجنيد ، فتبدو له الكلمات طلاسم ، وتنبق وساوسه ، فماذا إنْ لم تعد الحكومة تشكيل الجيش ، وكذب الملازم تحسين ؟ لماذا تصرف العديد من الضباط الذين عرفهم خلال التقدم نحو الشام ؟ لابد أنها سوف تصرف جنوداً أكثر . ليس فياض العقدة أهم من الضباط حتى تحتفظ به

الحكومة . الملازم تحسين نفسه قلق على بذلته ، فكيف فياض ؟ إنه يحب هذه البذلة ، يؤثرها على ماكان يلبس قبلها ، يستهويه الانتقال من مكان الى مكان ، فهل يحرم من ذلك ، ويعود صفر اليدين ؟

كان يماحك هواجسه ، فينكر أن تظل الحكومة بلا جيش ، يؤكد أنه سوف يكون أول المتطوعين . الحكومة ترغب بتطويع الشبان وهو شاب ، لاعجوز مثل ياسين الحلو أو اسماعيل معلا . الحكومة ترغب بالمتعلمين ، وفياض يحسن القراءة والكتابة ، وهاهو قد حفظ كل هذه الكلمات العربية الجديدة التي تتداولها القشلة ، بدلاً من الكلمات التركية . فماذا تريد منه الحكومة أيضاً ؟

حين نقل الملازم تحسين إليه البشرى ، وقبل تطوعه في القائمة الأولى ، لم تدعه الفرحة يغفو . وفي اليوم التالي كبرت الفرحة ، إذ ظهر عزيز اللباد متطوعاً مثله . وفي اليوم الثالث صارت الفرحة أكبر، إذ جاءه الملازم تيسير يلوح له بإجازة ، ويودعه . وفي تلك الاجازة استوقفه المطر وهو يقترب من الجبل في مرجمين ، فلجأ الى بيت الصوان .

كان المطر قد جعله يلتجىء تحت الشرفة الجانبية للبيت الأخير في القرية . وقد طال به ذلك قبل أن يناديه صوت غليظ :

ـ ماذا تفعل عندك يارجل ؟ عيب . ادخل . أنت في البرية حتى تقف هكذا ؟ هذا بيت الصوان . . أهلاً بك .

من ملجأه الى الباب الذي يملؤه الرجل اندفع يجري . أفسح له الرجل، ووقفت امرأة ترحب مشفقة، تحثه على أن يقف أمام الموقد .

قبل أن تجف ثيابه كانت الشمس قد غابت ، والريح التي اشتدت جعلت المطر أقوى ، فأمره الرجل أن يتربع ويمضي ليلته في البيت . وقبل أن تضع المرأة العشاء كان قد صار الرجل يناديه باسمه ، وكان هو ينادي :

ـ ياعم نظير . .

وينادي المرأة :

ـ ياأم عبد اللطيف . .

ويتحيّن الفرصة المواتية حتى ينادي الفتاة التي لم تفتأ تملأ الموقد بالحطب :

ـ يانجوم . .

شرب الرجلان النبيذ قبل العشا وبعده ، والتمعت عينا نظير الصوان وهو يسترجع ذكرى هبوب الجبل في وجه الأتراك والدنادرة ، يغدق على والد فياض وعلى

عمه الرحمة ، ويستزيده عن نفسه وأمه والمشرقة والحرب والشام . واكتشف فياض أن لديه الكثير ليرويه ، خاصة أن عيني نجوم تستحثانه .

الريح المتلاطمة حول البيت ، والنار التي تؤججها نجوم ، وإصغاء أمها وحرارة أبيها ، ونبض ما ، جديد وأقوى في صدره ، كل ذلك كان يستحثه ، فينطلق مشوقاً ومعجباً ، وترن كلماته في سمعه ، لكأنه لم ينطق بها من قبل ، ولعله كان قادراً على أن يتابع حتى الفجر ، لولا أن نظير الصوان أكثر من شرب النبيذ ، وغنى ، واجتمعت عليه البهجة بضيفه ، وذكرياته ، وماينوء تحته اليوم هو ومرجمين . كان صوته خفيضاً ، لكنه يزخر صلابة ومرارة ، يلوي بعنق فياض عن نجوم وعن نفسه ، يدور معه من معاصر الزيتون التي عمل فيها ثمة في الجبل ، حين كان أبو فياض لايزال حياً ، إلى معاصر السمسم والزبيب والمطاحن التي تنقل بينها ، من الجبل حتى حمص . كان نظير الصوان يبدو لفياض ، كلما تقدم به الليل ، عالماً بكل شيء ، فلا شبر في هذا المدى من حمص إلى الجبل لايعرفه ، لاعمل لايجيده ، حتى الحلاوة السمسمية ، المساند والفرش ، المخدات واللحف ، بل إنه يبذّ أم نجوم ونساء مرجمين في نسج القش وصبغه ، والطبق الذي لازال أمام فياض من صنع يدي نظير الصوان ، المسند الذي يتكىء عليه ، الفراش واللحاف اللذان سيلفانه حين ينعس . وماهو أهم أن نظير الصوان استطاع أن يجمع كلمة الفلاحين في مرجمين ، وقادهم الى طرد الوكيل شر طردة منذ أيام .

في الاجازة التالية تردد فياض في أن يعرج على بيت الصوان . كانت السماء صافية ، ورائحة الاعشاب تعبق حوله . لم يجده أن يسأل الله كي تفتح السماء قربها أقوى مما فعلت ذلك المساء . كان يحلم بمطر ورياح لاتترك المرء قادراً على أن يخطو خطوة . وحين أشرف على البيت حرف خطوه بعيداً ، يغالب قدميه اللتين تنجران الى الخلف ، خاصة بعد أن صارت مرجمين تبعد ، وأيقن أنه لن يرى نجوم .

لم يستطع المشي طويلاً . توقف والشمس تنسحب ، يدقق في العائدين من البرية ، يرجو أن يصادف أحداً من بيت الصوان . انتزع قضيباً من شجرة بطم قريبة ، وراح يتلهى بنكش الاعشاب التي تسوّر الدرب ، ولم يلتفت حين سمع صوتاً يسأل :

ـ هيه ماذا تفعل ؟

عاد الصوت يسأل :

ـ ألا تسمع ؟ فياض . .

كانت نجوم قربه واقفة تضحك . ارتمى قضيب البطم من يده وهفا :

ـ أين أنت ؟

أنزلت الصرة من على رأسها قائلة :

ـ هل كنت تبحث أيضاً عن الهندباء ؟

ـ قولي الخبيزة . .

قال ضاحكاً وقد صارت أنفاسها تلفح وجهه ، وكفها تشير الى الصرة :

ـ لاتتعب نفسك ، ملأتها من كل ماتشتهي ، انظر . . هذا السلبين هل رأيت مثله ؟

ـ كل الذي أراه هنا لم أر مثله في حياتي . .

أدارت عينيها حولها :

ـ الشمس تغيب . .

تلفت يبحث عن الشمس ، فضاء وجهها في صدره . فرك جفنيه وعجز عن أن يدقق في خصلة الشعر المرخية في جبينها . استراحت عيناه على الشامة التي تتوسط ذقنها ، ودت العينان لو تمسحان على الشامة ، لكن نجوم غمغمت :

ـ مابك يافياض ؟

هم بالتقاط قضيب البطم ، فلم تطاوعه يده . ألحّتْ نجوم :

ـ فياض . .

غالب عجزه حتى جعل شفتيه تهمسان :

ـ لاأعرف مابي يانجوم . بعدما سهرت في بيتكم لاأعرف مابي . آه ، لو تجاوزت مرجمين دون أن أراك ، لاسودت الدنيا في وجهي .

ـ اترك كلامك الحلو للسهرة . هيا .

ـ لاأقدر أن أزوركم كلما عبرت هنا . .

ـ السبب ؟ والدي أحَبّك ، وأمي . هيا . لقد تأخرت .

قالت وهي ترفع الصرة إلى رأسها ، لكنه لم يكن قادراً على أن يرافقها . تراءى له أن عليه أن لايبدو ضعيفاً ، فمد إليها كفه مودعاً ، وخيل إليه أن كفها قد غضبت ، فظل نادماً طوال الليلة ، زاهداً في زيارته للجبل ، بل في زيارته القادمة ، حيث لن يزيد عن أن يعيد بعض ماروى عن نفسه أو الشام أو حمص أو المهاجرين من الجبل الى المشرقة ، كما لن يسمع جديداً ، وقد تأخر عليه الصباح كثيراً ، وهو يستعيد نظراتها المعارضة ، وصوته يرجوها أن تنقل لأبيها ولأمها سلامه ، ويرجح أن يعرج في الغداة .

كان الوقت ظهراً حين أشرف من علٍ على مرجين ، يحمل زجاجتين كبيرتين من أفضل مافي الجبل من نبيذ ، كما أقسم خاله . أركز عينيه على البيت من بعيد واندفع ، لايتلفت يمنة ولايسرة ، كأنما يخشى أن يهرب منه البيت إن غاب عنه رفة جفن .

لم تكن نجوم ولاأبوها ثمة . تحسر لأنه لم يبحث عنها في البرية ، فلعلها الآن تجمع من الأعشاب كما بالأمس ، ولعلها تتلفت باحثة عنه ، وهو قابع أمام البيت ، وأمها تروح وتجيء مرحبة ومتعللة بالأشغال التي لاترحم ، وتعد بعودة نظير بعد قليل .

وصل نظير عصراً . عانق فياض ولوح بالزجاجتين ونادى على نجوم ، فقال فياض :

ـ ما رجعت .

نادى على بكره عبد اللطيف ليأتي بكأسين ، وكانت الأم توقد التنور ، وتعد من طرف الحاكورة برغيفين يسيلان اللعاب ، ويجعلان النبيذ أطيب . تأخرت نجوم ، ولم يخفف النبيذ عن فياض اضطرابه جراء تأخرها . كان المساء يقترب سريعاً ، وموعد انطلاق القطار من المحطة البعيدة يقترب أسرع ، وأبو عبد اللطيف ـ كما صار فياض يؤثر أن ينادي مضيفه ـ يتعجل بصراخه امرأته كي تنتهي من الخبز ، وتعدّ مايؤكل .

حين ظهرت نجوم من بعيد كانت زجاجة النبيذ الاولى قد فرغت . كانت تحمل فوق رأسها صرة أكبر وتتهادى ملوحة بذراعيها . هب فياض يلاقيها ، وأبوها يضحك . تناول الصرة ، مشفقاً على رأسها وهامساً بحنق :

ـ على مهلك . ماذا أفعل الآن ؟ كيف أصل الى المحطة قبل ماينطلق القطار ؟

قالت غنجة :

ـ والدي لا يتركك .

تساءل راغباً وخائفاً :

ـ والقشلة ؟

كلانا قد اقتربا من المصطبة . وأبوها يقول :

ـ نجوم تحمل على رأسها جبل .

ـ فياض يريد أن يذهب .

قالت نجوم كأنها تشكو لأبيها ماأساءها منه ، فقهقه أبو عبد اللطيف عالياً وصاح آمراً :

ـ تعال تعال .

قالت نجوم دون أن تنظر الى فياض :
ـ أنا أحضر لكم العشاء قبل ما تنتهي أمي من الخبز . .

دعا أبو عبد اللطيف لابنته ، ورشف جرعة صغيرة من النبيذ ، مكرراً الثناء على جودته ، والدعاء لمن صنعه ، ولمن جاء به . ثم راح يدندن سعيداً ، وفياض لايجرؤ على أن يقاطعه . كانت نجوم تدور حولها قليلاً ثم تختفي في البيت ، والشمس التي غابت تؤكد لفياض أنه لن يلحق بالقطار ، وهو يماطلها ، حتى إذا أطبقت العتمة ، بدا يسلم أمره ، فلتكن أول مرة يتأخر فيها عن القشلة ، ولتكن أول عقوبة له غداً ، أليس هذا ماأرادت نجوم .

في العشاء تحلقوا جميعاً حول طبق القش الملون . وقد نسي فياض القطار والقشلة والعقوبة ، وبدا كأنه واحد من هذه الأسرة ، يجاري نظير الصوان في دندنته ، يمازح نجوم وعبد اللطيف ، يحدث أم عبد اللطيف عن أمه ، يزهو بوقفة مرجمين في وجه ابن الفطيم ، يصفق لما فعلته بوكيله. وكان الليل يمضي سريعاً ، وأم عبد اللطيف والأولاد ينسحبون الى النوم ، سوى نجوم التي لم تبرح مكانها حتى صاح الديك ، ونهض فياض مودعاً ، كي يتمكن من اللحاق بالقطار الصباحي .

في إجازاته التالية شبه الاسبوعية ، صار يدخل بيت الصوان في أي وقت ، يأكل إنْ كان جائعاً ، يطلب العرق أو النبيذ ، لايسأل عن نجوم إنْ لم تكن في البيت . وقد يرافق نظير الصوان الى أي من بيوت مرجمين ، يلغط مثل أي من أهليها فيما يهيء لها ابن الفطيم ،وفيما تهيء له. وبين الاجازة والاخرى كان على عزيز أن يصغي في أي وقت الى مايخطر لفياض أن يحكيه عن مرجمين ، أو عن بيت الصوان ، أو عن نجوم . وكان حكي فياض يفجر كوامن حزنه ، كما يجعله مرة بعد مرة مشوقاً الى أن يرافق صديقه الى مرجمين ، ولعله كان سيفعل هذه المرة، لولا أن هولو صادفه ، وانزلق به الى العم حاتم .

★ ★ ★

كان عزيز ذلك العصر يسأل العم حاتم عما إنْ كانت مرجمين بعيدة ، حين كان فياض قد غادرها ، ليلتقيا في موعد القطار المسائي ، وهو يلتفّ على وقع نظرات نجوم المعاتبة ، إذْ ماكاد أن يصل حتى همّ بالعودة . تلك أيضاً كانت في الصباح نظرات أمه

المعاتبة ، إذْ ماكاد يصل حتى هم بالعودة . ومثلما رسم لأمه ، وهو يمشي ساهماً ، رسم لنجوم . قضى النهار وهو يرسم ، وعما قليل سوف يرسم لعزيز ، وسوف يدع أخيلته تهزج على هواها ، سوف يفاتح عزيز عما قليل بعزمه على الزواج من نجوم ، كما سوف يفاتح أمه في الاجازة القادمة . لن يترك عزيز يشفق عليه من العشق ، ولن يترك نظرات أمه تعذبه . أما نجوم فلن يفاتحها حتى يهيء أسباب زواجه منها جميعاً . سوف يصطحب أمه وعزيز الى مرجمين مرة ، سوف يريان نجوم الصوان حتى يعرفا من تكون . سوف يبدأ منذ هذا الشهر يحتال على الجنيهات الثلاثة وحاجة أمه وأخوته ، حتى على سجائره سوف يحتال ، ليكون لنجوم بيت في الشام . وما إنْ يكون البيت حتى يكون العرس . سوف يدعو الى العرس أخواله ، بل الجبل كله ، والمشرقة . لاينبغي له أن يغفل دعوة أحد . ولو قدر له قبل العرس أن يعرف مقام اسماعيل معلا وياسين الحلو ، فسيدعوهما . سوف يسعى الى عين فيت أو الى العال كي يدعو راغب الناصح ، وعلى عزيز أن يدعو العم حاتم ، وهولو التكلي ، وصهر هولو التكلي ، بل لو قدر ليفاض أن يعرف مقام الملازم تحسين شداد فسيدعوه ، حتى البيك ابن الأكاشيْ لن يغفله ، فهذا عرس نجوم ، وليس أي عرس يليق بها . سوف يرفع فياض جرن الكبة كأنه يرفع قشة . سوف يتحدى أياً من شباب مرجمين أن يرفع الجرن مثله . ولئن اعترضوا موكب العروس فلن يتردد في استرضاء كبيرهم بأكثر مما يرغب . سوف تكون جيبه ملأى ، حتى إنْ اضطر للاستدانة . سوف يستدين من أصدقائه كي يكون مستعداً لأية مفاجأة . سوف يمتد موكب نجوم من مرجمين حتى حمص ، بل من مرجمين حتى الجبل ، إذْ عليه أن يقضي ليلته الاولى معها هناك ، قريباً من أبيه ، وسوف يخرج الناس جميعاً هناك لاستقبالها . ولو سار بها الى المشرقة ، فسيخرج الناس جميعاً . النساء سيتهادين بالفساتين الملونة الفضفاضة السابغة ، والمناديل الحريرية المنمنمة سوف تلوح لنجوم ، الزغاريد تملأ الفضاء ، وعزيز يطلق الرصاص ، وفياض سوف ينتظر إطلالة نجوم على السطح ، لينثر القروش وحبات الحنطة فوق رأسها ، يطلق صوته المنتصر وهي تلصق قطعة العجين على باب البيت ، وترش العطر الذي سوف يحضره من الشام ، ثم يسبق الجميع الى الدبكة .

كانت أصداء العرس تتماوج في صدره وهو يقترب من محطة القطار . كانت جوانحه تخفق مع ضحكة نجوم ، لغط الاطفال ، دعاء العجائز ، هياج الشبان ، دقات قلبه التي تدعو الله أن يأخذ بيده . كان حذاؤه يضرب الحجر البازلتي للرصيف بثقة وقوة ، فعما قليل سوف يلتقي بعزيز ، ومنذ قليل ودع نظير الصوان . من أمامه رجل ،

ومن ورائه رجل . من أمامه الأخ ، ومن ورائه الأب . ولئن كانت أخوّة عزيز قد جاءت دون أن تشغل بال فياض منذ سنة أو اثنتين ، فإن أبوّة نظير الصوان قد أشغلته منذ لاحت قبل شهر أو شهرين . كان يتقرى الرجل من أجل فياض اليتيم ، وليس فقط من أجل نجوم ، ولئن كان فياض الصغير لم يستطع أن ينفع أباه الميت في معركته ، فسوف ترى نجوم ماذا يفعل فياض الكبير من أجل نظير الصوان .

كانت المحطة حين وصل خالية من عزيز ومن القطار ، فخشي أن يكون قد تأخر ثانية . ولما أكد له كثيرون ممن سأل أن الوقت لايزال مبكراً ، قعد على الرصيف نادماً على أنه قد قطع بنفسه ماكان غارقاً فيه طوال الطريق . أركز ساعديه على ركبتيه وفتح كفيه حاضناً وجهه ، أغمض عينيه فامتلأتا بالسواد . أصمّ أذنيه عن صخب المحطة فامتلأتا بالطنين . خاف أن يكون العرس قد انتهى . خاف على نجوم وعلى نفسه ، فقد يعجزه البيت في الشام . قد يسبقه ابن الفطيم الى مرجمين بعد أن سمّى لها وكيلاً جديداً، وأعلن أنه لن يرضى أن تخرج إليه هذه المرة بالبخور على أطرافها فقط . إنه يريد أن يبدأ استقباله من حمص . وربما من هنا ، من هذه المحطة ، ومرجمين لن ترضى ، لن يرضى أبو عبد اللطيف . وكيما قادها من قبل سيقودها غداً ، على الرغم من أنه يجهر بخشيته مما أعدّ الآغا طوال صمته . كان الأتراك يرحلون عندما وقفت مرجمين بوجهه ووجه وكيله في المرة الاولى . كان الانكليز قادمين والحكومة قادمة والآغا قد فقد كل سند . أما الآن فقد يكون قادماً بسند أقوى . لن يبقى الآغا مكشوف الظهر ، ولئن انتصر هذه المرة فسيكون انتقامه مروعاً . لن يكتفي الوكيل الجديد بقسر عبد اللطيف الصوان على أن يقرط حبات العدس، كي يعرف إنْ كان قد سرق حبة حصرم من الكرم . سوف يفتح الوكيل الجديد بطن الطفل حتى يكون عبرة لمرجمين ، وابن الفطيم يقهقه . سوف تقع الطامة الكبرى على بيت الصوان ، وابن الفطيم يقهقه ، ونجوم تبكي . وقد يكون أبو عبد اللطيف في الحبس أو في القبر ، وقد يكون فياض بعيداً ، أو في القشلة ، قد يكون عاجزاً عن أن يمد يداً لأحد ، وما الفرق إن كان كذلك ، سواء أكانت نجوم عروساً في الشام أم تنوح في مرجمين ؟

أفلت كفاه وجهه فهوى رأسه فوق صدره، وارتد الى الأعلى مجفلاً ، ورأى نفسه ينهض كأنما فوق كتفيه حمل معجز . تلفت كأنما ينشد نجدة ، كانت الصرخة تملأ صدره ، وحلقه يختنق ، وكان القطار يصفر من الطرف المقابل ، والناس يتدافعون ،

وهو يقاوم ، وعيناه تحومان فوق الرؤوس ، باحثة عن عزيز اللباد ، ولكن عزيز لم يظهر ، فقفز الى العربة ، واندفع نحو نافذتها الأولى يمدّ عنقه ويصيح في الناس :

- عزيز . . ياعزيز . .

★ ★ ★

15

ماكاد ياسين الحلو يتجاوز السور حتى انقبض صدره . تعوذ من الحارس ومن الشيطان الرجيم، ورجا الله أن تمضي الليلة على خير . ولم يخفف اطمئنانه على أهله من انقباضه . تردد في السؤال عن هند وأهلها فتفاقم مابه حتى أنجدته أمه :

ـ ما سألت عن . .

قاطعها خائفاً :

ـ كيف حالهم يا أمي ؟

ضحك والده :

ـ ابنك مشتاق ياأم ياسين . انظري : أصابعه كيف ترتعش . .

شبك ياسين أصابعه وأقبل على والده :

ـ بالله عليك كيف حالهم ؟

أسكته صوت أمه :

ـ كلهم بخير . الحمد لله .

زفر ياسين يردد الحمد وأبوه يلمّ ضحكته . تناول ماأعدت له أمه دون رغبة . تحدث مع والديه دون رغبة . احتار فيها طرأ عليه منذ اجتاز عتبة السور . لجأ الى الصمت منتظراً أن يسكت والده ويعود الى فراشه . طار النوم من عيني الوالد . ألح على ياسين بالحديث، لكن ياسين رمى نثاراً صغيراً من القشلة حتى محطة حمص ومحطة حماه ، ولم يكن قادراً على أن يتذكر ماهو أبعد . دعت أمه لفياض وعزيز واسماعيل وكل الغائبين أن يعودوا الى أهلهم سالمين ، وعادت الى فراشها . اضطجع الوالد وهو يقصّ لابنه أو لنفسه ماجرى في الزنبقلي . وأدرك ياسين منذ كلماته الاولى أنه قد غاب طويلاً ، وأن أباه لم يعد قادراً على أن يكتم . كان صوت الأب يتهدج سريعاً ، وهو يبدل استناده من ساعده الأيمن الى الأيسر ، وينتقل من خبر الى خبر . بدأ ببيت الجقلة وطفق يسأل ياسين بين زفرة وأخرى :

ـ تذكر كامل الجقلة ؟

وياسين يكرر :

ـ كيف أنساه ؟

فيتابع الاب لاعناً النفس الأمارة بالسوء ، وصوته ينضح بالحزن تارة ، وبالشماتة تارة . ينكر على كامل الجقلة أن تسوّل له نفسه مدّ اليد إلى كيس الطحين ، لتخبىء حفنة ، على الرغم من أن الجوع كافر حقاً ، والأفواه العشرة المفتوحة خلف المرحوم لاترحم . لقد صار كامل الجقلة مرحوماً ، وياسين يهزّ رأسه هاجساً : ليس هذا بالتأكيد وحده مالديك ياأبا ياسين . إحك على هواك . وكانت الهواجس تسرق منه بعض ماحكى أبوه ، فيستعيده ، ويعود أبو ياسين الى مافات ابنه ، أو الى ماقبل ذلك ، يسأله بين زفرة وأخرى، أو يخاطب نفسه :

ـ لو صبر كامل الجقلة كما صبرنا جميعاً ؟ كم قلت له : ياجار مابعد الشدة الا الفرج . أنت رجل كبير . . أحفادك شباب ، أنت مؤمن . اصبر ياكامل . وهاقد فرجها الله سبحانه وتعالى علينا جميعاً . هاأنت قد عدت بالسلامة ياياسين . والآغا زاد في حصة كل بيت من الطحين . منْ خسر ؟

أقسم أبو ياسين أن رستم آغا لم يغضب في يوم مثل ذلك اليوم . ولاأحد يعرف لماذا كان كذلك . ليس كامل الجقلة وحده السبب ، ولكن المنحوس وقع في ساعة شر ، فمن هنا همس الحارس في أذن الآغا ، ومن هنا صرخ الآغا :

ـ اجمع الفلاحين ليتفرجوا على الحرامي .

على يديه وركبتيه أجبر المرحوم على أن يصعد الدرج . الحارس يلبطه على قفاه ويبصق عليه ، والآغا يتنمّر فوق . رفسه الآغا في وجهه فانقلب على ظهره وشخر الدم من أنفه . كان رستم آغا يصرخ ، لايسأل ، والمرحوم صار بلا لسان ولاصوت ، ونحن تحت التوتة نرتجف . لو نطق المرحوم بكلمة لكان ، والله أعلم ، جنّب نفسه انفجار الآغا . لااعتراض على قضاء الله وقدره ، ولكن ابن آدم أحيانا يجلب لنفسه من المصائب مالا طاقة له به . لماذا لم يرتم كامل الجقلة على حذاء رستم آغا مستغفراً ؟ هو يعرف مثل كل واحد منا أن الصمت يجعل غضب الآغا ـ اللهم عافنا ـ جنوناً ـ . لن يصدق من لم ير بعينيه أو يسمع بأذنيه . فجأة دوت رصاصة ، رصاصتان فاندفعنا نحو القصر . لاحول ولاقوة الا بالله . كان رستم آغا بنفسه يجرّ المرحوم من شعره على الدرج والدم ملء يديه وهو يصرخ :

ـ خذوا هذا الكلب وارموه في النهر . ما له قبر في أرضي .

وولولت النساء وصاح الاولاد ولاأدري بماذا همهمنا حتى أخرسنا جميعاً صوت رستم آغا . الحارس نفسه خرس . وحدها زوجة المرحوم اندفعت نحو جثته تندب أولادها وبناتها ، الأحياء منهم والأموات ، وكان الآغا يصعد الدرج ويدوس على الدم . ومن فوق أمر الحارس مشيراً الى المرأة :

ـ لا يمسح أحد دمه من هنا سواها .

وطوح بذراعه نحونا :

ـ عودوا الى قبوركم .

ـ أين أولاده ؟

سأل ياسين مراراً كأنه يستنجد بلسانه على مايقول أبوه . كان عاجزاً عن أن يصدق ، وخائفاً من أن يكذب . كانت رصاصات رستم آغا تدوي في أذنيه ، وملء عينيه الدم الذي يشخب من كامل الجقلة فوق امرأته ، يبقع وجهها وثيابها ، يصبغ شعرها الذي انكشف . كان الدم يسيل من القصر حتى النهر ، وأذنا ياسين تبحثان عن صوت المرأة التي اندفعت نحو زوجها وتمرغت فوقه ، والحارس ينهر بها وقد أحضر كيساً فارغاً من الطحين . نتر الحارس المرأة ورماها بعيداً ، ثم كور الجثة في الكيس ، كبسها فيه كبساً . صار الكيس الابيض قاني الحمرة . صار الطحين دماً معجوناً والناس في بيوتها محشورة . الناس بلا رؤوس ، بعد كل هذا القهر والذل والخوف . ولقد كان صحيحاً إذن مايروى عن الآغا الذي رمى ذات يوم بفلاح آخر في النهر . صحيح أيضاً أن السنوات التي قضاها بيت الحلو في الزنبقلي كانت أرحم سنوات الآغا . أما بيت الجقلة فقد ذاقوا المرّ على الجنبين . في دير عفّان وفي الزنبقلي . ولذلك فرّ لهم ولد من هناك وولد من هنا . ولعله لذلك لم يعد أيضاً الولدان الآخران من الحرب . ولعله لذلك مات الولدان الصغيران ، خوفاً من أن يصلا الى يوم كذلك اليوم . ولعله لذلك قد توقفت زوجة المرحوم عن الإنجاب لسنين ، قبل أن تأتي العام الماضي بتوأمين . لقد كان التوأمان حقاً خطأ كبيراً جعل والد ياسين يضحك ويوشوش المرحوم ، مرة بعد مرة :

ـ عيب بعد هالشيب ياكامل . .

ظلّ الحمل حديث الزنبقلي لشهور، ورستم آغا نفسه قد قهقه عالياً غير مصدق . فكامل الجقلة يبدو في الثمانين، على الرغم من أنه في الستين . كان الحارس يسأله مشككاً عن الحمل، ويلعن فلاحي الزنبقلي الذين لايستحون ، وهم يحنون أعناقهم ، وقد

يضحكون ويضيفون . فإنْ كان كامل الجقلة يقدر أن يركب امرأته على كل حال ، وهو الرجل ، فكيف لها أن تحمل وهي التي تبدو في الستين أو السبعين ؟

جف ريق ياسين وأشار كفه مراراً الى أبيه أن يكف . لكن الرجل كان مغمض العينين ، تسد سبابتاه أذنيه ، خشية أن يسمع صوت كيس الطحين ينجرّ من القصر الى النهر . كان صوت ارتطام الكيس يترجع في صدره ، ويحطم ضلوع ياسين كالعيدان اليابسة . لقد بات أبو ياسين يخاف العاصي ، فليس ماخلّف له كامل الجقلة الخوف من الموت ، بل الخوف من الحياة . لقد اختفت أرملة المرحوم في الفجر . داهم فحيح التوأمين بيوت الزنبقلي التي لم تنم . كان التوأمان متكومين فوق بعضهما يرتجفان ، كانا يئنان ، ولعلهما كانا يكتمان الصرخة قبل أن تصل الى الحلق . راحت الأم بعد الأب ، وشبراً شبراً قلب الفلاحون داخل السور . هل يعقل أن يكون رستم آغا قد أمر برميها هي أيضاً في النهر ؟ هل تكون قد رمت بنفسها خلف زوجها ؟ هل تركت الرضيعين وقفزت فوق السور ؟ لاأحد يدري حتى اليوم ماحلّ بها . صارت هي المرحومة وهو المرحوم ، والتوأمان دفع بهما رستم آغا الى أسرة تربيهما في مكان ما . من يجرؤ على السؤال ؟ أطبقت الشفاه في الزنبقلي ولم يعد أحد يدع عينيه تواجه عيني سواه ، حتى جن جنون سفلو النجار ، ونطح برأسه الكردي اليابس حيطان القصر . شهران أو أكثر كانا قد انقضيا على موت كامل الجقلة ، حين جاء الحارس الى بيت النجار ، يلوح بعصاه ويشتم . كان المساء قد آوى الناس داخل السور ، ولكنهم كانوا لم يغلقوا عليهم أبواب بيوتهم بعد . ماذا فعل سفلو النجار حتى أغضب الحارس ؟ لاأحد يدري حتى اليوم ! مال سفلو من درب عصا الحارس ، والله حماه . لو وقعت العصا عليه لقتلته . شتم الحارس أم سفلو وأخته وامرأته وبنته الوحيدة . سمع الفلاحون صوت سفلو يعلو لأول مرة منذ رأوه بينهم في الزنبقلي :

ـ أقطع لسانك إذا شتمت بعد هذا . .

أشارت العصا الى أير الحارس وهو يقول :

ـ تقطع هذا . .

ـ لا . هذا اتركه للجحشات .

قال سفلو ، وفطن الفلاحون الى أنه وحده من بينهم لم يسبق له أن تلقى شتيمة ، لامن الحارس ولامن الآغا نفسه . عاودت العصا هجومها على سفلو فلاقاها بذراعه النحيفة وأعانه الله على نترها ، وصاح :

- أقسم بالله أن أكسرها على ظهرك إذا رفعتها مرة ثانية .

كان سفلو يصيح ، وقد سوّره الحارس والفلاحون . أنكرت عيونهم ماترى، وانفرجت شفاههم لأول مرة منذ يوم المرحوم . اندلقت ذقن الحارس فوق صدره ، اندلق لسانه شبراً خارج فمه كأنه ينازع . طوى ذيله ومضى ساكتاً . سار لغط الفلاحين خلف سفلو ، ملأ اللغط بيته الصغير والأولاد ينطون . لكن صوت الآغا دوّى قريباً :

- ماجزاء اليد التي ترتفع على رجالي ياسفلو ؟

خرج سفلو، وخرج من في البيت خلفه وتراكض الجميع . أقبل الآغا شاهراً العصا . ابتعد الفلاحون عن سفلو الذي أخذ يتراجع حتى حائط بيته . هوت عصا الآغا فتحاشاها سفلو . جنّ الآغا وهو يهوي بضربته ثانية . حمى الله سفلو ، فلو وقعت عليه الضربة لقتلته . مرق سفلو من الضربة مثل الجني، وأمسك بالعصا . أمسك بذراع الآغا، ونتر العصا، ورماها بعيداً . اندفعت أصابع الآغا الى جيوب قنبازه، فقدم سفلو صدره صائحاً :

- رصاصة واحدة تكفي . .

خرجت الأصابع فارغة، والآغا يتلفت خلفه . كان عدد من رجاله يقفون تحت التوتة . اندفع الرجال، فشهر الآغا ذراعه، فتسمّروا . عاد الى سفلو وكفه تشير الى الفلاحين قائلاً :

- لو جازت عليك الرحمة لقلت لهم قولوا رحمه الله . موعدنا تحت التوتة .

واستدار مندفعاً صائحاً بالحارس :

- إياكم أن يهرب .

تكوم الفلاحون يهمسون بسفلو :

- انج بجلدك .

وكان رجال الآغا ينتشرون في أنحاء السور والزنبقلي . لكن سفلو مرق منهم كالجني . كيف اختفى ؟ الله وحده يعلم . صحيح أن الآغا جلد ثمانية من رجاله تحت التوتة ، والحارس ، وحرق بيت سفلو ، وطرد امرأته ، ووزع أولادها حيث الله وحده يعلم ، وأذاق الفلاحين الويلات لشهور ، ولكن سفلو كان قد لوى ذراعه وذراع الحارس، ولعب على رجاله ، سفلو الذي كانت الزنبقلي تظن أنه لايلوي ذراع ابن العاشرة ، وأن ابن العاشرة يلعب عليه ، فعل كل هذا ، فسبحان الذي يضع سره في أضعف خلقه .

ـ سبحانك يارب .

ردد ياسين وقد صار قادراً على أن يتحرك أو يتكلم ، وكان صوت أبيه ينوس ، ثم ران صمت قصير قبل أن يرفع ياسين عينيه من جحره ، ليجد والده مغمض العينين ، وقد توسّد ذراعه رضيًا .

★ ★ ★

لازمت ياسين صورة كامل الجقلة وسفلو النجار أياماً . كان يسترق الطواف ببيتيهما متحاشياً أن يكلم أحداً من الأسرتين اللتين أورثهما رستم آغا البيتين . كانت الصورة من صنع أبيه ليلة وصوله الى الزنبقلي ، وربما تكون قد صنعتها أيضاً الاحاديث الهامسة المحاذرة مع الجميع ، ولكن أياً كانت ، فهي غير مااختزن في ذاكرته .

لقد بات يتحاشى أكثر من عهده الأول في الزنبقلي أن تقع عليه عين الآغا أو الحارس . وبدا يشكو من وجع ما ، ليس في جسده . لايكاد يضحك أو يقبل على حديث أو طعام أو عمل ، حتى يزمّ شفتيه وينْشحب ، يعمل ويأكل، لأن العادة تفرض ذلك عليه . حتى لقاءات هند لم تساعفه على مايشكو منه . لقد اطمأن الى أنها لازالت في ذلك البيت الذي تعود أن يراها فيه . إلا أنه لم يعد يخفّ الى استراق نظرة منها أنى لاحت . وكانت هند ، مثل أمها وأبيها وأبيه وجيرانه ، تلح عليه كلما سنح لها :

ـ مالك ياياسين ؟

وهو أجهل بنفسه منها ومنهم . كل مايعرفه أنه يود لو يعلل له رجل في الدنيا سرّ هذا الظلم الذي خص الله به الزنبقلي . ماالذي اقترفه هو ومن حوله حتى سلط الله عليهم رستم آغا ؟ ربما كان قد فكر في ذلك من قبل ، في الزنبقلي أو في القطار أو في الصحراء ، ولكن كامل الجقلة وسفلو الكردي خضّا كيانه ، جعلاه يتوجع ويتشكك في أن الأمر غضب من الله ، لانجاة منه حتى في يوم القيامة .

كان نومه أشبه بالموت ليلة وصوله من الشام ، حين أخذ والده يحثه على النهوض بصوت غريب ، غير الصوت الذي قص عليه قبل قليل ماجرى لبيت كامل الجقلة، ولبيت سفلو الكردي . كان كل من في البيت قد خرج ، ثم لحق بهم أبو ياسين بعد أن اطمأن إلى نهوض ابنه . خارج البيت. كان كل من في الزنبقلي قد انطلق عبر بوابة السور الى الشغل ، فزاد فراغها وهدؤها وحشة ياسين الذي كان عليه أن يتوجه الى القصر ، ويقبع بانتظار اذن الآغا له بالمثول .

لم يبدل ثيابه العسكرية ، وهو يؤدي الواجب المحتوم . وقد أثارت الثياب ضحك الآغا وسخريته قبل أن يتساءل :

ـ ماذا ستفعل الآن ؟

قال ياسين وهو يتطامن خجلاً :

ـ أبقى هنا إذا سمحت ياآغا .

قال الآغا :

ـ هذا ماكنت سآمرك به . مالك وللجيش ؟ الحرب انتهت والشغل ينتظرك . أنت رجل قوي وطيب . لم تقل لي . متى تتزوج ؟ ألا زال أيرك يقوم ؟

اقشعر ياسين ولم يستطع أن يرد . تمتم محيياً وشاكراً، وخرج يتعثر بقدميه الحافيتين . انتعل حذاءه المنتظر عند البوابة ، وأسرع نحو السور . ودّ لو أن ثناء الآغا جاء في يوم آخر ، لكان قد غمره غبطة واعتزازاً . ردد سؤال الآغا : متى تتزوج ؟ وهمّت أصابعه بتلمّس عضوه ، وتطلع نحو المقلع ، حيث تعمل هند مع أبيها والآخرين . ودّ لو يقول للآغا ولهند ولنفسه : اليوم . . اليوم سأتزوج ، لكنه خاف من زوجة كامل الحقلة ومن زوجة سفلو الكردي ، ومن ذلك الوجع المبهم الذي بدأ ينمّل جلده .

كان العمل في المقلع على أشده ، لكل أسرةفيه دور يحدده واحد من رجال الآغا . وقد صادفت عودة ياسين الى الزنبقلي دور أسرته وأسرة هند . كان الرجال والفتيان يحملون الأحجار على الحمير ، وهند والصبايا والأولاد الصغار يسوقون الحمير الى حيث يحدد واحد من رجال الآغا ، بدءاً من شرفة النهر أمام الناعورة التي رأى من فوقها أول مرة ذلك النجار القادم مع آخرين من حلب وحماة . لقد غادروا جميعاً بعد انتهاء القصر ، الا سفلو الكردي ، الذي كان معجباً بقوة ياسين وصبره وإخلاصه ، ولايفتأ يردد كلما التقيا :

ـ عافاك الله . أنت تشتغل أكثر من ثلاثة . ارحم نفسك .

منذ يومه الأول صار كثيرون يقولون له مثل ذلك . ومن كل صباح حتى كل غروب شرع يجهد أكثر ، ليس من أجل دعاء أو ثناء كما كان أيام بناء القصر ، بل لكي يعود الى البيت مهدوداً . ولعله كان يداوي وجعه بالشغل نهاراً والنوم ليلاً .

كانت الأحجار قد توزعت من الناعورة حتى المقلع حين انتهى دور أسرته وأسرة هند . لكن رجل الآغا نقل الى ياسين أمر الآغا بالعمل مع البنائين الثلاثة الذين وصلوا في اليوم نفسه . وقد عدّ أبوه وأبو هند ذلك امتيازاً . أما هو فلم يأبه ، على الرغم من أن

الامتياز سوف يجعل هنداً أبعد طوال النهار .

كانت القناة تمتد ، وياسين يتشرنق حول نفسه . ولم يكن مابه خافياً على والديه أو على هند ووالديها . كان الكبار يتهامسون أحياناً فيما بينهم ، متحاشين أن يصل همسهم اليه أو الى هند ، بيد أنهما كانا يلحظان ذلك . ولئن كان ياسين يصمّ أذنيه ، فقد كانت هند تزداد بلبلة وعجزاً ، تخشى أن تكون سنوات الجيش قد صرفته عنها ، تتعلل بأية علة كيما تدخل الى بيت الحلو كل مساء ، تبحث عيناها عنه في أرجاء البيت ، مثلما تبحثان عنه في النهار ، سواء أكانت في الأرض أم على البئر أم قرب النهر . كانت تفيء الى ظل باهت وعابر من الطمأنينة إذْ تراه منزوياً في البيت ، أو ذاهباً الى القناة . أو آيباً منها ، أو واقفاً فوق واحد من أقواسها الحجرية المتكاثرة ، وإذْ يملص الظل منها سريعاً تبلع غصتها كاتمة اللوعة .

تواتر الشغل في القناة قرابة الشهر ، وكانت السماء صحواً كأنْ لاشأن لها بالشتاء ، حتى بات الفلاحون ـ شأنهم كلما أبطأ عليهم المطر ـ يدعون ، ليس خشية الجفاف ، فلا جفاف مادام العاصي يدفق بجوارهم ، ولكن ، من أجل أن يستريحوا يوماً أو يومين . من أجل ذلك العيد السري الصامت الذي يتواطئون عليه كلما أمطرت وتعطل الشغل ، أياً كان . إذ ذاك يتزاورون نهاراً أو ليلاً ، يغتسلون ويأكلون على مهل ، يعشقون أو يهيئون لزواج أو حمل . وقد أجاب الله دعاءهم أخيراً ، واسودت السماء ، وعوّضت عن شحها أضعافاً ، وصادف ذلك مع سفر رستم آغا الى حلب . فكبرت فرحة العيد ، وحاصرت ياسين الذي كان عاجزاً عن أن يحمل معاً همه والفراغ الطويل ، فراح يودع رويداً رويداً الوجع في قرارته ، يرقب المطر وهو يحلّ شرنقته، مثلما يفعل الماء الغالي ، وكان من حوله يلحظون بصمت ، كأن ذلك جزءاً من سر العيد ، إلاّ هند التي اختلست أول سانحة لتهمس له :

ـ الحمد لله . أنت اليوم ياسين الحلو .

فضحك عالياً، وهي تشير اليه كي يخفض صوته ، وسألها :

ـ ومن كنت ؟

ـ لاأعرف . بعد العسكرية ما كنت ياسين حتى اليوم .

وانسلت الى بيتها تاركة إياه لدهشته والرعشة الدافئة التي خلفتها له .

انتهى العيد ، وعاد الصحو والشغل ، وقفل رستم آغا من السفر مع حشد من الضيوف . وشاع في الزنبقلي يوم وصوله أنه قد اشترى بيتاً كبيراً في حلب ، وأنه سوف يقيم احتفالاً كبيراً بذلك . وسرعان ماتأكدت الشائعة ، إذْ دار عدد من رجال الآغا على الفلاحين ، يؤكدون عليهم التجمع حول التوتة قبيل الغروب .

بكر الشبان خاصة ، ولبثوا ينتظرون مشوقين ، ثم لحق بهم الجميع ، وراحت العيون تتسلّق حجارة القصر ، تخترق النوافذ وتتلصص على صخب الضيوف . واذ تجلجل ضحكة رستم آغا كانت العيون ترتد مجفلة ، حتى اذا أيقنت من النجاة ، انطلق الشبان يضحكون ، وراح المسنون يتذكرون ماشهدوه من احتفالات رستم آغا ، ويخمنون ماسوف يكون عما قليل .

بعض الشبان تجرأوا على أن يقتربوا من البوابة ، يتطلعون كل حين وراءهم ، كأنما يُدلّون على الآخرين ، أو يتأكدون من أنهم لازالوا هناك . فلما شرع الضيوف يظهرون ، تراجع الشبان ، وسكت الجميع هنيهة قبل أن تطلق تهليلهم إشارة رستم آغا وضحكته المجلجلة .

كان بين الضيوف عدد من النساء ، وعدد من الرجال الذين يلبسون البنطال ، ومنهم من كان يحمل قبعة بيده أو يسويها فوق رأسه . كانوا يراقبون بفضول هذه الكتلة البشرية الطريفة الصاخبة ، يتهامسون ويقلدون إشارة رستم آغا ، فيتجدد تهليل الفلاحين ، ويتقافز الشبان في المقدمة ، وكان ياسين يتوسطهم ، ويبدو نشازاً بينهم ، إنْ بجلحته أو بشيبه . ولعل ذلك ماجعل رستم آغا يجلجل بضحكة أخرى حين رآه ، وأشار إليه محذراً .

ـ هرمت ياابن الحلو؟ إياك . .

والتفت يساراً الى سيدة مسنة يحدثها . فارتبك ياسين ، خاصة حين أردف الآغا :

ـ نسيت المصارعة ؟ سوف نرى ماذا فعلت بك العسكرية . إذا غلبوك فلن تكون صالحاً للزواج .

قهقه الضيوف وتخلخل صفهم ، وسرت همهمة قصيرة في الخلف بين الفلاحين ، أما الشبان في الأمام فقد زاد لغطهم، وراحوا يبتعدون عن ياسين الذي مالبث أن تقدم الى الفسحة الفاصلة دون الضيوف صامتاً، ومطرقاً ، يهرب من الومضات الحائلة التي

تزخ في عينيه لتلك المصارعات التي غلب فيها الكثيرين في المكان نفسه ، لكن ذلك كان منذ سنوات بعيدة . وقد نسي ياسين البتة أنه كان يلعب هذه اللعبة مع أقرانه ، أو مع من هم أكبر منه أو أصغر ، فيندر أن يخسر .

كان رستم آغا يؤثر أن يدعو شبان الزنبقلي ليتصارعوا أمامه وأمام ضيوفه قبل الحرب . لكن ذلك كان في العشيات الصيفية ، والموائد العامرة تتطاول أمام الضيوف في هذه الفسحة الفاصلة بين التوتة والقصر . كان الضيوف يهنأون بالطعام والفرجة على المتصارعين، ومايعقب ذلك من دبكة وغناء . أما الآن فالموائد قد تكون في الداخل ـ فكر ياسين ـ وقد يكون الآغا بدل من عاداته ، فصارت الفرجة على المتصارعين تسبق الطعام ، لاترافقه ولاتعقبه ، وقد يكون الفلاحون لم يعودوا يغنون أو يدبكون ، فياسين لم يرهم قد فعلوا ذلك منذ لوح للعسكرية وعاد الى الزنبقلي .

انتزعه مما به صوت الاغا ، فإذا بخمسة من الشبان يتقدمون نحوه . انفرد به أحدهم وانفرد الآخرون زوجين . أمر الآغا أن يبدأ ياسين وخصمه ، فلم يكد ينتهي من الأمر حتى كان ياسين قد بطح الشاب على الأرض . هلل الآغا والضيوف والفلاحون، واختفى الشاب المهزوم . هم ياسين بالرجوع فنادى عليه الآغا، وهو يشير الى المتصارعين الآخرين .

ـ وحدك تصارع من يفوز من كل زوج .

تضاعف هياج الضيوف والفلاحين ، وبدأ الزوج الاول، فطالت جولته ، وألفى ياسين نفسه هائجاً مثل سواه ، وهو يروز الفائز ، ثم بدأ الزوج الثاني فطالت جولته أكثر ، وكان ياسين يفرك كفيه، وينط كأنه لازال شاباً . كان بالأحرى لم يعد يسمع ماحوله ولايرى خصميه . كان ـ فقط ـ يصارع ، لايعرف إنْ كان الوقت يطول أم لا ، أو إنْ كان الخصمان قد أوشكا مراراً على الفوز أم لا . وحين صحا من جولته تعجب من أن رستم آغا والضيوف والفلاحون جميعاً يصفقون له . حتى الشبان الثلاثة الذين غلبهم كانوا يصفقون . ولم يدرك أنه قد فاز الا حين جعلته إشارة الآغا يفيق تماماً .

كانت وجنتاه تختلجان ضاحكتين ، دون أن يكون له شأن بهما ، وهو يتقدم من رستم آغا شامخ الرأس ، يتملى الضيوف . كان الصخب يخف ، حتى اذا بات ياسين أمام الآغا ، تفصلهما خطوة ، سكت الجميع ، ومد الآغا كفه مربتاً على كتف ياسين وقائلاً باعتزاز :

ـ أراك صرت أقوى ياياسين . والله العظيم لو انهزمت لحرمت عليك الزواج . .

والتفت الى يساره يهمس في أذن السيدة المسنة :

ـ لازال خيره في ظهره . لاأحد يهد الرجل منا مثل النساء .

ضحك الاغا والسيدة وطأطأ ياسين ، ثم سألت السيدة :

ـ هو عازب حقاً ؟

هز ياسين رأسه مجيباً .

قالت السيدة :

ـ زوّجْه ياآغا قبل أن يشيخ . عساه ينجب لك فلاحين أقوياء .

رفع ياسين رأسه متلجلجاً ، وراح ينقل عينيه بين الآغا والسيدة راجياً . قالت السيدة ضاحكة :

ـ انظر . . سال لعابه !

ـ تسمع ياياسين ؟

سأله الآغا فالتمعت الفرصة في عينيه وأسرع :

ـ تسمح لي ياآغا ؟

ـ ماذا ياياسين ؟ عينك لعبت أخيراً على واحدة ؟ من تكون هذه المنحوسة ؟

قالت السيدة :

ـ لا لا . . من تأخذه يكون حظها طيباً .

تهامس الآغا والسيدة، ثم فرقعت ضحكتهما، وقال الآغا :

ـ اذهب ياياسين .

تلكأت قدماه وهو يخشى على الفرصة أن تضيع ، فسأل الآغا :

ـ مابك ؟

ـ الهدية ياآغا ؟

ـ مابها ؟ لابد أكيد حضّرت لزواجك بعد هذا الانتظار الطويل .

ـ من أين ياآغا ؟ أنت أدرى .

دفعه الآغا عنه دفعة قوية وصاح بالفلاحين :

ـ اعملوا لياسين عرساً طناناً .

والتفت الى ياسين :

ـ لاأريد منك شيئاً . هيا الى عروسك .

انتظم الشبان والصبايا في حلقة واسعة ، وشرعوا يدبكون ، فيما الضيوف ينسحبون إلى داخل القصر ، وياسين يجري نحو والده ، فإذا به ووالد هند غارقان في الضحك ، يرددان معاً :

ـ مبروك .

غمغم يحمد الله، وعيناه تبحثان عن هند ، لكن والده شده الى رأس حلقة الدبكة، وعلت الزغاريد ، ولم تلبث هند أن ظهرت وسط الحلقة ، يدفعها عدد من الصبايا ، وهي تتعثر بفرحتها وخجلها ، تستسلم لأصابعه، تشبك أصابعها الصغيرة النحيلة وتضيع ، واندفع ياسين بها يزرع الحلقة متماوجاً مع التصفيق الموقع الذي انتظمت عليه أكف الفلاحين وحناجرهم .

دبكت هند ، ودبك هو ، كما لم يفعلا من قبل . نضح جبينها الصغير بالعرق مثل جبينه الذي زاده الجلح عرضاً ، وتلاحقت أنفاسها وهما يجريان ويقفزان دورة بعد دورة ، وخلفهما الرتل الطويل من الشبان والصبايا . ولعل ذلك كان سوف يطول بهما لولا أن والده أشهر ذراعه طالباً الوقوف والصمت ، ثم دعا الجميع الى أن يتوجهوا الى أمام بيت العروس ، فقد وصل الشيخ من دير عفّان ، وسوف يدخل العريس على عروسه الليلة .

كانت الفرحة المفاجئة المتعاظمة تفجر الاصوات الحبيسة في صدور الفلاحين . كانت تلك الأصوات لاتشق فضاء الزنبقلي إلا فرحاً أو حزناً ، في مناسبات نادرة ، وليس في كل زيجة أو ميتة ، كان الفلاحون يتهيأون عادة لتلك المناسبات ولو قبل يوم واحد ، أما عرس ياسين فلم يكن على بال أحد . ولذا تدافع الجميع نحو بيت العروس ، يحيطون بياسين ، وفي مقدمتهم من غلب في المصارعة . ولم يكن المتصارعون في حفلات الآغا ليفعلوا ذلك سريعاً ، بل إن النصر والهزيمة كان يورث غالباً بينهم خصومة لاتنقضي بيسر .

كانوا جميعاً على عجل ، وليس ياسين وحده أو هند وحدها ، كأن سباقاً يجري مع الزمن . كانوا يتعجلون الشيخ ، يتعجلون أم ياسين كي تهيء البيت للعروس ، وما إنْ

دخلت هند بيت الحلو حتى ابتعدوا يتعجلون العريس الفحل ، ولم يكادوا يكررون ذلك عليه بضع مرات حتى كان قد فض بكارة هند وخرج اليهم .

كان ياسين قد اندفع نحو هند مثلما اندفع قبل قليل في حلبة المصارعة ، ناسياً مارسم لمثل هذه اللحظة من رفق وحدب ، أو حيرة وشفقة . وإذ خرج الى الفلاحين تهامس كثيرون منهم يقسمون أنه أسرع من فضّ بكارة في الزنبقلي ، وكان طبق كبير من الطعام يدخل الى البيت ، لاأحد يدري من أين أعدّ ولامتى ، وبدأ الجمع ينفضّ ، كأن ذلك كله كان حلماً .

★ ★ ★

هدأ ليل الزنبقلي ، وهدأت نفس ياسين وهو مع هند وحدهما ، بعد أن لحق أبوه وأمه وأخوته بأهل هند ، كي يفسحوا للعروسين ليلة واحدة . كان يتنفس بسهولة ، يتلذذ بالسيكارة تلو السيكارة ، يمتلىء بالعرفان لرستم آغا وللناس جميعاً . أحسّ أنه قد امتلك الليلة فقط قوة وثقة لاتحدان ، على الرغم من أنه كان يرى نفسه خفيفاً كالريشة . وفي الصباح توجه الى القصر ، وانتظر حتى أذِنَ له رستم آغا بالمثول ، فجدد الشكر كما يقتضي الواجب المحتوم ، وانصرف يجري نحو القناة .

بالطبع ، لم يكن بوسعه أن يختلي بهند ثانية ، إذْ عاد أبوه وأمه وأخوته يملأون البيت . كان يضمها في الفراش المرمي في زاوية البيت اليسرى القصية ، بعد أن يطفىء أبوه السراج ، وتكون الفرش قد ملأت بساط البيت .

كانت تندغم في حضنه وهو يتلوى كاتماً أنفاسه ، عاجزاً عن أن يتذكر أنه قد سمع لأبيه ولأمه نأمة واحدة في ليل طوال عمره . ولولا أنه من صلبهما ، لولا أن أخوته من صلبهما ، لكان قادراً على أن يقسم أنهما لم يناما مرة واحدة كما ينام الرجل والمرأة ، حين يكونان زوجين .

في النهار لم يكن قادراً على أن يكلمها . هو في القناة وهي مع أمه وأبيه وأخوته ، بعيداً عنه ، قرب النهر . ولم يكن ليله أرحم . وقد أخذ يضيق بذلك يوماً بعد يوم ، يتركها تغفو في حضنه، يساهر الأسى على ماخطر له منذ أول يوم ، دون أن يجرؤ على البوح به إلا لها . ولكن هند اكتفت بهمسة قانعة :

ـ استرح من هذا . فرصة وضاعت .

كان يقرّ في سهده بخطأه . إذ لم يضرب الحديد وهو حام ، ويطلب من رستم آغا أن يخصّه وهند ببيت ، كما طلب أن يعفيه من الهدية التي ينبغي للفلاح أن يقدمها حين يتزوج .

كان يتعلل بأن الأمر كله جاء بغتة ، أخذه في غفلة ، فمن أين له أن يفكر في البيت أو في سواه اذن ؟ ألا يكفي أن الله قد ألهمه فاستعفى رستم آغا من الهدية ؟ ولكن اذا كانت تلك الفرصة قد جاءت بلا حساب ، فلماذا لايعدّ هو لفرصة أخرى ؟ ومن يدري ، قد يحالفه الحظ ثانية . السعد يجر السعد كما أن النحس يجر النحس . وياسين ليس مثل هند ، على الرغم من القناعة التي عرف بها طوال عمره . ولذلك ماكاد رستم آغا يظهر قرب القناة ، بعد فترة قصيرة من الزواج ، حتى هرع إليه .

كانت القناة الأولى قد أنجزت ، وجاء رستم آغا يتفقدها ، وكان بعض رجاله والبناؤون يتدافعون حوله ، حين شق ياسين لنفسه سبيلاً بينهم ، واندفع يقبل يد رستم آغا ، فبادره بشوشاً :

ـ كيف حال العريس ؟

وتابع خطواته المتمهلة .

أودع ياسين صوته كل مافي صدره من رجاء :

ـ لو تسمح لي ياآغا . أنت تعرف البيت ضيق والأهل . .

صاح به أحد المرافقين :

ـ هذا وقتك ياابن الحلو ؟

أشار رستم آغا الى المرافق بيده فخرس . وخاطب ياسين :

ـ انظر كيف تدبر نفسك في الطرف الشمالي . ولكن لاتبدأ بالبناء قبل أن تنتهي القنوات كلها .

والتفت الى مرافق آخر الى يمينه متابعاً :

ـ ماذا قلت لي أمس عن أرض أم مرعي ؟ يجب أن نغرسها حقاً . ماقولك بأن نسلمها لابن الحلو ؟

ـ الأمر أمرك ياآغا .

قال المرافق ، فقال الآغا :

ـ تعال هذا المساء ياياسين اذن حتى نكتب السند . بوسعك أن تبدأ منذ اليوم . عمّر في الارض نفسها . اشتغل هنا حتى الظهر وأكمل نهارك هناك .

اندفع ياسين يقبل يد رستم آغا ثانية ، ثم عاد الى شغله يجري ، وقضى بقية النهار يتطلع كل حين الى الشمس ، منكراً عليها أن تطيل مكثها ، حتى إذا غابت ، جرى الى القصر ليرسم اسمه على السند الذي قرأه عليه المرافق كلمة كلمة ، ثم انطلق الى هند وأبيه وأمه يستعيده كلمة كلمة :

. . . وبصفتي مالكاً للأرض المسماة بأرض أم مرعي أذنت للفلاح ياسين الحلو أن ينصب ويغرس جميع الارض بغرس تين وعنب وزيتون وجميع الأشجار المعدودة الغرس . وبحسب المقاولة والاتفاق مابيننا من ابتداء الغرس الى انقضاء خمس سنوات تكون الفلاحة والركش والنصب والمصاريف على المذكور ياسين الحلو خاصة . ومن بعد هذه المدة تكون الفلاحة خاصة مناصفة بيننا كما أن الايراد بعد الخمس سنوات يكون مناصفة نصف لي ونصف للمذكور حسب العادات . وبعد انقضاء المدة المعينة هذه يعني الخمس سنوات لاسمح الله اذا لم يقوم الارض لم يكن له شيء من تعبه . . .

كان واثقاً من أنه قد حفظ مافي السند غيباً ، أسهل وأسرع وأدق مما كان له ذات يوم في تلدف ، وهو يحفظ الفاتحة على يد شيخ الجامع وعصاه .

كانت الفرحة تفلشه ، ولم تكن هند ولاأبوه أو أمه أقلّ منه انفلاشاً . وفي تلك الليلة جرؤ على أن ينزل سروال هند ، وهي تتمنع صامتة ، بعد أن لبث ساكناً أثر انطفاء السراج ، ماحسب أنه يكفي لكي يكون كل من في البيت قد غطّ في نوم عميق . كانت أول مضاجعة لهما بعد ليلة العرس . كان ياسين مضطراً لأن يكون أكثر أناة ورفقاً . كان عليه أن لايسرع ولايغلظ بفعله ، ويملأ مايتيحه له ذلك بلثم شعر هند ووجنتيها . وكانت هند تستسلم لغيبوبة ساحرة ، تأسى على الأيام الفائتة ، تصدق أن الأمر ليس فقط غير مؤلم كما في ليلة العرس ، بل هو ناعم ولذيذ ، أطيب من أي طعام عرفته أو سمعت به ، وهو أمر مفرح ، أكبر من أية فرحة عرفتها أو سمعت بها . كانت ترتعش مرة بعد مرة وياسين مطبق عليها ، مرخياً شراعه للنسيم الرخيّ ، والشراع يبحر ملياً على هواه ، قبل أن يفجأه الرمل والزبد ، فينطوي مخلفاً ياسين بلا سروال حتى الصباح ، كما هند التي لم تدرك أنها قد حملت الليلة ، إلا بعد أن انتقلا الى البيت الطيني الصغير في أرض أم مرعي ، على حافة النهر المقابلة .

★ ★ ★

16

نيّالك ياقط ع البيدر بتنط
عسكر مابتلبس كرّوسي مابتحط

بصوت وانٍ كان أبو عاطف يردد ذلك وهو يحسب في وحدته أنه يجري خلف النورج ، أو يذرو مادرس ، أو يغوص في التبن ، أو يلاحق القط الذي لايساق الى العسكرية ، ولايدفع ضريبة شق الطريق ، ولايلهث على البيدر .

جرب أن يرفع صوته قليلاً ، فأنكرت أذناه ماتسمعان ، مثلما أنكر الآخرون حين استطاع أن يساهرهم ، بعدما صدعته مفاجآت الموت .

كان آخر عهده بصوته القديم حين أفلح المكاري، وجعله يخرج من صمته وهما ملتجآن من المطر تحت الشرفة الصخرية . كانت آخر كلمة نطق بها ذلك الصوت الذي نادى به أم عاطف، والبيت يتلامح خلل العتمة الكالحة ، والمكاري يبربر .

أجمت لسانه المفاجأة الاولى بموت ابنه . خرس ثلاثة أيام . لم يرد على الذين جاؤوا يهنئونه بعودته سالماً . لم يرد على الذين واسوه أو نصحوه أو قرعوه . كان يروح ويجيء بين قبر الصغير خلف البيت وبين فراش أم عاطف التي وقعت ليلة عودته بلا مرض . لاتأكل ولاتشرب ولاتبول ولاتتغوط ولاتقوى إلا على البكاء ورجاء زوجها أن يعنى بنفسه .

فجر اليوم الرابع ماتت أم عاطف وهي توصي برعاية المسكين الذي سيغدو وحيداً بعد قليل . لم يكن حولها أحد ، بيد أنها كانت توصي وتموت . كان أبو عاطف في واحدة من غفواته القصيرة التي انقلب إليها نومه منذ عاد . غافلته أم عاطف وماتت . كلما أفاق ورأى جفنيها المفتوحين لايرفان ، نادى بصوت كسير :

- لا ياأم عاطف .

باسمها شيّع صوته القديم ، وباسمها كان له صوته الجديد . أفلتت دموعه وهو يتملّى عينيها الشاخصتين ، لايجرؤ على أن يطبق الجفنين ، وقعد يبكي بجوارها، حتى طرق جاره الباب في الضحى، وجفف دموعه وأنفه، ونهض يفتح الباب ، ومنذ تلك اللحظة لم تنزل من عينه دمعة .

أطبق الجار جفني أم عاطف ، وغطى وجهها ، ثم جرّ أبا عاطف . الى خارج البيت . تجمع الجيران يسألون الله الرحمة والعون ، وجاء الشيخ منصور بنفسه ليصلي على المرحومة .

أمام القبر خيل لأبي عاطف أن الشيخ ليس حزيناً ، ولاآبهاً بفجيعته ، وإنما هو يتلو الآيات والأدعية ، كأنه يأكل أو يروي للناس واحدة من النوادر المسلية .

نسي أبو عاطف القبر وتذكر المكاري وماااتفق عليه الذين لم يبيعوا أرضهم لابن البزّار . همّ في أن يسأل الشيخ منصور عن الاتفاق والحماية التي تعهد بها . همّ في أن يسأله عن الإيصالات التي يطالب بها الفلاحون ، وعما إنْ كان ينوي أن يفعل بهم حقاً مثلما ادعى المكاري . قطع عليه الشيخ منصور هواجسه وهو يتقدم منه معزياً وداعياً . فوجىء أبو عاطف بانتهاء الصلاة وبانصراف الشيخ وخلفه عدد من الفلاحين . أعاده جاره الى البيت وأخذ الآخرون ينصرفون ، بعضهم بصمت ، وبعضهم يتعلل بالشغل الذي لايرحم . ولم يلبث أبو عاطف أن بات وحيداً بين عدد من أطفال البيوت المجاورة .

لم يتناول لقمة ولم يشرب قطرة طوال النهار . وفي المساء امتلأ بيته بالرجال . أحضر جاره طبق العشاء وراح يعنفه على ضعفه ، والآخرون يؤمّنون ، يذكرونه بالمواقف التي عرفوا بها بأسه ، فيهز رأسه مشفقاً على جهلهم ، إذْ لم يدركوا أنهم يتحدثون عن رجل آخر ، ودعه ذات يوم قريب أو بعيد ، وقد لايلقاه أبداً .

قضى يومه الثاني بأسوأ من الأمس ، فحاصرته ألسنة الرجال في المساء، ولم يجد لنفسه منجاة منهم إلا في أن يبلع لقمة أو لقمتين ، ويطلب العرق .

تعالت أصوات مستنكرة ، وأيدته أصوات أخرى غالبة ومجربة . قال بعض الرجال : إن العرق ينسي الهم ، وقال بعضهم : إنه يقلب المواجع ، وقال آخرون : مهما يكن فإنه حرام ، كما أن للموت حرمته .

أحضر الجار كأساً صغيراً فدلقه أبو عاطف في جوفه دفعة واحدة ، وهمس في أذن الجار :

ـ هذا كل ماعندك ؟ بخلت على أخيك اسماعيل ؟

ثم التفت الى الحاضرين :

ـ من غبت عنكم ما بلّلت ريقي بقطرة . تعالوا نشرب جميعاً . كرمى لأم عاطف تعالوا نشرب . من يخبىء منكم كأساً أو زجاجة أو تنكة فليحضرها .

وأقبل على الطعام يزدرد ، ويناول الحاضرين .

أحضر الجار كأساً آخر أكبر بقليل ، وأقسم أنها آخر مالديه . بلع أبو عاطف بجرعة واحدة نصف الكأس ، فحيته بعض الأصوات ، فلوح بالكأس وبلع بجرعة أخرى نصفه الثاني .

هب أحدهم ساخطاً مقسماً أن هذا الذي يأتيه اسماعيل معلا قبل أن يدفأ تراب قبرها لايرضي الله ولا عبد الله ، وانصرف .

هب آخر ينكر هذا الكلام ويعلن أنه سيأتي بكل ماعنده من العرق ، وانصرف .

ضاق البيت بالصياح المؤيد والمعارض، حتى ظهرت زجاجتان في يدي من خرج ليحضر العرق . انصرف بعضهم فيما تراصّ الباقون حول الطبق ، وأسرعوا يتداولون الكأسين اللذين أحضرهما الجار ، وسرعان مافرغت الزجاجتان .

كان لأبي عاطف النصيب الأكبر من العرق والصمت . وكأساً تلو الكأس ، كان ينأى فراراً من أشتات حياته التي تلاحقه ، تائهة ودامية ، قريبة وبعيدة . كانت الأشتات تتصادى في عينيه وصوته الجديد والوجوه التي قلب العرق والموت مواجعها . ودون أن يدري، أو يدروا، كان يحكي وكانوا يصغون ويحكون ويستزيدون، وينثر في جحورهم بريق تلك الايام التي كانت فيها كفرلالا ملكاً لفلاحيها ، قبل أن يطأها غريب ، ويبلع الأرض شبراً شبراً ، شجرة شجرة ، دباقة دباقة . كانت الليرات الذهبية التي يجود بها موسم الحرير على كفرلالا تملأ طبق الطعام، وتشع في فضاء البيت الداكن العابق بدخانهم وأنفاسهم ، وأبو عاطف يشتم لسبب ما أول من باع وأول من اشترى ، يشتم الكذب والخديعة والجوع والأتراك والحرب والمكاري والبغال التي تسير بأربعة قوائم، والبغال التي تسير بقائمتين، ويمد لسانه الى سقف البيت أو الى السماء نفسها .

وكان وهو يدفق قد أمر أحدهم بملء الزجاجتين الفارغتين بالماء ، ثم هتف بالحاضرين :

ـ اشربوا العرق الصافي . هذا هو العرق الحقيقي .

فشربوا لاهين ومصدقين ، وأسكرتهم الماء أكثر مما فعل العرق ، وماعاد أبو عاطف وحده يشتم الشيخ منصور وابن البزّار والمختار وكفرلالا والموت نفسه . وماكان وحده يطرق ويحبس دموعه ، وفي الفجر بدأوا ينصرفون متمايلين ، ونهض هو أخيراً يغلق الباب ويتمايل نحو الفراش الذي كانت تتمدد عليه أم عاطف . كان الفراش مطوياً في الركن الشرقي ، ولما همّ بتناوله تسمرت يداه في الهواء ، وانصلبت عيناه على الموقع الذي كان الفراش يحتله كل ليلة منذ تزوج من أم عاطف ، ولعله ظلّ كذلك ، أو أنه تعثر وأغفى ، حتى أجفلته في الضحى ضربات ابن المختار القوية والمتلاحقة على الباب .

★ ★ ★

غالب أبو عاطف الدوار الذي يعصف برأسه وهو يتقدم الشاب متباطئاً ، والشاب يستحثه . كان يتساءل مغيظاً عما يريد المختار منه ؟ ولماذا أرسل بابنه بدلاً من أن يشرف بنفسه ؟ وقد زاده غيظاً أن المختار قابله متجهماً ، وأن ابن الشيخ منصور الذي كان واقفاً لم يرد على تحيته ، كما أن المختار لم يدعه الى الجلوس .

جرّ من قرب الباب كرسياً وجلس قبالة المختار الذي صاح به :

- ماذا فعلت أمس يامجنون ؟ الرجل الذي يضيع صوابه إذا ماتت امرأته ليس رجلاً . أم أن صوابك ضاع بعد أن خرجت من كفرلالا ؟

تعوذ من الشيطان وازداد به الدوار عصفاً . أخرج علبة التبغ وانهمك بلف السيجارة ، فدفعه المختار من كتفه :

- اترك علبتك واسمع يااسماعيل معلا . تفو . رائحة العرق تفوح منك مثل الجيفة . .

أشعل السيجارة بهدوء ، ونفث الدخان في وجه المختار الذي ارتد لاعناً وصياحه يعلو :

- ما بقي لك ماتسكر عليه مع الزعران إلا الشيخ منصور ؟ ما بقي إلا المختار ؟ رجعت لنا كافراً ولم تعد تخاف الله ؟

نهض بهدوء ودفع بقدمه الكرسي ، ثم انحنى على المختار بصوت راجف :

- اتركني في بلواي واتق الله . خلّني أحترم شيبتك ولاأفعل بك مافعله أبي قبلي . هل نسيت ؟ كل ماسمعته صحيح فماذا تريد ؟ قلت ماقلت وأكثر فماذا تريد ؟

واتجه الى ابن الشيخ منصور :

ـ وأنت أيضاً ماذا تريد ؟

انتفض الابن وخاطب المختار :

ـ ما بقي غير أن يضربني اسماعيل معلا في بيتك !

وقف المختار ملوحاً بسبابته في وجه أبي عاطف :

ـ كفرلالا لك . بعنا إياها . .

أرخى شفتيه هازئاً وأزاح سبابة المختار قائلاً :

ـ كبيرة عليك وعلى من هم أكبر منك .

عادت سبابة المختار تلوح :

ـ اتركها حياً أفضل لك من أن تتركها ميتاً .

استدار وهو يضحك ويصيح :

ـ الأرض واسعة يامختار . أنت لاتعرف كم هي واسعة . والموت صار مثل الحياة . هل يعرف شيخك ذلك ؟ اسألني أنا .

وعاد يخبط حصى الدرب الى بيته ، يرنّ في أذنيه صدى كلماته الأخيرة ، وقد زايله الدوار . وكانت الشمس تتلاعب بين الغيوم ، والغيوم تتلاعب فوق الجبل كله ، ولم يصادف أحداً غير الأولاد ، لافي الذهاب ولا في الإياب ، فبدت كفرلالا موحشة . وإذ وقف أمام البيت ، والباب مغلق في وجهه ، أطبقت الوحشة على صدره ، وأنكر أن يكون قد تشاجر مع المختار أو مع ابن الشيخ منصور منذ قليل ، إلا إذا كان أحد ممن ساهروه أمس قد وشى به .

ترك الباب مغلقاً وتوجه الى الدرب يهمهم مصدقاً . أجل ، إن أحداً قد وشى . بل لعلهم جميعاً قد وشوا به كي ينجوا بجلودهم . ومادام المختار قد سمع فسيسمع الشيخ منصور . ومادام الشيخ منصور قد سمع وأرسل ابنه فسيسمع ابن البزّار ويرسل . . يرسل من ؟ ابن البزّار لايرسل ابنه . ابن البزّار يرسل ابن الحكومة ، وأبو عاطف لم يعد ابن حكومة . شلح البذلة وقعد يندب ابنه، حتى ماتت امرأته، فقعد يندبها حتى مات هو، فقعد على الدرب يندب نفسه ، يندب كفرلالا ، يندب هؤلاء الذين يملأون أنحاء الجبل ، يتخايلون مثل النمل هناك ، ولعلهم يضحكون الآن منه ويشمتون به ، يتباهون بحكمتهم ويحمدون الله . حتى الطيبون منهم ماذا بوسعهم أن يصنعوا له أكثر من أن يغضوا أو يرشّوا على جراحه الملح ؟ فلينهض إذن تاركاً لهم كفرلالا

حتى يقلبها فوق رؤوسهم المختار والشيخ منصور وابنه وابن البزّار والحكومة ، وعندئذ سيتذكرون اسماعيل معلا ، عندئذ فقط يمكن لاسماعيل معلا أن يعود الى كفرلالا ، حتى لو كانت أم عاطف وعاطف لازالا ميتين .

★ ★ ★

نيالك ياقط ع البيدر بتنط
عسكر مابتلبس كرّوسي مابتحط

بصوته الجديد يردد وهو يدور خلف البغل ، يعدّ أيامه الأخيرة في كفر حبوس . يلاحقه الشتاء والربيع المنصرمان ، تلاحقه نظرات فاطمة التي تأخرت هذه الظهيرة عليه بالغداء ، يلاحقه المكاري الذي قاده الى كفر حبوس . ولعله لو ظهر أمس أو منذ عشرة أيام ، لكان قد يسّر على أبي عاطف حيرته في التوجه إلى مقام جديد مع فاطمة ومع البغل .

لابد للمكاريَ أن يظهر . من ينزل البغل الى البير عليه أن يخرجه منها . ومن يصعد به الى الجوزة عليه أن ينزله عنها . المكاري هو الذي فعل ، والبغل الآن هو أبو عاطف . لم يعد حراً مثلما كان حين سار غير آسف من كفرلالا الى حماة . فاطمة تقيده الآن . بل إن المكاري هو الذي قيده . فقد كان عازماً على ألا يتوقف من كفرلالا الى الشام ، حيث تؤويه القشلة ، حيث ينتظره راغب الناصح وعزيز اللباد وفياض العقدة . ومن يدري ؟ فقد يكون حمادي الحسون عاد الى القشلة أثناء تلك الايام المعدودة التي أمضاها أبو عاطف في كفرلالا . من يدري ؟ فقد يكون ياسين الحلو قد لقي ـ لاسمح الله ـ في الزنبقلي مثلما لقي أبو عاطف في كفرلالا ، فسار هو الآخر غير آسف الى الشام ، لتؤويه القشلة أيضاً . كانت القشلة قبلته وهو ينأى عن كفرلالا ويقترب من حماة . كان الوقت لايزال مبكراً على موعد الرحلة المسائية للقطار حين وصل الى المحطة ، فراح يذرعها متلهياً ، ثم ابتعد عنها قليلاً ، فأبعد، وتسمّر زمناً أمام الناعورة، ثم تاه مع النهر ، فإذا به أمام الخان ، فتمنى أن يكون المكاري في الداخل ، ليحدثه بما وقع له . لقد قضى النهار وحيداً . لم يكلم أحداً ممنْ صادف في الطريق ، ولا في المحطة ، ولا فيما بين المحطة والخان ، وليس قادراً على أن يظل يحدث نفسه طوال الوقت المتبقي على انطلاق القطار الى الشام ، هكذا دخل الى الخان .

خلف النورج البغل يدور ، وهو يدور ، يتساءل مرة بعد مرة : ماذا لو أنه وصل الى حماة في موعد القطار ؟ ماذا لو أنه لم يصادف المكاري في الخان ؟ ماذا لو أن المكاري لم يكن سينقل أكياس الملح الى كفر حبوس في الصباح التالي .

ليس مابه الندم والخوف . لقد فات مافات ، لكنه العجب ، من كل ماعاش في شهوره الأخيرة ، وهي الحيرة أيضاً في ذلك .

ربما حزن المكاري على أم عاطف مثله . ربما كان غضبه ممن وشوا ومن المختار والشيخ منصور ، وحنقه عليهم ، أكبر من غضب وحنق أبي عاطف . ولعله لذلك انتحى به في إحدى زوايا الخان ، وأحضر إبريقاً من الشاي ، وعندما أتيا على مافي الابريق قال :

ـ أنت بلا طعام من الصباح ، وربما منذ عشاء الأمس . مارأيك في أن نحضر لقمة لكل منا ، وبطحة عرق أيضاً ؟

خشي أبو عاطف أن يفوته القطار فنهض المكاري قائلاً :

ـ اتركنا من القطار الآن . كل يوم فيه واحد واثنان . نستطيع أن نجلس هاهنا ، نأكل ونشرب ونحكي كما يحلو لنا . وفي الغد نتوكل على الله . أوصلك الى المحطة ، ومن هناك أتابع الى كفر حبوس .

قبل أن يتناولا لقمة أو يجرعا جرعة كان المكاري قد فكر وقرر : ليس لأبي عاطف أن يعود الى القشلة . لم يكن لدى المكاري سبب واضح ، ولكنه استطاع أن يقنع أبا عاطف بيسر ، وبقي عليه أن يفكر فيما بعد ذلك .

كان يعدد على أصابعه : لابد من قرية أخرى أو مختار آخر أو شيخ آخر أو آغا آخر لأبي عاطف . في حماة ليس له مقام . أبو عاطف فلاح ابن فلاح . والعسكرية لاتقدم ولاتؤخر . يغيب فيها الرجل عشر سنين ثم يعود الى الصِّمِد . المدينة لها أولادها والقرية لها أولادها . حماة مثل الشام والشام مثل حماة، وأبو عاطف هو هو ، في العسكرية أو خارجها . كان المكاري يتوه في العد ، فيعيد داعياً أبا عاطف الى أن يضبط معه الكلام ، ثم يجرع جرعة صغيرة من العرق ، مؤثراً أبا عاطف على نفسه بالقليل المتبقي ، ويتابع كأنما يحدث نفسه :

ـ الى أين وصلنا . طيب . ماالفرق بين فلاح في كفرلالا وفلاح في كفر حبوس ؟

كان أبو عاطف يصر على أن ثمة فرقاً ، على الأقل بين كفرلالا نفسها وبين كفر حبوس . لكن المطارح كلها لدى المكاري سواء . ولم يعجب أبو عاطف ذلك . كان

واثقاً أن ثمة غلطاً فيما يقول المكاري ، وإلاّ ، فلماذا يعود الانسان دائماً الى مكان واحد، مهما شرّق وغرّب ؟ تعلل المكاري بالأهل والعادة ، فوافق أبو عاطف، ولكن دون أن يكتفي بذلك . ولم يكن المكاري راغباً في المماحكة بعيداً عما فكر وقرر ، وربما لم يكن قادراً ، فدعا أبو عاطف الى أن يترك هذا الكلام ويعود الى المهم ، وفاجأه بهمسة :

ـ غداً نذهب معاً الى كفر حبوس . الآغا هناك هذه الأيام . وهو بحاجة الى فلاحين جدد دوماً ، إذا لم يكن في كفر حبوس نفسها ففي سواها من قراه الكثيرة . خذ جرعة ونتوكل على الله . عمك المكاري له على هذا الآغا دالّة كبيرة . صحيح أنه آغا ، بل من أكبر الأغوات وأقساهم ، ولكن دالتي عليه كبيرة . بينه وبين بيت البزّار الذين نعيش في الشيحا تحت رحمتهم قرابة من جهة النساء ، وأنا أعرفه منذ كان فرخاً .

ظل المكاري يحدثه عن ابن حكره وعن كفر حبوس حتى غلبه النعاس ، وكان الخان قد خلا ، وانصرف صاحبه موصياً المكاري بالرجال الثلاثة الذين سيبيتون في الخان أيضاً ، وبإغلاق الباب جيداً ، وكان القطار قد غادر المحطة .

نام المكاري والرجال الثلاثة ، وظلت عينا أبي عاطف مفتوحتين ، تنهبان العتمة في سقف الخان وجدرانه ، وقد أضاءهما العرق قليلاً ، وساعدهما على أن يريا ثمة ، في ناحية ما من الخان ، ابن حكره شاباً يصغره بخمس أو عشر سنين ، لاتُرى ذقنه إلا حليقة ، يمسد شاربيه الرفيعين ، ولاتهدأ عيناه الزرقاوان . في ناحية أخرى رأت عينا أبي عاطف الحذرتان الشيخ أبو الهدى ، فائق الطول ، ناحل القامة والوجنتين ، غارقاً في جبّته ، لاشبه له بالشيخ منصور ولا بابنه ، لاشبه له بكل من رأى أبو عاطف من الشيوخ ، خاصة أنه يداعب طوال الوقت ، كما قال المكاري ، سبحة طويلة من سبحات السلطان نفسه ، ولايفتأ يصلي ، أو يدعو ، أو يضرب المزهر وحوله ثلة من الشيوخ أو الصبيان الحلوين ، والجميع يتماوج على الإيقاع الذي لم يفلح المكاري بتقليده .

لم يستطع أبو عاطف أن يتخيل كيف يكون ذلك في حضرة السلطان الذي كان من استنبول يحكم الارض كلها ، من الشام الى العراق الى اليمن ، من الشرق الى الغرب ، من البر الى البحر . لابد أن المكاري قد سكر وخلط فيما يروي . ربما كان الشيخ أبو الهدى ضرب المزهر في حارات المعرة ، في حارات حماه ، فأبو عاطف قادر على أن يتخيل ذلك ، ويرى عظام وجنتي الشيخ تبرزان من الجلد . إنه فقير وجائع ومسكين ، يضرب الشيش القصير في بطن المكاري ، بل في بطن أبي عاطف ، وفي بطون الرجال الثلاثة النائمين ، وأبو عاطف يسأل الله الرحمة . يطمئن الى أن الشيش سيخترق بطنه ويخرج

من ظهره دون أن تنزل قطرة دم ، فهذا سر الشيخ أبو الهدى الذي يحفظ سيلاً لاينقطع من الآيات والحكايات والأدعية وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم. إنه يقرأ في عيني الرجل مايضمر ، وفي صوت المرأة ماتضمر . فكيف تكفيه المعرة ؟ كيف تكفيه حماه ؟ إنه يرحل الى حلب فلا تكفيه أيضاً . إنه يرحل الى استنبول مشياً على قدميه ، مثلما رحل أبو عاطف في الضحى من كفرلالا الى الخان ، وباب السلطان ينفتح للشيخ ، قلب السلطان أيضاً ، وبين غمضة عين وأختها تغدو كلمته العليا في استنبول . لاتخيب له نبوءة ، ولايخفى عليه أمر مما يجري في سائر أنحاء الارض التي يحكمها السلطان . وليس لأبي عاطف أن يتشكك ، فالمكاري يعرف الشيخ قبل أن يغدو في ذلك المقام ، وبعد أن غدا . المكاري يذكر العائلات التي رفضت أن تزوج الشيخ من بناتها حين كان فقيراً وجائعاً ومسكيناً ومترحلاً . من كبيرهم إلى صغيرهم صاروا يجرون خلفه بعد أن ملك استنبول : يتوسطونه في شؤونهم ، يتلقفون هباته مثل الكلاب المحرومة ، وهكذا يصير فلان باشا وفلان ضابطاً وفلان ملتزماً للأعشار . صار بوسع الشيخ أن يتزوج من يشاء ، وهكذا تزوج بنت حكرة التي سيرى غداً أبو عاطف شقيقها الأصغر المدلل في كفر حبوس .

لقد سمع أبو عاطف ذات يوم بشيخ مثل هذا ، وربما كان أبو الهدى نفسه ، ولكن أنّى له كان أن يعرف مايعرف المكاري . ولأن المكاري يعرف كثيراً، لم يغفر له أبو عاطف جهله بما حلّ بالشيخ بعد الانقلاب على السلطان، أو بعد رحيل الاتراك . كل مايعرفه المكاري أن الآغا نفسه يجهل ماحلّ بصهره ، وليس مهتماً بذلك . والمكاري يتعجب مثل أبي عاطف من أن شوكة الآغا اشتدت بعدما لحق الشيخ بسلطانه المخلوع . كفر حبوس وسواها من قرى ابن حكرة ذاقت منه الويلات أثناء سنوات الحرب . وهاهي في ناحية أخرى من الخان ، تلك المسكينة التي شاع خبرها على كل لسان ، تستنجد بأبي عاطف ، فمثله سيق زوجها الى الحرب ، ومثل أم عاطف ظلت وحيدة ، ومثل عاطف مات ابنها الوحيد في غياب أبيه ، فباعت قطعة الارض التي أوصاها بها زوجها أكثر مما أوصاها بنفسها وبابنه . لقد خالفت المرأة الوصية وباعت . ابن حكره يشتري وهي تبيع . هو يشتري وليس للفلاح أو الفلاحة إلا أن يبيع أو تبيع ، إنْ كان قد بقي شبر بلا بيع . من أين كانت المسكينة ستطعم ابنها وتدفنه وتطعم نفسها وتدفع ضريبة العشر وغير ضريبة العشر وتشتري السلامة من وكيل الآغا ؟ هاهو الوكيل في ناحية أخرى من الخان ، ينط من امرأة الى امرأة ممن سيق أزواجهن الى الحرب . لاتنجو منه واحدة ، فإما أن تفتح

فخذيها له وإما أنْ تملأ جيبه . والوكيل يعرف بالعد والنقد كم مجيدية دفع الآغا لفاطمة بدل الارض . الوكيل لايريد إلا النصف فقط . خمس مجيديات لفاطمة وخمس له . ليكن . ليأخذ الخمس والعشر مادام سيتركها بسلام . ولكن الآغا أرسل يطلب مجيدياته عشية وصول خبر مصرع زوج فاطمة . لم تصدق الوكيل . ظنته قد عاد يبتزها ، بعد أن غدت سائبة ، لاحامي لها ولانصير . دارت في كفر حبوس تفضحه، فإذا بها تجر من شعرها الى الزريبة، حتى جاء الآغا نفسه بعد عشرة أيام . هذه المرة فقط لم يكذب الوكيل ، وهي حقاً بلا حام أو نصير . لاأشقاؤها ولاأولاد عمها ولاأصهارها ولاأخوالها ولاجيرانها . لاأحد يدفع عنها شراً ، لاأحد يمد يده إليها ببارة . بل إنهم بعد أن أفلتها الآغا من الزريبة ماعادوا يجرؤون على أن يدخلوا بيتها ، ولا على الكلام معها . صاروا يرددون في مجالسهم أنها منحوسة ، وقد تكون كما يقول الوكيل مجنونة ، والمكاري يفرك كفيه :

ـ لاحول ولاقوة إلا بالله . اتقوا الله يامؤمنين . .

ومازال ابن حكره ينتظر المجيديات . فما دام زوج فاطمة لن يعود ، فالأرض والمجيديات للآغا . ومازال الوكيل ينتظر فاطمة ، وفاطمة تجلس أمام البيت تنتظر وتنتظر ، وأبو عاطف يحسد نفسه وكفرلالا على ابن البزّار والشيخ منصور والمختار ، ويتساءل عما يجعله يذهب إذن الى كفر حبوس ، إلا إنْ كان من أجل أن يجمع نحسه مع نحس فاطمة ليرى الى أين يقودان ؟

★ ★ ★

ظهرت فاطمة أخيراً ، تثب وثباً كابنة العشرين ، تطوح بيسراها ، وتمسك يمناها بالصرة فوق رأسها الشامخ ، فأوقفت نهرة أبي عاطف البغل ، وقد كان أكثر منه جوعاً وتعباً .

ماكان لأم عاطف مثل هذا الشموخ ، ولامثل هذا الطول . لقد منّ الله عليه وعوضه عنها بمن هي أحلى وأشهى وأقوى . لم يضاجع أم عاطف مرتين في ليلة واحدة قط . أما فاطمة فلا هو يرتوي منها ولاهي ترتوي . في ليلتهما الاولى ضاجعها ثلاثاً ، وهمّ بالرابعة ، لولا أن الفجر قد طلع ، وهي تذكره بوعده لابن حكره في العشاء :

ـ غداً أبداً .

كان قد وصل مع المكاري قبيل الظهر . لم ينبس طوال الطريق ، ولم يكن المكاري لجوجاً مثلما كان يوم حمله الى كفرلالا . كان المكاري مبتهجاً ومعتزاً بصواب رأيه . بيد أن أبا عاطف استوقفه قبل أن يدخلا كفر حبوس وناشده :
- خلّنا نر فاطمة أولاً .

رفع المكاري حاجباه دهشة . ضحك وسعل وتساءل :
- ما يدور برأسك ؟ والله حدثتني نفسي . قلت هذا الرجل لا يوافقني عبثاً . غفوت وصحوت عشرين مرة أمس وأنت لم تنم ؟ بم كنت تفكر ؟

أمام بيت متهالك توقف المكاري . نادى على فاطمة يطلب شربة ماء . دارت عينا أبي عاطف حول البيت . قاست المسافة بينه وبين أقرب بيت إليه . انحنى على شجيرة العطر التي كان يعنى بنفسه ذات يوم بمثلها أمام بيته في كفرلالا . أفاق على صوت فاطمة حزيناً وكسيراً ، كأنه صوته الجديد . كان صوتها يصدح أيضاً ، كأنه صوته الذي ضاع في كفرلالا . تناول الكوز فسألته عما إذا كان يشكو من شيء . وحين اختفت داخل البيت لكزه المكاري :
- هه ؟ رأيتها ؟ هذه هي فاطمة ؟ من ظننت أنها تكون ؟ فاطمة المغربية ؟ هل نذهب الآن الى الآغا ؟ قولك ننزل الحمل أولاً عند الوكيل ؟ لماذا لانفاتحه أولاً بأمرك ؟

أسرع أبا عاطف :
- لا لا .

احتبست الكلمات في حلقه ، وكانا قد نأيا عن البيت ، فاستدار إليه ، وإذا بفاطمة ترقبهما . استدار المكاري أيضاً ، فلوح لفاطمة ، ولكز أبا عاطف :
- قلبي يحدثني والله العظيم . إياك أن تكون نويت على المرأة . .
- ما نويت يارجل ؟

رد أبو عاطف محتداً ، فقال المكاري :
- صحيح أن موت المرأة مثل الضربة التي تصيب الكوع ، توجع القلب لحظة ثم ينساها واحدنا . اسأل عمك المكاري . أنا جربت قبلك ، ولكن لم تطلع لي في تلك الأيام واحدة مثل فاطمة ، أو أنني ما كنت مجنوناً مثلك .

تساءل أبو عاطف :
- يعني فاطمة مجنونة ؟
- لا . فاطمة عاقلة ونحن المجانين .

ـ أنا لست مجنوناً .

ـ هيا اليها إذن . ستكونان العاقلين بيننا .

ـ مابك اليوم لاتجمع كلمة مع كلمة ؟

ـ أنا مابي أم أنت ؟ خلنا ننته أولاً من الآغا . .

ـ وإذا لم يوافق ؟

ـ كل عقدة ولها حلاّل .

في مجلس الآغا أطرق صامتاً ، والمكاري يعرّف به ، ويطلب الشغل له ، حتى إذا سكت تنحنح الآغا ، فرفع أبو عاطف رأسه وقال :

ـ سمعت بفاطمة وأرضها ياآغا . أنا أدفع عنها المجيديات وأعمل معها في الارض إذا سمحت لي ؟

وجم المكاري وراح الآغا يتمعن فيه ، فيما الوكيل يقول ساخراً :

ـ وكيف سيكون ذلك ؟ مثل الأخ وأخته أم . .

قاطعت الوكيل ضحكة الآغا ، وأبو عاطف يقول :

ـ كما يعيش كل الناس . نتزوج على سنة الله ورسوله . .

تعالى ضحك الآغا والوكيل ، والمكاري يلكز أبا عاطف مهمهماً :

ـ مجنون . أحلق شواربي إذا كان فيك ذرة عقل .

صاح الآغا بالوكيل وهو مازال يرتج من الضحك :

ـ اللهم اجعل هذا الضحك على خير . مارأيك يامكاري ؟

حشرج المكاري :

ـ الرأي رأيك ياآغا .

قال الوكيل :

ـ لابد أن يكون لك كلام . أنت جئت بالرجل .

طأطأ المكاري :

ـ اسماعيل سيكون من خيرة رجالك . وإذا وافقت على الزواج تكون مشكلة فاطمة قد انتهت .

ضرب الآغا كفاً بكف مذهولاً ، وحدق بالوكيل وهو يقول :

ـ نِعْم الرأي . اتفقنا يااسماعيل . ازرع الأرض وفاطمة لك . ولكن إياك ، أنا لاأريد أولاداً مجانين في كفر حبوس .

قال أبو عاطف كأنما قد أعد للأمر عدته :

ـ أكمل معروفك ياآغا . تقطع من حصتي على الموسم مايقابل المجيديات . .

نقل الآغا عينيه الزرقاوين بين أبي عاطف والمكاري والوكيل ، ثم أمر الوكيل :

ـ اقطع من حصته على الموسم مايقابل الدين . خذه يامكاري الى بيت فاطمة .

قبّل اسماعيل يد الآغا الغضة ، وحذا المكاري حذوه ، ثم خرجا يلاحقهما الضحك الصاخب .

وعلى الطريق الى بيت فاطمة انهال المكاري على أبي عاطف تقريعاً ، وماكان أبو عاطف أقل منه إنكاراً لما جرى . قال المكاري :

ـ هات أرني شطارتك . مارأيك إذا طلع الجنون برأسها وقالت لا ؟ ماذا ستفعل ؟ هل تريد أن يزوجك إياها الآغا غصباً عنها ؟ ياأخي حرام . .

قال أبو عاطف راجياً :

ـ انظر كيف تفعل . لاتلمني . ليس من الضروري أن تحدثها بكل شيء اليوم . أليس من بيت يؤوينا غير بيتها .

كانت لاتزال جالسة أمام البيت على حجر كبير قرب شجيرة العطر . تعجب أبو عاطف من أنه لم ير الحجر قبل قليل ، وأسعده أن يسألها المكاري :

ـ عندك مانسدّ به البطن يافاطمة ؟

وقفت مرحبة ودعتهما الى الدخول . بدا البيت لأبي عاطف أرحب مما يتوقع . تربع حيث أشارت ، وأركز عينيه في حجره ، حتى جاءت بالطبق ، معتذرة عن قلة الخبز ، متعللة بكونها وحيدة ، فقاطعها المكاري :

ـ اسمعي يابنتي . أنا أعرف عنك كل شيء ، وأبو عاطف أيضاً . أنا مثل واحد من كفر حبوس . لعنة الله على هذه القرية . ماذا قلت ؟

ـ نعم ياعمي .

ـ أنا عمك حقاً .

قال ، والتفت الى أبي عاطف المطرق :

ـ وعمك أيضاً . ارفع رأسك واسمع . .

ثم عاد الى فاطمة التي كانت لاتزال واقفة :

ـ اجلسي هنا . اجلسي بجانبي يابنتي . .

وراح يحدثها عن أبي عاطف وهي تطرق تارة ، وترفع عينيها تارة الى هذا الرجل الغريب البائس ، بل المريض . التقت نظراتهما مراراً ، وكان يهرب منها كل مرة . كان يحسب أن المكاري يتحدث عن رجل آخر ، يود أن يستميل اليه هذه المرأة، قبل أن تمتد يده الى طعامها . وكان المكاري يتعثر في إعلان غرضه ، بيد أنه لم يكن من العسير على فاطمة أن تخمّن ، فقاطعته بعد قليل مشيرة الى الطعام :

- كل ياعمي لقمة . . كل يااسماعيل . .

أقبل أبو عاطف على الطعام موقناً أن فاطمة سوف تكون له ، إنْ لم يكن اليوم فغداً . واستنجد المكاري بالطعام على المأزق الذي لم يستطع الخروج منه . ثم استنجد قبل أن ينتهي أبو عاطف من الطعام بالخروج كي يسقي البغلين . وماكاد يغيب حتى ترك أبو عاطف قطعة الخبز التي في يده وأطرق يتنحنح :

- اسمعي يافاطمة . لاأنت تعرفين اسماعيل ولااسماعيل يعرفك . اسماعيل مثلك وأنت مثله . صحيح هو رجل وأنت امرأة . الموت أخذ منك زوجك ، وأخذ منه زوجته . رحمة الله عليهما . الأغوات فعلوا بك مثل الذي فعلوا به . دربك دربه ودربه دربك والله أعلم . اسألي المكاري . فهمها عليّ بلا كلام . عندما قال لي أمس فاطمة كيت وكيت قلت امش يااسماعيل الى كفر حبوس ، وأكثر من القرد الله مامسخ . نحسك ونحسها يااسماعيل يصير سعداً بقدرة الله . حطي كفك في كفي واتكلي على الله . يجوز أني غلطت وحكيت بهذا مع الآغا قبلك ، ولكن صدقيني ، ماكنت أعرف ماذا أفعل . الله هو الذي ألهمني وقلب الواحد منا دليله . .

وطفق يهرف حتى عاد المكاري ، فرآها تدعك أطراف منديلها ، تعض شفتيها وتلجم الدموع التي ملأت مقلتيها ، وأبو عاطف يبتسم .

رفع المكاري الطبق وهو يقسم أن أحداً لن يقرأ الفاتحة غيره ، وسأل وهو يجلس بينهما :

- هل تظنان أني لم أعقد زواج أحد قبلكما ؟ هل في كفر حبوس وكفرلالا شيخ أفضل مني ؟

وشبك كف فاطمة بكف أبي عاطف ، وفرش فوق الكفين شملته ، وسمى باسم الله الرحمن الرحيم .

★ ★ ★

لايزال غداء فاطمة فقيراً ، كعهد أبي عاطف به أول مرة ، بيد أنه يجيء كل مرة أطيب وأشهى ، كما تجيء فاطمة كل مرة أجمل وأقوى ، على البيدر أو في الأرض ، في الشتاء أو في الصيف ، في البيت أو في ساحة كفر حبوس التي لم تعد تتحاشاها ولاتنكرها ، ليس لأنها قد تزوجت وحسب ، بل لأن زوجها هو هذا الرجل الذي استطاع أن ينتزع احترام الجميع منذ يومه الأول . فأبو عاطف كما تردد كفر حبوس فلاح أصيل ، لايكلّ ولايملّ ، زرعه هو الأفضل ، وحصاده هو الأفضل ، وابن حكره راض عنه . والمكاري الذي توده كفر حبوس هو الذي جاء به . لكن أبا عاطف رغم ذلك كله أدرك منذ البداية أن المقام لن يطول به وبفاطمة هنا . ربما كان عسر اتصاله بالآخرين في الأيام الاولى ماجعله يفكر في ذلك . وقد لايكون أبه بوساوسه حينذاك ، حتى عادت فاطمة من دورها في السخرة في مضافة الآغا ، تجهد في كتم مابها ، وأبو عاطف يقرأ سريرتها كأنه عاشرها عشرات السنين . لقد عاد الوكيل يتحرش بها ، وعلى الرغم من أنها قد صدّته ، وهددت بفضحه أمام الآغا والفلاحين ، فإن النار قد أخذت تكوي أبا عاطف ، فقضى ليالي مسهداً ، قبل أن يقرر مواجهة الوكيل .

كانت الريح الثلجية تعصف بكفر حبوس منذ الفجر ، وتحبس الناس ليس عن الشغل ، بل عن الخروج من البيوت ، لكنه غافل فاطمة وتوجه الى المضافة ، فإذا بعدد من الفلاحين يتربع أمام قدمي الوكيل . ألح على الوكيل كي يكلمه على انفراد ، لكن الوكيل الذي اربدّ منذ دخل أبو عاطف رفض الانفراد ، فتساءل أبو عاطف :

ـ تريد أن نرحل الآن تحت هذا الثلج ؟

علا صوت الوكيل :

ـ قلت للآغا إنّك مجنون فلم يصدقني .

اقترب أبو عاطف موشوشاً :

ـ أنت العاقل وأنا المجنون . ستكون فضيحتك قبلي . ماذا تريد مني ؟

وقف الوكيل يفرك ذقنه ويدور حول نفسه كأنما ألفى نفسه فجأة في قفص . وحين اقترب من أبي عاطف موشوشاً بدا كمن فتح باب القفص وانطلق :

ـ دبر المجيديات وارحل وقت تشاء . خذها إلى جهنّم و . . .

قاطعه أبو عاطف :

ـ إياك أن تذكرها على لسانك . كلامك معي ولاشأن لك بها . أنت تعرف أني لاأستطيع

أن أدبر المجيديات حتى الموسم . ابعد عني حتى الموسم ، وأنا أستأذن الآغا بالرحيل منذ الآن .

عاد الوكيل يفرك ذقنه ثم قال :

ـ كلامك معي ولاشأن ذلك بالآغا .

ـ أنا لاأخونه ولاأكذب عليه . .

ساد الصمت هنيهة قبل أن يتابع أبو عاطف كأنه ظفر بلقيا :

ـ لاتنس أن الموسم إنْ شاء الله سيكون وافراً ، فماذا أفعل بما يزيد لدي ؟ لابد أن أكلم الآغا منذ الآن وأضمن نفسي .

همس الوكيل ساخراً :

ـ إذا بقي لديك مايزيد على المجيديات ولاحاجة لك به ، فأنا أشتريه . .

ثم أردف بعد قليل مهدداً :

ـ لاتكلم الآغا . .

مد أبو عاطف يده :

ـ ناولني عربوناً .

احتدّ الوكيل :

ـ من يخوّني يخوّن الآغا نفسه .

قال أبو عاطف :

ـ أنت طلبت أن نترك الآغا بعيداً . أنا أريد أن أضمن نفسي . .

تساءل الوكيل :

ـ من يشتري السمك في البحر ؟ افرض أن الموسم لم يف حتى بالمجيديات فماذا أفعل ؟ ماذا تفعل أنت ؟

قال أبو عاطف وقد بدا مستعداً لأية حركة أو كلمة من الوكيل :

ـ إذا لم تبق لي زيادة يعود لك العربون مضاعفاً في الموسم الذي بعده .

ـ وماذا يضمن لي أن لاتخدعني ؟

ـ هات القرآن لأقسم عليه . هات من تشاء لأشهده على أن العربون دين منك أوفيه قمحاً من الموسم ، وإذا عجزت أوفيه في الموسم الذي بعده مضاعفاً .

أخرج الوكيل من جيبه مجيديتين وناولهما لأبي عاطف ، ثم عاد الى مقعده قائلاً بصوت مسموع :

ـ حلفانك لايهمني ، والشهود هاهم . أقطع الضعف مما يزيد هذا الموسم . واحد اثنان ثلاثة اربعة . اثنان واثنان أربعة . ألا تعرف العد ؟ وإذا ما وفى الموسم هذا العام فسأقطع الضعفين من الموسم الذي بعده ، يعني ثمانية يافهيم . هل فهمت . أما إن جربت أن تتشاطر وعاد لك جنونك فلا تلم إلا نفسك . مع السلامة .

رمق أبو عاطف راثياً الفلاحين الذين كانت أعينهم تتابعه والوكيل ، وآذانهم صمّاء ، واندفع عبر الريح المثلجة ، وقد أنزل عن كتفيه ماكانا ينوءان به . ولما وصل الى البيت كانت فاطمة واقفة على الحجر الكبير ، بجوار شجيرة العطر ، تحت الزنزلخته الوحيدة ، تداري الريح والثلج ، وتتطلع في كل ناحية ، فشدّها من ذراعها راكضاً ، وحول المنقل المهترىء سألته متمتمة :

ـ أين كنت ؟

لم يهرب كما توقعت ، بل تبسّم متلذذاً بلفحة الدفء ، ورفع كفيه فجأة الى وجهها يحضنانه ويمسحانه هامساً :

ـ خدك مثلج ، دفئيه هكذا . . تعرفين أين كنت .

ـ وماذا فعلت ؟

ـ حاسبيني ياستي . لجمت لك ابن الوسخة . مليح ؟

أبعدت كفيه وراحت تلهو بتحريك الجمر متسائلة :

ـ كيف ؟

فرح برنة صوتها المكابرة والملهوفة ، وحثه ذلك على أن يزوق ماجرى بينه وبين الوكيل . وكانت ترفع عينها إليه كل حين من المنقل ، مشجعة ، وقد لون الدفء وجنتيها . ولما لاح أنه انتهى أسرعت تقول :

ـ لن تفعل شيئاً خفية عني ، مهما كان . لاتنس . كيف طاوعك قلبك أن تخرج هكذا وتتركني ؟

ولقد ظلت طويلاً من بعد حائرة فيما إنْ كان أخطأ أم أصاب ، فتكتفي بالدعاء في سرها ، لكنها منذ بدأ الحصاد صارت تجهر بالدعاء ، وأبو عاطف يضحك ، ويثني الدعاء خلفها ، فقد بات واثقاً من النجاة بها وبنفسه ، مهما جار الوكيل في تقسيم الموسم . لقد كان البيدر عامراً ، كما كانت المجيديتان العربون تدفئان صدر فاطمة ، وهما تكفيان ريثما تحط الرحال بأبي عاطف وبفاطمة في مكان آخر غير كفر حبوس .

★ ★ ★

17

ربما كان آخر عهد راغب الناصح بركوب الجمل حين أرسله أبوه الى صفد وهو فتى ، بصحبة عمه ، وسط قافلة طويلة من الجمال والحمير والرجال .

كان أصغر من في القافلة . لم يحلْ سعي أمه دون سفره يومذاك . كان أبوه مريضاً ، وموسم نقل الحبوب الى صفد قد حان . ولم يكن أبوه على وفاق مع شقيقه الأكبر ، كما أنه كان يصرّ على أن راغب صار رجلاً . ولعل إصرار أبيه هو ماذهب بالقلق الذي اعتراه جراء تهويل الأم . أما عم راغب فلم يفارقه قط منذ غابت القافلة عن العال . أطعمه من زوادته . أمسكه من كفه في أزقة صفد . أجلسه بين الرجال في الخان . جعل تادروس يقدم له الشاي بنفسه ، شأن الرجال كافة . فرض العم على تادروس أن يدفع لراغب وحده دون سواه مجيدية إضافية . أعانه في شراء كل ماأوصى به أبو راغب وأم راغب . وفي العودة كان أكبر حدباً .

فرح الأب بابنه ، وزغردت الأم ، ثم ألحّ راغب على أبيه حتى جعله يزور العم شاكراً ، فانقضت سنوات من الجفاء وشبه القطيعة بين الشقيقين ، وصار بوسع راغب أن يخرج الى الصيد علناً مع أبناء عمه الأشداء الكثر ، دونما حاجة الى تكتمه أو الى تكتمهم عن الكبار .

صهوة الحصان هي التي استهوت ابن الناصح ، وليس سنام الجمل أو سناماه . ولعله لذلك لم يستطع أن يخفي امتعاضه حين تلقى الأمر بالتوجه مع ثلاثة من العساكر الى عين فيت ، فوق ثلاثة من الجمال ، وخلفهم جمل رابع حملت عليه الأشياء التي قيل لراغب إنها ضرورية من أجل المخفر . كان أكبر العساكر سناً . ووحده من بينهم يحمل بندقية موسكوفية . أما الآخرون فكانوا فتياناً ، أصغر من فياض العقدة ، يحملون بواريد هزيلة شتى . كان راغب سعيداً ومهموماً لأنه كلف برئاسة الجنود والمخفر ، ريثما ترسل الحكومة آخرين ، قد يكون بينهم ضابط .

غادرت قافلة المخفر الشام دون أن يتاح لرئيسها وداع الملازم تحسين شداد ، على الرغم من حاجته لذلك . فمن سيشرح له سوى الملازم تحسين ماذا يعني أن ترسل الحكومة الى عين فيت آخرين قد يكون بينهم ضابط ؟

ربما كان العساكر الثلاثة أقل هماً من رئيسهم ، إلا أن ماكانوا يداورون من الخشية ، لم يخف عليه . ولئن كان راغب يجد عذراً لحسين فندي وهزاع نصر ، وهما الغريبان عن المنطقة ، فكيف يعذر قاسم السعد ، الذي كان يبدو اضطرابه يكبر ، كلما اقتربت القافلة من قريته نفسها : عين فيت ؟

في الاستراحة الثالثة بالغ راغب في تعنيف قاسم والهزء به . فأشاح قاسم منكراً اختلاج جفنيه وزاجراً قهره ، قبل أن ينفجر في وجه زميليه اللذين كانا يتظاهران بالشجاعة :

- أراكم بعد قليل . قربنا نصل . لو أن واحدكم عاش مثل الذي عشته هنا، لكان فضل أن يرسلوه الى جبهة جديدة على أن يأتوا به الى عين فيت .

نهر راغب بالعسكريين :

- كفى .

فاندفعا معاً :

- ماذا فعلنا ؟ أنت السبب .

والتفت هزاع الى قاسم :

- إذا كنت لاتجرؤ على أن ترد عليه فلا تتمرجل علينا .

تقدم راغب يربت على كتف قاسم قائلاً :

- لاتبالغ . أنا أيضاً أعرف هذه المنطقة .

وفي الاستراحة الأخيرة راح يحث قاسم على أن يحدثه والآخرين عما يجعل امرءاً يؤثر الجبهة على قريته . قال راغب :

- أنت تعرف أننا سنعيش مثلك في عين فيت . وكل كلمة يمكن أن تفيدنا . نحن سنكون الحكومة هناك .

كان راغب يعرف مَنْ مِنَ الأمراء يسيطر على عين فيت والشمال الغربي من الجولان كله . كان يعرف أيضاً أن واسط هي مركز الأمراء ، وأنهم قد استولوا على كل هذه الارض بقوة الذراع . خاضوا من أجلها المعارك ، وسالت الدماء منهم ومن الفلاحين . ولكن مالدى قاسم السعد أكبر وأدق . وكان راغب يزداد إعجاباً به ، ويندم على اساءته

له ، كلما أفاض في شؤون عين فيت والأمراء والبدو والفلاحين ، بل في شؤون الجولان وفلسطين ، مما يعلم راغب ومما يجهل . وكان يفكر وهو يصغي الى قاسم السعد بفياض العقدة الذي لم ينس أيّ أمر يتصل بالمشرقة أو البدو أو الفلاحين أو جبل الحلو أو الدنادرة، على الرغم من أنه كان أصغر من قاسم حين انضمّ الى راغب وياسين واسماعيل وحمادي وعزيز .

لقد فرّ أشقاء قاسم الثلاثة الذين يكبرونه الى أمريكا هرباً من البدو ، لامن حملة الجهاد . ولما خلا البيت من الأبناء الذكور ، سواه ، راح أبوه يروي عليه كل ليلة نتفة من أخبار البدو والأمراء والعشائر والفلاحين والمنطقة كلها . كان يوصيه بالحذر ، ويعدّ هو الآخر للحّاق بأخوته ، فلا نجاة هنا إلا بالهجرة . عين فيت كلها كانت تردد ذلك ، وليس بيت السعد وحده . الهجرة الى أمريكا أو الى فلسطين أو الى أي مكان . ثمانون شاباً هاجروا قبل الحرب ، وربما كانوا أكثر . ثلاثة أرباع الشغل صار على النساء ، بعد أن كادت عين فيت تخلو من الرجال . بل لعلها قد خلت منهم حين ساقت الحرب بعيداً من تبقى من الفتيان والشيوخ .

منذ سنين بعيدة بدأ البدو يسرحون فيها على هواهم ويمرحون ، يحصلون العشر ولايدفعون للسلطان . يحصلون فوق الضريبة الخمس من كل بيت لأنهم يحمون المنطقة . وحين جرب أولاد السعد أن يرفضوا مرة ، أغار البدو على الزرع ، ونهبوا المواشي والمؤونة .

كان الأمراء في بداية عهدهم بعين فيت . ولما رأى الآخرون ماحلّ بزرع وبقر وطحين بيت السعد آثروا السلامة ، وإنْ كان بعضهم قد فتش عمن يحميه . لكن الأمراء طردوا الحماة من خواجات الحولة ، وبدأ الشبان يفرون ، ولاأحد يعرف كيف اهتدوا الى أمريكا . قد يكون خواجات الحولة هم الذين أرشدوهم ، وربما سواهم من فلسطين ، بيد أن أحداً ممن ذهبوا لم يعد .

وسرعان ماأدرك راغب صدق قاسم السعد في كل ماروى . لقد ذهب بنفسه الى الأمير جهجاه مسلّماً في الصباح التالي، حسبما نصحه كل من التقى في عين فيت. فلا مخفر ولاحكومة في هذه المنطقة إذا لم يرض الأمير . الحكومة نفسها في الشام تذبح له جملاً حين يزورها ، فماذا يمكن لراغب الناصح أن يفعل هنا ؟ حسبه أن يحنو على جنوده الصغار ، أن يحنو خاصة على قاسم السعد . حسبه أن يلازم أبو عابد ، كما ينادى أبو قاسم الذي غدا وحيداً بعدما ماتت زوجته ، وزوج بناته في غياب أولاده الذكور جميعاً .

راغب ينكر الآن أن يكون هو من تفاخر يوماً على فياض وعزيز وياسين وحمادي واسماعيل ، إذْ لم يقع في أسر الانكليز ، بل البدو ، وهذا ليس أسراً . إنه يتساءل الآن عما يكون الأسر إذن ؟ عما تكون الحكومة والمخفر ؟ ولكنه لايجرؤ على أن يبوح لأحد بما يشغله ويزيده مقتاً .

سرعان ماتعود أن يهرب مما به في تجواله بين القرى القريبة ، حين تكون السماء صحواً ، مصطحباً معه أحد العسكريين الغريبين ، أو منفرداً . كان ذلك يذكره بجولاته وهو في مثل سنّ العسكريين الصغيرين مع أولاد عمه، ثم مع سواهم ، فيتشوق لليوم الذي سوف يغرّب فيه الى أهله ، وهو حائر فيما إنْ كان عليه أن يسأل أحداً في الشام ليحدد له ذلك اليوم ، أم أنه يحدده بنفسه ، مادام هو رئيس المخفر ؟

هزّاع وحسين صارا هما أيضاً يسألانه أن يجيزهما ، ولو ليوم أو يومين . كانا أكثر منه ضيقاً بعين فيت ، وأكبر شوقاً الى الجنوب ، حيث أهلوهما ، على الرغم من أن كلاًّ منهما ظفر بإجازة قبل أن يرسل الى عين فيت .

طال الانتظار دون أن يظهر أحد من الشام أو من غيرها . خشي راغب أن تكون الحكومة قد نسيته ، فتوجه حانقاً الى الشام ، يطالب براتبه ورواتب العساكر ، ويسأل عما يعنيه المخفر إن كان سوف يبقى هكذا ؟ وفي اليوم الوحيد الذي أمضى في الشام ، سأل عن الملازم تحسين بلا جدوى ، وعرف أن فياض العقدة مايزال عسكرياً في القشلة ، أما اسماعيل معلا وعزيز اللباد وياسين الحلو فلم يعودوا ، كما لم يظهر من يحمل اسم حمادي الحسون ، ونام في القشلة قلقاً على أصدقائه وعلى العساكر الصغار الذين تركهم وحدهم في عين فيت ، بلا رئيس .

أثر عودته من الشام بثلاثة أيام وصلت الى المخفر دفعة جديدة من العساكر . كانوا ثلاثة أيضاً وعلى رأسهم شاويش مسنّ يحمل كتاباً بتعيينه رئيساً للمخفر .

وماكاد الشاويش ينتهي من كأس الشاي الذي أعده قاسم السعد حتى خاطب راغب :

ـ علمت أنك ما أخذت إجازة منذ دخلنا الشام . في القشلة قالوا لي . تستطيع أن تذهب متى شئت الى أهلك . ابق كما ترغب ثلاثة أربعة أيام . خمسة لامانع .

ثم التفت الى هزاع وحسين اللذين جاءا مع راغب :

ـ أما أنتما فسيأتي دوركما بعده ، واحداً واحداً .

كان راغب صامتاً منذ قرأ الشاويش الكتاب الذي يحمل بصوت عال . كان غير قادر على أن يحتفي بالشاويش ومن معه مثل قاسم السعد . ولعله كان سيغدو أكبر ضيقاً وأقسى صمتاً لولا أن الشاويش ذكر الإجازة . أما الآن ، فقد نهض يحيّي ويركب الجمل ، مركزاً البندقية الموسكوفية جيداً على كتفه ، مغضياً عن عين فيت ، حالماً بالعال .

★ ★ ★

في رأس البيوت الفلاحية القليلة التي أفادت في العال من مد سكة الحديد حتى حيفا ، كان بيت الناصح . ضاعفت أشغال السكة من الاسعار ، وكان لدى بيت الناصح الكثير مما يبيعونه . كان أبو راغب لايزال يحتفظ بقطع متناثرة وصغيرة من الأرض في أطراف فيق ، حيث أقام في بداية قدومه، مع فلاحين كثيرين، من احدى ضفاف نهر الاردن في الجنوب البعيد . باع قطع الارض تلك جميعاً إبّان مد السكة ، ثم باع الكثير من الغنم ، ومنذ ذلك الوقت وهو لايفتأ يشتري ويبيع ، حتى صارت له في العال ، ولأخوته ، أراض واسعة ، متباعدة ، يمتد بعضها حتى الحولة .

لم يعد شغل رجال بيت الناصح في الأرض يكفيهم ، فصاروا يستأجرون في مواسم الفلاحة والحصاد من الفلاحين ومن العاطلين ، في العال وفي جوارها . بل ان والد راغب استأجر قبيل الحرب راعياً ، وبنى حظيرة ضاقت بما اجتمع له من الغنم والماعز . مئة رأس من الغنم ، وأكثر منها من الماعز ، فضلاً عن الأحصنة الثلاثة . التي كان يتباهى بها راغب .

على ظهر الجمل فكر راغب في أن الراعي كان سيصبح غنياً لولا الحرب ، مادام له كل عام ربع ماتلد الغنم والماعز ، فضلاً عن طعامه وكسائه . خاف راغب من أن يكون أبوه قد باع الأحصنة الثلاثة ، مثلما فعل بأكثر الماعز وبعض الغنم ، سنة تلو الاخرى ، منذ قامت الحرب . كان الوالد في آخر لقاء لراغب به مصراً على ألّا يبيع الخيل ، ويرجو الله أن يمكنه من ذلك ، ويتحسر على أيام العزّ ، حين كانت سكة الحديد تقلب التراب بين يديه ذهباً . وكان راغب يصغي، ويشك في أن يستطيع أبوه أن يصمد طويلاً .

بعيد الغروب أطل على العال التي كانت قد أخذت تغدو كتلة متماوجة من العتمة ، تتطاول فيها أشباح الأشجار ، وتنفلش أطرافها في المدى السهلي القاتم . كان

بوسعه أن يمايز في قلب الكتلة نقاطاً أشد حلكة ، وأصلب ، تنمّ عن البيوت المتزاحمة في وسطها . تمنى لو أنه وصل نهاراً كي يراه الناس ، ويتقافز الأولاد، ينقلون الى أهله خبر قدومه . تحسّر لأنه لم يستطع أن يدخل القرية على حصان منذ صار عسكرياً . على قدميه جاء من قبل ، واليوم يجيء على الجمل . ولكن غداً سوف تراه العال على الحصان، والبارودة تتأرجح على هواها . بل إنه سوف يعود بالحصان الى عين فيت إنْ سمح له أبوه بذلك . سوف يركب الحصان بدلاً من الجمل إنْ سمح له الشاويش . بل إنّ عليه أنْ يسمح ، فإذا كان راغب قد سلم برئاسة المخفر ، متعللاً بسنّ الشاويش ، ورتبته ، وأمر الحكومة ، وغياب الملازم تحسين ، فليس معنى ذلك أن الشاويش سيتحكم في ابن الناصح مثل أي من العساكر الآخرين . سوف يذرع عين فيت وماحولها على حصانه ، يعود الى الصيد والمبيت في البراري ، مثلما كان قبل أن تحرمه الحرب من العال التي أقبضه الآن سكونها ، لكأنها لم تدر أن الاتراك قد رحلوا ، وأنّ الحكومة صارت عربية ، وأنّ واحداً من العال صار من هذه الحكومة ، وهو يؤوب بعد طول شقاء منتصراً .

لاالعال ، ولاماحولها ، استطاعت أنْ تبدل ماااعتادت عليه في السنوات القليلة الفائتة . لم يكن راغب بعيد وصوله بحاجة الى أن يشرح له أبوه ذلك ، فكيف به وهو يدور في العال وحولها ، منذ صباح إجازته الاول .

مياه البحيرة نفسها راكدة ، على الرغم من تباشير الشتاء . الأحصنة الثلاثة التي نجت من البيع ماعادت زاهية . وفي نفوس الناس فتور أكبر مما يقدر راغب على احتماله . فيهم فرح أقل ، رغبة أضعف ، كأنهم لايريدون أن يغادروا الفرش الدافئة في صبيحة باردة ، وهو يقرعهم ويحثهم ، مثلما يقرع ويحث الأحصنة ، مثلما يخبط وجه البحيرة بالحصى الصغيرة والكبيرة ، حتى أفلح في أن يخرج بعدد من الشبان ، بينهم من تبقى من أبناء عمه ، الى الصيد ، وكان ذلك في نهاره الثاني . أما في المساء فقد أفلح في أن يلوي بحديث الساهرين في بيت عمه الى المستقبل ، حين ألح على معابثة أبناء عمه العازبين ، ونعى هرمه ، إذْ ردّ عمه على معابثته غامزاً :

ـ بدل ماتقول لها كشّ ، اكسر رجلها . كان لازم ابنك يكون يلعب على البيادر .

لقد حلا له أن يزوق الصيف القادم بعرسين لبيت عمه ، وعرسين : له ولشقيقه ، وحث الحاضرين على أن لايدعوا عازباً في العال يفلت من الزواج هذا الصيف ، فتساءلوا عن العازبات ، حتى من كانت منهن في الثانية عشرة ، ونسوا حسرتهم قليلاً على ماكان، وهم يدققون في كفاية المواسم لمثل هذه الافراح القادمة . وقبل أن تنتهي

الاجازة ، استطاع راغب أن يثير لغط الرجال على الشيخ الذي علمه القراءة والكتابة ، مثلما علم شيوخ وشباب العال ، حتى الحرب ، إذْ توقف عن التعليم ، رغم أنه لم يتوقف عن الصلاة ، ولازال قادراً على الفلاحة بعدما أربى على الثمانين أو التسعين عاماً .

★ ★ ★

على ظهر الحصان دخل عين فيت ، وقد أرسل الجمل مع شقيقه بالأمس . ولكن الشاويش لم يهلل للفارس كما كان يأمل ، بل بادره معنفاً :

ـ لو لم تحضر اليوم لكنت أرسلت من يبلغ الشام عن فرارك .

ـ مهلك ياأبو جميل . أنت بعظمة لسانك قلت : ابق كما ترغب، نسيت ؟

ـ حسبت أنك أعدت الجمل وفررت بالبارودة .

ـ من لم يفر أيام الأتراك يفر هذه الايام ؟ سامحك الله !

ـ أيام الفوضى راحت ياراغب . صحيح أن الأمور بقيت فالتة أول مادخلنا الشام ، أما الآن . .

همّ راغب بالخروج ممتعضاً ، فتراخى الشاويش :

ـ الى أين ياراغب ؟ لم تصل بعد . زعلت ؟

ـ وهل يحتاج الزعل الى اذن ؟

ـ اسكت وتعال . قل لي كيف أرسلت الجمل وجئت على هذا الحصان ؟ منذ متى لم أر حصاناً مثله ! من أين لك به ؟ هل كان في الحرب ؟ يبدو لي مثل من خرج من الحرب منهكاً . .

قال الشاويش كأنه لم يكن غاضباً ولاعابساً قبل قليل . وجعلت كلماته راغب يأنس اليه ، ويعدّ بنفسه الشاي ، وكان الحصان يصهل في الخارج ، والعساكر الآخرون يتحلقون حوله معجبين ، الا قاسم السعد الذي لم يظهر بعد . ولعل صهيل الحصان وخبطه وصخب العساكر هو ماجعل الشاويش يتذكر عهداً قديماً له ، ويسأله دون أن ينتظر جواباً :

ـ تعرف جبل الشيخ ، اذن أنت تعرف حضر . وإذا ما عرفتها ، أكيد سمعت بها .

ثم يرخي جبينه على كفّه ، وينوس صوته :

ـ من حضر كنت أنطلق مثل السهم الى رأس الجبل . لن تصدق . من حضر الى شبعا كنت أطير مثل الباشق . لن تصدق . كانت لي فرس كحلاء اسمها صبيحة . أنا سميتها

صبيحة . وبعد موتها ياراغب لم أركب الخيل .
ثم رفع رأسه بغتة يصطنع الضحك :
- كنت في مثل عمرك . أيام الشباب ..
ود راغب لو أنه يقدر أن يفعل مايخفف عن الشاويش ، فقال :
- مررت بتلك الجهات من سنين ..
هلل الشاويش وأمسك بكتفه :
- بالله عليك ؟ كيف رأيت حضر ؟
أشار راغب الى حيث الحصان ، وقال وهو يلجم الاعتزاز الذي جعل صدره يشمخ . وصوته أعلى :
- من على صهوة هذا رأيتها . بالكاد كنت روّضته ، كانت الحرب قد بدأت . كان الثلج يغطي الجبل . حضر باردة ولكنها حلوة .
نهض الشاويش متمهّلاً حتى ظهر الحصان ، فراح يتملاّه معجباً من بعيد ، ثم التفت الى راغب :
- ماذا ستفعل به هنا؟ ألا زال شقيقك في عين فيت ؟
قال راغب :
- رجع الى العال . رغبت يبقى الحصان معي . كان والدي يعرف أنه حصاني ولو ما قال أحد ذلك . أنا لاأحب ركوب الجمل ياأبو جميل .
أسرع الشاويش :
- ولا أنا .
قال راغب :
- تركب هذا الحصان اذن من الآن فصاعداً ، مرة مني ومرة منك . كرمى لصبيحة يجب أن تقبل . لاأنت ولا أنا سنركب الجمل .
تنهد الشاويش ورجع الى مقعده ، وراغب يلاحقه :
- وتذهب الى حضر على الحصان . لاتقل لا .
لكن الشاويش أطرق ولم يتكلم ، حتى دخل قاسم السعد يرحب بفارس الجولان .

★ ★ ★

كانت السماء قد عادت تعج بالغيوم أثر صحو قصير ، وقد ظلت كذلك لأيام ، ولم يكن لدى راغب أو الشاويش مايصنعانه - شأن الآخرين في المخفر - حين تمطر أو تشي بالمطر . أما حين تتراجع الغيوم أو تطل الشمس ، فقد كان قاسم يسرع الى أبيه ، ويخرج راغب بالحصان ، ثم يدفع نحوه الشاويش ، والشاويش يدفعه ، حتى يقفز أحدهما الى صهوة الحصان ، فيدور فيه حول المخفر ، وينطلق شرقاً . وكان الشاويش يكرر ذلك خاصة، فلا يكاد يختفي حتى يظهر . أما راغب فكان ينطلق أحياناً شرقاً ، ليظهر في الغرب ، وكثيراً ماكان يعود مبللاً، اذ تطول غيبته حتى يداهمه المطر وهو بعيد ، وقد كانت غيبته في ذلك العصر الذي وصل فيه الى بانياس أطول غيباته ، قبل أن يحل الربيع .

ماكان في السماء حين انطلق سوى كمشة من الغيوم المتناثرة . كانت الغيوم قد أخذت تتبدد منذ الضحى ، بعد عدة أيام من المطر الغزير المتواصل . وكان راغب أشبه بالسجين ، كما كان الحصان .

أرخى العنان للحصان ، فجرى على هواه . دار حول عين فيت ، قبل أن يدبر عنها ، ثم انطلق حتى الخيام ، فانحرف عنها ولم يكن راغب قد دخلها منذ أن عاد من العال بالحصان .

تابع الحصان جريه حتى بانياس ، حيث تمهّل ، ثم دار حولها متمهلا أيضاً . وراغب يتملّى قطع الارض المحددة الضيقة . لم يستطع راغب أن يميز فيها مالم يسيطر عليه البدو ، كما قال قاسم السعد وأبوه . لم يستطع أن يميز فيها ماجعل أغلب أراضيها تستعصي على الأمراء ، كما لم يستطع أن يميز في عين فيت ماجعلها سهلة عليهم . فكر في أن كل مايتعلل به قاسم وأبوه وسواهما ممن صار يسهر في بيوتهم ليس مقنعاً . أحس بالامتنان لأن العال وجوارها لم تعرف مثل بلوى عين فيت ، ولابانياس . فكر في ان البدو هناك قد يكونون غيرهم هنا ، أو غيرهم حول قرية فياض العقدة . لكن ذكرى أبي فياض جعلته يجزم أن الفلاحين هنا غيرهم في العال أو في المشرقة ، وليس البدو . الفلاحون في العال والمشرقة أقوى ، كذلك هم في حضر ، والا لما كان أبو جميل يتباهى بنجاتها من مثل بلوى عين فيت . ولما عاد الى المخفر أفضى ببعض ذلك الى الشاويش الذي أنصت مطرقاً ، ولم يعقب بحرف .

في العودة انحرف الحصان أيضاً عن الخيام ، على الرغم من أن زخّة من البرد قد داهمت هناك . وكانت الغيوم التي تكاثفت قد عجلت بالمغيب ، وما إنْ توقفت زخة البرد

حتى انصب المطر انصباباً ، وراغب يستحث الحصان ، والحصان يغالب ويحمحم .

تشاغل راغب بتجفيف ثيابه عن لوم الشاويش على ذهابه بعيداً ، وعلى عدم لجوئه الى خيام الأمراء ، حتى لو بات ليلته هناك ، بدلاً من أن يجري تحت البرد والمطر وفي العتم . وقد أقلقته هواجس راغب في بانياس ، وكان من دونها قلقاً ، مما يصله من السخط والغيرة في الخيام بسبب ذلك العسكري الذي جاء بحصان . وألمح لراغب بذلك مراراً ، كما طلب من قاسم نفسه أن يغري راغب بزيارة الامير جهجاه خاصة ، كل حين . لكن قاسم وراغب لم يشغلا نفسيهما بالأمر . وربما كان الشاويش أكبر قناعة منهما بحق راغب أو غير راغب في أن يعرج أو لايعرج على الأمير جهجاه أو سواه . ربما كان أكبر قناعة في حق راغب في أن يقتني حصاناً، ويتمتع بشبابه كما يحلو له . لكن الشاويش يتحسّب للأمور على نحو آخر . ولعله لذلك توجه الى الخيام في أول مرة يعلو فيها حصان راغب بعدما خفت الأمطار ، وتلامح الربيع . كانت تلك أيضاً أول مرة ينأى فيها بالحصان . وقد هلل لقدومه الأمير ، لكن ابن الأمير تساءل ساخراً عن الحصان ، فأفاض الشاويش في صاحب الحصان مثنياً على قوته ونخوته ، وروى ماخطر له عن شجاعته في الحرب ، مما لم يحدثه به راغب ، ولم تفت الأمير إشارات الشاويش، فزجر ابنه ، ثم فاجأ الشاويش :

ـ أنا أهديك حصاناً أفضل . لايليق أن تظل تركب حصان غيرك .

هكذا عاد الشاويش يركب الحصان الجديد ويجر حصان راغب . وقد أساء ذلك راغب ، فازورّ عن الشاويش والحصان الجديد ، وانصرف الى حصانه ، ثم نادى قاسم ليخرجا معاً . وحلّ العشاء دون أن يعود أي منهما الى المخفر ، فتوجه الشاويش الى بيت السعد ، وتعمد أن يجلس بجوار راغب الذي وجم ، فأفرد الشاويش على كتفه ذراعه الطويل ، وخاطبه أمام قاسم وأبيه :

ـ ياراغب أنا مثل والدك ، كما أني رئيسك ، وعليك أن تطيعني فيما أقول . تعرف كم أحبك . وهذا قاسم يعرف ، والعساكر يعرفون . لاأريد ياراغب أن تقوم أية مشكلة مهما كانت صغيرة بيننا وبين أحد . لاالبدو ولاالفلاحين . نحن هنا من أجل ماذا ؟ قل له ياقاسم . من أجل أن نحل المشاكل أم نعقدها ؟ المخفر يمد يده لكل الناس ياراغب ، الحكومة لكل الناس . العين في الخيام محمرّة منك ، وواجبنا أن نتعامل مع الناس كما تحب هي ، لاكما نحب . اذا كان يسرّك أن تسهر كل يوم في بيت السعد مثلاً، فهذا يسرني مثلك . ولكن الواجب أيضاً أن نزور غيرهم . وأنت تزور الجميع الا الخيام .

سهرة في الاسبوع عند الأمير جهجاه ، عند غيره ، مرة هنا ، مرة هناك . يوم الجمعة نروح سوية ، وقاسم إذا أحب ، وبقية العساكر إذا أحبوا ، لنشكر الامير على هديته . ماقولك ؟

أسرع أبو عابد :

ـ نعم الرأي .

وعاد أبو جميل يسأل :

ـ ماذا قلت ؟

همس قاسم :

ـ شر لابد منه .

وكان راغب يحدق فيه كمن ينشد عوناً ، وتمتم :

ـ لاتعملوها حكاية .

★ ★ ★

تفجرت الينابيع في كل مكان من البراري التي أخذت تتلون وتعبق ، فقد جاء الربيع أخيراً ، ومثل الاشجار والخيول كان صدر راغب يفور بنسغ جديد ، يحس أنه قادر على أن يفعل أشياء كثيرة ، غير زيارة الخيام برفقة الشاويش ، غير التجول حول عين فيت وحيداً ، أو مع الشاويش ، أو مع قاسم الذي يتحين الفرصة ليعتلي صهوة أي من الحصانين . كان الشاويش خاصة يحسّ بالدم الدافق في كيان راغب ، يرقبه سعيداً ويستذكر به شبابه ، يتعزى به بالأحرى عن حرمانه من الإنجاب بعد أن ماتت زوجته الاولى ، وهي تضع ، وماتت زوجته الثانية ، وهي تضع ، فحرم على نفسه الزواج ، وعاش مصماً على كل من يلح عليه بحظ آخر مع زوجة ثالثة ، حتى نسي هو ونسي الآخرون أنه بلا زوجة ولاأولاد .

منذ أخذ الشتاء يولّي ، لم يعد عدد العساكر في المخفر يكتمل الا ليوم أو ليومين . ماإنْ يعود واحد أو اثنان من الإجازة حتى يجيز الشاويش سواهما . وحين يذهب هو الى حضر أو الى الشام كان يحلو لراغب أن يمارس بعض مايؤكدّ أنه قد عاد رئيساً للمخفر ، على الرغم من أنه لم يكن يفكر في ذلك ـ وربما لم يفعله ـ حين كان حقاً رئيساً للمخفر .

لم يعد راغب الى العال حتى انقضى الشتاء . كان الشاويش يحثه ، وقاسم ، ولكنه كان يؤثر الانتظار حتى الربيع ، ويجزم لهما أنه لن يذهب وحده ، فلا بد أن أحدهما ، أو

كليهما، سيكون معه . وقد جاء زواج شقيقه ليجعله يحقق وعده لنفسه وللشاويش بإجازة في العال ، أما قاسم ، فكان لابد أن يبقى في المخفر في غيابهما معاً ، وراغب يؤكد :
ـ المرة القادمة دورك أنت .

ظهيرة الثلاثاء وصل شقيق راغب الذي يصغره بخمس سنوات يؤكد عليه أن يحضر مساء الخميس مع المخفر كله ، ليشهدوا عرسه الذي سيكون أول عرس في العال بعد الحرب . وقد خلفت لغط العساكر طوال النهار تلك الدعوة ، وسبق الأخ الأصغر للأكبر بالزواج ، خاصة أن راغب فوجىء بذلك ، ولكن المفاجأة كانت مسعدة حقاً له ، لاباعثة لغيرته كما أصر العساكر، وهم يستفزونه .

ضحى الاربعاء انطلق الحصانان بالشاويش وراغب ، والآخرون يلوحون أمام المخفر ، وقاسم يكرر على راغب الوصية بالحلوى ، والشاويش يكرر وصاياه لقاسم وللعساكر ، وراغب يشمخ كأنه العريس .

اختار راغب طريقاً أطول ، لم يسلكه منذ آخر جولة له في هذه الأنحاء قبيل الحرب ، متعللاً بالوقت الكافي أمامهما ، وبرغبته في أن يُري الشاويش مالم يره من الجولان .

شرقي القنيطرة استوقفهما إطلاق رصاص ، فألجما الحصانين هنيهة قبل أن يتقدم راغب مخاطباً الشاويش :
ـ الصوت في بئر عجم . . هيا بنا . .

اختلط الرصاص بالهياج ، فاقتربا حذرين، والشاويش يردد لائماً :
ـ لو سلكنا طريقاً آخر . . لماذا جئت بنا الى هنا ؟

وراغب يردد ضاحكاً :
ـ خاف أبو جميل أم نسي أنه رئيس المخفر ؟

انجلت الاصوات عن زغاريد وغناء وتصفيق ، فاسترخى الحصانان والرجلان ، لكن الرصاص انطلق فجأة أغزر وأقوى ، فشب الحصانان أعلى ، وتساءل الشاويش :
ـ كأنه عرس أو طهور ياراغب ؟ ولكن ماهذا الغناء ؟ هل فهمت كلمة ؟

قال راغب :
ـ الشراكسة ياأبو جميل . .

همهم الشاويش :
ـ الذين جاء بهم الاتراك من أقصى الدنيا وأسكنوهم هنا منذ ثلاثين سنة أو أكثر ؟!

سبحان الله ! كنت فتى عندما سمعت الكبار يتحدثون عن ذلك .

قال راغب :

ـ ألا تذكر كيف ضرب بهم أبو عابد السعد مثلاً، حين أكد أنهم قسموا الارض بينهم بالتساوي ، وتركوا ثلثها مراعي للجميع ؟ هيا نتفرج . أكثر الله من الأفراح . بديع أن يكون اليوم عرس وغداً عرس . أليس كذلك ؟

أمام الجميع توقفا وقد بات الصوت قريباً جداً ، جزم راغب أنه عرس ، وليس طهوراً ، وفكر وهو يشد لجام الحصان في أن ظهوره والشاويش مع البندقيتين والحصانين قد ينغص على الناس ، وبينما كان يهم بسؤال الشاويش عن رأيه في ذلك، مر ثلاثة من الشبان مسرعين . ألقوا التحية دون أن يتوقفوا . لكنهم بعد أن اختفوا خلف الجامع ظهروا ثانية يتلصصون . اقترح الشاويش أن يغادرا القرية ، وظل راغب يتردد ، حتى ظهر عدد من الرجال من الزاوية التي اختفى فيها الشبان الثلاثة . اقترب أحد الرجال من الحصانين وألقى التحية . رد الشاويش أولا ثم راغب . اتجه الرجل الى الشاويش حذراً :

ـ خير ياأخي ؟ سنين وما زارنا أحد من الحكومة .

هم الشاويش بالكلام لكن راغب سبقه :

ـ فرح مبارك ياعمّ .

أسرع الرجل مبتهجاً وقد غادره حذره، فانفرجت عيناه الضيقتان المتطاولتان، وسطع وجهه النضر :

ـ عرس ابني . تفضلوا شاركونا الفرح ، وبعدها نرى كل ما تريدون منا . .

قال الشاويش :

ـ لانريد منكم شيئاً ياأخي . نحن في طريقنا إلى العال وسمعنا الرصاص . فرح مبارك . امش ياراغب .

وقف الرجل أمام حصان الشاويش وقد أخذته النخوة :

ـ مررتم من هنا ولاتنزلون ؟ من يرضى بذلك ؟ الطريق الى العال طويلة وأنتم اليوم ضيوفنا .

وصاح بأحد الرجال الذين كانوا قد تحلقوا حول الحصانين :

ـ عجّل خبّرهم . .

وكان راغب والشاويش يتبادلان النظرات المستسلمة .

تقدم الرجال الحصانين ، ولم يلبث أن انكشف ماخلف الجامع عن ساحة كبيرة ، وزقاق عريض في رأسها . كان الزقاق يعج بالاطفال والشبان الذين هللوا للضيفين وانطلق حصان فجأة، وانتصب فجأة على صهوته شاب، ثم هوى فجأة فسبقه الى الارض فؤاد راغب والشاويش ، لكن الشاب التقط من على الارض ماأبرق وأعشى عيني راغب والشاويش ، فلم يتبيّنا أنه خنجر ، ولم يتبينا من رمى به الى الشاب ، وخيل لراغب أن السرج ضيق ومرتفع ، ولايشبه السرج الجلدي الذي التصقت به إليتاه . ووقعت عينه على صف مقابل من الرجال ، تغطي رؤوسهم القلابق السود ، وتزهو فوق صدورهم أنساق الأزرار ، من العنق حتى الخصر ، وبوغت بالخناجر المركوزة ثمة ، وكان همس الشاويش له يضيع في الصخب ، مسائلاً عن الشاب الذي عاد فالتحم بحصانه ونأى به :

- ابن الفاعلة ، تقول جنّي من جن سيدنا سليمان !

في نهاية الزقاق كان بيت العروس ، حيث ترجّل الشاويش وراغب ، وانطلق الرصاص وتعالت الزغاريد ، ثم تقدم العريس مسلماً، فاحتضناه يباركان ، ووجد راغب نفسه يصيح بالناس :

- غداً عرس أخي في العال ، وكبيركم مع صغيركم ، تشرّفون العرس . . .

رد الرصاص الدعوة ممتناً وهائجاً ، وأجلس والد العروس الضيفين في صدر البيت ، وصدح الغناء الذي لايفقهان منه حرفاً ، ثم صدحت الأصوات نفسها بعد قليل بغناء عربي استثار راغب ، فشرع يصفق ويدندن ويرفع صوته بحياء، والشاويش يضحك هامساً :

- لاتبهدلنا ياراغب أمام الناس . .

فاجأ المغيب الشاويش، فوقف وأوقف راغب ، ولكن والدي العروسين حالا دونهما ، وحرضا الشباب على إخفاء الحصانين ، فكل ماتقدم ليس غير البداية ، والعرس سيبدأ في العشية ، كما أن الطعام ينتظر الضيفين .

وثانية سرقهما العرس . كان الشاويش يرى وهو يغضي ، وكان راغب فاغر الفم والعينين ، مأخوذاً بالوجوه البيضاء السافرة التي تومض في صدره ، وقدماه تردّدان وهو جالس وقع الرقص الذي لاينتهي ، وخيل إليه أنه قد التقى من قبل تلك الفتاة التي صادف عيناها مراراً، وهي تدور حول نفسها وحول مراقصها، وتستفزّ الأكف والآهات ، ووجف مراراً من أن يلامس الراقص يدها أو صدرها أو شعرها، أو يفرج

شفتيه ويهامسها ، وحين لامست يد الراقص غلاف خنجره المفضض شهق راغب خوفاً على الفتاة ، وكان الليل قد انتصف ، وكانت الرقصة الأخيرة ، فنهض الشاويش يحثه ، والحذر يدفعه الى أن يلبي دعوة المختار الى المبيت عنده ، غير آبه بأبي جميل .

أنّى كان لراغب أن يغفو بعد أن رآها كما في الحلم . لعلها ابنة المختار ، أو أخته أو زوجته ، فمن يجرؤ على أن يسأل ؟ وكيف لراغب أن يستعيد تلك اللحظة المباغتة الخاطفة التي أبهرت النفس وأفغمتها .

ماذا حلّ براغب ؟ كل يوم يرى عشرات النساء من الفلاحات أو البدويات ، من العرب أو من الشركس ، وقد يحلو له أن يتملى من واحدة هنا، أو ينصت الى صوت أخرى هناك ، لكنه لم يعجز عن النوم قط من أجل امرأة ! كثيرات استهوينه في شتى القرى أثناء تجواله بينها ، أو في العال ، أو من تفور بهن أسواق الشام ، حتى إذا غابت من استهوته عن عينه، نسيها ونام بسلام . سوى هذه المرأة في بيت مختار بئر عجم .

لم يوفر في الصباح حيلة حتى يتأخر ويظفر بنظرة أخرى من تلك المرأة ، فيما الشاويش يحذره من طول الطريق والتأخر .

تفقد الحصانين مراراً . تفرج على الورود التي تزنّر جانبي البيت . صعد الى السطح متذرعاً برغبته في رؤية بئر عجم من فوق . وساعفه الحظ أخيراً ، إذ رآها وهو نازل قبالته ، في الحاكورة ، تضحك .

بادرته بالتحية فأوشك أن يتعثر بالدرجة الأخيرة . غرغرت بضحكتها، وكانت قد صارت على خطوةمنه . تلفت فإذا بها وسط الورود . امتدت أصابعه نحو الورود، فإذا بيدها تعترضه وهي تقول :

- لا . .

لامس أطراف أصابعها هامساً :

- كنت سأقطفها لك . .

سحبت يدها وبحّ صوتها :

- الوردة على أمها أحلى . .

وراحت أصابعها تمسح على ورق الوردة . بلع ريقه وهو يسأل :

- ماسمك ؟

- غالية .

حار بينها وبين الوردة، وفكر في أنها جديرة بهذا الاسم . كان يود أن يعلن لها ذلك حين فاجأته :

ـ ماأسمك ؟

ـ راغب .

ـ صحيح أنك من العال ؟

ـ نعم .

ـ يقولون إنها بعيدة . صحيح أنك في مخفر عين فيت ؟

ـ نعم . أنت تعرفين عني كل شيء .

أشاحت بوجهها وقد عاد صوتها مبحوحاً :

ـ وترجع إلى هنا ؟

ـ غصباً عني .

أجاب ملهوفاً ، وكان قد غدا قادراً على أن يقول كلاماً آخر، لولا أن صوت الشاويش داهم مستحثاً ، فهرعت مبتعدة الى الحاكورة ، واستدار عائداً ، فإذا بالمختار والشاويش الى جانب الحصانين .

ألفتت ملامحه المتوترة الشاويش ، فتمعن فيه قلقاً وسأل :

ـ خير ياراغب ؟ مابك ؟

ارتبك وسأل مستنكراً :

ـ مابي ؟ كيف تراني ؟

قال المختار بصوت محايد :

ـ ماكنت كذلك عندما خرجت .

أسرع الى صهوة الحصان ضاحكاً ، وحيا المختار بصوت راجف ، وهمز الحصان متقدماً الشاويش ، ليدور حول البيت ، قبل أن ينطلق في المدق الترابي المفضي الى الطريق .

كانت غالية واقفة ثمة باسمة ، كأنها تنتظر . أومأت عيناه لها ، فهربت منه الى عيني الشاويش، ثم أغضت واستدارت . أسرع الشاويش حتى حاذاه قائلاً :

ـ ها ها . بربك ألم تكن معها خلف البيت ؟ ماذا فعلت بك حتى عدت إلينا وشعر رأسك يرقص .

وحبس لسانه، إذ أحس أن المختار يراقبهما، أو يتنصت عليهما ، فالتفت خلفه ، وإذا بالمختار على السطح يلوح ويضحك .

ـ أكمل . . لماذا سكتّ ؟

قال راغب ، والشاويش يحث حصانه متضايقاً :

ـ أراهن إذا لم يكن حزر مابك . لاتنظر خلفك . هو على السطح . لعنة الله عليك .

ـ ماذا تقول ؟

ـ ماذا أقول ؟ ستفضح شيبتي .

أصر راغب على الإنكار ، بيد أنه لم يعد مثلما كان بالأمس ، يفيض على الشاويش بما يعلم ومالا يعلم عن هذه القرى وهؤلاء الناس ، يرسل الوعد بما سيكون في العال ، أو يستحث الشاويش على أن يروي له مما عاش .

منذ غابت بئر عجم عزف عن الكلام وعن السماع . وفي العال لم يستطع أن يشارك في عرس شقيقه كما يؤمل منه . وكانت تزيده ارتباكاً إيماءات من حوله ا أنّ العرس قد خصّه ، مادام شقيقه الأصغر قد سبقه .

بعد منتصف الليل اختلى به الشاويش في بيت عمه الذي أقسم أنهما سيبيتان فيه .

أغلق الشاويش الباب وهزه من كتفه بعنف :

ـ هذا مايفعله العشق بالرجال ؟ هل أنت ولد ؟ هل تظن أنني صدقتك هذا الصباح ؟ اسمعني : إذا لم تحك لي فلمن ستحكي ؟ لو تعرف ماذا قال أبوك عن الشراكسة ! لعلك كنت في حضن أمك أو أولاد عمك حين كنت أسأله وأسأل عمك ، كرمى لعيونك . وحق نبينا محمد لولا أنني سمعت ماسمعت لكنت سأعود مع والدك غداً الى بئر عجم وأخطبها لك . ماذا تظن اذن ؟ أنت لاتعرف حتى اليوم من هو أبو جميل . لكن الشراكسة ياراغب لايعطون بنتهم لغيرهم. اعقل ياراغب وانسها. دخت وتريد أن تدوخّني معك ؟ هل جئت بي الى هنا من أجل ذلك ؟

لم يشأ أن يصدق ماقال الشاويش ، حتى بعد أن كرره على مسمعه أبوه وعمه ، وهما يعجبان من إلحاح الشاويش على كل مايتصل بالشراكسة ، خاصة في بئر عجم .

أصغى راغب بشوق الى أبيه يصف الأمطار في بئر عجم . تعجب من أن غزارتها جعلت تلك الأرض غير صالحة للقمح . أصغى الى عمه وهو يؤكد أن تلك الأرض لاتصلح إلا للذرة ، سواء أكانت بيضاء أم صفراء ، الزيادة أخت النقصان . ضحك مع عمه والشاويش حين قال أبوه :

ـ ثيران بئر عجم أغلبها مخصي مثل هذا الثور ـ غمز مشيراً الى ابنه ـ واحدها يجر عشرة محاريث ، ولكنه لايشب على بقرة .

وزها وانتشى حين قال عمه :

ـ بئر عجم لاتبادل الباعة الجوالين إلا بالدجاج والبيض ، ومع ذلك فهم يخصّونها بأحلى الاقمشة . احزر ياراغب لماذا ؟ لأن بناتها أحلى البنات . .

كانت الكلمات تؤجج هيامه ، وقد جعله انشغاله بها في العودة عاجزاً عن مبادلة الشاويش أقل الكلام . وفي عين فيت ، يوماً بعد آخر ، ماعاد يفكر في غير الظفر بغالية . ماعاد يغادر المخفر إلاّ تحت إلحاح قاسم . أهمل حصانه وظل عازفاً عن الكلام ، وعن الخروج حول عين فيت، كما انقطع عن زيارة الخيام . وكان ذلك يغيظ قاسم ، ويؤرق الشاويش ، ويغذي مسامرات الآخرين رغم زجر الشاويش لهم . كان ذلك أيضاً يبلور التحدي أمام راغب ، ويهيؤه بالأحرى الى مابعد هذه المكابرة التي طالت . ولعل الشاويش كان يقرأ دخيلة راغب ، حين جاء به وبقاسم معاً ، وخاطبه :

ـ سوف أذهب غداً الى بئر عجم . سوف أذّهب وحدي . سوف أفكر هناك في أمرك وأرى مايلهمني الله أن أقوم به . ولكن اسمعني ياراغب الناصح : وحق نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، إذا خالفتني بالرأي الذي سأعود به ، فلا أنا أعرفك ولاأنت تعرفني طوال العمر .

ثم التفت الى قاسم :

ـ احلف مثلي أنت .

فحلف قاسم ، وهمهم راغب ، لكن الشاويش أمره وقاسم بالانصراف .

وغادر الشاويش المخفر ضحى ، وأثره غادر راغب ، ليدور حول عين فيت الهوينى ، ثم يعود ظهراً الى بيت قاسم السعد ، فلم يغادره حتى جاء الشاويش ، فلاقاه ملهوفاً ، والشاويش يتمهّله ، ويذكره بالقسم ، ويغمز لقاسم ، ثم يتبسّم مشفقاً :

ـ قلت لك إن المختار قد حزر مابك فلم تصدقني . كرمى لك صرت مسخرة عنده . كذبت عليه ولكنه داهية . لاأدري بماذا عللت زيارتي ، وهز رأسه متظاهراً بتصديقي . سألني عنك فقلت إنك مريض . دعا لك بالشفاء، وقال إنه كان يتمنى أن يدعوك ويدعوني الى عرس ابنته لولا العجلة والمفاجأة . أراهن إذا لم يكن قد زوّجها في اليوم نفسه . كانت الشماتة تنضح من لسانه ، كان الانتصار أيضاً يبرق في عينيه . على كل حال قد يكون خيراً مافعل، ولو لم يقصده . وحق نبينا محمد لن تتزوج إلا على يدي .

الحمار هو الخاسر ، وابنته الخاسرة . ولكن اترك هذا كله لي . الأيام بيننا .

ومد كفّه المفتوح بقوة وحرارة ، ولكن كفّ راغب كانت تتدلى الى جانبه ، لاتقوى على الحركة ، فترك لقاسم أن يدفعها نحو كف الشاويش ، وقد جف حلقه ، فراحت عيناه تنهبان جرة الماء المقعية قرب الباب .

★ ★ ★

مثلما كان قبل أن يلتقي بغالية ، عاد سريعاً ، لايهدأ صوته ، ولايكاد ينزل عن حصانه ، بيد أن ماانحفر في صدره ماكان ليخفى عن الشاويش . لقد أيقن هو والشاويش ، كل على طريقته ، أنّ غالية قد أقامت في النفس ، وأنها قد لاتغادر أبداً . ولعله لذلك أخذ تارة يعزف عن النظر الى أية امرأة تصادفه ، وتارة يقبل على أي وجه ، يتفحصه بإلحاح . تارة يفكر بالزواج ، بشقيقه ، بغالية ، بالشاويش وزوجتيه المتوفيتين ، ويوطّن نفسه على أنه لن يتزوج بالسرعة التي يريدها له أهله أو الشاويش أو أي من هؤلاء الذين ينكرون عليه عزوبيته . وتارة يمتلىء بالندم على أنه لم يتزوج منذ كان في العشرين ، ويعزم على أن لايجعل هذه السنة تنقضي قبل أن تكون له زوجة ما ، لايهمّ إنْ كانت من العال أم من عين فيت أم من بئر عجم ، أم من أية قرية أخرى في هذه الأرض .

كان صوت البدو قد عاد يصخب في عين فيت . وكان الشاويش وهو يلتقط ذلك بحساسيته الدقيقة الخاصة ، يقارب بين زياراته العفوية ظاهرياً للخيام ، وللأمير جهجاه خاصة ، مصطحباً معه راغب الذي لم يعد يتحاشى، حين يخرج وحيداً، أن يحرف حصانه إلى هناك ، ويعرج لما يقتضي فنجاناً من القهوة المرّة أو غداء .

كان كلما فعل ذلك يخاتل الرغبة في أن يرى البدو يفعلون في بئر عجم أضعاف مافعلوا في عين فيت . فلو أنهم على الاقل يكسرون شوكة المختار . بل ليفعلوا ماشاؤوا، إلا أن يصيبوا غالية بأذى . وكان يفكر أحياناً : ماذا لو أنهم فعلاً قد غزوا بئر عجم وسبوا غالية ؟ هل سينتظر أن ينقذها زوجها أو أبوها أو شركسي ما ؟

ربما كان يبحث في محيا أية امرأة يصادف عن غالية . وربما كان ذلك أيسر عليه في عين فيت أو سواها من القرى . على أن ماصعقه في تلك المرأة التي رآها تخرج من الخيمة أنها بدت غالية نفسها . كان الوقت ضحى ، وقد بكر مع الشاويش في الخروج ، فإذا

بتلك المرأة التي لم يعرف إنْ كانت ابنة الأمير أم أخته أم زوجته أم زوجة أحد أبنائه أم واحدة من بنات العشيرة .

تطاولت تلك الزيارة للخيام حتى العصر . رشف القهوة مراراً ، تغدى وتحدث أحياناً، وأصغى وهو يفكر فيما إنْ كان له أنْ يلمح المرأة ثانية أم لا ؟ كيف يتيقن من شبهها بغالية ؟ كيف يدقق فيما يمايز بين المرأتين ؟ ولاريب أن ذلك ماجعله عاجزاً عن أن يطيل حديثاً مع الآخرين ، أو يشاركهم في ضحكهم إلا فيما ندر . حتى إذا صار خارج الخيمة ، دارت عيناه حولها ، فإذا بالمرأة أمام الخيمة المجاورة تتطلع إليه . بل إنها كانت تبتسم ، أو إنها ردت على اختلاج حاجبيه ، وعندئذ تراءى له أنها امرأة أخرى ، وليست غالية ، على الرغم من أنهم يقولون : إن الله يخلق من الشبه أربعين .

في تلك العصاري ، ومن بعد ، جهد ماوسع كي يدقق . فغالية أكثر بياضاً ، وشعرها ليس بهذا السواد . هذه البدوية أطول قامة وأكثر امتلاء . غالية مقرونة الحاجبين ، وهذه الأميرة ـ لاالبدوية وحسب ـ لايكاد حاجباها يظهران لراغب على أمتار . شعر غالية أقل سواداً ، كذلك عيناها ، أما هذه المرأة ، فشعرها فاحم ، وعيناها أشد سواداً من أية عينين يذكر . لماذا إذن يقرن بين المرأتين ؟

لم تفت الشاويش التفاتة راغب نحو المرأة، فهمس في أذنه ساخراً :
ـ قلنا صاحبنا عقل والحمد لله . لا لا . . عقلك لن يعود اليك إذا لم تعده بنت الحلال .

بيد أن الشاويش أضمر في البداية الأمل في أن يعين راغب الانشغال بالأميرة أو البدوية على أن يبرأ من الجرح الناغل . ثم صار يخشى أن تستولي على ماكانت تستولي عليه غالية ، ويتساءل وحيداً ، أو أمام قاسم السعد :
ـ مرة بدوية ومرة شركسية ؟ علينا أن نعجل بتزويج الرجل حتى لايصيبه الجنون .

وربما لم يكن راغب بحاجة إلى من يذكره بأن الزواج من هذه المرأة الجديدة مستحيل ، ليس لأنها قد تكون من أسرة الأمير أو سواه من الأمراء ، بل لأنها بدوية ، وهو في المحصلة فلاح ابن فلاح ، سواء أكان عسكرياً أو لا ، يركب الحصان أم الجمل أم الحمار . إلا أن ذلك ماكان ليكتم توقه إلى أن يراها ، ولو من بعيد ، خاصة بعد أن اختفت هي الأخرى .

صار سؤاله الكاوي الجديد : لماذا تنسدّ الدرب بوجهه كلما فكر بامرأة ؟ هل كان

يقع ذلك له من قبل دون أن يدري ، فراحت السنون تمضي وهو عازب ، حتى سبقه أخوه الذي يصغره بخمس سنوات ؟

كان جهله بما حلّ بالمرأة الجديدة يجعل خيبته أكبر ، ولكنه على الرغم من ذلك لم ينكفىء على نفسه هذه المرة، مثلما كان إثر خيبته في غالية . وربما كان جرحه الأول قد هوّن عليه جرحه التالي . بيد أن ذلك السرّ اللائب في أعماق عينيه بات أقوى وأدمى . ولأن الشاويش كان وحده من يحسّ بذلك ـ لاقاسم السعد ولاسواه من العساكر جميعاً ـ فقد تعجل أن يخرج به من عين فيت ، ولو أمكن لخرج به من الجولان كلها ، ولكن لم يكن أمامه سوى حضر ، وإجازة لكليهما ، ولو كانت يومين أو ثلاثة أيام .

★ ★ ★

ماكان الشاويش قادراً وهو يقترب من حضر إلا أن يعيد على راغب ماحدثه به مراراً من قبل . ولعل ذلك ماجعل سهلاً عليه ، إذْ لاحت حَضَرْ ومرجها والجبل الذي تختبىء في سفحه الشرقي عرنة الموعودة ، أن يتخيل كيف كان الفلاحون ينزلون من عرنة الى المرج ، والشاويش طفل ، فيزرعون الحبوب ، التي لاتصمد للثلج ولا للبرد في الجبل . بل إن راغب كان قادراً على أن يرى الفلاحين يحرثون في السهل نهاراً ، ثم يؤوبون الى الجبل ، قبل أن يشرعوا ببناء بيوتهم ، لتكون من بعد حضر هذه ، وليمتلىء السهل بالكرمة والتين والماعز والبطاطا .

شمالاً ، وحيث تتناهى قمة الجبل في السماء ، كرر أبو جميل الإشارة وصوته يخفت :

ـ هناك نزل سيدنا آدم عندما خرج من الجنة . .

غير أن راغب لم يستطع متابعة الإشارة ، إذْ أجفلته رنة الصوت ، وشغله السؤال عن حواء ، فلعلها نزلت هي أيضاً هناك . ولكنه لم يجرؤ على أن ينبس ، فيما كان الشاويش يتابع :

ـ أولاد عمي لازالوا هناك . عائلات كثيرة من حَضَرْ لازال بعضها هناك . .

يساراً ترامت المراعي التي سوف يأتي الفلاحون إليها من الكتف الآخر للجبل ، من شبعا ، كما شرح الشاويش ، وراغب لاهٍ . الفلاحون القادمون سوف يضمنون المراعي ويطلقون فيها كالعادة قطعانهم . وقد يكونون فعلوا ذلك منذ الآن .

يميناً ، وأقرب من المراعي ، لاح بناء حجري مختلف ، خمّن راغب ، وكانت حواء قد نأت عنه ، أنه معصرة الدبس التي يملك ذوو الشاويش نصفها . أربع سنوات - يشرح الشاويش - انصرمت والمعصرة معطلة . الحوارنة يلحون في طلب الدبس ، وأهل الشاويش يلحون في طلب الحبوب ، إلا أنها الحرب ، أوقفت المعصرة والمبادلة ، والتهمت العنب والحبوب ، وهدت حوران والجبل ، مثلما هدت الشام كلها . خمسون تنكة من الدبس كانت تبلغ حصة أهل الشاويش كل موسم ، وقد تزيد ، سواء من أجرة المعصرة ، أم من عصر العنب الذي تفيض به كرومهم . كان الحزن يجرح صوت الشاويش وهو يتذكر ذلك أمام راغب ، ويصف له كيف كان يتم تسليم الحوارنة للحبوب صيفاً ، وتسليم أهله للدبس شتاء ، ثم يسكت كي يخرج مما به ، مشفقاً على ضيفه من أدنى مايعكر .

ذكريات راغب عن الطريق الطويل وعبوره بالمنطقة ، كانت تجسد له الحديث القديم الجديد للشاويش . فهاهنا صادف مرة قافلة من الجمال القادمة من فلسطين ، والشاويش يؤكد أنها كانت تحمل العنب أو التين أو كليهما الى الناصرة ، وتعود بالأقمشة أو زيت الكاز ، أو كليهما . هناك صادف راغب مرة من يدرس على الحصان ، فأوشك أن يتشاجر معه ، فليس يعقل أن يدور أي حصان على البيدر ، كأنه بغل أو حمار . ولكن أين هو البيدر ؟ لابد أنه كان هنا ، حيث يشير ذراع راغب ، غربي البيت الأخير من حضر ، والشاويش يضحك ويسأل :

- متى كان ذلك ؟

فلا يقدر راغب على التحديد ، فيردف الشاويش وضحكه يطول :

- كان لنا بيدر حيث تشير . وما كان يحلو للمرابع أن يدرس الا على حصان والدي . كان يزعم أن الدرس على الخيل يجلب البركة ويضاعفها . بعد قليل تراه وعسى أن تتذكره أو يتذكرك . المسكين شاخ وعمي وصارت له رجفة .

كان بيت الشاويش يعج بالغرباء . هلل الجميع لقدوم الضيف ، وهمس الشاويش متباهياً في أذن راغب :

- عاد البيت يمتلىء كما كان قبل الحرب والحمد لله .

كان ثمة عديدون ممن لم يلتق بهم الشاويش منذ سنين . وكان لايفلت يد راغب وهو ينتقل بينهم ، يحييهم بشوق ويقدم لهم ضيفه . ثم توسطهم وراغب ، وانثالت الذكريات العزيزة . وكان على راغب أن يشهد كأنه واحد من البيت أو من الغرباء الذين

جاؤوا منذ أسابيع ، وبعضهم منذ شهور . كذلك كانوا يحضرون قبل الحرب ، من أنحاء حوران وجبلها ، يحملون العدس والحمص والبرغل والكشك والحنطة ، ويؤوبون محملين بالدبس والزيت والمحاريث ، وقد أسعد راغب والشاويش أن بينهم من أقارب وجيران هزاع نصر وحسين فندي .

في المساء قدم آخرون ، حتى ضاق البيت بمن فيه، وبالأطباق العديدة التي يتوسط كلاً منها ديك كبير . ومن صدر الصف المقابل لراغب من الساهرين ، انسل بعد العشاء صوت الربابة ، وغنى ذلك الذي ينادونه بالشاعر ، ثم صار بعضهم يرافقه في الغناء ، والأكف جميعاً تصفق ، وأقبل راغب على السهرة كما لم يفعل ، منذ عرج والشاويش على بئر عجم .

في الصباح استأذن الشاويش من والده ومن ضيوفه ، كي يخرج براغب الى السهل ، ومن بعد الى عرنة .

قريباً من البيت توقفا ، حيث بدا البناء الذي لابد أن يكون راغب قد لمحه أمس ، ولكن البناء بدا أكبر ، وقال الشاويش :

ـ الخيل هنا .

تساءل راغب :

ـ لكم أيضاً ؟

قال الشاويش :

ـ يمكن أن تقول ذلك . هو لنا ولغيرنا . هو لحضر كلها . حضر تجمع الشعير في الموسم مثلاً ، حصة من كل بيت ، وتودعها هنا لخيل ضيوفها جميعاً . حتى الديوك التي رأيتها أمس تتناقر على الأطباق اشتركت فيها حضر كلها . صحيح أننا والحمد لله قد نكون أيسر من غيرنا ، ولكن هل تظن أننا قادرون على استضافة كل أولئك الناس ، ليس ليوم أو لعشرين ؟ خاصة بعد هذه السنوات المرّة ؟ لو كان اليوم مثل أيام العزّ السالفة لذبحنا لك وحدك خروفاً . .

أعجب راغب باشتراك حضر في أعباء ضيوفها ، وعاد يتساءل :

ـ أيكون والدك هو المختار ؟

قال الشاويش مستنكراً :

ـ والدي لايرضى أن يكون المختار . لاأحد في أسرتنا يرضى أن يكون المختار ، ولاابن حكومة . وحدي خرجت عليهم . ربما أكون خرجت خطأ . قل نالني من ألسنتهم

ماناني جراء ذلك ، ثم تعودوا عليّ في هذه الثياب . والدي هو الآن الأكبر سناً في حضر . وربما يكون والحمد لله من أغناها . على أية حال ، كبرت وأنا أراهم يجلّونه، ويحسبون لأسرتنا ، هنا أو في الجبل ، حساباً كبيراً في كل أمر .

كانا قد دارا حول البناء الذي تكشف ليس عن اصطبل صغير فقط ، بل عن مستودع للتبن والشعير وأشياء أخرى أيضاً .

وفيما كان الشاويش يأمر ابن المرابع الذي ظهر قرب الباب كي يخرج الحصانين ، كان راغب يحدق في السلحفاة الرابضة أمام الباب ، وتساءل متعجباً :

ـ ماذا تفعل هذه هنا ؟

قال الشاويش ضاحكاً :

ـ تحمي الخيل من الغول .

ـ لكنها ميتة . .

ـ هي لاتحمي إذا ما كانت كما ترى : ليست ميتة وحسب . انظر ، ليس منها إلا الهيكل . .

ـ سبحان الله !

قال راغب وهو يتلفت ، فإذا بفتاة تلوح للشاويش وهي تقترب .

قال الشاويش :

ـ هذه آخر العنقود . أغلى الجميع عليّ . سميتها صبيحة رغم معارضة الوالدين .

حيتهما صبيحة وتابعت دون أن تتوقف ، فقفز راغب الى صهوة الحصان وهو يسترق النظر ، ويفكر في أن صبيحة قد تكون أقرب الى أمنا حواء ، شأن نساء حضر وعرنة جميعاً . وقد يكون الزواج هاهنا اذن أوفر بركة وسعادة . ثم أشاح خشية أن تكون النساء هنا أكبر غواية منهن في أي مكان ، مادام نبض حواء فيهن أقوى ، وهي التي فعلت بسيدنا آدم مافعلت . ولها عن لغو الشاويش بالتأمل فيما بين صبيحة وغالية ودهيبة ، فبدت له قد جمعت من شقرة تلك وسمرة هذه ، من طول هذه وقصر تلك ، من نحافة تلك وامتلاء هذه ، ولم يستطع أن يسمي لوناً لعينيها ولالشعرها ، وقرع نفسه مراراً لأنها تجترىء على شقيقة الشاويش ، خاصة أن صبيحة أقرب الى أنْ تكون طفلة . ولم يلبث أن سها عن ذلك بما أخذ به في السهل وفي الجبل ، وعمر صدره بالغبطة ، خاصة بعد أن تسابق مع الشبان في الصعود الى الجبل ، فسبقهم جميعاً ، ثم عاد فسبقهم

في النزول ، حيث كان الشاويش وعدد من الشيوخ والأولاد ينتظرون الفائز ، وهكذا صار راغب معروفاً في عرنة مثله في حضر .

في المساء صادف صبيحة ثانية ، وكان عائداً من خلف البيت ، حيث تبوّل . بادرها بالتحية وتعجب من صوتها الطفلي ، ومن الظلال التي أرخاها المساء على وجهها ، وفكر في أن الله سبحانه وتعالى قد يكون يسر له المجيء الى حضر ، وأهداه أخيراً الى ابنة الحلال .

عمر البيت ثانية بالساهرين وبالأطباق ، وسها ثانية عن صبيحة بما كان من حوله يتسامرون به ، خاصة حين أفاض بعضهم في القوافل التي تنقل سراً زيت الكاز من فلسطين ، لتبيعه بأضعاف مااشترته هنا ، أو في الشام نفسها . ورأى نفسه يفكر في أن الجملين الخاصين به وبالشاويش يمكن أن يوفرا الراتبين اللذين يقبضان كل شهر . وإذْ همس للشاويش بذلك ضحك من مقارنة راغب ، وجهر به لابن عمه الذي ضحك أيضاً ، ولكنه أضاف :

ـ راغب على حق . لماذا لانرسل الجملين مع إحدى القوافل الذاهبة والآيبة هذه الأيام ؟ أليس ذلك أفضل من أن يظلا يعلفان بلا طائل ؟

قال الشاويش وهو يهز رأسه إنكاراً ، دون أن تنقطع ضحكته :

ـ الجملان للحكومة وليسا لنا .

قال ابن العم :

ـماالفرق ؟ أنتما من الحكومة أيضاً . سوف توفران عليها ماتنفقه على الجملين ، ويكون ماتنفقان على الحصانين عدلاً .

ثم بدأ الشاعر والربابة حتى انتصف الليل ، وأوى راغب الى فراشه ، فإذا بصبيحة وبالجملين يسهدانه ، ربما حتى أضاء الفجر شقوق الباب ، أو حتى ناداه الشاويش ، وصحا من توهانه بين غالية ودهيبة وصبيحة والجملين والحصانين وبئر عجم والخيام وحضر والقوافل التي رآها في فلسطين والشام وأماكن أخرى . وصارت أذناه تميزان بين الرغاء والصهيل والبحّة المرعشة وحفيف الأوراق والرصاص والنشيج المكتوم بين الأضلاع ، وأمر الشاويش بالنهوض ، فقد بزغت الشمس والطريق الى عين فيت من حضر طويلة ، ولاينبغي أن يُترك المخفر سائباً نهاراً آخر ، ولكنّ جفني راغب ماكانا قادرين على الافتراق .

★ ★ ★

كان المخفر في غيابها قد شهد ماجعل الشاويش يثور ويغتم، كما لم يره أحد من عساكره من قبل . لقد زار المخفر الأمير جهجاه وضابط قادم من الشام، وبرفقتهما رجال كثيرون . أكد قاسم أن الضابط عبس لأنه لم ير رئيس المخفر ولانائبه . وأكد أن الضابط كان يحمل معه أمراً بترفيع راغب الى نائب شاويش ، لكنه أخذ الأمر معه . وفيما أمضى الشاويش ليله مسهداً ، كان راغب الذي لم ينم بالأمس غير آبه بأي أمر ، بل عاجزاً عن أي أمر سوى النوم .

في الفجر نهض الشاويش ثانية . أيقظ راغب بصعوبة ، فقد قرر أن يصبّح الأمير جهجاه، ثم يتوجه الى الشام ، وعلى راغب ألا يغادر المخفر حتى الى بيت قاسم السعد ، وأن يقوده خير قيادة، ريثما يعود أبو جميل .

شيع راغب الشاويش وهو يملأ صدره بنسيم الفجر الناعش ، فامتلأ حبوراً وعافية ، وأحسّ بالجوع . تلهّى بتفقد الجمال والخيل ثم أيقظ العساكر ، وأرسل أحدهم ليحضر قاسم السعد . تناول طعامه بشهية مضاعفة ، وخرج مع قاسم، يستعيده تفاصيل زيارة الضابط والأمير والرتبة . كانا يدوران حول المخفر ، وقد أومض حضور الأمير الى المخفر بصورة ذهبية في عيني راغب ، كما كانت صورة صبيحة تناوشه، وهو يضحك من لوم الشاويش لنفسه ولراغب على التأخر في حضر .

سرت عدوى الابتهاج من راغب الى قاسم ، وكان لديهما من الفراغ والوقت الكثير كي يمازحا العساكر ، ويضحكا ، ويثرثرا . كان راغب لايفتأ يعود كل حين الى اليومين اللذين أمضاهما في حضر ، متحاشياً فقط أن يذكر صبيحة . حتى إذا تحدث عن ابن عم الشاويش والجملين والقافلة وصفد ، استوقفه قاسم :

ـ لماذا تذهب بعيداً ؟ أنت على حق، وينبغي على الشاويش أن يوافق . أنت تستطيع أن تجعله يوافق ، هل نسيت قافلة بيت السعد وهي على مرمى حجر منك ؟ ابن خالي مثل ابن عم الشاويش ، والجملان معه يبقيان تحت نظرنا . ثم إنه لايذهب بعيداً . من هنا حتى النبطية . بوسعنا إذا قلت نعم أن نبدأ من اليوم . مارأيك ؟

ظل راغب مصراً على أن ينتظر عودة الشاويش حتى عاد قاسم ظهراً بالغداء من بيته ، وهو يهلل :

ـ أبشر ياراغب . لكل جمل جنيه ، والرجل يتوكل على الله بعد العصر .

وافق راغب على مضض، وهو يؤكد على قاسم أن يحمل وحده التبعة، إنْ غضب الشاويش ، أو ظل معارضاً . وقبل أن ينضم الجملان الى قافلة بيت السعد ، وبعد أن

انطلقت ، كان راغب يلح على قاسم كي يعيد ماقاله من قبل . وكان قاسم يضيف كل مرة مايحضره . فهذه القافلة الصغيرة الهزيلة عملت دهراً بين الشام وصفد . هذه القافلة أوفر أماناً من قوافل حضر وعرنة وسواها . فبيت السعد لم يعملوا يوماً في التهريب . كانوا فقط ينقلون الفستق والبندق والخيطان، وسوى ذلك مما يتطلبه تجار الشام من صفد، أو يتطلبه تجار صفد من الشام . كانت قافلة بيت السعد من القوافل الكبيرة المشهورة، لولا أن واحداً من أعمام قاسم انشق وآثر الشام، وقضى فيها بلا أثر ، وواحداً من أخواله انشق وآثر صفد، وقضى فيها بلا أثر أيضاً . وكان قاسم يؤكد كل حين أنه حين يترك المخفر ذات يوم، فسوف يعمل مع ابن خاله ، ويعيدان لقافلة بيت السعد مجدها .

كان راغب في اليوم التالي لغياب الشاويش أقلّ تشدداً مع العساكر ، لكن انشراحه أخذ يخبو كلما كان المغيب يقترب . وفي الليل بدأ القلق يساوره . فلا الشاويش قد عاد ، ولا الجملان . حتى إذا حلّ اليوم الثالث ماعاد قادراً على أن يتكلم طويلاً، أو يصغي طويلاً ، كما أفقده القلق شهيته الى الطعام ، ونأى بصبيحة عن خاطره .

لم يوفر قاسم حيلة كي يهون الأمر عليه . ويخفف عنه . وكان راغب يستجيب له قليلاً أو كثيراً في مطلع النهار ، لكنه صار يصمّ عنه كلما ولى من النهار شطر . كان خوفه المبهم في البداية ينجلي رويداً عن أن يكون قد أخطأ إذ وافق قاسم ، وتصرف بما ليس له ، بل للحكومة ، أو أن تكون الرتبة قد ضاعت منه . وفي المساء لم يعد قادراً على أن يكبت لومه لنفسه ولقاسم وللشاويش ، فلا الذهاب الى حضر كان ضرورياً الآن ، ولا إلحاق الجملين بالقافلة ، والمثل نفسه قد قال : العجلة من الشيطان ، وهاهي العجلة قد تكون أضاعت الرتبة ، كما أنها، لاسمح الله، قد تضيع الجملين .

لاريب أنه كان سيسهد مرة أخرى الليل بطوله ، لولا أنْ وصلت القافلة سالمة وغانمة بعيد العشاء . لقد تنفس الصعداء ، ولعله فرح بعودة الجملين أكثر مما فرح بالجنيهين ، وطالب قاسم بما يؤكل ، ثم أغفى منهكاً ، وسمح لقاسم بالمبيت في البيت . وفي شطر أبعد من الليل وصل الشاويش .

فتح راغب عينيه على لغط العساكر وضحكة الشاويش المجلجلة . ولم تصدق أذناه بشرى الرتبة ، وزيادة جنيه على رواتب العساكر . لهج بالشكر لله ، ونهض يعانقهم جميعاً ، ويلعن قاسم على غيابه ، ثم يطأطىء أمام همسة الشاويش :

ـ بماذا أوصيتك ؟ كيف سمحت لقاسم أن يغادر المخفر في غيابي ؟ ما تبتم ؟

ودّ راغب لو أن الشاويش يزيده تأنيباً . وتراءى للشاويش أنّ لدى راغب مايخفيه عنه أو يتردد في البوح به ، فأمر العساكر بالعودة الى النوم . وانحنى على راغب ، مثل الأب الحادب والصارم ، وبدا راغب مثل الابن المطيع ، والمذنب . مدّ يديه بالجنيهين ، وهو يذكر الجملين والنبطية ، وعاد الشاويش يهمس مؤنباً ، ثم يأمر بصرف الجنيهين على الاحتفال بالرتبة في ظهيرة الغد أو في عشيته ، فرفع راغب رأسه ممتناً ، وتذكر صبيحة ، وود لو أن يكون الشاويش ليس صديقاً أو أخاً أكبر وحسب ، بل يمت إليه أيضاً بنسب ما ، وفكر في أنّ ذلك لن يكون إلا إذا تزوج من صبيحة .

★ ★ ★

18

هاهم قد عادوا يلتقون ، على الرغم من انتشارهم في أنحاء سورية التي لم تألف الألسنة بعد التلفظ بها ، فظلت تؤثر عليها الشام .

بفضل عزيز اللباد عادوا يلتقون . فمنذ غادر حمص وهو يدور في كل إجازة عليهم ، من عين فيت الى الزنبقلي ، من كفر حبوس والخان الى دكان سليم أفندي والحرزة، من حمص الى القشلة، يعانق راغب الناصح، ثم يهرع الى ياسين الحلو ، ويطير به ظفره الى أبي عاطف ، ثم يلوي الى فياض وهولو والعم حاتم ، كأنه يخشى أن يفر أحد منهم إنْ تأخر عليه ، وكانت ثقته تكبر بأنه سيعثر على حمادي الحسون قريباً .

كان قد غادر حمص عازماً على أن يدير ظهره لصافيتا، مادامت مصرة على أن تدير ظهرها له . وعلى الرغم من أن العم حاتم قد عارضه فيما اعتزم ، إلا أنه قد يكون هو من جعل عزيز ينعطف ذلك المنعطف .

بعد حمص والعم حاتم فتح عينيه ، كأنه كان قبلهما في إغفاءة ، أو إغماءة . وعلى الرغم من أن الكثير مما كان يؤرقه مازال حتى اليوم ، الا أنه استطاع أن يوقف النخر في أعماقه ، بفضل العم حاتم ، وبفضل هولو أيضاً ، كما جهر مراراً .

في منعطفه الجديد صار أقدر على أن يحدد موقعه من بيت بشارة وبيت الدباس ، كذلك من أبيه . وبات أدرى بما يدور حوله أثناء تنقلاته بين أنحاء الشام . نسي الهجرة الى أمريكا وانقلبت شكوكه في الانكليز الى يقين ، بل إن حقده عليهم تجاوز حقده على الفرنسيين ، وعلى الصهاينة ، فهم أسّ البلاء كما يقول العم حاتم ، وكما يقول هولو .

في ذلك العصر خرج مع العم حاتم ، بعد أن تدافعت كوابيسه منذ الفجر ، فدارا حول البيت ، ووصلا الى النهر ، ثم تابعا الى المحطة ، وسارا بموازاة السكة حتى طرف المدينة ، وكانت الشمس قد غابت . قفلا الى المحطة مسرعين ، خشية أن يفوته القطار ، وكان العم حاتم أكثر تحسباً منه لذلك . أما هو ، فقد كان لسانه لايهدأ ، فيما

قدمه تقذف الحصى السوداء ، وعيناه تطيران فوق البيوت البهية المطلة على النهر، مثل إطلالة بيت بشارة وبيت الدباس على وديان صافيتا . كانت نفسه تسيل مع النهر ، تدّوم حيث يدّوم الماء ، تصفق حيث يصفق ، ترق حيث يرق ، وكانت أيضاً تنطلق على السكة ، تتلوى معها ، تتشوق لما هو أبعد وأكبر ، لما يبدو واضحاً جداً فيما هو مبهم جداً . ومثلما كانت تفعل به الأصوات القريبة من أشجار وأطيار الضفة ، وصخب المحطة ، والبشر الذين صادفهم ، كان صوت العم حاتم أيضاً، وهو يعد ماتبقى له بعد الخمسين ، يحن الى تلك الأرض البعيدة ، التي قد لايراها من بعد . كان عزيز يترحل مع العم حاتم في عز شبابه ، يجوع ويطفر ، يجوب آفاق تركيا والعراق والشام ، ولكن مالدى العم حاتم كان فقط ماعاشه ، أما عزيز فليس لديه الا ماسوف يعيش . لن يغفر لوالده أن يرميه هكذا ، إكراماً لبيت بشارة . لن يؤخذ بإلحاح العم حاتم على أنَّ هذا مالايجوز من عزيز نحو أبيه . إذا كان أبوه يخشى بيت فلان وبيت علان ، فهو لايخشى أحداً . ولماذا يخشاهم ؟ ماذا يستطيعون أن يفعلوا به ؟ حتى لو لم يكن في الجيش ، ماذا يستطيعون ؟ الشام كبيرة ، ولقمة واحدة تكفيه منذ الصباح حتى الصباح . مهما يكن ، فلن يعيش أسوأ مما عاش العم حاتم نفسه . وسوف يأتي اليوم الذي يقاوم فيه الظالمين كما قاومهم العم حاتم . سوف يحارب الفرنسيين مادامو يتطاولون على الشام . سوف يحارب الانكليز إنْ دعا الامر . لن يحني رقبته لظالم ، سواء أكان من صافيتا أم من آخر الأرض . سوف يكون الموت أيسر عليه من أن يحيا بعد اليوم الحياة التي يريدها غيره له . لن يحيا حياته الا كما يحلو له ، حتى إنْ تخبط فيها أو أخطأ أو قضى . وماذا إنْ بقي عازباً حتى يموت ؟ قد تطلع له في الدرب نساء أحلى من اللواتي يبلع لذكراهن العم حاتم ريقه . قد ينجب أكثر مما أنجب أبوه وأفضل . ولكن سيان أكان ذلك أم لا . المهم أن يظل ناصع الجبين ، قوياً وصادقاً وقنوعاً .

كان العم حاتم ينوس في سره بين الإشفاق على عزيز ، والرغبة في توجيهه . كان يستعيد في إعيائه المكنون وقلقه البادي وفورته شطراً ضائعاً من حياته . وحين جاء القطار ، احتضنه بلهفة ، وتركه يسرع باحثاً عن هولو ، فلما عاد اليه مسرعاً وهو يصيح :

ـ لماذا ليس هولو في القطار ؟

صاح العم حاتم أعلى :

ـ لاتنس ماقلت لك . يجب أن يدبر حضوره إلي بأية وسيلة . حركته أسهل من حركتي . قل له يفتح عينيه جيداً .

وكان القطار قد أطلق الصفارة ، فضاع الصوت .

انقضى الاسبوع كاملاً إثر ذلك قبل أن يلتقي عزيز بهولو ، حين كان وفياض ، يتسكعان بعد المغيب ، فيما بين القشلة والمحطة . هولو هو الذي ناداهما، وألح عليهما كي يرافقاه الى الشيخ حسن . وفي بيت عبد الودود نقل عزيز رسالة العم حاتم . الا أن هولو كان قلقاً على وقوع أبيه فجأة في المرض ، وحائراً في إلحاح الحاج عليه وعلى عمر كي يدبرا له حجة أخيرة الى بيت الله الحرام . كانت وساوسه تمضّه ، من الموت الذي يحوم حول الحاج ، الى عمر الذي لايعتمد عليه في تدبير الحجة ولاسواها ، الى عجزه هو عن أن يعين الحاج في شيء ، خاصة أنه لايكاد يصل الى الحرزة حتى يكون عليه أن يغادرها .

قطع حضور عبد الودود على هولو ماكان يبثه لعزيز وفياض . ولكن لم يخف عليه، وهو يلقي التحية من الباب، ما كان يدور . هلل للضيفين وغمزهما وهو يخاطب هولو ويلوح بالزجاجة الصغيرة التي يحمل :

ـ هون عليك ياابن العم . عبد الودود صهرك وسند ظهرك . فقط قل للحاج لو يؤجل حجته ، أو يؤجل الوداع على الأقل ، حتى يتزوج عبد الودود . مارأيكم بكأس من العرق ؟ سوف تشرب ياهولو الليلة . إكراماً لصديقيك سوف تشرب . ليتني أحضرت زجاجة أكبر . أنت السبب . كل مرة تتركني أشرب وحدي . لا تدور هذه الزجاجة على كل واحد بكأس .

طغا ظل العم حاتم على السهرة ، وردد عبد الودود مراراً الرجاء في أن يجمعهم بالعم حاتم هذا البيت الطيني الصغير ، على أن يكون لديه من العرق مايكفي ، وتكون خديجة في الصدر . وكان لايني يلتفت الى عزيز وفياض أيضاً، ويردد رافعاً كأسه :

ـ هذا البيت ليس لي . هذا البيت لنا جميعاً . أهلاً . أليس هذا بيتك ياهولو ؟ أين تذهبان في الشام؟ تعالا كل يوم إن شئتما .

في منتصف الليل انتهت الزجاجة ، فهمّ عزيز بالانصراف ، غير أن فياض ذكّره بباب القشلة الذي قد لاينفتح لهما بعد هذا الوقت بيسر . حمد عبد الودود للقشلة فضلها ، وأشار الى الحصير معتزاً :

ـ ستتمدد هنا جميعاً . ليس فينا من لم يتعود على مثل هذه النومة . كما أظن .

وفيما أغفوا جميعاً ، كان عزيز يفكر في الاشتات التي نثرها هولو عن عبد الودود ، أو فيما نثر عبد الودود عن نفسه ، فتكبر سعادته بهما معاً ، ويزداد ميلاً الى هذا الذي كان بالأمس القريب عربجياً ، ولم تحل نشأته بلا نسب يصله بأحد دون أن يكون له هذا البيت الدافىء الحنون الذي سيعمر قريباً بزوجة .

لقد أنتشت بذرة الصداقة في ليلتها الاولى ، وصار عزيز وفياض يزوران عبد الودود في بيته ، في غياب هولو . كان عزيز خاصة يتأمل رفّي الكتب ويقلبهما ، يحلو له أن يقارن في سره بينه وبين عبد الودود ، كما فعل حين التقى بهولو في القطار ، فيدفق الدم أسرع وأدفأ في عروقه ، ويهز رأسه مودعاً لعهد مضى ، متوعداً عهده الجديد .

كذلك حزم أمره على أن يجدّ أولا في أثر راغب . كان يزين لفياض أن يرافقه ، وكان فياض في البداية يصعّب عليه الأمر ، فلا أحد يعلم إنْ كان راغب حقاً في مخفر عين فيت أم أنه عاد الى العال . وعزيز مثل فياض لايعرف الطريق الى هذه ولا الى تلك . حتى إذا تحددت الإجازة حاول أن يغري عزيز بمرافقته الى مرجمين ، وإذ يئس منه حمّله أشواقه لراغب ، والدّعوة الى حضور عرس نجوم قريباً ، وحذره من أن يتوه فيما بين عين فيت والعال . أما عزيز ، فكان قد اختار أن يقصد العال أولاً ، إذ رجح لسبب ما أن يكون راغب بين أهله ، وليس رئيساً للمخفر . فلو كان كذلك لظهر مرة واحدة في القشلة أو في الشام . بل إنه قد لايكون عسكرياً البتّة ، وهكذا ركب السيارة الى فيق ، ثم يمم صوب العال ، وهو يسأل كل من يصادف ، حتى لو فصلت بين سؤال وسؤال عشرون خطوة ، فيما إن كان يسلك الطريق الصحيح ، وفيما إن كانت العال لاتزال بعيدة ؟

★ ★ ★

لأن راغب ليس في العال ، ولأن الوقت متأخر ، بعيد العشاء ، وعين فيت بعيدة ، لم يكن أمام عزيز إلا أن يبلغ الخيبة ، ويستجيب لدعوة بيت الناصح ، ويقضي ليلته في العال .

وصل منهكاً ، وضاعفت إنهاكه الخيبة ، بيد أن لقاء بيت الناصح سرعان ماأنساه مابه . بدوا كأنهم يعرفونه منذ سنوات ، وغبط في سره راغب على والده وأشقائه ، على الخيل والاغنام التي رآها في الصباح ، على الارض التي تشير اليها أصابع كثيرة .

ولايدري عزيز كيف دار لسانه في الليل ببعض مايعانيه أهله في قبية ، وبعض ماعانى هو في التلة . وكان أبو راغب يصغي اليه ويستزيده ، ثم يحدثه عن مثل ذلك العناء هاهنا ، في العال ، وهناك ، في عين فيت ، ولم يكن ليتباهى عليه وهو يؤكد أن مالبيت الناصح قد لايكون إلا لدى القليلين سواهم ، بل قد يكون سعى ليخفف عن عزيز الذي طفق يفكر قبل أن ينام في نهاية هذه الأحوال التي تلف الشام ، وتتبارى سوءاً ، من صافيتا الى حيث يرقد .

من العال الى عين فيت رافقه شقيق راغب الذي لازال عرسه يسكره . طوال الطريق كانت عينا عزيز تدوران نهمتين في كل اتجاه ، يتأمل الاحجار والأكمات ، السهول والغدران ، الأشجار والأغنام ، الجمال والماعز ، ألوان السماء وأزياء البشر . كان يفكر في أنه قد رأى هذه الارض من قبل ، وهؤلاء البشر . وكان سعيداً إذْ يلقاهم الآن ثانية ، وشوقه للقاء راغب يكبر ، وثقته تكبر بما اعتزمه من البحث عن الآخرين ، وجعلهم يلتقون دوماً ، مثلما كانوا ذات يوم قريب ، جنوبي الشام .

أطل راغب برتبة نائب الشاويش ، فتراجع عزيز ، ثم خبط رجله وأدى تحية، وارتمى في حضن راغب الذي أسرع يقدم صديقه الى الشاويش والى زملائه ، ولكز قاسم :

ـ هذا هو عزيز اللباد . انظر .

فجر حضوره ذكريات الحرب لدى الجميع . وقد يكون عزيز وجف إبّان وصوله من الآخرين أو من راغب نفسه ، وهو يدقق فيما تبدل فيه . وقد يكون راغب أيضاً دقق في عزيز أكثر ، الا أن انتقالهم جميعاً من المخفر الى بيت قاسم السعد جعل كلاً منهما يرخي لنفسه العنان أطول .

كان عزيز حريصاً على أن يشرك في السهرة ياسين واسماعيل وفياض وهولو والعم حاتم وعبد الودود . ولم ينس حمادي الحسون الذي قاد ذكره الى ذكر ماكان يردد خلف الضباط :

ـ أقاتل الانكليز قبل الاتراك .

كان راغب سعيداً بذلك ، لولا أنه لحظ تململ الشاويش ، على الرغم من أن السهرة لاتزال في أولها ، فتساءل عما إذا كان حمادي يمكن أن يردد ذلك هذه الأيام . فوجىء الجميع بتوكيد عزيز وحماسته ، ولم يستطع الشاويش أن يستمرىء مثل هذا القول الذي ينبغي أن يكون له هو أمام هؤلاء الشبان ، فعقب :

ـ قد تكون الشام تضج بمثل ماتقول ياعزيز . ليس بيننا من ينكر أن الآنكليز خدعونا . هذه هي السياسة كما يقول الكبار . الضباط الكبار كانوا يقولون ذلك أمامنا ، قبل أن تنكشف خديعة الانكليز . ولو سألتموني لقلت لكم هذه ليست خديعة ، بل دهاء ، شطارة . .

فقاطعه عزيز :

ـ مثل هذا الكلام أوصلنا الى مانحن فيه ، والله وحده يعلم الى أين يقودنا .

نقل الشاويش ارتكازه بين إليتيه ، ودفع بصدره الى الأمام مؤثراً عزيز بنظراته :

ـ لاتتعجلوا ياشباب . قد تكون أنت لاتعرف . من منكم لايعرف ماذا فعل الانكليز في القنيطرة بعدما دخلنا الشام ؟ ستقول لي انهم فرضوا على الناس جمع القوت . لقد فعلوا ذلك حقاً ، والناس لاتكاد تجد ماتأكل أو تطعم به دوابها . ولكن قل لي : حين انصرفوا ، ألم يدفعوا أضعاف ماأخذوه ؟

قال عزيز وقد ضايقه أن وجوه الآخرين استحسنت قول الشاويش :

ـ وحين كانوا يدفعون ، بل قبل ذلك ، كانوا يبيعوننا للفرنسيين . قد يكونون دفعوا في القنيطرة قسطاً زهيداً مما قبضوه ثمناً لنا . وغداً إذا جاء الفرنسيون وراحوا يفعلون في عين فيت ، لافي القنيطرة ، كما يفعلون اليوم في اللاذقية أو طرابلس أو اسكندرون ، فماذا نقول ؟

ضحك الشاويش ضحكة المنتصر :

ـ عندئذ ستقاتل ياعزيز . سيكون الانكليز قد تركوا لك هذه البلاد . ولكن هل تصدق أننا قادرون على قتالهم أو على قتال الانكليز ؟ هل تظن انهم مثل الاتراك أو الألمان ؟ الناس ياعزيز لم تشبع الأكل حتى اليوم . ماذا مضى على الحرب ؟ خوفي ممن ينفخ في الجمر الذي تحت الرماد . خوفي من الرماد الذي يعمي العيون فيروح ابن ادم يخبط مثل الدابة .

فض الشاويش السهرة أبكر مما ألفوا ، سواء في المخفر أم في بيت قاسم ، اذْ أصرّ على الانسحاب ، فلحق به الآخرون . وخشي عزيز أن يكون قد تسبب في ذلك ، وخاصة أن عيني راغب كانتا تلومانه، والكل واقفون ، فاقترب من الشاويش معتذراً ، وتداخلت أصواتهم فيما احتضن الشاويش مهوناً ، وقد أبهج ذلك راغب، فعاد الى حيث كان يجلس ضاحكاً ومعلناً :

ـ سوف ننام هنا . تعال ياعزيز . تعال ياقاسم هيء لنا هذه الزاوية .

وماكاد قاسم يفرغ من ذلك حتى أمره باللحاق بأبيه ، وبادر عزيزاً :

ـ هاأنت تتكلم بغير ماتعودنا منك . وأنا أعرفك ، من أين لك به ؟ أخطأت مع الشاويش ، ليس لأنه رئيس المخفر . لاتظن ذلك . هو بالنسبة لنا أخونا الكبير .

أدار عزيز ظهره مقاطعاً :

ـ على العين والرأس . أنا أحببته ، صدقني ، فهل هذا يمنع من أن نفكر بما نحن فيه ؟ ألا يفكر مثلنا بالأيام القادمة ياراغب ؟ الشام تغلي ياراغب ، وهو ذهب راضياً على كل حال .

والتمعت له فكرة مفاجئة فتربع في الفراش وعلا صوته :

ـ أنا أعذره وأعذرك . ولكن قل لي : من كان مثلي بماذا يفكر ؟ لاتوأخذني إذا قلت إنك قد تكون أكبر راحة مني . لقد رأيت أهلك في العال . تشرفت بهم وأسعدوني . أنتم والحمد لله ميسورون . أما من كان مثلي فمن حقه أن يقلق . ماذا تبدل منذ رحل الاتراك ؟ ستعدد لي كيت وكيت وكيت . صحيح . كله صحيح . ولكن ماذا يضمن لك أن الأمور لن تكون اسوأ ، سواء بقي الانكليز أم باعونا للفرنسيين ؟ بربك هل هذا ماقضينا من أجله تلك الأيام من أقصى الجنوب حتى هنا ؟

ثم استلقى وراغب يقول :

ـ ماذا يضمن لك أن تكون الأمور أحسن إنْ قاتلت هؤلاء او هؤلاء ؟ إذا قعدوا أو رحلوا ؟

تنهد عزيز وقال وصوته ينوس :

ـ إذا بقي الانكليز يحلبون الشام مثلما كان من قبلهم يحلبها . وكما لم يخرج من قبلهم الا بالقتال، ظني انهم لن يخرجوا إلا بالقتال. ولن يكون الحال أفضل مع الفرنسيين. هاهو الساحل كله أمامك . ألا تسمع بماذا يجري هناك ؟ قل ياراغب بربك : لماذا تطمع الدنيا ببلادنا ؟ بل لماذا تطمع الناس ببعضها ؟ ماذا يضرهم لو تركونا نعيش بسلام ؟ هل كتب الله علينا ذلك ؟ مرة الأتراك ومرة الانكليز ومرة الفرنسيين ، وهاهي فلسطين تبتلي بالصهاينة !! شيء يحير ! شيء يقبض القلب . لو كنا أقوى فهل تظن أن الآخرين كانوا يتطاولون علينا هكذا ؟

الشوق لراغب ، والنعاس ، لم يتيحا لعزيز أن يعقب على راغب الذي يستسهل ذلك كله ، ويصمت قليلاً قبل أن يتأتىء ، فثمة مايشغله سوى هذا الذي أصدعه به عزيز والشاويش والسهرة التي يندم الآن لأنها انقضت جزافاً . وعلى الرغم من أن عزيز

قد أدار له ظهره ثانية ، فقد أعانه على أن يغلب التأتأة ، وضحك منه حين استحلفه على أن يصون السرّ ، فإذا بالسرّ زواجه الوشيك . ومثلما رجاه راغب أن يفعل ، أصغى وفكر في هذا الذي يفضل ألف مرة لو أنه تزوج من الشركسية ، أو من البدوية ، ولكن السبل دون هذه ودون تلك مسدودة ، وليس بوسعه أن يخطف أياً منهما، ويطير بها على ظهر الحصان . لقد فكر راغب بذلك ، وجعل عزيز يفكر مثله . فلو خطف غالية أو دهيبة ، فالى أين سيطير ؟ هو عسكري ، والانكليز هنا ، كما في فلسطين أو في العراق ، هل يفرّ الى تركيا ؟ يد الشراكسة هناك طويلة . هل يفر الى الحجاز ؟ يد البدو أطول . ماذا يفعل اذن ؟ هل يظل عازباً حتى يشيخ مثل ياسين الحلو ؟ هل يظل موسوساً مرة بغالية ومرة بدهيبة مادام لم يتزوج ؟ تلك هي صبيحة . سوف يتزوج من صبيحة على الرغم من حيرته في أن يكون أسوأ أم أفضل قربها الى حواء ، قرب ذلك الجبل من الجنة ، وعلى عزيز أن يبرر له ماأزمع عليه ، لا أن يباركه فقط . وعزيز يود لو كان قادراً ، لكنه يشك في أن راغب يتحدث عن امرأة أخرى غير صبيحة . إمرأة من تكوينه هو ، لعل فيها غالية ودهيبة . كما أن عزيزْ كان يفكر ، وراغب يبوح له ، بفياض ونجوم . كان يفكر بياسين الحلو العجوز العازب ، وكان يغبط نفسه على أنه براء من أدواء أصحابه ، يستطيع أن يغفو في هذه اللحظة ، على الرغم من أن راغب لايتكلم وحسب ، بل يتعذب .

★ ★ ★

خلّف عين فيت وراءه سعيداً ، وقد تعاهد وراغب على أن لايدعا المقام مهما تباعد يفرق بينهما . كما أقسم راغب على أن يتوجه في أول اجازة له الى الشام ، قبل العال وقبل حضر . وضرب عزيز له موعداً دائماً في بيت عبد الودود ، مدققاً في الإشارات التي تقود اليه ، وحيث سيكون فياض أيضاً ، وربما سواه ، مادام عزيز لن يهدأ بعد نجاح خطوته الأولى في لمّ شمل الأصحاب .

في الخطوة الثانية سعى خلف الاجازة ، ولم ينتظرها حتى تأتي متمهلة، كما في المرة السابقة . كان أكبر حماسة وثقة ، خاصة أن عبد الودود بات ينتظر لقاء راغب بلهفة أكبر ، بعدما حكى له عزيز عن السهرة في بيت السعد ، وبدأ شكه يكبر في أن تكون ثمة صلة تربطه بهم ، مادامت له الكنية نفسها .

لم يعرج هذه المرة على حمص ، على الرغم من شوقه للعم حاتم وإغراء فياض . تابع ركوبه القطار الى حماة ، ثم استأجر بغلاً ، ثم مشى على قدميه بعدما تعثر البغل وانكسرت قائمته اليمنى الأمامية ، وتشاجر مع المكاري . وأخيراً وصل الى الزنبقلي .

خيل لعزيز أن ياسين الحلو ازداد نحولا عن آخر عهده به في القشلة ، ولعل الجلحة كبرت والشيب تضاعف في هذه الشهور القليلة . لعله الزواج على كبر ، كما أسرّ لياسين ضاحكاً ومستفزاً ، خاصة اذا ما كان الزواج بفتاة تصغر الرجل عشرين سنة . بيد أن ياسين لم يستفز ولم يضحك ، بل زفر ونادى زوجته :

ـ تعالي ياهند واسمعي مايقول أخي عزيز . قولي له كم شاباً أقوى منه صرعت يوم العرس ؟

قالت هند من مكانها أمام الموقد :

ـ لماذا لاتقول له إنك لن تعود الى مصارعة أحد ؟

صاح مناكداً :

ـ اذا تزوجت ثانية أصارع .

وهمس في أذن عزيز :

ـ للسنّ حقه فلم الإنكار ؟ أشك في أني سأغلب فتى صغيراً ، هل تصدق ؟ منذ العرس ركبني هذا الشك على الرغم من أنني كنت فحلاً . في غمضة عين جعلتها امرأة ، ولكن ، ماذا أقول ياعزيز ؟ فجأة ، بعد الزواج ماعدت ياسين الحلو العازب والشاب ولو كان عمره أربعين . هيا ياأخي تزوج ، حتى اذا وصلت الى مثل عمري اليوم ، يكون أولادك قد بدأوا يصيرون رجالاً .

سرعان ماغاضت الفرحة من محيّا ياسين ، وأخذ حزن دفين يلون عينيه وصوته . كان بالأحرى حزناً عاجزاً ومكبوتاً ، يتطلع الى عزيز باحثاً عن عون أو عزاء ، عن كتف ترتمي عليه الرأس المتثاقلة . وقد جعل ذلك عزيز يلح على ياسين مراراً ، قبل أن يستجيب وانياً وحييّاً :

ـ لا أعرف ياعزيز لا أعرف . هاأنا قد تزوجت ، ممن ؟ من هند التي انتظرتها حتى صارت صبية . إنها حامل . والآغا كما قلت لك شاركني في غرس أرض طويلة عريضة . الزنبقلي تحسدني على حظي ، ولكن الهم يغافلني ويعشش في القلب . هاأنت قبل أن تسلمّ قد سألت ما إذا كنا في حبس أم في قرية ؟ لماذا ؟ لانك رأيت السور والحارس . كيف لو عشت بيننا يوماً أو يومين ؟ اليوم استأذنت الآغا ليسمح لي غدا

بالذهاب الى الطاحون ، وهاأنت قد أتيت ، فهل أستطيع أن أؤجل الطاحون ؟ هل سيأذن لي في التأجيل إكراماً لضيفي ؟ كل هذا وأنا فلاحه المدلل ، فكيف إذا كان منحوساً ابن منحوس كالذي سنجتمع بعد قليل تحت التوتة من أجله ؟

سأل عزيز عمن يكون المنحوس فقال ياسين :

- ماذا يفيدك لو قلت فلان ابن فلان ؟ واحد منّا ، واحد من جيراننا . بيته ملاصق لبيت أهلي . منذ يومين رماه الحارس في الاصطبل بلا طعام ولاشراب حتى يعود الآغا وينظر في أمره . واليوم عاد الآغا . قبل وصولك بقليل عاد .

سأل عزيز عما فعل المنحوس فقال ياسين :

- بل قل : ماذا جنى ؟ عفوك يارب . يقال إنه أراد أن يتفاهم بالحسنى مع الحارس . يقال إن عين الحارس تلعب على زوجة الرجل . عفوك يارب . لا أحد يعرف الحقيقة . كانا وحدهما والزنبقلي كلها تعرف أن عين الحارس فاجرة ، ولكن فجورها كبر هذا الشتاء . كلمة من هذا وكلمة من هذا، واذا بنا نسمع بكيس من القمح يخبؤه الرجل . لماذا عرض الكيس على الحارس ؟ لا أحد يعرف الحقيقة . يقال إن الحارس أخرج كيسين من بيت الرجل لاعلم له بهما من قبل . هل رتب له الحارس هذه المصيدة ؟ هل كان الرجل يسرق الآغا ؟ هنا تبدأ المشكلة صغيرة ياعزيز، ثم لايعلم غير الله كيف تنتهي . كل واحد منا يضع يده على قلبه ويسأل الله النجاة . لاتعرف كيف يمكن أن تعلق أنت نفسك بمشكلة لاتخصّك من قريب ولا من بعيد .

حاول عزيز أن يهون على ياسين مخاوفه ، وياسين يهزّ رأسه ، وهند تسأل الله أن يجعل هذا المساء ينقضي بأمان . ولمّا حل المساء اتجه معهما عزيز نحو التوتة ، واندسوا بين الفلاحين .

جاء الحارس برجل في مثل سن عزيز يجره من شعره الطويل ، والرجل يتهاوى . وهمس صوت قريب من عزيز متحسراً على شباب المسكين الذي ذوى في يومين . ارتمى الرجل على الأرض بين قدمي رستم آغا، وتنحى الحارس . سأل الآغا بصوت رنان عما فعل هذا الكلب . رأى عزيز لسان الحارس يخرج ويدخل في فمه . سمع الآغا يأمر الحارس أن يرفع صوته حتى يسمع الفلاحون جميعاً . ترك صوت الحارس وأقبل يدقق في وجوه الرجال المسلحين وغير المسلحين الذين يقفون خلف الآغا وحوله . حاول أن يدقق في وجه الآغا وفي الجسد المرمي بين قدميه ، فحالت دونه الأعناق المشرئبة . عاد صوت الآغا يرن سائلاً الرجل عما يقول في كلام الحارس . لم يُسمع صوت الرجل رغم أن الآغا

كرر سؤاله اعلى ، ثم نهر برجاله :
- احضروا لي صاجاً كبيراً وأوقدوا تحته . أريده أحمر مثل الجمر .

التفت عزيز نحو ياسين ، التفت الى الوراء ، مد عنقه الى الأمام . فكر في أن ياسين كان محقاً في كمده وتخوفه . ردد مما كانت هند تدعو به قبل قليل ، وفيما كانت ألسنة النار تشب كانت أعناق الفلاحين المشرئبة تتراءى له معلقة ، هكذا ، الى الأبد ، تنتظر الموت ، أو أنها ميتة حقاً . ولعله هو أيضا صار واحداً منهم ، أو أن عنقه قد التجأت اليهم ، اذ ان الرجل قد جُرد من ثيابه ، ليس منها جميعا ، بل مما يستر طيزه ، والصاج قد احمرّ حتى أعشى عيني عزيز الذي صار في مقدمة الفلاحين . ولأن الرجل لايستطيع أن ينفذ أمر الآغا ، ويجلس على الصاج ، مديرا طيزه للفلاحين ، فقد كان على عدد من المسلّحين أن يحملوه من يديه ومن رجليه ، ويتركوا ظهره يتقوس بينهما ، ثم يركزوه بأناة فوق الصاج ، فيما يخترق عواء وحشي قلب عزيز ، وتعوي النساء والأطفال ، تعوي قلة من الرجال ، بينهم عزيز الذي لم يعد بشراً ولم يستطع أن يصير كلبا ولاشيئاً ، فدار حول نفسه فاغر الفم والعينين ، وكان في كل دورة يندس أبعد بين الفلاحين ، دون أن يدري إنْ كان يلجأ اليهم أم يفر منهم .

أمر الآغا من في المقدمة من الفلاحين أن يجروا الرجل الى بيته ، واستدار الى القصر ، يتدافع حوله وخلفه الحارس والمسلحون ورجاله الآخرون . وجرّ عزيز وياسين أقدامهما نحو البيت ، لايلويان على شيء .

لم يقو أيّ منهما من بعد على أن ينبس ، ولا أن يتناول لقمة . لم تتكلم هند ولم تأكل . وقد طال بهم ذلك دون ان يقووا على النوم أيضا ، حتى انفجر عزيز ، وربما كان الليل قد انتصف ، فبكى بصمت ، ثم نشج عالياً ، ثم صاح من خلل دموعه :
- ما في الزنبقلي رصاصة واحدة ؟ هاتوا فأساً ياأولاد الكلب حتى أقطع لكم رقبته . كم سنة يعيش ابن آدم ؟ ما في الزنبقلي رجل يقدر عليه ؟

أطبقت كف ياسين على فم عزيز وهند تستحلفه أن يسكت ويهدأ . عضّ عزيز الكف حتى أدماها ، وأغلقت هند الباب ، ثم جثت حانية أمامه . همس ياسين ملتاعاً :
- هل تريد أن يخربوا بيتي ؟ والله العظيم يرمونك ويرمونني معك في العاصي .

خبأ عزيز وجهه بكفيه وأطرق صامتاً دهراً ، ثم حث هندا على أن تنام ، ثم حث ياسين وتظاهر بالنعاس والتعب ، ولعله قد نام فعلا . لعل هنداً وياسين قد ناما ، لكن طيز الرجل العارية الشاحبة وحمرة الصاج والعواء ورائحة نسيس اللحم أو الشعر كانت

تملأ البيت ، وقد وجدوها في الصباح تملأ الفضاء ، فارتدت هند هلعة الى البيت ، وهز عزيز كتفي ياسين ينكر عليه أن يبقى لحظة أخرى في الزنبقلي ، ويدفعه الى أن يتطوع في الجيش، أو يعود الى تلدفّ، أو يرحل الى عشيرة هند، أو يرافقه على الأقل في البحث عن اسماعيل معلا . وكان صوت هند المشروخ يغالب صوته :

ـ وأنا ياعزيز ؟ وهذا الذي في بطني ؟ وأبوه وأمه وأخوته وأبي وأمي وأخوتي والناس ؟ من سيبقى في الزنبقلي اذن ؟

★ ★ ★

على الطريق الذي تعرج طويلا من الزنبقلي الى كفر لالا كان يقدم رجلاً ويؤخر أخرى . كانت الزنبقلي تغلّه ، ثم ضاعف أغلاله ماتحدث به الناس عن أبي عاطف الذي مات ابنه في غيابه ، واستقبلته أم عاطف بموتها ، ثم طرد من كفر لالا ، وأقام كما يردد الناس عن المكاري في كفر حبوس ، وتزوج ثمة من أرملة اسمها فاطمة . فعاد عزيز ليبيت في الخان زاهداً في متابعة الطريق الى كفر حبوس ، إذْ لن يكون أبو عاطف فيها أحسن حالاً من ياسين الحلو .

من الخان الى كفر حبوس تعرج به الطريق أيضاً ، وحرنت قدماه ونفسه مرارا ، حتى اذا وصل اخيراً ، قيل له إن صاحبه قد رحل مع فاطمة ، والمكاري وحده يمكن أن يعرف أين هما ، فعاد ليبيت في الخان الذي فيه المكاري ، قريباً من الخان الذي بات أمس فيه ، وأكبر زهداً في ـ وربما يأساً من ـ لقاء أبي عاطف .

كانت لاتزال في النهار بقية كافية لأن يدور بين الخان والمحطة ، ويتفرج على العاصي الذي يتابع من حماه الى الزنبقلي . كان كتمانه لما به يجعله يحسّ أنه مقيد وذليل . كان عاجزاً عن أن يبادل أحدا صوتاً ، يلاحقه السؤال عما يمكن أن يكون قد جرى أيضاً لذلك الرجل أو لطيزه المشوية على الأقل ، ويعزم على أن يعرف ذات يوم ، ويرجو لياسين أن يخلص على نحو ما من ذلك الجحيم ، ويلتقيا كما تواعدا ، ويكرر في صمته العلامات التي رسمها لياسين ولراغب كي لايضلاّ الطريق الى بيت عبد الودود ، ثم يكرر ماخصّ به ياسين من العلامات التي تقوده من المحطة الى بيت العم حاتم ، او الى المشرقة ، ثم يزهد في ذلك كله وهو يقترب من الخان ، يخشى أن لايكون المكاري قد وصل ، كما يخشى أن يدفعه وصول المكاري خلف أبي عاطف من جديد .

كان موعد القطار المسائي قد أزف ، حين ظهر البغلان والعجوز أمام الخان ، وعزيز يحبس أنفاسه :

ـ أنت المكاري ؟

سأل عزيز معترضاً سبيل العجوز ، فنحّته العصا الهرمة ، ورد العجوز غاضباً :

ـ نعم ؟ أمرك ؟ هكذا علموك الأدب ؟ ألا تعرف كيف تسلّم على الناس ؟ لا أمشي خطوة الليلة ولو دفعت لي كل مامعك .

لاحقه صوت عزيز :

ـ لاتؤاخذني ياعم . أين أبو عاطف ؟

رجع العجوز اليه وحدق فيه متسائلاً :

ـ من أنت ؟

ـ أنا صاحبه أنا عزيز اللباد ، جئت من الشام لأراه . قالوا لي في كفر حبوس إنك وحدك تعرف أين يكون .

ـ اتبعني .

قال المكاري وهو يتقدمه في الخان ، ينثر التحيات ويهش على البغلين وعلى عزيز ، قبل أن ينتحي به في الزاوية المقابلة للباب ، بعيداً عن الآخرين ، ويشير الى الفراش المكوم آمراً :

ـ ابسطه . لم أشبع النوم منذ أيام .

بعد أن بسط عزيز الفراش انحنى يسوّي نتوءات حشوه القاسية ، وإذْ تمدد المكاري ، وقف عزيز مستنكراً .

ـ اتركني أغف قليلاً .

قال المكاري حين واجه عيني عزيز ، ثم تكوّر مردفاً :

ـ دبر لنا مانأكله وحضر الشاي . لن أغفو أكثر مما يلزمك لذلك .

كزّ عزيز على أسنانه وخرج مسرعاً يدور حول الخان ، ثم ذهب أبعد فأبعد إلى الضفة الأخرى للنهر ، ولم يشأ أن يعود خالي اليدين ، خاصة أن القطار كان قد انطلق ـ لابد ـ كما قدر . ولما عاد الى الخان وجد المكاري متربعاً في الفراش ساخطاً :

ـ أين رحت ؟

لاح وجهه لعيز بالغ الصفرة، فاحتار فيما يفعل. خيّل له أن المكاري مريض، فسأله عما إنّ كان يشكو من شيء . أنكر المكاري وهو يشير اليه ليجلس قبالته . ذكر

عزيز إجازته والقطار الذي فاته وأبا عاطف ، وكان المكاري يزدرد لقمته الصغيرة بصعوبة ، ويحث بايماءاته عزيز على أن يأكل ، ثم يقاطعه :

ـ لاتخف سأجمعك به إنْ شاء الله . أنا متلهف له أكثر منك . أريد أن أطمئن عليه قبل أن أسلّم الأمانة لصاحبها . المصيبة أن البغل الكبير بدأ يقصّر أيضا . الملعون ليس مريضا لكنه لايقوى على جرّ نفسه . هو الذي أخرني . كنت أنوي أن أتركه هنا . لن أستطيع تركه مادمنا اثنين . لن يصدق أبو عاطف أنني من ودعه قبل أيام . سبحان الله ! كيف ينهّد جسمك دون أن تدري ؟! أنا أيضا كنت أنوي أن أرتاح يومين أو ثلاثة . رجلك ورجل بغلك يامكاري صارت في القبر . نسأل الله حسن الختام .

طأطأ عزيز مستسلماً وحزيناً ، يجاري المكاري في الأكل ، ثم أعدّ له الشاي ، ودبّر لنفسه مايتوسده فوق اللباد ، بجوار فراش المكاري الذي ترك لنفسه أن تطوف على هواها برسوم ماعاشت ، تغالب الأسف والنهاية التي تعتقد أنها قد أوشكت لاريب . وكان عزيز يقاطعه برفق حيناً ، يحثه على النوم أو الصمت والهدوء ، خشية عليه مما تكابد عيناه وصوته وأنفاسه ، ثم يخلد الى مايغمره من الألفة والود ، ويؤخذ بالعجوز المريض الذي يعرف هذه المنطقة شبراً شبراً ، من الزنبقلي الى كفر لالا الى كفر حبوس الى حيث سيقوده غداً في الغاب ، الى الشيحا ، حيث خرج ذات يوم ، ويريد أن يمهله الموت حتى يعود ، كان عزيز يصغي ويعجب ، ربما من نفسه ، لا من المكاري الذي لم يعد يبيت في قريته منذ سنين الا مرة كل شهر أو عدة شهور ، ولم يبق له فيها شيء ، بل إنها لم تعد تعني له شيئا ، الا أنه رغم ذلك يدعو الله ألا يأخذ منه امانته الا هناك .

ربما كان المكاري يحسّ بدنوّ أجله فهفا الى الشيحا ، يفضلها على كل ماعرف سواها ، يتعثر بين ذكرياته الحائلة فيها ، يصف لعزيز كيف ورث عن أبيه العمل في هذه المهنة ، مثله مثل الكثيرين من ذويه وجيرانه الذين نفقت أو صودرت بغالهم وحميرهم بسبب الحرب ، فذهبوا الى الغاب ، أقرب أو أبعد مما ذهب اليه أبو عاطف ، يقصّون القش ، وبعضهم يؤوب به الى الشيحا ، يصنعون منه الحصر ، والمكاري تتلاحق أنفاسه ، يشتم الحصر والقش والغاب ، يشتم السجاد والبسط التي تملأ بيت الآغا ، يتلمس اللباد تحت فراشه ، يتقرى نعومة القش وزهو الرسوم في حصير ما ، لايرضى الآغا بسواها ، لتعزل السجادة عن الأرض ، يوصي لعزيز باللباد والفراش والبغلين إنْ استرد الله أمانته الليلة ، يوصيه أن ينقله الى الشيحا ، ويسأل الله الرحمة لمن فيها من الفلاحين والرعاة الذين لاتهدأ شجاراتهم ، يأسى للرعاة الذين يطلقون القطعان في

السهل منذ كان طفلاً حتى اليوم ، فيجن الفلاحون ، ويحار هو في الحق الضائع بين أولاء وأولاء ، فكل يجهد كي يعيش . المكاري نفسه لم يوفر جهداً كي يعيش . وقد يسر الله له مالم ييسر لسواه ، منذ كان فتى يقود الجمال والبغال والحمير الى انطاكية من حماه ، على رأس أقرانه ، يحملون العفص والحرير والأمشاط الخشبية والأمشاط العظمية ، ويعودون بالكمون والدبس وقزح البصل وخردة الحديد ولولا الحرب والفرنسيون بعدها لما انقطعت بالمكاري وبسواه تلك الطريق ، لظلوا فتياناً ولظل فتاهم ، لما كان قد آل الى بغلين وفراش ولباد وهذا العجز الذي قد لايجعل الصباح يطلع عليه .

رويداً رويداً توحد عزيز بالنثار الذي يرميه المكاري ، فيما هجع من في الخان ، وأطفىء القنديل ، وناس الصوت ، ودقّ الصمت . كان عزيز قد غدا واحداً من أولئك الفلاحين الذين رهنوا مالهم في سهل الشيحا لدى ابن البزار ، مؤملين أن يوفوه ذات يوم مااستلفوا ، ويستردوا أراضيهم . لكن الدين تضاعف ، وعجزهم تضاعف ، وسطوة ابن البزّار تضاعفت، فأخذوا يبيعونه الأرض ويزورّون عن المكاري الذي مدّ لهم لسانه ، أجرأ وأطول منه الآن وهو يمده لابن البزّار نفسه ، للضابط التركي الذي صاهر بيت البزّار وأطلق يدهم ، لاستنبول نفسها ، مخلفاً عزيز في أسفه على الفلاحين الذين التجأوا الى الضابط ليحميهم من بيت حميه ، فاشترط أنْ يتنازلوا له عما لايزال لهم من الأرض ، ففعلوا ، وضيعوا آخر شبر من الشيحا ، وعزيز ينفر منهم ، ينكرهم أكثر من المكاري ، ويضيق بحنقه على الضابط الذي اختفى قبل أن ينهزم الأتراك ، تاركاً خلفه بنت البزّار وأولاده منها ، فاذا بابن البزّار يضع يده على ماكان للضابط من الارض ومن سواها ، ولعله لولا الخوف من الله لورث الضابط في زوجه وأولاده ، غير آبه بأخوة ولاخؤولة .

لهج عزيز يحمد للمكاري أنه لم يذهب بأبي عاطف الى الشيحا ، على الرغم من أنه فكر بذلك طويلاً . أثنى على حكمة المكاري اذ اختار للطريد وللطريدة الغاب ، على الرغم من أن دويّ ابن البزّار يسمع فيه أيضاً : الفلاح مابيصير فلاح الا اذا تكسرت أنيابه . وأبو عاطف لن يدع أنيابه تتكسر حتى تدق عنقه . أبو عاطف فيه لوثة، وليس المكاري أول من اكتشف ذلك . عزيز اللباد سبقه . عزيز اللباد والمكاري يعجبان من هذا الذي يحسب نفه مثل دياب بن غانم ، وإلا لما اختار أن يعيش في الغاب . أبو عاطف هو الذي اختار ، لا المكاري ولا فاطمة ولا عزيز . المكاري قاده فقط الى هناك ، وفاطمة ساكتة ، وعزيز خائف عليه ، اذ لايقيم في الغاب الا الفرارية والعصاة . ولايقيم

حيث اختار أبو عاطف من الغاب نفسه الا المجنون . انه مجنون سوف يعيش بين المجانين . مجنون ينضاف الى عشيرة المجانين . فلولا أن الفريجاويين عشيرة مجانين لما تركوا البادية وآثروا عليها أرضاً مزروعة بالعفاريت . لولا أنهم مجانين لاتعظوا وعادوا الى البادية منذ جاءت اليهم الحملة من حلب ، فقتلت من قتلت ، وشردت من شردت . من كانت له البادية كلها كيف يرغب بسواها إنْ لم يكن مجنوناً ؟ من كان بوسعه أن ينجو برأسه من الحملة الى أي من قرى حماة كلها ، فلم يلجأ الا الى الغاب ، لم يلجأ الا الى الزيارة من الغاب ، ليس الا مجنونا .

كان الدوار يلف برأس عزيز وقد أيقن أن المكاري بدأ يهذي ، وأن الموت يدق باب الخان ، إن لم يكن يلطو في إحدى زواياه . خاف على المكاري وعلى نفسه . خاف على أبي عاطف من حملة جديدة تأتي من حلب ، على الرغم من أن الأتراك قد رحلوا . فكر في ان الفرنسيين قد يسيرون الحملة من انطاكية الى حلب ومن حلب الى الغاب ، وقد يقود الحملة الجديدة ضابط فرنسي بدلاً من الضابط التركي الذي أجلت حملته الفريجاويين ، واستولى على الأرض، ثم باعها لواحد من أثرياء حلب . سوف يبيع الضابط الفرنسي أيضا لثري آخر . أو لابن البزّار نفسه ، وعندئذ ماذا سيفعل ابو عاطف، وهو الذي لما يدبر بعد كديشا أو بغلا ليفلح عليه ؟ هل يعقل أن يكون يفلح حقا على رقبة فاطمة كما يقول المكاري ؟ هل تستطيع فاطمة ان تتحمل النير وتجر المحراث وحدها ، فيما يعجز عن ذلك الشبان ؟

لقد رأى عزيز كثيرين يموتون في الحرب . رأى الموت في ألف وجه . بيد أن المكاري جعله ينسى كل مارأى ، اذ أغفى قريراً في لحظة ما ، وتركه ينهب هواجسه . وفي الصباح سبقه في النهوض ، وهيأ الشاي والبغلين ، وفرض عليه أن يركب البغل المعافى ويتبعه ، دون أن يجرؤ على الالتفات الى الخلف ، فقد كان وقع حوافر الموت أقوى في اذنه من وقع حوافر البغلين، ومن أنفاسه وصوت المكاري .

★ ★ ★

آب عزيز من سعيه خلف ياسين وأبي عاطف مشوشاً وكئيباً . ألوى الإعياء به وبالبغل العجوز وبالمكاري الى الخان ، وترك المكاري يصارع الموت من جديد ، وعاد الى الشام عاجزاً عن أن يبادل فياض أو عبد الودود أو هولو همومهم أو عبثهم أو سكرهم أو

ضحكهم . كان وحيداً حقاً ، سواء في القشلة أم في بيت عبد الودود أم حيث يدور به فياض في الشام . لايكاد أحدهم ينتزع منه كلمة عما كان له في سفره حتى تداهمه الطيز المشوية أو حشرجة المكاري أو عنق فاطمة التي تجر النير بدلاً من ثور أو حمار . وربما كان مرة بعد مرة يترك للسانه أن يفلت ، فإذا به يهذي . ويحار فياض وهولو وعبد الودود في فهمه ، يخافون عليه ويخافون مما يسمعون . كان يدفع في وجوههم بعاطف الذي مات ، بأمه التي ماتت ، بهند الحامل ، بابن البزّار ورستم آغا ، بالمجانين والفريجاويين ، بالعاصي وبالغاب الذي لم يره ، كان يدفع اليهم أيضاً ببيت بشارة وبيت الدباس ، بقبية وبالتلة ، بالحرزة وبالمشرقة ، بالنسب المنبت لعبد الودود ، برائحة الخيانة التي تفوح في الشام ، بالخطر الفرنسي الداهم ، ولعله لذلك لم يعد يأبه بالاجازة . وإذ جاءت ساعية اليه أمضاها في بيت عبد الودود مصمّاً عن فياض وإلحاحه على أن يرافقه الى المشرقة أو الى العم حاتم ، ومصماً عن هولو وإلحاحه على أن يرافقه الى الحرزة، أو يتراجع عن قطيعته لقبية .

وربما كان ذلك سيطول بعزيز أكثر لولا أن راغب قد ظهر يفور غبطة وعافية ، يحمد الله على أنه تاه قليلا عن بيت عبد الودود ، فعبر بالسنانية ، وسال لعابه أمام بيت آخر ، فتوكل ودخل ، وماكان له إلا أن يفعل مادام سيتزوج في العيد الوشيك .

كان لعاب فياض يسيل وهو يستزيد راغب ، وراغب يتباهى بمضاجعته لاثنتين في ذلك البيت ، واحدة نحيفة مثل القصبة ، والثانية أسمن من أية بقرة في العال . الأولى شعرها مقصوص مثل شعر فياض ، والثانية شعرها نازل الى تحت الخصر . وكان عزيز يطرق متذمراً ، وهولو يغضي متعففاً ، وعبد الودود يضحك ، ثم يقاطع راغب بعد لأي :

ـ بنات الخطا لاطعم لهنّ ، رائحتهن مقرفة ، تلطشك من بعيد . .

فاستدار فياض مستنكراً :

ـ وما أدراك ياودود ؟ أتكون جربت وأنت لابد مثل الخلد ؟!

ـ يحرم عليّ . بماذا أحلف لك ؟

سأل راغب مستخفاً :

ـ كيف عرفت اذن ؟

ـ أولاد الحلال كثيرون ، يحكون مثلك وأكثر منك . .

قال عبد الودود معابثاً وهو يدور بالعرق عليهم . وكان عزيز يفكر في أن راغب قد حنث بيمينه ، إذْ لم يسرع في إجازته الأولى إلى الشام كما تواعدا ، بل أسرع الى العال . ولام عزيز نفسه لأنه جعل راغب يقسم . وكان راغب وفياض وعبد الودود يتسابقون في شرب العرق ، يعيرون عزيز بعزوبيته ، ويباهي كل منهم الآخر بعروسه ، وهولو يغضي حين يذكر عبد الودود خديجة ، وعزيز يرثي لهم في سره ، وخاصة لراغب الذي لم يوافق أهله على أن يزوجوه من صبيحة، الا بعد أن أقسم على أنه سوف يتزوج من يختارون ، قبل أن تكمل صبيحة معه شهرها الأول . كان يتساءل عما إذا كان راغب سيفي بقسمه لأهله ، يرجو ألّا يفعل ، ويخشى أن يتعود الحنث بالحلفان ، وأن يباعد ذلك بينهما ، مثلما قد يباعد الجنيهان اللذان يلوح بهما ، مما يقبضه والشاويش كل شهر أجراً للجملين العاملين في قافلة بيت السعد .

كان سكر العرسان الثلاثة يزيده وهولو عزلة ، يجعلهما أقرب الى بعضهما من الآخرين ، على الرغم من أنهما كانا يشربان أيضا . وقد جعل عزيز يفكر منذ تلك الليلة في أنه كان أشبه بالطفل، حين راح يدور خلف العال وعين فيت والزنبقلي والمكاري ، حرداً عن قبية . كما فكر في أن هولو التكلي قد يكون أقرب اليه من راغب الناصح ، وقد يكون المكاري لو ظل حياً أقرب إليه من العم حاتم ، ولعل عبد الودود السعد سيغدو أقرب الى قاسم السعد منه الى هولو . إن تأكد نسبهما ، وحينئذ قد يصبح راغب أو الشاويش أقرب الى عبد الودود من عزيز أو فياض . وربما كان تقليب ذلك في البداية يحزنه أو يخيبه ، يزيد من نقمته على الجميع ، كما يزيد من خوفه على أمل يملص من يديه أو يغدو مبهماً ، ثم بدأ يحسّ أنه أقدر على أن يطوي الألم في صدره ويمضي . صار بالأحرى ينظر الى نفسه مشفقاً عليها مما يوجعها به ، يسعى كي يجعلها تبرأ وتكون في غداتها أقوى . وفي هذه الفترة صدر الأمر بنقله وفياض الى قشلة حماه .

★ ★ ★

19

امتدَّ احتضار الحاج وتطاولت مغالبته لسكرات الموت . ماعادت ساقاه النحيلتان تقويان على حمله ، وهو الذي أمضى عشرات السنين يحمل فوقهما جسمه الناشط القوي ، يخوض في مياه الساقية ويجوب أنحاء البستان والدايره والحرزة والمريجانة، ويسير حتى الشام ، دون أن يشكو من علة . ربما عانى في السنوات الأخيرة بعض المغص أو الإسهال ، وربما كان يذبل ليوم أو لأيام ، لكنه لايلبث أن ينهض أوفر عافية ، قادراً على أن يؤكد أن المرض لم يقعده طوال حياته ، ويشكر الله على نعمته الكبرى في دوام الصحة . حتى هذه المرة ، كان يحسب في البداية أن مابه لن يعدو أن يكون عارضاً مما تعود . وكانت الخضرة التي كست البستان ، والعصافير التي لم يرها أوفر عدداً أو أبهج ألواناً أو أمتع زقزقة ، تغريه بالنهوض . كانت حماسة الأجراء والمرابعين تغريه أيضاً ، مهونة مما به ، الا أن المرض بات أشبه بالمقيم، والحاج يرجو أن يرأف به الله هذه المرة ، كما رأف به على الدوام .

حاول هولو وعمر ماوسعا أن يقنعاه بحمله الى أحد أطباء الشام ، لكنه رفض حازماً . فهو لم يزر طبيباً ، ولايريد أن يقاوم حكم الله . الموت حق ، وقد آن للحاج أن يموت . كان جل ما احتاجه لعشرات السنين بعض ماتغليه العجوز من الأعشاب ، ودعاء الإمام والجيران . حتى كؤوس الهواء التي أدمنت العجوز عليها لم يجربها سوى مرة . والكيّ الذي اشتهر به أبوه ، كلما توعك ، لم يجربه هو مرة . والحاج لايريد أيضا أن يدخل الشام محمولاً الى طبيب أو الى سواه . لعله لو كان ذهب الى الشام بعد رحيل الأتراك مرة واحدة ، لهان عليه أن يستجيب لإلحاح ولديه ، ونصيحة سليم أفندي والكثيرين من جيرانه . ولقد نوى مراراً خلال الشتاء والربيع أن يتوجه الى الشام ، حتى اذا عزم ، جاءه خبر بسفر الباشا ، او انشغاله حتى عن بيته ، أو جاءه خبر بسفر سليم أفندي أو انشغاله حتى عن بيته ، ولم يكن الحاج في عجلة من أمره .

اثر أسابيع من ملازمته للفراش استطاع أخيراً أن يتوكأ على عصا ، ويمشي وحده خطوات خارج البيت ، ثم أقعى على الحجر القريبة من البئر ، وغامت عيناه بين سيقان الأشجار النضرة . اطمأن على الحورة وعلى القبور الأربعة، وقرر أن يوصي بدفنه الى جانبها ، وليس في مقبرة الجامع، كما حدث نفسه من قبل، وحدث الأمام . اعترته القشعريرة التي ألف في الفراش، فلملم أعضاءه هنيهة ، وما كاد ان يسترخي حتى عاودته القشعريرة، ففكر من جديد في أن الموت سوف يباغته، قبل أن ينجز ماعليه نحو أبنائه أو نحو البستان أو نحو الحرزة . لهج بالشهادة وأشاح من جديد عما يخطر له في أن العمر يظل قصيراً ، مهما عاش الانسان . خاف من التجديف وتلفت حوله، فرأى ابنته الصغرى قد نهدت في غفلة منه . لعلها شبت وهو مريض. تنهد مطمئنا على خديجة بعد أن زوجها من عبد الودود السعد، ووعد نفسه بتزويج البنت الوحيدة المتبقية ، وتزويج عمر ، قبل أن يموت . أما الصغار الآخرون فسيكونون أمانته في عنق أشقائهم الكبار . سمع صوت العجوز خلفه تخاطب حُسْن بما لم يتبيّن، فحزن لانه لم يستطع ان يحقق لها ماتتمنى بزواج خديجة . كانت كعادتها معارضةٌ في صمت واستسلام ، فهذه هي المرة الأولى التي تتزوج فيها واحدة من نساء التكلي خارج المريجانة . وقد أقلقه ذلك هو أيضا . حُسْن نفسها كانت راضية على مضض . أما أخواله والمريجانة كلها فقد غضبت ، وإن صمتت واستسلمت كالعجوز . ولكن ماذا كان يسع الحاج أن يفعل ، وقد خطب الباشا شكيم بنفسه خديجة لعبد الودود ؟ كان يسائل نفسه الآن مثلما سألها حين انتهى الباشا شكيم ضاحكا من كلماته القليلة الواثقة . انه يعرف عبد الودود السعد جيداً ، ولعل أحداً لايفضله بين شبان المريجانة والحرزة ، كما أن هولو راضٍ ، وعمر وسليم أفندي راضيان ، ولابد انه نصيب خديجة المكتوب على جبينها ، وإنْ لم تستطع العجوز أو حُسْن أو المريجانة ان تقرأه . وكانت ابنته الأخرى قد اقتربت منه ، فتمنى لو تدع له أن يتفحص جبينها ، وأن يقرأ فيه زواجا وشيكا لها في المريجانة ، ليعوض بذلك مافاته مع خديجة . لكن القشعريرة عاودته اطول وأقوى . هزته بعنف وجعلته يستنجد بالعجوز ويبحث عن العصا، متطلعا الى البيت والفراش ، وغرق في غيبوبة أخرى مما أخذ يتواتر عليه في الآونة الأخيرة .

كانت كل غيبوبة تأتي أطول من سابقتها . والنوم يجافيه اثر كل منها ، وصمته يطبق ، حتى أدمن ذلك كما أدمنه من حوله . كان يلبث بعد أن يفيق زمناً لايريم . عيناه ساهمتان والأسى الشفيف يلون انفاسه الهادئة ، وقد تعودت العجوز أن تهجع قربه إذا

داهمته الغيبوبة مساء أو عشاء ، تنتظر في نومها كما في يقظتها أن يفتح جفنيه . ولعل الغيبوبة كانت تداهمه بعد أن يغفو الجميع ، فذلك ماكانت العجوز تعلل به نومه أحيانا حتى الضحى أو حتى الظهر .

إفاقة بعد أخرى ، كان يتراءى له أنه ثمة شعاع في مكان ما من فناء البيت ، أو الفرجة التي ينفتح عليها الباب ، يضيء قلبه ، يلوح له بالأمان وهو ينفخ في روحه خوفاً أليفاً . كان الشعاع يذكره أقوى فأقوى بما لازال عليه أن يؤديه نحو ربه ، على الرغم من أن تقاه مضرب المثل في الحرزة منذ شبابه . فالحاج لم يتخلف عن صلاة . حتى في أثناء الفلاحة أو السقاية كان يصلي . ولكن ماعلى الانسان أن يؤديه نحو ربه لايمكن حصره ، ولاتفي به حياة واحدة . كان الشعاع يومىء له أصرح فأصرح بحياة أخرى أطول وأهدأ ، فتهفو نفسه ، وينشد أن يعجل به الموت اليها ، فينبض الأسى في قلبه ، خافتاً وخجولاً ، يستمهله ويغريه ، اذ لو أمد الله بهذه الحياة الأولى ، لضاعف الحاج مما يؤهله للقاء ربه أضعافا مضاعفة . وكان الشعاع يبسم له ، أعرض فأعرض ، فيجرؤ على أن يحلم بليال يقضيها في الجامع يتهجّد ، وعدل يقيمه أدق وأصرم بين المرابعين والأجراء ، وصيام لرجب وشعبان ورمضان ، وحجة أخرى مشياً على الأقدام ، لاحاجة فيها له الى عون الباشا شكيم وحميه أمير الحجّ . واذ يختفي الشعاع ، ويغادره الأسى ، يعود الى من حوله حائراً في الخواء الذي يحسّه في دخيلته ، ويستلّ منه بقيا العافية .

إفاقة بعد أخرى أخذ الشك يراوده في أن يكون مايحلم به ، أو مايعد به الشعاع أو الأسى أو نفسه أو ربّه ، حيلة يحتالها كي تبقى له فسحة أطول من العمر . صار الشك يعذبه ، يسيل دموعه أحيانا ، حتى بات لايرجو أن يبقى له الا مايكفيه لحجة ثانية ، مادام الحج وحده يجبّ ماقبله ، ويعود بالانسان نقياً مثله يوم يأتي الى الدنيا . ولكي يسكت الشك صار يتمنى أن يلاقيه الموت ثمة ، أمام بيت الله الحرام ، أو أمام مسجد النبي المعظم . صار يهجس بأيام معدودة تكفي فقط لأن ينتقل من الحرزة الى مكة أو المدينة ، ليس مشياً على الأقدام ، مادام المشي يتطلب زمناً طويلاً ، ولا على الجمال كما في حجته الأولى ، بل في القطار ، أو على بساط الريح .

لم يتردد في أن يحدث ولديه عن آخر رجاء له في الدنيا ، فوعد عمر ، ووعد هولو ، ولكنهما حصرا الهم الآن في الطبيب ، وردد عليهما هو والعجوز والإمام أن الشافي هو الله . ومن يدري ، فقد يكون الشفاء في الحجة الثانية . وفكر في أنّ الحج وحده مايستطيع أنْ يقوم به وهو مريض . ولئن قضى على الطريق فستكون ميتة مباركة . وخيل

اليه انه قد حلم من قبل بمثل هذه الميتة ، ولعل ذلك الحلم جاء أول أو آخر ليلة له في بيت المطوّف ، وراح يستعيد الحلم وهو يقظ أو نائم أو غارق في واحدة من غيبوباته ، يتقلب وحيداً على الفرش الممدودة للحجيج في بيت المطوّف ، تضيء الفرش مشابهة القبور ، تمشي به الهوينى الى مسجد الرسول المعظم ، حيث تشع السجف السميكة وتذروه في نثار النور ، فيموت سعيداً وراغباً ، بلا قبر .

حين نقلته العجوز وحُسْن من قرب البئر الى الفراش ، أخذ جفناه يرفرفان، وهما ترخيان الغطاء فوقه . كانت حُسْن أول من لحظ ذلك ، فأجفلت ونادته ، فالتفتت العجوز وهمست :

ـ ويلي . . ليس من عادته . هل أنادي على الإمام ؟

ناحت حُسْن :

ـ أين أنت ياهولو !

وناحت العجوز :

ـ تأخرتم ياأولاد .

تحلقتا حول رأسه ولسانه يلغو بما عجزتا عن أن تتبينا منه حرفاً . ربما كان قد ذكر السنجق أو المحمل أو أمير الحج أو الوالي ، وربما عتب على ولديه اللذين يبخلان عليه في آخر رجاء له في الدنيا ، ثم أطبقت شفتاه بحزم أكبر مما يمكن لمريض مثله ، وتراخت رفرفة جفنيه ، وأخذت أنفاسه تضطرب .

ربما كان اذ ذاك يسلم الروح ، ولعله كان متمسكاً بالنفس الأخير ريثما يستعيد حجته الأولى ، مادام الموت لاينتظره كي يحج من جديد ، فأخذ يلوذ تحت الراية السلطانية ، يستمدّ من حمرتها القانية بعض العزم ، ومن هلالها الفضي ذبالة الأمان . كانت الراية تسمق في يد ذلك الرجل الذي يرتدي لباساً عجيباً، لاتراه العيون الا مرة في العام ، وهو يتهادى على جمله ، وخلفه جمل المحمل . ابتسمت وجنتا الحاج ، فزاد اضطراب العجوز وحُسْن، فيما كان عبير السنجق يملأ البيت، يعيد للحاج منكبيه القويين اللذين كانا له ، كي يزاحم الناس ويتبرك براية الرسول ، وبالمحمل ، وهو يطوف في الشام خلف الموكب ، يقف قريباً من الوالي نفسه ، ممتناً للباشا شكيم ولحميه ، يتأمل ملياً الصندوق الهرمي المدثر بالمخمل الأخضر ، والآيات القرآنية التي توشيه ، والمصحف الكبير الملفوف بالحرير في ذروة الصندوق ، والحلي الباهرة ، والجلود المزركشة والأقمشة الفاتنة التي تلف الجمل ، والصدف والمرايا الصغيرة التي تتلامع

معشية البصر ، مثلها مثل الماس الذي يبرق في أنحاء معطف الوالي ، مثل سيف الوالي وأوسمته ، مثل الضياء المبارك الذي يفيض به محيا أمير الحج ، وهو يشمخ فوق صهوة الحصان ، يحيط به الجنود والناس ، وأبو عمر التكلي يداريه برموشه ، خوف أن يتأخر عن الحصان ، بعد أن خصّه الأمير برفقته ، ليس في الموكب هاهنا ، بل إلى الكعبة نفسها .

أخذت قدما الحاج تختلجان تحت الغطاء ، فهرعت اليهما العجوز وحُسْن ، لاتجرؤان على أن تمسكا بهما، كانت القدمان تنطلقان بالحاج من السراي الى السنانية الى الشاغور الى باب كيسان الى باب شرقي . كانت الموسيقى العسكرية التي تصدح بنحاسياتها تجعله يسبق الجمع . وتراتيل الشيوخ تجعله يتمايل طرباً ، وقد غاصت عيناه بعمائمهم المقصبة وألوان مايرتدون . وحذا الناس حذوه ، فتعالت الزغاريد ولعلع الرصاص ، ودوت المدافع من شتى القشلات ، وشرع أصحاب الدكاكين يرشون ماء الورد ، فتبلل لباس الحاج ، كأنه مشى كل هذه المسافة تحت رذاذ ناعم وناعش ، ولم يكن يدري ، كما لم تكن العجوز ولا حُسْن تدريان ، أنه قد تبول الآن ، قبل ان تحل اللحظة الحاسمة التي لاينبغي لها أن تفلت ، فقد توقف موكب الحج عند مصطبة سعد الدين ، مخلفا وراءه الطرق والأرصفة والشبابيك التي ازدحمت بالخيل والعجلات والراجلين والحمير والبغال والنساء المحجبات والأطفال . وكانت المركبات التي تتقدم الجميع قد تراتبت . وتقدم الشيخ الجليل بالدربولة ، وود أبو عمر التكلي لو يؤتى الآن باللوز والفستق والجوز والملبن والسكر، كي يباعد بين جفنيه بصعوبة ويزجرهم ، فتنحبس دموع العجوز ، وتخرس شهقات حُسْن ، وترتجف ذقن الإمام ، ويكبر الآخرون في سرّهم، وهم ينتظرون أن تمتد يد لتسبل جفني الحاج .

★ ★ ★

بين البكاء والصمت استقبل هولو موت الحاج ، وفي هدأة الليلة الأولى راوغ القلق وهو يحضن حُسْن التي لن يكون بوسعه من بعد أن يصطحبها الى الشام . كان يخشى أن تكون قد انقضت مع الحاج الطمأنينة التي كان يظلل بها العجوز وحُسْن والأشقاء الصغار والقبور وتلك الطفولة التي تلح عليه في حضرة الموت ، ولم تهدأ هواجسه حتى جاء العم حاتم ، فارتمى على كتفه ، كأنما وقع على من يسنده في عثرته ، ونشج :

ـ مات الحاج . . كم كنت أتمنى أن تعرفه ويعرفك !

فردد العم حاتم وهو يربت على ظهر هولو :

ـ كلنا على الدرب .

كان فياض هو الذي أرسل مع واحد من زملاء هولو الى العم حاتم ينبئه بموت الحاج . لقد توجسّ عزيز شراً من إغلاق بيت عبد الودود ، فهرعا الى دكان سليم أفندي المغلق أيضا ، وبادرهما جاره دون أن يسألا ، مترحما على الحاج . كان الوقت عصراً ، وفي عودتهما الى القشلة عرج فياض على المحطة يبحث عن هولو . وتابع عزيز يدبر إجازة ليوم أو يومين .

حين وصل العم حاتم كانوا جميعا يجلسون وسط المعزّين ، على الكراسي الخشبية الخفيضة التي جمعت من بيوت القرية ، ليكون بمقدور بيت المرحوم أن يستقبل المعزين . كان هولو وعزيز ينتحيان الطرف الشرقي لصف الكراسي ، وفي الصف المقابل جلس عمر وعبد الودود وفياض ، وقد بدوا أقوى تماسكاً وأجرأ . وقريبا منهم كرسي العم حاتم ، فراح هولو يسترق النظر منه ،يكذّب الغضون التي تضاعفت في جبينه ، والشحوب الذي ينضح به وجهه ، لكأن الهرم قد فعل فيه خلال شهور مالم يفعله خلال سنين .

فكر هولو في العبارة التي نطق بها العم حاتم ، وتقلقلت جلسته وهو ينكر أن يكون الموت يحوم فوق ذلك الرأس أيضا ، اذ لن يكون هولو قادرا على أن يفقد السندين معا . لابد لأحدهما أن يظل حياً . ومادام الحاج قد مات ، ولاردّ لحكم الله ، فعلى العم حاتم اذن أن يبقى .

كان المعزون قد أخذوا يقلّون في اليوم الثالث للوفاة ، فلا بد لكل من أن يذهب الى عمله ، مهما يكن الحزن على الحاج . وعلى الرغم من ذلك فقد كانت الكراسي مليئة منذ الضحى ، ولكن من كان عليها من المرابعين والأجراء كانوا معدودين ، لايكاد واحدهم يسلم على ولدي المرحوم حتى يغادر . ولعل أولاء كانوا أكبر فجيعة بموت الحاج ، وقلقاً على أنفسهم من بعده ، على الرغم من أنهم تابعوا بعيد دفنه أشغالهم ، كأنه بينهم ، وعلى الرغم من أن سليم أفندي لم يظهر بعد .

كان الحاج بالنسبة لأغلبهم أباً رحيما ، لم يغلظ القول لأحدهم . كانت لمسة الحنان والرعاية أقوى في صوته دوما من السخط . كانوا يؤدون أعمالهم أثناء مرضه بحرص أكبر ، وفاء له ، وتضامنا معه في بلواه التي طالت ، قبل أن يريحه منها الموت ، ويخلف

لهم ولأسرته اللوعة والخوف مما قد تطلع به الأيام التالية . ولئن كان ذلك لايظهر على عمر ، فإنّ نظرات هولو تجأر به ، وإنْ كانت قد أصبحت أهدأ بعد ظهور العم حاتم .

قبيل الظهر فرغت أغلب الكراسي ، مفسحة لذوي المرحوم أن يتناولوا الغداء الذي أحضره بعض المرابعين . كانت زوجة الامام وبعض نساء المرابعين داخل البيت يحتلن كي يجعلن العجوز وحُسْن تأكلان ، شأن كل وجبة بعد دفن المرحوم . بينما كان الرجال يأكلون واجفين ، كأنما يؤدون مكرهين مالا طاقة لهم به .

انتهى الغداء سريعا ، وخيم الصمت من جديد، حتى قطعه عمر مخاطباً العم حاتم :

- ماذا تحكي لنا عن حمص ؟

- ماذا أحكي لكم؟ حمص مشغولة بالبيكوية التي منحها القصر للدنادرة. الحفلات عندهم والرصاص من تلكخ الى حمص .

أسرع فياض مفخماً وساخراً :

- سمعت الباشاوية .

- وأنا سمعت . بيجوز .

قال العم حاتم ، فيما خاطب فياض عزيزاً :

- صدّقت يا محترم ؟

والتفت الى العم حاتم :

- لو رأيت كيف كان ابن الدنادرة أمام السراي، وحوله الرجال منها، أو من القصر نفسه . المسدس في وسطه ، وعلى جنبه القنابل ، وفي صدره الجناد، وعلى كتفه البارودة !

قال عمر :

- مثل بطل كان . أنا رأيته .

قال فياض :

- بدون بيكوية ولا باشاوية كانت الأرض لاتحملهم ، فكيف الآن ؟ القصر يقويهم علينا بدلا من أن يقص أظافرهم .

قال عمر بجفاء :

- أهذا جزاؤهم على مافعلوا بالفرنسيين ؟ من سبقهم ؟

ـ على ذقن من يضحكون ؟ انت لاتعرف . قلوبهم مع الأتراك الذين سلطوهم علينا ، ماهمهم القصر ولاهمتهم فرنسا .

قال فياض مقاطعا ، فبرم عمر شفتيه هزءاً :

ـ القصر غلطان وأنت المصيب ؟

التفت عزيز الى فياض وقال مهدئاً :

ـ والله الدنيا عجيبة! أما رأيت كيف كان الناس فرحين، يحيّون الدنادرة..

ـ مخدوعين ، جاهلين

قاطعه فياض بنزق ، فجاء صوت عمر زاجراً :

ـ القصر أدرى ، والناس أدرى . .

ـ وأنا أدرى . . كل واحد أدرى بمصلحته .

رد فياض ، فتدخل هولو :

ـ لِمَ ترفع صوتك ياعمر ؟ فياض يعرف مافعل الدنادرة بالناس . .

قال العم حاتم :

ـ وأنا أعرف ياعمر ، مافعلوا وما لازالوا يفعلون . .

أدار عمر عينيه بين هولو والآخرين ونهض قائلاً :

ـ أنا جاهل ياعم . تركت المعرفة لكم ، ولكن القصر لابد أن يكون أدرى بما يلزم ومالا يلزم .

ـ القصر أين ونحن أين ! هـه . . كأنك لست في الشام .

قال هولو فاقترب عمر منه وهمس :

ـ تعلم بعد اليوم كيف تخاطب شقيقك الكبير حتى لايغضب الحاج ، وتربته لازالت طرية . .

وغادر نحو الدايرة ، فوقف الآخرون الذين لم يفتهم همسه ، ولم ينتبه أحد الى أنّ الإمام كان قد وصل ، حتى صاح بهولو :

ـ مالك تتفرج ؟ الحق به وطيب خاطره . .

ثم صاح بعبد الودود :

ـ قم انت . ماذا تنتظر ؟ لاحول ولاقوة الا بالله . .

وجلس آمراً الآخرين بالجلوس .

20

كانت النعمة قد أخذت كما يقال تظهر على عمر . تورد خداه ، وصار لباسه غالباً جديداً ونظيفاً . صوته صارت له رنة أخرى ، مفعمة بالثقة ، آمرة . ولم يكد يبدل موت الحاج من ذلك سوى في يومه الأول . لقد حزن على المرحوم كما الآخرين ، ولكنه كان قادراً على أن يوبخ الذين يعولون ، حتى العجوز نفسها . ولئن كان ذلك قد جعل بعض الأجراء والمرابعين والجيران في الحرزة، والأخوال في المريجانة، يتهامسون مثنين على رجولة عمر ، فقد تهامس آخرون منهم متشككين فيما إنْ كان حزينا البتة أو آبها بالموت .

كانت لقاءات هولو به تتناءى ، كذلك لقاءاته بعبد الودود وخديجة . كان هولو يحسّ أنّ عمر يصفق في سرب آخر . وكان عبد الودود أجرأ في اعلان ذلك . أما خديجة فكانت تثني على عمر ، وتصلي على النبي ، وتتعوذ من كيد الحساد ، مؤكدة أن السعد مكتوب له على جبينه . وحين يزورها كانت تحرص على أن تضع له وسادة نظيفة ، ولاتقدم كؤوس الشاي الا ناصعة ، وقد عللت صنيعها لعبد الودود حين غمز من ذلك مرة :

ـ ألا ترى كأنه طوال عمره أفندي ابن أفندي ؟

ـ وهولو كيف يبدو ؟ فلاح ابن فلاح ؟ صانع ابن صانع ؟ وأنا كيف أبدو ؟ أجير ابن أجير . لاتنسي ان عمر أيضا ابن الحاج .

قال عبد الودود معقبا ، فكظمت غيظها ، لكنها في مرة أخرى ثارت، وسخرت منه ومن هولو ، وأقسمت أنهما يغاران من عمر ، وكان أول خصام بينها وبين عبد الودود بعد الزواج .

كان عبد الودود يتحاشى الاحتكاك بعمر كلما تضاعف نجاحه فيما يعهد به اليه سليم أفندي ، يكتم الغيظ الذي تخلفه في نفسه معاملة عمر له بجفاء واستعلاء أحيانا . وربما كان ذلك قد بلغ به مدى أبعد حين توفي الحاج . لكن الوفاة جعلته يبدي من الود

لعمر والحنو عليه والعناية به أكبر مما كان يبديه لهولو أو لخديجة . والحق أنّ عبد الودود لم يهدأ منذ أبلغه عمر بموت الحاج . كان يطعم الصغار بنفسه ، يوصي هولو بحُسْن، ويوصي عمر بالعجوز ، يرجو الإمام في كل صلاة أن يقرأ الفاتحة على روح المرحوم ، يرحب بالمعزين ويودعهم ، حتى أنّ عدداً ممن قدم منهم من المريجانة ، لم يخفوا اعجابهم بهذا الغريب الذي يبدو كأنه ولد من أولاد الحاج ، أو كأنه فلاح ابن فلاح من الحرزة أو المريجانة ، على الرغم من أنه نشأ في الشام، ولم يعرف الفلاحة . ولعل ثناء الإمام عليه منذ وصوله هو ما ألفت العيون إليه . لقد رفت أهدابه حين علا صوت الامام بالثناء ، وأومضت في القلب ذكرى الشيخ نظام الدين . وفي الليل ، بعد أن هجعوا جميعاً ، استعاد الثناء ، ورثى لخديجة التي تضيق برفي الكتب ، ولعله زها قليلا ، قبل أن تغمره ذكريات مبهمة لأمه وأبيه ، ربما لم تكن يوما ، بل هو الذي خلقها، ثم دفنها، ثم رآها تحيا في حضرة الموت .

في الفجر كان أول من دخل الى الجامع بعد الإمام . وقد ران عليه ظل عميق من الإيمان ، أضفى الجلال على حزنه ، وحرك لسانه في النهار بما يحفظ ، فبهت الأخوال الذين قاطعوا الحاج لتزويجه خديجة من غريب ، وكرر الإمام الثناء عليه أطول وأعلى ، مفتقداً في الشباب نظيره ، فهمس عمر في اذن صهره ساخراً :

ـ ماقولك في أن تترك الشام حين يموت الإمام وتحلّ في الحرزة محله ؟

أشاح عبد الودود مثلما تعود أن يشيح عن غمزات عمر منه في الشام . وكان فوج جديد من المعزين قد وصل ، فود لو أن الإمام يعيد ماخصّه به قبل قليل ، لكن الإمام انصرف عنه تماما ، لكأنه قد نسيه ، او لم يعد يراه ، حتى أمره باللحاق بعمر ومراضاته ، فخيل اليه أنّ في صوت الامام جفاء أو غضباً ، وصعب عليه أن يحرك قدميه نحو الدايرة ، لولا أن هولو سبق الآخرين الى الجلوس ، فمشى عبد الودود حانقاً ، لكنه ماكاد يتجاوز البئر حتى شاهد الباشا شكيم وسليم أفندي يترجلان من العربة ، وعمر يجري .

التفت عبد الودود نحو الآخرين وناداهم كي يتأهبوا لملاقاة الضيفين . ولم يلبث عمر أن ظهر خلف الباشا وسليم أفندي ، منكس الرأس ، متدلي الأذنين . تقدم عبد الودود مرحباً ، فيما كان العم حاتم يلكز هولو :

ـ هيا تقدم أنت . أنت صاحب البيت أيضاً .

ففعل مكرها ، اذ كانت مشية عمر تستبد به وتغيظه ، كما كانت خطى عبد الودود الفسيحة نحو الضيفين تضايقه . لم يستطع أن يحرك لسانه ، فترك كفه للضيفين اللذين صافحاه بحرارة ، وترحما على الحاج ، ثم صافحا العم حاتم، دون أنْ يكتما الدهشة لحضوره . ومشى هولو بين العم حاتم والباشا ، فرفع عمر رأسه مستنكرا ، والتفت الى عبد الودود ، الذي كان يمشي الى جانب سليم أفندي، وربما كان يهمس له ، فمد عمر خطوته ، ثم زج بنفسه بينهما وهو يلعن في سره شقيقه وصهره ، متعجبا من أن الشام لم تعلمهما أقل ماينبغي للمرء من الأصول ، فليس لهولو أن يتقدم على شقيقه الأكبر ، وليس لعبد الودود أن يتطاول على مكان عمر الى جانب سليم أفندي ، بل ليس له أن يسبق الى مجلس العزاء ، ويقدم الكرسيين للضيفين ، ليس للعم حاتم أيضا أن يجلس بينهما ، وإنْ يكونا قد ألحّا عليه .

جلسوا جميعا دون أن يأبهوا به . وحده ظل واقفا حتى رأى نفسه يتجه الى البيت ، يأمر أمه وخديجة وحُسْن بالذهاب الى الدايرة ، فالست زهرة هناك .

تساءلت حُسْن بصوت خافت وحائر :

ـ هل علينا أن نذهب ؟ نحن في عزاء . حتماًتحضر هي ياعمر . الباشا نفسه جاء كما ترى . .

صاح عمر بها :

ـ ابقي أنت هنا . تراك تتكبرين على الذهاب الى الست زهرة ؟

وخرج ، فلحقت به خديجة .

كان بعض المعزين قد وصلوا ، وتكاثرت الكراسي المليئة حول الباشا وسليم أفندي . اقترب عمر كظيما ، ووقف قبالة الضيفين غير بعيد . واذ وقعت عليه عين سليم أفندي قال بحنان :

ـ تعال أجلس بجانبي .

تنفس الصعداء ، وخطف نظرة متعالية من الوجوه جميعا ، وكانت الكراسي المجاورة لسليم أفندي قد فرغت، والامام يردد بعض الآيات القرآنية .

أطرق العم حاتم يتأسّى على ما بدا له زمنا بعيدا قد مضى ، حين كان أقرب الى الباشا شكيم ، بل والى سليم أفندي ، منه في كرسيه الآن بينهما . وكانت عينا عزيز تحملان العم حاتم من موقعه ، تحلان محلّه ابن الدباس تارة ، بشارة تارة ، رستم آغا ، ابن البزّار ، فيبدو كل منهم غريباً أكثر من الآخر عن الباشا وسليم أفندي . فكر في أنّ

هذين الضيفين قد يكونان من طينة أخرى ، فاولئك الأغوات تتداخل صورهم ، تبدو أقرب الى ظل مكرب وحائل ، قادم من أيام مضت، أو ليس لها إلا أن تمضي . أما الضيفان فقد بدوا أقرب الى ظل ناعش وجديد ، قادر على ان يجذب ويقيم ، وربما يكون قادما من هناك ، من الايام التالية .

اما فياض فقد أغضى منذ جلس عمر الى جانب سليم أفندي . خيل اليه أنه يرى كلباً يتمسّح بحذاء سيده . أشفق على هولو ان يكون هذا الذي يبدو مثل الكلب شقيقا له . وفكر هو أيضا بمن سمع أو عرف ممن يشبه الضيفين اللذين شغلا العيون جميعا . فكر في البيك الذي لم يعد يراه في حمص ، في الخواجة الذي يتحدثون عنه في المشرقة . فكر في الدنادرة، وود لو يسأل الباشا أو سليم أفندي عمّا منحهم القصر. بل إنّه همّ بأن يسأل ، حين خاطب سليم أفندي عمر بصوت عال :

ـ لم يتمكن الباشا ولم أتمكن أنا من الحضور حتى الآن .

فأسرع عمر بصوت أعلى :

ـ شرفتم .

تابع سليم أفندي كأنه لم يسمع عمر :

ـ في الطريق تحدثت والباشا عمن يخلف المرحوم .

وصمت يبلغ ريقه، ويتلمس وقع عبارته في الحاضرين ، بينما اندفع الامام :

ـ ياسليم أفندي ، المرحوم شدد علي وهو يلاقي وجه ربه أن أوصيك بالامانة التي يتركها لك . أولاده وبيته ياسليم أفندي . الحرزة كلها ، هاأنا أبلغ الوصية أمام الجميع، وأنت خير من يرعى حرمة الموت ويقدر وصية الميت . المرحوم يوصيك خاصة بتزويج عمر على يدك .

أطرق عمر الذي تأرجحت العيون بينه وبين الامام قبل أن ينبهها صوت سليم أفندي :

ـ اسأل الله ان يعينني على مافيه الخير . فكرت والباشا في الا نأتي إليكم برجل غريب ، قد يتعبكم وتتعبونه ، وينالنا نحن أيضا من التعب ماينالنا . نحن نعرف أن المرحوم عودكم غير ماهو معروف من الوكلاء أو شيوخ المرابعين أو الأجراء ، لذلك قررنا أن نعهد الى عمر بما كان المرحوم أبوه يقوم به .

انتفض عمر عن الكرسي شبرا أو أعلى، ثم هوى عليها غير قادر على أن يضبط عنقه ويديه . وتقلقلت الكراسي ، والتفت من عليها يمنة او يسرة قبل أن تتركز الأنظار

على عمر . وكان هولو يطرق متحاشيا العيون التي تعبر به في طريقها الى شقيقه .

قال الإمام :

ـ ان شاء الله سيكون عمر عند حسن ظنكم به .

تابع سليم أفندي :

ـ انتم تعرفون ان عمر وراءه ماوراءه في الشام . لن يكون بوسعه أن يحضر الى الحرزة كل يوم . عسى الا يجعل ذلك بعضكم يفلت على هواه . على العكس ، آمل أن يجعل ذلك كل واحد منكم يحاسب نفسه أكثر مما لو كنت بنفسي هنا . وأنت ياعمر : أمر واحد أشدد عليك به . أمر واحد سوف يتبدل بعد موت الحاج ، ليس لأنه مات ، بل لأنك لست مقيما هنا . من يخالف لارحمة له . لقد كنت أنوي أن أقضي معكم يوما أو يومين ، ولكنني مسافر الى مصر ، وسوف أرى فور رجوعي ماكان من كل كبير وصغير . هذه أول تجربة لكم، كما هي أول تجربة لعمر .

كان عمر قد سيطر على اضطرابه ، واستعاد ثقته ، فاستوى جذعه وأبرقت عيناه ، ولما صمت سليم أفندي وقف قائلا :

ـ أرجو من الله أن يعينني . سافر بالسلامة ياسليم أفندي . سافر وأنت مطمئن على كل شيء ، هنا أو في الشام . أنا تربيتك ، وسترى .

★ ★ ★

في الطابق الثاني من الدايرة كان الغداء المتأخر للباشا وسليم أفندي والست زهرة . أعدت خديجة الغداء بنفسها ، وأوامر عمر تترى مربكة من معها من نساء المرابعين . وعلى الرغم من أن الباشا وسليم أفندي ألحا على عمر أن ينصرف الى المعزين ، الا أنه لم يفارقهما حتى غادرا الحرزة قبيل المغيب .

بغتة طلع عمر الجديد الذي اقترن حاجباه ، ربما ، الى الأبد ، ولم يعد آبهاً بهولو ولابعبد الودود ، بل انه لم يلتفت الى ضيوف هولو حين انصرفوا . وماعاد صوته يهدأ ، كما لم يعد دعاء العجوز له بالتوفيق يهدأ .

وحدها خديجة غمرها الفرح ، كأن الحاج مات منذ شهور . امتلأت نشاطا منذ أن أمرها عمر بالتوجه الى الدايره . وقبل أن تعلم بما عهد به لعمر، كان قد عاد اليها صوتها الناعم الغنج . لم تفكر في أن لها رجلا يتساءل عن غيابها ، وإنْ كان لايجرؤ أن يجهر . وحين التقاها الباشا مصادفة في الصالون وهي ترتب الغداء ، وسألها عما اذا كانت

سعيدة بمن اختار لها ، تضاعف حبورها ونشاطها، ولكنها أغضت والباشا يقول :
ـ افتقدنا صوتك الحلو في البيت ياخديجة . بلانا الله بصوت من جاءت بعدك !

تمنت أن ترفع رأسها الى الباشا ممتنة ، لكنها انصرفت عجلى ، وكادت أن تتعثر على الدرج ، مثلما كادت أن تتعثر بعد لأي ، حين صادفها نازلة سليم أفندي ، فتنحى لها ، وكان صوت عمر مسموعا يقرع أحد الأجراء . كان سليم أفندي عائداً من جولة قصيرة مع عمر على الاصطبلات والبستان ، ولما أوشكت خديجة أن تهوي وقف ضاحكا وبادرها وهي تعبر به :

ـ متى تصير خديجة أماً ؟

وقفت باسمة ورمقته :

ـ الله كريم .

ـ لاتستعجلي .

وخيل اليه أن نظرتها الخاطفة تحثه على قول آخر ، فوضع قدمه على الدرجة الأعلى مترددا ، ثم قال :

ـ الواحدة منكن لاتكاد تبدأ بالحمل والولادة حتى تصبح مثل الوردة الذابلة .

تابعت نزولها متمهلة، فأسف لأنها تبتعد ، وكان وركاها يفيضان ملاسة واتسّاقا ، ويكبران . ولما وصلت الى الدرجة الأخيرة التفتت الى الأعلى ، فسطع جبينها أعرض ، وألوى بعينيه أرضا ، لكن العينين عجزتا عن أنْ تتجاوزا ما ارتسم من حدود النهدين ، خاصة أنّ التفاتتها قد طالت أكثر مما يتوقع ، فانتقلت قدمه الى الدرجة الأدنى وتمتم :

ـ كيف هو عبد الودود معك ؟ هل يقصّر في شيء ؟

هزت رأسها نافية، ومرقت من الباب ضاحكة ، فشك في أن يكون عبد الودود يرضيها . وكان عمر قد دخل يقفز كل درجتين معا ، ويعجب مما يضحك شقيقته ، حتى اذا اقترب من سليم أفندي نسي الأمر .

في المساء أشرف عمر بنفسه على مايعدّ لعشاء الست زهرة التي لم ترافق الباشا في عودته . ولم يعد عمر ولاخديجة الى البيت حتى كان قد سكن تماماً، الا من انتظار عبد الودود وحيدا بين الكراسي .

كان عمر قد رأى الست زهرة عن قرب مراراً ، قبل أن يقيم في الشام ، وبعد أن أقام . الا أنه لم يجرؤ مرة على أنْ يحدق فيها . أمّا اليوم ، فقد فعل ذلك أكثر من مرة ، بل إنّه سمح لنفسه بالجلوس في حضرتها دون أن تدعوه ، وحدثها قي شؤون شتى ، من

المزرعة الى الشام . ولعلها نسيت بسبب ذلك أنه الشاب المسكين الذي حماه الباشا من العسكرية ، أو أنه الأجير الذي رعاه سليم أفندي، وجعل منه رجلا . كانت تعلم أنه صار الذراع اليمنى لسليم أفندي ، وقد تمنت له التوفيق حين سمعت الباشا يغبط سليم أفندي عليه ، ويتساءل إنْ كان لم يخطىء ، اذ لم يحتفظ لنفسه بعمر وبشقيقه معا . وحين علمت بما عهد به الى عمر من أمر البستان ، أشفقت عليه من العبء الذي سيكون كبيرا . فالدكان وأشغال سليم أفندي الأخرى المتكاثرة في الشام ، والبستان ، كل ذلك ليس بالحمل الهين .

كانت خديجة تروح وتجيء أثناء جلوسه مع الست زهرة . أقلقها في البداية أن تراه يتصرف بجرأة مفاجئة لم تعهدها منه ولامن عبد الودود أو سائق الفورد أو الكثيرين الذين شاهدتهم يجلسون مع الست، أو يخاطبونها ، هنا في الدايرة أو ثمة في الشام . بيد أن ماقدرته من استمتاع الست زهرة طمأنها، وزاد من إعجابها بشقيقها . وكان عمر يزداد غواية وهو يرى نفسه قادرا على أن يتبين ملامح الست زهرة ، ويتقرى صدى صوتها في أعماقه ، فلا تعود مثلما كانت دوما ، غائمة ومبهمة وبعيدة ، بل تتجلى قربه عن كائن مهيب وأليف .

فطن عمر فجأة الى أن انصرافه فور انتهاء خديجة مما تؤديه أفضل . وتأكد له ذلك حين استمهلته الست زهرة، مادام المعزون قد انصرفوا، كما أكدت خديجة . وعلى الطريق من الدايرة الى البيت ظل صامتا ، كما لم يبادل عبد الودود كلمة . أما خديجة فقد فوجئت بزوجها ، وخشيت أن يكون غيابها قد أغضبه ، ولكن ماالذي كان بوسعها أنْ تفعله ؟ ماذا كان بقاؤها في البيت سينفع عبد الودود وهو طوال الوقت بين المعزين ؟

كانت تتساءل وهي واقفة قرب الباب ، وعبد الودود يقترب ويهمس :

ـ ما على لسانك كلمة تقولينها ؟

أحست بالذنب والغيظ ، وتمنت أنْ يلح عليها بالسؤال ، أو أن يتكلم بما يريد ، لكنه خرس وخرست ، واذ طالت وقفتها الصامتة انصرفت عجلة وغضبى الى الداخل ، وهو يتراجع خطوة، قبل ان يستدير وتقوده قدماه مرغما نحو قبر الحاج ، فيما كان عمر الذي تريث في العتبة يتنصّت ، ثم يتابع بعينيه حانقا ، ويرثي لشقيقته .

★ ★ ★

أكثر عمر من التردد على الحرزة أثناء سفر سليم أفندي الى مصر ، خاصة في الليل . وفي غفلة من نفسه ، أو من الجميع ، أخذ يعامل حُسْن كالخادمة .

ربما كان يجرب لأول مرة في حياته أن يعامل امرأة كخادمة ، بعد أن أتقن ذلك مع الرجل ، أصغر منه أو أكبر . هكذا تتالت أوامره لحُسْن : أن تعدّ الشاي له ، أو للضيوف ، أن تذهب الى الدايرة الخاوية المعتمة ، لتنظيف الطابق العلوي النظيف ، على الرغم من أن أحداً لن يدخله قبل الصيف القادم . وكان يتفقد مانفذت ، يحصي عليها مايقدر أنه خطأ أو تقصير ، ثم صار ينهرها ، ويجعلها تعيد ماأنجزت . وكانت العجوز تدافع عنها ، الا أن عمر يغدو أشرس ، يثور ولايكتفي بالتأنيب أو الصياح ، صار يشتم ، وصارت يده تهمّ أن تلطم ، لولا أن يسمّرها حلفان العجوز مرة ، ودموع حُسْن مرة ، وسبب مبهم يخصّه هو ، مراراً .

خمّن هولو أن انقباض حُسْن وعزوفها عنه ، فيما موت الحاج ينأى ، انما هو بقية من حزنها . ولئن كان ذلك قد نغّص عليه أحيانا خلواته بها خلف الحائط الحجري ، فقد كان يبعث فيه غبطة أسيانة ، ويضاعف من حدبه على حُسْن ، يجعلها تبدو أجلى مما رأى من قبل : رقيقة ووفية ، رضية وحنونة ومصابرة .

كانت إقامتها في الحرزة تقوي في نفسه الحسّ بالثبات والأمان ، وهو يتأرجح بين محطة ومحطة . ولعله كان بحاجة الى مثل هذا الجذر المتصل بماض ينأى ، ونفسه تتفتح على يدي العم حاتم ووقع الحرب وأخلاط العالم وهدير العجلات . ولئن كانت وفاة الحاج قد أيقظته على مايتهدد ذلك الجذر ، فإن ملازمة حُسْن للحرزة ، وربما انقباضها أيضا ، جعلاه يعلل النفس القلقة بما لايزال قائما وراسخا ، وصورا له أن الجذر مكين . غير أنّ حُسْن أفضت اليه أخيراً بما ظلت تكتم حتى عجزت .

كان عمر قد غدا بالنسبة اليها مهانة طاغية ، وخوفا من الضعف . وقد ضاعف ذلك صمت هولو، وهي تشكو من عنائها لكأنها، رأت نفسها عارية ، لاقبل لها ولالزوجها بدرء السوء ، فتفجرت دموعها كما لعلها لم تبك من قبل ، حتى في موت الحاج ، أو ليلة فارقت المريجانة الى الحرزة .

انفجار حُسْن جعل شكوك هولو يقينا مبهظا ، وقد كان يتناهى اليه في كل أوبة الى

الحرزة بعض مايفعل فيها عمر . وكان شبح الحاج ينبق كلما ازداد هولو حنقا ، وعزم على مفاتحة أخيه ، فيطأطىء كرمى للأبوة والأخوة ، ويكتفي بأن يبث عبد الودود بعض مايعذبه ، متحاشيا أن تشارك خديجة في الحديث ، بعد أن ملّ من الأعذار التي تسوقها لعمر .

هكذا، وعلى العكس مما قدر هولو بسبب موت الحاج، قيّض لحُسْن أن تقيم في الشام ، سوى أن ذلك جاء أشبه بالكابوس ، وأبعد عن الحلم الذي داعب وداعبت .

مع عبد الودود دار في الحارة ، ومع ابن الشيخ نظام دار عبد الودود ، بحثا عن غرفة رخيصة الأجر . ومن عبد الودود وعزيز وفياض استدان هولو ماقدروا على تدبيره . كان عبد الودود أول من عرض المساعدة ، وحدث عزيز وفياض بشأنها ، وآخر من قبلها هولو منه ، بعد أنْ لاحظ تجهم خديجة وشجارها مع زوجها بسبب ذلك . وقد جاء موقف خديجة لطمة أخرى بعد لطمات عمر . واذ عاتبها تعللت بمحاولتها أن تضطره الى ابقاء حُسْن في الحرزة ، وسألته متحدية :

ـ كيف نترك العجوز وحدها مع الصغار ؟

فهز رأسه حزينا :

ـ اسألي عمر . . اسألي نفسك ايضا .

اقرب الى بيت الشيخ نظام كانت سكنى حُسْن وهولو ، منها الى بيت عبد الودود . ولعل جفاء خديجة هو ماضاعف على حُسْن وطأة الغربة والوحدة ، كما دفعها الى مصادقة حامدة ، زوجة ابن الشيخ نظام ، أو كنّة الشيخ نظام كما تُوثر أن تعرّف وتنادى .

في أيامها الأولى شغلت نفسها بترتيب أشياء البيت البسيطة المعدودة . طوت الفراش وسوت الغطاء ، ثم فتحتها استعداداً لجلوس أي ضيف . بدلت موضع الحصير ، جرة الماء ، حاولت أن تأكل بمفردها ، عزفت عن كنّة الشيخ نظام ، ثم أقبلت على عونها في شؤون بيتها ، حسدتها على أولادها الكثر وانشغالها الدائم ، همت بمعاونة خديجة لولا أن ذكرى معاملة عمر لها كخادمة ردعتها . غطت الخزانة المجوفة في الحائط بغطاء الفراش ، فرشت وطوت ثيابها وثياب هولو في التجويف الآخر الصغير ذي الباب النظيف . حاولت ان تظل قادرة على أن تميز بين ماترك العم حاتم لهولو وما اشتراه لها ،

ثم اختلطت الاشياء، كما راحت تختلط عليها اليقظة والنوم حين يكون هولو غائبا ، أو الاشباح التي يرسم ضوء القنديل بما نشأت عليه من الاشباح التي كان يرسمها ضوء السراج ، أو كما راحت تختلط عليها أقوال كنّة الشيخ التي أحبت حُسْن وآثرتها على خديجة ، وراحت تحثّها على الحمل ، تعدد عليها الأضرحة التي رفضت خديجة أن تزورها كي تحمل هي الأخرى ، وليلة بعد ليلة بات هاجس حُسْن الحمل والأضرحة ، ولم يفت ذلك حامدة ، فأخذت تقود حُسْن خارج حارة راعي الحمى الشيخ حسن ، مكررة وصيتها الهامسة :

ـ اياك أن تقولي لهولو حتى أخبرك متى .

لاريب أنّ ذلك كان سوف يربك حُسْن ، أو يمنعها من الزيارة ، لولا أن الأمر يتصل بالحمل الذي صحت على تأخره ، وبالأضرحة التي ضاعفت حامدة من خشيتها لها . كما أن الخروج من البيت ، ثم من الحارة ، الى ناحية أو أخرى من الشام ، كان شاغلا جديدا لحُسْن ، خاصة حين اجتازت الحميدية الى الجامع الأموي، ثالث أيام العيد، ولغط الأطفال وصوت نفاخاتهم المطاطية يدوي في أذنها ، ورائحة النابت والمخلل تزكمها ، ومرأى اكياس القضامة والبذر وأكوام الكعك والبرازق والدكاكين المفتوحة والمغلقة يومض في عينيها .

كانت الزيارة الأولى لابن حنبل . حركت حُسْن السقاطة واجفة، ورددت ماحفظته من حامدة بيسر منذ العصر الفائت :

ـ ياحنبلي حبّلني .

وربما كانت الزيارات ستطول ، لولا أن لسانها زلق أمام هولو، وهي تقدم له كأس الشاي ضاحكة ومنغمة صوتها :

ـ هدا اللي وصفه التكتور .

تسمّرت أصابع هولو حول الكأس ، وتباعد جفناه ، وأنكر ماسمع ، فتساءل :

ـ ما سمعتك . قولي قولي .

كررت حُسْن العبارة متباهية ، وصدى صوت الباعة على الطريق في زيارتها ذلك الضحى لضريح السلطان نور الدين يغريها ، وقال هولو وهو يضع أمامه على الأرض كأس الشاي :

ـ وغيره ؟
ـ وغيره : تمر هندي سلطان الشراب ؟ طلعت ايده هالنابت ؟
ـ على مهلك على مهلك . من أين هذا الكلام ؟

قال هولو وهو حائر بين أنْ يفرح لحُسْن أو أن يغضب منها . وعندئذ أدركت أنها خالفت وصية حامدة ، وفضحت سرّهما أمام هولو ، فاربّد وجهها خشية أن تكون بذلك قد أضاعت هباء جهدها وجهد حامدة ، أو أن يغضب افشاؤها الأضرحة المقدسة ، ثم تضاعفت خشيتها حين فكرت في أنّ مافعلت قد يغضب هولو . ولعل هولو كان يلغو وهي نهب هواجسها ، اذ أجفلتها هزة كفه لها، وصوته أعلى مما تعودت :
ـ ألا تسمعيني ؟

لم يكن أمامها إلاّ أنْ تحدثه بما فعلت . ولئن تعثر لسانها وتقافز من حامدة الى الحمل الى سيدي عامود ، فقد فطنت بغتة الى أنّ هولو يصغي ، وليس غاضبا ، فانتظمت أنفاسها ، وتريثت وهي تروي له زيارتها الأخيرة الى مقام السلطان نور الدين ، وزوقت جرن الماء ثمة ، والنافذة المدعمة بالقضبان الحديدية ، والفانوس المضاء داخل الشبك ، والعمامة الخضراء الهائلة التي تعلو الضريح ، والاعلام التي تغطيه ، والرماد بين يديه ، وجرؤت على أن تتساءل عما اذا كان هولو لم يزر السلطان مرة ، فنفى ، فتعالمت عليه بما علمتها حامدة ، ودعت للتجار الذي أهدوا الى الضريح الأعلام الجديدة بعد الحرب ، وحاولت أن تعدد الأعلام التي استولى عليها السلطان في غزواته ، وتحولت الى رماد ، فعاد لسانها يتعثر ، وضحك هولو ، ثم قهقه ، ثم هزتها يده هزة قوية كادت تقلبها ، وجعلتها تضحك وتقهقه . ثم تصغي جذلى اليه :
ـ تظنين أنني لم أفكر بولد ؟ تظنين أنّ أحداً ما سألني كما سألتك حامدة ؟ لكن كله من عند الله . وعلى ماذا العجلة ياحُسْن ؟ أنا وأنت لازلنا في أول عمرنا . ماذنبنا اذا كانوا زوجونا صغارا ؟

وفي تلك الليلة أقبلت عليه وأقبل عليها، كأن كلا منهما ينهشه الجوع للآخر نهشا . لم تستطع حُسْن ان تخفي عن حامدة افشاءها للسر الا يوما . وقد أسعدها ان حامدة لم تقرعها ، بل راحت تلح في السؤال عن المضاجعة التي تجزم انها أعقبت افشاء السر ، كأنها كانت حاضرة بين هولو وحُسْن وعلى الرغم من حرج حُسْن، فقد تفاءلت حامدة بالحرارة التي قدرت للمضاجعة، وأمرت حُسْن بترقب دورتها القادمة .

بانتظار الدم لم تعد حُسْن تغادر حامدة في غياب هولو . صارت تلتقي سجيع ابن الشيخ نظام في بيته صباحا ومساء . حفظت تحياته لحامدة وغبطتها عليها ، وتمنت لو أن هولو أيضا يهتف بها : يسعد مساك يارمّان ملّيسي ، أو يسعد صباحك يافلّة فرنجية . صارت أجرأ في البوح لحامدة عما تفعل وهولو في الفراش ، وحامدة تتلذذ وتعابث وتستزيد وتضحك وتؤنب :

ـ على مهلك . اتركي من الرجل نتفة لقدام . بكرة يكون حبلك بأربعة . .

واذْ انقطع الدم عن حُسْن تلك الدورة ، ضاقت بفرحتها، وضاق هولو بفرحته ، وبدت حامدة في نظر الجميع ، من خديجة وعبد الودود الى سجيع نفسه ، راسخة في العلم . وكان على حُسْن أنْ تتعلم الآن الكثير عما بعد الحمل ، وعما فاتها من العلم قبل الحمل ، سواء أكانت حامدة منصرفة الى اشغالها أم تثرثر .

لم تعد حُسْن تمشط شعرها ليلا ، لم تعد تكنس ايضا في الليل ، كي لاتغضب الجن ، كما تؤكد حامدة . صارت تغسل ابن سجيع الصغير ، وترسم بالكحل بين حاجبيه ـ كأمه ـ نقطة سوداء ، وتهدهده :

ومنين أجيبو الحلو أبو دقّة

وتمسد بطنها مطمئنة . وحين يقترب هولو منها في العشية تبعده هامسة :

ـ اطفىء القنديل أولا .

اذ لم تعد تكتفي بتنزيل فتيله ، فالمضاجعة في الضوء قد تجعل المرأة تحمل بمصروع ، كما تؤكد حامدة . وبات لزاما على هولو ان يبسمل قبل ان يولج فيها عضوه . كان عليه هو الآخر أن يتعلّم من حُسْن . وكانت خديجة التي أثارها حمل حُسْن قد أخذت تتردد عليها ، وتتعلم هي الأخرى منها ، وان كانت في الوقت نفسه ظلت تتأبى على حامدة ، وتشيح عن هولو ، مثلما تشيح عن عبد الودود ، مادامها في خصام مع عمر . على أن هذا الظل الرقيق من الهناءة والوئام مالبث أن تبدد ، وكان وجع حُسْن من الحمل قد بدأ يتفاقم .

★ ★ ★

عاد الفلاحون في المريجانة ـ من أهل حُسْن وسواهم ـ الى ماطواه النسيان ، اذ حلّ الموسم وفاضت الغلال بعد سنوات من الموات أو الخصوبة العادية .

كان أمير الحج قد اشترى المريجانة منذ قرابة عشرين عاما ، وطالب الفلاحين أن يدفعوا له أربعين بالمائة من الغلال جميعا، فيما كانوا يدفعون لسلفه 12.5% فقط. قال أمير الحج ان سلفه كان لايأخذ الا حصة الوقف . فالمريجانة كلها وقف للحرمين الشريفين ، قال الأمير ان سلفه كان يتلاعب بالحسابات ، ولايدفع من حصة الوقف الا أقلها . لكن الأمير لم يقل كيف استطاع سلفه أن يسجل أرض الوقف باسمه ، ويبيعها له . ولما رفض الفلاحون أن يدفعوا الاربعين بالمائة هجّر الأمير بعضهم ، وجاء بمن يحل محل المهجرين من الساحل ومن الجبال المطلة عليه ، فانصاع الآخرون ، واتفقوا معه على أن يدفعوا خمسة وثلاثين بالمائة . وفي ذلك الوقت ، أو بعيده بقليل ، زوج الأمير ابنته للباشا شكيم ، فصار الباشا أحد ورثة المريجانة ، وتضاعفت سطوة الأمير ، ليس بسبب مصاهرته الجديدة وحسب ، بل بسبب تحالف العائلات الكردية الأخرى المماثلة في حيّه ، وبسبب تعاظم نفوذه في استنبول أيضا .

بعد رحيل الأتراك عاد بعض الفلاحين يطالبون بتخفيض النسبة التي يتقاضاها حمو الباشا الذي لم يعد أميراً للحجّ . قد يكون فيهم من قدر أن دولة الأمير قد دالت ، فضلا عن أنه قد غدا عجوزاً، وسوف يولّي بين يوم وآخر . وقد يكون فيهم من فكر في العصيان المنسيّ على الأربعين بالمائة ، منذ أن أسندت امارة الحاج الى أمير آخر . فتبديل الأمير قبل أن يموت يعني نفوذا أضعف ، أو زوال النفوذ. ولعل المريجانة كانت قد عصت ثانية ابان ذلك لولا ان قامت الحرب . ولكن هاهي الحرب قد انتهت ، والأتراك قد رحلوا ، واستنبول لم تعد تنفع أو تضرّ أحدا ، فلماذا لايتحين الفلاحون الفرصة ، ويحاولون فيما أعجزهم ذات يوم بعيد ؟

هكذا حل الموسم، ورفضوا أن يسلّموا الحصة المعهودة .

من الذي أذكرهم بذلك ؟ من الذي لعب بعقولهم وحرّضهم ؟ ذلك ماشغل الأمير ، فلجأ فيمن لجأ الى صهره . ولأن الباشا شكيم لاوقت لديه لمتاعب أخرى ، فقد اكتفى بأن طلب من سليم أفندي أن يهتم بالأمر . ولأن سليم أفندي لاوقت لديه لمتاعب أخرى . فقد اكتفى بأن أوكل الى عمر أن يهتم بالأمر . وكان سليم أفندي عائداً لتوه من مصر ، متلهفا الى معرفة ماسارت عليه الحرزة في غيابه وغياب الحاج . ولئن نسي في غمرة سروره بنجاح عمر في الحرزة وفي الشام ، ونجاح عبد الودود أيضا ، فإن عمر لم ينس .

صار عمر يعرج على المريجانة في ذهابه الى الحرزة أو في إيابه منها . لم يكن يعرفها من قبل الا بالكاد . زار أخواله وأسعده أن يلاقوه بما لاتلاقي به الحرزة سليم أفندي ، بل والباشا نفسه . أصغى الى تطاولهم على حمي الباشا، وضجيجهم بظلمه وظلم وكيله . كانت أصواتهم تدوم حوله، وترتد عن أذنيه وعن قسماته . كانوا يقسمون أنهم لن يدفعوا سوى الربع ، مثلهم مثل سواهم من الفلاحين في الغوطة وفي سواها . كان الشبان منهم يهددون باللجوء الى الحكومة، ويترحمون شامتين على الأيام التي كان فيها أمير الحج يستطيع أن يفرض مايشاء .

وحين قدر عمر أنّ الأوان قد آن ، توجه الى سوق ساروجة، وطرق باب الباشا ، دون أنْ يحدث سليم أفندي بشيء .

لم ينفتح له الباب في المرة الأولى الا مواربة . أعلمته الخادمة التي حلت محل خديجة أن الباشا نائم . في المرة الثانية قالت الخادمة إنّ الباشا خارج البيت ، فثار في وجهها ، ولعن خديجة التي تركت هذا البيت لتسكن في الشيخ حسن مع عبد الودود ، وبعد قليل عادت الخادمة تدعوه آسفة الى الدخول ، فاذا به امام الست زهرة .

في المرة الثالثة ظفر بالباشا ، وأعاد عليه ماكان قد حدث به الست زهرة ، فأخواله هم أسّ البلاء . ومادامو في المريجانة فلن يهنأ الباشا ولاحموه بها . كما أن الأمر أشبه بالنار في الهشيم ، وعدوى المريجانة قد تصيب سواها ، وليس لعمر الا أن يؤدي الأمانة .

كيف شاع في المريجانة والحرزة وبيت عبد الودود وبيت هولو أنّ عمر هو الذي تسبب بتهجير جديد للعديد من فلاحي المريجانة ، على رأسهم أخواله ؟

ذلك ماكان يحيره ويؤجج حقده وغضبه ، على الرغم من أنه لم يهتم بنكرانه حين جابهه هولو به . كان يفكر فقط في هؤلاء الناس الذين تركوا كل شيء، ولم يعد لهم من شاغل سواه . لماذا نسوا الباشا شكيم الذي توسط في القصر نفسه حتى داهم العسكر المريجانة، وهجّروا الفلاحين ؟ لماذا نسوا الأمير؟ لماذا نسوا الوكيل ؟

ازدحمت الاسئلة على عمر قبل أن ينصّب هولو نفسه وصياً عليه ، ومحاميا عن أخواله وعن الفلاحين ، وقاضيا في آن . كانت أسئلة مربكة وموغرة ، فاقت سخطه على الجميع ، حتى على العجوز التي يتهمه صمتها وانطواؤها . وتلون السخط بالحقد على كثيرين ممن يعملون تحت إمرته في الدكان أو الحرزة أو المريجانة ، وبالمكر مع كثيرين ممن

يعمل معهم أو تحت إمرتهم . أما هولو وعبد الودود ، فقد ظلاّ غصة ناشبة في الحلق ، رغم القطيعة والوعيد . ولعلّ اجتماع ذلك كله على عمر في تلك الأيام المعدودة العصيبة ، كان في رأس مارسم له منعطفه الحاد الجديد ، ليس في دخيلته وحسب ، بل في سلوكه وعلاقاته، وبالتالي في مستقبله القريب .

★ ★ ★

21

هذا الصباح الغائم قرر الباشا شكيم ـ أخيراً ـ ألّا يغادر غرفته حتى موعد الصلاة . أغلق الباب على نفسه بعد الافطار ، وخاطب الست زهرة والخادمة والأولاد :

ـ لا أريد أن يفتح الباب علي أحد . كل من يسأل عني قولوا له خرج ولا يعود الى مابعد الصلاة .

منذ شهور وهو يعجز أن يخلو بنفسه ، والحاجة ـ وليس الرغبة فقط ـ الى الخلوة تكبر . ربما كانت بقية من عادة قديمة ، يأنس اليها حين تغرقه الأمور أو تغيم ، فينشد بعض الراحة أو الهدوء ، يتأمل ما هو فيه ، يتفحص موقعه ويستشرف ماقد يكون . وربما كان يداور تلك الحاجة ـ أو الرغبة ـ بسفر وشيك الى برلين ، بعد أن أطال المقام في الشام ، كما لم يفعل منذ سنين ، يخاتل الوعد لنفسه اذ يلهبها الشوق الى تلك الدنيا ، يستروح فيها نسيما آخر ، يستمد منها نسغا جديدا . لكن السفر كان يؤجّل كلما هم أن يأمر الست زهرة بتهيئة الحقائب . فلا القصر يرحم ولا المجالس المسائية ، لا المماحكات ولا المظاهرات ، لا لميعة ولا المستر بيجيت ، لاحموه الذي يتردى بين المرض وبين المريجانة ، ولا الحرزة على الرغم من السطوة التي يقودها بها عمر التكلي ، فيصبر الباشا شكيم ويصبر ، ولكن الى متى ؟

على أحد القلاطق استرخى ينفث سؤاله وضيقه ، مغالبا ظلال القلق والانشغال التي لاتبارح الغرفة شهراً تلو الشهر . فكر في أن يجدد لخلوته ماينظمها ، بدلا من ان يطلقها على هواها ، كما تعودت . وجرب أن يبدأ بالانكليز والحكومة والفرنسيين ، فنفرت نفسه ، ولكنها فكرت في أنه قد يكون أجلّ سفره الى برلين آخر مرة ، بسبب انسحاب الانكليز . وعاوده السؤال الذي لم يهدأ في سره وفي علنه منذ بدأ الانسحاب : من سوف يمنع الفرنسيين الآن من التقدم ؟ ماذا يجدي الحكومة أن تمنعهم من نقل السلاح والعساكر الى كيليكيا على سكة الحديد ؟ ماذا ستجدي حمّى التدريب والتطوع

التي تشغل الأحياء ؟ تطاول السؤال هذه المرة محذرا من أن يكون الباشا شكيم بات أقل حماسة ، أو أن يكون الآخرون أكبر حماسة منه . تعلل بطيش الشباب الذي يلازم الكثيرين حتى في الخمسين أو الستين . أما هو ، الباشا شكيم ، فقد تربّى صغيرا على كتمان انفعالاته . فكر فيما حدثته لميعة، وفيما يعلم قبل قدومها، مما يجري في المحافل الدولية . فلا أحد يستطيع أن ينكر أو يتجاهل قوة الفرنسيين سوى المجانين ، كذلك ماطرأ على معاهدة سايكس بيكو من تعديل . لقد كررت عليه لميعة بعد بيجيت مذكرة بأن الحكومة التي أعقبت الاتراك هاهنا ليست من الناحية القانونية بخارجة عن سلطة الانكليز والفرنسيين معا . سورية قانونيا جزء من بلاد العدو المحتلة . جيشها جزء من جيوش الحلفاء التي حررت بلاد العدو . قائد هذه الجيوش هو الذي يقضي ويمضي . هو الذي عين الحاكم العسكري بالأمس ، وهو الذي قد يعينه غداً . ماذا يعني اذن هذا الانقلاب على الحاكم العسكري والحكومة الجديدة من المديرين ؟ ماذا عنت من قبل تلك الحكومة التي أعلنت نفسها على رؤوس الأشهاد فور رحيل الأتراك ، وقبل وصول الزاحفين الى الشام من الجنوب ؟ ألم يطح بتلك الحكومة في ومضة عين فقتل واحد من رؤوسها ، وفر آخر ، وهرع الباقون الى المناصب الشاغرة في العهد الجديد ؟! لقد كان انقلابا قبل هذا الانقلاب الجديد . كان انقلابا على انقلاب أعقبه الانقلاب الأخير ، وفي غضون عام صار للشام الصغيرة ، لسورية ، ثلاثة انقلابات ، ففاقت استنبول نفسها ، والباشا شكيم يخاف من ذلك ، ليس الآن في خلوته وبين جدران غرفته وحسب . لقد المح للغارقين في الانقلابات حوله الى مايخيفه ، دعاهم الى الاتعاظ بما قادت اليه درب الانقلابات في استنبول ، ولكنه لم يجرؤ على ان يعلن مايتراءى له من بدائل لما يجري ، اذ لم تكن واضحة، كما أن أحدا ممن بيدهم الأمر لم يعد يصغي له . لم تعد كلمته في القصر مسموعة ، ولن ينفعه قدوم لميعة والمستر بيجيت ، فقد فات الأوان . أما سليم افندي وامثاله في الميدان أو في غيره من الأحياء ، فلا يقدم اصغاؤهم له ولايؤخر . بل إنّ نفسه لم تعد تصغي اليه أحيانا . ولعلها قد عاندته في ذلك أول مرة عشية الجلسة الأولى للمؤتمر السوري في مطلع الصيف . لقد بذّ أقرانه من المندفعين الذين كانوا يعدون شبان المؤتمر . لعل صوته كان أعلى الأصوات في رفض الانتداب الفرنسي ، في رفض معاهدة سايكس بيكو وتعديلاتها ، في رفض الهجرة الصهيونية الى فلسطين . كما علا صوته مع من قدموا طلب المساعدة من الولايات المتحدة الامريكية على بريطانيا . وكان شبان المؤتمر يحيونه ويهمسون :

- كنا نحسبك منهم . ماذا تركت لنا ؟

ويشيرون الى الشيوخ ، الذي قالوا له متحسرين وعاتبين :

- كنا نظنك منا . كنا نظن انك أعقلهم .

ويشيرون الى الشبان ، وينصحونه بالأناة ، فالحكمة وحدها تنقذ ماتبقى من الشام ، وعهدهم قريب بما للباشا شكيم من حكمة وروية . الا أن نفسه انطلقت غير عابئة بهم ولابه ، وما أجدى لومه لها ، أو أنْ يدلّ عليها بما أكرمها به دوما ، وهو الذي لم يحرمها يوما مما ترغب . ربما كان لايتبع اسلوب سليم أفندي أو الخواجة ثابت أو أبناء عمومته ، فلا يجاهر ولايفاخر ، بما يأتي ، لايفضح أسراره مع نفسه . لقد أذاقها ألوان النساء وصنوف الشراب والطعام . لم يلجمها عن حزن ولاعن فرح ، عن ايمان ولاحتى عن خواطر مجدفة . لم يفرض عليها صداقة ولارغبة كما لم يوفر عليها نخوة ولاكرما ولاحرصا . كانت لنفسه ، بخاصة في سفره ، فسحها الماتعة الرحيبة ، ولكنها كانت دائما طوع يديه ، كأنها الست زهرة ، كأنها المرأة التي توائمه وتليق به ، وليس فقط تمتعه أو تدور بلبّه ، فلماذا تتمرد عليه الآن ؟ لماذا تتدخل فيما لايعنيها ؟ ماشأنها بالمؤتمر وبغير المؤتمر مما تفور به حياته العامة ؟ ألم يكن مثل هذا من شأن رأسه دوما ؟ من شأن عقله وتفكيره ، لامن شأن قلبه ورغبته ؟ حتى زواج لميعة من المستر بيجيت ، ماكان لنفسه أنْ تنحشر فيه ، فتجعل الباشا شكيم حائرا ، يبتهج للعروسين ، يتخوف ، يلين أمام لميعة ، يرميها بنظرته الغاضبة الرافضة ، يهرب من حجة المستر بيجيت ، يجبه أخوته وأعمامه وأسرة حميه وسليم أفندي نفسه ، يجبه كل من يرفض هذا الزواج أو يشكك فيه ، واذ يغدو واقعا ، يفتقد فرحته الخاصة ، ولاينفعه أن يلوم نفسه بالأمس ، كما لاينفعه أن يلومها الآن ، فقد صارت تملص منه ، تفرّ من بين جدران الغرفة ، من النافذة او من الباب ، وتتحداه أن يظل قادرا على أن يقبع هناك وحده ، فيتحامل ويلحق بها ، ولكن الى أين ؟

★ ★ ★

كانت اصابعه تكاد تلامس مقبض الباب حين ميز اصابعها ، فأجفل وفتح بعنف ، وربما جاء سؤاله نهراً :

- ماذا ؟ قلت لاأريد أن يفتح الباب علي أحد . .

تنحّت منكرة جفاءه وهمست :

ـ هاأنت خارج .
ـ انا خارج .

هرب من عينيها متلعثما، وهمّ ان يتجاوزها ، فأوقفه صوتها الراجف :
ـ ارسلوا يطلبوننا جميعا . يبدو ان صحة والدي تردت جدا هذا الصباح .

واسرعت الى غرفتها فلبث مرتبكا . وكانت الخادمة والأولاد ينتظرون قرب الباب الخارجي ، فلحق بها ، ووقف نادما ، يخشى أن تكون دموعها بسبب مابدر منه . امتدت اصابعه تربت مرتعشة على كتفها، وهمس محذرا من أن تدخل على ابيها باكية ، شكا اضطرابه ، ودفعه عزوفها عنه الى ان يلح في طمأنتها مؤكداً بحنان :
ـ سوف ترين . ليست الا نكسة مما عودنا الأمير على ان ينهض منها بعافية اكبر . لنذهب وحدنا . لِمَ الأولاد والخادمة ؟

انطلقت الفورد نحو حي الأكراد، وقد أصرت الست زهرة على ذهاب الجميع . وخيم الصمت حتى دخلت السيارة الحي متباطئة . حثّت الست زهرة السائق فيما كان الباشا يهم ان يأمره بالبطء، وقد تراكض الأطفال الزاعقون خلف السيارة . امتعضت الخادمة من قذارة أطفال الحي والطريق ، فأرسل الباشا عينيه بعيدا ، يتذكر كم ألحَّ على حميه بترك هذا الحي . كان يتعجب مما يجعل حماه متمسكا بالبقاء هنا ، حيث لايليق بأمير الحج ، وإنْ تكن كبريات الأسر الكردية تؤثره على الشام كلها . همهم بما حدث به حماه مرارا من أن هذا الحي ينبغي أن يكون فقط للذين يملأونه ، منذ تدفقوا عليه لاجئين من كردستان أو سواها . كان بيت حميه شبه منعزل في نهاية الحي . وكان يحلو للباشا شكيم أنْ يقف على سطح البيت ، في بداية زواجه ، تطير نظراته وقت العصر نحو القابون وبرزة ، تتوهان في أرجاء الغوطة التي تسوّر الحي ، حتى تحطّا فوق ، قرب مقام الأربعين ، وتتطوحا على قاسيون . ولم يكن في ذلك الزمن الغضّ ليشغل باله في مقام حميه ، أينما كان . بل انه لايذكر متى صار يفكر في أن لأمير الحج ولكل الباشاوات مواطن أخرى ، وهذا الحي لأولاد الأكراد أو التركمان المتكاثرين . ولقد أيدته الست زهرة ، الا أن رأس حميه دوما أعند من الصخر . حتى في مرضه ، وهو يموت يوماً بعد يوم ، ظل عنيدا . وعلى الأطباء كما على أي كان أن يرضخوا له .

لقد أسرعوا ثلاثتهم الى الباشا قبل ان يدخل الى المريض يكررون الشكوى . كان البيت يغصّ بالأصهار والأبناء والأحفاد والدموع المكتومة والزفرات وشبح الموت المقيم .

هرب الباشا شكيم من شكوى الأطباء ونظرات الجميع الى غرفة حميه الذي رفض من الصباح أن يتناول أي دواء آخر . كان حيا وميتا في آن . انه يريد أن يودع الجميع قبل أن تحل صلاة الجمعة . وقد جاء الجميع ، ولكنه لم يسمح لأحد بعد في الدخول . حتى الأطباء لم يعد يسمح لهم بالدخول . وهاهو ذا ينكر على الباشا ان يقتحم الغرفة، ويشير بعينيه الزائغتين آمراً بالخروج . خرج الباشا مطأطئا وانتحى زاوية قصيّة . غاص في المقعد الوثير، وتمنى أنْ يدعه هؤلاء الذين حوله وشأنه . حاول أن يطوف في وجوههم فألواه ذهولهم . فكر أنّ للخطر الجاثم محاسنه أيضا ، فهو الذي يصنع هذه الرهبة . تمنى أنْ لايتفاقم الخطر ويودي بحميه اليوم أو غدا . ليس هذا بالوقت المناسب لموته . على المرء حين يموت أنْ لايكون ثمة خلفه أي أمر عالق . عليه خاصة أنْ يكون قد ودع آخر ماينغص علاقاته بالناس قبل نفسه . ولئن كان لمن يباغته الموت عذر ، فليس لمن يمد الله له بالعمر ، ويمد الموت له بالنذير ، أي عذر . ليس للأمير أي عذر . ولو أنه كان أقل عنادا ، لو كان قد اصغى قليلا للباشا شكيم في أية أزمة واجه ، لما وصل في نهاية الأمر الى ماوصل اليه . حتى امارة الحج ، ربما لم تكن ضاعت منه ومن أسرته بعده .

هدأت الأصوات والصدور حوله ، فاستحسن من الخطر الجائم أن يوفر له هذا الصمت المهيب . طاف بالوجوه في خلسة منها ، وتمعن في الست زهرة التي جللها الحزن والاستسلام . فكر في أن الأمير لن يكون قد كتب وصيته ووزع ارثه حتى الآن ، وليس ثمة من يجرؤ على ان يفاتحه في ذلك . أشاح كأن الأمر لايعنيه ، وتمنى ان لاتكون المريجانة من نصيب الست زهرة . ودّ لو يقدر على أن يحدثها بذلك الآن . أشفق عليها وعلى الوجوه الوارثة جميعا مما يكون المورث قد خبأ لهم . أنكر بجرأة أعلى من أي وقت مضى طمع حميه . وشك فيما وطن عليه نفسه دوما من التسليم بطمع وورع الأمير . كيف يمكن أن يوفق المرء بين كل هذا الطمع وكل هذا الورع ؟ لم تعرف مواسم الحج مثل إمارة حميه كما يردد الجميع حتى اليوم . ولكن الامير كان مضرب المثل . لم يوفر حيلة من أجل امتلاك الأرض في كل مكان وصلت اليه يده . كان الباشا شكيم يعارض حماه في استغلال منصب الامارة ليسجل أرضا هنا وأرضا هناك باسمه ، من الغوطة الى الجولان الى حوران . كان يعارضه في فرض الشروط القاسية على الفلاحين . وهاهو يهجس متسائلا عما سيبقى للفلاح بعد ان يدفع للامير أو لأي مالك أربعين في المائة من محصوله ؟ لقد صدقت مخاوف الباشا شكيم . فاذا كان الفلاحون الذين جاء بهم حموه من الساحل والجبال المحيطة به قد انصاعوا ، فلأنهم غرباء ، ضعفاء ، مهاجرون أو

مهجّرون ، ليسوا مثل هؤلاء المتحدرين من بدو البقارة أو الرولة أو ولد علي . واذا كان الجميع يطأطئون حينا لمن يقود الحجيج الشامي كله الى بيت الله الحرام ، فمن المحال أن يظلوا يطأطئون الى أبد الدهر . ليست وحدها الكتب التي قرأها الباشا شكيم عن الأمم الأخرى علمته ذلك . ليست النار التي اندلعت في روسيا منذ عدة أعوام ولازالت أشد اندلاعا ، بل الغوطة نفسها قد علمت . ولعل ذلك كان سببا قويا فيما نهج عليه مع الفلاحين في الحرزة . أما حموه فقد كان دوما على النقيض . وقد اضطر الباشا شكيم مرارا بعد ضياع امارة الحج من حميه الى أن يسانده مكرها ، في خلافاته مع الآخرين ، منذ بدأ يزاحم الأسر الكردية التي سبقته الى سفوح جبل الشيخ ، الى أن جاء بالفلاحين الشراكسة الى مرج السلطان ، الى أن جاء بالفلاحين المغاربة الذي يعدّون صوت المرأة عورة . ولئن نجا الأمير هذه المرة من الموت ، فقد لايكون ماوقع في المريجانةبالأمس آخر مرة يضطر فيها الباشا شكيم الى المساندة على مضض .

كان الأمير ، قبل أن تولي عنه الامارة أو بعد أن ولت ، يؤثر الفلاحين الأغراب . مرة يأتي بالشراكسة الذين فروا من القفقاس ، مرّة يأتي بالعلويين من الساحل أو الجبال ، وفي كل مرة ينأى عن العربْ والأكراد ماأمكن . كان الباشا كبير العجب دوما من حميه الذي لايني يستصلح الأرض ، يشتريها ، يرهنها ، يبني فيها الاصطبلات ، يغرس الحور ، يشق السواقي ، ويظل حاضرا فيها أينما كانت ، وهو في مكة أو في استنبول . كان الباشا في بداية زواجه يرى حماه أجدر بأن يتفرغ للارض مادام ولوعا بها ، صابرا عليها ، منصرفا اليها . ثم صار يلح على الست زهرة وعلى حميه كي يتفرغ لمنصبه الرفيع ، ويدع لسواه ماتتسبب به الأرض من رهق ولغط وصلات غير لائقة مع الفلاحين أو الوكلاء أو المخاتير او العسكر أو البدو أو المنافسين . كان الباشا مستعدا لأن يتولّى يومذاك ادارة أملاك حميه ، كما يدير أملاكه وحصة الست لميعة . ولو قيض له ذلك لعهد بكل شيء الى سليم أفندي البسمة . ولكن من يستطيع ان يثني حماه عن رأي أو يقنعه برأي ؟ كم كلف الباشا شكيم نفسه كيلا تتفاقم الأمور في المريجانة ! كان عسيرا عليه أن يتدخل هنا وهناك حتى ينصر حماه ، في هذه الأيام الدقيقة التي يحسب فيها الحساب لكل حركة . تراه كان ينوي حقا ألا يتدخل لولا غياب سليم أفندي وإلحاح الست زهرة التي تعللت بخوفها من أن تقضي الهزيمة على أبيها ، ورأفتها عليه أن يموت مقهورا ؟ لقد عاهد الباشا شكيم نفسه ألا يعيد ماأتى مهما يكن . وهاهو يخشى ان يجعله الموت وحده يصدق في عهده ، ويلتفت فزعا نحو الخادم الذي نادى على أحد الأطباء بأمر الأمير ، وينتظر

فزعا خروج الطبيب الذي يشير اليه كي يدخل ، فيسرع هربا من هاته العيون ، ويقف في فرجة الباب الموارب خائفاً .

كان الأمير متكئا ينتزع الابتسامة ، والست زهرة جالسة على السرير تكفكف دموعها . أشارت سبابة الأمير اليه كي يغلق الباب ويقترب ، فعل وهو مازال يتعجب من دخول زوجته في غفلة منه ، وأنصت الى حميه بصعوبة :

ـ لاتجعل سهل البطيحة ينسيك المريجانة .

تمنى الباشا لو تشرح له الست زهرة ، أو يقدر الأمير على أن يوضح مرماه .

ـ المهم صحتك . لاتشغل بالك بشيء .

قال الباشا وهو يزجر دموع الست زهرة وربكة نفسه ، وتهدج صوت الأمير :

ـ لاتنسي كلامي يازهرة . ذكّري الباشا دائما .

تراءى للباشا أن سهل البطيحة هو ماأوصى به الأمير لابنته الكبرى ، ولكنه يريد أن يطمئن على المريجانة . اطمأن الباشا لأن الأمير بدأ يوزع إرثه ، وتمنى لو ينقل البشرى الى الذين في الخارج ، وقد زادته طمأنينة اشارة الأمير وهمسته :

ـ يسرني أن تكونوا دائماً هكذا حولي ، ولكن هيا ، عودوا الى بيوتكم . لاأريد أن أراكم هكذا تنتظرون . تكفيني رؤيتكم كل يوم أو يومين حتى نرى ماقدر الله . .

أفسح الباشا للست زهرة ، وحاصرتها العيون ، فيما كان الخادم يشير الى الابن الاكبر للأمير ، وزها الباشا لأن حماه قدمه على الجميع ، وود لو يسرع بالخروج ، فهمس لزوجته مستحثاً ، لكنها هزت رأسها وتمتمت حائرة :

ـ اذهب أنت . سأبقى قريبة منه . اترك الأولاد معي أيضا إنْ كنت ترغب في الخروج ، ولكن لاتطل الغيبة .

★ ★ ★

مشى متمهلاً يتملى من السقف والجدران والنوافذ ، راثياً للمكان الذي كان لدهر بطوله يعج بالأصدقاء، يشربون القهوة والدخان والنرجيلة في المجلس اليومي لحميه ، يتبادلون الأخبار والنكات حتى الظهر ، ثم ينتقل أغلبهم خلف الأمير الى الجّواني ، حيث المائدة اليومية العامرة التي ترحب بكل من حولها ، مدعواً كان أم بلا دعوة . كان البراني

خالياً الآن ، مثله حين كان يغيب الأمير عن الشام ، ولعله لن يعود عامراً ، مادام صاحبه قد بدأ يوزع إرثه ، فليس من أحد يدرك مدى اقتراب الموت ـ كما يفكر الباشا ـ مثل المرء نفسه .

أسرع الى الفورد متعجلاً السائق ، يدعو لحميه بالشفاء وينشد له الرحمة . وراحت السيارة تتأرجح به وتتقاذفه ، فنهر السائق، ولعن في سره هذه الطرقات وهذه الحكومة التي تزداد لهواً عن كل ماينفع الناس . حنّ الى حلمه القديم المنسيّ في أن تكون له واحدة من تلك السيارات الصغيرة التي يحلو له أن يغفو على هدهدتها ، وهي تمرق في شوارع برلين . سيارة يقودها بنفسه دون حرج ، ولايكون عليه أن يدعها دوماً للسائق . ربما كانت صحبة هذا السائق ضرورية مثل صحبة عبدالودود العربجي ، ولكن مايمقت الباشا ليس بذلك . بل أنْ يكون عليه أن يرضخ هنا لأمر قاطع مثل هذا الأمر . وثمة دوماً في الشام مايرضخ المرء ، مايكرهه على غير مايحب . هل يستطيع الباشا شكيم أن يتوجه هذا المساء مثلا الى سينما باتيه ؟ هل يمكنه أن يتفرج على الفرقة الموسيقية التي تعزف أمام السينما لتحث الناس على الدخول ؟ لماذا ليس للمرء أن يتحامق مرة في السنة أو مرة في العمر ، جهاراً كما يرغب ؟

كانت الفورد تقترب من المرجة حائرة ، قبل أن ينتبه الباشا ويأمر السائق بالتوجه الى الجبل . تعجب السائق من أن الباشا لن ينزل في البيت ، لكن الباشا لم يسمع همهمة السائق . كانت عيناه تعبران بجانبي الحي ، تسائلانه عن عزمه على مغادرة هذا الحي ، فيهز الرأس مؤكداً أنه لن يشيخ أو يموت هاهنا . ولسوف يقدر يوماً على أن يقنع الست زهرة بالانتقال الى واحد من تلك الأحياء الجديدة التي بدأت تقوم خارج السور . سوف يترك البيت للميعة ، ولاريب أن المستر بيجيت سوف يسعد بذلك . ولميعة سوف تشكره ، ليس لأن البيت سيزيد من غناها أو يجعل حصتها من الإرث أكبر . إنه أدرى بها وبهذا المستر الذي لايفتأ يتغنى كلما زار الباشا بعراقة وروعة هذا الصرح الشرقي . بل إن المستر بيجيت هتف في زيارته الأخيرة وهو يتوجه نحو مائدة العشاء :

ـ ينبغي أن يتحول هذا البيت الى متحف . .

همهم الباشا واعداً المستر بيجيت ولميعة بغمر من المتاحف . بيت حميه هو الآخر يصلح متحفاً . بيوت جمّة في الشام تصلح، بل ينبغي أن تكون متاحف ، يتقاطر إليها

الزوار كما يحدث في برلين أو لندن أو باريس . ولئن كان سوى الباشا شكيم يتعفّن في البيوت والمتاحف ، لايعرف مايفعل الا أن يموت فيها ويتركها تموت ، فهو وحده يعرف كيف يجعل العفن بهاءً ، مثل أيّ أوروبي ، يخلف وراءه قديمه ، ويصنع جديده . هكذا سوف يترك الباشا شكيم البيت شاهداً على قرن بكامله . سوف يكون أول من يفعل في الشام ذلك ، ويشيد بيتاً جديداً ، ليشهد على قرن آخر . وسوف يقدر المستر بيجيت صنيع الباشا . سوف تزيد العرى التي تصلهما وثوقاً ، خاصة بعد أن تم الزواج الصعب ، بل الزواج المستحيل ، لولا أن ضحى الباشا بما قد لايقدره أحد اليوم ، ولكنهم سوف يفعلون ذات يوم .

كانت السيارة تصعد به نحو القصر الذي لم يعد يزوره الا لماماً . بل إنه لم يزره منذ عادت لميعة آخر مرة إلا برفقة المستر بيجيت . هزّ رأسه ممتناً لصهره الانكليزي الذي مكنه من أن يرفع رأسه عالياً من جديد في القصر . امتنّ لشقيقته ، ليس لأنها قد جاءته بصهر يسانده في مثل هذا الوقت ، بل لأنها هي أيضا قد فعلت بزوبعتها التي لم تهدأ بعد . تحسّر على السفر الوشيك لصهره وشقيقته . وتمنى لو أن لميعة وحدها على الأقل تتريث، وتتابع حملتها من أجل أن يكون للمرأة حقها في الانتخاب . حملة لميعة رفعت رأس الباشا شكيم أيضاً عالياً في القصر . وربما كان ذلك ماهمه مما نشرت شقيقته في الجريدة . كما قد يكون ماهمه من دعوتها لتأسيس جمعية للنساء ، أن ذلك يقرب الشام من الدنيا التي ذهبت لميعة أبعد منه في الانتساب اليها . كان يصغي الى حديث أخته وزوجته في ذلك كله ، يود لو أن الست زهرة تستجيب ، وتتابع ماسوف ينقطع بسفر لميعة ، ليس من أجل ان تدلي أي منهما عاجلاً أم آجلاً بصوتها في انتخاب ما ، بل ليرى ماذا سيفعل أولاء الذين لايفوته لغطهم ، وقد كانت نساؤهم بالأمس القريب يهرعن الى جمال باشا ليبارك لهن جمعيتهن ، ويثني على أكياس السكاكر التي أعددنها لجرحاه العائدين من فلسطين . حموه نفسه حثه على أن يترك زهرة تساهم في تلك الجمعية ، لكن الباشا تجاهل ، والست زهرة نفسها لم تأبه . أما الآن فالأمر يهمه، وأسبابه لذلك شتى ، لكن الست زهرة هي هي ، حتى موت أبيها الوشيك إنما يهزّها بحسبان .

قرب القصر هدرت الفورد أعلى ، أو هكذا هيأت له أذناه . ألفت السائق انتباهه الى سيارة واقفة أمام القصر . دهش لوجود امرأة في السيارة ، خلف السائق ، ترتدي قبعة، ولعلها كانت تخاطب الحارس الشامخ أمام المحرس بخوذته. تلامعت الحربة في رأس الخوذة وتلامع سواد الحارس . ود لو أن الفورد تقف كي يتبين من تكون السيدة .

تذكر قبعة لميعة في لندن، وأشفق عليها من توبيخه لها يومذاك . فكر لو أن اليوم لم يكن يوم الجمعة ، لكان رواد القصر يأكلون بعيونهم الآن هذه السيدة . كان لعاب العجائز منهم ، وما أكثرهم ، سيسيل ، فكيف بالشبان ؟

اختفت السيدة والقصر وتابعت الفورد صعودها وهديرها ، أرخى الباشا ظهره على المسند ، وأغمض عينيه ، فتراءت له سبيله الذاهبة صعداً دوماً ، وترجّع صوته في أذنه أعلى فأعلى . لاحت له صورة حميه في سبيل آخر ، مستو فمنحدر ، أقل استواءً فأكثر انحداراً . سبيل مسدود هو ، أعلنت نهايته قبل المرض أو الموت . تكاثرت في مخيلته السبل وتشابكت، حتى كاد أن يتوه ، ولم يعد له من مفرّ كيما يمارس مالم يرغب دوماً في أن يمارسه . تناهى اليه صوت لميعة وصوت المستر بيجيت يحثانه ، فلا بد لمن كان مثله من أن يدرأ المؤامرات ويحيكها معاً . تنهد تنهيدة العارف الواثق والمتعفف . زفر زفرة المكره ، وأنكر أن يكون ما مارس أحياناً من أساليب شتى في إبرام الصفقات الكبيرة ، مؤامرة أيضاً . فالباشا شكيم لم يلجأ يوماً الى الكيد والنم والدسائس . لم يعرف الغيرة والحسد والتكالب . لقد خبر رائحة التآمر في استنبول ، وفي قصر الوالي هنا ، لكنه عرف دوماً كيف يتحاشاها ، حتى يوثق أو يقطع علاقاته مع رجال السلطان أو معارضيه من الشام الى برلين . تنهّد أعمق يسأل الله أن يحميه من التلوث بتلك الرائحة . زفر زفرة أطول يرثي للذين يتناحرون الآن في القصر وفي أرجاء الشام . فئة تحاول أن تبعد أي فلسطيني عن إدارة الحكومة ، وفئة تحاول أن تبعد أي عراقي . حتى سليم أفندي صار يهمس أمام الباشا :

ـ على هؤلاء ان يتوجهوا الى بغداد ويحكموا فيها وليس في الشام ، وعلى اولئك ان يتوجهوا الى القدس ويحكموا فيها ، وليس في الشام .

أشفق على نفسه من سذاجتها وبراءتها، حين حسبت إبان رحيل الأتراك أن سبيلها الصاعدة قد تيسّرت . كم كان مخطئاً فيما قدر ! لقد شكا للست زهرة غير مرة . وكانت تتعلل له بأنه لم يكن في ذلك الزمن مثله في هذا الزمن . حلاله أن يأخذ بما قالت ويخدّر وساوسه . كان يرفض الوظائف السامية التي تسعى اليه . حتى عندما جاءه منصب المكتوبجي اعتذر . سواه يتهافتون ، وهو يدرك أن ما اعتذر عنه ليس أقلّ من منصب وزير الداخلية في أية دولة زارها . كان أشبه بالضيف في كل مكان ، لايثقل ظله حتى في بيته . لم يكن أحد يشتمّ منه رائحة المنافسة . ولعل دوائر اللعب كانت أرحب . الدوائر تضيق اليوم على اللاعبين في هذه الشام الصغيرة . الدوائر تضيق في سورية كما تقول

لميعة ، وهو يضيق بنفسه معها . ولئن كان الخروج بسورية من ضيقها أكبر منه ، فليخرج بنفسه على الأقل ، مادام الآن وحيداً ، أمام هذا المدى الرحيب .

★ ★ ★

أفاق من هتاف أعماقه على وقفة الفورد ، وأشار الى السائق ليدور بها ويقف بعيداً ، ثم مشى نحو الوادي . ترامت الحواكير المتدرجة والخضرة الأزلية أمام نفسه المشبوبة . هفا الى الذين يتنزهون هاهنا في غير هذا الوقت الذي اختاره ، أو سيق اليه . تغلغلت عيناه تبحثان عن القراصيا، وتحلّب ريقه للذعتها الحامضة. من هنا كان يختار بنفسه مايرسل منها الى السلطان . كان يعلبها بنفسه، والست زهرة تتفرج مذهولة . كان يؤثر أن يرسل العلب التي تبدو كأنها قادمة من باريس على البغال ، فتكتمل اللمسة الخاصة بهدية الباشا شكيم : علبة أوروبية على ظهر بغل ، والسلطان يروي معجباً لمن حوله في كل سهرة حضرها الباشا ، بمفرده أو بصحبة زوجته . أين هو السلطان اليوم ؟ تساءل مشفقاً ، لاشامتاً ، وراح يدقق في الأفق ، فإذا بنقطة ضائعة تتماثل سلطاناً أو سلاطين ، وهو يحني ظهره ويتراجع ، لايدير ظهره حتى يتجاوز الباب . ولاريب أن الست زهرة كانت تفعل مثله وهي تودع زوجة السلطان ، فيما فساتين البروكار تلون الصالة الفسيحة ، وذيول الطواويس تنسحب رفيقة على المرمر . كانت النساء تبدو كالطواويس ، والرجال أيضا ، الا السلطان والباشا . لكن السلطان نقطة ضائعة هناك ، والباشا نقطة حاضرة هنا ، واحد في نهاية الأفق ، وواحد في بدايته . واحد ولّى ، يذروه هذا النسيم ، وواحد سوف يأتي ، ينفخ الروح في كيانه هذا النسيم . ربما كانا معاً ذات يوم ، ولكن مااختار كل منهما، وما أتى، جعلهما الآن كذلك . كان الباشا واثقاً من أن السلطان سوف يؤول هذا المآل . كان يهمس وهو ساج على ذراع الست زهرة : لقد نجا السلطان من القنبلة الأرمنية ، ولكنه لم ينج من ضباطه .

كان الباشا عائداً لتوّه من حلب، حيث أصمّت أذنيه زغاريد المسيحيين ورصاص الأرمن المبتهجين، وألوت ببصره العربات المتبرجة بصور الضباط الذين قادوا الانقلاب . كان زغب الذراع البض يرعشه كأنه في البلاط ، يسبح في مدى الصدور الحليبية ، يتسلل تحت الأكمام السابغة ، يغوص في المشدات التي تجعل للأوراك سراً آسراً ، ويملص مما يصادف من عيون الرجال جميعاً ، الا السلطان الذي يعول عليه وحده، كي يحزر له ما إنْ كانت تلك المرأة تضع مشداً من الحديد أم من عظام الحيتان ، والباشا

شكيم يهمّ أن يحزر ، لولا أن عيني الست زهرة تضبطانه ، تذكرانه أنّه لم يعد ذلك الشاب الفاتن ، فيتلمس جلدة يديه ووجهه ، ويفرّ من التجاعيد الى شعره الأملس ، ثم يفرّ من الشيب الى ذلك الهتاف الرخيم الطالع من الوادي : لاتبتئس . سوف يبقى فيك دوماً من الغرارة مايبقى ، فأنت الباشا شكيم . ويستروح في الهتاف نشوة ما انقضى ، فيقعي حذراً على التراب ، يهدهد نفسه ويغمض جفنيه ، ينزع الطربوش ويستسلم لما يطير به بعيداً .

إنه الآن فتى يركب عربة طويلة مع عدد ممن يكبرونه سناً ، امّحت معالمهم واختلطت أصواتهم وهم يخترقون الوادي ، تلعن وتترحم على كيوان الذي اغتصب أو لم يغتصب كل هذه البساتين بين المزة والربوة . كان يركب الديلجانس لأول مرة بعد وفاة أبيه ، وعلى الرغم من الغرارة فقد فكر طويلا في أن والده قد أحسن إذْ مات على التخم الفاصل بين القرن الماضي وبين هذا القرن . بدا له والده إذْ مات علامة على قرنه ، تفسح لعلامته الغضة على قرنه هو . وقد عاودته الفكرة مراراً ، خاصة حين كانت الست زهرة تنجب له ولداً ، أو تعصف بالشام عاصفة .

يومين كان يقضي على الطريق من هذا الوادي الى بيروت . كان يتمنى لو أن الحوذي يفسح له بجواره ، ليقود الخيول الستة أسرع ، دون أن يستبدلها من محطة الى محطة . ترى ، ماذا يفعل الباشا شكيم الآن سوى أنه يسعى كي يكون حوذياً ؟ أليست هذه البلاد التي يرغب في أن يقودها مثل تلك العربة أو تلك الخيول ؟ ماذا يفعل الملوك والسلاطين والرؤساء سوى أنهم يبدلون خيول العربة ، في محطات الاستراحة أو في سواها ؟ هل يصلح الباشا شكيم حقاً لأمر كهذا ؟ إنه يخشى أن يجيب على السؤال الذي يصدعه ، ولعلها خشية قديمة مستكنّة . لعلها بدأت حين ركب الديلجانس وراقب الحوذيّ لآخر مرة ، فقد اختار في سفرته التالية مايليق بالباشا . ركب عربة خاصة مع حميه والست زهرة ولميعة ، وقطعوا الوادي مبكرين ، ووصلوا الى بيروت قبل المغيب . تشاغل عن الحوذيّ والخيول ، ولعله منذ تلك السفرة قد أخذ يتشاغل عن عربته الخاصة وعبد الودود . لعله بسبب ذلك عجّل في اقتناء الفورد التي صارت تحمله كالطير من مكان الى مكان . كانت الفورد مثله أكثر فتوة ، ولكن إنْ كانت اليوم لاتستطيع أن تجدد عزمها ، فالباشا شكيم قادر . الباشا شكيم ليس حديداً يجعر في هذه الطريق الصاعدة ، بل كائنا من تلك الكائنات الجميلة المغوية الرشيقة التي تطير ملء الوادي ، تسبح في

الفضاء الأزرق ، تحمل روحه وألوان عمره على أجنحتها ، تجعله نثاراً متوهجاً في حضرة الشمس الساطعة ، فيهب واقفاً ، ويرفرف ، يتعالى فوق المطلّ ، يطوح فوق الحواكير ، ينطلق رضياً الى الزبداني ، ينزل من القطار ثم يركب الحمار صعداً أيضا الى بلودان . يحثّ الحمار بالغصن الذي خصه به سليم أفندي البسمة . يضايقه السرج ، يلهيه لغط أصحابه ، يسابقهم إلى ذلك البيت الصغير البسيط ، يهرع الى نهاية البستان ، حيث ألواح القصدير الثلاثة تحجبه عن العيون ، يبول دون أن يرخي الستارة ، يتساءل إنْ كانت برلين لم تعرف مثل هذا المرحاض ذات يوم . يعود إلى أصحابه وقد فرشوا أمامهم الزوادة . يقبل نهماً على الكفتة ، البطاطا ، حبات الزيتون ، يردع سليم أفندي حتى لايأتي على العنب وحده ، يغافله سليم ويغافله الآخرون ويختفي العنب . يقهقهون كلما زاد من لومهم حتى يجعلوه يقهقه مثلهم . كذلك كان سواهم يفعل به في بيروت أول عهده بها ، خاصة حين يغرق في اللواتي يرقصن آخر الليل شبه عاريات . كانت بلودان في الصيف ، وبيروت في الشتاء . مرة ذلك البيت المسقوف بالأغصان والحرادين ، ومرة ذلك المطعم الفرنسي العريق الذي يفور بالفنانات الروسيات والفرنسيات ، يمرقن من حضنه ومن عينيه ، أدق ملاسة وأكثر تلوياً ونحولاً من الحرادين ، والخواجة ثابت وسائر الأصحاب يغافلونه، فيخفون كأسه ، ويدفعون احدى الراقصات اليه بكأسها تغنج وتغمغم :

ـ اشرب ياباشا . .

ثم تطير ، وهو يطير ، خلف فاتنة يطير ، خلف كأس يطير ، على عربة أو قطار أو حمار أو فورد يطير ، عبر الأمداء كلها يطير ، وطرابيشه مثله تطير ، تنفلت من علبتها الكرتونية التي تلازمه في أسفاره وتطير ، واحد منها يحط في استنبول بعد ان أطاح الانقلاب بالسلطان . يتقرى الطربوش في جمعية التفريق والتدني ، لا الاتحاد والترقي ، طربوش ثان يتقرى مايحاول السلطان ومن بقي من رجاله أن يفعلوا . يتقرى فيما يفعل حموه . يتيقن أن لن يجدي حزب محمدي ولاجمعية محمدية ولادعاء أبي الهدى الصيادي ولا . . وطربوش ثالث يحط هاهنا ، على هذا المطلّ ، أو ثمة في البيت ، يحط في الشام ، يلقي بالسلام ، تتصافح الأيدي ، ويضع الطربوش الأصبع الوسط والشاهد على هذا الذراع وذلك الذراع ، يلفظ حرف الهاء ، يرد صوت باللام ، يلفظ حرف الألف ، يرد الآخر باللام أيضا ، هلال هو إذن ، والأمان هو إذن ، والطربوش مع صاحب له في الجمعية التي حمل اليه حاتم أبو راسين من أوراقها ، لكن طربوشاً رابعاً أو خامساً أو سادساً من

طرابيش الباشا المتطايرة لايلبث أن ينضوي في جمعية أخرى ، يردد القسم متهيبا : أقسم بالله العظيم ، وبشرفي ، أن أعمل للنهوض بالأمة العربية ، وأبذل كل جهدي لجعلها في مصاف الأمم الحية الراقية ، وأضحي بروحي ومالي في هذا السبيل ، وأكتم أسرار الجمعية وأطيع أوامر هيئتها المركزية وقراراتها ولو كانت ضد رأيي ، ويكون دمي هدراً إنْ خالفتها ، والله على ماأقوله شهيد . ويدور الطربوش الأخير فوق رأس الباشا ، فهو وحده جدير بأن يظلله . هو الذي أقسم وهو الذي وفى . وهاقد أسست الجمعية بعد النصر حزبها ، وللباشا أن يكون في الصدارة بعد صمت السنين وعناء السنين ، فقط لو أنهم يعلمون . لكن الباشا زاهد وعفيف . الآخرون يتباهون بما فعلوا ذات يوم، ومالم يفعلوه، من أجل مثل هذا اليوم . حتى سليم أفندي يتباهى . وربما كان حاتم أبو راسين يتباهى . الباشا شكيم زاهد وعفيف . ربما كان من قبل حذراً ، خائفاً ، ربما كان حاقداً . بيد أنه كان على الدوام ، قبل النصر وبعده ، سخياً وصامتاً ، يمقت الادعاء ويتأبى على الفتات . ولن يبدل الباشا عهده مهما تلوث به سبيله ، حتى إنْ حل الفرنسيون محل الأتراك . حتى إنْ اضطر أن يطير من جديد الى برلين كما كان يطير ، يطبع المناشير ويجعلها تطير ، ينفخ في النيران من قريب أو بعيد ، متلطياً أو في وضح النهار ، مكوياً بالنيران التي لاتكاد تنطفىء في الشام ولاتترك نفسا تهدأ . لكن الباشا شكيم رغم ذلك يعود الى جلسته فوق تراب المطلّ ، تنتظم أنفاسه وهو يلملم طرابيشه ويودعها في العلبة الكرتونية الفاخرة ، يداريها من الشر الذي يتناثر في انطاكية أو حارم ، في تلكلخ أو الجولان ، في جبال العلويين وبين البدو ، يطمئن ويبتهج بالشرر الذي يتناثر الآن حوله ، من حي الى حي في الشام ، فوق الناس المتدافعين ضد الفرنسيين ، فوق القصر وأبهاء الاوتيلات والبيوت ـ المتاحف ، فوق التجمعات والتكتلات التي تتوالد وتتناحر ، وكل منها ينادي الباشا شكيم إليه .

كانت أفواج المتنزهين قد أخذت تفد ، وأخذ صياحهم يشوش عليه هدأته ، يذكره بالعصر الذي حل وهو لم يتناول الغداء بعد ، فنهض بأناة ، وسار نحو السيارة . أيقظ السائق الغافي على يسارها فوق التراب، وتمنى ألّا تكون الست زهرة قد عادت ، وألا يكون حموه قد قضى .

صخبت الفورد وراحت تنحدر سريعاً . طلع القصر من جديد فأشاح الباشا عنه . لم يعد القصر ومضة الحلم التي التمعت في الحنايا . فصاحب القصر يقضي جلّ وقته بين باريس ولندن ، ولميعة نفسها لاتخفي شكها في ألّا يكون حظّه في الشام أوفر من حظ

أبيه في مكة . كانت لميعة تتمتم ، وهو يخاتل شكها في سره ، ضنيناً بالحلم الذي انبثق هذه المرة من مكة نفسها . لكن الحلم يتبدد ، والومضة تنطفيء ، لا ، لم يطلع للعرب أخيراً من يقودهم كما توهم . لم يطلع قمر الجزيرة العربية بعد ، ومن هناك ، الى هنا ، الى مصر أيضاً ، تنطفيء الومضة تلو الومضة ، فهل يكون هذا الأوان أوان الومضات الخلّبية ، والحظوظ الخاسرة ؟

كان الباشا راغباً في أن يتابع سؤاله الجديد ، لولا أن الفورد وقفت أمام البيت ، والسائق هرع ليفتح له الباب، وينتظر بأدب جم وصبر فارغ ، وأوشك جذع الباشا أن يظهر من الباب ، إلا أن لسانه أمر السائق بكلال :

ـ انظر إذا كانوا عادوا من عند الأمير .

وأمسكت كفه بمقبض الباب المفتوح ، ولبث ينتظر متحاشياً من كان يعبر قريبا من السيّارة .

★ ★ ★

22

لم يطل انزواء هشام الساجي في بيته إثر ماعدّه مشاركته الممكنة في الأيام الحاسمة للشام ، حين خرج منها الأتراك ، وقامت فيها حكومة الأمير الجزائري ، ثم حكومة الأمير الحجازي ، وتم تقطيعها لأول مرة الى ثلاث قطع .

لم يكن لغط الشام خارج البيت وحده ماجعل الانزواء هذه المرة قصيراً ، بل لغط دخيلة هشام، على الرغم من أنه كان منذ شهور ـ وأحياناً يؤكد منذ سنين ـ ينتظر واثقاً من قدوم تلك الأيام الحاسمة ، بشكل أو بآخر .

كان الأسلوب الذي اختاره لحياته منذ غادر المدرسة قميناً بأن يوفر له مثل تلك الرؤية ، لا النبوءة ، فهشام يمقت أن يدعي أحد هذه الكلمة ولو على سبيل المجاز .

المواظبة على القراءة ، والتبصّر فيما يسمع ويعاين ، كان أول ملمح من ذلك الاسلوب . ومن أجلهما كان لابد من الانزواء ولو لحين . ولعل هذا الملمح وحده لم يتبدل ، في العهد الجديد للشام .

الانتقال من عمل الى عمل ، وإنْ جرّ الى تبديل المكان تلو المكان ، كان ملمحاً آخر ، لكنه وطّن نفسه منذ الصيف الأخير للحرب وللأتراك في الشام على طيّه . وقد كانت حصته من الإرث كفيلة منذ البداية بذلك ، خاصة أن أعباء عيشه الهيّن لم تكن كبيرة . فهشام ليس مقتراً ولامبذراً . يكفيه أنه يجد طعاماً ولباساً وكتباً وصحفاً، وماتقتضيه متعه المحدودة، عندما تلح نفسه عليه . ولئن كان تندّر ذويه بذلك قد ضايقه أول نشأته ، فقد بات يسعده أن يضربوا المثل به ، بعدما اكتوت الشام بالغلاء ، وأتت مباذل العديدين على جلّ مايملكون .

لو أن الموت لم يتعجل والده قبل أن يبلغ الستين ، لكان واحداً ممن يتصدرون الشام ، مثل رضا بك الزرب ، أو عارف بك ، أو الباشا شكيم ، أو سليم أفندي البسمة ، على الرغم من أن الأخرين كانا من جيل أصغر ، من جيل هشام نفسه ،

وماهمت السنوات المعدودة الأقل أو الأكثر . وقد كان تحصيل والده من المعارف ، دون مدرسة أو كلية ، رصيده الأكبر الذي فرضه بين المتصدرين السابقين ، فضلاً عن نسبه الديني العتيد، وعن البيوت والدكاكين التي يتوزعها ابناؤه وبناته حول جامع الدقاق، وازدهرت بعد وفاته غير آبهة بالحرب . أما هشام فقد قرر ألا يعمل في التجارة ، وألا يرهق نفسه من أجل بيت أفضل . بل اختار على نحو ما سبيل المرحوم : الانزواء بحسبان ، والانخراط بين الناس بحسبان ، من دائرته الأدنى حول جامع الدقاق الى بيت الوالي، لامكتبه وحسب . كذلك الانكباب على الكتاب ، تقليب الأمر على وجوهه ، التدقيق فيه، العفّة والأنفة ، الود العميق ، الخصومة الواضحة . . .

ولعل أولاد المرحوم كانوا يقرأون ذلك في جبين شقيقهم الأصغر ، فآثروه بخزانة الكتب والأشياء الرمزية الأخرى للمرحوم ، وحين توفيت الأم بعد شهور ، آثروه أيضا ببعض أشيائها وهو العازب الوحيد بينهم ، والعازف عن الزواج ، كما كانوا يتندرون ولازالوا .

أوكل هشام الدكان الذي ورثه الى عارف بك ، بعد أن عرضه على إخوته وأصهاره ، فنصحوه بذلك ، تحاشياً لما يمكن أن يكون ذات يوم مما يربك القربى ، وحرصاً على توفير ربح أكبر ، مادام عارف بك أمهر وأقدر . وقد قدر هشام لذويه صواب مارأوا ، بعدما عاين عديدين حوله ممن فرقهم الارث ، وأولهم سليم أفندي وأخواته وأصهاره ، كذلك بعدما أمّنه عارف بك من الحاجة، حين كان يعزف عن عمل ، ويقضي شهوراً أو أسابيع في البيت ، قبل أن يدبر عملاً جديداً .

كان آخر عهده بالعمل محصلاً لضريبة الأعشار في حماة . بالأحرى كانت غلطته الأولى ـ والأخيرة كما يجزم ـ في اختيار عمل . ولكن هل هو من اختار هذه المرة ، أم أن العمل قد اختاره ؟ كذلك ظل يتساءل في انزوائه الأول بعد أن ترك حماة وتحصيل الضريبة ، وهو يداور على ضعف نفسه التي انقادت خلف ثرثرة رضا بك الزرب ، وقد ضاقت بالشام، وبالبطالة لشهور، إثر انسحابه الصعب من العمل في شعبة الاستخبارات في نابلس .

كان هشام في واحدة من زياراته النزرة للباشا شكيم، وكان رضا بك الزرب يخطىء الباشا في توكيل سليم أفندي البسمة أو سواه بشؤون الحرزة ، والباشا يقول راضياً :

ـ كم كررت علي ذلك يارضا بك !

اندفع هشام في معارضة رضا بك بعد صمته أغلب ماانقضى من الزيارة . وليس يدري كيف تفتق الحديث ، وأطال الزيارة حتى المساء ، وهو يسعى كي يرسم لجليسيه مايرى من صورة الأرض في الشام . فكلاهما بدأ بمافي أرضه :

ـ الفلاحون الذين يأخذون الربع ، والوكيل ، ورضا بك أو الباشا شكيم أو سواهما ، من يملك .

فقال هشام مذكراً :

ـ حموك ياباشا لايعطي الفلاحين الربع .

قال الباشا :

ـ طيب ، الربع ، الثلث ، النصف ، هذا يختلف من مكان الى مكان ، من ملاك الى ملاك .

قال رضا بك :

ـ وهذا يختلف حسب مايقدم الواحد منا ، ومايقدم الفلاح . اذا كنت أقدم الأرض والبذار والسكن وأدفع الضريبة . .

قاطع الباشا بتأدب :

ـ قد لايعرف هشام ، اذا تركت المريجانة وأمير الحج ، تجد المرابعة ، المخامسة ، المثالثة ، المناصفة ، في حلب، الشراكة الحلبية غيرها في حماة والشراكة الحموية، وهكذا . .

قال رضا بك بخيلاء :

ـ وغرس الأرض ـ أزيدك ـ شكل آخر . الأرض البائرة غير الغوطة مثلا .

قال هشام الذي كان يهزّ رأسه مرة للباشا ومرة لرضا بك ، مؤمنا تأمين العارف :

ـ هذا كله صحيح . كل من عددتم فلاحون لايملكون إلا بقرة أو خروفاً أو حماراً في أحسن الأحوال . ولكن هناك فلاحون يملكون ولو شبراً . .

ـ وهناك فلاحون أغنى لاتغترّ ياهشام . هناك فلاحون لديهم مثل مالدى أي واحد منا .

قال رضا بك متحمساً .

ـ لديهم مالديهم ، ولكن مثل رضا بك أو الباشا ، لا . والمهم ، لاتنس أيضا من يدورون من مكان الى مكان ، يعملون في الأرض بأجورهم موسماً أو موسمين ويرحلون .

قال هشام ، فتساءل رضا بك :

ـ هل تعد هؤلاء فلاحين ؟

ـ ماذا ينقصهم ؟ هل أعدهم أفندية ؟

قال هشام ، وأيده الباشا ، فتابع رضا بك مخاطباً الباشا :

ـ تعرف هناك ملاكون يقيمون في أملاكهم ، ليس مثلي ومثلك ، رجل هنا ورجل في الغوطة . وهؤلاء، يكون أحيانا في بيت الواحد منهم أسرة أو اثنتان أو عشرة . لاشغل لها الا الخدمة، فماذا تعد هؤلاء اذن ؟

ـ من الفلاحين أيضا .

أسرع هشام ، وأيد الباشا مضيفاً :

ـ تعرف يارضا بك : شيوخ البدو الذين لازالت رجل لهم في الخيمة ورجل لهم في الأرض ، عندهم عبيد .

ـ بعضهم ، قليلون منهم ، قل خدم ، مثلهم مثل غيرهم . أنا وأنت عندنا خدم . .

قال رضا بك مقاطعاً .

ـ طيب ، هؤلاء الخدم أو العبيد ماذا تعدهم ؟

قال الباشا ، وأسرع هشام :

ـ من الفلاحين أيضاً . أما خادمة هنا وخادمة هناك في هذا البيت أو ذاك ، فهذا أمر آخر .

ـ حتى لو كانت خديجة التكلي جاءت من الحرزة ياباشا ؟

سأل رضا بك ، فقال الباشا :

ـ أظن هشام على حق .

كان هشام قد فكر في ذلك بين وقت وآخر ، منذ أخذ ينأى عن الشام ، ويعاين ماحولها ، ويشغل نفسه بأمورها . ولعله بادل آخرين قبل تلك الزيارة للباشا شكيم بأشتات مما رأى عليه سورة الأرض في الشام . الا أن مااستفاض به مع الباشا ورضا بك كان إعلانه الصريح الكامل الأول عن ذلك . خاصة حين انتقل بهما الى الأرض [illegible]

[illegible] هشام

[illegible] فهل كان ذلك [illegible] الزيارة للباشا ام

في [illegible] ، وذلك العمل فيها لايليق بابن الساجي أن يقوم به ، أغواه ، ليس لأنه يدر على صاحبه ثروة بالحلال أو بالحرام ، بل لأنه ـ كما فكر ملياً

قبل أن يقرر ـ سبيله الأفضل الى أن يعرف حماة ، ويعرف الشام من خلالها، في أصناف فلاحيها وملاكها وأشكال زرعها ، وبدوها أيضا ، من عبيدهم الى رعاتهم وشيوخهم .

رضا بك الزرب هو من اتجه اليه هشام قبل حماة . لسبب ما آثر أن يستشيره ـ بالأحرى أن يطلب عونه ـ في تدبير ذلك العمل الذي أطلق ضحكة رضا بك وجعله يتلمظ :

ـ بعد سنة تعود إلينا بالذهب .

ثم همس :

ـ أخاف أن تكون جئت متأخراً . أيام العزّ راحت . .

وأضاف قبل أن يزود هشام بتوصياته الى العديدين من عليّة حماة :

ـ أخاف أنك لاتصلح لهذا العمل ، وتعود بعد شهر أوشهرين وجيبك فارغة .

على مضض استمع هشام، وحمل التوصيات، ودار بها في سراي حماة ، ثم نسي الأمر واندفع بعيداً الى مرجمين ، حيث طلب إليه أن يبدأ ، عازماً على أن لايدع حبة من أي مستودع لابن الفطيم تفلت، قبل أن يقدر ويقرر. ومن أجل ذلك حافظ في طريقه جيداً على الأوراق التي زوّد بها ، والقفلين اللذين أحضرهما للمستودع العتيد . وفي أول بيت صادفه من مرجمين نزل، وسأل عن المختار وعضوي الهيئة الاختيارية ، فنصح بالسؤال عن ابن الفطيم الذي كان ضيف المختار في تلك الفترة .

أرسل هشام من يدعو اليه ابن الفطيم، وقد أحرجه تلكؤ الشاب الذي اختار لذلك، قبل أن ينطلق ، كما استفزته عيون البيت الذي نزل فيه، وهي تستنكر مافعل وتتوعده . ولم يحضر ابن الفطيم ، ولا المختار .

تحامل هشام على نفسه وسار خلف الرسول الى بيت المختار ، وقد أغاظه أن ابن الفطيم كان في قيلولته، ولم يشأ أن يوقظه. ثم تفاقم غيظ هشام إذْ تباطأ ابن الفطيم في لقائه، على الرغم من أنه نهض، وطلب [illegible]
تغيب ، جاء المختار يدعو هشام الى الدخول ، وكان قد قضى [illegible] كرسي [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
المحمرتين [illegible] الساحر الصاخب :

ـ تريد المختار والهيئة الاختيارية إذن ؟

أجاب هشام وهو يجلس قرب الباب :

ـ نعم .

والتفت إلى المختار فإذا به قد غادر الغرفة. كشف ابن الفطيم عن عورته وهمس:

ـ فتّح عينك ، هذا هو المختار ، وهذان هما عضوا الهيئة الاختيارية .

شب هشام مبهوتاً ، تلفت حوله وحاول أن ينهر أو يصيح أو يشتم أو يبصق ، لكنه لم يقدر إلا على أن يلوي عينيه عن القضيب المتدلي والخصيتين الغارقتين في الشعر، ويندفع من الباب ومن مرجين، لاعناً رضا بك وسراي حماة والملاكين والفلاحين والسلطان نفسه .

في إيابه السريع ، وفي انزوائه الطويل اثر ذلك ، ملأه اليقين بأن ملاكيّ الأرض جميعاً ، ومن أسوأهم الى أفضلهم ، من الدولة العلية الى أي رضا بك ، أو شكيم باشا ، أو شيخ معمم أو شيخ بدوي ، هم أسّ البلاء في أرجاء الشام . وقد عبر عن ذلك بمرارة في صفحة بكاملها فيما شرع يخطّه تحت عنوان : الأرض والفلاحون والملاكون والزراع في الشام . وفي الصفحة التالية حاول أن ينظم أفكاره المضطربة ، وسود الصفحة تلو الصفحة حتى أنهكته الكتابة والانزواء ، فضمّ الأوراق التي أربت على العشرين وأودعها درج الخزانة التي يودع فيها عادة أوراقه ، منذ بدأ يحاول أن يكتب فوق ثلاث من الأوراق ، ملأها بما استطاع أن يكتبه عن فترة اشتغاله في شعبة الاستخبارات ، رتّب الأوراق العشرين الجديدة ، وخرج من البيت يطوي في سرّه حكاية مختار ابن الفطيم وهيئته الاختيارية، ويعيش مع الشام أيام الاتراك الأخيرة فيها، ولم يعد الى الدرج الا بعد شهور .

★ ★ ★

عودة هشام الى سليم أفندي كانت سبب فتحه للدرج ، وإزاحته للأوراق العشرين ، وقراءته للأوراق بتمعّن ، وتصفحه لما تحتها ، ثم إزاحته لها جميعاً .

كان سليم أفندي قد قفل من مصر ، وكان الميدان والشاغور يضجّان بذلك . وعلى العكس مما فعل ضجيج الحيّين بسليم أفندي ، أعلى فأعلى ، في الشهور الأخيرة ، اذْ جعل هشام الساجي يمدّ في غيبته عن صديق الصبا ، فقد دفعه الضجيج هذه المرة الى الدكان ثم الى البيت . وماتراءى لهشام من تبدل في صديقه حفزه الى أن يصبر على الزوار

الكثر ، حتى تكون لهما أخيراً الخلوة تلو الخلوة ، فيجمعان أشتات مارمى كل منهما أو رماه الآخرون ، وينثران فيما يجمعان أشتات صداقتهما المديدة .

كان سليم أفندي أكبر حماسة ، ولكن مابه كان أقل انتظاماً . وكان هشام الساجي يعكف اثناء عودته الى بيته ماشياً ، وبين جدران غرفته قبل أن يغفو ، على درس ماملأ ساعاته مع صديقه ، وهو ماكان يملأ أيضاً ساعاته قبل عودة سليم أفندي من مصر مع آخرين ، ومع نفسه ، ويحاول أن يرسم صورة لما آلت اليه الشام ، ومايمكن ان تؤول اليه أيضاً عما قريب .

ربما كان أكبر ادراكاً من سليم أفندي للرياح التي تتنازع الشام أي تنازع . لكأن ماإستكنّ فيها طوال دهر يتدافع في شهر . فحزب الاستقلال قد قام ، ولكن خلف ظهره يلطو رجال الغيب ، وتقوم الجمعية التي كانت سرية ، ولازالت وإنْ بحدود . وقد كانت في أوراق هشام الثلاث إشارة مبهمة الى تلك الجمعية ، لايفهمها سواه .

في شعبة الاستخبارات اشتمّ رائحة الجمعية ، ولعله لو لم يقع في ذلك المرض المبهم ويترك عمله بأيسر مما كان يحسب ، لاستطاع أن يتبين الكثير الذي تبينه فيما بعد في الشام ، خاصة بعدما ولى الأتراك .

كانت الإشارة إلى الجمعية في الأوراق مدسوسة في السطور المعدودة التي خصّصها لمرضه ذاك ، والذي حيّر من استشار من الأطباء في نابلس وفي القدس وفي الشام . بعبارة واحدة : كان ينوس يوماً بعد يوم ، وسليم أفندي وحده من همس في اذنه اذ أبلّ عقب تركه العمل :

ـ شغل رجال الخفية كان سيقتلك . كان عليك منذ البداية أن تعرف أنك لاتصلح لذلك العمل . احمد الله على كل حال .

واذ أعاد هشام قراءة الأوراق ، وتذكر همسة سليم أفندي ، هز رأسه مكبراً صديقه ، وفكر في أنه غالباً مايختار بحماسة عملاً لايلبث أن يكتشف أنه لايصلح له .

لقد سعى بنفسه الى نابلس ، الى فلسطين بالأحرى . فلسببٍ ماكان يرغب أن يعمل هناك زمناً . وربما كانت رغبته الكبرى في مدرسة ما في القدس ، لكن أصدقاء المرحوم استوقفوه في نابلس ، وكان له ذلك العمل المحيّر . فهشام لم يكن مخبراً رخيصاً . لعله كان دون أن يدري جندياً في الجيش السابع الذي يقوده مصطفى كمال . وقد هيأ له أصدقاء المرحوم ، ونسبه ، وثقافته ، ودماثته ، غرفة مريحة ، وعسكرياً يخدمه ، وبيتاً هادئاً وفسيحاً ، أوفر أثاثاً من بيته خلف جامع الدقاق . كما تيسّر له سريعاً أن يقرأ في

ملفات صغيرة وكبيرة خاصة بالحرب ، وبرجال كبار يعرف أسماءهم ، وبآخرين مجهولين وخطرين . ولكن سعادته في عمله مالبثت أن استلّت منه ، ومعها فترت حماسته ، ثم شهيته للطعام ، ثم استبدّ به السهد ، وشحب لونه ، ونقص وزنه ، وهو لايشكو ، لكن من حوله خافوا عليه ، ولم يوفروا جهداً للعناية به ومعالجته ، حتى بدا أنهم يئسوا، فاقترحوا عليه أن يودع نابلس والعمل حتى يرى الله أمراً كان مفعولا . ولم يفكر هشام اذ ذاك بالموت ، على الرغم من أن الخشية عليه من الموت كانت صريحة في كل العيون التي تحفّه .

الجمعية اذن ، ثم حزب الاستقلال : كذلك عدّ على أصابعه قبل أن يسجّل في رأس ورقة جديدة . وفي السطر التالي سجّل : للحكومة باطن وظاهر ، الجمعية هي الباطن والحزب هو الظاهر . وقبل أن ينتقل الى السطر الثالث فكر في أن الباشا شكيم - كما لم يعد سراً عليه هو على الأقل - خرج من الجمعية ولم ينضم الى الحزب . ثم فكر في أن ضباط الجمعية أو الحزب - لافرق - ينقسمون هذه الأيام بين عراقي وسوري . وقد ردد سليم أفندي غير مرة : حزب العهد السوريّ أو جمعية العهد العراقي ، وذكر غير آبه أن ضابطاً اتصل به يوم عودّته من مصر ، وعرض عليه أن ينضمّ الى العهد السوري ، فالحزب لم يعد مقصوراً على العسكريين .

حاول أن يكتب السطر الثالث فحرن القلم . عاد الى فضاء الغرفة يفكر في الذين يدعون الى الجمهورية ، ويتطاولون على الأمير الحجازي وعلى أبيه في مكة ، ويرسمون سورية الممتدة من طوروس الى رفح . همس : وهذا حزب آخر ، لعله قام أو سيقوم وهشام غافل . أين هي الشام اذن ؟

سجل سريعا : الشام من طوروس الى رفح . ثم شطب الشام وكتب فوقها : سوريا . وتبسم متسائلا عما اذا كان يميل الى هذا الطرف دون ذاك . ثم خشي أن تكون عدوى المتصدرين في الأحياء والأحزاب والسراي والقصر قد أصابته ، فكل في طرف ، أو لكل طرف ، والرياح تتنازع الشام .

بنزق شطب على الصفحة بكاملها ، ووضعها فوق كومة الأوراق ، وترك قلمه يرتجف فوق ورقة جديدة وهو يفكر في المآل العابس التائه بين الفرنسيين والانكليز . تراجع القلم قليلاً ورسم في الهواء كلمة المصير ، ثم كتب : حق تقرير المصير ، وفي سطر تال كتب : لينين ، وهمهم مكبراً ثورة روسيا التي أعلنت هذا الحق للشعوب . ثم

كتب في سطر آخر ويلسون ، وهمهم مكبراً مناصرة امريكا للشعوب في سعيها الى تقرير مصيرها . ولكن القلم ارتد مجفلاً ورسم في الهواء : نظام الانتداب . وخرج صوت هشام مسموعاً : كيف ابتدع ويلسون ذلك ؟ واندفعت يداه تقلبان في الأوراق ، حيث ورقة واحدة مما كان قد اعتزم أن يكتبه في عشرات الأوراق عن الحرب ، والدول المتطاحنة فوق سطح الأرض ، والملايين التي تموت ، والأموال التي تزحف ، والعمران الذي يدمّر .

لم يكن في الورقة سوى عدد من السطور الناقصة التي يبدأ كل منها بواحدة من تلك العبارات. في رأس نصف الورقة الأسفل أراد أن يكتب عنواناً خطيراً لما اضطرب به صدره : الحرب ، الحرب التي انتهت ، الحرب التي لم تنته ، على الأقل في سورية وفي تركيا وفي مصر وفي روسيا وفي الأرض ، الحرب التي لاتنتهي ، الحرب التي لن تنتهي ، مادام في الأرض كل هذه الجيوش وكل هذا السلاح ، بل كل هؤلاء الرؤساء والملوك .

عجزت يده عن أن تحرك القلم ، فارتد مسنداً ظهره بعياء على الكرسي الخشبي الذي ورثه عن المرحوم . تراءى له أن الكرسي يخاطبه : دعك من العالم وعد الى بيتك . للعالم ربه أو أربابه ، ولابد أن يصيبك من سخطهم أو رضاهم . انقبض صدره وهو يعود الى بيته ، وأعجزته عزلة البيت وحدوده الضيقة ووحشته ، فأصرّ على أن يبقى على الأقل حول الجامع ، في الشام ، مهما يكن من أمرها . وأحزنه أن يرى نفسه ثمة وحيداً، والدنيا حوله في هياج قاتل . فكر في الفرار الى قاسيون ، ولكنه خجل من السلامة المنشودة، وإنْ لم تكن أكيدة . استسلم لأصابعه تدعك كل واحدة الأخرى ، ثم أقبل يعدّ عليها . ليذهب كل الى حيث يميل فؤاده ، من هو مع الاتراك أو من هو مع الانكليز أو من هو مع الأمير أو من هو مع الفرنسيين أو من هو مع الشيطان . ارتبك وأعاد العدّ : من يميل فؤاده الى الشام ، ومن يؤثر عليها سواها ، سواء أكان مع الرحمن أم مع الشيطان . ارتبك من جديد وأمسكت أصابع يمناه بسبابة يسراه ، وهم بالعدّ ، لكن فضاء الغرفة امتلأ بالصدى :

وينشأ ناشيء الفتيان منا ... على ما كان عوّده أبوه
ومادان الفتى بحجى ولكن ... يعلمه التدين أقربوه .

أفلتت السبابة وتراجع الصدى، وامتلأت الغرفة برائحة المرحوم، وهفت نفسه الى الايمان العميق الذي نشأ عليه قبل أن تشوشه صحبة الاصحاب أو كتابات بعض الكتاب ، منذ أول اشتغاله بعد الدراسة ، في شركة غرينشام لضمانة الحياة . ربما بدأ

ايمانه يضطرب منذ أدرك على نحو خاص به معنى عمله ذاك . فمن الأخطاء التي تحف بحياة الانسان ، الى عجز جسده ، وصل هشام الى تآلف البشر كي تكون الحياة أوفر أماناً ، ومن الأمان وصل الى الموت ، ومن واحد من مجالسه المبكرة مع سليم أفندي وصل الى المؤذن الذي كان يصدح :

صل الحرب بالراحات واغنم مسرّة بأوقاتها واعكف على لذة الشرب
ولاتخش إثماً انّ أوراق كرمها أكفّ غدت تستغفر الله للذنب

وفي تلك الفترة استأثر به باب توما ، مسرح قصر البلور بخاصة ، مسرح الهبرا أيضا . ولعله قبل ذلك كان قد استأثر به لفترة ما مسرح زهرة دمشق أو مسرح الإصلاح خانه أو مسرح القوتلي ، ربما كان لازال طالباً ، وربما انسلّ وسليم افندي وسواه الى تلك المسارح خفية عن أعين المرحومين جميعاً ، ولكن هشام لم يتابع السبيل ، سواء حين كان طالباً أم حين كان يعمل في غرينشام . كان ولايزال يعدّ ذلك شططاً لطيفاً ، قد يسير فيه ، ولكن الى مدى محدود ، على الرغم من أنه لم يلْتزم أداء الفرائض بعد وفاة المرحوم .

مراراً كان قد فكّر في أن يكتب عن نشأته المؤمنة ، عن أبيه ، عن الشطط الذي عرفه ، عما اختار أن يعرف من الشطط خاصة . فهشام يحب العرق والنبيذ وإنْ كان لايتناولهما الا بندرة . وهشام لايكره المرأة ولايخشاها كما يحلو لذويه وبعض أصحابه أن يتهامسوا ، ولعله وجد نفسه بالمصادفة عازفاً عن الزواج حتى حين لم يأت بعد ، ولاهو يتعجّله . ربما أخّره انتقاله من عمل الى عمل ، ومن مكان الى مكان ، حيث تيسّرت له ـ وفي نابلس أضعاف مافي سواها ـ لذّات أنّى لسواه أن يعرفها . وهذا ماأشار اليه أيضا على نحو لايمكن لغيره أن يفهمه في الأوراق الثلاثة التي كتبها عن شعبة الاستخبارات .

بيد أن هشام لم يخط حرفا عما يخصّه . فالأوراق الأخرى كانت في جلّها مقتطفات مما يقرأ ، أو تلخيص ، أو اعادة نسج ، بدءاً من اول كتاب اشتراه من المكتبة العربية ـ وكان للمنفلوطي ـ ومن ذلك ماسوّد وهو منكب لشهور على دراسة القوانين ، حين فكر في أن يشتغل محامياً ، بعدما غادر شركة غرينشام .

انفلشت أصابعه فوق الأوراق ، كأنما تنتظر أمراً ، أو تناديه بأمر . تبسّم متأسياً ، اذْ كان من العسير عليه أن يعود الى العدّ المنتظم لما يدور في خلده . حرك السبابة اليمنى وهجس :

لاشأن لك وحدك . لابد من أوصال الشام معاً ، مهما قطّعوها . لابد من هاته الأوصال المقطعة شر تقطيع ، من هاهنا الى أقصى الجهات الأربع . غيلان هذا الزمن لن ترحم ضعيفاً . والقوة المنشودة لاتأتي من أي من تلك الغيلان . حينئذ تدوس الأقدام الشام كما تدوس مصر أو اليمن .

كانت أصابعه جميعاً تتحرك معاً ، سوى السبابة اليمنى التي بدت مشلولة ، والى جوارها بدا القلم هو الآخر مشلولا ، وكان هشام ينوء تحت وطأة حزن طاغ ، وعينه مسمّرة الى الدرج الفارغ .

★ ★ ★

23

ليس هشام الساجي وحده ، ممن عرفوا سليم أفندي صغيراً أو كبيراً ، يتذكر النجاح المتواتر لهذا الرجل، صاحب اليد المباركة في كل مايأتيه. الذين لايعرفون سليم أفندي أيضا ، بات لديهم مايضيفون ، ليغدو نجيباً منذ عهد الكتّاب ، كتب السعد على جبينه ، فمن سواه جنى مثل هذا الخير؟ من يمد يده للغريب والقريب مثلما يمدّ أبو علاء ؟ من سواه تصدى لبيع الأراضي الى اليهود ؟ بل من زار برلين من الشاغور والميدان سواه ؟ إنه يتصدر المجالس هذه الأيام . يدفع ببوز حذائه اللامع باب القصر ويدخل ، فكيف بالسراي ؟ تنهال عليه الصفقات وهو يتأبّى . ولاريب أن الله سبحانه وتعالى قد جعله الذكر الوحيد في أسرته لحكمة خاصة ، يدلّل عليها ، ليس ماارتقى اليه وحسب ، بل ما يلوح له أيضا، كما يدلّل عليها، أنه لم يرزق ـ كأبيه ـ بغير ذكر وحيد.

أصداء ذلك كله كان له وقعها المختلف من وقت الى آخر ، ومن شخص الى آخر . فهي قد أخرت هشام عن صديقه مرة ، ودفعته اليه أخرى . وهي قد قرّبت سليم أفندي من الباشا شكيم مرة ، وعكّرت مابينهما أخرى .

لقد طال انتظار الباشا لصديقه العائد من مصر . لكن سليم أفندي لم يحضر حتى تحامل الباشا على عتبه، وأرسل الفورد الى الميدان . وعلى غير عادته تلكأ سليم أفندي الذي ماكان يودع زائراً حتى يستقبل سواه . كما أن هشام شغل أماسيه المبكرة والمتأخرة ليالي عدة . ولعل حضور هشام قد هوّن على سليم أفندي التأخر في زيارة الباشا ، أو لعله قد جعله يتساءل في سره عن إبطاء الباشا عليه ، .ولايكتفي منه بتلك الدعوة .

ماكاد سليم أفندي ومن حوله يألفون عودته من مصر حتى انهمك في تحفيز وتنظيم المتطوعين في الحي . وراح يسعى من مكان الى مكان ، لتأمين تدريب المتطوعين وتسليحهم . وقد شغله ذلك ، ليس عن الباشا شكيم ودعوته ومرض حميه أمير الحج ، بل عن بيته ونفسه. ولولا أن عمر التكلي قد ذكره وهو في طريقه الى ذلك الإجتماع

العاصف في النادي العربي بزيارة ساروجة ، مادام النادي قريباً منها ، لما كان قد توجه أخيراً الى بيت الباشا .

ما إنْ عانق الباشا صديقه حتى نسي ماكان يضمر من لوم وعتاب ، أو أنه أجله . ومالإنْ آوتهما غرفة الباشا وحيدين ، حتى بادر ملهوفاً :

ـ هات ياسليم أفندي : كلمة كلمة ، منذ صعدت الى الباخرة ، حتى نزلت ، بل حتى اليوم .

قد يكون لسان سليم أفندي تجاوز التفاصيل لفرط ما أعادها على من التقاهم خلال أسابيع ، ولم يرق للباشا أن كرر سليم أفندي التحسّر على أن الشام لم تفد من ثورة مصر ، وشكّ في أن يكون معنياً بذلك ، فتساءل مدارياً :

ـ كيف كان يمكن أن تكون الفائدة ؟

قال سليم أفندي بلهجة الواثق :

ـ لو ضغطنا على الانكليز بدلاً من أن نتمسّح بهم . كانوا في أسوأ حال ونحن غافلون عن الفرصة التي ضاعت . كان بوسعنا أن نُعاضد الثورة هناك رغم ضعفنا .

قال الباشا مستخفاً :

ـ مصر تعج بالسوريين . أحزابهم وجمعياتهم هناك ماشاء الله أكثر منها هنا ! وكان عليهم أن يفعلوا ، أما نحن ، فليكن الله بعوننا .

بوغت الباشا بسليم أفندي :

ـ اترك هذا ياباشا . أنت تعرف أنني لاأعنيك . أو لا أعنيك وحدك . أنا أعني نفسي أيضا . حتى لو لم تكن لي بالانكليز أية صلة ، لانسب مثلك ، ولاغير نسب مثل غيرك . ومن في مصر من السوريين لم يقصروا ، وإنْ كام موّالهم غير موّال مصر . المسيحي منهم مقوقع على نفسه . عينه على فرنسا . وبينهم من يده بيد الانكليز حتى الإبط ، من أجل ماذا ؟ من أجلنا نحن . والمصريون يتهمون هؤلاء بالخيانة . وماذا أيضا ؟ اسمع الصراخ هناك : سورية للسوريين . من أول يوم دخلت في عراك مع الذين كانوا يصرخون بذلك .

أسرع الباشا كأنه ظفر بلقيا :

ـ لماذا كنت قبل سفرك إذن تلمح الى ذلك ؟ هل نسيت ؟ كم نوهت بمزاحمة العراقيين والفلسطينيين والحجازيين لنا على كل شيء ؟

ارتبك سليم أفندي ، وجهد كي يقلل من شأن ماكان يقول ، وماقال الباشا ، وأسعد

ذلك الباشا ، فأشفق على صديقه وعلى نفسه من أن يكيلا لبعضهما ، وإنْ مواربة ، في أول لقاء بعد غيبة طويلة . ولعله لذلك قاطع سليم أفندي مبتسماً :

ـ قريباً إنْ شاء الله نترافق الى مصر . عليّ أن أبدأ زياراتي الى بعض هذه البلدان . أنت صاحب الفضل . زيارتك لمصر هي التي نبهتني .

استعاد صوت سلم أفندي رنّته الواثقة وقال :

ـ هذا صحيح . ألهتك أوروبا . ليتنا كنا معا . مصر دنيا ثانية . غير الشام وغير أوروبة كلها .

وكأنما حلا له أن يعود الى ماكان فيه ، فأردف :

ـ هل تذكر ماذا فعلت حين حدثنا الخواجة ثابت في بيروت عمن يطالبون باحتلال فرنسا لسورية ولبنان ؟ في مصر من السوريين أيضا من يطالب بالانتداب الأميركي . ألم تغادر أنت يومئذ المطعم ؟ أنا غادرت وليمة أكبر دعاني اليها واحد من هؤلاء الذين أغوتهم أميركا، وضاعت صفقة طويلة عريضة كانت جاهزة بيننا .

ـ عوضك على الله .

قال الباشا وهو يخشى أن يعكر عليهما ثانية حديث السوريين في مصر ، ولكي يقطع السبيل الى ذلك اقترب من سليم أفندي غامزاً وهامساً :

ـ أليس عندك الا هذه السيرة ؟ صرت تخبىء عني أسرارك ؟

وضحك ، فضحك سليم أفندي ، والتفت الى الباب المغلق محاذراً ، وتحلّب ريقه على الليالي التي أمضاها في الاسكندرية خاصة ، وجعل ريق الباشا يتحلّب ، إلا أن الخادمة أجفلتهما وهي تطرق الباب معلنة قدوم عدد من الضيوف .

بين الضيوف كان بعض ممن غادر النادي قبل قليل ، مثل سليم أفندي ، ومثله ، حين دخل الى الغرفة ، كانت حرارة الاجتماع لاتزال تلفحهم ، فردد أحدهم كأنه يصل ماانقطع من حديث مع الآخرين :

ـ نحن مستعدون لأن نرمي فرنسا في البحر . .

كان الرجل يردد ماأعلنه الضباط بالحرف في النادي ، وعيناه تتقدان ، وهو يخاطب سليم أفندي . قهقه الباشا ، وجاراه بعضهم . وحار سليم أفندي فيما إنْ كانت القهقهة إعجاباً أم سخرية ، فاندفع يردد نتفاً مما علق بذاكرته من الخطب الأخرى التي تعاقبت في النادي ، ودقق في ألاّ ينقص حرفاً ولايزيد ، وهو يتوجه الى الباشا :

ـ غورو ، لن يدخلها الا على أجسادنا .

وأشهر ذراعه ، فارتد الباشا متصنعاً الجفلة . وصاح :

ـ غورو في بيروت وليس هنا . .

وقهقه ، وجاراه بعضهم ، فلم يرتب سليم أفندي في السخرية ، ولعله لذلك انكفأ دفعة واحدة ، ولم يفلح استفزاز الآخرين ولا ملاطفة الباشا في إخراجه من صمته ، حتى اذا همّ أحدهم بالمغادرة ، نهض هو أيضا ، وخرج وهو لايدري إنْ كان أكبر غضباً أم حزناً ، أو إن كان قد أخطأ في زيارة الباشا أم أصاب .

★ ★ ★

لعل الجفوة التي خلفتها تلك السهرة في نفس سليم أفندي كانت ستطول أو تكبر لولا أن بددها أمير الحج بموته ، فهرع سليم أفندي الى الباشا ، قبل أن يعزي أبناء الأمير ، وواظب على حضور مجلس العزاء كل مساء ، مشفقاً على صديقه من الرهق الذي مالبث أن جعله يلازم الفراش ، فصار سليم أفندي يعوده كل مساء ، وكان الاسبوع الأول بعد الوفاة قد انقضى .

كان الباشا يؤثره من بين عواده الكثر بالجلوس الى جانب السرير ، ولايدعه ينصرف غالباً حتى يخلو لهما المكان ، فيبادر باسماً :

ـ مصر بدلتك ياسليم أفندي .

وقد عقب في المرة الأولى جزافاً :

ـ من منا لايتبدل ياباشا ؟ بمصر وبغير مصر .

وفي المرة الثانية همس مشفقاً على صديقه من المرض المتفاقم :

ـ بعد ماتقوم بالسلامة نحكي في هذا .

وفي المرة الثالثة انطلق لسانه بما لايذكر . بيد أنه في تلك الليلة جافاه النوم ، وترجّع في صدره صدى كلمات الباشا ، وقد اختطلت بكلمات شتى ، ربما تكون أم علاء قد رمتها ، أو عبد الودود أو عمر أو واحد من أصهاره ، ربما رماها هشام الساجي أو أي من أصحابه القدامى والجدد ، وهو يقلب رأسه منكراً . ثم يتقلب على جنبه مفكراً ، فما تكون مصر [illegible] وقد تكون تبدلت قبل رحلته اليها أو بعدها ، سوى أن الناس تأخروا في ملاحظة ذلك ، وهو أيضا قد تأخر . لقد كان عليه أن يعي [illegible] زمن بعيد ـ لا أن يقرأ في كتاب فقط ـ أن مصر قد قامت ضد الأتراك منذ عشرات السنين ، فجاء اليها الانكليز ، كما قامت الشام والحجاز والعراق بالأمس القريب ، فجاء الانكليز أيضاً ،

وجاء معهم الفرنسيون واليهود . كان على سليم أفندي، كما فكر في تلك الليلة المديدة، أن يجهر بما وعى بعد لأي ، للباشا ولهشام ، لسواهما ، في النادي وفي غير النادي ، كي يعرف كل الناس من يكون هؤلاء الذين لايفتأون يركبون البحر ويأتون الى هذه الارض . كانت الأفكار تتزاحم في رأسه وصدره يضيق ، وقلبه يغصّ ، وقد تراءى له اليقين فجأة من أن كل ماقام في الشام منذ رحل الأتراك سوف ينهار . ولن يكون مصير هذا الذي جاء اليها من الحجاز بأفضل من مصير ذلك الذي سبقه اليها من مصر قبل عشرات السنين ، فلماذا تكون الشام كذلك ؟ ماذا تحسب نفسها ؟ إنها شامة الدنيا حقاً، ولكن مصر أم الدنيا . إنها الشام الشريف والأرض المقدسة حقاً، ولكن مكة أقدس والمدينة أطهر . ماذا كانت الشام لولا مصر في تلك الأيام ؟ من فتح فيها المدارس ويسّر لوالد سليم أفندي ولوالد الباشا ولأمير الحج نفسه أن يتعلم مجاناً سوى ذلك الذي جاء من مصر ؟ من الذي ضاعف الأراضي المزروعة في حوران وحصل الضرائب والجمارك بدون الملتزمين غير الذي جاء من مصر ؟ لكن الشام أنكرت ابراهيم باشا كما تنكر اليوم الأمير الحجازي ، وأول من ينكره منها سليم أفندي ، فهل يكون كل مايأتيه على ضلال ؟

على وقع السؤال أغفى ، وأفاق ، وساهر نفسه ليلة بعد ليلة ، وتفرج على همته تبرد ، نهاراً بعد نهار ، فلا يعود يدفع بالمتظاهرين ، ليس الى المرجة ، بل إلى القصر نفسه . وكان السؤال لايفتأ يقوده الى أولاء الذين يركبون البحر نحو هذه الأرض ، فيعلق على مشجبهم كل ماكابدت الشام منذ عشرات السنين ، بل منذ المئات، حين جاء الصليبيون ، وتصدى لهم ذلك الذي يرقد في الجامع الأموي ، ويتقاعس سليم أفندي عن زيارته كلما تقدم به العمر .

لقد فكر سليم أفندي بالألمان الذين عاضدوا الأتراك ضد الشام . فكر في صديقه المريض الذي قد يكون من اوائل من صادق الألمان وعمل معهم ، على الرغم من أنه لايحفل تلك المعاضدة . فكر فيما حلم به هو نفسه للشام من شبه ببرلين ، واحتار فيما إنْ [illegible] شام ان تظل على فوضاها وضيقها ووسخها ، وألا تتشبه بأحد . وفكر [illegible] الذين لايكادون يلمحون بارقة للاستقلال تبرق في دنيا العرب حتى يخمدوها ، وعاد يفكر في صديقه الذي زوج الست لميعة الى المستر بيجيت ، وسليم أفندي لايجهل اهتمام المستر بيجيت بالموصل خاصة ، بالعراق كلها ، بايران أيضا ، بتركيا نفسها ، ولماذا ؟ من أجل النفط . الباشا نفسه أسرّ بذلك لسليم أفندي معجباً وهو

يردد حكمة الليدي لميعة عن الدول التي تزيلها أو تقيمها الحروب ، فيما تظل الشركات راسخة أبداً !

الانكليز أولا إذن . لقد كان ذلك قميناً أن يخلص سليم أفندي مما به ، ويرسم له سبيله ، لولا أن الانكليز قد غادروا، وودعت طائراتهم الشام بالمناشير ، والمقايضة مع الفرنسيين توشك أن تنجز . وإنه اذن لعلى سبيل قويم ، سبيل وحيد ، هذا الذي يشغله ليل نهار ، فالشام ينبغي أن تنهض. ليس لها الا أن تنهض أو تموت . ولايكفي منها تلك الشرارات التي تتطاير هنا وهناك . لقد سبقها الأتراك المهزومون الى النهوض ، وهذا هو مصطفى كمال يتقدم خطوة بعد خطوة . هل ينتصر المهزوم وينهزم المنتصر ؟ كيف لم يفكر من قبل بذلك ؟ لماذا تأخر حتى زار مصر ؟ لماذا لم يفكر الباشا وغير الباشا بذلك، وكل منهم قد رأى من الدنيا أضعاف مارأى سليم أفندي ؟

بعسر كان يكتم توقه كل يوم الى أن يبثّ الباشا مايعتمل في صدره. بيد أن حالة الباشا كانت تتردى يوماً بعد يوم . وصار الأطباء والست زهرة حازمين في اختصار وتقليل الزيارات ، وإنْ كان نصيب سليم أفندي منها ظل الأوفى ، الا أنه ماكان قادراً إلا على أن يكتم شواغله وينشد لصديقه العافية . فلما أخذ الباشا يتماثل للشفاء ، كان سليم أفندي أيضاً قد غدا أقل قلقاً ، لكأنه يتماثل هو الآخر للشفاء مما اعتلّ به طوال الأيام . وحين صار بوسع الباشا أن يستقبله تحت الصفصافة ، وصار بوسعه هو أن يضحك ويضحك صديقه ، وصل الخواجة ثابت، الذي أقلقه ماتردد في بيروت عن صحة الباشا شكيم ، فجاء يعوده ويعود الشام بعد غياب طويل .

★ ★ ★

أبكر مما تعود ، توجه سليم أفندي الى بيت الباشا ودوار النشوة يلفّ رأسه ، اثر الفرجة المسكرة الطويلة على الضباط الذين يوزعون السلاح علناً على المتطوعين ، وعلى أفواج المتطوعين تتقدمهم الأعلام والموسيقى الصادحة ، خلفها الضباط .

كانت نسائم الغروب تفعم روحه ، وأصداء الآلاف الصاخبة تملأ أذنيه . وكان يرسم في طريقه الى الباشا أساليب شتى لنقل ماشهد هذا النهار . بيد أنه ماكاد أن يلقي التحية حتى أعلنت من خلفه الخادمة عن وصول الخواجة ثابت .

نيابة عن الباشا لاقى سليم أفندي الخواجة عند الباب الخارجي ، يدفعه فيض نفسه الى العناق واللغط . والخواجة يمازح كعادته بالعربية والفرنسية ، يسائل ملهوفاً عن صحة الباشا ، ويعاتب سليم أفندي على الانقطاع طوال هاته الشهور عن بيروت . ثم يزيد في العتاب بعد السلام على الباشا ، وتتدافع أسئلته عن صديقيه وعن الشام .

أوكل الباشا لسليم أفندي أن يتولى بدلا منه شؤون زيارة الخواجة للشام . ومنذ ذلك المساء لاحظ الخواجة بقوة أن شأن سليم أفندي في الشام أكبر مما يحسب ، أو أكبر من عهده به ، وأن الرجل بات لاينتظر أن تدور الكؤوس حتى ينطلق لسانه وتتقد عيناه .

لم يبدأ حديث الأصدقاء الثلاثة بنتف متناثرة بين العمل والنساء ، كما تعودوا . بل إنّ سليم أفندي لم ينتظر أن يبدأ الخواجة أو الباشا الحديث ، كما تعودوا ثلاثتهم حين يجتمعون ، فهو الذي بادر :

ـ زمان يابيروت . اشتقنا والله . كيف حالها ؟

قال الخواجة وهو ينفث على مهل دخان سيجارته المعطر :

ـ بيروت سلمت أمرها منذ البداية واستراحت . بيروت بعافية أما الشام . . ؟

تساءل سليم أفندي :

ـ كيف تستريح وكيف تكون بعافية والفرنسيون على صدرها ؟

ـ لا أعرف كيف . أنت رأيتها بنفسك فور نزول الفرنسيين . اليوم هي أفضل .

لم يخف الخواجة ثابت من قبل ميله للفرنسيين ، وسليم أفندي يذكر ذلك جيداً ، كما يومض في ذاكرته ماحصل من اللغة الفرنسية ، وهو يلاحق لسان الخواجة الطليق . بيد أن سليم أفندي ماكان مباليا ذلك العهد بميل الخواجة . كان يعبر به ، يفهمه أو يتجاوزه ، لسبب أو لآخر ، أما الآن فهو غير قادر على ذلك . ولعل الباشا قد قرأ مايعتمل في صدره ، فألوى بالكلام الى ذكريات الدراسة مع الخواجة ثابت على أيدي الأساتذة الفرنسيين . واستطاع أن يجعل سليم أفندي يشارك في الضحك والهذر ، وهو يستعيد ذكرى المدرسة العجوز التي كان الخواجة ثابت يغازلها علناً في قاعة المحاضرات وفي الأبهاء وفي الحديقة .

في الضحى تقابل الخواجة وسليم أفندي حول مائدة إفطاره . ومثل من يواصل حديثاً انقطع للتو ، تابع سليم أفندي البوح بما يشغله ويشغل الشام من أمر الفرنسيين . وفيما كان الخواجة يتناول إفطاره بهدوء وبطء ، كان سليم أفندي يتقافز من ذكرى الى فكرة ، من كلمة عربية الى كلمة فرنسية ، من بيروت الى الشام ، من باريس الى لندن

الى واشنطن ، دون أن يلحظ أن الخواجة يهز رأسه أحياناً مؤيداً ، وغالباً معارضاً ، يبتسم أو يقطب ، يصغي أو يشرد ، حتى إذا أنهى إفطاره ، وأقبل على القهوة والسيجارة ، لوح كفه مهدئاً، وجاء صوته صافياً :

- لاتقلب علينا النهار غماً من أوله . مالك تحمل السلّم هكذا بالعرض ؟

أجفل سليم أفندي ، وقبل أن يلتقط أنفاسه أردف الخواجة :

- لم تقل لي لماذا لم يرفع أحد صوته عندما نزلت القوات الفرنسية في أرواد أول الحرب ؟

تمتم سليم أفندي :

- في السنة التالية .

ضحك الخواجة بتأدب :

- السنة الأولى، السنة الأخيرة ، ليس مهماً . كان الناس يفرون الى الفرنسيين بالزوارق . كانوا يتلقفون ماتجود به .

قاطعه سليم أفندي بامتعاض :

- لاتبالغ ياخواجة . فرنسا كانت توزع المعونات على أصدقائها فقط .

تساءل الخواجة ببراءة :

- الحفاة العراة المرضى الجائعون هم أصدقاء . .

قاطع الخواجة ثانية بحدة :

- فرنسا خصّت بكرمها المسيحيّين أولاً ، ومنهم، كما من سواهم، حفاة وعراة . هذه اللعبة لعبتها من قبل عندكم في الجبل وفي الساحل . أنت أدرى مني ياخواجة . الأمور لم تكن بسيطة هكذا ، ولاخالصة لوجه الله . .

قال الخواجة مغالباً ضيقه :

- بعد قليل أخشى أن تمتدح الأتراك . .

- لا ياخواجة . .

رد سليم أفندي بحزم ، فصمت الخواجة هنيهة ، ثم قال بلهجة خطابية :

- سنكون الورثة الشرعيين للدولة العثمانية في الأراضي السورية . هل تذكر هذا الكلام، ومن قاله قبل الحرب ؟

- أنت كنت تردد هذا ،

- أنت وأنا وسوانا ، لافرق . الفرق فيمن يدرك ماقاله ذلك الجنرال . هل تذكر اسمه أم أنك نسيت ؟ حسناً . تأخرت فرنسا عشرات السنين . منذ استولت على الجزائر كان

عليها أن تحسم الأمر هنا . هل تذكر ياسليم أفندي ماذا فعل الأتراك منذ تلك الأيام، حينما أرادوا أن يجعلوا دولتهم مثل الدول الحديثة ؟ ألم يقتدوا بالفرنسيين دون سواهم ؟
ـ ذاك أمر ومانحن فيه أمر آخر ، كانوا عثمانيين ولم يكونوا أتراكاً يومذاك .
ـ لا ياسليم أفندي . الأتراك بالأمس كانوا يلحسون القدم الفرنسية . واليوم لايغرنك مايجري في كيليكيا . هو أوشك أن ينتهي على كل حال . لاتنخدع مثل سواك بالأصابع التركية أو البلشفية التي تلعب هنا، كما تلعب في تركيا نفسها . من أخذ من سورية كل ماهو شمالي سكة بغداد ـ برلين ؟ ستقول لي الأتراك . صحيح ، ومن الذي أعطى . أصح ياسليم أفندي . فرنسا غير بريطانيا ، غير الأتراك ، غير البلشفيك . فرنسا اليوم رايتها فوق شمال أفريقيا كله ، وغداً فوق الشام . نسيت كلامك عن هذه البلاد ؟ نسيت حاجتها الى من يأخذ بيدها ؟ نسيت زيارتك الى برلين ؟ اذا لم تحفظ فرنسا بلادك لك ستضيع بين أقدام الكبار ياسليم أفندي .

كان وهو يصغي للخواجة يتقلقل على الكرسي ، يحدق في الخواجة، ثم تحوص عيناه حائرتين بين مراعاة الضيف ووصية الباشا ، وبين ماتفجر كلمات الخواجة في صدره ، وعلى الرغم من جهده في ضبط اضطرابه تهدج صوته :
ـ الأتراك وخلصنا منهم . الانكليز لعبوا بنا . والشر الأكبر هو هذا الذي يلوح مع الفرنسيين . لماذا لايتركوننا في همنا ؟ لماذا لايتركوننا نضيع بين الأرجل ؟ لاشأن لنا بأحد . لاشأن لنا بالبلشفيك ولا بسواهم . من يقف معنا فأهلا وسهلا . على الأقل لم نر من الروس مايسوء ، لاحين كانوا قياصرة ولاحين صاروا بلاشفة . المصيبة الأكبر اليوم ياخواجة ليست في فرنسا وحدها ، بل في رجالها بين صفوفنا ، ونحن والحمد لله لانتربّى . كل دولة تزرع في صفوفنا رجالها، ودود الخل منه وفيه .
اربّد وجه الخواجة ، فأطفأ سيجارته ونهض مزوراً :
ـ أنت من يقول ذلك ؟ احسب حساباً لغدك ياصديقي . معاشرة الغوغاء ضرّتك . أراك تردد كلامهم . الهياج ينفع مع النساء لا في السياسة ياصديقي . في بيروت من يقول مثل الذي تقول . هل تذكر ما قاله الأمير في حلب حين زارها لأول مرة ؟ أنا أذكرك : السواد الأعظم من الشعب لايفقه معنى الوطنية والحرية ولاماهو الاستقلال حتى ولاذرة من كل هذه الأمور . هل الأمير رجل فرنسا أم رجل بريطانيا أم ابن أبيه ؟ أنت نفسك كنت تقهقه أمس والباشا يسخر من ذلك الذي أقسم في بيروت يمين الولاء للعلم العربي ، وبعد أيام أقسم يمين الولاء للعلم الفرنسي . هل أذكرك به ؟ أنت نفسك حدثتني أمس

عن فرح الناس ولقائهم للأمير حين عاد من فرنسا . السبب ؟ كيف جر الشبان مركبته في بيروت وخرجوا اليه حتى دمّر ؟ لأنه اختلف أم لأنه اتفق مع فرنسا ؟

كان الرجلان قد غادرا المطعم ، ولبثا متقابلين مطولاً في بهو الأوتيل . وكان سليم أفندي يوشك أن ينطلق اثر كل جملة من جمل الخواجة . ولعله لذلك قد فاته العديد منها . لكن الخواجة لم يفسح له، وما إنْ ألقى بسؤاله الأخير حتى حث سليم أفندي الى بيت الباشا .

لم يكن يسيراً على أي منهما أن يكون برفقة الآخر من بعد . ولعل الخواجة اختار لذلك ان يتوجها مبكرين الى بيت الباشا . ولعله لذلك قد آثر أن يعود الى بيروت بعد الغداء الذي اعتذر عنه سليم أفندي . ولم يفت الباشا أن يلحظ مايلبد محيا صديقيه ، فتعمد طوال الوقت أن يجري الحديث في الهذر والذكريات . وقد جاراه الخواجة ، أما سليم أفندي ، فكان عاجزاً عن أن يقهقه مثلهما ، أو يتلذذ بذكرى ماتعة ، أو يمازح أو يلقي بنكتة ، كان فقط يرجو أن ينفلت من هذا المجلس الذي أشبه فيه أن يكون أسيرا ، ويسرع الى الميدان .

★ ★ ★

عاد سليم أفندي يلتفت الى أشغاله ، وقد هدأت نفسه على جملة من الأمور ، في رأسها هذا الذي يجري من قتال في أطراف الشام ، والانتصارات التركية التي يقودها مصطفى كمال ، والقطيعة مع الخواجة ، والشماتة بالأمير الذي أجبره من سماهم الخواجة بالغوغاء على أن يلحس توقيعه على اتفاقه مع الفرنسيين . كان ذلك كله ، وربما سواه أيضا ، قد تبلور في أعماقه علامات أكبر ، وأسخن ، تنظم موقفه ، فصار تردده على أوتيل فكتوريا أو أوتيل خوام أقل ، كذلك النادي العربي والمقهى .

صار يظهر في الدكان ، ويعرج على المدرستين القديمتين اللتين أبرم عقد التعهد بترميمهما بعيد زيارته لمصر ، وأوكل لعبد الودود أمرهما ، على الرغم من أن عبد الودود مافتىء منذ ذلك اليوم يلح على أن يترك العمل نهائياً لدى سليم أفندي .

كان العمل في مدرسة سيدي عامود يسير ببطء ، وسليم أفندي يتحاشى أن يشدد على عبد الودود ، خشية أن يدفعه بذلك الى ترك العمل حقاً .

كان عبد الودود قد احتلّ في نفس سليم أفندي مثل الذي لعمر . ولذلك كان حريصاً على ألّا يفرط فيه ، مؤجلاً العزم في البحث عما ينفره من العمل الى الوقت المناسب الذي سيأتي . وفي هذا العصر قدر وهو يتوجه الى مدرسة القنوات أن الوقت المناسب قد أتى . لكنه لم يجد أحداً في المدرسة . لاعبد الودود ولاسواه من العمال ، فتابع سيره الى مدرسة سيدي عامود مستاءاً . ولكن أحداً لم يكن ثمة أيضاً ، على الرغم من أن وقت انصراف العمال في أيّ عمل لم يحن بعد .

دار في المدرسة حتى المغيب يفكر في أنه الملوم أولاً ، وليس عبد الودود أو سواه . لقد ترك الحبل على الغارب ، إنْ لعبد الودود أو لعمر التكلي . ولقد آن الأوان لكي يضع حداً لذلك كله ، وهو الذي كان يرسم أن يوزع أعماله في المستقبل بينهما . بل لعله لولا اعتماده عليهما ـ وبخاصة على عبد الودود ، فعمر تكفيه الحرزة والدكان ـ لما تعهد بترميم هذه المدرسة ولاتلك ، متخلياً عن قراره بالتوقف عن التعهدات والمناقصات، ريثما تنجلي الغيوم المتكاثرة فوق البلاد .

تعالى أذان المغرب وهو لايزال يدور في المدرسة ، وتدور به هواجسه ، فيشفق على نفسه الطيبة التي كانت تخبىء لعبد الودود ولعمر مستقبلاً ، وأي مستقبل ، حين تنفرج غمّة سورية ، ويشرع بواحد من المشاريع الكبرى التي يدخرها ، بعيداً عن الدكان أو إصلاح جسر أو رعاية ما للباشا في الحرزة أو ترميم مدرسة . وإذْ غادر المدرسة التي ألقت ظلال المساء عليها بالوحشة ، بات عازماً على أن يبحث عن بديل لعبد الودود ، بديل لايحلّه من نفسه أي محل ، وإنما يشغله بأجره وتحت عينيه ، ومن بعد سوف يبحث عن بديل احتياطي لعمر أيضاً ، فماذا إنْ جاءه هذا أيضاً غداً أو بعد غد يطلب الانفكاك عن العمل ؟ بل ماذا لو مرض أو تزوج مثل عبد الودود ؟ هل سيكون بوسعه بعد ذلك أن يظل يحمل بطيختي الدكان والحرزة ؟ لقد كان عبد الودود أكثر ارتباطاً بالباشا شكيم ، وهاهو تركه ، فأنّى لسليم أفندي أن يركن اليه اذن ؟ أنّى له أن يركن مثلما كان منذ سنة أوسنتين لشخص واحد ، سواء كان عبد الودود أم عمر أم الباشا شكيم نفسه ؟ إنه زمن لايركن فيه لأحد بعينين مغمضتين ـ فكر سليم أفندي وهو يجتاز سوق مدحت باشا ـ انها أيام أخرى هذه الأيام ، ليست مثل أيام الحرب ولا ماقبلها ، فما أسرع مايتبدل الناس فيها ! من عبد الودود السعد الى الأمير نفسه . من أصغر رأس الى أكبر رأس . وسليم أفندي ـ قبل سواه ـ لم ينج من ذلك . هاهو قد بات مثل كثيرين لايتحدث الا عن الراية التي تخفق فوق سورية وحدها ، وهو الذي كان لايماري بالأمس القريب في أن تخفق تلك

الراية فوق مكة وبغداد . هاهو كالآخرين يلغو في سورية المستقلة والعراق المستقل، وغداً سيلغو في الحجاز المستقل ، هاهو يلعن مثل كثيرين الأمير الذي كان بالأمس القريب يحلم أن يلتقيه أو يلتقي أباه في مكة أو في هذه التي لم يتعود لسانه على اسمها : دمشق ، فتراه إذْ يبدل الشام بها كأنما ينطق بكلمة فرنسية جديدة ، يتباهى بها أمام الخواجة ثابت .

كان يسير وهو ينوء تحت وطأة العجب مما يتبدل في الأرض وفي العباد . وربما خاتل الامتنان لعبد الودود أن فتح عينيه هذا المساء على ذلك . وكانت حارة الشيخ حسن قد أطلّت عليه ، فتباطأت قدماه وهما تتوجهان الى بيت عبد الودود ، فأنكر عليهما ماتفعلان . ولكنهما ظلتا تسيران ، تمسحان من صدره الغضب والخيبة ، تؤكدان له أن عبد الودود السعد وزوجته خديجة التكلي يستحقان أن يزارا في هذا المساء . ولابد أن خلف عبد الودود سراً حتى يفعل مايفعل . إنه ليس بالأبله ولا بالمسكين حتى يترك مايسّر له سليم أفندي من نعمة . ولابد أن منافساً قد أغواه ، وليس لسليم أفندي أن يسلّم بسهولة . لن يكون من اليسير أن يعثر على مثلْ عبد الودود . إنه جنّي أفلت من قمقمه بعد أن ترك العمل عند الباْشا شكيم ، بل منذ أن ولت أيام العربة . ولابد أنها عشرة بنت التكلي له قد بدّلته ، تلك الخادمة ، لاأكثر ولاأقل ، هي التي جعلت منهاالخدمة امرأة أخرى . ولعلها باتت الآن امرأة ثالثة ، ولكن ماالذي يدفع سليم أفندي الى التفكر في هذا كله ؟

ألجم السؤال قدميه قبالة البيت الطيني الصغير ، وعاد يلوم نفسه على ماتفكر فيه . همت قدماه بالتراجع ، فزجرهما ، وآلى الا أن يدخل الى هذا البيت ، وينهي مابينه وبين عبد الودود . فمثل هذا الرجل ، مثل هذا الجني ، ليس من يصلح بعد اليوم لسليم أفندي . ليس سليم أفندي بحاجة الى عامل يتردد مثله على النادي العربي ، يحفظ من خطب الأمير أكثر مما يحفظ هو ، يتطاول لسانه على الحكومة ، على الموظفين الذين تفرض المناقصات والتعهدات الاتصال بهم ، بل يتطاول أيضا على هذا أو ذاك من زعماء الحي ، من وجهاء المدينة ، ويتصدر أفواج المتطوعين، غير آبه بمدرسة سيدي عامود ولا بمدرسة القنوات .

جرّ قدميه مذكراً إياهما بما كانتا عليه منذ شهور ، حين اقتربتا من هذا البيت الطيني الصغير ، من ثقة ونشاط . كان حذاؤه يغوص في التراب كما لم يغص في تراب الحرزة ، وهو يستعيد على عجل لقاء خديجة له اذ ذاك . لقد رحبت به وسألته عما جاء به ، فعبد

الودود ليس في البيت . هزّ رأسه مطمئناً الى أن لديه الجواب هذه المرة ، إن هي سألته . وأشاح خجلاً لأنه حتى الآن لايذكر مادفعه الى هذه الجهة كلها ؟ يتساءل عما إنْ كانت ستبدو الآن مثلما بدت اذ ذاك ، أم أنها قد ازدادت سمنة وبهاءً ؟ تذكر أنه قد رآها لأول مرة بعد وفاة والدها على درج الدايرة ، ومن بعد حين فتحت له باب بيت الباشا منذ شهور ، قبل أن يقصد هذا البيت في المرة السابقة بالتأكيد . لقد ملأت عينيها منه . لم تطرق، ولم تنسحب، كما كانت تفعل وهي خادمة ، بل رحبت به، وأمرت الخادمة الوريثة التي ظهرت في نهاية الممر أن تنصرف ، فضحك وسألها مستخفاً :

ـ أنت هنا ؟

ـ الست زهرة لدى أهلها أغلب الوقت .

لا . لم يكن ذلك منذ شهور . لم يكن منذ وقت طويل . ربما كان أمير الحج مريضاً أو ميتاً . إنه غير قادر الآن على أن يحدد . لقد تساءل عما يأتي بخديجة مادام في البيت خادمة أخرى ، ثم نسي الأمر . لكنه الآن يتساءل وهو واقف أمام الباب ، يخشى أن يكون الباشا شكيم هو الذي بعث في طلب خديجة . ألا يعقل أن يفعلها الباشا ؟ من الذي كان منهما اذن يؤكد للآخر أنه يؤثر ألف مرة أن يأتي الى بيروت وينقع غلته فيها، على أن يسمح لجفنه برفة على إمرأة هنا ؟

إمتدت يده تقرع الباب وهو حائر في لوم نفسه على سذاجتها أم على خبثها ؟ وإذ فتحت خديجة الباب نادى عبد الودود ، فتنحّت معاتبة :

ـ ألا تمسّي ؟ تفضل .

تجاوز العتبة فيما كانت تتابع :

ـ عبد الودود ليس هنا . تفضل .

تحرك لسانه معتذراً ومحيياً ، وأسرعت عيناه تتأملانها دون مداراة أو وجل ، كأنما تريانها عن قرب لأول مرة . جلس حيث أشارت على كرسي القشّ ، واستدارت تبربر، ثم تقرفص أمام البابور ، وهو يدرأ شهوته عنها ، يعض شفتيه ويأسى لأنه نسي النساء منذ عاد من مصر . حتى أم علاء لم يعد يضاجعها إلا مرة في الاسبوع أو الاسبوعين ! ولعل خديجة قد أدركت مابه ، فاستدارت فجأة ، وسطع وجهها فأعشاه . وخيل اليه أنها قد رشقته بنظرة مستنكرة ، بل داعية ، فنهض ويمم نحوها ، يعد نفسه بزيارة في الغداة الى بيروت ، وسهرة مع الباشا شكيم والخواجة ثابت وأي من نساء الأرض ، وكانت خديجة قد نهضت تلملم غطاء شعرها ، وهو يقول :

ـ أتعرفين ياخديجة ؟ لو أنك تقصّين شعرك وتتركين هذا الغطاء . في البيت على الأقل . .
تراجعت خطوة وهي تغرغر بضحكتها :
ـ أنت أيضا تقول ذلك ؟
ـ من غيري قال ؟
تساءل ملهوفاً ، فضحكت ثانية :
ـ الباشا شكيم . مئة مرة قال . سبحان الله !
أجفلته عبارتها ، فعاد الى كرسيه كظيما ، وعادت الى قرفصائها وهو يهمس ، كأنما يخاطب نفسه :
ـ الباشا قال !؟
كررت عبارتها غير آبهة ، وهو يداري صوت البابور ، فأردف :
ـ وغيره ؟
كانت تقترب منه بابريق الشاي وكأسين .
ـ وغيره ؟
كررت سؤاله مستنكرة ، وجلست قبالته تملأ الكأسين .
ـ أنا أعرف الباشا شكيم ياخديجة . .
ـ ولكنك لاتعرف خديجة التكلي .
قالت وهي تمد يدها بالكأس .
ـ هل كان بينك وبينه . .
قاطعته مازحة :
ـ أعوذ بالله . . كيف تظن ياسليم أفندي ؟ الباشا يحب المزاح كما يعرف كل الناس .
امتدت أصابعه تتناول الكأس فلامست أصابعها واندلق الكأس . هبت مذعورة ووقف ضاحكاً .
هرعت تحضر ماتمسح به الشاي المندلق، وأخذت تضحك وتدعوه الى الجلوس ، لكنه ظل واقفاً حتى عادت بقطعة قماشية عتيقة . انحنت على الأرض فهم بأن ينحني فوقها ، فوقفت هامسة :
ـ لا ياسليم أفندي ؟
انفرد ذراعاه يحتويانها ، فانفلتت مبتعدة وهو يلاحقها :
ـ أنت أول إمرأة أسعى خلفها في الشام . لا تزوغي مني .

- سليم أفندي ماهذا ؟
كان ظهرها قد لاصق الحائط وهي تسأل بجفاء .
- لاأعرف ياخديجة . كيف كانت عيناي مغمضتين عنك ؟
ملصت منه ثانية تهمس :
- الشام ملأى ، وليس فيها من لاتتمنى سليم أفندي .
ظفر بذراعها أخيراً وقال متضرعاً :
- وسليم أفندي لايتمنى الا خديجة ..
- مستحيل .. مستحيل ياسليم أفندي . أوجعتني ذراعي . افرض لو دخل عبد الودود الآن ؟
تراخت أصابعه ، وتهاوت ذراعه ، ولبث صامتاً هنيهة قبل أن يبتسم قائلا وهو يتجه الى الباب :
- أرجع لك في وقت أفضل . هل تسمعين ؟ لن تستطيعي أن تهربي مني . قولي لعبد الودود انني زرته حتى أقنعه ولا يترك العمل . قولي له أن يلحق بي . أنا في البيت .
وغادر تلاحقه رنة صوتها المعاند :
- مع السلامة .

★ ★ ★

قضى سليم أفندي ليلته تلك يتقلب ، راغباً وخائفاً . لم يلحق به عبد الودود ، وقد أغاظه ذلك حيناً ، وراق له حيناً ، وكانت أم علاء الى جانبه ترقد آمنة ، وهو يهم مرة أن ينقلب فوقها ، ويرتد عنها مرة ، ممنياً النفس بخديجة التكلي .

ليست أول مرة يسعى فيها خلف متزوجة . لكن من عرف منهن في الشام كنّ جميعاً من المغنيات أو الراقصات أو العاهرات . أما في بيروت أو في القاهرة ، فقد صادف عدداً من المتزوجات ، يعرف أزواج بعضهن ، الا أن أياً من أولاء الأزواج لم يكن قريبا منه مثل عبد الودود . كما أنهم جميعاً من علية القوم . وكان في ليلته تلك ، يروق له حيناً ، ويغيظه حيناً ، أن يقارن بين عبد الودود وخديجة ، وأولاء الأزواج ، فيؤثر دوماً العربجي والخادمة ، الأجير وزوجته ، على الجميع .

ظل خفيف من الإثم كان يراوغ أيضا . ربما لم يفكر في الزنا من قبل ، ولا في الفضيحة . وقد حلا له أن يعاهد نفسه على أن يكتفي بخديجة ، فلا يذهب من بعد الى

بيروت أو سواها من أجل امرأة . ولئن كان سهلا عليه أن يلتف على الزنا ، فقد عاندته الفضيحة ، خاصة أنها سوف تكون في الشام ، بل في الشيخ حسن . سوف تكون الفضيحة المجلجلة ، ولن يقوم له شأن بعدها . فضلاً عن أن أحداً لايقدر أن يحزر ماسوف يفعل عبد الودود . الا ان هجسه بذلك لم يجعله ينثني ، بل ضاعف من حذره وتدقيقه فيما يهيىء لغده .

للمرة الأولى منذ زمن لاتذكره أم علاء ، لم ينهض زوجها من السرير حتى الضحى . كانت سعيدة به ، تداري شكها في أن يكون معتلاً ، وقد هيأت له إفطاراً سخياً .

كان قد استيقظ في موعده اليومي ، على الرغم من أن السهد تجاوز به منتصف الليل ، الا أنه ظل مطبق الجفنين ، يتظاهر بالنوم ، يداعب صور خديجة لابسة وعارية ، خادمة وزوجة ، طفلة وأماً ، في الشيخ حسن وفي الحرزة ، في بيت الباشا وربما في بيته هو ، فأم علاء ينبغي عليها أيضا أن تبرح البيت قليلا ، مثل الست زهرة ، سواء أكان والدها حياً أم ميتاً .

تباطأ في تناول الفطور ، وانصرف الى مداعبة الصغيرات ، وقد أنسى حبوره أم علاء تساؤلها عما يؤخره عن أشغاله التي تحرمها منه، كما تحرم علاء من أبيه .

واذ خرج قبيل الغداء من البيت كان في أبهى حلّة .

عرج على الدكان لدقائق ، ثم طاف من بعيد بمدرسة سيدي عامود ، فمدرسة القنوات ، وامتنّ لعبد الودود على امتلاء المدرستين بالعمال ، كما امتنّ له على أنه لم يلحق به ، فلا بد أن خديجة قد بلغته ، ومن القنوات راح يتوارى في الأزقة التي تقوده الى الشيخ حسن ، متحاشياً أن تقع عليه عين عارفة . أسعده أن عينه لم تقع حول البيت الطيني الصغير الا على الأطفال الحفاة الوسخين ، فتقدم مكبراً ماأضمر قبل أن ينام من الاختفاء عن عين عبد الودود هذا النهار ، وكان باب البيت موارباً .

أنصت أمام الباب قليلا ، فضاعف الصمت رغبته، ونادى عبد الودود ، فرد صوتها :

ـ من يريده ؟

تلفت حوله وانسلّ من فرجة الباب معاتباً :

ـ نسيت صوتي ؟

كانت تجلس على كرسي القش ، منهمكة في حشو سلسلة من المصارين ، وقد جمعت أطراف فستانها في حرجها ، وضاءت ساقاها ، وشعرها مفلوش على كتفيها بلا غطاء .

أطبق الباب خلفه وهي تنهض مجفلة ، وقد امتدت سلسلة المصارين بين أصابعها المتشابكة أمام صدرها وبين الأرض . أرخت السلسلة متلفتة تهمس :
ـ سليم أفندي ؟ ليتني أرسلته لك . كيف لو دخلت حُسْن الآن ؟ كيف لو سمعت حامدة ؟

ـ أنت اذن لم تبلغيه ؟
تساءل معجباً بحكمتها ، وكانت قد انحنت تغسل يديها في الإناء الذي أمام قدميه ، فلما استوت لاقاها ذراعاه ، فاذا بها ملء حضنه ، وكفّاه يلوبان من كفيها الى اليتيها ، وهي تحذره من النهار ومن بلل ثيابه بما على يديها من الماء .

كان رأسها مدفوناً في صدره ، ووجهه ينطمر في شعرها ، وقد راعه أن حلمتي ثدييها تنقرانه ، وأنها تتماوج في حضنه كالأغنية أو الرقصة أو الكأس المترعة أو نسائم الغوطة الريّا . أطبقت كفه على ثدي ثم أطبقت كفه الأخرى على الثدي الآخر ، وانهمرت شفتاه فوق وجنتيها ، ورأى جفنيها ذابلين وشفتيها تضحكان ، وكانا قد غدوا فوق البساط ، وبدا له الفراش المطوي في الزاوية بعيداً ، فأحنى جذعها نحو الأرض ، فسقعلت وسقط فوقها ، وشق الفستان فوق الصدر ، فغام الثديان في عينيه ، لكأنهما غدوا كل الأثداء التي رآها أو دعكها أو رضعها أو تمناها . طمر رأسه بين الثديين وهما يتأرجحان حوله وذراعاها يطبقان عليه ، وفخذاها ينفرجان . جنّت أصابعه ولم تعد تعرف كيف تخلصها من سروالها، ففك أسر ظهره من ذراعيها وشق السروال وهي تغرغر ضاحكة ، ثم تشيح عنه وهو يتخلص من ثيابه ، حتى اذا انحنى فوقها أشرعت ساقيها عالياً، وعاد وجهها اليه، وعاد الثديان يتأرجحان، فزاد انحناءته نحوهما واذا بالساقين تنحنيان وتنعقدان على عنقه وهي تضحك . وأقبل عليها كأنه لم يضاجع من قبل إلاّ ها، وهي تضحك .

من المؤكد أن ذلك لم يدم بهما من الظهر حتى العصر ، الا ان الجسدين لم ينفصلا حتى أجفلهما صوت المؤذن ، فنهضا على عجل ، وغادرها دون أن يغتسل أو يشرب الشاي ، يختلط في أذنيه تحذيرها بأصداء فحيح ومطر رخيّ وضحكة لاتنقطع .

كان بعض الصبية الحفاة الوسخين لايزالون يلعبون حول البيت ، وربما كان بعض الرجال يؤدون صلاة العصر ، كما قدر سليم أفندي ، فحمد الله على خروجه في هذا الوقت ، وغذّ خطاه في الدرب المترب ، منكراً النجاة ، مقسماً أن خديجة جنية لاإنسية ، مثلها مثل زوجها ، مفكراً في أن الله قد ابتلاه بزوج من الجن فوق كل ماابتلاه به من الإنس ، وكان عدد من الرجال قد ظهر في طرف الحارة .

★ ★ ★

24

تلقى فياض أمر النقل الى حماه بفرح غامر ، مادام ذلك يقرب مطرحه منْ نجوم ومن المشرقة . قدر أنه سوف يكون بوسعه من حماة أن يزور مرجين والمشرقة معا، أطول وأكثر مما يتسنى له من الشام . أما عزيز فلم يبال . سيان عنده إنْ كان في الشام أم في حماة أم في آخر الدنيا . سيان عنده إنْ كان قريباً من قبية أم صافيتا أم كان في آخر الدنيا . سوى أنه فكر منذ نزل في المحطة بياسين الحلو ، واسماعيل معلا والعم حاتم ، فهم جميعا هاهنا أقرب اليه . فكر أيضا في المكاري، وألجم الوسواس في أنه قد يكون مات . قدّر أنه سوف يكون بوسعه من حماة أن يتقفّى بيسر أخبار أي من أولاء . وعلى الرغم مما أشاع ذلك في نفسه من توق وحبور ، ظل يتظاهر أن الأمر عنده سيان . ألم يخلّف في الشام هولو وعبد الودود ، وهما اللذان كانا قد غدوا في الآونة الأخيرة أقرب اليه حتى من فياض ؟

قد تكون مبالغة فياض في الابتهاج بالنقل الى حماه هي أيضا جعلت عزيزاً يركن الى اللامبالاة ، بدلاً من أن تسري اليه عدوى مابصديقه . كانت مبالغات فياض عامة قد صارت تستفزّه ، وإن كان ينطوي على ذلك ، ويلجأ الى الصمت . وكان فياض ، شأنه شأن هولو وعبد الودود ، لايوفر وسيلة لانتزاع عزيز من طوره الأخير ، وعزيز يتظاهر مرة بعد مرة بالاستجابة ، كما فعل خاصة في سهرة الوداع التي جمعتهم في بيت عبد الودود ، وخديجة منزوية لاهية عنهم ، أو زاهدة بهم .

في قشلة حماة لم يعد لعزيز سوى فياض الذي بات لايطفىء سيجارة الا بعد أن يكون قد أشعل الأخرى . لابد اذن له أن يحتمل أكثر ، أن يصغي الى فياض ، ويجاريه ، حتى في ولعه المتعاظم بالشراب .

في اليوم الثالث لنزولها في قشلة حماه لم يعد فياض يطيق الانتظار . كان قد أكمل أسبوعه الثالث في الشام قبل النقل ، دون أن يغادرها الى مرجين والمشرقة . ولولا ردع

عزيز له لكان قد فرّ يوماً واحداً على الأقل . الا أن الايام الثلاثة في حماة بدت أطول من الأسابيع الثلاثة في الشام ، خاصة أن اللغط يملأ القشلة عن مشاكل المدينة التي قد تعطل أية اجازة مهما قصرت .

سوى عزيز وفياض ، كان قد جيء بالطبع بالعديدين من الشام ومن سواها . لم يكونا الجديدين وحدهما في قشلة حماة . بيد أن العساكر القدماء كانوا غالبين . وكانوا يتعالمون على فياض وعزيز وأمثالهما بشؤون القشلة ، وقائدها ، والمدينة أيضاً . كانوا يفصلون في شكوى الناس من غلاء الطحين ، وشحن التجار للحبوب خارج المدينة ، كي يضاعفوا أرباحهم . كان فيهم من يفصل في غشّ الأفران للطحين ، وإخراج الخبز قبل أن ينضج ، ويبيعه بضعف سعره، مما أثار نقمة الناس، وجعلهم يشتكون مراراً ، ويتجمهرون أمام البلدية ساخطين . وكان عزيز وفياض يرددان مثل الآخرين اللعنة على أصحاب الأفران وأصحاب خانات الحبوب .

عصر يوم وصولهما الى حماه ، خرجا وحيدين يتجولان في المدينة . كان عزيز دليلاً ، الا أن الدليل تاه عن الخان الذي بات فيه مع المكاري ، على الرغم من أنه وهو ينزل من القطار شد ذراع فياض وأشار الى الجهة التي يقوم فيها الخان .

في اليومين التاليين لم يسمح لأحد بمغادرة القشلة . وكان قائدها يظهر بين وقت وآخر متجهماً ، وكانت وجوه الضباط المسنّين القلائل تبدو طوال الوقت أشد تجهّماً .

في اليوم الرابع أسقط في يد فياض، اذْ أعلن القائد بنفسه إلغاء الاجازات ، ووزع الشبان من العساكر في مجموعات ثلاثية ، عليها أن تتناوب في ملازمة أفران المدينة ليلاً ، لتراقب الطحين أو الخبز ، وتجرّ من يغش من شعره الى سجن القشلة .

هلل عزيز شأن أغلب العساكر . لكن فياض نكس رأسه مخيباً ومحزوناً ، وضاعف مابه سوءاً أن نودي عليه الى غير المجموعة التي نودي على عزيز اليها . الا أن عزيز تقدم من الضابط الذي يقرأ الأسماء ، وقاطعه محيياً وراجياً أن يجمعه مع فياض العقدة في مجموعة واحدة .

نهره الضابط وأمره أن ينصرف ، فتوجه عزيز الى الشاويش الذي يقف خلف الضابط ، يحمل أوراقاً جمة تكاد تطير من تحت إبطه ، وراح يتزلف اليه ويلح عليه أن يتدبر الأمر ، ولم يفارقه حتى أقسم على أن ينقل فياض الى مجموعته ، أو العكس ، إنْ لم يكن الليلة ، ففي الغد ، وكان الضابط لايزال يقرأ الأسماء .

المناوبة الأولى لهما كانت في فرن قريب من الخان الذي تاه عنه عزيز . ابتدأت المناوبة في منتصف الليل . وابتدأ الفران يغدق عليهما بالشاي ، متباطئاً في العجن . حدثهما مطولاً عن عهد صواني البقلاوة والفطاير والكواج والصفايح ، وفياض يبلع ريقه ، وعزيز يترحم تارة على ذلك العهد ، ويلعنه تارة . شكا الفران من عسر تدبير الحطب ومن تجار الحبوب الذين ينهبونه مثل الحطابين والبغّالة . شكا من السهر حتى مطلع الشمس سنة بعد سنة ، حتى انهدّ ظهره وعشيت عيناه ، وأجفل عزيز وفياض اذْ راح يلعن الناس جميعاً ، فقد بطروا ، وصاروا يتدلّلون على رغيفه وقد كانوا يبوسون يده من أجل كسرة . لعن الفران الحكومة أيضاً ، فهي لاترحم ولاتترك رحمة الله تنزل على البشر ، وتساءل مشككاً :

ـ كيف لاتمنع بيع الحبوب لو كانت تشفق على الفقراء من الغلاء ؟ كيف تسمح للخانجية أن يفعلوا مايحلو لهم ، وتأتي الى الضعفاء مثلي فتشدد الخناق على رقابهم ؟ كيف أشهر العساكر السلاح أمس في وجه الناس أمام البلدية ؟ وكيف حبست الحكومة مندوب العمال حين تقدم الى المجلس البلدي بتلك العريضة ، وليس فيها غير ماتطالب به الحكومة نفسها ؟

لم يهدأ لسان الفران ، خاصة بعد أن قدم لكل منهما كماجة محمرة منفوخة، وعلى خدها تتناثر حبيبات السمسم . ولئن كانا قد ضاقا به في البداية ، فقد استطاع لسانه الذرب اغواءهما ، كما أن الكماجة الساخنة وكأس الشاي الناعش جعلا عزيز يقاطع الفران كل حين معلقاً أو مستفسراً . قال :

ـ اذا كانت الناس اضطرت الى ان تأكل خبز الشعير وخبز الذرة ، فهل كتب ذلك عليها الى الأبد ؟ كانت الحرب وكان الأتراك . فهمنا ، ولكن الى متى ؟

وقال :

ـ اذا كنت أنت تشكو ضعفك فما حال الآخرين ؟

وتساءل فياض :

ـ متى أشهر العساكر السلاح على الناس ؟ أمس وقبله ما غادر القشلة عسكري واحد ؟

وتساءل أيضا عن ذلك المحبوس ، وكيف صار مندوباً للعمال ؟ وكانت أية كلمة يسوقها أي منهما تؤجج ثرثرة الفران أو تهيج ذاكرته ، وبدا كأن وجود العسكريين انقلب الى ألفة بعد أن أجفل الفران والصبيين الصغيرين ، إذْ صارا ينثران هما أيضاً حين يسكت الفران ببعض ماكابدا . وكان عزيز خاصة يهفو اليهما ، ويستحثهما ، أما فياض فلم يكلمهما

حتى قال أحدهما ان أمه قد عافته وأخويه الأصغرين ، وتزوجت من بدوي أثناء الحرب ، ولم تظهر بعد ذلك ، وإنْ كان البدوي يتردد كل حين على حماة ، ويأتي مرة بالسمن ومرة باللبن ومرة بالخبز ، ولكنه لم يعد يظهر هو الآخر منذ عمل الصبي في الفرن . سأل فياض مستنكرا :

- ولم تزوجت الـ . .

وكاد أن ينعت أم الصبي بكلمة نابية لولا أن عزيز نهره . فردع الفران الصبي ، وقال :

- الجوع ياشباب . الجوع كافر . ليست المسكينة وحدها من عافت أولادها وتزوجت من بدوي حتى لاتموت من الجوع . نساء كثيرات من حماة تزوجن في البادية . .

قال فياض مقاطعاً :

- هذا ليس سبباً . لاتقل لي . لا الجوع ولا الموت نفسه يجعل الواحدة تترك أولادها وتمشي .

قال الفران :

- هي لم تتركهم . على الأقل عندما كانوا بحاجة اليها . أما سمعت الصبي . الآن هو يعمل مثلي ومثلك .

التفت عزيز الى الصبي الآخر مستحثاً :

- وأنت ؟ هل تزوجت أمك . .

قال الفران قبل أن يكمل عزيز سؤاله :

- هذا مسكين . لعله يتيم . هذا أرمني الأصل ، من الأرمن الذين نزلوا على ضفة العاصي يوماً . وجدوه مع بعض الأطفال بين الموت والحياة . كان الواحد منهم رضيعاً ، والله وفقه . كل أولاد حي الدباغة شهامة ونخوة . أنت لاتعرف . اسأله في الحساب . هو يحفظ من القرآن مثلي .

سأل عزيز الصبي :

- أنت في المدرسة ؟

أجاب الفران :

- وفي المدرسة أيضا . نعم ، ولكن عندما بكروا في الفحص ، في نيسان ، العام الماضي ، ترك المدرسة وجاء الى الفرن .

كان الفجر قد طلع وأقسم فياض أن جفنيه ماعادا ينفتحان ، وأسند رأسه الى كومة أكياس الطحين . أما عزيز ، فاقترب من فوهة الفرن ، يتملّى من بلاطه ويتلذذ

بوهجه ، وقد استراحت نفسه الى أن الطحين لم يغش ، وأبهجته أفواج الأرغفة الشهية المتكاثرة أمامه وحوله .

بعد لأي حاول إيقاظ فياض ، لكزه وصاح به وسخر منه ، ولكن فياض ظل يشخر ، فتركه وخرج يدور حول الفرن باحثاً عن مكان مستتر ليبول .

كانت الشمس قد أطلت ضاحكة ، وكان الناس قد أخذوا يتوافدون الى الفرن ، فيمم نحو العاصي ، وخلف حائط صغير متهدم ستر مابين فخذيه وبال ، ثم دنا من النهر ، واغترف ملء كفيه ، ومسح وجهه ، ثم فرك شعره .

أفعمته برودة الماء نشاطاً ويقظة ، لكأنه لم يسهر طوال الليل . التقط ملء قبضته من الحصى وراح يضرب صفحة النهر . تلامحت له فوق دوائر الماء المنداحة صور ياسين الحلو وهند ورستم آغا والطيز المشوية وبلاطة الفرن والصاج المحمر ، فرمى بالحصى بين قدميه ، واستدار يسأل الله أن يجعل هذا الصباح صباح الخير .

عاد مسرعاً الى الفرن ، فاذا بفياض ممسك برقبة الفران يصيح :

ـ ياكلب ياغشاش . دوختني بكلامك الحلو منذ العشاء . جعلت قلبي ينفطر عليك . لو كان بجيبي كم قرش لتصدقت بها عليك . ياكلب ياغشاش أين ستفلت مني ؟

في زاوية الفرن الشمالية كان صبيان صغيران آخران يبكيان مطرقين . أمام موقد الفرن كان الصبيّان اللذان ساهرا عزيز وفياض أيضاً مع معلمهما ، واقفين ، يتفرجان ، كأن الأمر لايعنيهما البتة .

فك عزيز أصابع فياض عن رقبة الفران صارخاً :

ـ خنقته . . ماذا جرى ؟

صاح فياض بالصبيّين اللذين في الزاوية :

ـ تعالا تعالا . تبكيان . . هه ؟ ياحرام . البكاء ليس هنا . البكاء في الحبس . .

حشرج الأصغر :

ـ ماذنبنا نحن ؟

صرخ الأكبر :

ـ المعلم يأمر ونحن نطيع .

التفت فياض الى عزيز :

ـ ألم نتفقد ماوراء ذلك الباب منذ دخلنا ؟ هل رأيت غير أكياس الطحين ؟

هز عزيز رأسه نافياً . قال فياض :

ـ وأنا أيضاً . لكن الكلب الغشاش أخفى كل شيء بدقة . داهية . حتى الأولاد أخفاهم . النخالة ، جرار الماء ، جرن العجن . كل شيء مرتب وجاهز خلف الأكياس المصفوفة ، يا سلام ، بكل عناية ! أكياس تملأ الغرفة من بابها ماشاء الله !

توجه عزيز الى الباب الخشبي المفتوح وفياض يتابع صياحه :

ـ الى أين ؟ لولا أن ضرط هذا الصوص وضحك هذا الصوص لانطلت الحيلة الخبيثة علينا . .

ضحك الصبيان الواقفان أمام الموقد ، ولم يستطع عزيز أن يكتم ضحكته ، وفياض يصيح :

ـ تقول صوت مدفع ؟

تساءل عزيز من خلال قهقهته :

ـ الفصّ أم الضحكة ؟

وكان قد عاد يواجه الفران ، فسأله :

ـ كيف كنت ستخرج العجين من الغرفة ونحن هنا ؟ هيا أمامي هيا . تعال يافياض . هات الصبيان كلهم وأغلق الفرن .

أثنى القائد بنفسه على فياض وعزيز ، وقهقه عالياً حين ذكر فياض صوت الضراط الذي علا على هدير الفرن ، ولم يلبث الخبر أن شاع في صباح القشلة ، يطلق الضحك ، ويجعل من عزيز اللباد وفياض العقدة علمين فيها .

★ ★ ★

أسرع عزيز الى سريره ، وغرق في نوم عميق . أما فياض فلم يستطع أن يغفو . كان بكاء الصبيّين يختلط في سمعه بقهقهة عزيز والقائد بصوت الضراط ، فيضحك هو الآخر ، ثم لايلبث أن يغص ، يخشى أن يكون قد تسبب بأذى لايحتمل لذينك الصبيين الصغيرين . وإذْ أفاق عزيز قبيل الغداء ، كانت عينا فياض حمراوين ، كأنه لم يغف لحظة على الأكياس .

اقترح عزيز أن يتناولا الغداء خارج القشلة ، ويتفرجا على حماة ، مادام القائد قد كافأهما وسمح لهما أن يخرجا إنْ شاءا في النهار .

قال فياض وهو ينهض منهكاً :

ـ عدّ مافي جيبك .

وسار خلف عزيز الذي اختار طريقاً آخر ، غير الذي سلكاه هذا الصباح من الفرن الى القشلة . أطلت من الشرق بيوت بيضاء وعالية ، تزدان واجهاتها بالعرائش النضرة ، فأبهجت فياض الذي تلكأ يتملّى ، ثم صاح بعزيز وهو يلحق به مسرعاً :

ـ ما فيه مثلها في الشام .

توقف عزيز وعنقه تدور في الجهات جميعاً ، ثم تعود الى الشرق . خيل اليه أنه قد رأى هذه البيوت من قبل . ربما بالأمس ، أو حين عبر بحماه وهو ينشد ياسين واسماعيل . ثم غذّ السير يجزم في سره أن تلك البيوت ليست إلا لواحد مثل رستم آغا أو ابن الدباس أو الذين صدعه المكاري بأسمائهم . وإذْ هم بأن يحدث فياض بذلك داهمته أصداء صاخبة من الغرب . التفت الى فياض فإذا به قد سبقه نحو الأصداء المتعالية . أسرع خلفه في منحدر عريض متفرع عن يمين الطريق، وأطل فجأة على الساحة . توقف فياض وتوقف هو على أمتار منه . بدت الساحة تغص بالرؤوس المغطاة ، وأمام البناء في صدارتها ظهر صف من العساكر ، أما على شرفة البناء الحجري فقد أطلت رؤوس عديدة ، وحراب أخرى .

ـ ماذا تظن ؟

سأل فياض مضطرباً .

ـ ظني الفران لم يكذب في كل ماقال . ماذا أظن ؟ مظاهرة . ألا ترى ؟ مظاهرة مثل مظاهرات الشام .

ـ هل نعود ؟

مدّ عزيز خطوته في المنحدر مستنكراً :

ـ الى أين ؟ هيا بنا .

لم تكن ثمة هتافات . كان فقط الهياج والهرجْ والشتائم والشكوى . وماكادا يقتربان من الساحة حتى رشقتهما العيون بنظرات غضبى . توقف عزيز فيما ظل فياض يسير حتى انزجّ بين الناس . سمع عزيز صوت فياض يعلو بكلام لم يتبينه ، فأسرع اليه . كان ثمة من يشهر كفه في وجه فياض :

ـ أين سلاحك أنت الآخر؟ رجال يا حسرتي ! أسود !

تكشفت مقدمة أكمام الرجل عن شعر أشقر كث . التفت فياض الى رجل آخر متضرعاً :

ـ بالله عليك لماذا لايريد أن يفهم ؟

ـ هه يافياض ؟ تعال .

قال عزيز قلقاً . قال الرجل الآخر :

ـ تركتم فينا عقل حتى نفهم ؟

قال فياض وهو يتجه نحو عزيز :

ـ الأخ لايصدق الا أن الحكومة أرسلتنا من هذه الجهة حتى نطبق على الساحة .

والتفت الى الرجل الذي لاتزال كفه مشهرة في الفضاء :

ـ هانحن الاثنان فقط . صدقت ؟

ـ لادخل لنا ياجماعة . .

خاطب عزيز من حوله ، ثم شد ذراع فياض آمراً :

ـ هيا بنا .

صاح رجل ثالث :

ـ لادخل لكم ؟ لولاكم ماذا تستطيع الحكومة أن تفعل بنا ؟ دخلي أنا اذن أم دخل أمّي ؟ هل تحشو الحكومة بطونكم حتى تتمرجلوا علينا ؟ ماذا يهمكم ؟ تأكلون وتلبسون وفي آخر كل شهر تملؤون جيوبكم ؟

لم يستطع عزيز أن يداري غيظه :

ـ تحشو بطوننا بالتبن . تظن أننا نأكل أفضل منك ؟ تحسدنا على هذه البذلة ؟ لو كان عندنا مانحشو به بطوننا مثلك ما لبسناها .

جاء صوت أبحّ من الخلف :

ـ اخزوا الشيطان ياجماعة . كل واحد همه يكفيه . اسألوني أنا . جربت بذلة الحكومة حتى اهترأتُ قبل أن تهترىء ، فماذا نلت من الدنيا ؟ ابن الحكومة عبد مأمور .

انسحب عزيز وفياض نحو الجسر ، مغادرين الساحة ، يتحاشيان الاحتكاك بالناس ، ويلتفتان بين خطوة وأخرى صوب الشرفة متخوفين .

قطعا الجسر بسرعة ، فتناءى عنهما اللغط ، فيما علا صوت الناعورة القريبة . قال فياض :

ـ هذه الحكومة بنت حرام . .

تابع عزيز السير صامتاً يفكر فيما إذا كانت الحكومة تستطيع أن تطعم الناس جميعاً ؟ بل ماشأنها بذلك ؟ أبناء الحكومة يسعون أيضاً خلف لقمتهم . ماذا يفعل اذن هو أوفياض أو هولو أو العم حاتم ؟ كل إنسان يسعى خلف لقمته ، ولكنّ سعياً عن سعي يختلف ، ولقمة عزيز اللباد غير لقمة القائد . لقمة بيت اللباد غير لقمة بيت بشارة وغير لقمة بيت الدباس . الصبي الذي ضرط يسعى والفران يسعى . عبد الودود السعد يسعى وعمر التكلي يسعى ، فهل سعيهم كلهم سواء ؟ ياسين الحلو يسعى ورستم آغا يسعى فهل سعيهما سواء ؟

كانت الأسئلة تترى أعلى فأعلى في أذنيه ، وفكر في أن الأمر ليس كذلك . ليس كل رجال الحكومة مثل بعضهم . ليس كل الناس سواء .- أصابع اليد ليست مثل بعضها . كلمة بشارة أو ابن الدباس أو رستم آغا مسموعة عند الحكومة ، غير كلمة ابن اللباد أو ابن العقدة . الحكومة لاتقيم أدنى وزن لابن اللباد ومن هو مثل ابن اللباد . لابد أن أولاء الرجال الذين تحلقوا حوله وحول فياض قبل قليل محقون . لماذا حبست الحكومة مندوب العمال اذن ؟ لماذا تحشد العساكر في وجه هؤلاء الجائعين ؟ لماذا تلمع الحراب على شرفة البلدية ؟ ماذا تراه يفعل غداً إن أمرته الحكومة بضرب هؤلاء الذين يملؤون الساحة .

قطع فياض عليه ماهو غارق فيه متبرماً :

ـ الى متى نسير هكذا ؟ أين صرنا ؟

تلفت عزيز حوله ، فلاح له الخان الذي تاه عنه . انفرجت أساريره وقال :

ـ وصلنا . ولكن قل لي ياأخي : اليوم أخذنا الفران الى الحبس . طيب . ماذا تفعل غداً إذا أمروك بحبس واحد أو عشرة من الذين يشكون الفقر أكثر منك ومني ؟

هز فياض رأسه حائراً ، وقال :

ـ وما تريدني أن أفعل ؟

قال عزيز بحزم :

ـ أما أنا فلن أفعل .

قال فياض بعد لأي :

ـ ولاأنا . ولكن هل فكرت فيما يكون جزاءنا اذن ؟ ألم تسمع القائد يهدد كل من يتهاون في تنفيذ الأوامر ؟ كيف اذن سيفعل بمن يخالف ؟ لو تركنا الفران والصبيان وعرفت الحكومة ، فماذا كانت ستفعل بنا ؟

قال عزيز بأناة :

ـ هذا ليس مثل هذا . ترك الفران غير ضرب هؤلاء أو حبسهم . فكر يافياض . أنت خائف ؟ ماذا يستطيع أن يفعل القائد بنا ؟ يخوزقنا ؟

قال فياض حائراً :

ـ هذه حكومتنا ياعزيز . لو كان الأتراك . . كنا فهمنا .

أسرع عزيز مقاطعاً :

ـ حكومتنا على الرأس والعين . ماقلت لا . ولكن ليس من حكومة على وجه الارض تشتريني ببذلتها .

كانا قد وصلا الى بوابة الخان ، فألقى عزيز بالسلام، محاولاً أن يتذكر أياً من الوجوه الجالسة . هب أحدهم مرحباً ، ثم سكت فجأة يدقق في وجه عزيز. أدرك عزيز أنه صاحب الخان . سلّم عليه ثانية بحرارة مذكراً بنفسه . بالغ الخانجي في الترحيب ، ونادى صبياً في الداخل كي يحضر كأسين من الشاي . اعتذر عزيز متعللاً بأوامر القائد ، وردد فياض الاعتذار مضيفاً أنهما في طريقهما الى تناول الغداء . نادى الرجل الصبي وأقسم بالطلاق أنهما لن يتغدّيا خارج الخان . سأل أحد الجالسين :

ـ أنتما من عساكر القشلة الجدد والله أعلم !

رد الخانجي باعتداد :

ـ طبعاً .

وأقبل على عزيز معاتباً :

ـ أين كنت مختبئاً عنا كل هذه المدة ؟

أوضح عزيز أنه وفياض قد نقلا الى حماه منذ أيام فقط . وكان الصبي قد جاء بطبق صغير، فراح الخانجي يلعنه ويلعن شحّ هذه الايام . مدّ عزيز يده الى الرغيف، وهو يسأل عما إن كان لدى الخانجي خبر عن المكاري .

قال الخانجي :

ـ رحمة الله عليه . أعطاك عمره .

توقفت اللقمة في حلق عزيز ، فيما تساءل فياض وهو يزدرد :

ـ من يقودنا الى اسماعيل معلا ؟

بمشقة تناول عزيز بضع لقيمات ، وراح يشرب الشاي مردداً الرحمة على المكاري ، يكتم تخوفه من أن تكون الطريق الى أبي عاطف قد انقطعت . أتى فياض على مافي

الصحن ، وقبل أن يشعل سيجارته التفت نحو الأصوات المقتربة ، وهب واقفاً :
ـ انظر ياعزيز انظر . .

واندفع يضحك ويردد :
ـ عزيز يا عزيز : صدق أو لا تصدّق .

انه أبو عاطف ، اسماعيل معلا ، بلحمه ودمه ، وعزيز ينتزعه من حضن فياض غير مصدق ، يفرك جفنيه الدامعين براحتيه ويوحد الله ، ولايعود قادراً على اللحاق بلسانه ، فما الذي جاء باسماعيل معلا الآن الى هذا الخان ؟ هل تزوج حقاً ؟ ألم تلد له فاطمة بعد ؟ هل رأى المكاري قبل أن يموت ؟ وأين ذهب البغلان ؟ لقد ارتاحت فاطمة اذن من النير ، ولكن كيف هي معاشرة المجانين ؟

لم يكد يفسح عزيز لأحد بكلمة ، حتى جاء الصبي بالشاي لأبي عاطف ورفاقه الخمسة ، فسأل الخانجي واحداً منهم عما جاء به بعد انقطاع طويل ، ورد أبو عاطف متباهياً بالأفواج التي تندفع كل يوم من القرى القريبة ، منذ شاع خبر المظاهرات ضد الغلاء والجوع . أقسم أبو عاطف أن الأفواج ستزيد كل يوم حتى يرى الناس ماذا ستفعل الحكومة ؟ أقسم أن الناس يتركون الأرض ووعيد الملاكين ويبكرون الى حماه كل صباح ، ولايغادرونها حتى العصر ، والتفت الى فياض وعزيز متحسراً على أنه لن يقدر على البقاء بعد أن تنتهي الشاي . فلا بد أن يصل الى فاطمة قبل المغيب حتى لايجن جنونها . والطريق طويلة محفوفة بالمجانين . وضحك ، وضحك الجميع ، وهو يقسم أن فرحة فاطمة الليلة ستكون أكبر من فرحته . انها تعرف منه عزيز اللباد وفياض العقدة وراغب الناصح وياسين الحلو وحمادي الحسون أيضاً . وهاهو الله قد حقق أمله بأن يجمعها بهم ذات يوم . تحسر فياض وعزيز على أنهما لن يقدرا أيضاً على البقاء بعد أن تنتهي الشاي . وتعلل أبو عاطف بلقاء الغد ، وتعلل عزيز بالأيام القادمة . فمادام وفياض في حماه ، ومادام أبو عاطف غير بعيد ، فسوف يلتقون . سوف يحيون أيامهم الغالية السالفة ، ولن ينسوا فضل هذا الخان ، على الرغم من أن الخانجي كان قد غادرهم زاهداً الى مجموعة أخرى من الرجال في الداخل ، يختلس بملل النظر الى كؤوس الشاي التي لاتريد أن تنتهي . وكان المؤذن يرفع أذان العصر .

★ ★ ★

ليلة أخرى قضاها بلا نوم أيضاً ، في فرن آخر . كان فياض أكثر يقظة وحذراً ، يتحيّن أن يسجل نصراً جديداً ، ولعله لذلك كان يداور التمني في أن يغفو عزيز ، أو يلهو ، وأن يغش الفران الذي لم يقدم الشاي ولا الكماجة المنفوخة الحمراء المرشوشة بالسمسم .

بصمت ونشاط ثابر الفران وأجراؤه الثلاثة على العمل طوال الوقت . لم يلحظ فياض ولاعزيز أية محاولة للغش . وحين عاد الى القشلة غمرتهما فرحة العساكر بإلغاء مهمة مراقبة الأفران، من أجل مهمة جديدة أكبر ، لم يعلن عنها بعد . كما تحدث العساكر عن منح القائد إجازة قصيرة لمن يستطيع أن يقنعه بأسبابه .

كان يمكن لفياض ـ ولعزيز أيضاً ـ أن يخمن أي نوع للمهمة الجديدة الأكبر ، سوى أن تكون الحملة على مرجمين . إذ ماكاد الغداء يحلّ حتى تناقلت ألسنة العساكر مالم يقدر فياض ولاعزيز على تصديقه :

ـ قائد القشلة سوف يقود الحملة بنفسه . الفلاحون في مرجمين متمردون منذ رحل الأتراك . طردوا صاحب الأرض وطردوا وكيله . أكلوا حصتهم وحصة غيرهم . حتى حصة الحكومة أكلوها . وعلى الرغم من أن الحكومة أنذرتهم عشرين مرة ، لم يرعووا . صاحب الأرض صاحب شوكة . كلمته لاترد في الشام ، لااليوم ولاقبل اليوم . قائد القشلة نفسه عازم على أن يلقن مرجمين درساً لاتنساه . قائد القشلة نفسه صديق حميم لابن الفطيم .

كان مايسمعه فياض يلجم أذنيه ويفغر فاه . عزيز هو الذي استطاع بعد الوهلة الأولى أن يسأل من عسكري الى آخر ، من شاويش الى آخر ، ثم تحيّن كل فرصة مؤاتية ليسأل ضابطاً ، اثنين ، ولم يلبث القائد بنفسه أن ظهر في اجتماع مسائي مفاجىء لكل من في القشلة ، وأعلن المهمة الجديدة الاكبر .

كثيرون من العساكر كانوا يفورون حماسة . وعزيز ، شأن فياض ، لايجرؤ على أن يلمح الى مابه . طار النوم من عيونهما . لم يعودا منهكين ، في الليلة الثالثة التي تمضي بلا نوم . بيد أن ظلاً قاسياً وكثيفاً من القنوط كان يرين عليهما . كان فياض يزفر ، يشعل السيجارة من السيجارة ، وعزيز يهمس متسائلاً :

ـ والآن ؟

وإذ لايحير فياض جواباً ، يضيق به كما بنفسه ، ويضاعف همسه الحذر :

ـ خرست ؟ انطق بكلمة .

في لحظة ما ، ربما كان الفجر يطلع فيها ، همس فياض :
ـ نويت أهرب .

كان عزيز قد أيس من أن يجعله يتكلم . وربما كان يفكر فيما اختار فياض .

فردد :
ـ نهرب ؟ الى أين ؟ نهرب ممن ونلجأ الى من ؟
قال فياض :
ـ لادعوى لك .
زجره عزيز :
ـ ألا تفكر إلا في نفسك ؟
قال فياض :
ـ ماذنبك ؟
ـ مثل ذنبك ، إلا اذا كنت لاتفهم .
صمت فياض ، أو حرد ، فأردف عزيز :
ـ الولد ولد . .

طال بفياض الصمت أو الحرد . كان بوسعه أن يبكي ، أن يصرخ بعزيز وبهؤلاء الذين يشخرون . ماذا يستطيع أن يقول أو يفعل إلا أن يهرب ؟ أنّى له أن يرافق الحملة ويطلق الرصاص على مرجمين ، بالأمس كان وعزيز يتبادلان العزم على أن يرفضا الأمر بمواجهة المتظاهرين في الساحة إنْ أمرا بذلك . والآن هاهو أمر أقسى . أمر أكثر مباشرة وخصوصية ، فلماذا يسأل عزيز ؟

كانت الأسئلة تدوم في أذنيه ، تتداخل بذلك الصوت الخفيض الحازم لنظير الصوان ، بغنائه الشجي وهما في البرية . للتوّ كانا يدوران حول مرجمين ، في زيارة فياض الأخيرة ، وقد أصرّ أبو عبد اللطيف على أن يخطفا أرجلهما لساعة أو ساعتين ، حتى يصطادا مايلذ مع كأس العرق . لكنهما عادا خائبين ، ونجوم تضحك ، وعينا فياض تحضنان طلعتها ، تقبلان خصلة الشعر التي لا تفارق الجبين ، تهفوان الى الشامة التي تتوسط الذقن الدقيقة . أما نجوم فقد أدارت ظهرها ، لتغيم عيناه في الشعر المنفلش الغزير ، بل ليطبق عليهما هذا السواد ، اذ لم يبق أمامه إلا أن يطلق النار على بيت الصوان .

كان صوت عجلات القطار يهدهد حلمه ـ وعزيز غاف على كتفه ـ بالبيت الذي سوف يؤويه ذات يوم غير بعيد مع نجوم . كان يطمئنه وهو في طريقه الى حماه أن العثور على بيت فيها سوف يكون أيسر منه في الشام ، فاذا به مجند في الحملة على مرجمين ، ولا بيت في الشام ، ولا في حماة ، ولا في أي مكان له ولنجوم . سوف تموت نجوم ، سوف يموت نظير الصوان ، سوف ينهدم البيت وفياض قابع في سريره ، يتقلب على أشواكه ، ضائع في ظلمته . لقد ردد العساكر أن مدفعيّ القشلة سيرافقان الحملة من قبيل الاحتياط . وعزيز أكد ذلك . الضباط أكدوا ، وليس الأمر اذن رصاص وحسب ، بل قنابل أيضاً ، كما في الحرب . إنها حرب جديدة يسعى اليها فياض بنفسه . لا . لن يكون ذلك أبداً . سوف يلحق فياض بحمادي الحسون . سوف يفرّ من هذه الحرب كما فر حمادي من تلك . أما عزيز ، فهو حرّ .

كان المهجع قد ضاء قليلاً ، وأخذ العساكر ينهضون ، حين قفز من سريره يخاطب عزيز وهو مندفع نحو الباب :

ـ انتظرني .

قفز عزيز من السرير وركض نحو الباب ونادى عاليا ، لكن فياض كان بعيدا ، أمام غرفة القائد . تسمّر عزيز وبعض المستيقظين حوله يتساءلون ، وفياض يختفي داخل الغرفة ، ثم يخرج راكضا وكفه تلوح منادية عزيز . لاقاه عزيز في منتصف المسافة ، وانطلق صوته لاهثا :

ـ أعطاني إجازة لهذا اليوم فقط . قلت له أمي في المشرقة وأخوتي ما لهم أحد . لن أذهب الى هناك . . سأذهب الى مرجمين . لأخبر عمي نظير . اسمع ياعزيز . قد أهرب بنجوم . أنا لا أعرف ماذا سأفعل . . لا أعرف ماذا يقع ؟ يمكن لا تراني بعد اليوم . لا تزعل مني . أتمنى أن تأتي معي ، ولكن ما ذنبك ؟ أتمنى أن نبقى معا ، ولكنني غير قادر .

وتابعا المشي نحو باب القشلة .

اختلطت على عزيز الفرحة بالحيرة بالتوجّس . فكر في أن فياض قد يكون معنيا أكثر منه بما سيكون ، ولكن ماذا لو كانت الحملة على غير مرجمين ؟ هل كان سيشارك فيها ، سواء أشارك فياض أم لا ؟ ماذا لو كانت الحملة على المشرقة ؟ بل ماذا لو كانت على قبية؟ هل كان فياض سيشارك فيها؟ لا ذنب له ولا لفياض فيما تفعل الحكومة.

وعزيز أدرى بأنِ لا ذنب للفلاحين فيما تفعل ، فكيف لبندقيته أن تطلق عليهم الرصاص ؟

كان فياض يتكلم وعزيز غافل ، حتى انتبهت عيناه الى باب القشلة ، فتوقف يسأل :

ـ الى أين تهرب بها ؟

ـ دنيا الله واسعة .

قال فياض بصوت راجف . قال عزيز :

ـ ويد الحكومة طويلة .

ـ كانت يد الأتراك أطول .

ـ افرض أنها لم تهرب معك ؟ افرض أنها أصرّت على ألّا تفارق أهلها ؟

ـ سوف أبقى معها إذن .

ـ وتقاتل الحملة ؟

ـ أليس أفضل من أن أقاتل مرجين ؟

تبسم عزيز ، وعانقه قائلاً :

ـ على بركة الله . انظر ما يكون معك وعد اليّ . هل تسمع ؟ عد اليّ حتى نرى معاً مانعمله . إما أن نهرب معاً أو نقاتل معاً .

أبعد فياض صدره عن عزيز يتأمله مرتبكا ، ثم اندفع يعانقه وعزيز يدفعه :

ـ خنقتني يا مجنون . عجّل . لا تضيع لحظة من الاجازة .

★ ★ ★

عاف عزيز طوال النهار الطعام ، وفي العشية جافاه النوم . تحاشى مخالطة العساكر وهو يفكر في فياض وفي نفسه ، في مرجين وفي أهله ، في الحكومة وفي الهرب . كان نهب أفكار وذكريات عاصفة وموجعة ، ينوء بالحنين والخوف . ينشد أن يكون معه العم حاتم أو هولو أو أي صديق يعينه ويعين فياض برأي ، فما اعتزماه ليس هيناً . قد يقلب حياتهما رأسا على عقب . بل هو سيقلبها لا ريب . كان يحيره أن يكون ذلك من نصيبه ونصيب فياض وحدهما دون خلق الله أجمعين . أليس نصيب ياسين الحلو أو اسماعيل معلا أو راغب الناصح أو عبد الودود السعد أو هولو التكلي أو العم حاتم بأفضل؟ منذ متى لم

تنطلق من بندقيته رصاصة ؟ صدئت البندقية وهو لا يطلق . ألم يكن عليه أن يفلتها ذات يوم على بشارة ؟ أو على ابن الدباس ؟ كم كان عليه أن يطلق الرصاص بعد الحرب ! فهذا الظلم الذي يتنفسه مثل الهواء، لا يجدي معه غير الرصاص . لا يجدي معه غير الموت ، والأعمار بيد الله ، وعزيز لم يكن يوما جبانا . كل من حوله يشكو ، ولا أحد يطلق الرصاص . حتى هولو التكلي يشكو من ظلم أخيه . عبد الودود السعد يشكو من ظلم امرأته . ساحة البلدية تشكو ، صبيان الفران ، المكاري في قبره يشكو ، لم يعرف عزيز اللباد أحدا لا يشكو ، فالى متى سيظل قادرا على أن يترك الشكوى تصدع رأسه ؟ منذ كان طفلا والشكوى تصدعه ، وهو يدفن شكواه وشكاوي غيره في صدره حتى ضاق صدره به . فهل يكون فيما اعتزم وفياض وداع لزمن الشكوى ؟

ربما كان في صمته وانطوائه ، قبل أن يغادر الشام يتهيأ لمثل هذا اليوم . ربما كان يتصادى في قلبه وقع انفجار قريب ، انفجار للشام فيه ، أو له في الشام . أما في صمته وانطوائه هذا النهار ، فقد بات الانفجار يقينا ، ولسوف يبدأ غدا أو بعد غد في مرجمين . بل انه بدأ أمس في ساحة البلدية ، ولاأحدَ يعلم متى ينتهي أو أين ينتهي أو كيف ؟ ليست مرجمين بعيدة عن قبية ، ليست بعيدة عن صافيتا، كما أنها ليست بعيدة عن ساحة البلدية ، مرجمين قريبة من الشام كلها ، فيها الشام كلها . بل ان عزيز يجزم أن فيها الأمير نفسه، مادام فيها ابن الفطيم وقائد القشلة. فيها الانكليز أنفسهم والفرنسيون معهم، مادام الأمير وابن الفطيم وقائد القشلة فيها. فيها رستم آغا وياسين الحلو، الشيخ منصور وأبو عاطف، المكاري وابن البزّار ، فيها العم حاتم بلا ريب . فيها أولاء جميعا ، فيها كثيرون ممن يعرف وممن يجهل ، مادامت نجوم وأمها وأبوها وأخوتها وفياض العقدة وعزيز اللباد فيها. حتى إنْ تراجع قائد القشلة أو ابن الفطيم، ليس لفياض وعزيز أن يتراجعا . الانفجار وشيك وليس لهما أن يتراجعا . ولذلك أخذ انتظار أوبة فياض من الاجازة يثقل على عزيز . لذلك لم تفارقه بندقيته منذ العشاء . نظفها مرارا ، أصمّ عن عجب وهزء من حوله من العساكر ، وهو يتقرّى وقع قدمي فياض العائد ، يرقب باب المهجع المطبق بعد أن أغرق الجميع الظلام والنوم ، إلّاه .

★ ★ ★

كان فياض قد وصل الى مرجمين مهدود القوى . طالعه باب بيت الصوان مغلقا ، فوقف يتنصّت ، وفجر قلقه ماخيل اليه من صمت وموات . اندفعت قبضته تخبط الباب

حتى أفاق على انفتاحه وأبو عبد اللطيف يصرخ ويدفع .

تراجعتَ البندقية المركوزة في بطن فياض، وصاح أبو عبد اللطيف ثانية :

ـ أنت ؟ عفوك يارب .

واستدار يلعن الشيطان ويحمد الله على أن البندقية لم تفلت منه . رفع فتيل الفانوس فيما كانت عينا فياض تدوران في العيون التي أقلقها الخبط وأنكرت عليه حضوره . نادى أبو عبد اللطيف زوجته ونجوم وفياض المسمّر في العتبة . أمر أبو عبد اللطيف بالعشاء وبكأسين من العرق ، وجرّت فياضاً قدماه . جاءت نجوم بكأس من الماء ، فحارت أصابعه فيها ، واندلق الماء في حلقه وعلى ذقنه وثيابه . ضحك أبو عبد اللطيف وأمره بالجلوس الى جانبه مكررا :

ـ ماالذي جاء بك يافياض ؟

قبل أن تأتي نجوم بالكأسين كان قد أسرّ لمضيفه بما دار في القشلة . دلق أبو عبد اللطيف الكأس في جوفه وحث فياض على أن يشرب قائلا :

ـ أنت رجل وابن رجل . ماخابت نظرتي فيك .

ثم التفت الى ابنته :

ـ اسرعي يانجوم . لابد أنه جائع .

تناول فياض جرعة صغيرة ، وسأل خائفا :

ـ ماذا تنوي ياعمي ؟

ـ اشرب الآن . وبعد قليل تملأ بطنك وتنام . وفي الصباح نرى ما ييّسر الله .

قال أبو عبد اللطيف وهو يملأ كأسه .

ـ وأنا ماذا سأفعل ؟

سأل فياض أقلّ خوفا .

ـ ماذا ستفعل ؟

تساءل أبو عبد اللطيف ضاحكا، وهمّ بالكأس . قال فياض وهو يفسح لطبق القش الذي أحضرته نجوم :

ـ لو قاتلتم أقاتل معكم . لست وحدي . عزيز اللباد معي أيضا . وإنْ لم تقاتلوا فسنفرّ من الحملة . ولكن . .

ماعاد قادرا على أن يكمل . ود أن يبلع ريقه وتطلع الى نجوم ينشد العون . ارتجفت ذقن نجوم وتشابكت أصابعها . أنزل أبو عبد اللطيف الكأس دون أن يرشف منه وقال :

ـ ماذا أيضا ؟ مابك ؟

استعان على عجزه بجرعة كبيرة من كأسه . تمنى لو أن نجوم تتركهما وحيدين الآن . تمنى لو أن عزيز قد جاء معه ، لكان الأمر أهون . ولكن لابد له أن ينطق على أية حال . لاينبغي له أن يبدو ضعيفا أو ولدا غرا كما يقول عزيز :

ـ لم تقل لي ماتنوي أنت . لاأستطيع أن أتابع اذا لم . .

انتزع الكلمات انتزاعا ، فضاق به أبو عبد اللطيف ونهره :

ـ ماذا أنوي ؟ ماذا تظن بي ؟ ماذا تريدني أن أفعل ؟ هل تريدني أن أهرب ؟ اسمع يافياض . حتى لو كنت أنت في الحملة وضربت حجرة من أحجار مرجمين بالرصاص ، سأقتلك .

أضاء محيا فياض ، وعجّل ملهوفا :

ـ ونجوم ؟ والبيت ؟

ـ مثلهم مثل غيرهم . ليسوا أعزّ من أحد . غدا نفكر مع الفلاحين في ذلك .

التفت فياض الى نجوم التي لازالت تقف الى يمينه :

ـ نجوم ياعمي . .

هربت عيناها منه فتضاعفت شجاعته :

ـ تزوجني نجوم ؟

اندفعت نجوم مبتعدة ، فنادى أبوها :

ـ الى أين ياابنتي ؟ تعالي تعالي . .

نقل عينيه بينها وبين فياض ، وتناول كأسه على مهل ، شرب على مهل ، أعاد الكأس وأطرق . نقل فياض عينيه بينها وبين الرأس المطرق . خاف واحتار وعادت ذقن نجوم ترتجف وأصابعها تتشابك ، وعاد ينتزع الكلمات انتزاعاً :

ـ اعذرني ياعمي إذا طلبت الآن منك ذلك . الحملة هي التي جعلتني لاأنتظر . لاأحد يعرف ماذا سيقع . كان بودي أن تأتي أمي وأخوالي ليخطبوها منك . رقبتي أمامك ياعمي . لاتزعل مني .

كان أبو عبد اللطيف قد رفع رأسه ، يفيض حنانا وثقة ، يغالب الأسى الذي داهمه ، ويشير الى نجوم كي تجلس بينه وبين فياض ، فيما صوت أمها يناديها ، فرد الأب :

ـ تعالي ياأم عبد اللطيف . اتركي مابيدك وتعالي . فياض يطلب يد بنتك .

ولفّ كتف نجوم بذراعه سائلا :

ـ ماقولك يابنتي ؟

أطرقت نجوم تغمغم ، وكانت أمها قد وقفت قربها . قال أبو عبد اللطيف :

ـ ماقولك ياأم عبد اللطيف ؟ فياض ابن حلال .

انحنت الأم على ابنتها قائلة :

ـ الأمر أمرك . .

ـ باركي لها اذن . مبروك يافياض . غدا تحضر معي بين الفلاحين حتى يعرفوا صهرهم . خذ كأسك .

قال أبو عبد اللطيف وهو يتناول الكأسين ويصافحهما ، فامتدت أصابع فياض المرتعشة ، وهمست أم عبد اللطيف مباركة وهي تكفكف دمعتها . أما نجوم ، فقد كانت عاجزة عن أن تنبس أو تسمع أو ترفع عينيها من حرجها . كانت في تلك اللحظة قد عادت الى النوم تتابع حلمها المبهم اللذيذ ، وإنْ كان أيضا يثير الخوف .

★ ★ ★

كان عزيز لايزال منزويا مع بندقيته عندما ظهر فياض ضاحكا . نهض يلاقيه وقد أصابته عدوى الضحك . صاح فياض :

ـ بارك لي . .

ودار حول نفسه ، ثم دنا من عزيز هامساً :

ـ اياك أن تغلط . أين كنت ؟

ـ في المشرقة ، فهمنا ، لكن بماذا أبارك لك .

تساءل عزيز مشوقاً ، فعاد فياض يهمس ويدور حول نفسه ، وصفق عزيز ، وأخذ يدور هو الآخر حول نفسه ، يصيح بالآخرين كي يباركوا للعريس ، ولكن فياض دفعه بعيدا ، فلا وقت للفرح مادامت مرجين سوف تقاتل . الأولاد والنساء والعجائز بدأوا يبرحون القرية قبل أن يغادرها فياض ، يتوزعون على القرى القريبة . أبو عبد اللطيف سوف يقود مرجين مثل أبرع الضباط . طاف بأصحاب البنادق وفياض معهم حول القرية . قال للرجال هذا صهري سند ظهري ، ووزعهم على خمس مجموعات . أمر الجميع ألّا يبدأوا القتال حتى تقع الحملة في المصيدة . وعندئذ يكون قد بدأ دور فياض وعزيز .

كانت الكلمات تتدافع على لسان فياض ، وعزيز يلهث خلفها ، يرى نفسه كما رسم أبو عبد اللطيف ، قد انطلق وفياض مع الحملة ، مثل أي عسكري في هذه القشلة ، حتى اذا وقعت الحملة في المصيدة وابتدأ القتال ، يطيران الى احدى المجموعات . هكذا لن يستطيع أحد أن يحاسبهما على الفرار . وهكذا سوف ينتصر نظير الصوان على قائد القشلة. سوف تنتصر مرجمين على ابن الفطيم وعلى حكومته، وسوف يمكن لعزيز أن يبارك لنجوم ولفياض ولنفسه .

للمرة الأولى منذ أيام استطاع كل منهما أن يغفو طويلا . وفي الصبيحة التالية تسلّما مثل أي عسكري في القشلة كمية اضافية من الذخيرة ، ولبثا ينتظران انطلاق الحملة ، يتقدمها المدفعان والقائد .

لم يتبادلا خلال المسير سوى همسات قليلة . واذ شرع الليل ينسحب ، بدت مرجمين بساطا من البيوت الطينية المتلاصقة الخائفة . رآها عزيز صغيرة وبريئة ومسالمة ، وخشي فياض أن تكون قد هانت ، وأن تكون الخطة السرية العتيدة قد افتضحت أو ارتبكت .

فوق التلة المطلة على القرية انتصب المدفعان . ومع شروق الشمس كان القائد قد أنهى تفقده للحملة حول المدفعين وخلفهما ، فرداً فرداً ، ثم أمر بالاستراحة حتى الظهر وهو يتطلع الى القرية .

جل من في الحملة استلقوا ، سوى من كلف بالحراسة أو ابتعد ليبول . منهم من توسد ذراعه وأغفى ، ومنهم من علق ناظريه على مرجمين . أما فياض فراح يتلصص مغافلا من حوله ، حتى يحدد لعزيز أين سوف يكون عليهما أن يختفيا ويتسللا الى الطرف الآخر ، مؤكدا أن الحملة جاءت من حيث توقع أبو عبد اللطيف تماما .

لم تلح في مرجمين أية حركة تدل على الحياة . لابشر ولاحيوانات ولاأصوات . ولما نادى القائد على العساكر كي يستعدوا ، أعلن وهو يأمر المدفعين بالقصف :

ـ هربوا قبل ان تطلقوا رصاصة . ومع ذلك تلزمهم تربية .

سقطت القذيفة الأولى في الطرف الشمالي ، فحمد فياض الله . سقطت القذيفة الثانية وسط القرية ، فتضاعفت دقات فؤاده . أخذت الأسطحة تهوي والغبار يتصاعد . لفت سماء مرجمين سحابة كثيفة عكرة ، ولم يعد بوسعه أن يحدد موقع سقوط القذائف . أيقن أن بيت الصوان قد هوى ، ولم يعد قادرا على أن يتفرج ، فطمر رأسه بين ذراعيه ، ولم يرفعه حتى توقف القصف ، وكان القائد يقهقه ويسأل الحملة :

ـ ألا تنوون أن تقوموا بمشوار صغير في هذه الخربة ؟ اتبعوني .

اندفع القائد في المنحدر ، يتقدمه ثلاثة من العساكر وضابط آخر ، فيما حرص فياض وعزيز على أن يظلا في الميسرة، ولما انتهيا من المنحدر تباطأت خَطاهما حتى غدوا في الرتل الأخير . وما إنْ اندلع رصاص الحملة حتى دفع فياض عزيزا بالبندقية هامسا :

ـ يلّله .

وقفز فوق دباقة خفيضة . قفز عزيز متعثرا ببندقيته ، وانبطح الى جوار فياض حتى ابتعد رتلهما ، فتابعا الزحف نحو أكمة قريبة من البطمة . وقبل أن يصلا همس أبو عبد اللطيف :

ـ أهلا بالرجال .

وانهمر الرصاص على الحملة من الجانبين .

شب الفلاحون من مكانهم ، واندفعوا يلاحقون أرتال الحملة التي اختلطت ، وأبو عبد اللطيف يصيح بهم وهو يعدو :

ـ لاتتركوه يفلت . لن يُشفى غليلي إذا لم يفطس هذا الكلب . .

حرص فياض وعزيز على ألا يفارقا أبا عبد اللطيف ومجموعته ، فيما كانت أجسام عديدة تتلوى ، من العساكر ومن الفلاحين . وبغتة اخترقت رأس أبي عبد اللطيف رصاصة فترنح وصوته يدوي :

ـ الكلب قتلني . دونكم اياه . .

اخترقت رصاصة أخرى صدره ، وكانت يده تشير الى مقدمة الحملة . هوى رجل آخر كان يندفع نحو المجموعة . وتلامح لفياض أن القائد متخفّ خلف أحد الجذوع . احتضن بندقيته وانطلق زحفا نحو الجذع الغض وعزيز ينادي :

ـ الى أين يامجنون ؟

رأى فياض القائد يزحف نحو جذع آخر أثخن ، فوقف وأطلق رصاصة أو اثنتين . اندفع عزيز خلفه فيما ضابط آخر يمد رأسه من خلف الجذع الثخين ويصوب . صاح عزيز :

ـ انتبه يافياض . .

لكن رصاصتين أو ثلاثاً اخترقت ساقي فياض فراح يتراقص وعزيز يلاحق الضابط برصاصه دون جدوى .

كانت ساقا فياض لاتزالان تتراقصان وهو منبطح على الأرض حين وصل عزيز اليه ، وقلبه على ظهره ولبث ينقل عينيه من الرأس الى الصدر قبل أن يرى بقع الدم تتفشى في البنطال . مزقت يداه البنطال فيما كانت يدا فياض تنغرزان في التراب وترشقان عزيز الذي لم يعد يعرف مايفعل .

قال فياض وهو ينتزع الضحكة والكلمات :

- القط بسبعة أرواح وأنا قط . هذه أول روح . تعال . .

التفت عزيز وفياض يلح :

- قلت لك تعال .

دب عزيز نحوه وهو يتمتم :

- نجوم ياعزيز . نجوم أمانة في رقبتك. لو جرى لي شيء . أبوها راح وهاأنا . .

عاد عزيز الى الساقين المثقبتين يلعن نجوم ومرجين وفياض والحكومة ، وأخذ يعالج مزق البنطال والثقوب فاذا برصاصة تمرق قريبة .

تناول بندقية فياض فيما دوت رصاصة أخرى أقرب ، وكان صوت فياض يرجف :

- بالله عليك اتركني . . انج بجلدك . كرمى لي أسرع . لاتنس نجوم .

أزّت رصاصة ثالثة في اذن عزيز فانكفأ فوق صدر فياض ، وأحسّ بحرارة حارقة في صيوان الأذن . مدّ أصابعه يفركها فاذا بالدم يصبغ الأصابع وفياض يلح :

- عجل ياعزيز . مؤكد ينقذوني فلا تخف . .

دعك عزيز اذنه بكمه وانطلق محنيا يتلوى بين الجذوع ، وكان الرصاص يحاصره خطوة خطوة .

★ ★ ★

25

قبل أن تختفي مرجمين من عينيه ، رأى من على التلة المقابلة للمدفعين رجالا يحتشدون في فجوة واسعة ، وسط خرائب القرية . رأى النار توقد في الساحة ، وتناهت اليه أصوات الفلاحين مهللة ، والرصاص الغزير يئز في الفضاء .

في النهارات التالية طفق يدور من قرية الى قرية حول مرجمين ، يبحث عن نجوم : كانت أذنه اليسرى قد شرخت في أعلى الصيوان ، ولم يبد أن جرحها سوف يندمل سريعا . كان ينسى الجرح أثناء سعيه في النهار ، حتى اذا أطبقت العتمة ، ولجأ الى كنٍّ ما من البرية ، بدأ الجرح ينفث الحرارة في اذنه ، ويجعل وقع نبضه أقوى في سمعه ، فيروح يعد النبضات حتى يغفو متكورا حول البندقية .

البندقية والبذلة باتتا الشبهة التي لامناص له من التخلص منها . أعياه تشكك الفلاحين فيه، كما أعياه الحذر والجوع والمشي والخيبة في العثور على أثر لبيت الصوان . كان ثمة من أكد له أن حملة ثانية ضخمة قد عادت الى مرجمين، وأشعلت النيران في خرائبها ، انتقاما لانكسار الحملة الأولى وحرق الفلاحين لجثة قائدها . في كل قرية كان يسمع مايزيده بلبلة . واحد يؤكد أن فلاحي مرجمين قد هجروها وتشتتوا من حمص الى الجبل . واحد يؤكد أن الآغا سوف يأتي بفلاحين جدد . ثالث يجزم أن أسراً عديدة من مرجمين قد عادت تعيش بين الخرائب . وهو حائر ، خائف وقلق ، يحسّ نفسه ضعيفا ومغلولا ، حتى اذا صادف أخيرا من رضي أن يقايضه ببذّته مقابل البندقية ، تنفس الصعداء لأول مرة منذ هوى فياض أمام عينيه .

كان الوقت عصرا . وقد دعاه ذلك الرجل الى أن يقضي الليلة عنده . الا أنه آثر أن يبتعد ، مبطناً الحذر من أي غدر . فقد بات كثيرون ممن حول مرجمين يعرفون بأمر صهر بيت الصوان الذي فر من الحملة وقاتل مع حميه ضد الحكومة . ولئن كان يقرأ أحيانا الاعجاب في بعض العيون ، فقد كان يروعه في أغلبها الخوف أو الشك .

جدد القنباز والمداس من أمله بالعثور على نجوم ، أحسّ اذ تخلص من عبء البندقية والبذلة العسكرية أنه أوفر أمانا وأقوى . أحكم حول رأسه الشملة التي تردد الرجل طويلا في اعطائه اياها . مسّد فوق اذنه واطمأن الى اختفاء شرخها عن العيون ، وانطلق نحو مرجين من جديد .

كان وهو يقترب منها يفكر في أنه ليس من الحكمة أن يظل يسعى هاهنا ، خاصة أن لاأمل بالعثور على نجوم . كان يقارن بين أن يعجل الى حمص أو الى الجبل ، ولكن ليس قبل أن يبرىء ذمته نحو ربه وصديقه ، ويجرب لآخر مرة ، في القرية نفسها ، لعله يقع على أي أثر ، إنْ لم يكن لنجوم، فلأيٍ من بيت الصوان أو أهل مرجين .

كانت أشعة الشمس الغاربة ترخي على الخرائب ظلالا قانية ، وقد أطلّتْ عليها من فوق تلّة المدفعين. أمعن طويلا فلم تلح له سوى حركة ذؤابات بعض الأشجار التي لاتزال واقفة . أصغى طويلا فلم يسمع أدنى صوت . فك الشملة فلم يسمع الا صوت النسيم . أعاد لفها وتقدم يتأرجح على المنحدر . أخذت أصداء الرصاص تتردد في اذنيه وهو يقترب من الخرائب . فكر لأول مرة منذ اختفى عن عينه فياض في أن صديقه قد يكون مات . تعوذ من الشيطان وغذ خطاه ، لايجرؤ على أن يرفع عينيه عن الأرض . كان واثقا أنه ماإنْ يفعل حتى يرى فياضاً مسجىً ، وأبا عبداللطيف الى جانبه ، والقائد يلقي القبض عليه ويسوقه الى المشنقة .

كانت الظلال تزداد قتامة وهو يقترب من الخرائب . وفجأة داهمه صوت آخر ، سوى ماتوسوس به نفسه . صوت مبهم هو ، صوت طفل قد يكون ، أو صوت حمل . تلفت حوله فاذا به أمام ركام أحد البيوت المهدمة . حبس أنفاسه ينتظر الصوت ، فأطبق عليه الصمت . تجاوز الركام فعاوده الصوت . تسمّر خائفا وسمّى باسم الله الرحمن الرحيم ونادى :

- من هنا ؟

ترجع الصدى في أذنه أعلى وأنقى مما ينبغي . بلع ريقه وأنكر أن تكون الجن قد سكنت هذه الخرائب ، وأعاد النداء ، ثم تلاحقت النداءات على لسانه ، صارت صراخا مفزوعا ولائبا ، كأنما أصاب صاحبها مسّ ، حتى أعادت اليه الوعي يدان مشرعتان في وجهه وصراخ أقوى :

- هه . . هل جننت ؟

رفرف جفناه . أذار لسانه في حلقه الجاف وأعجزه النطق ، فيما انسحبت اليدان من أمامه ، وسمع الصبية تقول بعد لأي :

- لاحول ولاقوة الا بالله . أطرش أيضا ؟

تنهد مطمئنا الى أنه ليس أمام جنية ، وعاودته الروح . أمعن في الصبية وهمس محييا . ردت الصبية التحية مستنكرة، وسألته عمن يكون وماذا يبتغي ؟ اقتعد التراب وسأل وهو يدير رأسه حوله :

- أنت من مرجمين ؟

- نعم .

أجابت وهي تقرفص قبالته .

- تعرفين أحدا من بيت الصوان ؟

سأل وأصابعه تعبث في التراب .

- نعم ؟

صرخت به فانغرزت أصابعه في التراب ثم اندفع نحوها :

- تكونين نجوم ؟

وقفت الصبيّة متنمرة :

- ماذا تريد مني ؟

فرش ذراعيه في الهواء وقد أحس بعجزه عن النهوض ، ولهج يحمد الله ويردد :

- أنا عزيز يانجوم . عزيز اللباد . . أنا رفيق فياض .

شهقت نجوم وخارت ساقاها ، فأقعت أمامه تود لو تبكي ، وكان لسانها يسأل :

- أين فياض ؟

وفي الركن الذي لم يتهدم من البيت قضيا الليلة ساهرين حتى أعجزتهما أجفانهما ، فانطبقت . لقد رفضت أن يغادرا القرية الليلة ، ولم يكن ثمة سواها . لم يكن لديها مايؤكل ، فالجميع قد أخذوا متاعهم وغادروا . الجميع أرادوا أن ترافقهم وهي تعاند . أخذوا اخوتها الصغار وتركوها تتنقل بين القبور والخرائب . لقد قضت أمها أيضا . الحملة الأولى قتلت أباها والحملة الثانية قتلت أمها . هي التي جرت أمها وأخواتها اثر المعركة الأولى . الجميع أكدوا أن الحكومة سوف تنتقم ، وهي تعاند . لابد أنها كانت على ميعاد مع أحدٍ هاهنا ، ولذلك عاندتهم ولم تبرح . لا . لم تكن تنتظر عزيز اللباد . ربما كانت تنتظر فياض . ربما كانت تنتظرهما معا . ولقد أمضت اليومين الفائتين دون أن

تنطق بصوت . يومان لم تر طوالهما من يدب على اثنتين أو على أربعة . ومالنحبس في صدرها يتفجّر في وجه عزيز . هو نثار مجنون أو نحيب دام ، هو اليأس أو الأمل . وعزيز أخرس ، عاجز، حتى بعد أن انهدّت وأغفت، عن أن ينام . عزيز يحرسها ويفكر فيها أيضا مثلما يفكر في نفسه . لقد كان الأمر أهون قبل أن يقايض البندقية بالقنباز والمداس والشملة ، ويؤوب الى مرجين . كان بهمّه وحده ، فاذا به بهمها الأكبر . لاينبغي أن تبقى هنا مثلما لاينبغي أن يبقى هو . سوف يعودان يوما الى القبرين والخرائب ، أما الآن ، فعليه أن يعثر لها على ذويها . عليه أن يعثر لها على فياض ولكن ماذا إنْ لم يستطع ؟ هل يأخذها اذ ذاك الى المشرقة ؟ لماذا لايأخذها الى هناك أولا ثم يجدّ في اثر فياض ؟ بل لماذا لايأخذها الى العم حاتم ؟ لقد اكدت أن الذين اصطحبوا اخوتها قد اتجهوا بهم الى حمص . وفي حمص سوف يسعى معه ومعها العم حاتم ، فهيا يانجوم . لاوقت للنوم يانجوم .

ولكن نجوم ممددة على التراب كالجثة ، لاصوته ينفع في ايقاظها ، ولايده المرتعشة تجرؤ على أن تهزها .

★ ★ ★

مثل الشمس التي أشرقت بأناة ونقاء ، أفاقت أخيراً ، كأنها لم تكن الشريدة المنهكة الجائعة القانطة منذ ساعات . ولعل عزيزاً كان قد أغفى إذ حدثها كما في الحلم عن حمص وأخوتها والعم حاتم وفياض ، وسارا معاً بلا توقف ، بلا عجلة ولاإعياء ، يرسمان كيف سيذرعان المدينة عما قليل من أقصاها الى أقصاها ، زقاقاً زقاقاً ، ساحة ساحة ، يدققان في الوجوه ويسألان من يصادفان ، هو يسأل الرجال وهي تسأل النساء ، وأمامهما يكون العم حاتم ، يزف إليهما البشرى ، أو يروح وحده خلف أثر من فياض ، ليعود إليهما بالبشرى ، فيما يكونان قد جمعا شمل البيت المبدد .

في أول زقاق مبلط بالحجر الأسود توقف أمام شوّاء عجوز ينادي . توقفت نجوم وسال لعابها ، تنهد يملأ صدره بأنفاس اللحم الحارة . أخرج مافي جيبه يعد ، وسأل الشواء عما يريد . استدار إليها ضاحكاً وظافراً عندما رأى أن ماسوف يتبقى في جيبه يكفيهما لوجبات قادمة ، وانفرجت شفتاها عن أسنانها الدقيقة الناصعة .

على عجل تناولا الخبز واللحم وتابعا يخبطان في أنحاء المدينة . اعترضت سبيلهما

في أحد الأسواق المقبية جمهرة من الناس ، تتقدمها راية مزينة باسم الله والرسول والخلفاء .

خلف الراية كان يتهادى شيخ مسن فوق حصان أبيض . خلف الحصان كان ثمة حصان آخر كميت يعلوه شيخ فتي ، في مثل سن عزيز ، أو فياض . التصقت نجوم بجدار الدكان وأمسكت بذراع عزيز . صدح المكان بألحان شجية ، وترجع وقع الدفوف والمزاهر والدربكات . تمتم عزيز مردداً مع الناس :

مولاي صلّ وسلم دائماً أبداً

على حبيبك خير الخلق كلهم

وهمس في أذن نجوم :

ـ أظنه خميس المشايخ . فأل حسن . يا رب لا تمدّ في عذابنا .

كان الأولاد يهزجون أيضاً على جانبي الموكب ، وفي مؤخرته . أتلعت عنقها تتفحصهم لائبة . شدها عزيز الى الخلف منكراً :

ـ اتركينا منهم .

أحست أنها أوفر نشاطاً ، فصارت تتعجل مرور الموكب ، وإذ تابعا السير ، لم تعد تتأخر عن عزيز . سارا عكس اتجاه الموكب قليلاً ـ وربما كثيراً ـ فإذا بهما أمام جمهرة أخرى تتقدمها ألوان راياتها الزاهية . حاولا أن يتحاشيا الموكب الجديد ، فإذا بهما في غمرته ، وإذا بالجامع أمامهما . التصقت به وتشبثت بذراعه واستسلما لدفع من حولهما . سأل طفلاً بجواره عن وجهة الناس فصاح الطفل متعجباً :

ـ الى سيدي خالد .

فكر في أن سعيهما على هذا النحو قد لايعود بطائل . تذرع بالصبر وأشفق عليها مما يراوده . لهجت شفتاه بالدعاء راجية أن ينعم الله بالفرج القريب . فكر في أن زيارة سيدي خالد قد تجعل الله أرأف بهما ، فأخذ يجرها ويدافع من حوله ، حتى توقفا وسط المئات أمام الجامع . هرع الرجال الى الداخل لأداء الصلاة ، وود لو يلحق بهم ، إلا أنه خشي عليها أن تضيع مثل أختها . التفت إليها يتملى وجهها الضارع وعينيها المصلوبتين على هلال المئذنة . انخطفت عيناه صوب الهلال وضجت جوانحه بالرجاء ، وتمتم :

ـ توكلت على الله . .

ثم أمرها بالسير .

انقضى النهار هباء ، وبدت في المساء غير قادرة على الوقوف ، تغالب اليأس بعجزها وعجزه . سأل أحدهم عن الطريق الى المحطة، وقرع نفسه لأنه لم يفعل ذلك منذ الضحى . لم ينبس أحدهما بحرف طوال الطريق الى المحطة ، ومن المحطة الى بيت العم حاتم . كان أذان العشاء قد انتهى للتو، حين تلاحقت خبطاته على باب البيت المعتم ، أعلى فأعلى ، وأسرع فأسرع ، ولامن مجيب . لم يصدق أن لاأحد في الداخل ، وقد بدت له المدينة نائية جداً ، وقفراء . قرفصت أمام الباب تتأوه وتتلمس ربلتي ساقيها . قرفص قبالتها يزفر ، فإذا بالباب المجاور يصر . التفت منادياً :

ـ أين العم حاتم ياجماعة ؟

أطبق الباب بعنف وتناهى صوت عجوز :

ـ لم يشعل ضوء في بيته منذ يومين يابني .

وقف يضرب كفاً بكف ، ووقفت تندب حظها ، وهو يتمتم :

ـ هذا ما كان ينقصنا !

تهدل كتفاه وعنقه والسؤال عن مبيتهما الليلة يعجزه . أي خان سيدخل وأي باب سيطرق ؟ ماذا سيقول لأي كان عن هذه الصبية التي برفقته ؟ فكر في أن يطلب من صاحبة الصوت إيواءها ، فيما يقضي ليلة أخرى ساهراً في المحطة . تلامح له الخطر هناك ، وهو الفراري . أخذ يذرع مابين البابين المتهالكين المتجاورين لاعناً غفلته ونادباً حظه وحظها . انتزعه مما به صوتها وهي تشرق بالنشيج :

ـ انظر هناك . .

كان ثمة شيخ يتقدم بطيئاً نحوهما . اندفع ملاقياً فإذا بشيخ ضرير تنقر عصاه الحصى . ألقى السلام فلم يرد الشيخ . سأل عن العم حاتم فلم يرد الشيخ . أمسك بذراعيه معنفاً :

ـ أعمى ، فهمنا ، تسمعني أولا ؟

قال الشيخ وهو يذوده بعصاه :

ـ من أنت ؟

ـ الحمد لله .

تنهد عزيز وقال إنه قريب للعم حاتم أبو راسين الذي يسكن في هذا البيت ، وتلك بنت أخته . أكد الشيخ غياب العم حاتم وعصاه تبحث عن نجوم . سأل عزيز نفسه :

ـ أين سنذهب اذن ؟

توقفت عصا الشيخ وعزيز يتضرع له :

ـ هل تدلنا على مكان نبيت فيه جازاك الله خيراً ؟ أنا أستطيع أن أنام هنا لكن المسكينة . . ؟

تابع الشيخ سيره آمراً :

ـ اتبعني . . تعالي يابنتي .

سارا وراءه صامتين . دخلا الباب وجلين، وأصغيا إليه ينادي العجوز لتأتي بالسراج . أمر العجوز أن تتفحص الغريبين . سألها الرأي في إيوائهما حسنة لوجه الله ، وأمر عزيز أن يتبعه . سألت العجوز عما إنْ كانا جائعين واعتذرت عن خواء البيت . أثنى الشيخ على العم حاتم وإنْ كان لايؤدي الصلاة في المسجد . سأل عزيزاً عما إنْ كان يصلي فلوى لسانه مؤكداً . سأله عما يعمل ، عما جاء به ، عن نشيج نجوم المكتوم . حاصرته أسئلة الشيخ وصمت العجوز ونظرات نجوم وخشيته من أن يجيب بما يكشف كذباته المتكاثرة أو يغضب مضيفه ، حتى إذا أمر الشيخ بالنوم ، أسرع الى حيث أشارت العصا ، لايصدق النجاة .

في الفجر أيقظه الشيخ كي يتوضأ . أحس أن ساقيه تخزانه ، وأن نبضه يتردد في شرخ أذنه وفي صدغيه أعلى مما تعود . انقاد خلف الشيخ الى المسجد وهو يغالب برودة الفجر . أدى الصلاة مرتبكاً وغادر على عجل ، يتهرب من التراويح بالسؤال عن العم حاتم في المحطة . قال له أحدهم إن الرجل قد غاب فجأة على غير عادته . أسرع الى بيت الشيخ ينادي نجوم . كان الضياء قد جلا له بيت العم حاتم ، فأخذت عيناه تطوفان بالبيت ، تخشيان أن تطول غيبة صاحبه . جاءت نجوم تشدّ ذراعيها فوق صدرها مدارية النسمات الصباحية القارسة . حيته وسألته عما سيفعلان وعن الشيخ . مشى أمامها قائلاً بحزم :

ـ نبحث حتى العصر . وإذا ما ظهر العم حاتم ، آخذك الى المشرقة عند أم فياض .

وعبثاً وسريعاً أخذ النهار يملص ، أقل أملاً وأضعف عزماً . لم يتبادلا الكلام إلا قليلاً . لم يأكلا إلا قليلاً . وحين قدر أن ماتبقى من النهار لم يعد كافياً ، سأل أحدهم عن أقصر سبيل الى المحطة ، واندفع حيث أشار الرجل ، وهي لاتقوى على اللحاق به .

كان القطار قد وصل منذ قليل . وكان ثمة ضابط يأمر وجنود متسمرون . الضابط يختال ببزته الأنيقة الباهرة والجنود يتطامنون . تلمس عزيز ثيابه وهرب بعينيه بعيداً

اصطدمت نجوم بحمال ينوء تحت كيس كبير ، فراح يبربر ، وعزيز يتميز غيظاً منه ومن نجوم . تجاوزا الزحام نحو الطرف الغربي ، يأملان أن يكون الغائب قد عاد . لكن أحداً من زملائه لم يشاهده اليوم . تابعا السير نحو البيت وعزيز يتلفت خلفه وحواليه ، حتى إذا وصلا ، لم تجرؤ يده على أن تخبط الباب المغلق . لبثا صامتين حيناً ، قبل أن يدير ظهره للباب آمراً :

ـ لاأحد هنا . امشي .

جاء صوته غير ماألفت منذ ليلتين . كانت نبرته قاسية ويائسة . لحقت به نجوم مستسلمة . كان سيره أقرب الى العدو نحو المحطة . كان القطار يتأهب للانطلاق والضابط والجنود قد اختفوا . وقف هنيهة يقلب النظر في الوجوه القليلة الباقية ، يدعو الله أن يكون هولو في هذا القطار . انطلق القطار وهو يفكر في أنه منذ الأمس يدعو الله فيزداد بؤساً . عزم على أن لايرسل دعاء آخر وليكن مايكون ، والتفت اليها مخاطباً :

ـ أسرعي . كيف نهتدي الى المشرقة ؟

وكانت نبرته أكبر قسوة ويأساً .

★ ★ ★

26

لايعرف العم حاتم كيف استفاق عهده القديم المنسي ، ولاكيف نكث العهد ، فاشترى خلسة بطحة من العرق ، وأتى عليها في وحدة ليله وبيته ووحشتهما ، بعد أن انصرف جاره الشيخ رزق .

كان آخر عهده بالشراب حين شارف العشرين أو تجاوزها بقليل . وكانت شمّا قد ذبحت ، وغاب عن عينيه ـ ولسنين تلو السنين ـ البيت الصغير والسوق الصغير والنهر الصغير .

وعلى الرغم من أن ليلة شرائه البطحة قد صادفت أول سماعه بما يجري في مرجين ، الا أن ذلك لم يكن سببه المباشر، ولا من بين أسبابه الكثيرة الغامضة التي راح يتعلل بها وهو يشتري في ليلة أخرى بطحة أخرى . كان أشبه بمن ينقض صلحاً راسخاً مع نفسه ، بعد أن طال نزالها له ، وراحت تنتصر عليه ، تحرمه الهناءة والنوم ، ولاترضى بأقلّ من أن يرفع يديه وينصاع ، أو يجمع ذيله ويهرب ، فاختار الثانية ، وهي تلاحقه ، وهو يمعن في الهرب ، بطحة بعد بطحة ، ليلة بعد ليلة ، محاذراً في نهاره أن يقرأ أحد أي أثر فيه لما يكابد ويشرب ، من جاره الشيخ الضرير ، الى سائر الذين تعود أن يقضي النهار بينهم ، في المحطة أو في الحارة النائية أو في قلب المدينة .

كانت أصداء القصف والرصاص تتردد في صدره ، أقوى منها في فضاء مرجين ، يخشى أن يكون فياض وعزيز قد خاضا القتال ، مادامت الحملة الاولى والحملة الثانية قد قدمتا من حماه . ولعل مرجين كانت تغدو ، خبراً بعد خبر ، ويوماً بعد يوم ، مشجبه الجديد الأثير ، يعلق عليه مايصطخب في دخيلته ، حتى لم يعد أمامه الا أن يتوجه الى حماه ، يخشى أن يكون الأوان قد فات ، يغالب شكه في أن يكون الأذى قد نال عزيزاً أو فياضاً ، ويكتم حنقه لاختفائهما عنه كل هذه الاسابيع .

على باب القشلة تجرع الانتظار والخيبة . لم يسأل أحداً إلا كان جوابه نهرة أو ازوراراً . وقد قضى ليلته الاولى بلا بطحة . أما نهاره الثاني فلم يكن أفضل ، إذ لاأحد على يقين من مصير عزيز أو فياض . وفي المساء عاد الى حمص .

كان الشيخ رزق بانتظاره ليحدثه عمن آوى بالأمس . وكان في إصغائه لجاره كما في استزادته منه كأنما وقع على سند له في مواجهة نفسه ، خاصة أنه قد توجه من المحطة الى البيت ، دون أن يفطن الى البطحة .

لم يكن لدى الشيخ الكثير مما ينقع به غلّة العم حاتم . وشأنه كلما سهرا معاً ، ترك الشيخ أشتات ماعاش تتدافع على هواها . وشأنه كلما سهرا معاً ، أقبل العم حاتم على الضرير الذي يكبره بعشر سنين أو بعشرين ، يغبطه على عافيته رغم الشيخوخة والعمى ، يغبطه خاصة على أنه لايهرب مما كان وكان ، كما يفعل هو ، فالشيخ رزق يتطلع وراءه وأمامه ، على العكس من العم حاتم الذي انصلبت عنقه أماماً ، منذ غاب عنه البيت الصغير والسوق الصغير والنهر الصغير ، وذبحت شمّا .

للمرة الاولى خيل للعم حاتم أن ماينبش الشيخ رزق من خبايا عمره تعكره الحسرة . بل إن ماينبش الليلة بدا أوثق به منه بالشيخ . فهو أيضاً قد شهد السماء ذات يوم بعيد ترمي الأرض بحبات من البَرَد تكبر الواحدة منها البندقة . ليلة بكاملها ظلت السماء تقصف ، لاساعة كما يقول الشيخ . لم ينقطع البَرَد حتى هجم السيل على البيوت الطينية ، وأغرق جلّها ، وجرف معه عشرات من النساء والأطفال . جرف معه العم حاتم في أقصى الجزيرة، كما جرف الشيخ رزق في حمص ، لكن السيل رماه بجذع مما يحمل، فلم يغرق مثل أمه وشقيقته الصغرى . والشيخ رزق خرج تحت البَرَد ، يضاعف من استعداده للسيل الذي كان لابد من أن يهجم . كان الشيخ رزق يرى السيل هابطاً من السماء ، يغرق البرد نفسه . كان حاسر الرأس والبرد يضرب جمجمته ، ولم يلبث السيل أن أخذ يعصف بشرقي المدينة كله ، يجرف البيوت الطينية جميعاً وأطفال الشيخ رزق جميعاً . كان السيل يربو على خمسة أذرع أو ستة ، وفي الصباح بدأت الدنيا تغيم في وجه الشيخ ، والوجع الحاد ينخر رأسه .

ربما كان العم حاتم قد سمع من جاره رواية أخرى أو أكثر لسبب فقدانه النظر في شبابه . بيد أن الشيخ رزق كان يتكلم دوماً عن زمنه الذي انقضى باعتزاز . أما الليلة

فأساه يلوي بالعم حاتم . لقد عاود السيل حمص ثانية ، مندفعاً هذه المرة من جهة قطينة . غدر بالشيخ وجرف بيته الذي نجا من السيل الاول . وهكذا غدا بلا بيت ولاأولاد ، يركض مع العجوز في أنحاء المدينة خلف لقمة أو مأوى أو شغل . عملت العجوز في الحياكة وصار هو يلازم سيدي خالد . كانت المدينة تعج بكراسي الحياكة ، إلا أن أصحاب الكراسي أخذوا يرمون بالعاملين أو العاملات في جموع الجوعى والعاطلين . اندفعت الجموع ملء الأزقة والساحات . كانت سيلاً أكبر ، وكان الشيخ رزق وامرأته التي لم تعد تنجب وسط الجموع الصارخة أمام المخابز الفارغة . هاجم السيل الجديد المخازن والمحلات حول القشلة . حطم أقفالها ونهب الناس مافيها . هاجم السيل محطة القطار ، قتل مدير المحطة ، استولى الناس على مافي الشاحنات من حنطة وشعير وفول . نقلوا الغنائم الى البيوت والأوكار ، كذلك فعلوا أيضاً بالخانات ، حتى وصلت الحملة من الشام ، ولم يكن قائدها بأرحم من القائد الذي أحرقته مرجمين في ساحتها ، لكن حمص كانت أضعف ، وعمر قائد الحملة عليها كان أطول .

في تلك الناحية القصية من الجزيرة اندفع أيضاً سيل الجوعى والعاطلين الى المحطة . كان العم حاتم قد فقد والده في الربيع . كان واحداً من الفتيان البائسين الذين جرفهم السيل أو جرفوه حتى قتل مدير المحطة وآخرين كثيرين في السوق وفي البيوت ، لكن تلك الناحية بعيدة عن الشام وعن حماه وعن استنبول . لم تأت حملة على الرغم من أن الرصاص ظل يدوي عدة ليال . ومنذ ذلك الحين أخذ الفتى حاتم يعرف كيف يشق طريقه أبعد فأبعد ، حتى يعيش . لم تتلوّ به درب ، ولم تنكص ، حتى اضطر الى الفرار من القطار ، بل حتى اضطر الى أن يلجأ ثانية الى موطنه الأول ، أو يفر من الشام ، أو يفر من الشيخ رزق أو من نفسه .

★ ★ ★

مساء آخر فإذا بعزيز يقرع الباب وينادي عالياً . رد العم حاتم من فناء بيت الشيخ رزق واندفع :

ـ أراك وحدك ؟ أين البنت ؟

كان عزيز قد أمر نجوم بالبقاء في المشرقة حتى يعود . وعدها أن يتابع والعم حاتم البحث عن أخوتها وعن فياض . وكان يضمر أن ينسى وعده إنْ لم يلق العم حاتم ، فليس له أن يظل بطراً هكذا في المدينة ، وهو العسكري الهارب ، بل القاتل .

استغرق العم حاتم في الصمت بعد أن علم بإصابة فياض ومقتل أبي عبد اللطيف ، ثم ناس صوته بعد لأي :

ـ من بلاء الى بلاء .

ـ ما تقول ؟

سأل عزيز كأنما ينفض يديه . اقترب صوت العم حاتم :

ـ أنا أتعهدها . أما أنت ، فالجأْ إلى قبية ؟

ـ فكرت في ذلك . لا .

ـ من لواحدنا في مثل هذه الشدة غير أهله ؟ أنا قطعت البادية من طرفها الى طرفها إليهم لّما ضاقت بي الدنيا .

ـ ولكنك عدت فقطعت البادية من طرفها الى طرفها وما عشت بينهم . أنت على الأقل ليس خلفك بيت بشارة ، ولابيت الدباس ، ولاأبوك نفسه . .

ـ اذن الى تلكلخ . هذه لاسلطة عليها اليوم للشام .

ـ صدقني فكرت بتلكلخ . يعني ألجأ إلى الفرنسيين هرباً ممّن ؟ أعوذ بالله .

ـ من قال لك أن تلجأ للفرنسيين ؟ عش هناك كما يعيش الناس جميعاً . هاأنت قد رميت بذلتك العسكرية ورجعت فلاحاً .

كذلك انطلق عزيز الى تلكلخ مشياً ، متقفياً سكة الحديد التي كانت تصل حمص بطرابلس ، قبل أن يقتلع الأتراك قضبانها ، ليمدوها بين نصيبين وبغداد .

أما العم حاتم فقد انطلق بعد انتهاء عمله الى المشرقة ، وكانت نجوم لاتزال سهرى حين وصل . لم تفتح له الباب على الرغم من إعلانه عن نفسه حتى أيقظت أم

فياض . وعرفته المرأتان قبل أن يتكلم . اغرورقت عيناهما فزجرتهما نظرته الحانية والقاسية والعاتبة . تملى وجه نجوم فتراءى له أنه قد رآها من قبل . جلست أمامه ثم نهضت ومشت ثم عادت وجلست فأيقن أنه قد رآها مرة على الأقل من قبل . هجمت عليه شمّا بدمها الشاخب . فر من الدم فضاء وجه نجوم أو شمّا وشنّف سمعه صدى الصوت الطفلي . عشرون سنة لم ير من تذكره بشمّا . كان لها وحدها من بين النساء أجمعين وقعها الكامن في أعماق القلب . كان لوجهها رسومه المحفورة في الصميم . هي ولاشبه . ثمة نساء ممن عرف بعدها أو رأى لهن شقرة الشعر إياها ، خضرة العينين ، دقة الوجه ، الخصلة الملازمة للجبين ، القوام اللين أو الصلب مثل الخيزرانة التي أعجزت شبابه . لكن أياً ممن عرف أو رأى لم تكن تذكره بشما . وحدها كانت تطلع من الأعماق المنسية . أما الآن فنجوم الصوان هي التي تطلع بها ، على الرغم من تمايز العينين والشعر والوجنتين . سوى ذلك فنجوم هي شما إنْ لم يكن العم حاتم قد خرف حقاً . أشفق على نفسه وعليها أو عليهما وعلى فياض . آلى أن يحمي نجوم الصوان من مصير مماثل مادام حياً . حتى لو دفع فياض الباب هذه الساعة وتزوجها، فلن يتخلى العم حاتم عنها مادام حياً .

عارضت أم فياض مرافقتها له ، إلا أن نجوم أصرت مثله . تذرع بتأخره عن المحطة وكتم فرحته ، إلا أنه لم يذهب الى عمله بعد أن وصلا الى حمص . مشى بحذائها يسأل عن أخوتها أو عن أي أنسيّ من مرجين . وفي المساء دعا باعتزاز الشيخ رزق والعجوز الى بيته ، إلا أن العجوز اقترحت أن تنام نجوم كما في تلك الليلة بجوارها ، فارتبك العم حاتم وهو يقول :

ـ أثقلت عليك مرة وهذا يكفي .

وفي عرض بيته مدّ بين الجدارين قطعة طويلة من القماش المهترىء ، أعارته إياها العجوز ، على الرغم من أنه نوه أن نجوم مثل ابنته . وخلف الحاجز مدّ لنجوم فراشه ، ونام هو على اللباد ، مكتفياً بغطاء قماشي رقيق أعارته إياه العجوز أيضاً .

بعيد شروق الشمس سارت الى يمين عصا الشيخ رزق ريثما انتهى العم حاتم من عمله ، فلحق بهما كما اتفقوا أمام الجامع النوري . كانا مهدودين ولكنه تعجلهما الى

الساحة القريبة ، وجاس أمامهما أزقة البيوت القرميدية القريبة، ثم ضاع معهما من مكان الى مكان ، حتى ألفى نفسه مساء في المقبرة ، الى جانب جامع سيدي خالد ، والمؤذن ينادي ، والشيخ رزق ينوس :

ـ انتظرينا يابنتي هنا .

ولم يكن حظهم في النهار التالي بأفضل ، ولعله ظل صامتاً أغلب الوقت ، وفي العصر قرر أن يتوجه الى مرجمين .

كانت القرية لاتزال مهجورة، وفي الطريق اليها تيقن ممن صادف أن ابن الفطيم لم يستطع أن يغري أحداً بالاقامة فيها ، عوضاً عن الذين هجّرهم منها .

أما في خرائبها ، فقد أحس العم حاتم أنه يفقد بضعة منه . رأى نفسه تتشتت ثمة ، تتناثر ، وندم لأنه لم يصطحب نجوم معْه ، فلعلها كانت قد حمته مما يعتريه . ولعله لذلك آب اليها في الظّلام ، ينشد الأمان في لهفتها ودموعها الخائبة .

لم يكن قد سبق له أن عاش مع امرأة تحت سقف واحد . لقد انقطع عن العرق وانشغل فيما يتبقى له من الوقت بعد انصرافه من المحطة في الجري خلف الشيخ رزق ونجوم . وفي سريرته ربما كان يجري أيضاً خلف فياض وعزيز . كان ذلك يستغرقه حتى المساء. أما الشيخ رزق فلم يعد يشغل عشيته، إذ أن السير طوال النهار أقعده حتى عن صلاة العشاء . وإذ تهجع نجوم ماعاد يفكر إلا في أنه لم يجتمع مع امرأة في مكان واحد مثل هذا الوقت كله ، تؤاكله ، تتحدث اليه ، تبكي بين يديه ، تنام ثمة الى جواره ، تنهض قبله معنفة أو بعده معاتبة . لم تكن كذلك أمه ، ولاشمّا .

أخذت الخيبة تهون عليه وعليها وعلى الشيخ رزق يوماً اثر يوم . بات بمقدورها أن تفصل في كلامها عن نفسها أو عن بيت الصوان ، دون النحيب المكتوم . إلا أنها ظلت تتحاشى أن تفصل فيما يتصل بفياض أو أبيها ، وهو يلح ، أشبه بأبيها سوى شيبه الغامر . وربما كانت صورته تلتبس عليها ، فتفتقده في النهار ، تحتاجه وتحن إليه ، تخشاه وترغب في أن تخدمه على نحو أفضل ، بيد أنها في المساء كانت تفطن الى أنها أمام رجل آخر ، رجل غريب ، فتروح تسترق النظر إليه ، تودّ لو أن فيه مايذكرها بفياض ، تلجم

هواجسها ، تحار بين الخوف والاثم ، تستنجد بالله ، وكان الشيخ رزق لايفتأ ينفخ الأمل في صباحهما :

ـ لاتيأسا من رحمته . .

مساء تلو المساء كانا يزدادان جراءة على أن يتصالحا مع انقطاع أي أثر لأخوتها، أو أي ذكر لفياض ولعزيز . كانت نجوم بخاصة تزداد جراءة على أن تجعله يحدثها عن نفسه ، فليس يعقل أن تظل لاتعرف إلا أنه أرمل ، يعمل في المحطة ، ومن قبل على القطار . ولئن كان يعسر عليه أن يستجيب ، فقد كانت رغبته بذلك تكبر . ثم صارت رغبته تتبلور في أن يحدثها عن شما وحسب . وحين صح عزمه على ذلك ، ألفى يده تتناول السكين من قرب الباب ، ثم يجر قدميه الى حيث كان يجلس ، يشهر السكين في وجهها فتتراجع ضاحكة ، يعود بالسكين الى رقبته المعروقة ويدمى صوته :

ـ هكذا حزّوا رقبتها . هكذا كانت السكين فوق رقبتي أيضاً . .

تردد صوته في حناياها صدى لسكين تسحج على العظم . شبت مجفلة وأغرقت في النشيج . اربد وجهه وربما كان كيانه يتقوض وهو يرى سكيناً تحزّ رقبة نجوم . طوح بالسكين فانغرزت في أعلى الباب ، وطوى نجوم بين جناحيه راغباً في البكاء . مرغت وجهها في صدره وهو يحمد الله على أنها ليست أرمنية . تمتم مخاطباً نفسه من فوق شعرها :

ـ كيف لم يذبحوا زوجة عربي غيرها ؟ مئات غيري ، بل آلاف ، من العبيد حتى الأمراء ، تزوجوا من أرمنيات . مئات غيري تزوجوا منهن ليحموهن ، لا ليضاجعوهن ولالينجبوا منهن ، كيف كانت شمّا وحدها ؟

وخيل إليه أنه يسمع صوت نجوم أو صوتاً آخر قادماً من جوف السنين :

ـ هل تصدق أنها كانت وحدها ؟

★ ★ ★

انسحبت من حضنه تنهنه ، تتهادى نحو مجلسها . أطلّ على صفرة وجهها ، فندم لما تفوه به وفعل ، وتربع مكوماً رأسه في حرجه ، ولم يتبادلا تلك الليلة كلمة أخرى .

لاريب أنها كابدت طويلاً قبل أن تغفو . خائفة كانت ، تهرب من العتمة الثقيلة ، تتطلع الى الزاوية التي يهجع فيها ، يزيدها خوفاً أن تفتقد في تلك الزاوية رائحة الأمان . تحسّ أنه قد بات يعنيها جداً ، وتتلمس أثر ذراعيه إذ لفها ، ورائحة صدره أذ طمرت رأسها ثمة . كانت السكين تتلامع لها من أعلى الباب ، ويده أو يد سواه تطوح بها في العتمة، والسكين تنغرز بصمت ، فتود لو تنهض إليه لتحميه، أو يلاقيها في منتصف المسافة بينهما ، قبل أن تنقذف الى الخارج تعلن موته .

أما هو ، فقد تمدد كالمسجى في النعش . ولعله كان سادراً في النوم ، منقطع الأنفاس ، هادئاً ، مفتح الجفنين ، يرقب ماتقذف به من مطاويها ، فإذا بذلك الشاب الذي صار اليوم أو بالأمس العم حاتم ، يلوح له . شاب جميل وقوي ، يمكنه أن يؤدي أعمالاً لاحصر لها ، يصلح البوابير والأحذية المهترئة ، يرافق مبيّضي النحاس ، يخدم في الخان ، ثم يحلو له أن يبحث بخاصة عن عابر سبيل الى الموصل أو إلى أرض أبعد ، نحو الجنوب أو الشرق ، فيعمل للعابر دليلاً وخادماً ، وهو الجاهل بتلك الأنحاء ، ولكن ماهمّ ، فالعابر يدفع مالايحصله ذلك الشاب خلال الشتاء بكامله ، فضلاً عن أن النفس الفتية لم تعد تصبر على ضيّقها ، ولم يعد قادراً على أن يلجمها عن الأمداء الفسيحة التي ينفتح عليها، الى سائر الجهات، ذلك المكان النكرة المنسي الذي نشأت فيه ، في أقصى ملتقى الشرق بالشمال من الشام .

أنس الكهل المسجى في النعش للشاب الذي أوغل بعيداً هذه المرة ، يجتاز البير خلف البير، فيما خيل اليه أنه أقصى الارض ، يندس والرجل الذي رضي به دليلاً وخادماً بين البدو في النهار، وهم يلجون مايرسم الجبل من المسيلات نهاراً ، يهزأ في سره مما يردد البدو عن الجن التي تسكن المكان ليلاً ، وفي المساء يختفي ومن يقود عن أعين البدو ، يلبد ساهراً وحارساً في ذلك القعر السحيق ، يتقرى أشباح الجن على الجدارين الصخريين الشاهقين اللذين يحفان بالوادي ، يلهج بذكر الله والبسملة ويذب عن أذنيه وصدره الأصوات الجنية ، وفي الفجر يعجل مثل أسراب ذلك الطير الذي لايعرف حتى اليوم لم سمّاه البدو بأبي منجل أو أبي منجل الأسود . يضيع وصاحبه بين القبور المغطاة بالأحجار والحصى، ويتعثر بالأجساد البدوية المدفونة ، يسيل مع الوادي نفسه أو مع واد آخر ، معشب وشحيح الماء ، ليصب في الفرات ، ويغدو بوسعه أن يتأمل ذلك الرجل القادم من استنبول ، والميمم الى بغداد ، لكن ملامح الرجل تغيم . إنه رجل وحسب ، ينمّ عن نسب عريق وثراء وخوف ، وربما كان عراقياً . وقد نقد ذلك الشاب ليرة ذهبية ،

فمضى الشاب يلعب بها في عتمة النعش أو البيت أو الحارة النائية أو حمص . وهزّ الكهل رأسه وقد حلا له بعد أن عرف استنبول أن يحزر سر صاحبه الضائع في الفلاة . لاريب أنه هارب من الأتراك ، وتلك كانت الخطوة الاولى للعم حاتم ، من حيث لايدري ، نحو حياته الاخرى ، بعد أن حزّوا رقبة شبها بالسكين .

في تيه آخر لذلك الشاب الذي كان ، وربما في التيه الأول نفسه ، عبر بمن يقود مضارب شتّى ، بعضها لشمّر وبعضها للفدعان والعقيدات وربما للجبور . وفي العودة ، وكان الشاب وحيداً ، عبر بمضارب أخرى للدليم والعمارات وربما لسواهما ، يتأمل ببله البدويات وهن يدخّن التبغ ، يتناول بحبور العشاء الذي يفتقده الكهل الآن ، يختلط على ضفاف الخابور الخبز والسمن بالعصيدة بماء النهر ، وتطلع أرمنيات كثيرات وفاتنات من اللواتي يخدمن في خيام الأمير ، ويصهل الشاب كالحصان ، يظل يصهل حتى تتقوض الخيام في الصباح الباكر والرجال ينيخون الابل ، يحملونها وينطلقون .

سار الشاب مع القافلة ، خلف الفرسان ، وسط الأعشاب والزهور ، حتى المستقر الجديد ورأى الخيام تنتصب ، والخرفان تذبح ، والرجال والنساء معاً يرقصون في حلقة واسعة ، يزينون الارض كما تزين النجوم السماء ، وعاوده الصهيل ، أنساه الخطر والتعب ، وأضلّ طريقه من بعد ، مرة تلو المرة ، قبل أن يلتقي بشبّها ، أو قبل أن تحزّ رقبتها السكين .

كان زاده قد نفذ منذ يوم أو يومين . لم يتناول الطعام بعد أن صادف من قدم له تمراً مخلوطاً بالجراد . كان الجوع والإعياء يشدّانه الى الأرض حين علا الغبار في الأفق . توقف يرقب ماسوف ينكشف عنه الغبار ، فإذا بالفرسان ، وغير بعيد عنهم ، الى الخلف ، عدة جمال محملة . أعشى عينيه وميض السلاح ، فتلفت في الأنحاء المكشوفة ، ولم يكن بوسعه الا أن ينبطح ويرمي الليرة الذهبية . لم يكن غافلاً عما تطلع به الدروب من البدو الذين قد يطمعون بمن يصادفون ، خاصة إنْ كان يحمل سلاحاً أو ذهباً . لم يجده التخفّي ، إذ سرعان ماشمّ فارس رائحته ، وكاد أن يجعل الحصان المحمحم يقف على ظهره وهو ينهره :

ـ انهض . .

ثم أردف الفارس والشاب لم يزل منبطحاً :

ـ ماهذه التي تلمع عند ساقك هه ؟ هاتها . .

هلل الفرسان لليرة التي أبرقت لهم من بعيد ، وأطلّت من الهودج صبية تسأل عمن يكون هذا الصيد ؟ أدرك أنها الشيخة، وتعجب من فتوتها وبياضها وخضرة عينيها ودقات الوشم في وجنتيها وذقنها وأرنبة أنفها . أطلّت من خلف الشيخة صبية أقل بياضاً ، بلا وشم . عاد بريق السلاح يعشي عيني الشاب ، فاندفع الى هودج الشيخة ينسج لها حكايته . أمرت الشيخة الفارس أن يعيد الى الشاب الليرة الذهبية . سأل الشاب الشيخة أن تسمح له بالسير في ركابها فضحكت . مشى حافياً وحذاؤه تحت إبطه والصرة تحت الابط الآخر . كان الألم الذي أثقل خطاه منذ الصباح قد أخذ يسفر عن ورم في قدمه اليسرى . جهد كي لايقصر عن القافلة فتضاعف الألم . توقفت القافلة لأمر ما فآثر أن يسبقها . انحدرت به الطريق في وهدة تقبل على سهل ملون صغير . رأى رعاة يهرعون اليه ويلغطون . خمّن أنهم من الأكراد الذين ألف أن يرى هنا وهناك . بادره أول من وصل اليه باللكم فتهاوى . لم يقو على أن يرد لكمة ولا على أن يصيح . وقبل أن يصل اليه الرعاة الآخرون كانت الخيل تصهل خلفه منجدة ، فرّ الرعاة بالليرة الذهبية وبالصرة وبالحذاء . أطلت الشيخة عليه ضاحكة ورائية . أطلت الخادمة ترتعش . عاد الفارس الذي لحق بالرعاة بما سلبوا . علت سخرية الفرسان والآخرين . أطرق يتأمل مارمى الفارس بين قدميه فغشيت عيناه بصفرة الذهب . تطلع بالخادمة فغشيت عيناه ببياض وجهها . تابع السير دون أن يلتقط الليرة ولاالصرة ولاالحذاء . صاح به الفارس فلم يلتفت . لحق به الفارس شاتماً فزجرته الشيخة وأمرته أن ينزل عن الحصان . أمرت الشيخة الشاب أن يركب الحصان . اعتلى الصهوة بمشقة وسار خلف الجميع ، ولم يفطن الا بعد لأي أن الخادمة تتلفت نحوه . تململ الكهل في النعش الذي أضاءه سطوع بياض وجه الخادمة . إنها شمّا . كما سوف يعرف حين ينزل في قصر الشيخ . انها الصبية الأرمنية التي ألحقتها الشيخة حربة بخدمتها ، منذ رأتها في القصر ، ليلة زفافها .

رحب الشيخ به وأعاد له بدل الليرة الذهبية ليرتين ، وفي الصباح كان قد عزم على الاستئذان بالرحيل حين دخل رسول من ابن الشيخ في استنبول ينبىء بنجاح الطالب المبرز في مدرسة العشائر . أمر الشيخ بالبشارة للمبشر وهزج في وجه العم حاتم :

ـ أهلاً بوجه الخير .

رفض الشيخ رحيله معاتباً في أن يفكر في ذلك وهو لم يقض بعد غير ليلة هاهنا . بدا معاق كأنه لم يشكُ من شيء بالأمس . فرح بالشيخ وبابنه وبالفراش الوثير والنقرة،

وفكر في استنبول ، شأنه منذ زمن ، كلما ابتسمت له الدنيا أو عبست . حدث الشيخ بذلك ، فسأله عما ينوي أن يفعله في العاصمة .

ـ مايبسر الله إليه . .

لم يجد مايجيب به سوى ذلك . دعا له الشيخ بالتيسير وزوده بوصية لابنه . طوى الورقة الصغيرة التي خربش الشيخ عليها ، ودسّها مع الليرتين الذهبيتين ، ونهض مغادراً المضافة في الطابق العلوي متمهلاً ، فوق حجارة الدرج السوداء المطينة حديثاً . وفي الباحة رآها تهرول . بعد خطوات رأى الشيخة تخرج وشمّا خلفها . حيا واستدار مرتبكاً تلاحقه الضحكة الصريحة . وقف حائراً ، ثم التفت إليهما معتذراً ، فأومأت إليه الشيخة وأطرقت شمّا . سألته الشيخة عما يريد من الصبية ، أو هكذا خيل إليه . أثنت الشيخة على إبائه وحدثته عن شمّا ، أو هكذا خيل إليه ، وعاد يصعد الدرج نحو الشيخ ، ليطلب يد البنت منه .

هل عاش العم حاتم ذلك حقاً ؟ النعش يشكك ويطوي أوهامه ، وهو الذي لم يكن قد فكر بالزواج يوماً ، ولا في النساء ، مثلما سوف يغدو بعد أن حزّوا رقبة شمّا . كان أقرانه يسخرون منه قبلها ، كما سوف يسخرون منه بعدها . ولكن الشيخ قرأ الفاتحة مباركاً ، ولم ين يضحك طوال الوقت ، متعجباً من الدنيا . الشيخة حربة أيضاً كانت لاتني تضحك وتوصيه بشمّا . وهو ينكر أن يأمر الشيخ زوجته الأولى بأن تخلي مكانها للعروسين . كان الشيخ لايفتأ يسأله عما إنْ كان مزق الورقة التي زوده بها ، أم أنه مازال مصمماً على السفر الى استنبول ، حيث سيذبحون له زوجته ويذبحونه معها . ولم يكن قادراً على جواب . كان ثملاً بدون بطحة العرق ، والشمس تشرق وتغيب على هواها ، قبل أن يصحو على الحصان والجمل والعبد وبندقيته ، ينتظرون أسفل الدرج ، وهو يودع الشيخ ، وعشرات من النساء والرجال والأولاد ، تتقدمهم الشيخة ، يلوحون ويدعون ويضحكون .

لماذا أصر قبل أن ينتصف النهار على العبد أن يعود بالحصان والجمل ؟ لماذا انطلق وشمّا ، كل يحمل صرة ، أعزلين ووحيدين ؟ هل كان السكر بدون العرق قد عاوده ؟ لماذا استجاب العبد له ؟ هل كان يكفيه أنه يعرف تلك الطريق ، من حيث تركه العبد ، الى أي مكان في الدنيا ، مثلما يعرف الطريق من المحطة الى بيته هذا أو بيت الشيخ رزق ؟

كانت شما تهدل مثل الحمامة البيضاء التي توشك أن تطير . كانت استراحتهما الاولى قرب أحد الغدران . جمع الحطب وأوقد النار دون الحاجة الى الدفء . توقدت وجنتاها وصهل في عروقه الحصان . على العشب استلقيا يلتحفان السماء . أتت النار على احدى الصرتين وهما يتمرغان . أيقظتهما رائحة النسيس بعد حين فنهضا يضحكان ، وإذا بالخيالة والبواريد تلوح ، شرقي الغدير . توقفا ريثما يعبرون ، لكن الخيالة تسوروا حولهما ، وفي ومضة عين كان كل شيء قد انتهى . أمره أحدهم أن يرمي بما يحمله من نقود . أمر آخر بأن يناوله الصرة التي لم تحترق . أقسم ثالث أن البنت أرمنية وقفز على حصانه مشرعاً السكين . قفز آخرون يكتفون العم حاتم ، وأشرعت سكين فوق رقبته وجعرت الأصوات :

ـ انطق بالحقيقة ياكلب .

اندفعت شمّا اليه مولولة تصيح :

ـ اتركوه كرمى لله . . أنا أرمنية فما ذنبه؟

رماها أحدهم على الأرض وحزّ رقبتها فيما دفعه الآخرون :

ـ لاتنظر خلفك . اجر . اجر .

وحين جرؤ على أن يلتفت الى الوراء كانت الشمس قد غابت . كان قد نأى عن الغدير والذبيحة . ولم يجده أن يعود ويبحث عنها طوال الليل وهو موثق .

★ ★ ★

من ذلك المكان تاهت به الطريق طويلاً . لم يعرج الى حيث مايزال له أهلون وأقران . كان يسير دون أن يدري في البداية الى استنبول . ظل عاجزاً عن النطق حتى ديار بكر . كان كل مايصادفه يزيد لسانه شللاً . ليست جثة شما وحدها اذن . انها الجثث ، صبايا وأطفال وشيوخ ، مذبوحين أو أحياء ، لافرق ، انها قطعان البشر تطلع من مكان الى آخر ، بعضها يحرسه الدرك وبعضها سائب وهائم . انها الحكايات التي تزيد السمع شللاً أيضاً . فليست هذه هي المرة الاولى التي تشهد فيها هذه الارض ماتشهد . منذ عشر سنوات أو منذ عشرين وربما منذ أكثر أيضاً، كانت قوافل الشركس ، واليوم هي قوافل الارمن . والدرك وسوى الدرك يشكّون أحياناً في الشاب الشريد

الاخرس الأطرش ، يأمرونه بالكشف عن قضيبه ، وإذ يتأكدون من طهوره، يبعثونه حياً من جديد .

بفضل قضيبه استطاع أن يحافظ على عنقه ، حتى أفضى به تيهه الى ديار بكر ، فأصابه المسّ . لازمته الحمى أياماً في أحد الخانات ، ولم تفارقه شمّا . مرة كانت تتجلى في المرأة التي ثقبت ثديها الأيمن رصاصة وثديها الأيسر رصاصتان . مرة تعود طفلة شقراء شقّت رأسها ضربة فأس أو فراعة، ورميت على حافة الطريق الفائرة بالزهر الأصفر . مرة كانت شما تكبر وتلد له أطفالاً كثيرين رآهم ثمة في واحدة من برك الماء على حافة غير مزهرة ، مختبئين في الماء ، وشمّا مشلوحة قربهم ، معفّرة ولاأثر للسكين في عنقها ، لارصاصة في أي من حلمتي ثدييها ، بيد أن ساقيها مفتوحتان الى أقصى مايسعهما، كأنها لائبة على من يشرع قضيبه ويأتيها . وقبل أن تأخذه الغيبوبة الطويلة السادرة في الخان رأى شما وسط جمع من النسوة والأطفال ، تستنجد به وتبكي ، وكن ينشدن العذراء في صمت أن تعجل لها بالطلق كي تنتهي من هذا العذاب . تحامل على نفسه وغادر الخان ، فيما ظل الرجال يتسامرون ويشربون الشاي . لطا خلف الخان ينتظر أن تضع له شمّا بنتاً لها مثل عينيها الخضراوين ، فإذا بخادم الخان يأتي بخرقة صغيرة تنزّ دماً ، ويرميها في وجهه أو قربه . انزاحت الخرقة عن رأس الوليد فطار الى الخان والخادم يقهقه ، والنساء يغادرن ـ دون الاطفال ـ الخان . وسوف يخمن العم حاتم أبو راسين قبل أن يغادر ديار بكر أن واحدة من فرق الجنود الشراكسة أنفسهم أو من الفرق الكردية ، قد حضرت الى الخان مع عدد من المركبات ، لتفصل الوليد عن ذويه ، كما في يوم الحشر ، وتنقل الاطفال ، بل النساء والاطفال الى الشرق البعيد الذي خلّف شما فيه . وفي موقع من ذلك الطريق سوف يذبح الجنود من ينقلون ، مثلما ذبحت شما ، سواء بالسكين أو بالفراعة أو بالرصاص أو بالقضيب . وقد يكون الجنود في عجلة من أمرهم ، فيسرعون بالمركبات الى القصابين الذين استأجرتهم الحكومة لذبح الارمن ، أو قد لايكون لدى الجنود الوقت الكافي كي يصلوا الى القصابين ، فيجمعون من في المركبات في واحد من مستودعات التبن القريبة ، ويشعلون النار ، وينصرفون الى خان آخر .

هي غيبوبة في هذا النعش أو ذاك الخان ، لافرق، سوى أن العم حاتم حين أفاق من الاولى ألفى نفسه في سجن ديار بكر ، وقد هذا طويلاً في الخان ـ وربما في النعش ـ منادياً على شما ـ وربما على نجوم ـ مذبوحاً مع كل أرمنية أو شركسية ، مذبوحاً مع كل

إنسان ، يجدف على السماء ويلعن القاتلين ، وقد شك الخاناتي في أمره ـ وربما شكت نجوم ـ فحدّث واحداً من فرقة الجنود الشركسية أو الكردية أو التركية ، ولما عاين الشاويش القضيب ، وتأكد من أن صاحبه مسلم ، اكتفى بنقله الى السجن ، وكانت نجوم تبكي العتمة الصامتة .

بعد صحوته أقبل على ماجاء به السَجناء الآخرون من طعام، وانتظر غير آبه أياماً قبل أن يمثل بين يدي ضابط عجوز في الطابق العلوي . حدث الضابط بمكر عن قدومه مشياً من أقصى الجزيرة الى استنبول . وراح يبحث عن رسالة الشيخ الى ابنه في مدرسة العشائر ، فرماه الضابط بها وشتم أمه وأمره بالانصراف .

جال الرجل الذي آل اليه في أنحاء المدينة الصغيرة ، يسأل عن أقصر الدروب الى استنبول . لف حول السور داخلاً وخارجاً من أبوابه الاربعة ، متحاشياً مخافر الدرك المرابضة على الأبواب ، تاركاً لأذنيه أن ترطنا مثل سائر الألسن التي تعج بها المدينة ، بالعربية والتركية والكردية والشركسية والأرمنية أيضاً . أدرك أن عليه أن يحصل ماأمكن من البارات حتى لو اضطر الى السرقة ، إنْ كان سيسلك أقصر الدروب الى استنبول . اكتشف أنه لايجيد عملاً واحداً يمكنه من تحصيل بارة واحدة . لازم المحطة أياماً يزاحم الفتيان والشبان على نقل أمتعة بعض المسافرين . تجمع له ماكفاه مؤونة المشي الى استنبول ، وأعانه على المبيت ليلة وصوله في أحد خاناتها ، قبل أن يلتقي ابن الشيخ الذي لاقاه مثلما لاقاه أبوه ، خاصة بعد أن علم بما لاقاه في الطريق ، وماكان من قبل لرقبة شما ، وكان ابن الشيخ يستعد للسفر ، الا أنه لم يغادر حتى يسرّ للعم حاتم عملاً في محطة القطار ، وغرفة يأوي اليها حين يحتاج ، كما زوده ببعض الأمتعة وبثلاث مجيديات .

لابد للعم حاتم أن يلتقي ثانية بذلك الشاب ، بالشيخة حربة ، بالشيخ نفسه إنْ كان لايزال حياً . لاينبغي للعم حاتم أن يموت دون ذلك . ولئن كانت قدماه لم تطاوعاه على أن ييمم صوب الجزيرة عمراً بطوله ، فقد فعل أخيراً ، حين اضطر الى أن يفرمن القطار . ولكنه انشغل عن اللقاء المنسي أو تاه عنه ، ثم عاد الى الشام وحمص وهذا النعش والهرب المقيم في النفس مما كان وكان . عمراً بطوله ظل يهرب ، من محطة الى محطة ، من مدينة الى مدينة ، ملوياً عينيه عن أية امرأة في العالم ، مقبلاً على عمله وحسب ، لايوفر جهداً كي يعين أي أرمني أو أرمنية يصادف ، وتلك كانت خطوته الاولى من أجل أن يرحل الأتراك عن الشام . تلك كانت خطوته الاولى نحو دنيا

أرحب ، وإنْ تك مقهورة . لقد تعلم الكثير وعلم الكثير ، والموت، وليس السجن وحده، ماكان يكمن له في مطاوي عمره الطويل . لقد عزم على ألّا يسجن في النعش قبل أن ينجز مايحسبه كافياً .

لم يعد عنق شيّا وحده يدفعه الى الأمام . لم يعد يهجس بالخلاص من بؤسه وحده . ولاريب أن سنيناً قد انصرمت قبل أن يدرك ذلك ، لكنه كان قد بات يسير في هذه الطريق على أية حال .

ربما كان المنعطف الجديد الحاسم في وعيه حين شارك في اضراب عمال السكك الحديدية، سنة الانقلاب الأول في استنبول . كان الخريف في مطلعه ، وكان الشحوب في كل مكان يستفزه . شحوب في وجه السماء والارض ، في البشر والأشياء ، في المرآة الصغيرة المبقعة . الا أن النسغ عاوده وهو يسمع العمال في المحطات والقطارات يجأرون بالشكوى وبالتحدي . الادارة تتأخر في دفع الرواتب وهم جوعى . الرواتب لاتفي باللقمة والشغل يتواصل ليل نهار من أول العام الى آخره . فلتدفع الادارة الرواتب في مواعيدها . لتترك لهذا الجسد بعضاً من ليله أو نهاره . ألا يكفيها منه عشر ساعات في اليوم ؟ لتترك له فسحة ـ مهما كانت ـ بين أول العام وآخره . إنهم ينشدون خمسة عشر يوماً في العام مدفوعة الاجر ، وهو لايدري ماذا سيفعل فيها ؟ لاراحة له إلا في الشغل ، ولكن ماداموا يصرخون فسيصرخ معهم . كان الإضراب ينتزعه من الحدود الدانية الموحشة لعالمه ، يفضح له تلك الحدود ويرميه خارجها، في غمرة الدفء الذي يفتقده قبل أن يجرف السيل بيتاً أو أماً أو أختاً ، قبل أن تحزّ السكين عنقاً . ومثل من تطهر من رجسه ، زايله الشحوب والعزوف ، وتلونت له المواجهة ، وتعلم لغة جديدة للصبر . وهاهو ذا عمر بطوله من المواجهة والصبر قد انطوى ، حتى بات هذا الكهل المسجى في النعش ، عاجزاً عن النوم كما عن اليقظة ، على الرغم من أن الشمس قد أشرقت منذ حين ، ونجوم تحوم حوله ، تطمئن الى أنفاسه الهادئة وترثي لوساوس ليلها ، وتشفق عليه من موعد العمل الذي لابد أنه قد أزف .

★ ★ ★

تعللت بالمرض ، وأكدت للشيخ رزق أن العم حاتم متوعك أيضاً ، واستمرأت كذبتها كي لاتغادر البيت الى رحلة خائبة جديدة في المدينة الكبيرة .

ضحك العم حاتم حين همست له بذلك وراح يتحسس أعضاءه خوف أن يكون متوعكاً حقاً ، وأسف لأنه مضطر الى أن يذهب الى المحطة ، وإنْ متأخراً .

في المحطة أحسّ أنه يتعجل العودة الى البيت . انفلتت منها ضحكة قصيرة وهو يهمس لها بذلك . أقبل على الطعام التي أعدت شرهاً متلذذاً . اقترح عليها أن يخرجا سوية ، بدون الشيخ . طاف بها حول المدينة ، شمالي البيت ، حيث لم تذهب بعد . كانت البيوت النزرة ثمة تتناثر تحت الظلال المسائية الكثيفة للغار . تناول غصناً وفرك الاوراق بين كفيه ثم فرشهما أمام وجهها . ملأت صدرها بفوح الغار ورأت نفسها في البرية ، لافي حمص ولافي مرجين . أحست أن دواراً خفيفاً يزوغ ببصرها . لم تسأل ولم يسأل من صادف عن أحد من مرجين . تعرجت بهما الخطى بين شجيرات البطم والعرموط ، حتى أوقفهما العاصي ، فسارا بموازاته ، ينتران أغصان الصفصاف المتدلية حتى الارض ، ومن حنجرته ينفلت الوجع :

هيهات يابو الزلف عيني ها لبنية
صفصاف لاتنحني • شرشك على المية

وكانت معه تغمغم ، ترفع رأسها مشوقة ، تسوق نفسها فوق النهر حتى أنساق الحور على الضفة الأخرى ، تتسلّق القامات النحيلة الباسقة الملساء ، وفي نقطة ما من السماء الصافية ، تنعقد نفسها مع ذؤابات الحور قبل أن تتلاشى مع رعشات المساء والنسيم .

طوال سيرهما بدت له تشفّ مثل ذلك الشعاع الذي تراءى ذائباً في صفحة النهر ، بعد أن غابت الشمس . أحسّ أنه يرى العاصي والصفصاف لأول مرة ، وهمّ أن يفشي لها بذلك ، لولا أن بيته وبيت الشيخ رزق كانا قد لاحا ، فانحرفت عن النهر ، وراحت تتقافز بين شجيرات الريحان التي جعلها المساء داكنة الخضرة ، أشبه ببقعة تفصل النهر عن البيت أو البيت عن البرية أو البرية عن المحطة .

منذ ذلك اليوم تعودت أن تمضي في البيت فترة غيابه في المحطة . كانت تجد دوماً ماتملأ به الوقت ، خاصة بعد أن صارت تحيك السلال من الريحان . كانت تنتقي بنفسها في الضحى أعواد الريحان ، تحنو على صوت أبيها وهو ينهرها في العشايا :

ـ متى ستتعلمين؟ مئة مرة قلت لك حركي أصابعك هكذا . .

وتلجأ منه الى صوت العم حاتم الذي يغدق الثناء على صنعها وأصابعها ، فتعده عما قريب بأطباق القش ومكانس البلان والمنكس ، وتتباهى بما تعلمت من المرحوم .

تتمنى أن يكون هو أيضاً يجيد ماكان يجيده أبو عبد اللطيف . حتى الملاعق الخشبية ، السلّم ، كرسيّ القش والمسند العالي ، كل ذلك كان أبو عبد اللطيف الصوان يصنعه بنفسه . أما العم حاتم فسرعان ماينفض يديه ويردد :

ـ خارج القطار لانفع لي . حتى في المحطة أنا بلا نفع . .

وقد رأت الزهو به يكبر في نفسها ، فما الذي يعدل القطار من كل ماتعدّه ؟

صارت جولتها اليومية في المدينة تبدأ عصراً ، أشبه بالسراب الأقل إغواء ، وكانت السلال تتكاثر في البيت ، والشيخ رزق يلحف عليها :

ـ هاتي أبيع أو قومي بيعي .

حتى حملت سلة وباعتها ، والعم حاتم يتفرج متعجباً . وفي العصر التالي حملت سلتين ، ثم صارت تخرج وحدها في غيابه وتبيع ، وهو يحار بين سعادته بها وخوفه عليها ، يستمد من ثناء الشيخ رزق وزوجته عليها ومن دعائهما لهما عوناً على الحيرة والخوف ، ويتأمل الصحنين الفخاريين اللذين اشترت من أحد الفواخرجية ، ينشرح للضياء الذي صار أكبر في البيت ، بعد أن اشترت من فواخرجي آخر السراج الذي يحرص على أن يهيئه بنفسه ، فينظف الفتيل بأناة كل يوم ، ويدقق فيما يسكب فيه من الماء والزيت ، ويؤكد لها أنهما قد غدوا من ذوي اليسار ، ماداما يوقدان في البيت سراجين معاً ، فتعده بالقنديل ، وبواحد على الأقل من مصابيح الزينة ، وبعدها بصندوق لثيابها ، يغطيه المرمر كما رأى في بيوت الأفندية ، وتعلوه المرآة الكبيرة التي تتراقص فيها ألوان زجاج المصباح الموعد ، وعيون نجوم وهي تسرح شعرها ، وتروح وعودهما تتبارى ، فهي سوف تأتيه يوماً بثريّا ، وهو سيأتي يوماً باللوكس ، وهي ستأتي بالنملية ، وهو سيأتي بحصير ملون من ذلك الذي يحمله التجار من مصر ، وهي ستأتي بسجادة لتفرشها له فوق الحصير ، وهو يضحك ، وهي تضحك ، ويسألان الله معاً أن يجعل عاقبة هذا الضحك خيراً .

في غفلة منهما أخذ ذكر فياض يختفي من أحاديثهما . وحين فطن كل منهما بدوره الى ذلك ، أخذ يتحاشى أن يطيل النظر الى الآخر ، أو يبالغ في ممازحته . صارا يتحاشيان أن تتلاقى في أي من المصادفات الجمة العذبة أصابعهما أو تتماسّ أكفهما . وكان البيت يزدان بأشيائها الصغيرة، إذ ابتاعت لحافاً زاهياً مجدولاً بعناية، من لصق أحد الأقواس الحجرية التي تستهويها الاستراحة تحتها . كما جاءت بشرشف أبيض ليغطي تجويف الحائط الذي كان قد جعله قبل نزولها في البيت نافذة متطاولة .

مثل الغفلة عن فياض كانت أيضاً الغفلة عن الاخوة الضائعين . سوى أن هذه لم يكن لها ماتجعلهما يتحاشيانه . لم تكن الفطنة إليها لتوّرث ذنباً أو إنكاراً ، خاصة بعد أن عادا الى مثل سعيهما الأول خلف أي أثر من مرجمين ، سواء أكانا معاً ، أم كانت وحدها ، وقد باتت تعرف من المدينة مثله أو مثل الشيخ رزق .

على أن ماغدت تتحاشاه في النهار وفي المساء ، حتى تأوي خلف الستارة المستعارة من بيت الشيخ رزق ، صار يلح عليها قبل أن تنام ، وبعد أن تنام ، إذ يتراءى لها أن ذلك الرجل الذي يرقد قريباً ، يدثره اللحاف الزاهي ـ وهي التي أصرت على أن يكون اللحاف له ـ يغزوها بعينيه العميقتين ، فتتقد وجنتاها ، وتجعلها حرارتها اللاسعة تفرّ منه ، فإذا به يحضن كفها أو يرخي ذراعه على كتفها ، فتخلد قريرة ، وتأنس لأنفاسه ، لكنها إذ يلوح لها أنه يتشمم شعرها ، تعروها القشعريرة ، تسري في كيانها ، فتخشى أن تكون مريضة ، وتنقلب على الفراش ، تستغفر الله ، وتخشى أن يداهمها بين ذراعيه وجه فياض أو وجه المرحوم .

سرعان ماألفت أن تستعيد مايفعل العم حاتم ، وتترك عنقها تتلوى، داعية أصابعه ، تتمنى أن يضغط أقوى فأقوى على كتفها اللينة ، وإذ تحسب أنه قد فعل ، ترفع وجهها إليه ضارعة ، تستلقي على ظهرها متعجبة من أنه لايزال جاثياً ثمة ، الى جانب رأسها ، فتفسح له في الفراش الذي يغدو عريضاً ، يتّسع لهما معاً على الرغم من ضيقه ، إلا أن الرجل يظل بلا حراك ، حتى تداهمها الشمس الصباحية ، فتنهض خشية أن يضبطها هو أو الشيخ رزق أو فياض أو المرحوم متلبسة بأحلامها .

لم يكن هو أقل منها رغبة ولاهجساً . الا أن الشمس كانت تشرق عليه أيضاً بوجه ما ، وجه غريب وأليف ، يرجح أنه لفياض ، فينهض ساخطاً ، يقرع نفسه ، ويدعو الله أن ينقذه ويعجل بظهور أولاد الصوان أو عزيز أو فياض نفسه ، كي يعود هادئاً مثلما ألف لسنين .

في صباحات تالية لم يعد ينهض اثر جفلته ، بل تعود أن يغمض عينيه من جديد ، ليرى شبّا تتلبّس بنجوم ، تشيحان معاً عن وجه آخر ، قد يكون لفياض ، ثم تقبلان عليه وهو الكهل ، بخفر وأناة ، فيفسح لهما في الفراش الذي غدا عريضاً ، وإذا بهما امرأة أخرى ، لم تقع عينه على مثلها من قبل ، يعبق الفراش برائحتها الطاهرة والآثمة في آن ، ولايعود قادراً على أن يجافيها ، الا أنه لايكاد يدنو منها حتى تطلع الشمس ثانية ، وتوشك وجوه شتى أن تضبطه متلبساً بأحلامه .

ومثلما لاح النصر لكل منهما على الليل ، كان على النهار . صار هو قادراً على أن يتذكر نتفاً مما أرقه أو داعب نومه . وصارت هي أقدر على أن تشكل ثانية وثالثة مالوّن نومها ، فترسل في شعرها المشط العظمي الأبيض الذي اشتراه لها ، أو تفرد الشعر الغامر على كتفيها ، وتتأمل وجهها في كسرة المرآة التي ثبتتها بالطين يسار الباب . تشب على رؤوس أصابعها لترى صدرها في المرآة ، تندم لأنها جعلت المرآة عالية ، تضحك وهي تستعيد انحناءه أمام المرآة الخفيضة إذ يحلق ذقنه ، تتلمّس أشياءه كأنها تختلس مرة، أو كأنها تتبرك مرة . وإذ يؤوب من المحطة أخيراً ، ترتعش وهي تدير له ظهرها ، واقفة أو ماشية أو جاثية ، فتشعر بعينيه تتطاولان على جسدها . تهمّ أن تضبطه ، ثم تشفق على نفسها من الخيبة ، فتأتي أية حركة تعلن عن التفاتتها المزمعة ، وتكتم سعادتها بمؤامرتها الصامتة .

كانا قد تعودا أن تغادر البيت الى جارتها العجوز حين يغتسل ، فيما تغتسل هي أثناء غيبته في المحطة ، تجمع قميصها الداخلي وسروالها من على الحبل قبل أن يعود . كان قبل حلولها في البيت يغسل ثيابه بيديه ، وقد حاول أن يتابع ذلك ، لكنها رفضت . ولم يبال أي منهما يومئذ في أن يكون قميصه الداخلي أو سرواله بين الثياب . الا أنها صارت تحمرّ حين تتناول أياً منهما ، وتتعثر في دعكه ، وتسرع في نشره أو جمعه من على الحبل .

لم يتأخر عليه السؤال عن ذلك وعن سواه مما يتصل بها ، وبرجل وامرأة في بيت . أصمّ عن السؤال مراراً ، أدار له ظهره متعللاً بأنه لم يأثم ، ولاهي أثمت ، فما ضرّ لو امتد بهما الحال كذلك ماشاء ؟

رويداً رويداً صار أجرأ على أن يواجه السؤال ، منكراً أن يكون يأثم بحق الله أو بحق فياض ، حتى إنْ ذهب مع نجوم الى أبعد مما هما فيه . من يحرم عليه بعد هذا العمر المضني الطويل أن تكون له امرأة ؟ لولا فياض هل كان يتردد لحظة في الزواج من نجوم ؟ بل لولا أنه في مثل سنّ والدها ، هل كان سيظل واقفاً أمام حاجز فياض بينه وبينها ؟

ربما كانت من حيث تدري أو لاتدري تزيد من جرأته وتؤجج ناره ، حتى لم يعد يفكر في فياض ولافي فارق العمر . بل في أن تكون هي تنظر اليه فقط على أنه صديق فياض وعزيز ، أو على أنه رجل مسنّ ، من أقران أبيها ، وإنْ لم يكن كذلك فلماذا لاتناديه الا بالعم حاتم ؟

ـ نجوم . هل خطر لك مرة أن تناديني ياحاتم ؟

كانت قد اختفت خلف الستارة ولم تطفىء السراج كعادتها ، حين انفلت منه لسانه يسأل . ارتبكت وجربت شفتاها أن تجيباه دون صوت . اشتبهت بالسؤال وقررت أن تظل ساكتة ، فإذا به يردف :

ـ بودي أن أسمع من يناديني بهذا مرة . لاأدري ، صرت أسأم هذه الأيام من هذا النداء بعد أن تعودته منذ شبابي . نمت ونسيت السراج ؟

ـ طيب . لاتزعل . حاتم . .

أسرعت تقول وتهمّ بالنفخ على السراج .

ـ أعيديها ولك عندي حلوان .

ـ حاتم . .

همست أمام السراج ، وكان قد تجاوز الستارة ، ووقف الى جانبها ، يصفق جذلان ، وهي مطرقة :

ـ خجلت ؟ ارفعي رأسك .

لامست أصابعه ذقنها وهي تتلعثم :

ـ يجوز أن أناديك هكذا أمام الناس ؟ لاوالله . .

ـ نادني أمامهم بما تشائين . على الأقل بيني وبينك قولي . .

كانت أعينهما تتعانق ، تميل بالجسدين أقرب فأقرب ، تجمع الظلين اللذين أرسلهما السراج على الجدار . كانت أصابعه تتغلغل في شعرها ، ورأسها يهوي على كتفه . انسربت كفه تمسح على ظهرها ، تشدها اليه ، وهي تموج في صدره ، تندغم به مثل نسمة الهواء على صفحة الماء الرخية . أحنى رأسه متنهداً حتى لامست شفتاه أذنها تلهجان :

ـ نجوم : هي كلمة ما قلتها لامرأة من قبلك . ولا لشمّا . الشيخ هو الذي سألها : نجوم : هل تتزوجينني ؟

ارتجفت كالعصفور الذي عز عليه الأمان والدفء، ونأى برأسه عنها متابعاً :

ـ أعرف كم هو صعب أن تقبلي ! كم هو صعب أن تجيبي ! هل تظنين أن الأمر سهل عليّ أيضاً ؟ إذا كان فياض أو أخوتك أو شبابك يمنعك عني ، فعمري كله ، مامضى منه ومابقي لي فيه ، يقف أمامي دونك .

ظلت ترتجف بصمت ، فأمسك بكتفيها يبعدهما عنه على مهل ، وكان جفناها مبللين بالدمع وهو يرخي يديه ويتراجع :

ـ لاتزعلي . دمعتك تكويني . انسي ماقلت إذا كان لايرضيك .
ونفخ على السراج بقوة .

★ ★ ★

كان انشغاله بها قد أبعده عمن عرف في المحطة والمدينة ، فلما عاد يقبل عليهم منذ الغداة بوغتوا بحرارته ، وأحزنه أن يسألوه عما به . كان يبدو كأنه آيب من سفرٍ . أنكر من نفسه ذلك الهدوء العميق الذي استحوذ عليه . ورثى لأيمان زملائه تؤكد على أن خلفه سراً وأي سر . ولم يلبث نظمي بدير أن انتحى به يستحلفه إن كان لديه مايخفيه عنهم ، خاصة أن سورية تغلي هذه الايام . هز رأسه نافياً ، وأحسّ بالصغار، لأن نجوم قد شغلته عن سورية كلها، وليس عن المحطة أو حمص وحسب . وأسعده أن يدعوه نظمي بدير الى بيته ، حيث سيجتمع الكثيرون . حتى الشيخ رزق سيكون حاضراً . وقد يأتي بعضهم من الشام ، فكيف لايحضر العم حاتم ؟

في البيت كان يجهد كي يبدو أفضل مما كان ، قبل أن يتمتع بالزواج ، ولكنه ظل عاجزاً عن عهده بالطعام والكلام . وكان يحسب أنها تجهد مثله ، وأنهما معاً يتواطأن على ماكان . ولما حل الموعد مع نظمي بدير ، حدثها عن خروجه الليلة مع الشيخ رزق ، وخرج مدارياً دهشتها ، إذ كانت أول مرة يتركها فيها وحيدة في الليل .

في الطريق عاتب جاره الضرير على أنه لم يصطحبه الى بيت نظمي بدير ولا الى سواه ، حيث يلتقون . أثنى الشيخ على همة الرجال ، واعتذر بإشفاقه على العم حاتم من همّ آخر فوق مابه ، ثم أضاف :
ـ لكنني كنت أدخرك لوقت الشدة . حياك الله . ماكان لنظمي أن يسبقني الى دعوتك . خيراً وقع .

كان يتناهى للعم حاتم مثل سواه بعض مايتردد في تلكلخ ، حيث رفض الدنادرة أن تلحق بلدتهم بالساحل ، كما اعتزم الفرنسيون ، أو لعلهم نفذوا منذ زمن . ومثل سواه أسعده أن يقف الدنادرة ضد فرنسا ، على الرغم من أن أحداً لم ينس أو يغفل عما بينهم وبين الفلاحين . بيد أن العم حاتم كان منشغلاً بنفسه وبنجوم ، فيما النداء يعلو بطرد كل عسكري فرنسي من البلدة ، والناس من هناك الى حمص ، يشتمون فرنسا ، وفيهم من يشتم الدنادرة أنفسهم ، ويتحرقون شوقاً الى حرق العلم الازرق في تلكلخ .

في اللقاء الحاشد ظل صامتاً أغلب الوقت . رأى نفسه غريباً ، على الرغم من أنه يعرف الكثيرين ممن عج بهم بيت نظمي . وكانت أصداء لقاءات مثيلة تناوشه من سنيّه القريبة والبعيدة ، تشوش على سمعه وعلى فهمه .

كانت نجوم حين عاد خلف الستارة ، والسراج متقد . انزوى صامتاً ، يهرب منها ، ويلوم نفسه على أن تتصابى ، وتسعى الى الزواج ممن هو مؤتمن عليها ، وهو الذي كان منذ قليل في بيت نظمي ، شيخاً ، مثله مثل جاره ، فماذا ترك إذن للشبان الذين كان البيت يفور بهم ؟

أطفأ السراج بعد لأي ، ولبد ينصت الى وقع أنفاسها تلفحه من خلف الستارة ، وهو يحاول أن يفكر في الدنادرة الذين كانوا دوماً الغالبين لمن نازلهم أو نازلوه، وفيما تغزل لهم الحكومة في الشام ، بعد أن رفضوا الراية الفرنسية .

تماثلت له وجوه فياض وعمر في الحرزة ومجلس العزاء بوفاة الحاج، والنقار الذي تسببه ذكر الدنادرة، ولكن أنفاس نجوم كانت تشوش عليه، تقاطعه وتدفعه بعيداً نحو الجدار أو تجذبه ، تغريه وتردعه ، حتى أوشك الليل أن ينقضي، وهو يقاوم تارة ويستسلم تارة ، يمسك بزمام نفسه تارة وتنفلت منه تارة . ولم يكن حاله بأفضل في الليالي التالية ، خاصة أن نجوم قد عادت في غفلة منه كعهدها قبل أن يفاتحها بالزواج ، كما كانت الاجتماعات تتواتر ، في بيت نظمي وفي سواه ، أصغر أو أكبر ، حتى باتت تشغله عن مرافقة نجوم في العصارى الى الجولة المعتادة في هذا الشطر أو ذاك من المدينة ، خلف سراب الأخوة الضائعين .

ربما أعانته الاجتماعات دون أن يدري على أن يرأب شروخه ، وأكدت أن مازال لديه الكثير كي يقدمه . مازال قادراً على أن يفعل الكثير ، فليس مابه أمر الشباب أو الكهولة أو الشيخوخة كما جعلته نجوم أو الزواج يفكر . وقد عاد يشرب العرق مع نظمي خاصة ، كلما تسنّى له .

كانت نجوم ترقب بغبطة ضحكته التي عادت تعرض . وتنصت شغفة ومعجبة اليه وهو يثني على الشيخ رزق الذي يغالب العمى والموت ، ويضرب به مثلاً ، فالمرء يمكن له مادام حياً أن يعمل في المحطة أو يقاتل الأتراك أو الفرنسيين أو الانكليز أو الدنادرة أو يتزوج أو يشرب العرق أو ينجب أطفالاً . كانت رائحة العرق التي تفوح منه بين ليلة وأخرى تجعلها تهفو اليه ، وتزيدها قوة على أن تؤالف في أعماقها بينه وبين أبيها وفياض . كانت الرائحة الخفيفة اللاذعة تملأ صدرها بعبق مرجمين والاخوة الضائعين . وكان

يذهلها أن الحزن يتوحد بالشوق ، والأمل باليأس ، والخوف بالأمان ، والإثم بالطهر . ولم تعد الستارة تخفيها حتى يعود .

سوى نظمي بدير ، كان آخرون ، أغلبهم من الشبان أيضاً ، ممن تكرر اللقاء الليلي بهم ، يدعونه الى عشاء متأخر ، بعد أن يكون اللقاء قد امتد منذ الغروب . وكان بعضهم يقدم العرق أو النبيذ ، وهو يكرر الاعتذار عن أن ليس بوسعه أن يدعوهم مرة الى بيته . ويزيد من نشوته أن لاأحد منهم يقدر على أن يجاريه في الشراب . وكان يسعده أن يعود متأخراً، فيرى نجوم بانتظاره ، ترحب به وتسأله عما إنْ كان جائعاً ، ثم تهرع الى الستارة فترخيها ، وتطفىء السراج .

كانت تتلهى بانتظار عودته قليلاً عند جارتها ، سواء أكان الشيخ رزق غائباً أيضاً أم لا ، ثم تأوي الى البيت ، تستذكر انتظارها وأمها لأبيها ، حين يدعوه أحدهم الى عشاء ، ويعود متأخراً يغني ويتأرجح ، وتتأسف لأن حاتم ـ كما صارت تناديه في سرها ـ لايفعل مثلما كان المرحوم يفعل ، فيدعو أصدقاءه ، وتعدّ وأمها لهم العشاء ، ويشربون ويغنون ويتشاجرون ويتصايحون . بل إنّ حاتم لايأتي بكأس من العرق أو النبيذ الى البيت ، ويشربه أمامها ، مثلما كان المرحوم يفعل ، وهي وأمها تساهرانه . ولعلها قد ضاقت بما يبعده عن هذا البيت أن يكون شبيهاً بذلك الذي كان لها في مرجمين، أو ضاقت بما يبعد عن حاتم أن يكون شبيهاً بالمرحوم ، فقررت أن تنقض مؤامرتها الصغيرة عن شربه وسهره في الخارج ، وباغتته وهو ينتظر كما اعتاد أن تنهض الى الستارة ، بعدما فتح الباب بأناة ، وحيّا وتريث في نزع حذائه ، وافتقد سؤالها له عن الجوع ولهفة صوتها المرحب . لقد ظلت متربعة حيث اعتاد أن يقضيا وقتهما المشترك ، في الركن المواجه للستارة ، ولم ترفع عينيها عنه حتى رفرف جفناه وتساءل :

ـ خير يانجوم ؟ مابك ؟

وبلع ريقه وهو يطرد الدوار الخفيف من رأسه .

ـ شربت شيئاً ؟

غادر الدوار رأسه وأوشك أن ينفي لولا أنه فطن الى أن صدى صوتها يزجره عن الكذب ، كما تزجر الأم طفلها المذنب .

صمت معترفاً وراغباً في العقاب ، الا أن صوتها تبسّم له حانياً :

ـ ما هي بأول مرة .

ـ لايستطيع الواحد أن يخفي عنك شيئاً .

قال وقد جرؤ على أن يجلس ويسترق نظرة منها .

ـ والشرب في البيت ما هو أستر ؟

سألت وهي تنهض متابعة دون أن تفسح له أن يجيب :

ـ رحمة الله عليها . ما كانت تريده أن يشرب خارج البيت .

أسرع يترحم على والديها ويتساءل حذراً :

ـ وأنت ؟

ـ وأنا أيضاً .

بحزم أجابت وهي ترخي الستارة .

ـ طيب لاتزعلي . ما عدت أشرب خارج البيت . .

قال والدوار الخفيف يعاوده ، وكان يود لو يجسر على أن ينهض أو يدعوها الى أن تعود ، فيحدثها في أمر ما ، حتى إنْ كان الزواج نفسه ، حتى إنْ كان مايفكر فيه من الذهاب مع من قرروا الذهاب الى تلكلخ وحرق العلم الفرنسي فيها ، لكنها كانت قد أطفأت السراج .

في الظهيرة التالية بكر من المحطة الى السوق . أحضر زجاجة من العرق، وعجل الى البيت ملوحاً بما يحمل . تناولت الزجاجة وابتسمت . طالب بالطعام فأمرته أن ينتظر ، وذكرته بعودته المبكرة . أحضرت كأساً فارغاً وكأساً من الماء ، وأعدت له مزيج العرق الحليبي وهو فاغر . رفع الكأس مغدقاً الرحمة على من قضى من بيت الصوان وشرب نخبها ، ثم تساءل :

ـ أين تعلمت ؟

قالت باعتداد :

ـ كان المرحوم يقسم أن الكأس من يدي له طعم ليس لكأس سواه .

لوح بالكأس :

ـ هل جربته ؟

ـ لا . أحياناً كان يفرض علي ، فأشرب جرعة أو كأساً صغيراً من النبيذ ، وأمي تعنفنا معاً ونحن نضحك .

نهض عجلاً . أحضر كأساً وأعدّ لها المزيج الخفيف وقدم الكأس ، ثم أقبل على الطعام والعرق بنهم ، يستحثها على أن تجاريه . وجاء صوت الشيخ رزق والعجوز يبربران من ساحة بيتها . فتلفتت، وعبرت عن خشيتهامن أن تتسرب رائحة العرق ، أو

يخطر لأي من الجارين أن يحضر . أسرع الى الباب وأغلقه فصارت خشيتها أكبر من إغلاق الباب وقت الظهيرة . تمازجت في فضاء البيت رائحة العرق النافذة والضياء الخافت المتسلل من شقوق الباب والنافذة ، وغدا للجسدين حضور جديد . بدوا كأنما يؤديان طقوساً مقدسة منسية لرجل وامرأة ، لصديقين في البادية المنقطعة أو في الغابة العصية . لم يعد أبوها ولم تعد ابنته . لم يعد فياض ولم تعد شها . لم يعد المؤتمن ولم تعد الأمانة . لم يعد الشيخ ولم تعد الصبية ، إنهما حاتم أبو راسين ونجوم الصوان ، عتمة وضياء ، باب وشقوق ، فضاء وستارة ، سراج وفخار ، لباد ولحاف زاه ، أعواد من الريحان وطبق من القش ، عرق وماء ، كفان تتعابثان ، أصابع وشعر ، غنج واشتهاء ، شفتان يابستان ووجنة طرية ، صدران يلتحمان ، ثديان ينفتح عنهما الثوب ، قضيب يجفل ويستفيق وساقان تنفرجان ، سروالان نظيفان ينقذفان فوق الجرة ، آهة ووجع ، نشوة وسكين من لحم ودم وعنق ليس بعنق شها ، دم بلا ذبح ، صرخة داوية وذوبان ، ساقان مشرعتان تهويان من على كتفيه، تتلمسان صوف اللّباد الدافىء، غمامة من شعر صدره الابيض تظلل ثدييها وجسد بطوله يدثرها ، ذراعان بضان لدنان يتوسدهما رأسه الكليل ، هو يود لو يقدر على أن يبدأ من جديد ، وهي تود لو تغفو . وبعد لأي كان أحدهما يقول أو ربما كانا يقولان معاً :

ـ ماذا فعلنا ؟

ثم همس وهو يبحث عن سرواله :

ـ من الفجر أكلم الشيخ رزق . يقرأ الفاتحة، ونحن زوجان على سنة الله ورسوله .

ـ كان عليك أن تذهب اليه أولاً .

تمتمت وهي تنهض مدارية الوجع بين فخذيها ، وتمسح بسروالها نقط الدم عن اللباد .

وكان يبتسم للكذبة الجديدة التي سيطلع بها على جاريه ، ويطأطىء أمام غضب الشيخ ، ثم يرفع رأسه ملاقياً الغفران والبركة .

★ ★ ★

27

هو حلم متصل ، سكر متصل ، في البيت والمحطة والمدينة ، ماعاشاه يوماً أو اثنين أو عشرة ، ليصحوا أخيراً على أن الوقت قد أزف ، وبات عليه أن يتقدم مجموعة من الرجال الى حيث الفرنسيون ، ربما على أبواب حمص ، أو في تلكلخ ، أو في طرابلس نفسها .

قد يكون هو الذي تنطع لذلك فيما يعلن زواجه في كل مكان . وقد يكون الشيخ رزق هو الذي مازحه أو مازح الآخرين في بيت نظمي بدير :

ـ اتركوا العريس الآن . سيأتي دوره .

تطامن الشبان أمام الكهل الذي سبقهم الى الزواج من صبية لايدري أحد كيف سرى بينهم أنها مثل النجوم ، مثل حجر الصوان ، وليس اسمها نجوم الصوان . وقبل ذلك وبعده تطامن الشبان أمام الكهل الذي يعرف من السلاح مالايعرفون ، فأخذوا يتسابقون الى أن يكونوا في المجموعة التي سيقودها .

بيد أن دموع نجوم الصامتة والمستحثة كانت تملؤه بالغمام ، قبل أن ينطلق . وعلى الطريق كان عليه أن يكافح كي يخلص من أصداء صوتها المودع :

ـ مثلما فقدت أبي سوف أفقدك .

والأصداء لاتفتأ تطلع من حيث لايحتسب : من التلال المغطاة بالبلان ، من مسالع الحجر البازلتي الأسود ، من وجوه الكلاسة والحجارين والرعاة والفلاحين المتناثرين في الوعر ، من بياض القمم الجبلية التي أخذت تقترب ، من الهواء القارس الذي يسفع وجهه ويؤبؤ عينيه الساهرتين .

كان آخرون قد سبقوه ومن معه ، وأحرقوا العلم الفرنسي . لكن العلم العربي لم يعد الى مكانه . بل مالبث العلم الغريب أن عاد يرفرف ، والرصاص لايكاد يهدأ ، يخترق جمجمة أو صدراً أو ورقة خضراء أو وردة ذابلة أو عين بقرة أو حوض العم حاتم

وفخذه ، ويرمي به بين أيدي رفاقه المنسحبين ، ينغّص عليهم مصرع العديد منهم فرحتهم بما فعلوا في الفرنسيين ، وينوؤون تحت حمل العم حاتم وسواه من المصابين ، والأمان المنشود ، خاصة أن الذخيرة أوشكت على النفاد .

حمدت نجوم الله على أنه قد عاد ، لايهم إنْ كان يمكن أن يرث عرجاً ، أو إنْ كان الانقطاع الطويل عن المحطة قد يجعل الادارة تصرفه من العمل . لم تفكر نجوم بذلك ، كما لم تفكر في أنه سوف يكون عليها أن تعمل بجد بعد عودته ، وتكوم السلال فوق بعضها ، ليحملها الشيخ رزق الى السوق ، ويعود بما يقوم بأودها والعم حاتم . كان همها فقط أنه قد عاد حياً ، وأن الله قد كذب نبوءتها ، ولم يجعل زوجها مثل أبيها مرحوماً .

أما هو ، فلم يسبق له أن رأى الموت قريباً منه أو قادراً عليه الا هذه المرة . لقد نال منه ، بل هدّه هداً . الدم لايشاء أن يفارق بوله ، والكسور المحيرة تلزمه الفراش . حتى اذا استطاع الطبيب الذي يأتي به نظمي بدير ، ودعاء نجوم ، وعون الله ، أن يجعلوه أخيراً قادراً على أن ينهض ، ويبحث عن عملٍ جديد ، ويضحك من إلحاح نجوم على أن يأتي بزجاجة من العرق لتفرح بمعافاته ، إذ ذاك ، اكتشف أن الرصاص لم يأت على مشيته وهمته فقط ، بل على ذكورته أيضاً .

منذ خرج في الضحى ، ذلك اليوم المشمس ، كانت قد شرعت تتهيأ لما قضت أيامها الأخيرة تستحلب ريقها عليه . مراراً راوغته بعد أن تعافى ، فكان يكتفي بمعابثتها قليلاً ، ثم يأمرها أن تكف . كانت حزينة وخائفة مثله ، لأنه فقد عمله ، ولأنه يعود خائباً من البحث عن عمل جديد ، ولأنهما يعودان معاً خائبين من جولاتهما المتباعدة خلف سراب الضائعين . كانت تتحامل على قهرها وتلومه على صمته وتجهّمه ، تهون عليه ، وتغدو أصلب يوماً بعد يوم ، فلا تقبل عوناً ، لامن نظمي بدير ولا من الطبيب ولا من سواهما . كانت تريد فقط أن يرى ماتفعله فيها التماعة نظراته . بيد أن الالتماعة صارت تبهت ، تغيب ، ولعل ذلك ماجعلها تغدو أكبر اندفاعاً ورغبة بالعمل وبالعيش وبه ، كأنما تسابق الزمن وتصارعه ، قبل أن يفوت الأوان .

لم توفر حيلة حتى أفلحت في أن تأتي بزجاجة العرق ، فخبأتها الى أن قدرت أن موعدها معه قد حلّ . اغتسلت بالماء الحار ودققت في أثر أية شعرة بين جنبيها أو تحت إبطيها . سمعت عصا الشيخ رزق تدق فهالها أن صلاة الظهر قد انقضت وهي لما تنجز بعد الا الغسل والنتف . لازال عليها أن تعد الغداء والكأسين ، أن تستقبله وتجعله

يشرب ويأكل ويضحك وينسى ويرسل أصابعه في شعرها . وقد ضاعف نجاحها الهين السريع في ذلك من حبورها واتقادها ، فأتلعت له الثديين وحضنت كفيه فوقهما ضارعة . تمددت على اللباد تعاتب شقوق الباب والضياء الواني . لم تنتظر أن يساعدها على نزع سروالها كما ألفت منه في زمن مضى . باعدت فخذيها تتعجله ، طوت ساقيها وأرختهما على اللباد الناعم الدافىء ، همت أن تكلمه وتنزع عنه ثيابه ، فقد انسحب الى أقصى الأرض ، بل إنه أدار ظهره ، واختلط نعيه للرجل الذي لم تعد تطيق عليه صبراً ، برجائه أن ترأف، ليس به ، بل بنفسها ، بأنين الباب الذي انسل منه ميتاً .

كان ميتاً بحق ، على الرغم من أنه قد طاف في ساحة البيت ، وحوله ، ثم حول النهر ، يتحاشى أن يصادف أحداً ممن يعرف أو لا يعرف ، يتلمس الجنيه الذي أودعته في جيبه هذا الضحى المشمس .

وبعد المغيب يتسلل الى المحطة ، يقعي في زاوية قذرة ومعتمة حتى يأتي القطار ، فيتسلل الى جوفه ، ويدفن نفسه هناك .

أيهما كان أكبر عجزاً : ذلك الشاب الذي خلف شمّا وراءه بلا عنق ، أم هذا الكهل الذي خلف نجوم وراءه بلا سروال ؟

أيهما كان أكبر هزيمة ؟ هل كان مافعل رصاص الفرنسيين في الكهل أقتل مما فعلت سكاكين الخيالة في الشاب ؟

مهما يكن الجواب ، فإن السؤال الذي استبد به ، لايرضى بأي جواب . إنه يعجن الكهل والشاب وهدير العجلات في الليل المطبق ، ويرميه في الشام أخيراً ، مريضاً وحيران : هل سيقدر الكهل على ماقدر عليه الشاب ؟

قبل أن ينزل من القطار لم يفكر إلا في أنه لن يذهب الى هولو التكلي ولا الى عبد الودود السعد . ولما غادر المحطة طفق يدور غريباً ، جائعاً ، يرثي لمن كان عاجزاً في الفراش ، إثر إصابته ، يعوده كثيرون ، ولايفارقه الشيخ رزق ، وهو يتمنى أن يزور الشام التي صارت مملكة مستقلة كما يقول أولاء مبتهجين ، ونجوم ترنو إليه ، كأنه هو الذي جعل لسورية تاجاً وملكاً .

بيد أن قدميه كانتا لاهيتين عنه ، تحملانه الى الشيخ حسن ، ولاتيأسان من العثور على بيت هولو ، حتى إذا فتحت حُسْن الباب ، ارتدّا معاً هلعين ، وكانت وحيدة ، وقد أنكرته لولا أنه تهالك على الباب :

ـ عمك حاتم .

ولما جاء هولو لم يكن أيسر عليه من حُسْن أن يصدق أن هذه الجثة هي العم حاتم أبو راسين . هولو وحُسْن ، ومن ثم عبد الودود وخديجة نفسها ، ماكانوا يملون من التكرار :

ـ ماذا جرى لك ؟

وقد أوشك لسانه كلما زفر أحدهم، وسأل ، أن ينعي لهم عمهم الذي يعرفون ، أن يفضحه أمامهم، حتى يجعلهم يتبرأون منه ، مثلما يتبرأ هو . إلا أنه خدعهم وخدع لسانه ، واستطاع أن يرسل كلمات نزرة متقطعة مشوشة حول الفرنسيين والإصابة والطرد من العمل ، دون أن يذكر نجوم . ولما سأله أحدهم عنها حرن . ولما سأله آخر منهم عن فياض وعزيز حرن . ولما امتلأت معدته بالطعام واستراح ظهره وقدماه وسئموا المقت الذي أطال مساهرتهم ، عاد يذكرهم بالعم حاتم الذي افتقدوه منذ ساعات ، وتناءت بهم الدروب عنه منذ شهور . أرسل كلمات أكثر أو أقل تشوشاً وتقطعاً حول الشام . أصغى إلى هولو وعبد الودود يتسابقان . أدهشته فرحتهما وثقتهما بنفسيهما ، بل بالعالم كله . ولعل كلماته دون أن يدري كانت تلتف كالأخطبوط على سعادتهما وحماستهما ، فتؤكد أن المملكة السورية كلها لاتعدو أن تكون لعبة . لعبة يشترك فيها الصغار مثلهما ، والكبار مثل الملك أو الانكليز أو الفرنسيين أو الشياطين . كان يؤكد أنهم جميعاً يلعبون بالشام، كما يلعب الأولاد بالدحل . الغريب يلعب والقريب يلعب، والشام تكاد تضيع ، أو أنها قد ضاعت حقاً ، وقضي الأمر .

كانت عيناه وهو يتكلم أو يصغي لاترتفعان عن جليس آخر لايرونه . وأنّى لهم أن يروا ذلك الشاب الأخرس المطرق الذي يحتمي من العم حاتم بهم ، بشمّا ونجوم ، عاجزاً أمام ماترميه بهما تينك العينان من حقد وشماتة ، ولكن من يستطيع أن يقيله من هذا الذي آل اليه في شيبه ؟

في الصباح الباكر ألفى نفسه وحيداً في بيت عبد الودود الذي أصرّ على أن يستضيفه الليلة . خرج عبد الودود الى عمله الجديد عند الميكانيكي ، وخرجت خديجة الى بيت سليم أفندي ، وهو غارق في النوم ، أشبه بالبركة العميقة التي هدأت أخيراً . كان الضياء يملأ البيت رغم الباب المغلق . تراخى ساخراً من النشاط المباغت الذي يجيش في دمه . تساءل عن الفرق بين أن ينهض الآن أو أنْ يظل مستلقياً حتى المساء ؟ هل سيذهب الى حُسْن ليزجي معها الوقت ؟ حتى حُسْن سوف يكون لديها مايشغلها عنه . ولئن قضى اليوم كيفما اتفق فماذا عساه يفعل غداً ؟ هل سيظل هكذا بين يدي هولو

وعبد الودود ؟ هل سيظل هكذا في الشام التي لم تعد تعرفه أو لم يعد يعرفها ؟ لاباشا اسمه شكيم فيها ، لاسليم أفندي البسمة ، لامحطة ، لاأحد ، فكيف يقيم ثمة لحظة واحدة ؟ هل هذا هو الملجأ الذي اختار ؟ وتلك التي لم يجرؤ على أن يفكر منذ أن غادرها بلا سروال ، ماذا تراها تظن فيه الآن ؟ ألا يكفيه أنه قد فجعها بخصائه حتى يضيف الى ذلك فراره الجبان ؟

كان لغط أطفال يقترب منه وهو يقرّع نفسه ، ثم دفعه الى الباب بكاء طفلة واستغاثتها . رأى الطفلة تتلمس رأسها وتمسح الدم بثيابها . هرع اليها فإذا بطفل يشير صوب بيت هولو :

- انظر أين اختبؤوا .

كان عدد من الرؤوس الصغيرة يتلصص من زاوية البيت . لوح بذراعه مهدداً وحمل الطفلة يسأل عن بيتها . تقدمه الطفل ليرشده واختفت الرؤوس الصغيرة . نهر الطفل :

- كيف تركتهم يضربونها ؟

صاح الطفل به :

- تكاثروا عليّ . وأنا وحدي .

ظهرت حُسْن من زاوية بيتها تشتم أولاد الحرام ، وأسرعت الى العم حاتم تتناول الطفلة وتنادي على جارتها حامدة . عاد الى البيت يحمد الله على أنه لم يرزق بولد . أغلق الباب خلفه ومشى . عبر ببيت هولو وبجمع آخر من الأطفال يهزجون . تعلق أحدهم بثوبه وأخذ ينشد للملك . مسح على شعر الطفل ، فيما تحلق الآخرون حوله يرددون خلف الطفل . استسلم إليهم قليلاً ثم تابع ضاحكاً منهم ومن الملك . فكر في أنه كان يمكن أن يكون له ولد بعد شهور لولا رصاص الفرنسيين . ثانية حمد الله على أنه ظل بلا ولد . فكر في المسكينة التي لاتزال في أول صباها . لم يستطع أن يجعلها تحمل على الرغم من أنه كان يركبها مثل ابن العشرين ، فهل كان عاجزاً عن الإنجاب قبل أن يخصيه الرصاص الفرنسي ؟

هز كتفيه ساخراً من نفسه : هاهو قد غمره الله بنعمه، فلم يعد عاجزاً عن الانجاب وحسب ، بل عن الركوب أيضاً . حكم على نفسه بالعته لأنه تزوج من نجوم الصوان . لو كانت أخرى في مثل سنه أو أصغر بقليل ، أرملة أو مطلقة ، لهان الأمر . ناشد الله أن يعاقبه شر عقاب . ولئن كان الله يمهل ولايهمل ، فإن عليه هو أن يعاقب

نفسه فوراً . عليه أن يطلق سراح نجوم من أسره . ليس له أن يهرب منها ويدعها معلقة في الهواء . عليه أن يتكفل بها حتى يمنّ الله عليها بمن هو أفضل منه . عليه أن ينبش لها أخوتها، وفياض نفسه، من تحت الارض ، وهاهو القطار المسافر الى حمص في محطة الحجاز ، وسورية تضجّ بتاجها .

★ ★ ★

انفرج الباب عنها وحدها في فسحة الدار ، تعالج عيدان الريحان . تسمرت يداها حين ملأ الباب ، ثم أشاحت عنه . تسمر في الفسحة ، بعيداً عنها ، حتى رآها تنهض وترمقه :

- ادخل .

سبقته ضراعته اليها . ارتجفت أصابعه وهو يرسل ذراعيه نحوها . أفزعه شحوبها وانطفاء عينيها . خيل إليه أنها قد كبرت سنيناً في ليلة . سقط ذراعاه وأذعن لدموعه ، ولحشرجته :

- سامحيني . .

- على . . .

تردد صوتها في الفسحة عتباً وضعفاً . همس :

- على كل شيء . غلطت من البداية . سامحيني وساعديني على أن أصلح غلطتي . .

- ماعندك غير هذا الكلام ؟

- لايانجوم . أنت شابة وليس لي أن أحرمك . لن أحرمك أن تكوني امرأة ، ولا أن تكوني أماً .

- هذا أمر الله .

- ونعم بالله . ولكني أقول : إذا كنت ترغبين في أن تتركيني فأنا لاأقف بوجهك أبداً . على العكس يانجوم . من اليوم حتى أموت لن أتخلى عنك . سواء كنت في هذا البيت أم في آخر الدنيا ، فأنا أفديك بروحي .

- ادخل .

قالت وهي ترمي بعود الريحان الذي كانت تدعك أوراقه .

قال وهو يتقدم خطوة :

ـ ما عندك غير هذا .

قالت وهي تسرع الى داخل البيت :

ـ قل لي أين كنت ؟ قلب الشيخ رزق عليك حمص . فكر فيما ستقول له وللناس عن غيبتك .

ـ وأنت يانجوم ؟

ـ أنا ؟ مابي ؟

كانت قد قلبت في ليلتها مثل كلامه ، وهي تغزل شرنقة الهدوء والرضا حول نفسها ، خاصة بعد أن تجرأت وحدثت الشيخ رزق عن شجار حاد مع زوجها ، ورجته أن يبحث عنه . لامها الشيخ ولامتها العجوز وهي صامتة . ماكانت بحاجة الى من يذكرها بأن رضا الله على المرأة من رضا زوجها ، وأن نار جهنم جزاء المرأة التي تغضب زوجها . كانت تصمّ عن اللوم والتذكير ، تفكر في جزاء الرجل الذي يترك زوجته بلا سروال ويرحل ؟ كان بوسعها أن تحكم عليه بنار جهنم حين أنّ الباب وغيّبه . أنكرت في البداية فعلته ثم فكرت في أنه قد يكون خرج ليتبول . ظلت مستلقية على ظهرها ، منفرجة الساقين، تنتظر قضيبه الذاوي، فيما غيظها يتفاقم، وشهوتها تتأجج . ثم استل الغيظ الشهوة ، وأقسمت برحمة المرحوم والمرحومة أن لاترمي له السروال ثانية قبل سنة . داورت بألم وغضب الهواجس التي أخذت تداهمها . أي جرم اقترفت حتى يرفضها ويسير ؟ أتكون الوساوس قد أوغرت صدره عليها وهو يلازم الفراش ؟ ماكانت تغادر البيت إلا من أجل عيدان الريحان أو إلى بيت الشيخ رزق ، ولم يلمح البتة الى ذلك . أيكون الرصاص قد آذى قضيبه ؟ لقد خاطبها وهو ينهض عنها ويفرّ بشيء من ذلك ، ولكنها غسلت بيديها مراراً القضيب والخصيتين وثقوب الرصاص وهو يلازم الفراش . فكرت في استشارة جارتها التي لابد أن تكون أدرى بشؤون الرجال . ألجم السؤال الحياء والانتظار ، ثم ألجمته المكابرة . وفي الليل الموحش لم يعد القضيب الذي لم ينتصب يقلقها . باتت الوحدة هي التي تقلق ، فماذا إنْ لم يعد ؟ ماذا إنْ ظلت هكذا ، مشلوحة على أطراف حمص ، بين السماء والارض ، بلا زوج ولاأهل ؟

ملأت بعض ليلها بدقائق حياتها معه ، منذ أن أطلّ عليها في المشرقة ، ولم تصدق أن يكون من يرحل عنها ، حتى إنْ كانت مذنبة . وكلما كان يأسها من ظهوره يكبر كانت ترى نفسها أكبر حنيناً إليه ، وخوفاً عليه ، وغفراناً له . كانت ترفع يديها مستسلمة ، راضية بقضاء الله ، ترقب بهدوء الموتى وشجاعتهم خيوط شرنقتها تنغزل حولها ،

وفكرت في أنه قد يكون عليها بعد اليوم أن تذرع حمص أو غير حمص بحثاً عنه ، وليس فقط عن الاخوة الضائعين ، ولم تغف حتى اطمأنت الى عزمها على أن لاتدع قضيبه يباعد بينهما ، فليس لها في العالم سواه ، وليس له في العالم سواها .

ولئن كان حضوره في ذلك العصر قد خفف عنها ، إلا أن أعماقها ظلت تنوء بحملها . ولعله أدرك ذلك منذ ليلتهما الاولى في حياتهما الجديدة ، أو لعله أصيب منها بالعدوى الصامتة ، فصار له هو أيضاً شرنقته الخاصة ، دون أن يخفف عنه عثور الشيخ رزق له في الغد على عمل في الأتون .

كان صيته قد سبقه الى الكلاسة ، وقد أفاض الشيخ رزق في شجاعة جاره ، وتضحيته ، ومعرفته في الدنيا ، فرأى الكلاسة في عمهم حاتم شيخاً عتيقاً لهم في الصنعة ، بيّضه الكلس وجرحه البلان، ولم يسوده الهباب . أما هو فقد رأى نفسه أشبه بمدخنة الأتون المهترئة ، خجلاً من رعاية وإكبار من حوله ، خجلاً من جهله بهذه الصنعة ومن ضعف جسده أمام الكلاسة القادرين . وكان ذلك يضاعف له الأمان في شرنقته ، على الرغم من أنها لم تعزله عنهم كما لم تعزله عن نجوم ، بل لعلها كانت تزيده لحمةً بهم ، تدفعه الى الجامع في العشاء وفي الفجر ، والى الشيخ رزق الذي بات صلته الكبرى بما يجري خارج البيت والأتون البعيد . وسرعان ماصار الشيخ رزق يشغله بأصداء المظاهرات والقتال القادمة من فجاج أعماقه كما من حمص والشام .

ولأن شرنقته غير شرنقتها صارت شفتاه تتمتمان وتنغمان :

- أسفي عليك ياشام . أسفي عليك ياسورية . .

مثلما كانتا ترددان أثناء الحرب :

- أسفي عليك ياحيفا .

حين أخلاها جمال باشا قبل أن يهاجمها الانكليز .

الكلاسة ، ونجوم نفسها ، والشيخ رزق ، ونظمي الذي عاد يلتقيه ، وآخرون ممن يكونون دوما في كل لقاء ، وفيهم من عرفه من قبل ومن لم يعرف ، صاروا جميعاً يرددون منغمين ماأخذ يردد ، نادباً نفسه والبلاد التي لاتنهض من بلوى ، إلا لتقع فيما هو أدهى .

كانت نجوم ترقب بصمت حركاته وكلماته وزفراته ، خاصة بعد أن هددت فرنسا الشام بالركوع تحت قدميها ، وأخذت تزحف عليها من كل مكان . كان يشغلها أنها لاتستطيع أن تقدر ما إذا كانت شرنقته في غزلها وفي انحلالها تزيد حياتهما الجديدة سوءاً أم

لا . وعلى الرغم من أن المدينة كانت تغلي غلياناً ، وسورية كلها ، فقد كانت خيوط شرنقته تنحلّ ببطء . كانت نفسه في قدر من الماء الفاتر ، فوق نار هادئة ، تطوي أطول مما ينبغي من الأيام ، قبل أن تنفخ فيها الروح ، فلا يعود قادراً على الذهاب كل يوم الى الأتون البعيد . ولما فعل ذلك أول مرة ، بدت نجوم تفيق من غفوة طويلة ، أو إغماءة أطول .

كانت حمص قد هبت ضد فرنسا الزاحفة المذلة المهددة، وضد الحكومة الضعيفة الخانعة . كان البدو من بني خالد والعمارات والرولا وسواهم قد اندفعوا الى الساحات والطرقات . وكان الفلاحون القادمون من الجبل والسهل ، من قرى العلويين والاسماعيليين والدنادرة، قد اندفعوا في اليوم نفسه، فضاقت حمص بمن فيها وبمن هب إليها . ضاقت بالغبار والهياج والحر ، وضاق هو بحياته الجديدة مع نجوم والكلاسة ، ضاق جلده به فقذف نفسه في لجة المدينة طوال النهار ، وفي المساء كان أول من لبّى الدعوة الى الزحف على مواقع الفرنسيين ، وملاقاتهم قبل أن يقتربوا .

لم يحدث نجوم بذلك . الشيخ رزق هو الذي قال لها بعد أيام ، وكان يقارن لها وللعجوز أو لنفسه ، بين الأمس القريب لحمص الغاضبة ، والأمس البعيد الفرح لها ، حين رحل الأتراك ، ولاحت الراية العربية فوق الكوفية والعقال .

هذه المرة أيقنت نجوم أن نبوءتها الاولى سوف تصدق . لن تكون يتيمة وحسب عما قريب ، بل أرملة أيضاً . ولكنها كتمت شكواها واكتفت بمعاتبته على أنه أخفى عنها عزمه على القتال من جديد .

أما هو فقد تعلل بانشغاله ليل نهار ، وكان قد بدأ لايؤوب الى البيت منذ صلاة الفجر حتى ينتصف الليل أو ما يقارب ، فيرتمي مهدوداً ، لايتناول الطعام ولايكاد ينطق ، وسرعان مايغرق في النوم .

وإذ حل الفراق وكان الوقت عصراً ، مثل ذاك العصر الذي عاد اليها فيه من الشام ، احتواها ذراعاه ، وسارا متعانقين وهي تشهق بلا دموع ، وقرص وجنتيها ممازحاً :

ـ ترضين أن أظهر بينهم ضعيفاً ؟ تقبلين أن أواجه الفرنسيين ضعيفاً ؟ اضحكي واسمعي . ذهبت أمس الى مرجمين، وقلت أترك الخبر مفاجأة لك . لازالت مهجورة . لكنني صادفت كثيرين في الطريق أكدوا أن أهلها يتسللون اليها ، يتفقدونها ثم يعودون الى حيث يلتجؤون . قلبي مطمئن الآن على أخوتك يانجوم . قلبي يحدثني أنك ستلتقين

بهم قريباً ، وفي مرجعين نفسها بإذن الله . بقي أن أطمئن عليك . اضحكي من قلبك حتى أذهب وأنا مطمئن .

كذلك غاب كل منهما عن الآخر . هي تضحك وهو يطمئن ، هو يضحك وهي تطمئن . إلا أن ماعاجلها به الشيخ رزق وهو قانط ، لايكاد يهدأ ، وما أفسد الفرنسيون به على ذلك الذي أصرّ على أن يكون برفقة من قاد في الجولة السابقة ، متباهياً ببندقيته ، فيما الرشاشات الفرنسية تحصد حصداً ، والمدفع الجبلي الهائل يشق السماء ، والنصر الذي كان قبل أن تترى النجدات الفرنسية ، كل ذلك ينقلب شر منقلب ، وسورية التي كانت الشام تنحني لنير جديد .

★ ★ ★

28

هو ذا هولو وحيد في رياق . من عساه يلتقي فيها الآن ؟ في الشام كانت حُسْن الى جانبه ، عبد الودود ، حتى خديجة وعمر كانا قريبين ، على الرغم من أنه كان يحسّهما أكثر بعداً من عزيز أو العم حاتم أو فياض ، أما هنا ، فليس ثمة سوى الوحدة التي كانت أول ماانجلى له مما بات يخشى ، منذ استل العم حاتم شجاعته ، ونغص فرحته بالاستقلال والمملكة .

حين بدأت الحكومة ترفع الاسعار ، خيل إليه أن سبباً واحداً على الأقل قد توضح لتلك الخشية التي زرعها فيه العم حاتم. بيد أن اندفاعه وعبد الودود مع الآخرين ضد الحكومة جعله ينسى العم حاتمْ ومازرع ، ولو إلى حين . كما جعله يصمّ عمن يحذّره من مغبة صنيعه ، خاصة حين كانت خديجة هي من تحذر .

لافي المحطة ، ولا في القطار ، ولا في المرجة ، كان صوته أول ولا أعلى صوت يشتم الحكومة ، ثم يدعو بعد أيام الى الاضراب . إلا أنه فوجىء مثل الجميع في اليوم الثاني للاضراب بنقله وحده الى رياق . وحين انتهى الاضراب دون جدوى ، توجه الى رياق ، يحدوه دعاء حُسْن ، وهياج عبد الودود وسخط خديجة وشماتتها ، بعد أن رفض ـ ورفض عبد الودود ـ إلحاحها على أن يذهبا الى عمر أو الى سليم أفندي أو الى الباشا شكيم ، لعل أحدهم يلغي قرار النقل .

وصل الى رياق بعيد الظهر . وفيما تبقى له من ذلك النهار استطاع أن يدبر أمر سكناه قريباً من المحطة . وفي المساء أوى الى الغرفة الفارغة ، عازفاً عن الذين رحبوا به وأعانوه على تدبيرها ، خاصة بعد أن علموا بسبب نقله ، وأمطروه بأسئلتهم ، وهو لايقوى على أن يفرج شفتيه .

كان يرى نفسه أشبه بالعم حاتم حين فاجأهم وهو في أسوأ حال . كان قادراً على أن يعيد مارماهم به ، وصوت الخيبة يتوحد فيهما ويتهدج :

ـ تراني أخطأت في كل ماعشت ؟

العم حاتم يقسم على أنه منذ شبابه لم يفكر في نفسه ، لم يفكر إلا في الناس ، لم يعش إلا من أجلهم ، أياً كانوا ، معهم أو ضدهم ، ولما رحل الاتراك حسب أن عمره قد أتى أضعاف ماكان يأمل ، فإذا به في غمضة عين أو اثنتين لايقع الا على خواء .

كان هولو يصغي له في ذلك اليوم مشدوهاً ومنكراً وأسيان ، ثم نسيه ونسي قسمه وخيبته ، حتى أخفق الاضراب ، وكان النقل الى رياق ، حتى رمي في هذه الوحدة ، فإذا بأنيسه الوحيد فيها ماكان قد نسي ، إذا بالخواء ، يغالبه ليلة بعد ليلة فيغلبه ، إذا بالحزن يغلبه ، والحزن يتخلّق خوفاً ثم سخطاً ، والسخط يعينه أحياناً على أن يلوي برأسه معارضاً العم حاتم وموعداً الأيام القادمة . لسوف يقدر على هذه الحصير التي لم يبتع سواها من أجل الغرفة ، لسوف يقدر على محطة رياق ويخرج منها ، لسوف يطمئن على حُسْن والشام ، ثم على العم حاتم ، على نجوم ، بل على عزيز وفياض أيضاً ، على سورية كلها . سوف يكسب الرهان مع العم حاتم ، مهما يكن من وطأة ووجع هزيمة هذه الأيام . وقد كان وعيده يؤالفه مع مقامه الجديد ، في سكنه وعمله ، ومع نفسه ، ويزداد ثقة في صواب مافعل ، خاصة حين رفض أن يتوسط شقيقه أو سليم أفندي أو الباشا نفسه . إلا أن ضعفاً آخر كان يعتوره ، يجعله يلوم نفسه وعبد الودود على عنتهما . فلولا العنت لما كان في رياق ، ولذهب بنفسه ، دون وساطة شقيقه أو وساطة سليم أفندي ، الى الباشا شكيم . فإنْ كان لابد من وسيط ، فليكن العم حاتم ، لاعمر . وإذْ ألحت عليه هذه الفكرة ، عاد صوت العم حاتم يناكده ، يسخر منه ويؤكد شكوكه في أن الباشا شكيم هو من يشد حبال القصر هذه الايام الى الانكليز . الباشا الذي لم يبخل يوماً من أجل الشام . ليس اليوم غير واحد ممن يلعبون بها على مائدة هنا ومائدة هناك . اللعب هذه المرة ليس بالدحل التي كان عمر يفوز فيها على هولو وسواه في الحرزة ، بل هو بالشام ، بالعراق وبالحجاز ، الدحل هي بلاد العرب من أقصاها الى أقصاها . الدحل هي رؤوس العرب قاطبة . ولئن كان من شد الحبال ذات يوم الى الانكليز ، يشدها اليوم الى الفرنسيين ، فالباشا الذي صاهر الانكليز يشد اليهم . ولافرق في صوت العم حاتم بين هذا وذاك . عبد الودود نفسه كان لايفضل هذا على ذاك وهو يردد أثناء الاضراب ماتلغط به الشام . هولو نفسه كان يؤمن على ذلك ويسبق عبد الودود الى الهتاف ضد الخونة جميعاً ، فكيف اذن سيذهب الى رأس من رؤوسهم ويتوسطه كي يعيده الى الشام ؟ من الذي كان يقسم لتوه أمام عبد الودود وخديجة وحُسْن أنه لم يعد يخشى على

الشام من الانكليز والفرنسيين مثلما يخشى عليها من أصابع أبنائها ، ليس في القصر وحده ، بل في كل مكان ؟ من الذي كان يتخيل لتوه قبل أن ينقل الى رياق أن الاصابع الماهرة والغبية ، القادرة والضعيفة ، تلتف جميعاً على أعناق الناس ، حتى صار المرء يحار فيما يعنيه الاستقلال أو الانتداب ، الوطنية أو الخيانة ؟

اليد التي ظلت تمتد اليه وهو عازف ومتردد ، في أيامه الاولى هذه في رياق ، كانت لبديع الطارة ، كان بديع يجيب أسرع وأقوى النداء في نفس هولو لعبد الودود ، للعم حاتم ، لصديق ، حتى بات هولو قادراً على أن يلبي دعوة بديع ، بل يتعجلها ، لينطلق مع المدعوين الثلاثة الآخرين ، من رياق الى زحلة ، حيث يقيم بديع ويقيمون .

المساء الصيفي الفواح ، البرودة اللذيذة ، الخضرة التي تكاد تحجب السماء ، النجوم التي تكاد تضيء الارض ، ولهفة أبوي بديع ، وبِشْر الذين أخذوا يتوافدون الى البيت الحجري الكبير ، وسوى ذلك أيضاً مما لم يدركه هولو ، مسح عن عينيه وصدره ظل الغشاوة ، وجعله يسهر مثلما كان مع عزيز وفياض وعبد الودود، قبل أن تشتتهم دروب الايام .

كان بين الساهرين أكثر من شخص ينادى بالأستاذ . وكان بديع أصغرهم سناً وأوفرهم نشاطاً . طلب من هولو أن يحدث الأساتذة عن إضراب الشام ضد الغلاء . تلكأ هولو في البداية ، خاصة أنّ أحد الاساتذة قد أفاض في قانون تعطيل الأشغال الذي حرم منذ أكثر من عشر سنوات على من يعمل في مؤسسة مرخصة مثل سكة الحديد أن يشارك في أي اضراب أو مظاهرة ، وعاقب المخالف بالسجن من أسبوع الى سنة ، شأن من يحرض على ذلك أيضاً ، أو من يشارك في تكوين سنديكا أو يحرض عليها . ولم يكد صوت هولو ينسجم حتى قاطعه أستاذِ آخر مكبراً ذكرى الشارة الحمراء التي رآها منذ أكثر من عشر سنوات على عدد من صدور الاساتذة في الأول من أيار ، وتحسر لأن الاحتفال السنوي بعيد العمال لم يستقم بعد في الشرق كله ، سوى روسيا .

كانت المقاطعة تستفزّ هولو لحظة، ثم يستميله مايقول الاساتذة ، ولعل ذلك ماجعله، إذ واتته الفرصة، ينطلق مفصلاً ومستطرداً ومتغنياً ، وبديع خاصة يهلل له ، ثم يخاطب أحد الاساتذة وقد سكت هولو أخيراً :

ـ لابد من الاضراب . مهما كانت زحلة ، مهما كانت رياق ، مهما كانت بعلبك ، لابد من الاضراب .

قال الاستاذ :

ـ وأنا لازلت مصراً . لابد من الاضراب : نعم ، ولكن في بيروت أولاً .

قال أستاذ آخر عازفاً عن الكلام أغلب الوقت :

ـ وأنا لازلت مصراً . الاضراب ضد الغلاء نعم . الاضراب في المحطة لهدف ثان أو ثالث : نعم . لكن الاضراب أساساً ضد فرنسا . ضد الانتداب .

قال بديع كأنما يتحدى :

ـ وأنا لازلت مصراً . الاضراب واحد . عشرة عصافير نصطادها معاً . من شغل المحطة الذي لاتحسدنا عليه الحمير ـ ألم تريا هولو ؟ ـ الى الغلاء الى الانتداب . لم تنتظر أية مدينة في سورية كلها الشام حتى تضرب . أنتم أنفسكم تأتونا بالاخبار . أنتم سوف تقضون شهراً آخر تتماحكون .

قال الاستاذ الاول مسترضياً :

ـ لابأس . المهم ألا تهورنا بعجلتك يابديع . .

قال أبو خضرة الذي كان أول من جلس اليه هولو إثر وصوله الى رياق :

ـ سنجعل بيروت تلحق بنا . لماذا تسبقنا كل مرة ؟ اذا استطعنا أن نجعل المدارس تقفل معنا فلن يكون صوتنا ضعيفاً . ماذا تفعلون أنتم الاساتذة كلكم اذن ؟

خاطب بديع الجميع :

ـ حتى إذا لم تغلق المدارس ولا المتاجر فلن يكون صوتنا ضعيفاً . منذ أيام قضينا السهرة عندك ياأبو خضرة ونحن خائفون من أن لاتغلق المتاجر إذا كان الاضراب ضد الغلاء وحده . أو إذا كان بالعمال وحدهم . بعد وصولك ياهولو سهرنا تلك السهرة . وهذه هي السهرة الثانية . الاضراب يجب أن يكون ، بالمدارس أو بدونها ، بالتجار أو بدونهم .

نهض اثنان من الاساتذة ساخطين ، وأصرا على أن يغادرا متعللين بانقضاء الوقت سريعاً وعبثاً ، ومالبث الاخرون أن لحقوا بهما ، يؤكدون على أن السهرة القادمة ينبغي ألا تتأخر ، وكان بديع يردد وهو يودعهم :

ـ حاولوا أن تكون آخر سهرة لهذا الغرض . أما شبعنا من الفذلكة ؟

ثم عاد الى هولو يتلعثم ، كأنه لم يكن من يرغط قبل قليل :

ـ كما ترى ، كل منا يغني على هواه . وفوق ذلك تعودنا الحرد . شهر ونحن على هذه الحال .

قال هولو :

ـ وددت لو جاءني دور آخر بالكلام أمامهم . الطلاب هم دائماً قلب المظاهرات . أنا لم أفكر في ذلك من قبل . لاأعرف إذا كان غيري قد فكر . التجار أيضاً هم أساس الاضراب . هكذا عندنا في الشام . هكذا في كل مكان كما أظن . .

عاد بديع الى اندفاعه :

ـ مليح أن لم يتركوا لك دوراً ثانياً . هكذا تعودنا ، هنا أو في الشام . لاتزعل : والموظفون ماذا تقول فيهم ؟ سيدوّي الاضراب أعلى اذا شاركوا فيه . ولكن هل هذا آية في الانجيل ؟

ـ ولافي القرآن . .

قال هولو ضاحكاً ، وأردف بأناة :

ـ قد نكون أضعف خلق الله يابديع . ما لنا كثرة الطلاب ولاقدرة الموظفين أو التجار . حتى الفلاحون في الحرزة ، أظن أنهم على ضعفهم أقوى من كل عمال زحلة أو رياق .

انتفض بديع :

ـ نحن أقوى خلق الله ياهولو . .

ـ الناس كلها خير ولاأحد يقصّر .

قال هولو مقاطعاً .

ـ نحن وحدنا مقصّرون .

ألقى بديع بعبارته الأخيرة، ونهض يعدّ لهولو فراشاً . والعبارة ترنّ في أذن هولو ، وتلازمه من بعد ، تجعله يفكر في أن بديع الطارة قد يكون على حق : إنهم موجودون في كل مكان ، لكنهم لايكادون يفعلون شيئاً ، حتى فيما يعنيهم وحدهم . المرابعون والأجراء في المريجانة يفضلونه وأمثاله ، من محطة الحجاز الى محطة رياق . وعزم على أن يعاضد بديع ، ولعله من أجل ذلك لم يفوت سهرة تالية ، ونسج صداقات جديدة خارج المحطة مع آخرين يعملون في الدباغة أو الطباعة ، وكان بينهم من يزوده بقصاصة أو أكثر ، فعاد كأنما كان في الشام يغلي، وتغلي ، مثلما كانا منذ أسابيع ، الا أن فرنسا كانت بالمرصاد .

فرضت الخطوات الفرنسية المتقدمة نحو الشام عليه وعلى الآخرين جميعاً ، في رياق وفي زحلة ، أن يسكتوا عن الاضراب . نسي الناس أمر الغلاء والأسعار والجوع ،

واستغرقوا في الهياج ضد فرنسا ، وضد الحكومة الخانعة في الشام . وفي غمرة ذلك نزل الجنود الفرنسيون في المحطة .

ربما كان قد فكر في كل شيء الا فيما يمكن أن يقوم به وهو يرى الجنود الفرنسيين أمامه ، وجهاً لوجه ، شاهرين أسلحتهم ، معتدّين ومغرورين ، يأمرونه ومن معه في المحطة وينهرون ، فينصاع الجميع دون كلمة أو نأمة تدل على ضيق أو ممانعة . كانوا مذهولين وحسب ، وقد طال بهم ذلك حتى موعد انصرافهم المسائي ، الا أن الضابط الفرنسي منع أياً منهم من الانصراف : الجيش يستعد للزحف الى حمص والشام ، وعلى عمال المحطة أن يلازموها ليل نهار . لاأحد يبيت خارجها . الوقت ضيق ، ويمكن لمن لاعمل له الآن أن يستلقي على الرصيف .

انتحى هولو وبديع وأبو خضرة معاً في الزاوية الشمالية ، وطال بهم الصمت قبل أن يهمس :

- هذا ماكان ينقصني . أخدمهم ليل نهار وهم زاحفون الى الشام .

تنهّد بديع دون أن ينبس .

- ماذا تنوي أن تفعل ؟

سأل هولو ، لكن بديع اكتفى بزفرة .

- لامكان لي هنا .

قال هولو بعد قليل ، فأسرع بديع وهو يشب :

- ولا أنا .

وقف هولو يتساءل :

- الآن ؟ الى أين ؟ كيف ؟

قال أبو خضرة وهو يستلقي :

- شاطرين ! كلكم عقل ! اجلس أنت وهو . .

شد بديع ذراع هولو آمراً :

- تعال . .

وانطلقا وأبو خضرة يلعنهما ساخراً ومشفقاً ، الا أنهما لم يبتعدا كثيراً ، حتى كان ثلاثة من الخيالة الفرنسيين يطبقون عليهما . لقد أضل بديع الطريق الى زحلة ، كما ضلّ لسانه ، فجروه وهولو الى المحطة ، ورموهما مقيدين بانتظار نهوض الضابط في الصباح .

لم يسبق لأحد أن صفع هولو أو لبطه . لم يسبق لأحد أن بصق في وجهه ، أو نتف شعرة من لحيته ، أو أدمى صديقاً حميماً له مثل بديع ، وهو يتفرج .

كان الضابط الفرنسي كلما وقعت عينه على هولو يتنمّر ويتفنن في نتف اللحية الفاحمة ، ثم يتفل ويضحك وينصرف الى بديع . كانا يقيدان في الليل ويرميان في البهو ، لايجرؤان على كلمة ، كما لايجرؤان على أن يحركا أقدامهما المتشابكة، أو يرخيان لأعينهما نحو الآخرين . أما في النهار ، فكانت تلازمهما عين فرنسية ما، وهما يؤديان مايؤمران به ، بلا قيد . وهكذا انقضى من الأيام ماكان كافياً ليحتل الفرنسيون الشام ، ويطبقوا على سورية كلها ، ولاتعود لهم حاجة الى هذين السجينين ، ولا الى هذين العاملين ، ولذلك لوّحت لهما تلك الورقة بالفرنسية بالفصل من العمل .

★ ★ ★

29

لاينكر عبد الودود في سره وفي علنه أن سليم أفندي كان سخياً معه وشهماً . لقد أجزل له في الأجر ، وأطلق يده في العمل ، وربما قدمه على عمر مرة بعد مرة ، الا أن البهجة ذوت ، والبريق بهت .

قد تكون مناكدات عمر له في النهار ، وخديجة في الليل ، هي التي جعلته يحسم أمره أخيراً ، ويترك سليم أفندي الى تيسير عبد البر . إلا أن ذلك لم يكن سببه الوحيد .

كان قد رأى مراراً أم علاء في حضور سليم أفندي ، كما كلمته وظهرت له في فرجة الباب في غياب زوجها ، وهو مرة يلقي التحية ، يسأل عن علاء وعن البنات ، يسأل عن صحة أم علاء ، وقد تكلفه بأمر ما ، قد تسأله عن خديجة ، وتدعو له بحرارة متسائلة :

ـ لولاك ولولا عمر ما كان يفعل أبو علاء ؟

ولما أنبأته خديجة بحضور سليم أفندي الى البيت في غيابه ، صار يدقق في أم علاء التي تلف دوماً بعناية المنديل الأبيض حول شعرها وجبينها وعنقها ، فيرتسم وجهها مدوراً ، ممتلئاً وطرياً ، ولاتكاد يداها تظهران . ثم ألف أن يقارن بين أم علاء وبين خديجة التي تنفلت في البيت خصل شعرها من تحت الغطاء ، وليس لها مثل هذه العافية ولامثل هذا البياض . كانت أم علاء أميل الى القصر ، أقرب الى السمنة ، يترسل صوتها الرقيق الخفر كأنه صوت طفلة تتأهب لملاقاة صباها . وليس يدري عبد الودود كيف طلع عليه الصوت ببساتين الزينبية ، كما طلع عليه منديل أم علاء بمنديل مريانا ، البياض أيضا ، رقة الشفتين ، العبل ، وكان وخديجة يتشاجران كل عشية .

كان قد فكر من قبل في أنها تبدو في بيته كأنها لم تغادر بيت الباشا ، وهو يرغب أن تكون أكثر تحفظاً معه أو مع من يزوره أو مع جيرانها . كان قد أخذ يقلقه بقدر مايمتعه أنها

هي التي تبادره في بعض الليالي ، وأنها في أغلب مضاجعاتها تبدو أكثر منه إلحاحاً واستمتاعاً .

منذ اختفت أم نور الدين ومريانا لم يضاجع عبد الودود امرأة حتى تزوج خديجة . ولئن كان في بداية زواجه قد غبط نفسه على ماتيسّر له من نساء شهيات ، الا أنه كان يتأذى اذا ماأذكرته حرارة خديجة وشهيقها وجرأتها بأم نور الدين .

في أيامها الأولى كانت رائحة جسدها تؤجه مثل الفليفلة ، تعلق به كأنها رائحة الأرض المسمدة وقد روّاها المطر . كانت تزكمه كأنها مايفوح من العطارين في البزورية ، وخديجة تضيعه بين ساقيها، تأمره وتنهاه أحيانا ، مذكرة بامرأة سوداء أحرقته دهراً ، فيشتعل جسده ، وهي تنفخ فيه الى أن ترمد ناره ، فتدعه لرهبته المستكنّة في أعماقه .

متى بدأ جسد خديجة ينأى عنه ؟ هل كان ذلك بعد أن انشغل بأم علاء أم بعد أن زار سليم أفندي البيت الطيني الصغير في غياب رجله ؟

طويلاً جبن عن أن يفكر بذلك ، فلما قدرَ عليه جرب أن يبادر خديجة ، فصدمته برودتها . ثم جرب لأيام أنْ يعود في غير موعده الى البيت ، فزادته الخيبة من وساوسه وبلباله . جرب من بعد أن يلحف في التردد على بيت سليم أفندي ، يستفيض في الحديث مع أم علاء ، يغويه أن ترحب به أو تضحك له أو تعاتبه على اهمال أو تتمهل مغادرته ، فتتجرأ عيناه عليها ، ويترك لها أن تلهب ذكريات مريانا ، كما يترك لنفسه أن تتلوى متلذذة بين خديجة وأم نور الدين ، وخلف أية امرأة يصادف في الحارة أو في الشوارع والساحات . كانت النساء تتشابه عليه ، فيديم النظر الى إحداهن ، يتفحص رسوم الجسد ويلتهب ، يلاحق المشية أو رجّة الثديين أو الوركين ، ويعلّم عينيه كيف ترفعان الحجاب عن الوجه المختبىء ، كيف تعريان الذراعين أو الفخذين ، ثم يؤوب الى خديجة ، فتدير له ظهرها ، أو تستسلم له هامدة . وكان غليان الشام في تلك الآونة يبلغ أشده .

خيل اليه أن أم علاء باتت في متناول اليد ، فيما كان نجم سليم أفندي يتقد في الشام ، فهل جبن في الخطوة الأخيرة ؟ إنه ينكر ذلك . لقد عفّ عن المرأة إكراماً لزوجها . عف عنها وعن زوجها إكراماً للشام التي تغلي . أبى أن يلغ في الوعاء الذي يشرب منه ، فعبد الودود السعد رجل وليس كلبا . ولكي يقطع الدرب على الشيطان زار الحداد نعمان وجعه بعد انقطاع ، ثم أخذ يتردد على كراج البر والتيسر . كان يترك العمال

في مدرسة سيدي عامود أو في مدرسة القنوات ، وينطلق الى هذا أو ذاك ، يفكر في أن يدبر عملاً عند أحدهما قبل أن يترك العمل عند سليم أفندي . كان يفكر أيضاً في أن يقتني واحداً من الطنابر المغطاة ، ويعمل في نقل الناس بين الحارات ، أو أن يستأجر أرضاً من أحد الملاكين في الغوطة، بعيداً عن الشام . ثم تدفعه نحو الحداد أو الكراج جيبه الفارغة ، فمن أين يأتي بثمن الطنبر والبغل ؟ كانت خديجة تدفعه نحوهما أيضا ، اذ لن يكون بوسعها أن تعود الى الفلاحة ، بعد أن تعودت على الحياة في المدينة . وقد لايكون هو نفسه قادراً على أن ينام مع البقر أو يربي الدجاج أو ينظف المسيلات أو ينكش أثلام البندورة والباذنجان ، فلا سبيل له الا الى الشام . ولئن رفض تيسير عبد البر فسوف يفاتح الحداد . أما إنْ رفضا معاً فسوف يدور على الحدادين والميكانيكيين الكثيرين ، ولاهمّ .

غير أن تيسير عبد البر رحب به ، وسأله عن الأجر الذي يدفعه له سليم أفندي ، ثم أكد أن واحداً مثل عبد الودود السعد يستحق أجراً أعلى ، إلا أنه ليس قادراً مثل سليم أفندي البسمة . هو ميكانيكي وحسب ، ذاك تاجر وملاك وزعيم . ولذلك فسوف تكون أجرة عبد الودود في الكراج أدنى ، حتى ييسّر الله ، وتتحسن الأحوال ، وعندئذ سوف يعم الخير على الجميع .

صبيحة يومه الأول في الكراج أشهر كفه على خديجة بعد أن وصفته بالجنون ورفضت أن تعدّ له الشاي . لم يكن قد ضربها من قبل ، بل إنه لم يكن قد خاصمها ، مهما يعل بينهما الشجار .

ظلت الصفعة ترنّ في مسمعه تلك الصبيحة ، تحول دون ماانتواه لعمله أمام الميكانيكي وصبيانه ، حتى تعالى الحداء في المرجة ، وكان المؤتمر الفلسطيني يعلن أن فلسطين هي الجزء الجنوبي من سورية ، ويرفض الدعوى الصهيونية ، ويعاضد سورية في وجه فرنسا والطامعين أجمعين .

تتالى وتعالى الحداء من بعد في المرجة ، يؤجج حماسة عبد الودود ، يجعله مثلاً في الكراج وعلى لسان الميكانيكي في المقهى ، حتى أهلَّ الثامن من آذار .

ماكان قادراً على أن يظل يعمل فيما المؤتمر السوري يجعل من الأمير ملكاً ويعلن الاستقلال . كان لابد له أن يخرج الى الجموع ومعها ، يزاحم ليرى العرش الذي أضحكه فيما بعد أنه لم يكن سوى كرسي جاء به أحدهم من بيته ، ريثما يُصنع عرش خاص لهذه البلاد التي صارت المملكة السورية . كان لابد لعبد الودود أن يرى العلم

السوري يرتفع وقد توسطت مثلثه الأحمر النجمة السباعية البيضاء ، والمدافع تدوي ، طلقة بعد طلقة ، حتى المائة طلقة .

تيسير عبد البر نفسه ترك الكراج منذ الضحى ، ثم صرف الصبيان قبل الغداء ، فلماذا غضب اذن من انصراف عبد الودود ؟ ألأنه بكر في ذلك ، أم لأنه لم يستأذن ؟ أم لأن لسانه وعقله يهوّمان بعيدا عن بيته وشغله، كما تتقول خديجة وتيسير ؟

سرعان ماتلاشت الفرحة بالعمل الجديد ، مثلما تلاشت بالاستقلال . وكانت الألسن قد بدأت تلوك مساومات القصر للفرنسيين ، وربما لسواهم ، والحكومة أخذت ترفع الأسعار ، وتيسير يلوح بتنزيل اجرة عبد الودود ، وخديجة تشمت وتشاجر ، وهو يمعن في الهرب، إنْ كان هولو غائباً، الى من تعرف عليهم أثناء العمل عند سليم أفندي ، يصخب معهم في التدريب على السلاح وفي التطوع ، في الغلاء وفي الكساد ، ثم في الاضراب .

هو وهولو ، كل منهما كان أكبر اندفاعا من صاحبه الى الاضراب . تيسير يزداد نفورا وتجهما وغلظة ، وهو يجاهر : لتغلق المدينة أسواقها . لتغلق المدارس . لينزل الناس جميعا الى المرجة أو ليصعدوا الى الجسر . ليمتنع الموظفون عن العمل ، فماذا يمكن للحكومة وللملكها بعد ذلك ؟

كان الاضراب قصيرا وفاشلا ، حسم تيسير اثر انتهائه على عبد الودود أجور الأيام التي تعطل أثناءها ، ولم يخف شماتته ، ونقل هولو الى رياق .

تطأطأ رأس عبد الودود وانصرف الى عمله مذعنا ، بينما كان وقع أقدام الفرنسيين على طريق الشام يعلو ويقترب . كانت الاستثارة السريعة تسمه في البيت ، وشفتاه لاتنفرجان في الكراج ، والهياج ديدنه في المساءات التي يندفع فيها الى لقاءات المقاهي وتحشدات الرجال، في الشيخ حسن أو في الميدان ، ثم ضاعف من تناوله للعرق ، مهما كانت عودته الى البيت متأخرة ، ولعله لولا ذلك ماكان قادرا على أن ينام في تلك الأيام .

★ ★ ★

30

أفاق فياض أخيرا من اغماءته التي امتدت طوال انسحاب الحملة الأولى من مرجين . دارت عيناه المرهقتين في الغرفة ، فشك في أن يكون في القشلة ، وراوده الأمل . تلفت ثانية فاذا بآخرين مستلقين الى جواره في أرض الغرفة . حاول أن يتعرف على وجوههم فعسرت عليه الحركة والنظر . تسلل اليه صوت خافت :

ـ قلت لكم سينجو . لم تصدقوني .

تسلل صوت آخر :
ـ وقلت لكم . اذا نجا من الموت هنا ، فلن ينجو من حبل المشنقة هناك . سوف ترون .

جاء الصوت الأول أقرب :
ـ اسكت يابومة . .

تمتم فياض :
ـ أين نحن ؟

بعد قليل كان قد عرف أنه في المستشفى ، والثلاثة الآخرون حوله مصابون مثله . بعد قليل كان عليه أن يداري الصداع في رأسه ويفكر فيما تهامس به أولاء . أضمر ألا يدع أمارة واحدة للشفاء تبدو عليه . إنه ليس في القشلة على أية حال . ولن يدعهم ينقلونه من هنا الى السجن أو الى المحكمة . عليه أن يتظاهر بالاغماء كلما دخل الى الغرفة غريب . اثنان من العساكر قد شهدا على أنه أطلق الرصاص على قائد الحملة أو نحوه . الباقون أنكروا ، لكن شهادة اثنين تكفي لشنقه . وحين يصبح قادراً على المشي ليس أمامه الا أن يهرب ويجرب مايقترح عليه المصابون الآخرون . واحد ينصح باللجوء الى

احدى العشائر القريبة من حماة . واحد ينصح بالعودة الى أهله . الآخر يتساءل ساخرا ماذا كان من الأفضل أن يهرب الى حيث يسيطر الفرنسيون ، ثم ينصح بالايغال بعيدا في البادية . وفياض يتلقف كل كلمة ، وقد عجل الخطر المحدق من تماثله للشفاء ، على الرغم من أنه كان ينتكس أحيانا . كان التظاهر بالاغماء يصعب عليه أكثر فأكثر . الا أن النجاح والأمل كانا يحفزانه . وقد يكون بعض من تفقده أدرك اللعبة وتواطأ معه . مهما يكن ، فقد صارت الساقان قادرتين على حمله عندما كان الآخرون يستعدون للعودة الى القشلة، بعد أن استعادوا عافيتهم . لقد حلت ساعة الهرب اذن .

كان صباحاً غائماً مشبعاً بالبرودة . وكان على فياض أن يغتنم مشاغلة العساكر الثلاثة للحارس على باب الحديقة . هم يودعون الحارس ويبعدونه ما أمكن عن الباب ،

وهو يتسلل ببطء السلحفاة فيما يحسب أنه يطير . واذ اكتشف فراره كانت السلحفاة قد خرجت من المدينة، واندست في دغلة محاذية للنهر، تتلمس أوجاع ساقيها وتلهث ، حتى العصر .

انطلق ثانية ملازماً العاصي يغالب الجوع والعطش ثم الوجع ، يسير حتى تعجزه خطوة واحدة ، فيخلد الى شجرة أو وهدة أو منحنى ، يتأمل النهر من قريب أو بعيد ، يرجو الله أن يعينه وينجيه ويستبشر بانقشاع الغيوم .

مساء اقتربت منه قطعان من الغنم وعدد من الرعاة والكلاب . من مستراحه كان يرقب اندفاع الأغنام نحو المسيل الطويل المتفرع من النهر والكلاب تحوم حولها ، وعصيّ الرعاة تهش عليها . كان ينتظر أن يفرغوا سريعا حتى يتسنى له أن يلتف على المسيل ويتابع السير على الضفة . الا أن راعيا صغيرا أخذ يقترب منه ، حتى هم بملاقاته أو الفرار منه ، قبل أن يقرفص ويضرط .

أغضى فياض قرفا وساخطا . واذ خمن أن الراعي الصغير قد انتهى ، تلفت ببطء ، فاذا بالراعي الى يمينه يرقبه برثاء . نهض مجفلاً وبادر بجفاء :

- نعم ؟

كشر الراعي مستاء :

- السلام أولا يارجل . ماذا تفعل هنا ؟

- ماذا أفعل ؟ مثلما كنت تفعل ؟

رد فياض متبرما . ضحك الراعي والتفت نحو رفاقه قائلا :

ـ أين طريقك ؟

ـ على طريقك .

قال فياض وقد نفذ صبره . قال الراعي :

ـ هيا بنا . ماذا تنتظر ؟

الاعياء والليل الوشيك ، الوحشة والخوف ، كل ذلك دفع به خلف الرعاة الذين يتعجلونه وهو يقصّر . يمازحونه فيفيق من خدر ساقيه وعجزه . يكزّ على أسنانه ويمشي ، يسأل ضارعا أن تكون الخيام قريبة ويشكو مرضه ـ ولماظهرت الخيام لم يرها غير بقع صغيرة موحشة في الأفق الكابي ، فتهالك ، فهرع اليه الراعي الصغير ينهضه ويجره الى أقرب خيمة .

ملأ نزوله ليل ذلك الجمع الصغير المترحل . واحد يدعو الى تفتيشه ، فتلومه الأصوات الهامسة . الراعي الصغير يتباهى بالظفر به . راع آخر يبتدع عنه أثناء الطريق مايزيد الفضول ، وهو مغمض العينين ، عاجز عن النطق والحركة ، لايرجو الا أن يدعوه وشأنه ، حتى غلبه النوم أو غلبته الاغماءة .

تحاور الكبار فيما خمن بعضهم أنه سرّ خلف ذلك الشاب . ذكر الثأر . رجّح أنه حضري ، دون أن ينفي ذلك انتماء عشائرياً ماله ، ولم يتفق الا على الجزع من موته إنْ كان مريضا حقا . وقد جرّ ذلك التفكر في اطالة المقام من أجله ، اذ كان الجمع مزمعا على الرحيل قريبا .

شتم الشيخ الرعاة الذي لم يعرفوا حتى اسمه . ثم أمر بالنوم تاركا الأمر لله ، متحسرا على الجهل في جماعته التي ابتلي بها ، اذ ليس فيها من يفيد مثل هذا المريض في أي علاج .

في ومضة الفجر الأولى تململ جفناه . كانت العتمة لاتزال تملأ الخيمة . تقلب مرتعشا من النسمات الباردة ، وأحكم الدثار حول عنقه . تماثل له فراش آخر في طرف الخيمة المقابل . اختلط عليه الزرب بالنضيد ، ورأى أكياساً صغيرة تندلق حواليه . رأى أن قليلا من العدس أو الطحين أو السمن أو التمر أو البصل أو الضروف أو القرب تغمره رويداً ، بدءاً من قدميه وأجنابه ، ثم لاتكاد تدع له الا رأسه . بل انها لاتدع الا أنفه ،

فجعلت النجاة أنفاسه تنتظم ، وراح يمدد ساقيه خلسة ، فترتد اليمنى أو اليسرى اذ ترتطم بالعمود ، ثم ترتد اليسرى أو اليمنى اذ ترتطم بقصب الزرب ، ثم ترتد الساقان معا اذ تلسعهما بقايا جمرة كمنت له في رماد النقرة . وتهفو نفسه الى القهوة التي لابد أنه قد ذاقها بالأمس ، الا أنها هذا الفجر فاترة ، وذلك الشاب الربعة يلوح بقبضة الشوك في يده ، ويرفض أن يرميها فوق الرماد . بل انه يرميها ، لكنه يرفض أن ينفخ تلك الجمرة الكامنة ، كي يشتعل الشوك وتسخن القهوة ويبل هو ريقه ، فينهض ينشد الدفء الضائع، يغادره النوم ويرسل عينيه خارج الخيمة أو من خلل النسيج المضيء . يبهره أن النسيج الأسود لايكتم الضياء ، حتى قبل أن تطلع الشمس . يؤنسه نباح كلب بعيد ، ويبدو الأفق له كما رآه حين تهالك ، سوى أن الافق ينجلي الآن رويداً عن ألوان محيرة ، والنباح يقترب ويختلط بالثغاء . كلاب عديدة وقطعان أين منها مارأى أو رافق بالأمس ! يستلقي من جديد ويوشك أن يغمض جفنيه لولا أنهما يجفلان من البندقية المتمددة بجوار الفراش الآخر . يخشى أن يظل صامتا كما يخشى أن يتكلم . يلوم نفسه لأنه لم يستعد لمثل هذا الموقف . انها البادية وانهم البدو اذن ـ فكر ـ إنه اللقاء الذي انتظره طويلا . إنه شاب حقاً ، لكن دهرا قد مسح البدو والبادية من ذاكرته ، حتى اذا أشرق هذا الفجر ، فضحه كهارب من القشلة الى أعدائه ، فكيف سيروي لأمه أو لأعمامه أو لأخواله ذلك ؟ أيكون هؤلاء الذين يلجئونه هم أنفسهم الذين قتلوا أباه أو تسببوا له بالقتل ، فأيّ ولد اذن خلّف ذلك الأب الهمام ؟

داهمه صوت متثائب من جهة الفراش المقابل . حياه الصوت مطمئناً عليه . بوغت بالضياء يملأ الخيمة الصغيرة . تعجب من أنها ذات عمود واحد ، وأشفق على عينيه اللتين تراءى لهما بالأمس أنه تحت خيمة بثلاثة أعمدة أو خمسة أو سبعة . نهض الرجل ومرق من الفرجة مع البندقية الطويلة . عاد الرجل بعد قليل مع آخر عجوز يوشك ظهره أن يقبل الأرض . جاءت امرأة تحمل اناء وتدعو الى شرب الحليب . خرجت المرأة تحمد الله على صحة الضيف المعتلّ . علا اللغط في الخارج وعاد يصدعه كما في الأمس . أطفال ونساء ورغاء الجمال وأجراس ودعاء ونباح وضحكات غريرة قصيرة وأطفال يبكون . حار بين عيني الرجل الفائرتين بالحنان . صار الحنان تربصاً، فلم يعد هو قادراً على شرب الحليب . حمد الله ودعا للربع بالخير . خاتل أسئلة الرجل وادعى أنه قادم من بعيد ، من الغوطة ، من قرية اسمها الحرزة ، يبتغي زيارة صديق له

كانا معا في الحرب . لم ينكر أنه فياض وأن صديقه اسماعيل معلا . سأل عن الدرب التي تقوده الى حيث لايعيش إلا الجن الأزرق في الغاب ، وكان آخرون قد وقفوا حوله منذحين . ارتدت الأعين عنه مزورّة فخاف أن يكون قد أخطأ . امتدت ذراع تشير الى خلف الخيمة وقال صاحبها :

ـ من هنا . قبل الظهر تصل إنْ شاء الله الى أول قرية . لاتملْ يميناً ولايساراً . هل تستطيع أن تسير؟ هناك اسأل عن صاحبك ، فيرشدونك . وقبل المغيب إنْ شاء الله تكونان معاً .

أذهله بياض أسنان الرجل وهو يتكلم نزقاً . فكر في أنه لو صادف هذا الرجل في مكان آخر لأمكنه أن يبطحه أرضاً على الرغم من العياء . أنكر على الرجل أن يقطب جبينه ، ويزم عينيه ويتخايل بقوامه النحيف ، ويخاطب بهذه الحدة من قدر على الحكومة نفسها . وكان الرجال قد أخذوا يغادرون الخيمة ، فنهض يلحق بهم ، وأمام الخيمة تملّى الشارعة على الخيمة المجاورة ، ولبث صامتاً في المراح بين الخيمتين ، ثم حياهم وانطلق نحو الأفق . يبعد شكه في أن يكون من حدثه قبل قليل هو الشيخ نفسه ، أو أن يكون بين هؤلاء البدو والآخرين الذين يقيم بينهم أبو عاطف عداء مستحكم .

خفيفاً مشى ، يلعن الحرزة وأبا عاطف ، يلعن غفلته ويضحك لنجاته ، ومع كل خطوة في الفلاة كانت ثقته بنفسه تكبر . إنه شجاع وصبور ومحظوظ وذكي رغم كل شيء . فما كان يمكن لسواه أن يفلت هذا الصباح ـ أو في صباح الأمس ، لافرق ـ من المستشفى . وليس لسواه أن يجتاز هذه التلعات المتموجة ، ويحتال كرمى لساقيه المصابتين على هذه الأكمة ويعثر على الدرب التي أضاعتها عليه هواجسه. لايهم الآن إن صادف رعاة آخرين ، أو فلاحين . لايهم إنْ صادف واحداً من الجن الأزرق أنفسهم . لسوف يظل يتعلل بأبي عاطف ريثما تستقر قدمه على أرض صلبة ، ويخلص من هذا الرمل . ولقد جاء ماينشده أقرب وأهون مما وطن نفسه عليه ، اذ لاحت له كفريا قبل الظهر ، فأين ذلك الشيخ النحيف العابس المستثار، حتى قبل أن يمسح النوم عن جفنيه؟

على أطراف القرية لمعت سكة الحديد ، وقدر أن الطريق الترابي بين القرية والسكة ليس أطول مما تقتضيه سيجارة واحدة . وعد نفسه بالدخان عما قليل ، وتباطأت قدماه .

تحاشى على أطراف القرية قطعان الأغنام والجمال السارحة والخيام المتناثرة حول البقاع المعشبة . انقبض صدره وهو يدخل القرية اذ مثلت له المشرقة . تباهى في سره بما ليس هنا ، لا البيوت ولا الأزقة ، لا الآبار ولا الجامع ولا الوجوه ، لاشيء هنا يقرب مما يزهو به هناك ، ولكنه سوف يلجأ ـ لامناص ـ الى كفريا قليلا . لقد وطن نفسه على ذلك في الطريق اليها ، فليس أبو عاطف والغاب غير عثرة لسان قد تكون أغضبت ذلك الشيخ البدوي .

★ ★ ★

طال مكثه في كفريا ، على العكس مما كان يتمنى ويحاول كل يوم ، حتى انهى الصيف . في تلك الظهيرة إدعى أنه عابر سبيل . ومإنْ لاح له أول عمل من أعمال الموسم الصيفي الكثيرة الوشيكة ، حتى أمسك به .

أمضى الليلة الأولى على الحصير في باحة المسجد . أنعشته برودة المساء وإنْ كانت قد جعلته يستيقظ فيها يعد مراراً ويتكور حول نفسه ، ثم قسرته على النهوض قبل الفجر . سبق صاحب الدكان الى دكانه ممتناً لما قدم له بالأمس من الماء البارد والشاي .

خاف من الحرب والتعب وأخذ يصغي الى الذين يعبرون بالدكان أو يتريثون أمامه . غبط كفريا على الموسم الخصيب الذي يلهب حماسة الناس . سال لعابه للحليب واللبن والزبدة ، وهالته كثرة المترحلين . ابتهج لآمال صاحب الدكان الذي سيعوض السنين المجدبة المتوالية بفعل السماء وبفعل الحرب . وفي غفلة من نفسه أو من الناس أو من صاحب الدكان استسلم لدعوى الخصب والأمان ، وقرر أن يحتال على الإقامة هنا ، ريثما يتوضح له السبيل الذي عليه أن يسلكه .

لم يلحف عليه أحد في كفريا كما في تلك الخيمة . نظرة عابرة أو ثرثرة قصيرة ترضي فضول الناس الغارقين في أشغالهم وأحلامهم ، وقد ألفوا مثل هذا العابر الذي يقول إنه قدم من أرض بعيدة ، فيما بين حمص والشام ، تشبه هذه الأرض . ولم يكد صاحب الدكان يشير عليه باغتنام فرصة العمل هذا الموسم هاهنا ، حتى استجاب .

كان العابرون الشبان والفتيان خاصة يتكاثرون في كفريا كل يوم . وكان يقبل عليهم أكثر مما يقبل على أي من سكانها ، سوى (معلمه)كما خاطب لسانه صاحب

الدكان . كان بين العابرين من يصغرونه ومن يكبرونه ، ومنهم من يصطحب امرأته أو شقيقته أو صرره ، ويبدو أشد هزالاً منه . وقد انقضى الوقت هينا قبل أن يبدأ الحصاد .

كان يحلو له ان يتوغل بعدالغروب في طريق المحطة ، يتنصت مؤملا أن يقرع جرس المحطة أو يهدر صوت العجلات . يتلهف على هولو والعم حاتم والقطار ، يتقرى صور المحطات الكبيرة والصغيرة التي عرفها ، عبوس المسافرين أو زحامهم أو ممازحاتهم ، فتتحرك في أعماقه الرغبة الملجومة بالسفر . وتتسع وتسرع خطاه نحو المحطة ، مصمماً على أن ينتظر القطار القادم مهما تأخر ، لكن يداً خفية تروح تنعطف به خلسة نحو كفريا ، ولاتنسحب حتى يكون قد اندسّ بين أمثاله من الشغيلة الذين يتحلقون بخاصة أمام الدكان أو أمام المسجد .

توسم صاحب الدكان آصف الغبشة في فياض أجيراً طيباً ، سيكون قوياً ونشيطاً عما قريب ، رغم هزاله الحالي . ولذلك كان يحثه على أن يأكل جيداً وينام جيداً ، كيما يعمل حين يجد العمل جيداً ، ويبذ أقرانه من أبناء كفريا أو من الغرباء . كان ذلك ديدن آصف الغبشة في كل موسم خصيب مع من يشغله عنده : يعلفه ويرعاه حتى يحلّ الموسم . وكان فياض قد فكر فيما يشبه ذلك، وضحك له ممتناً ، وعاهد في سره معلمه على أن لايخيب أمله فيه ، خاصة بعد أن رأى المعلمين الاخرين كيف يعاملون أجراءهم الذين يتوزعون في الليل بين ساحة البئر الكبير وسط القرية وساحة المسجد ، في العراء .

أما فياض فقد خصّه آصف الغبشة بالمبيت على سطح بيته . أعطاه حصيرا وغطاء ، وأوصاه بألّا تغفل عينه عن الدكان القريب ، وكانت السنوات الماضية قد ضاعفت في آصف عادة الحذر الشديد التي يقال إنه قد ورثها من أبيه .

الأجراء الثلاثة الآخرون الذين اختارهم آصف فيما بعد كانوا يغبطون فياض . انهم يرتمون مثل الآخرين في إحدى الساحتين . والمعلم لايتبسّط معهم شأنه مع فياض . حتى أولاد المعلم من الصغار أو الفتيان لايعاملونهم مثل فياض . بيد أن هذا الإيثار مالبث أن اختفى حين جد الجد . كل الاجراء صاروا سواسية عند آصف الغبشة وعند سواه ، بل كل من في القرية صاروا سواسية . حمّى السباق في العمل أصابت الجميع . وعلى رأس كل جماعة ، كان يقف صاحب الأرض أو الضامن لموسمها أو

المستأجر لها ، لايرحم كبيرا ولاصغيرا ، وكان آصف الغبشة لايرحم أبناءه، فكيف باجرائه ؟

كان اندفاع فياض الى الشغل في البداية ينسيه ماهو والآخرون فيه . بيد أن وقع شتائم المعلم ، وأثر هياجه ، وعدم تفريقه بين فياض وسواه بعد الدلال ، كل ذلك بدأ يثقل عليه . كان يتعلل أحيانا لآصف بالعبء الذي يتحمله ، اذ عليه أن يشرف على موسمه ، وعلى الدكان معاً . ومن أجل ذلك يقطع مابين دكانه وأرضه كل يوم ثلاث مرات أو أربعاً . الا أن ذكريات العمر الطري ، قبل الحرب ، صارت تداهم فياض ، وتطّرد باطراد الشغل .

لم يكن لأي من المواسم في المشرقة مثل هذا اللهاث . كان بوسعه في كل مساء أن يجري مع الكثيرين الى العاصي ، يرتمون فيه ، وفي لمحة يكون وسخ وتعب النهار قد ولى . أما هنا فلا يكاد المرء يروي عطشه . وليس لفياض في هدأة الليل سوى أصداء المشرقة التي تفيض لها النفس حنانا وألفة ، غناء ودعاء وحكايا . حتى في المواسم التي كان ينيخ فيها ظل البدو على المشرقة ، لم يكن للّيالي مثل الوحشة والسكون اللذين لها في كفريا ، حيث لاتكاد الشمس تغرب حتى يتسابق الجميع الى الطعام ، ثم تتلاحق زفرات الأجراء في حلقاتهم الشاكية . أما أهل كفريا فينطوون في حلقات أخرى ، لم يستطع فياض أن يندمج فيها ، أو لم يتح له بالأحرى أن يفعل .

★ ★ ★

لم يكن يأبه بالشتائم التي تعلو على هذا الأجير ، أو بلسعات الخيزرانة على ظهر ذاك . حتى أوقعت احدى الخيزرانات أجيرة مسنّةً وحاملاً على الأرض وأجهضتها ، فيما علا صوت يجأر في وجه السماء ، يترحم على أيام (الزيارة) وابن البزّار وابن حكرة ورستم آغا . أحسّ فياض أن الصوت يعنيه ، بل يناديه ، وملأت عينيه صورة أبي عاطف وياسين الحلو تختلطان بصورة عزيز اللباد ، وتحرمانه من الطعام ذلك النهار .

في المساء انزجَّ بين الأجراء الذي أحاطوا بزوج المرأة المجهضة . وقطع صمتهم بالسؤال عن الزيارة واسماعيل معلا . أسرع الزوج كأنما يبحث عن عزاء :

ـ يمكن أجهضت خيزرانة أخرى زوجته أيضاً .

قال آخر :
ـ ليتنا أصغينا اليه ونزلنا معه هناك .

قال الزوج :
ـ لا فرق يا أخي بين كفريا وبين غيرها . الملاكون والوكلاء والمستأجرون في هذه المنطقة يشبهون بعضهم .

ـ أين نزل أبو عاطف اذن ؟
سأل فياض ملهوفاً .

ـ لماذ عاندته وقدتنا الى هنا ؟
سأل آخر مقاطعاً فياض . قال الزوج :
ـ قلنا نجرب . طلعت برأس المسكينة . طلعت برأسي . الحمد لله . هو المنتقم الجبار .
كرر فياض السؤال ، فأكد الزوج أنه غربي كفريا ، وأردف :
ـ قد يكون ألوى الخيزرانة التي أجهضت فاطمة وفرّ الى أرض أخرى كعادته . أحنقت فياض رغبة الزوج في أن تكون فاطمة قد أجهضت . أحنقه تواطؤ الآخرين مع الزوج فغادرهم نافراً ، يراود الأمل في أن يكون أبو عاطف قريباً ، يتصيد الفرصة التي لابد أن تأتي سريعاً ، قبل أن يفر منه . غير أن الفرصة لم توات حتى أوشك الصيف أن ينقضي ، وهدأت حمّى الموسم .

لم تجده توسلاته لآصف كي يسمح له بغياب نهار واحد . وحين هم بالتسلل ليلاً حذره كثيرون من أن يفعل . ليس لأن آصف الغبشة قد يغضب ويطرد الأجير المدلل ، دون أن يدفع له أجر يوم واحد من الشهور التي قضاها عنده ، بل لأنه يجهل الطريق ، ولا أحد يرضى بمرافقته ، وقد يباغته الليل بما لاقبل له به . وقد لايستطيع العثور على صديقه مادام عليه أن يعود قبل الفجر .

كان الأجراء قد أخذوا يرحلون ، والمترحلون قد أخذوا ينأون في البرية ، حين أرخى آصف جبينه المزموم ، وسمح لفياض أن يغيب يومين بدلاً من يوم ، وهو يتساءل مشفقاً :
ـ والعمل اذا كان صاحبك رحل ؟

أرجف التساؤل خطاه وصوته وهو يبحث عن أبي عاطف ، ويهرب من السؤال المنسيّ عما سوف يفعل بعد أن انتهى الموسم أو أوشك . الا أن لقاء أبي عاطف وفاطمة مسحا على ماكابد ذلك النهار .

أوى الثلاثة الى القبة الطينية الصغيرة التي قال أبو عاطف إنه سيقضي الشتاء فيها مع فاطمة وابنهما القادم . كانت فاطمة في أيام حملها الأخيرة ، لاتكاد تقوى على أن تتحرك . وأبو عاطف يلعن الشغل الذي هدّها طوال الصيف . لم يجرؤ فياض على أن يذكر المرأة التي أجهضتها الخيزرانة ، ولم تقو من بعد على النهوض ، فطردها مستأجر الأرض مع زوجها وشقيقه، ولم يدفع من أجرها قبل أن تقع غير النصف . لم يجرؤ أن يخمن مصير عزيز أو نجوم وهو يحدث أبا عاطف وفاطمة عما كان في مرجمين . كان حريصاً على ألا يثقل على فاطمة ، وربما على نفسه . ولذلك ألجم وساوسه ، وحاذر أن يخدش مابداله من جلد وثقة صديقه ، رغم مالاقى منذ عاد الى كفر لالا حتى هذه العشية .

•

قال أبو عاطف وهو يكرر الحمد بعد العشاء ، ويشير الى فاطمة التي رفعت طبق القشّ جاهدة :

ـ لاأعرف لماذا تعاندني هذه المرة . انظر اليها : هل تستطيع أن تتحمل الطريق الى مكان آخر ؟ ثم ماالفرق ؟ بالأمس كانت لاترى فرقاً بين كفريا وكفر . . كفر ماذا أقول ؟ هل من السهل أن تدبر مأوى وشغلاً عند أي كان، على الرغم من الموسم الذي يضاهي ثلاثة مواسم ؟ لا والله . انصحها يافياض . صاحب الأرض التي حصدناها، نفسه ، لاأحد غريب ، اتفقنا على أن نزرعها له هذا الموسم . سوف نزرع الشعير والجلبانة والعدس أيضا . أرض طيبة ، وصاحبها طيب . الرجل سوف يقدم البذار والبغلين وهذه القبة ومؤونة الشتاء . مارأيك ؟

كانت فاطمة قد عادت الى مكانها على يمينه ، وقبل أن يتكلم فياض قالت :

ـ كمّل . قل لفياض ماذا سيعطيك ذلك الخبيث ؟ الخمس ؟ واذا لم تف حصتك بما قدمه صاحبك الطيب هذا ، يكون عليك أن تعمل عنده سنة جديدة . وسنة تجر سنة . المواسم بيد الله . لاأدري ماذا يعجبك فيه وفي أرضه وفي كفريا هذه ؟

قال أبو عاطف برماً :

ـ أنت تعرفين كم دسست أنفي هنا وهناك . لاأحد يعطيك يافياض أكثر . وبيني وبينك أنا لن أقضي هنا غير هذه السنة . هي تعرف ذلك . سواء كان الموسم القادم طيباً أم لا . لاتقولي لي مرة ثانية هذا حرام . أنت تعرفين أنني سأترك كل هذه البلاء .

همّ فياض بالسؤال وقد أثار فضوله ولهفته مايومىء اليه أبو عاطف ، الاأن فاطمة خاطبته :

ـ هل يجوز أن يتفق مع الرجل وهو ينوي نية أخرى ؟

ـ لانية ولاغضب الله . أخي فياض : للرجل عليّ أن أخدم أرضه بعيوني . اذا منّ الله عليه وعلينا وجاء الموسم القادم مثل ربع هذا الموسم يكون كل واحد أخذ نصيبه والسلام . واذا ، لاسمح الله ، لم تف حصتي بما سيقدم فعوضه على صاحب العوض . لولا الطمع هذا الموسم لما جئت الى هذه الجهة كلها ولارتحت بعون الله من كل هذا البلاء .

سارع فياض :

ـ اشرح لي . .

قالت فاطمة :

ـ يريد ياأخي أن يعمل حارساً .

قال فياض :

ـ أين ؟

قال أبو عاطف :

ـ في كفر عيد . هناك يستأجرون حرّاساً ضد البدو . على ضفاف الغاب . لافلاحة ولامحاصصة ولاكل هذا الذي يلاحقني من مكان الى مكان، حتى صار طعم الشغل في الأرض أمرّ في حلقي من العلقم ، وماعدت أستطيع الصبر عليها . مارأيك أن تسبقني الى هناك يافياض ؟ هذا أفضل لك مادمت على هذه الحال . سوف نلتقي في السنة القادمة باذن الله ، مثل هذه الأيام ، ونعيش معاً . ستكون هناك في مأمن من الحكومة أكثر مما أنت فيه هنا .

لم يكن فياض قادراً على أن يجيب . بيد أنه فكر طويلاً قبل أن يغفو بما يشير أبو عاطف الذي قضى السهرة يتوعد البدو ، لايفرق بين ابن حكره أو ابن البزّار وبين أي

منهم ، حتى إنْ كان لايملك غير خيمته وبعيره أو حماره وترحاله .

وفي الصباح عاد أبو عاطف يلح على فياض كي يقبل النصيحة ، لكن فياض قال حزيناً :

ـ لاأستطيع أن أبعد عن حمص أكثر . عليّ أن أبقى حول المشرقة ومرجمين . لاتخف عليّ . حتى في حمص نفسها لن تنالني الحكومة . قد أتوكل على الله بعد أن أستلم أجري وأتوجه جنوباً . وحين يأتي الفرج ستراني عندك ، هنا أو في كفر عيد أو في آخر الدنيا .

وفتح ذراعيه مودعاً وصوت فاطمة المتهدج يستحسن ماقال ويدعو ، فيما أبو عاطف يحضنه مهمهماً :

ـ أنت حر .

ويكرر خلف امرأته الدعاء .

★ ★ ★

شهوراً أمضى فياض في كفريا ، ليرى نفسه يعرفها، فقط، بعد أن عرفه بها أبو عاطف ، وكانت فاطمة قد عجزت عن مواصلة السهر معهما ، زاهدة بما باتت تحفظه من زوجها .

في الأيام القليلة التي أمضاها في كفريا اثر ذلك ، يتقرى آثار ماحدثه به أبو عاطف ، ويتابعه ، اجتمع لديه مالا علم لأبي عاطف نفسه به .

فآصف الغبشة أدرى ، وهو الذي لازال في عشيرته من يجوب البادية . آصف الغبشة لم ينس طفولته ، حين كانت كفريا خراباً ، والبيوت الجديدة التي يعمرها الموالي حول الخرائب تتكاثر . لم تكن ثمة بئر يشرب منها الناس أو الدواب . من جبل الزاوية استقدم الأجداد من يحفر البئر الأول والثاني والثالث ، وعلى البئر نصب الحفارون الأخشاب والبكرات، وشرع الجمل يجر الدلاء الدافقة بالماء .

ثم جاء رجال السلطان ، والأرض أرض السلطان . ليست الأرض للفلاحين الذين فرّوا ، ولا للبدو الذين كرّوا . لجأ الناس الى المعرة فاذا بأثريائها أسوأ مما هم اللاجئون فيه . لجأوا الى أثرياء حماة فاذا بأبي الهدى ، يزهو بعزوته في استنبول . دفع عن

كل بيت من بيوت كفريا مايترتب عليه من ضريبة للخزينة السلطانية ، وجعل الإيصال باسم رب البيت . لهجت الألسن بالعرفان لذلك الرجل الذي اكتفى في كل عام من كل بيت بعشر ماقدمه له . الا أن أحداً لم يستطع أن يفي العشر والضريبة المستمرة عاماً بعد عام . تراكمت الأقساط والضرائب حتى عاد رجال السلطان وضاعت الأرض . أقام الفلاحون الدعوى على الحكومة، ومن جديد لجأوا الى صاحب العزوة الكبرى في استنبول . مول أبو الهدى تكاليف الدعوى ، وفاز الفلاحون ، وعادت الأرض اليهم ، الا أنهم ظلوا عاجزين عن الوفاء بحق صاحب العزوة الذي تضاعف ، اذ انضاف الى القسط القديم القسط الجديد من تكاليف الدعوى . لقد صبر عليهم، واستعانوا عليه بفقرهم وبالمحل وبتقاه ، ولكن الى متى يمكن له أن يصبر؟

ضاعت الأرض ثانية لقاء الديون المتراكمة لصاحب العزوة الذي تمكن بعد استيلائه على الأرض من أن يسترد الضريبة التي سبق أن سددها للخزينة السلطانية ، وكانت الحرب في ابانها .

آصف الغبشة الذي يرغي ويزيد اليوم ليس غير واحد ممن استأجروا الأرض ممن آلت اليه . وشيوخ الموالي الذين كانوا يقتنون عبيداً صاروا عبيد صاحب العزوة . وتلك هي الدنيا الغدارة ـ يردد آصف وفياض يهز رأسه مؤمناً ومتحسراً ـ : يوم لك وعشرة عليك . ألم تكن تضحك لفياض منذ شهور فاذا بها تتقاذفه من حالق الى سافل؟ لم يعد صاحب العزوة وحده يتسيد على هؤلاء الذين يتناسون بداوتهم جيلاً بعد جيل . اللبان الذي لاتفلت من يده جرة واحدة من جرار كفريا العامرة بالسمن والحليب . الخانجي الذي التقى فياض وأبو عاطف وعزيز عنده ذلك اليوم ، لايفلت منه رأس غنم أو جزة صوف ، بل لايفلت منه كيس قمح أو شعير . حماة تعج بالذين يطبقون على كفريا وغير كفريا . ولولا الشبح المشرع للبقية الباقية من المترحلين لعاف الفلاحون الأرض وهاجروا ، مثلهم مثل فياض الذي يهز رأسه حائراً ، اذ يتصادى في صدره صوت آصف الغبشة وصوت أبي عاطف الذي سيرحل الى كفر عيد ، يتوعد البدو المترحلين في حراسته القادمة .

استحسن فياض من نفسه أنه لم يوافق صديقه ويسبقه الى كفر عيد . تلمس جرحه البدوي القديم واطمأن الى أنه لايزال مندملاً . داور ماأخذت نفسه تجيش به من أسى

ورثاء للبؤس البدوي . رأى نفسه تقرب من أولاء الذين تضافرت عليهم ، قبل وبعد أن جاء الى الدنيا : بكارة الأرض والبغال والغلال والفلاحة التي لاعهد لهم بها ، والملاك الحلبي هذه المرة ، وشيوخهم الكبار والصغار ، فآلوا الى أبأس مما يرى في كفريا ، ولاريب أنه سيصادف خيامهم أنّى توجه ، شمالاً أو جنوباً ، الى حمص أو الى حلب ، حتى إنْ ضرب شرقاً وتوغل في البادية، فسيصادف من ذوي آصف الغبشة الأقربين والأبعدين، ومادام فياض مصراً على أن يمشي ، فعليه كما كرر آصف أن يحفظ الأسماء التي يذكرها له ، على الرغم من أن بعضها يخلطه النسيان في ذاكرته ، والشك أكبر في إنْ كان لايزال حياً .

حاول آصف أن يثني فياض عن الرحيل ، بعد أن نقده أجره كاملا . ولعل فياض ماعجل لولا أنه أنس من نفسه ضعفاً أمام دعوة الذي بدا في الأيام الأخيرة صديقاً ، لكأنه لم يكن ذلك المعلم الفظ طوال الموسم . بل إن آصف ألح على فياض في ليلته الأخيرة أن يبكر الى أبي عاطف ، ليعود به وبامرأته . ففي أرض آصف متسع لهم ثلاثتهم ، يعملون معاً ويعيشون معاً . وكان يكفي آصف تدليلاً على مايكنه لفياض أنه يقبل بأبي عاطف وامرأته، وهو مغمض العينين ، ماداما صديقين لفياض . الا أن فياض أفاق باكراً ليتوجه نحو الجنوب ، يزيده ندى الفجر الأيلولي حزناً وارتباكاً .

★ ★ ★

شطراً طويلاً من الطريق الطويلة طفق يفكر فيمن كان لهم ذات يوم مثل ترحاله ، من أقصى سورية ، من شرقها وجنوبها الى شمالها وغربها ، من قفر مثل القفر الذي يملأ عينيه الآن، الى قفر ملأهما وهو في الجيش الميمم الى الشمال : تراب أصفر ، غبار أبيض ، رمال ورمال ، تلال من التراب أو الرمال أو الأحجار أو الأشجار ، صحراء أو بادية ، لايعرف الفرق ولا يهمه . كان يفكر فقط في أن المترحلين بالأمس واليوم جائعون لابد مثله ، خائفون مهما بدوا معتدّين . وكان يعتب عليهم أن يتضافروا على كفريا وسواها ، ينتزعون منها البشر والشيح . ينشرح لأنهم يشبعون ويرتوون ، ويمتعض لأنهم يبطرون ، ويخاتل الشماتة فيهم لأنهم اضطروا لسبب ما أن يقبعوا بعد الخيام في مثل القبة الطينية التي ينحشر فيها أبو عاطف وفاطمة ، حيث أخذ ينيخ عليهم ليس الشيخ وحده ، بل المرابي الحموي والملاك الحلبي والموظف السلطاني والتاجر الشيطاني والقتال

والقحط . وجعل فياض يردد ماكانوا يرددون :

خلص العقوب ياأسفي علاه   مطعم الجيعان في سنين الغلاه

ويرسل عينيه حول ماتقطع قدميه ، مفتقداً الأعشاب التي كانت تجنيها نجوم من البرية حول مرجمين .

كانت عيناه تذهبان أحيانا أبعد ، وأصابعه تتلمس في جيبه ماأنقده إياه آصف الغبشة ، وهو يخشى أن يداهمه زعران البدو الذين يسلّطهم الشيخ والخانجي واللبان والشيطان الحموي والحلبي والحمصي على الجميع . كانت عيناه الحذرتان تلوّحان بأبي عاطف الذي سيغدو حارساً ، يتصدى لهؤلاء الزعران ، بيد أن لسان آصف الغبشة يرتفع حائلاً بين فياض والأمان ، فيضيق بالمشي ، ويتحاشى ما يتلامح له من الخيام . يلعن الزوادة التي انتهت منذ زمن طويل ، والحذاء الذي أخذ يهترىء . يتأرجح بين شواظ الشمس المنصب فوق رأسه ، وخيال العاصي ، والسماء التي ترعد فجأة وتدفق .

سرعان ما غدا أهزل منه حينما فرّ من المستشفى . يأكله الندم على كل ما أتى ، من عشق نجوم الى رفضه نصيحة أبي عاطف أو آصف الغبشة . يلعب به اليأس من حمص ومن نفسه ، وهو يلتجىء الى جمع صغير من الخيام ، ويصحو مما به على عبق القهوة وحرارة المسامرين ولمعان السيوف وأفواه البنادق . وكان صهيل الخيل في الخارج يصدعه ، وربابة ذلك الشاعر الذي قد يكون أبو عبد اللطيف الصوان ، لو أن الميت يقوم في غير يوم القيامة .

لقد أعلن الاستسلام . لم ينكر نفسه على أحد . عاد طفلاً ، يبدأ المشوار من جديد . سرت الطفولة المبهمة والواعية فيه نسغاً آخر ، تلفها الخيام بالحنين . تخلقت على نحو جديد الجذور الغائرة ، من المشرقة الى الجبل ، تسعى الى أن تكون مكينة هنا أو هناك ، في هذه البادية ، حيث لاأثر لمن ذكر له آصف الغبشة . واذ صحت السماء ، أو استشعر من جسده قوة ، غادر ملجئيه غير آبه ، مخلفاً عندهم ماتبقى ممّن كان . واذ انصب فوق رأسه العاري الغضب الهائل للطبيعة لم يحسّ بغير الفتنة والغواية ، فاندفع في العتمة ولم ينم ليلة أو ليلتين ، وكانت خيام أخرى قد ظهرت ، والشمس أيضاً قد ظهرت على الرغم من الغيوم التي تزاحمها .

كانت تلك الخيام للجملان . وقد ادعى فياض أنه من التركي الذين ألجأوه أول مرة . لم يؤخذ حين اكتشف أن الجملان قريبون من السلمية ، بل ضحك في سرّه من

نفسه، لأنها تاهت في سبيلها الى حمص ، وظلت تدور بعيداً عنها من جهة الى جهة . تباهى بما عرف من التركي ، فذلك ماصار نسبه الآن . غنى مفاخراً مثلما كان يغني ذلك الشاعر الذي يشبه نظير الصوان :

لباسة الجوخ الحمر ذباحة اللي مايرحمون

ودفعه أبعد فيما يلعب، مارأى من نجاح لعبه في عيون ملجئيه الجدد . جعل من أبيه واحداً من فرسان التركي الذين قضوا في المذبحة التي دبرها لهم الأتراك . واذ سأله أحدهم عن عمره اذ ذاك ، ادعى أنه اليوم تجاوز الثلاثين وربما بلغ الأربعين . فهو كأبيه ، لاتترك السنون أثرها عليه ويظل فتياً . وامتلأ إعجاباً بنفسه لأنها التفّت على سؤال السائل الذي قد يعرف أكثر منه عن تلك المذبحة ، وربما عن سواها ، مما كان قبل أن يتزوج أبو فياض ، أو حين كان فياض لايزال يرضع . ادعى فياض أن عمه قد قضى في المذبحة الثانية التي دبرها حاكم حمص لفرسان التركي ، حين دعاهم الى العشاء ، وغدر بهم ، فذبحهم جميعاً . وأسعده أن أحداً لم يجرؤ على أن يسأل هذه المرة ، فاستفاض فيما بين المذبحتين ، يستعيد ماكان قد رأى في حماة من القشلة الى الحاضر ، هو وعزيز ، حيث كانت مذبحة التركي الأولى ، ويتخيل بلدة قريبة من حمص ، حيث كانت المذبحة الثانية ، غير عابىء بأنه قد نسي اسمها .

بعيد وصوله الى الجملان علا الهرج خارج الخيمة التي استضيف فيها ، ثم اندفع عدد من الشبان يوحدون الله ، ويؤكدون أن الحية قد ظهرت عند ضريح جدهم للزوار الذين باتوا بالأمس عندهم . سأل أحدهم عن المفلوج الذي كان برفقة الزوار ، فضحك الشبان مستخفين بالسؤال والسائل . لقد شفي المفلوج ودار حول الضريح بقدميه . هلل الحاضرون لشيخهم المبارك ، وهلل فياض ، وترك لمن حوله يخمّن أنه هو أيضاً يقصد الضريح المقدس لغرض ما ، على الرغم من أنه ليس مريضاً ، ولايصطحب مريضاً ولاذبيحة .

في الصباح بدأت العيون تسائله في صمت ، وفي الضحى صارت تحثه على أن ييمّم الى الضريح ، وفي الظهيرة ماعادت تخفي احتجاجها عليه ، وإنْ ظلت الألسن ترحب به ، وترد مفاخرته بالتركي بالمفاخرة بجدها هذا الذي يتهافت الناس من بدو ومن حضر الى زيارته ، يحملون اليه حتى المجانين فيبرأون ، فكيف بمفلوج وحسب ، مثل هذا الذي تقبل منه الشيخ أبو حية نذره وزيارته ؟

تناول فياض الغداء ثم أعلن أنه مغادر للزيارة ، فانفرجت أسارير من حوله ، واختلط دعاؤهم بالسؤال عن غرضه . تظاهر بالكتمان ، وأصر على أن يغادر وحيداً . سار حيث أشاروا اليه ، حتى اختفت الخيام وراءه ، فهمّ في أن ينحرف . خاف من أن تكون عيونهم لازالت تشيعه أو ترصد سره . تباطأت خطاه باتجاه الضريح حتى أيقن أنه بات قادراً على أن ينحرف ، فسبيل حمص ليست سبيل جد الجملان المقدس . خاف من أن يكون ما رووا عن جدهم صحيحاً ، فيغضب منه إنْ لم يقم بالزيارة . مدّ خطاه باتجاه الضريح آسفاً لأنه لايحمل ذبيحة ولاأيّ نذر . تلمست أصابعه مانقده اياه أبو آصف، وفكر في أن يضحي ببعضه بدلاً من الذبيحة . فكر في أن له أو عليه اذن أن يتضرع الى الشيخ ، وخاف من أن لاتظهر له الحية ، على الرغم من أنها كما روى أحفاد الشيخ لاتظهر لكثيرين ، ولايعني ذلك أن نذرهم مرفوض ، أو أن مجنونهم لايعقل، ومريضهم لايتعافى . أخذت الطريق تطول وأخذ يتلفت متيقناً من أنه لم يضل ، يردد ماسوف يناشد الشيخ به ، فهو وإنْ لم يكن مفلوجاً ولامجنوناً ، بحاجة الى أن يأخذ الشيخ بيده ، فيجمعه بنجوم ، يطمئنه على عزيز ، يعيده الى المشرقة سالماً ، وينجيه من غضب الحكومة . ولئن كان ذلك كثيراً فيكفيه من الشيخ بعضه . ولئن كانت النقود التي أفردها للنذر قليلة على الكثير الذي يطلب ، فلن يبخل بالمزيد منها ، بل إنه لايبخل بها كلها ، على الرغم من حاجته اليها .

ولما لاح له الضريح كان الاضطراب قد بلغ به أشده . كان أربعة من الزوار جاثمين شرقي الضريح وأمامهم صبي ممدد . لاقته عيونهم مسائلة ومتضامنة . ألقى بالسلام عليهم فأداروا رؤوسهم نحو الضريح . ألقى بالسلام على الشيخ أبي حية، فخيل اليه أن حية صغيرة تنسلّ من خلف ، وتتوقف بين قدميه ، تدير رأسها يمنة ويسرة . جف حلقه وأطرق، فباغته لسان الحية المشرع ، يكاد يلامس منه هذه الساق أو تلك . انتفض مذعوراً وصاح بمن حوله :

ـ انظروا . .

كان حذاؤه البالي يطأ وسط الحية الصغيرة ورأسها يلوب عليه وذنبها يتلوى من الخلف ، وربما كان يضربه دون أن يدري . هب الزوار وبكى الصبي وكاد فياض يسقط من دفعة أحدهم ، وانسلت الحية الناجية نحو القبر ، واختلط في سمعه الدعاء باللعن ، وهاله أن يرى الصبي يزحف نحوه ، ورمت يده بالنقود التي في جيبه، فتلقف بعضها الصبي، وجثا الزوار حول القبر حامدين شاكرين ، واستطاعت قدما فياض أن تتحركا ،

فتراجع قليلا ، ينكر أن يكون قد اخطأ ، فالحية قد ظهرت على وجهه وليس على وجه هؤلاء الذين لعنوه ، ولم يكن له أن يدع الحية تلسعه أو تلسع الصبي . الحية هي الحية ، والمبارك هو الشيخ ، لا هي ، فليتابع الطريق اذن مطمئناً ، وليدع هؤلاء المساكين يفرحون بالصبي الذي يزحف نحو الضريح ، غافراً لهم دفعهم له ولعنهم إياه . إن الله غفور رحيم .

وأسرع وهو يردد ذلك ربما لنفسه أيضاً ، وليس للزوار وحسب .

★ ★ ★

31

كلما كانت حمص تتراجع كان عزيز اللباد يشعر أن الخطر ينسحب ، فتهدأ مشيته ، وتلين عنقه . كانت التلال الخفيضة المغطاة بالبلان تطلع به وتنزل ، تحفّها الأكمات السود التي يتسلق عليها العليق والقراص ، تذكره بأرض أكثر وعورة وأزهى خضرة ، فيتحسر على أفيائها، ويحمد الله على أنه قد نجا بعد أن التقى بالعم حاتم ، واطمأن الى سلامة نجوم الصوان بين يديه .

تتالت في سبيله البعيد المبهم القرى الصغيرة الشاحبة نهاراً وليلاً ، وأخذت تناوش الانشراح الحيّي في صدره . ولم تكن لتثقل عليه الأحجار والحصى السوداء التي يتعثر بها في مشيه ، ولا لون التراب الحديدي الذي يزداد قتامة . كان الأفق على كل حال يفعمه ، ويطلق أنفاسه خلف الطيور التي تتقافز فزعة منه أو غير عابئة به . كانت عيناه تسرحان مع الأشواك والنباتات الناحلة الحادة التي تتناثر بين الحصى والأكمات ، الا أن القرى بدت أشبه بالعجائز اللواتي يتكأكأن على عصيّهنّ ، مجللات بالخوف ، وليس مايعمرها بالبيوت . انها زرائب للبشر وللحيوانات ، حجارة سوداء مكومة فوق بعضها كيفما اتفق ، سقوف خفيضة ، قبور معدودة وصغيرة حائلة ، بشر قليلون وكلاب كثيرة . وكان ذلك يجعله يرجىء التفكير في مستقرّ جديد ، فيتابع المشي .

في تلكلخ لبث أياماً وقد استمالته البلدة الصغيرة ، على الرغم من شبهها بما عبر من القرى ، سوى أنها أكبر . كان لأطرافها خاصة البيوت والزرائب عينها ، الحيوانات والوجوه نفسها . الا أنه كان يستطيع أن يقترب من المحطة الصغيرة ، يتأسّى على العم حاتم وهولو وسكة الحديد المخربة. يدور حول بيوت الدنادرة، يستعيد ماسمع عن تزيين أجدادهم لخيولهم ، يترحم على والد فياض وعلى عمه . وربما كان هولو من جهة ، وفياض من أخرى ، هما من دفعه الى أن لايقيم في تلكلخ .

كانت البلدة تلغط جهراً وهمساً بفرنسا والدنادرة وحكومة الشام . والمقام الذي يبتغيه عزيز ليس في بلدة لايعلم أحد ماقد يكون فيها ، مادامت فرنسا سوف تلحقها - إنْ لم تكن قد ألحقتها حقاً - بالمناطق التي احتلتها على امتداد البحر . ومادام في البلدة أصابع للحكومة التي حارب هو وفياض ضدها .

إلا أنه كان لبعض ماتضج به تلكلخ صدى ما في أعماق عزيز. فالدنادرة يحرضون الفلاحين ضد فرنسا خشية أن تفعل هنا مثلما فعلت أو ستفعل في أراضيها نفسها ، اذ وزعتها على الفلاحين ، كما يهمس أو يجهر كثيرون . وجلّ الفلاحين يجري اليوم خلف الدنادرة ضد فرنسا ، فادياً العلم العربي ، دون أن يعبؤوا بأرض قد توزع عليهم ، سواء أعلموا بما فعلت فرنسا في أراضيها أم لم يعلموا . كان عزيز يتساءل عما جرى حتى جعل من الحكومة في الشام والدنادرة مثل السمن والعسل ؟ وعما إنْ كان العلم العربي وحده كافياً كي يجعل الفلاحين ينسون الجراح الطرية ، ويسيرون خلف الدنادرة ؟ كان يشك في أن تكون فرنسا توزع الأرض على فلاحيها هناك وتحرق البيوت هنا ، سواء أكانت للدنادرة أم للفلاحين . وكان بخاصة يحنقه أن يستجيب الفلاحون للحكومة في الشام ، وقد أحرقت بالأمس مرجمين فوق رؤوس أهليها ، كرمى لواحد من أغوات سورية .

بالطبع ، ماكان له الا أن يكتم هجسه ، فهو بالنسبة للجميع ليس سوى واحد من الشبان العواطلية الذين يعبرون بالبلدة صيف شتاء ، في طريقهم اليها أو الى أي مكان يجدون فيه عملاً . قد يجالسه بعضهم أمام الدكاكين ، في الخان ، على أطلال سكة الحديد والمحطة ، وقد تحلو لبعضهم ساعات مؤنسة معه ، على الرغم من صمته وحذره أغلب الوقت . الا أنهم لايلبثون جميعاً أن ينصرفوا عنه ، فيبقى وحده طوال الليل ، يستعيد لعبه معهم قبل قليل بالورق أو بالضامة ، يستعيد شكواهم وتعالمهم وضحكاتهم وزفراتهم ، يتخوف مما ينصحون به من أعمال، مثلما يتخوف مما يتكهنون به لتلكلخ عما قريب .

قبل أن يغادر البلدة السوداء فكر في أن يتوجه الى طرطوس ، وحلا له ذلك أياماً . ثم رأى طرطوس قريبة جداً من أهله ، من القبية ، من بشارة ومن ابن الدباس ، من صافيتا كلها ، وهو لايريد هذا القرب ، بل إنه يخشاه . ازورّ عن طرطوس وصار يفكر في اللاذقية . أغراه أن حمادي الحسون لابد أن يكون فيها أو في مكان ما حولها ، ثم هول على نفسه أن يعثر على حمادي الذي قد لايكون حياً أيضا . هكذا لم يبق له الا طرابلس .

انها أبعد من طرطوس على أية حال ، وأقرب من اللاذقية . وهو يعرف أنها مأوى العواطلية أمثاله . هاهم يعددون أمامه في تلكلخ عشرات القرى التي يتسابق شبانها سنة بعد سنة الى طرابلس . كما كان العواطلية في قبية وجاراتها والتلّة نفسها يلجأون الى هناك ، فلماذا لايعجل اليها ؟ ماذا ينتظر في هذه البلدة الحبلى بالنار ؟ وثمة على كل حال ، فرنسا ، لا الحكومة التي تطلبه ، والبحر ، لاهذه الأرض التي تسجنه .

★ ★ ★

انقطعت الطريق به في سهل عكار . فيما بين تلكلخ والسهل عادت القرى والمزارع تبدو له مثلما ألف في بيوتها وأشجارها ومياهها وبشرها وحيواناتها . ولى ذلك الانقباض الذي كانت تملؤه به القرى والزرائب التي اجتازها . هاهنا اللون الأخضر العميم الذي نشأ عليه . أما هناك فليس غير السواد . هاهنا يستطيع عزيز أن يعاين الجبل الذي يسكن فؤاده ، وإنْ كانت القطيعة بينهما تمتد . أنى تلفت يظهر له الجبل . وكما تلقفه هناك ابن الدباس ، عواطلياً في التلة ، تلقفه هنا عبود بك الرشدة .

حين التجأ الى التلة كان فارّاً من بيت بشارة ومن أبيه . أما اليوم فهو فارّ من الحكومة كلها . غير أنه أقلّ خوفاً واضطراباً . ولعل ذلك ماجعله يبرز سريعاً بين عشرات العواطلية الذين يتسابقون في أرض عبود بك ، يجمعون السنابل خلف الحصادين طيلة النهار، ينقلون مايجمعون الى البيدر الخاص بهم ، ثم يبدأ درس أكوام السنابل وتذريتها ، ليتقاسم عبود بك بعدئذ معهم القمح .

كان موسم الحصاد في مستهله . وكان لدى عبود بك من العواطلية من يعمل في الرعي ، كما كان مثل هؤلاء لدى بعض الفلاحين . أما العواطلية الآخرون فمنهم من كان يعمل في حراسة البيادر أو العناية بالجواميس والأبقار ، أو سوى ذلك من الأشغال الوفيرة منذ الربيع . وقد كان سهلاً على عزيز أن يختار أياً من هذه الأشغال التي يتمناها العواطلية ، اذ تجعل واحدهم أقرب إلى البك والقصر ، وأكبر مهابة بين أقرانه وبين الفلاحين أنفسهم . الا أن عزيزاً آثر السنابل والبيدر والكوخ الصغير الذي هيأه لنفسه غربي أكواخ العواطلية ، وأبعد عن القصر .

قبيل انتهاء الموسم نقل اليه أحد الحراس أمر البك بالحضور الى القصر . ولسبب ما عجز عن أن يصغي الى استبشار البك به ، وسؤاله له عما إنْ كان يرغب أن يعمل في القصر .

أجفله العرض ، كما أوشك أن يسيل لعابه ، لولا أن حاصرته العيون المبثوثة في التلة بين الفلاحين ، فاعتذر دون أن يدري ، ونوه برحيله الى طرابلس . أذهله أن عبود بك رد مبتسماً وواثقاً من أن عزيز سيفكر ويقبل ، وكانت عيون الجلساء من الفلاحين ومعاونيّ البك تنكر عليه ألاّ يقدر النعمة التي تسعى بنفسها اليه .

على البيدر ، أثناء توزيع الحصص بين العواطلية والبك ، لم يأبه عزيز بخيزرانة أحد المعاونين ، تقسم كومة القمح الكبيرة ، وتلوح في الهواء ، تنهر بالعواطلية الذين يتباكون ويستحلفون الرجل أن يزيد لهم ، خاصة المسنون منهم ، والرجل يداري الهواء المسائي القوي الذي يلعب بأطراف الكوفية ، وينظر شزراً الى عزيز اللباد .

كانت الخيزرانة تؤشر على هواها في الكومة ، مقتطعة في كل اشارة حصة ما للبك أو لحراس البيادر أو بدلاً من اجرة الأكواخ أو نصيباً في الكومة لضيوف البك الذين سيأتون ذات يوم . وبدت القسمة مضحكة لعزيز ، حتى اذا انتهت تقدم من ممثل البك يسأله إنْ كان يشتري حصته .

فجأة كان عزيز قد فكر في أن بضعة قروش سوف تنفعه في سفره الوشيك الى طرابلس ، وفجأة كان قدْ اكتشف أنه لن يكون هيناً عليه أن يفارق الكوخ والوجوه والبيدر وإطلالة القصر والهواء الذي ينشط كل مساء ، مهما كانت حرارة النهار .

كان الرجل على وشك أن يثور قبل أن يلتمع له أن عزيزاً جاد في البيع ، فتساءل وهو يدير وجهه نحو القصر :

ـ ما حاجتي بها ؟

لم يفه عزيز ، بينما همس صوت أحد العواطلية المسنّين .

ـ مجنون أم بطران ؟ ما لك أهل ؟

تلاعبت الخيزرانة أمام الوجوه ، قبل أن تستقر أمام قدمِ عزيز ، وقال الرجل :

ـ كم تساوي حصتك ؟

ـ خمّن أنت وأنا راض .

قال عزيز ، فمدّ الرجل يده بوجل يبحث في جيب قمبازه .

كان عزيز قد عرف عن عبود بك الرشدة ماجعله عاجزاً عن أن يرى فيه غالباً سوى صورة أخرى لمن رأى من الأغوات أو البيكوات . بيد أنه لم يكن قد عاش قريباً من أي هؤلاء على هذا النحو . هاهنا كان يرى القصر كما يرى الجبل ، في أي وقت ، من الكوخ أو من على البيدر ، أو من بعيد في السهل . كان يصادف عبود بك على صهوة

حصانه ، شاباً جميلاً ، ضاحكاً على الدوام ، يلقي بالتحية على من يعبر به من الفلاحين أو العواطلية ، كما يسلمون على بعض ، فينتصبون داعين وبشوشين ، على الرغم من الحر والإنهاك .

قبل قسمة البيادر كانت صورة عبود بك قد أخذت تتمايز عن الصور الجهمة التي يختزنها عزيز لأي بك أو آغا . إنه لايفهم سرّ منع عبود بك للفلاحين مثلاً من زراعة الخضار وأشجار الفواكه الا فيما ندر . وهو يقارن مايعرف من شحّ ابن الدباس بسخاء عبود بك الذي لايكاد يخلو قصره من الغرباء طالما هو في قريته . فمن يافا الى انطاكية يتقاطرون إلى مائدته ، وينعمون بما في خزائنه من أنواع المشروبات الغريبة العجية التي يحضرها من باريس أو من روما . في يوم واحد يمكن لعبود بك أن ينحرمن الذبائح بقدر ماينحره ابن الدباس وبشارة معاً طوال الصيف . لكل ضيف عند عبود بك ذبيحته ، مثله مثل أي من أمراء العشائر الذين يتعالم الفلاحون والعواطلية المسنون بأسمائهم . ليس من ضيف يغادر عبود بك الا محملاً . وفي الآن نفسه ، يشدد أيّما تشديد على رجاله في ملاحقة الأطفال الذي ينسلّون في الأرض المحصودة ، ليلتقطوا مافات عزيزاً وأمثاله من سنابل . أما الطفل الذي يضبط متسللاً الى البيادر أو منها ، فسوف يتذكر في مشيبه عقاب رجال عبود بك .

وعبود بك يختار ثلث الأرض دوماً لنفسه . يفرض على الفلاحين أن يزرعوا هذا الثلث ويعنوا به مجاناً ، مستثنياً كبار الفلاحين في السن أو في طول المقام هنا ، أو فيما لهم من قطعان أو مساحة للزرع .

ومثلما كان عزيز يغزل لعبود بك صورته الخاصة مما يلتقطه عنه ، كان عبود بك قد غزل لعزيز ولبعض العواطلية ، شأنه في كل موسم . فهو على الرغم من انشغاله البادي عن شؤون من يستخدم ، لايكاد يفوته شيء من أمرهم .

كانت عيونه من الفلاحين تتابع بصمت وهدوء المحترفين كل نأمة لمن يفد على السهل كله ، سواء أكان عاطولياً عابراً أم فلاحاً ساعياً الى الإقامة . كذلك كانت تفعل أيضاً عيونه من رجاله الأقربين ، مرافقين كانوا أم خدماً أم حراساً أم سواسين أم طباخين . وقد تأكد لعبود بك أن عزيز اللباد شاب قوي ، عازب ، هادىء ، أمين ، عفيف النفس . وصدق مثل الجميع أن الحرب قد أتت على ذوي عزيز ، فلم يعد له مايصله بقريته البعيدة في أطراف حمص ، على تخوم البادية ومادام عزيز كذلك ، فمن الأفضل أن يحتفظ به عبود بك ، يروضه ويدربه ويمتحنه ، ليجعله إنْ صلح في عداد

رجاله . ولذلك أمر صاحب الخيزرانة أن ينقده مثل الذي أنقده اياه على البيدر ثمناً لحصته من الموسم ، وطلب الى عزيز أن يتابع العمل في السهل حتى ينتهي موسم الذرة ، وطرابلس لن تطير على أية حال .

ثانية ـ وربما للمرة العشرين ـ أذهلت عزيز ابتسامة وثقة عبود بك وهو يأمره أو يقترح عليه . ولم يدر أن الشكر الذي رد به ، وانسحابه المتأدب ، وفرحته البادية ، كل ذلك انما يعني موافقته أو رضوخه . فقد أسرع في الصباح الى حقول الذرة وهو يتساءل عما اذا كان يمكن له أن يقطع ماتبقى الى طرابلس في نصف نهار أو في نهار بكامله ، وعيون الفلاحين وبقايا العواطلية تلاحقه حاسدة .

كانت الذرة تملأ الطرف الشمالي من القرية ، زاهية بطولها الذي يبذ قامة عزيز ومن هو أطول ، تتمايل في الصباح وفي المساء ، مرسلة حفيفاً خافتاً ، فيما أوراقها وعرانيسها تتراقص وتتدلى ، حتى تكاد تلامس التراب الناعم الطري . وكان عزيز وهو يخوض بين سوقها في النهار، ويراقبها عن كثب في الليل المقمر ، يجزم أن لها عيوناً وسيعه ، تومض بالخضرة، وتتكحل بالذهب الأصفر ، خاصّة إمّا تضاعف نشاط الهواء القادم من البحر .

كان يندفع في عمله الجديد بهمّة أكبر ، يخاتل الزهو ، وينتظر أن يرسل البك في طلبه ، ليجزل له ويزيد في الثناء . الا ان البك غاب أسبوعاً بكامله . وليلة عودته علا اللغط حول القصر وفي داخله ، كما لم ير عزيز أو يسمع منذ نزل هنا .

سرعان مافشا بين الجميع أن عدداً من الفرنسيين العسكريين والمدنيين قد وصل مع عبود بك . وقد امتد السهر بالضيوف طويلاً ، وعزيز يرقب من فرجة الكوخ الأضواء المشعشعة من طابقي القصر وسائر مايحيط به ، ويتنصّت، بشغف تارة وضيق تارة، على الأصوات الضاحكة الصاخبة والغناء الرخيم ، المفهوم منه وغير المفهوم ، وفي الصباح هربت من القصر خادمتان .

في لياليه الماضية كان يحلو له أن يتلهى بمراقبة الضوء الساطع طوال الليل في برج المراقبة الذي يشرف على السهل ، من أقصاه الى أقصاه ، كما يؤكد الفلاحون . استهجن في البداية البرج والمراقبة ، ثم استصغر في سره جدوى ذلك ، خاصة في الليل . الا أن الفلاحين يؤكدون أن المنظار المنصوب في البرج يكشف لعبود بك متى شاء ، ليلاً أو نهاراً ، أية حركة في السهل كله . ولكن لو صح ذلك ، فكيف استطاعت الخادمتان أن تهربا ؟

لم يصل اليه تهامس الفلاحين بهرب الخادمتين حتى المساء . وقد أحس بنشوة النصر على البرج ، والشماتة بضوئه ، وسخر من ثقة المتهامسين بالقبض على الخادمتين أينما كانتا ، ومهما طال اختفاؤهما ، ثم شغله فوران القصر حتى غلبه النعاس ، وكان الفجر وشيكاً .

ماكاد يغفو حتى كان عليه أن ينهض ، وقد ملأ الفضاء حوله صخب الصباح الفلاحي ، وكان القصر هادئاً . غادر الكوخ متكاسلا ، وعلى فرجته تراءى له أن هذا النهار سيكون طويلا وصعبا . تمشى نحو الذرة على مهل ، واسترقت أذنه من الهمسات المبكرة ماجعله يتريث . لقد تمكن رجال عبود بك من استعادة الخادمتين ، وكانت عقوبتهما أن جعلهما تتعريان أمام الضيوف الفرنسيين ، ولاريب أن الضيوف لم يقفوا مكتوفين أمام الجسدين العاريين . تلهّى عزيز باستزادة من يصادف ، فزاد في ضيقه أن بعضهم كان يتلمظ وهو ينقل ماسمع عن السهرة ، وحاول أن يتناسى طوال النهار . لكن أصداء الهمس لم تفارقه . بل انها كانت تغدو أعلى وأوضح ، يختفي منها التصفيق الموقع والغناء، ينوس الضحك وينقلب شهقات مكتومة تارة وفحيحاً تارة . وفي استراحة الغداء حاول أن يغفو ، فلم تفارق عينيه أشلاء ثياب الخادمتين ، قطعة قطعة . ومنذ العصر عجز عن أن يتابع الشغل ، فأقعى بين قصبات الذرة ، منكراً على الناس مايتهامسون به ، ومربئاً بعبود بك أن يفعل ذلك بخادمتيه . حتى الضيوف الذين جاءوا من فرنسا لايعقل أن يرغبوا بخادمة ، لاعارية ولامكسوة .

ظل مستلقيا حتى المساء ، لاوياً جذعه وساقيه بين القصبات ، متحاشياً أن يؤذيها ، يفكر فيما يقدر عليه عبود بك الرشدة وضيوفه . لقد رأى من بعيد نساء كثيرات يفدن الى القصر . وسمع في ليالي مضت ضحكاتهن . ولاريب أن عبود بك أو أياً من ضيوفه قادر على أن يأتي بمن يشتهي من جميلات طرابلس أو بيروت أو سواهما ، ممن لاعمل لهن الا التزوق والتعري والانتقال من حضن الى حضن . وكانت سيقان الذرة تومض له، والغروب يقبل، مثل سيقان أي من أولاء النساء ، فيبلع ريقه متحسراً على أن لم ير أياً منهن عن قرب ، وأنه قد لايرى أبدا . لقد عاش محروما من كل شيء ، وقد يظل محروماً حتى يموت ، وهو خامل قانع لايحرك ساكناً ، يترك للدنيا أن تتقاذفه ، ثم يبكي عليها أو يلومها بلاحق ، ينتزع جسده من بين السيقان الملفوفة بالورق الأخضر ، فيرتطم بالعرانيس الأثداء ويلوي اثنتين أو ثلاثاً منها ، ويقف لاعناً الشيطان وداعياً

الرحمن ألاّ يجعل عين أحد من رجال عبود بك تقع على مافعل ، ويتوجه نحو القصر، دون أن يرسل البك في طلبه .

★ ★ ★

أقرب فأقرب ظل يقترب من القصر ، يحوم حوله كلما تسنى له ، يضيق بنسيان عبود بك له . ولاتشبع عيناه من التقري في نقوش الجدران الخارجية وأقواس النوافذ المتطاولة . ثم ينعطف الى الاصطبل ، حيث تأوي الأبقار والجواميس، ويخزن التبن، وتمتد المعالف ، يقيس بخطواته طول وعرض الاصطبل ، ويتعجب من أنه يعدل القصر تماما .

كان يتوقف أمام بوابة الاصطبل ، يسترق السمع من القصر ، وعيناه تروزان، فوق البوابة، الهلال والنجمة التي يحتضنها . ولعل ذلك ماجعله يفكر في أنه قد عاد مثلما كان قبل الحرب ، قبل أن يولي الأتراك وهلالهم ونجمتهم . حكومته في الشام تطرده بعيداً ، والفرنسيون هنا قد حلوا محل الأتراك ، وهو ينتظر أن ينقضي موسم الذرة ، ولايعرف إنْ كان سيتوجه الى طرابلس حقاً ، أو إنْ كان سيقيم هنا موسماً ثم ينصرف . كل مايعرفه أن يضرب العرانيس الناضجة بعصاه التي صارت مضرب المثل . فهي وحدها تفرط الحبوب بسرعة وأمان ، لاتهرس واحدة ولاتدع على العرنوس واحدة .

انقضى موسم الذرة أسرع وأيسر من موسم القمح . وجاء نصيبه أوفر من نصيب سواه بأضعاف . ومثلما باع حصته من القمح فعل بالذرة ، فتكوم في جيبه مالم يتكوم فيها من قبل . واستحسن أنه لم يتعجل الرحيل الى طرابلس أو سواها .

كان عبود بك الرشدة في غيبة جديدة له ، فلبث عزيز ينتظره ، كي يودعه قبل أن ينصرف . ولعل امتلاء جيبه ، أو كونه بلا عمل ، وصاحب الصيت في كل موسم ، قد جعله أجرأ على الطواف بالقصر ، يتمعن في الوجوه التي تدخل اليه أو تخرج منه ، لاخائفاً ولاخجلاً . كان يحدق خاصة في وجوه الخادمات والمسلّحين ، يجلس أحياناً مع الحارس الأول ، أمام غرفته التي يعلو سقفها سقف الاصطبل ، يصغي الى نصيحته بسؤال البك عن عمل يعهد به اليه هنا ، فليس في طرابلس وكل مدن الدنيا سوى المذلة والجوع . وكان الحارس قد قضى عشرات السنين بين صفوف الأتراك والهرب منها ، قبل أن يلجئه والد عبود بك الذي أورث لأبنائه ثروة لاتأكلها النيران .

في واحدة من تلك الجلسات خيل للحارس أن نظرات عزيز تنهب صبية تتطامن تحت القفة التي تعلو رأسها ، فبادره مازحاً :

ـ أرى عينك تلعب على البنت ياملعون ؟

زجر عينه وتأتأ منكراً ؛ فقهقه الحارس وصاح بالصبية :

ـ متى تهربين مرة أخرى ياهيلانة ؟

وخاطب عزيز :

ـ لابد أنك سمعت بها . هذه هربت مرتين . في الأخيرة لعبت بعقل وردة وجعلتها تهرب معها . وردة مسكينة وجديدة على الكار هنا . أما هيلانة هذه ، فالعياذ بالله . هي تهرب ونحن ندفع الثمن . لعنة الله عليها . تظن أن البك يعاقبها وحدها ياعزيز ؟ أهلها لايريدونها ، أهل وردة أيضا لايريدونها . اسألني أنا . ومع ذلك تهربان ، ومن أين الى أين ؟ العياذ بالله . من هنا الى جبال اللاذقية ! هل تصدق ؟ بدلاً من أن تحمدا الله على هذه النعمة ، تلبطانها وتهربان . ليس من امرأة لاتتمنى الخدمة في قصر البك . ألف عين اليوم خلف كل منهما . سوف يعود البك بهما حتى إنْ أخفتهما العفاريت في قلب البحر . ماذا تعرف أنت عن عبود بك ؟ صحيح أن قلبه رحيم ، وهو لايفرط بمن يخلص له . كل خطأ مغفور عنده إلا الخيانة . وهيلانة هذه خائنة مرتين . وردة مسكينة راحت بجريرة الخبيثة . والله روحها خبيثة . آه لو رأيت مارأيته يوم أعادهما رجال البك . أنت تذكر يوم رجع البك ومعه الضيوف الفرنسيون . انظر هناك : في صالون الطابق العلوي كانت السهرة . ألا ترى كل شيء من هنا ؟ هكذا كنت أرى هيلانة ووردة خلفها . صرخ البك صوتاً واحداً فسقطتا على الأرض، ملأ يده من شعرهما وأوقفهما بحركة واحدة ، هكذا ، كأنه يمسك بقشّتين . صاح بالفرنسية، فأسرع اليه اثنان من الضيوف ، واحد منهما ضابط . أنت لاتعرف ثياب الضباط الفرنسيين ؟ بربر البك من جديد فراح الرجلان يتسابقان في تمزيق الثياب ، وقفز ضابط آخر فنتر سروال هيلانة أو وردة ، لاأعرف ، هكذا ، نترة واحدة ، ولوح به ورماه من النافذة . قلت لك البك لايرحم الخائن، ولكن قلبه رحيم . قل لي : على بال من تخطر هذه العقوبة ؟ لقد أدبهما الى الأبد . الواحدة منهما باتت مثل النعجة منذ ذلك اليوم .

أخفض الحارس صوته ، ودنا من عزيز :

ـ شهادة لله : جسم الواحدة منهما يمجد الذي خلقه . ما هو جسد بشر . كيف أصف لك ؟ انظر هناك : في صالون الطابق العلوي . ياالهي ! حلمة النهد تبرق مثل . . مثل

ماذا ؟ والله لاأعرف . قل مثل السهم . لم أر في حياتي مثل مارأيت . عشرات النساء رأيتهنّ : ربي كما خلقتني . ولكن من قال إنه رأى مثل هيلانة أو وردة فلا تصدق . كلمات الحارس كانت تنفخ الذعر في صدر عزيز . وفي الحنايا كانت جذوة الشبق تتقد . كان يود أن يسأل الحارس عما إنْ رأى أحد من ضيوف البك مثل مارأى ، أو ماذا كان قد رأى من اعتدى على الفتاتين ، كما يتقول الآخرون . لكنه خرس دهراً قبل أن يتمكن من الوقوف ، والهرولة بعيداً .

عصر ذلك اليوم عاد البك ، ولكن زيارة عزيز له لم تتيسّر الا في العصر التالي . حيا الحارس وهو يعبر به عجلا ، وقبل أن يدخل رأى هيلانة مقبلة من اليمين ، فتسمّر . انتهبتها عيناه ، من شعرها العاري الى قدميها الحافيتين . بومضة كان قد تأملها ملياً ، من سمرتها الى فستانها السابغ حتى الكعبين العاريين والنهدين النابتين والوركين الضامرين . ولما أفاق كانت تقابله متحدية :

ـ لحقتني الى هنا ؟

ـ أنا ياهيلانة ؟

خاطب نفسه مستنكراً فازورّت عنه مردفة :

ـ هل تطن أني عمياء ؟ من متى وأنت تتلصص عليّ ؟ قل : ما لك عمل آخر ؟ ألا تستحي ؟ هل أفضحك أمام البك ؟

ـ أنا ياهيلانة ؟ سامحك الله . .

أجاب معاتباً ، بصوت حزين خافت ، ينضح بالود المفجوع ، وهو مطرق . مشى مثقلاً نحو مجلس البك في الطابق العلوي ، فرفرفت وأوشكت أن تناديه . تمنت أن يكذبها وأن يحدثها عما به ، لكن لسانها وقف في حلقها وهو يصعد الدرج العريض .

كان صدّها يتصادى في صدره وهو ينتظر اذن البك له بالمثول . كان الصدى يزيد عزمه على الرحيل ، وصمت المنتظرين من حوله في الصالة الصغيرة يفاقم من ضيقه بنفسه وبهيلانه . كان يفكر في أن الظالمين في الدنيا لايحصون . وهم يتكاثرون عليه خاصة . حتى هيلانه ، يمكن لها أن تفعل به بعض مايفعل البك بسواه . هم يظلمونها وهي قادرة على أن تظلمه ، أما هو ، فالى متى سيظل فقط عزيز اللباد ، لاأكثر ولا أقل ؟

عبر النافذة التقت عيناه بعيني هيلانه ووردة وهو ينتظر . كانت نظرة خاطفة أول مرة، هرب اثرها ، بيد أن النظرات التالية طالت . وخيل اليه أنه يقرأ في عيونهما

فضولاً ، وربما رأفة أو اعتذاراً . ولما مثل بين يدي البك كان حائراً بين دفع هيلانة له بعيداً ، الى طرابلس أو الى البحر ، وبين دعوة البك وهيلانة أيضاً الى أن يؤجل الرحيل ، ويقيم هنا ، هذا الشتاء على الأقل . وقد يطيب له المقام والشغل في القصر ، فينسى طرابلس والبحر . لقد ظل ساهماً وصامتاً حتى الصباح ، عندما أدرك أنه قد غدا واحداً من رجال عبود بك ، والعاملين في القصر .

★ ★ ★

لم يعهد اليه في الأيام الأولى بعمل محدد . بيد أن ليله ونهاره كانا مليئين بتفاصيل عالمه الجديد داخل القصر . الآمرون كثر ، الداخلون والخارجون ، خاصة وقت الظهيرة وفي المساء . والوجوه التي رآها مراراً في الخارج تلبس هنا سحنة أخرى ، أصواتها تتبدل ، حركاتها وسكناتها . وقد بدا له ذلك مشوقاً وطريفاً، وإنْ كان لايخلو من الخطر ، اذ لاينبغي لأحد أن يخطىء . كما أن هيلانة ووردة كانتا قريبتين . لابد له أن يراهما كل يوم مراراً ، وإنْ كان قد ظل يتحاشى مصادفة أي منهما عن قرب .

فجأة أسندت اليه العناية الليلية بالاصطبل الهائل . وقد ساءه ذلك سواء بروائحه أو نومه المتقطع، أم رفقة السواس الآخرين الذين بدوا أغلظ وأقذر ممن ألف سريعا داخل القصر .

حرمه الاصطبل من المتعة الخطرة في العمل داخل القصر ، وترك له النهار فارغاً ، ولم تعد رؤية هيلانة ووردة يسيرة . فصار يتحين فرصة اللقاء بعبود بك ، حتى اذا كان له ذلك ، اندفع نحوه محيياً ، فبادر البك أقرب المرافقين اليه موفرا على عزيز مشقة ماأضمر ، وقال بصوت مسموع :

ـ أين شغلت عزيز ؟

لم يتبين عزيز جواب الرجل ، غير أن فؤاده اضطرب ،وحدس بأن الرجل يقلل من شأنه لدى عبود بك ، فقال :

ـ هل يمكن يابك أن أشتغل على البرج ؟

توقف البك يحدق في عزيز . وكان المرافق يحملق فيه مشدوهاً . واثر صمت قصير قال البك :

ـ اشتقت الى أيام الحرب والعسكر هاه ؟ اذهب الى البرج .

والتفت إلى مرافقه آمراً :

ـ رتّب عمل له هناك وعلّمه . عزيز سيتعلم بسرعة .

وسرعان ماأدرك أن كثيرين ممن يعرف وممن يجهل لم يكونوا يرغبون في أن يدخل الى القصر ، لاخادماً ولاحارساً .

الحارس الأول العجوز نفسه ألمح الى ذلك فيما بعد ، مغبطاً عزيز على حظه ، متعجباً ، ومؤكداً أنها المرة الأولى منذ سنوات ، يدخل فيها القصر غريب . ولئن كان البك هو الذي يلحق أحداً بالقصر أو يطرده منه ، فلا بد أن يكون ثمة من يزكي أو يهيىء لفلان أو لفلانة الفرصة المواتية . كما أنه قد يكون ذات يوم قريب أو بعيد لفلان أو لفلانة من يوغر عليه صدر البك، أو يحفر له حتى يسقط سقطة لارجاء بعدها . ربما زاد تقدير عزيز لذلك من ثقته بنفسه ، غير أنه ضاعف من تحسّبه . لقد اختاره البك وحده . لم يزكّه أحد ، وهو ليس مديناً لأحد اذن . ولكن عليه أن يتيقظ لما يمكن أن يرسم له . هكذا شرعت معركة صامتة صغيرة، تنشب في مخيلته، بينه وبين من في القصر . ولم تكن هيلانة بعيدة عن ذلك ، وهي ترفع عينيها الى البرج ، تارة من إحدى نوافذ القصر البعيدة ، وتارة من إحدى باحاته الواسعة ، وتارة من الطريق .

لقد تعود أن يراها كل يوم ، سواء أكان في البرج أم في أية بقعة من هذا المكان الذي عزله عن القرية تماما . وحين كلف بالحراسة الليلية خشي أن يحرمه ذلك من رؤية هيلانة في النهار . فمن يسهر الليل بطوله لابد أنه ينام النهار .

كان يدقق النظر في الجهة التي يقدر أن هيلانة ووردة والخادمات جميعاً يؤدين عملاً مافيها . فلا أحد في القصر يجرؤ أن يغفو قبل أن يغفو البك ، مهما طالت سهرته . كانت الأضواء التي قد لاتطفأ حتى الفجر تؤانسه ، وتهون عليه حراسته في لياليها الأولى . لكن البك سافر ، والأضواء صارت تطفأ أبكر فأبكر ، والليل يطول ، والريح الخريفية تلعب به أقوى بعد أن يهجع الجميع ، تهجم عليه من كل ناحية . فإنْ أفسحت له الريح قليلا نقم من هيلانه أنها تتركه ساهراً وحده ، ونقم من جفنيه أنهما يذبلان .

عاد نهاره فارغاً كعهده في الاصطبل . وكان ينام على مضض بعيد الشروق ، يستيقظ في الضحى أو في الظهيرة ، يتلهى بقية نهاره مع من يصادف ، يترصّد نظرة من هيلانة أو من وردة ، مؤثراً أن يظل بعيداً عن سبيلهما .

آب البك بعد اسبوع ، ودبت الحياة في القصر أغلب الليل ، استعاد عزيز نشاطه في حراسته ، تجذبه بخاصة الجهة التي يعلو فيها الصخب ، دون أن ينسى جهة الخدم .

واذ يهدأ القصر أخيراً ، صار يفكر فيما يمكن له أن يفعله إنْ ضبط هيلانة أو وردة أو أية خادمة أخرى متسللة ؟ هل يطلق الرصاص إذا لم تنصع لأمره ؟ هل يقودها بنفسه الى البك أم يتغافل عنها ؟ وكيف سيواجه البك فيما بعد ؟ ألن يكون ذلك هو الفخ الذي ينصبه له الآخرون ؟ هل يرمي بالبندقية اذن ويلحق بهيلانة ؟ ولكن من قال انها ستهرب من البك لتشبك كفها بكف عزيز اللباد ؟ بل من قال انها هي المرأة التي سوف يغامر من أجلها عزيز اللباد ، فيواجه البك ، أو يغدو طريد هذه الديار أيضا ، كأن لم يكفه أن يكون طريد حماة وحمص وصافيتا والشام نفسها ؟

أخذت هواجسه تشاغله في النهار أيضا . وقد تكون هي التي جعلته يمعن في تحاشيه لهيلانة أو للخادمات جميعا ، حتى فاجأته وهو متربع تحت شجرة الزنزلخت ، يتدفأ بالشمس ، ويتفرج على ذوائب الشجرة التي يلاعبها النسيم ، وظلالها التي تراخت بعيدا . كان يسند ظهره الى جذع الشجرة المعمرة ، ولم يسمع وقع الأقدام المقتربة ، لم ير هيلانة ومن معها تتباطئان حين ظهر لهما .

باغتته تحية هيلانه ، ووجه رفيقتها التي لايذكر أنه رآها من قبل . نهض يتلعثم برد التحية وينقل نظراته الحيية بين الصبيتين اللتين تنوءان تحت وطأة الحطب المكسّر . حاول أن يتبسّم فأخفق . أحس أن هيلانة قريبة منه ، بالغة القرب ، كأنما تمسح أنفاسها على ذقنه . تمنى لو كانت وحيدة ، أو لو ترمي بحملها الى جانبه وتجلس .

تلفت مراراً حتى تراخت كلماتها :

ـ كأنك خائف من شيء ؟

خيل اليه أن رفيقتها تزم شفتيها ساخرة ، فخاطب هيلانة معاتباً :

ـ دائماً تكلمينني هكذا ؟ أنت دائما هكذا . .

ـ زعلت مني المرة الماضية ؟ أنت لاتنسى . ماذا كنت تريدني أن أقول ؟

تناهى صوتها حنوناً في أعماقه ، فالتمعت فرحة صغيرة خجلى . وكانت هيلانة تردف عابسة :

ـ ما لاقوا لك أفضل من البرج ؟

ـ لهذا اذن لم تحاولي الهرب ؟

سأل معابثاً .

ـ اذا نويت لاتستطيع أنت ولاغيرك أن تمنعني .

ردت محتدة وهمت بالسير .

ـ زعلت ؟ ماذا تريدين أن أقول ؟ أليس البرج أفضل من الاصطبل ؟ على الأقل أراك من هناك على هواي .

قال ضاحكا ، فتوقفت هنيهة ثم مشت كأنها تتحدى :

ـ وأنا أيضا أراك . ماذا يعني ؟

لحقت بها رفيقتها ، ولحق بهما خطوات ، وسمعها تسأله :

ـ من أين أنت ياعزيز ؟

ـ ومن أين عرفت اسمي ؟

سألها ظافراً .

ـ قل لي من أين أنت .

ـ سأقول . الأيام طويلة أم لاتريدين أن نلتقي ؟

وحبس لسانه ظهور الحارس العجوز مسرعاً نحوه ، يتغامز ويضحك ، بينما كانت هيلانه تأمر رفيقتها :

ـ عجّلي ، تأخرنا ، وعجوز النحس هذا لسانه مثل المبرد .

أخيراً ضحكت له الدنيا ، ومنّ الله عليه بهيلانه . انغزلت الدنيا كلها حول هيلانة . أشتات مامضى ركنت هادئة وقصية ، وربما حائلة ، في أغوار نفسه العاشقة . ماعاد يعنيه من تلك الأشتات الا مايبدو له منها أنه قد هيأه للقاء هيلانة . وعلى الرغم من أنهما لم يكونا يتبادلان الكلام أو النظر الا خلسة ، فقد كان اللقاء الخاطف يذكي جذوته ، ينفخ في روحه ، يزوق نهاره وليله ، يضاعف بشره فيقبل بود على الجميع ، حتى من لايفتأ من رجال القصر يتجهم في وجهه .

كان اللقاء بها يجعله أيضا يزهو بسرّه ، يطمئن على ماتجمع له من موسمي القمح والذرة . يخمّن ماسوف يكافؤه به البك بعد شهر أو شهرين أو سنة ، واذ ذاك ، سوف ينطلق مع هيلانه بعيداً من هنا . قد يذهبان الى طرابلس . قد يفضّلان اللاذقية ، كي تكون أقرب الى أهلها . بل قد تعرض ضحكة الدنيا وتدوم ، فيعودان الى حمص أو الى الشام نفسها ، ليعيشا في بيت طيني صغير مثل بيت عبد الودود السعد . اذ ذاك سوف يجمع هيلانه بأصدقائه . سوف تقضي هيلانه وقتها بانتظاره مع حُسْن وخديجة ، وقد تكون نجوم الصوان وفياض . وحين توافي الفرصة يزور قبية عزيز وهيلانه ومن يرزقهما الله به أو بها .

لعله كان يضن بنشوته في البداية من أي عكر . فلا يقدر على أن يلمح مايوشح هيلانة في لقاء أو آخر من كآبة . فلما تنبه الى مايعروها مرة من حزن ، ومرة من جفاء ، تشوش ماألف منها ، منذ أول لقاء ، من إباء وتحد أو قوة وشوق . وتعلل لها ولنفسه بما ينبغي أن يفعله الحنين الى الأهل ، أو العيشة الضنكة في القصر، أياً كانت ، أو العشق أيضاً . كان يحلو له أن يقرأ فيها يطرأ عليها بين لقاء وآخر من تبدل ، سؤالا صامتا عما يجيء من أجلها ويعدّ لها . وكان ذلك كله يبعث الدفء في ليالي الحراسة الشتوية القارسة والماطرة ، ويجعل أيامه تمضي بلا حساب ، فاذا بالسماء رائقة ، والهواء أهدأ ، وأزهار المشمش تغمر بالبياض أجناب القصر . وتكتمل الغبطة بتبديل دوره في الحراسة الى النهار .

زادت الشمس من وقفته في البرج عزماً ويقظة . لم تكن هيلانة وحدها مايأسر عينيه وهما تدوران من أعلى البرج في كل مكان . ثمة السهل المخضرّ البهيج، يداعب مايستكنّ في الأعماق من ألفة وحنين الى ربيع قبية ، فيرى عزيز نفسه حملاً وديعاً يعبث في المرج ، أو حماراً فتياً لايهدأ ، ويضج صدره بالضحك من نفسه ومن هيلانة التي لاتكاد تختفي من النافذة حتى تلوح في الباحة أو على السلّم .

شرع ضيوف البك يتوافدون بكثرة كلما اقترب الصيف . وعزيز يفكر في أن ذلك يزيد من شقاء هيلانه والخادمات جميعا . بيد أن إحياء الليل في القصر كان ممتعاً ومسلّياً لمن يراقبه من بعيد ، مثل عزيز ، أو حارس الاصطبل ، أو سواهما ممن لاشأن لهما في الخدمة الليلية . وكما الجميع ، ألف عزيز منذ التحق بالقصر أن يكثر أيضاً توافد نساء الفلاحين ، في الليل أو في النهار ، حين يكون عدد الضيوف كبيراً ، لتكون الخدمة أفضل وأسرع . وقد صار ذلك ضرورياً لعزيز ، اذ يخفف على هيلانة بلا ريب .

يبدو أن واحدة من أولاء الفلاحات قد تأخرت أكثر من مرة في نداء الخدمة . ولعلها لبت وتلكأت أكثر من مرة أيضا . وقد كان ذلك يغفر على كل حال . أو يجرّ عقوبة هينة لها أو لزوجها . الا أن تلك الفلاحة قد تمادت ورفضت الحضور أو اعتذرت عنه مرسلة ابنتها التي لم تتجاوز العاشرة . وكان ذلك في ليلة أعد لها القصر منذ الضحى ، وأحياها مايربو على عشرين ضيفا وضيفة ، بينهم عدد من الفرنسيين والفرنسيات .

سهر القصر حتى الضحى التالي ، ثم غادر الضيوف الصاخبون السكارى ، وشاع أمر الفلاحة التي أرسل عبود بك ثلاثة من المسلحين ليحضروها وزوجها .

قبل أن يستيقظ عبود بك في العصر كان الهمس المشفق أو المتخوف أو الشامت يملأ القصر وماحوله . ثم نودي على العديد من الفلاحين ،وأمر كل من يعمل في القصر بالحضور أيضاً إلى البهو السفلي .

ضاق البهو بالناس . ولم تكن تسمع نأمة رغم الازدحام . أفلح عزيز في الوقوف قرب الباب ، مما أعانه على مشاهدة صدر البهو ، حيث يجلس البك وحده ، وتقف بين يديه الفلاحة .

- تخلعين ثيابك بنفسك أم يخلعها لك زوجك ؟

سأل البك، فشهق الحاضرون جميعاً . وخيل لعزيز أن البك نفسه قد شهق غير مصدق . كما خيل اليه أن المرأة مريضة ، تشكو ألماً أو عجزاً .

- هيا .

دوى أمر البك ، فاصطكت ركبتا عزيز وركبتا المرأة التي تهاوت . اندفع زوجها جاثياً على حذاء البك فيما أنهض أحد المسلحين المرأة . دفع عبود بك الرجل بحذائه، فانقلب على ظهره وحبا قبل أن ينهض ويندس بين الناس المتراصّين . ابتعد المسلح، ووقعت المرأة كأنها ليست مريضة أو لاتشكو من شيء . تلفتت في وجوه الفلاحين وليس في عينيها دمعة .

دوى صوت البك بأمر غامض ، لم يتبينه عزيز ، ولم تصطك ركبتاه له . تقدم المسلح من المرأة وشق فستانها بشدة واحدة . انصلبت يد المرأة على صدرها وسطع ظهرها . حرنت عنق عزيز وعيناه فيما كان المسلح يشق سروال المرأة بشدة ثانية .

غابت المرأة عن عيني عزيز . اشرأبت عنقه ووقف على رؤوس أصابعه . رأى لأول مرة في حياته امرأة عارية . وربما كان وحده لم يطرق أو يغمض . ربما كانت عيناه وحدهما تسابقان يدي المرأة اللاثبتين من صدرها الى فرجها الى أليتيها . ودوى صوت البك :

- تركبها أنت أم نأتي بسواك ؟

اندفع من بين الفلاحين من يفك حزامه ويرمي بقنبازه فوق المرأة وصوته يستغيث :

- كفى يابك . استرها الله يستر عليك .

قذف المسلح بالقمباز فوق الرؤوس ودفع بالرجل الذي بدا بالغ الضمور بقميصه وسرواله الأبيضين . تطوح الرجل حتى ارتمى على الأرض ، فيما اندفع فلاح آخر يستر المرأة بقمبازه كيفما اتفق والمسلح ينازعه والاخرون يهمهمون ، حتى دوى صوت البك :

- اتركها . كرمى لهم اتركها .

أنى كان لعزيز من بعد أن يقدر على أن ينظر في عيني هيلانة أو سواها ممن حوله ، رجالاً أو نساء ؟! حتى عن الكلام عزف ، وقد شاع أنه مريض . لقد فطن فجأة الى أن عبود بك فعل ـ لاريب ـ في هيلانة مثل هذا الذي فعله في الفلاحة التي لم يستطع أن يحفظ اسمها ولاأن يستعيد ملامحها . الفلاحة وجدت من يسترها بقمبازه، أما هيلانة فقد ظلت عارية . الفلاحة وجدت من يشفع لها، أما هيلانة فكانت بلا شفيع ، ومن يدري ، فقد يكون ذلك المسلح نفسه هو من ركب هيلانه أمام الضيوف . قد يكون هو أو سواه ركبوها يوم قبض عليها وعلى وردة ، أو في أيام كثيرة غيره ، قبل أن يعرفها عزيز أو في هذا الصباح . أنى له اذن أن يقدر على الزواج ؟! كيف سيواجه إنْ تزوجها البك أو رجاله أو ضيوفه، وهم الذين سبقوه الى جسدها ؟ ماالفرق بينه وبين عريس الصاج في الزنبقلي ؟ ماالفرق بين عبود بك ورستم آغا ؟

كل ماظل قادراً عليه أن يجلد نفسه، لأنه ضعف ولم يرحل الى طرابلس منذ انتهى موسم الحنطة . وربما طال به ذلك اسبوعاً أو اسبوعين ، وأهزله ، حتى اذا أخذ يصحو ، افتقد هيلانه . وردة وسواها من الخادمات كنّ يظهرن إلا ها . وبعد أن كان الأمر صعباً عليه صار غير محتمل . لم يعد قادراً على أن يتظاهر باللامبالاة . ولم يجده الترصّد من بعيد ، فسعى الى وردة في أول مصادفة له بها وحدها ، وسأل بحنق :

ـ أين هيلانه ؟ ألا تخرج ؟

ـ تخرج .

أجابت وردة فزعة مما به .

ـ لاتكذبي عليّ . أين هي ؟

تراجعت وردة هامسة :

ـ لاتريد أن تراك .

بهت عزيز وناس صوته :

ـ لاتريد أن تراني ؟ صحيح ياوردة ؟

صمتت وردة حزينة ومشفقة ، وأردف ضارعاً لها أن تحتال حتى تأتي بهيلانه الى شجرة الزنزلخت فورا ، واندفع نحو الشجرة دون أن ينتظر جوابا .

تحت الظلال الكثيفة المديدة أقعى ينكث بعود في الأرض ، حتى هبط عليه ظلّها . نهض مباغتاً بالشمس الهاربة والوقت الذي مضى عليه وشحوب هيلانه . طافت عيناه بها فأفزعه اليقين من مرضها وسأل ملهوفاً :

ـ سلامتك ؟
تمتمت وهي تلتفت الى وردة مستنجدة :
ـ اذهب في سبيلك ياعزيز .
ـ وأنت ؟
ـ أنا لي الله . لي جهنّم كلها ألا تكفي ؟
ـ وأنا ؟
ـ اذهب ياعزيز . إن شاء الله ستحظى بمن تستأهلك .
ـ أين هيلانه وصيتها ؟
كانت قد أدارت وجهها نحوه، وجفناها يرفّان كأنها ذبيحة . تقدم خطوة من وردة قائلاً :
ـ أنا أعرف كل شيء . لاتهتمي ياهيلانة . راح الكثير وبقي القليل . .
قاطعته ناحبة :
ـ ياويلك ياهيلانة . .
واندفعت تجري نحو القصر ، واندفعت ورْدة في اثرها تنشج :
ـ اتركها ياعزيز وحياة ربْك . رح واتركها . ياويلك ياوردة من هذا العمر . .

ثانية اختفت هيلانة ، كما لم تعد وردة تظهر وحدها . وعزيز يلوم نفسه على ماخاتله من شكوك ومن ضعف ، اذ فكر بنجاته وحده ، دون هيلانة . كان وهو يتقفى أثرها يرسم كيف سيفرّ بها ، وكيف سينجوان من عبود بك، مهما بلغت سطوته . ولما اطمأن على ماأضمر توجه جهاراً نحو ركن الخادمات ، وربما كانت حنجرته تصدح باسمها دون صوت حين فاجأته :
ـ ما جاء بك ؟ هل جننت ؟

تلفت حوله ، فلم ير سواها .لكن وردة كانت تهمس خلف هيلانة :
ـ ارجع نحو الحائط حتى لايراك . الله يحمينا .
وكانت عينها تشير الى البرج .
ـ آمين . ماقلنا غير ذلك . ولكن تعالي أنت .
قال وهو يتراجع آمراً هيلانة . قالت هيلانة وهي تتقدم منه :
ـ ابن الكلب عينه مفتحة أكثر من عينك .
ـ عينه أو عين البك نفسه . جهنم تأخذ هذه الدنيا كلها . أنت السبب، لماذا تعذبين نفسك وتعذبيني ؟ هي كلمة واحدة ياهيلانة : هل تهربين معي ؟ كلمة واحدة : نعم أو

لا ؟ الآن ينبغي أن أسمعها منك . قولي : نعم أم لا واتركي الباقي عليّ .

التصقت وردة بهيلانة كأنها تحميها منه . وناشدته :

ـ اتركها ياعزيز وحياة ربك . اتركنا ياأخي بحالنا .

علا صوته قاسياً :

ـ ابعدي ياوردة . لابد لنا ان نهرب في يوم من الأيام ، فلماذا ننتظر ؟ ليزيد عذابنا ؟

علا صوت وردة وهي تجر هيلانة الى الخلف :

ـ انتظر رحمة ربك . كلنا ننتظر . رح ياعزيز . رح ولاترجع الى هنا .

وكانت هيلانه تنأى وعيناها تتعلقان به .

ولما بات وحيداً امتلأت عيناه بقفا المراة العارية بين يدي عبود بك ، وقفا الرجل المشويّة بين يدي رستم آغا ، وكان الهواء الغربي يهب أقوى ، مندفعاً نحو الشرق ، يطير بشعر عزيز ونفسه .

★ ★ ★

32

لبد عزيز اللباد أسفل البرج مقهوراً ، وربما كان فياض العقدة ، الهارب الاخر ، أكبر منه قهراً إذْ ذاك ، وهو يخبط في البادية ، يتشمّم رائحة حمص ، من المشرقة إلى مرجمين .

بين مقام عزيز في ذلك السهل المفضي إلى البحر ، ومقام فياض في ذلك المدى البدوي المفضي إلى النهر ، كانت نجوم الصوان كابية في بيت الشهيد ، كما يردد الشيخ رزق ، صباح مساء ، مغدقاً الرحمة على حاتم أبو راسين . وكان نظمي بديّر يزورها لماماً ، والرصاص يدوي في صدرها كما في ليل حمص ، كما الغبار الذي يسفع خد فياض ، أو مثل ذلك النداء المبهم العميق ، الفاجع ، الذي يتصادى في حنايا عزيز ، يأتيه مرة من هاهنا ، ربما من هيلانة ، ومرة من بعيد ، من ذلك الجبل الهاجم على السهل ، من ذلك البحر الذي تأخرت عنه الشام ، أو تأخر عنها ، فتمزقت الأشرعة ، وهي لم تكد تُرخى ، وتاه المترحلون والمهجرون والطامحون بين سيف الرمل هنا وسيف الرمل هناك .

تلك الليلة الطويلة تراءى لعزيز اللباد أنّ شهباً تمرق من الغرب إلى الشرق ، وأخرى تمرق من الشرق إلى الغرب . بعضها يطلع من البحر ، وبعضها يطلع من البر . وعينا عزيز تزوغان في هذا المدار ، فيوحد الله ، ويخشع لشيخ العشيرة المقدس ، لأبيه ، لأرواح المؤمنين التي تضيء المدار . بيد أن القصر شعشع أيضاً ، فأجفل عزيز من عبود بك الرشده ، ومن الفرنسيين . تذكر قائد القشلة في حماه وصبي الفران الذي ضرط ، وخاف من أن تكون هاته الشهب مثل تلك التي رأى في ليالي الصحراء لتوه ، منذ سنتين فقط ، حين كان الانكليز يقصفون ، وبيارق الجيش الميمم إلى الشمال تتلاعب ، والأتراك يفرون ، والألمان يفرون ، وقبية تقترب ، وبشارة يعيد سند الأرض ، وابن الدباس يتباهى بابن اللباد ، وحمادي الحسون يوحد الله ، واسماعيل معلا يلعن الحرب ،

يحلم بعاطف الذي يكرج أمام البيت ، وياسين الحلو يتهيأ للقتال ، فعما قليل ، ربما قبل أن يهدأ القصف ، سيأتي رستم آغا ، أو أيّ من زلمه ، يعيّر الزنبقلي بالنوم ، يسوط هنداً ، يلوح بها عالياً ، ثم يقذفها إلى عشيرتها ، فيندفع ياسين ملاقياً الملازم تحسين شداد ، وخلفه راغب الناصح ، يستحثان ، إذْ صارت الشام أقرب من حبل الوريد .

ومثل أيّ منهم ، في ذلك الأمس القريب أو البعيد ، أو في هذه الليلة الخريفية المبهظة ، كانت الشام تبرق بالأرواح المؤمنة ، بالقذائف ، يدوي الرصاص في صدرها ، أو يسفعها الغبار ، تلوب على النداء المبهم ، العميق الفاجع ، القديم الجديد ، الذي يتصادى في قاسيون ، منذ هشّم الشقيق بالحجر رأس شقيقه ، فطغا الدم ، وفشا الظلم ، وعزّ الهناء .

ربما كانت الدمعة تفلت من عزيز ، وفياض يلجمها في مقلتيه ، ولكن أنّى كان لأي منهما أن يرى ضحكة ياسين الحلو تعرض ، وهو يودع مامضى ، ويقبل على صادق آغا الباعا ، والأمير دشاش ، يتطاير بين تلدف واسكندرون وعين آدم ، مستخفاً بهفل ، كما بسفلو الكردي ، مترحّماً على بيت الجقلة وكيس الطحين الذي ينزّ دماً ، والصّاج الذي يشوي طيز العريس ، والهنادي الذين لازالوا يحنون إلى مصر .

ربما كانت حُسْن ترخي لدمعتها ، والدمعة تفلت من هولو ، وعبد الودود يلجمها في مقلتيه ، أو في حارة الشيخ حسن . ولكن أنى كان لأيّ منهم أن يرى ضحكة عمر التكلي تعرض ، وهو يتطاير بين سليم أفندي والباشا شكيم والخواجة ثابت ، يعفط لهم ، يمد لسانه للست زهرة ، واصبعه الوسطى لسارة ، ويجر خلفه طه اليتيم من الحَرَزة إلى المريجانة ، ومن دمشق إلى أضنه ، من كيليكيا إلى الجولان ، ومن بيروت إلى حمص أو حوران ؟

وحدها كانت تطويهم تحت جوانحها ، تنشد أن تمسح الدموع وتعرض الضحكات ، تود لو تحول دون أنْ يطغى أحد على أحد ، لتفيض بالهناء . لكن أحداً منهم لايدعها تفعل . لا الغريب ولا القريب . كل يريد أن يفصلها على قده . الباشا شكيم يريد أن يجعلها برلين ، والخواجة ثابت يريد أن يجعلها باريس . الست لميعة تريد أن تجعلها لندن ، والمستر بيجيت يريد أن يجعلها مزرعة ، ليقضي فيها الويك اند . بنت قطيش أو أمها أو صليحة يردن أنْ يجعلنها حلبة لأفخاذهن ، والأمير دشاش يريد أن يجعلها إمارة أكبر مما جعل الانكليز في شرقي الأردن ، لحجازي آخر .

الأتراك رحلوا حقاً ، لكنها لم تكد تنهض ، حتى باغتها الجميع : واحد وهو يداري وجعها ، والآخر وهو ينتعظ كلما أدماها . وفيما كان الأتراك يرحلون ، جاء الآخرون من أقصى الأرض ، حيث أرسلت ذات يوم من ينشر رايتها . وبدأ الفرنسيون يقذفون شهبهم ويقصون أطرافها وأوصالها ، يسعون كي ينتزعوها من خد الدنيا ، وهي شامتها الباقية .

هي الآن سورية فيما يقال ، هي دمشق كما صارت الألسن تتعود ، لا ، لقد كانت كذلك دوماً ، ولكنها كانت أيضاً شامة الدنيا التي شهدت ماشهدت ، ولسوف تظل تشهد ، تصبر على القريب وعلى الغريب ، تنسج النصر الذي لم تعرف ، لا على نفسها ولا على غيرها ، منذ عهد سحيق ، تكاد تتوه فيما طلعت به هاتان السنتان ، أو هذان الدهران فبالقدر الذي كان كل شيء يبدو راسخاً وأصيلاً ، تزعزع البنيان ، وتخلخلت الأركان ، وإلا فكيف تفتح خديجة التكلي ساقيها لسليم أفندي ؟ وكيف يتقرب سليم أفندي من الخواجة ثابت ؟ كيف يفكر قاسم السعد بالهجرة إلى أمريكا ؟ كيف يتقلب راغب الناصح بين غالية وصبيحة ودهيبة ، ويلعق ذيل ابن التكلي ويلوي عن الشاويش ؟ كيف تكون دولة دمشق ودولة حلب ودولة الدروز ودولة العلويين ودولة لبنان الكبير أو الصغير ودولة أخرى في فلسطين ودولة سابعة شرقي الأردن ، وسوى ذلك خلف الحدود التي رسموا لها من كل ناحية ، ولم يبق إلا أن يحددوا فوقها للشمس كيف تدور ، وللنجوم كيف تتقد وتنطفيء ، وللشهب كيف تكون أرواحاً نورانية ، وكيف تكون وبالاً ؟!

حرب واحدة إذن لاتكفي ، لا الحرب البعيدة تكفي ولا الحرب القريبة ، لا في العالم المتلاطم ولا على الحدود القديمة والجديدة ، ولا بين الأجناب .

التاج لم يكفها أيضاً ، وليس فقط لم يدَعوه لها . كل التيجان التي تهاوت عن رأسها لاتكفي . ولئن كان السعاة لازالوا يسعون فيها من أجل عرش جديد ، فقد شرع نداء الجمهورية يتردد هنا وهناك ، والأحزاب تتوالد ، وكل يسعى كي يترك علامته ويخلد ، سواء أمات أم لم يزل حياً : من أمير الحج إلى التكلي الكبير ، ومن حاتم أبو راسين ـ الذي قد يكون شبع موتاً مثلهما ـ إلى الآخرين الذين تساوى لديهم الموت والحياة ـ وربما كان كذلك فياض المنفرد في البادية ، وعزيز المنفرد أسفل البرج .

كل واحد منهم كان يتناهب صدرها ، كي يحفر علامته ويخلد . وربما استوى في ذلك عمر التكلي مع راغب الناصح أو ياسين الحلو ، أما ماكان يفعل الباشا شكيم

وسليم أفندي البسمة ـ وقد يكون شبيهاً بهما ابن الأكاشي أو الست لميعة . . ـ فهو محير ولو إلى حين ، أقل صراحة وأكبر غواية ، أبعد مطمحاً وأعقد . وهي ، الشام الباقية ، الصابرة المصابرة ، تكاد تنوء بكل منهم ، تكاد تنوء بهم وحدهم ، فكيف وقد اجتمع عليها معهم الفرنسي والانكليزي واليهودي !؟

إنها الشام ، من مزرعة إلى شركة ، ومن دكان ، إلى غانية ، تميل عمن يحفر فيها هذه العلامة أو تلك ، تتخلق صواناً أو رملاً يغسله الزبد ، تحدب على الذين أثخنتهم الجراح ، ومزقت أفئدتهم ـ قبل جلودهم ـ السياط ، وهم لايرومون إلا أن يعيشوا ، بلا عنتٍ من أحد .

إنها الشام ، ترسل نسمتها في القصور والأكواخ والخيام ، بين البحر والنهر ، من الرمل الرطب دوماً إلى الرمل الجاف دوماً ، تأسى لأن بعضهم يلاقي النسمة كأنها لأنفاسه وحده ، فتنفلت منه ، وإنْ يكن الأمير دشاش أو عبيده ، الأمير مجلاد أو ابنه ، وقد تنقلب عصفاً بالبيت الطيني الصغير الذي يؤوي مسلم دحّه ، وتذرو أوراق هشام الساجي ، مادام يعجز أن يكتب مايخصها، أو مايخصه ، كي يخصها .

وهكذا ، من هذا الخريف المبكر إلى شتاء وشيك وقابض ، تدور ، تتطلع من فجر القرن ـ ربما ـ إلى غروبه ، يزخر فضاؤها بأولاء البشر الذين يتجددون به ، وبهم يتجدد . ومن عتمة أو ضياء إلى عتمة أو ضياء ترسل أشرعتها ، تمخر بهم ، فذاك عيشهم وتلك حكايتها ، تهدي الحائرين ، وترمق الموجوعين ، وترمي الرأس الذي لايرعوي بحجر آخر وأكبر ، كيلا يهشم من بعد شقيق رأس شقيقه ، أياً كان ، وأنى كان ، وتمضي تتشوف المجهول القريب والبعيد .

★ ★ ★

يلي
بنات نعش

روايات للمؤلف

- مدارات الشرق ـ بنات نعش
- ينداح الطوفان
- السجن
- ثلج الصيف
- جرماتي ، أو ملف البلاد التي سوف تعيش بعد الحرب .
- المسلّة
- هزائم مبكرة
- قيس يبكي .

الايداع القانوني

مدارات الشرق ، الأشرعة/ نبيل سليمان .
ـ اللاذقية : دار الحوار ، 488 ص ؛ ٢٥ سم .

١ ـ ٨١٣,٠٣٠٠٩٥٦١ س ل ي م ٢ ـ العنوان ٣ ـ
العنوان البديل ٤ ـ سليمان

مكتبة الأسد

ع ـ ١٩٩٠/٣/٣٠٥